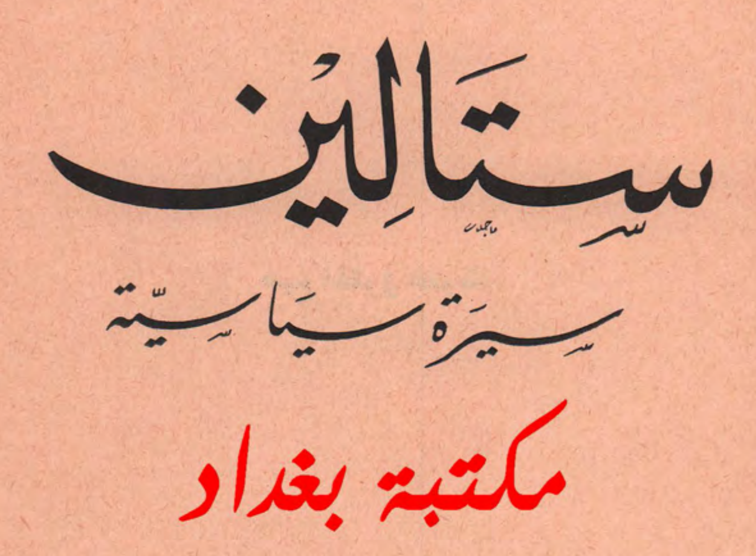
اسحق دُويتشر



ترجمة

فوّاز طرابلسي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الطبعة الاولى
تموز (يوليو) - ١٩٦٩

الفصل الأول

الطّفولة والشّباب

والدا ستالين : فيساريون دجوغا شفيللي وإيكاترينه غيلادز . - ولادة يوسف دجوغا شفيللي ستالين عام ١٨٧٩ ؛ طفولته ؛ أيام دراسته في غوري في مقاطعة جيورجيا (القفقاس) . - تأثير البيئة الجيورجية . - الروس والجيورجيون - . ستالين في الكلية الكهنوتية في تيفليس عام ١٨٩٤ - ١٨٩٩ . - النضال الجيورجي ضد « الروسنة » . - ستالين ينشر أشعاراً له لأول مرة عام ١٨٩٥ باسم « سوسيلو » (تصغير يوسف) . - قراءات لكتب منوعة . - الانضمام الى « ميسامي داسي » (الفئة الثالثة) عام ١٨٩٨ . - الثورة الصناعية في القفقاس . - فترة تدريب ستالين كداعية اشتراكي . - طرده من الكلية الكهنوتية . - آثار العبودية .

في عام ١٨٧٥ ، او ربما قبله بعام او عامين ، غادر شاب قفقاسي يدعى **فيساريون ايفانوفيتش (ابن ايفان) دجوغا شفيللي** قريـــة « ديدي – ليلو » قرب تيفليس ، عاصمة القفقاس ، ليستقر في « غوري » وهي بلدة صغيرة في جيورجيا، حيث فتح محترفاً صغيراً لصنع الاحذية . كان فيساريون دجوغا شفيللي ينحدر من عائلة من الفلاحين لم تتحرر من القنانة إلا لعشر سنين خلت . قد وُلد عبداً متنقلاً عند مالك ارض جيورجي . ولو انه ظل على حاله تلك ، لمـــا تمكن من مغادرة قريته ليصبح حرفياً مستقلا . بالتأكيد لم تسنح مثل هذه الفرصة لأي من اجداده . كانوا مقيّدين بالارض ، ينتقلون من مالك ارض لآخر في احسن الاحوال . وحتى في ايام طفولة فيساريون ، كانت الصحف الجيورجية لا تزال تنشر الاعلانات التي يعرض فيها ملاك الارض بيع او شراء ٥٠٠ او ١٠٠٠ دونم ارض تضم من خمسين الى مئة شخص . وكانت تجارة العبيد مليئة بالغشّ ، ففي ملفّـات المحاكم الجيورجية قصص عديدة عن بيع العائلة الفلاحية الواحدة من ثلاثة مشترين او اكثر في آن واحد .

لا بدّ اذاً من ان يكون فيسّاريون قد غادر قريته تغمره نشوة الامـــل . لقد اصبح رجلاً حراً ، وهو يأمل بأن يلاقي بعض اليُسر في عمله كحذّاء مستقل . وقـــد تزوج في غوري من فتاة تنتمي الى مثل اصله المتواضع : **ايكاترينا** ، ابنة الفتى **جورج غيلادز** من قرية « غامباريويللي » . وربمـــا نزحت ايكاترينا الى المدينة ، كالعديد غيرها من بنات الفلاحين الفقراء، وعملت خادمة عند عائلة ارمنية او روسية من عائلات الطبقة الوسطى . فالطبقات الوسطى في القفقاس مكوّنة من الروس او الارمن او اليهود . إذ ان البرجوازية الجيورجية شبه معدومة، والجيورجيون إما ان يكونوا نبلاء وإما ان يكونوا من الاقنان . وكانت ايكاترينا في الخامسة عشر من عمرها عندما تزوجت من فيساريون دجوغا شفيللي .

وليست مثل هـذه الزيجات المبكرة بنادرة في بلد ينضج سكانه بالسرعة التي تنضج فيهـا العناقيد تحت الشمس شبه الاستوائية . وسكن الزوجان منزلاً حقيراً في ضواحي غوري يبلغ ايجاره روبلاً ونصف الروبل بالشهر * ، ويتكون من غرفة واحدة ومطبخ . الغرفة معتمة لا تتعدى مساحتها خمسة أذرع مربعة ، لا يدخلها إلا نور شحيح من كوة صغيرة . ويؤدي بابها الى باحة جرداء يتسرب منهـا الوحل والماء في الايام الممطرة ، لأن ارض المسكن بمستوى الباحة ، لا تفصلهما اية درجات . الارضية من القرميد العادي. ويتكون كل الاثاث الذي تملكه العائلة من منضدة صغيرة وكرسي وأريكة وسرير خشبي عليـه فراش من القش . وقد تحوّل مسكن آل دجوغـا شفيللي حالياً الى متحف تؤمه جموع السياح ، ومثله تحوّل محترف فيساريون دجوغا شفيللي الصغير حيث كرسيه المخلّع القديم ومطرقته وقوالبه .

وفي ذلك المسكن المعتم الذي يبلغ ايجاره روبلاً ونصف ، وضعت ايكاترينا ثلاثـة مواليد بين الاعوام ١٨٧٥ و ١٨٧٨ . لكنهم ماتوا جميعاً بعد ولادتهم بقليـل . ولم تكد ايكاترينا تبلغ العشرين من عمرها ، حتى وضعت مولوداً رابعاً في الحـادي والعشرين من كانون الاول عام ١٨٧٩ . وشاءت الاقدار ان يشبّ هذا الطفل ليصبح جنيناً طافحاً بالعافية ، صلب العود ، وقوي الارادة . وسُمّي يوسف يوم عمادته ؛ وهكذا سجّل القس الارثوذكسي مجيء **يوسف فيساريونوفيتش دجوغا شفيللي** الى هذا العالم ، الذي سيشتهر فيما بعد باسم **يوسف ستالين** .

* * *

لسنا نعرف الكثير عن طفولة ستالين . اصيب بالجدري في السادسة او السابعـة ، وترك هذا الداء آثاره على وجهه . وداهمه المرض ثانية عندما اصيب بالتهـاب في الدم من جراء دملة في ذراعه الأيسر . ويتذكر انه شارف على الموت آنذاك ، فيقول بهذا الصدد الى اخت زوجته ا. س. اليلوييفا : « لستُ ادرى مـا الذي انقذني في ذلك الحين ، اهو بنيتي القوية ، ام المرهم الذي وصفه لي دجـّال القرية » . وعندما شفي ، صار يصعب عليه

---

* يساوي الروبل حالياً ٦٠ غرشاً لبنانياً تقريباً (المترجم) .

ثني ذراعه الأيسر عند المرفق . وبسبب هذه العاهة البسيطة ، اعتبر « الماريشال » المقبل غير صالح للخدمة العسكرية عام ١٩١٦ .

شبّ يوسف دجوغا شفيللي وسط القذارة والبؤس اللذين ولد فيهما . حاول فيساريون الارتقاء الى مصاف القطاع الادنى من الطبقة الوسطى ، فلم يفلح . ولم يكن عمله كحذّاء ليسدّ حاجاته المعيشية ، فكان على زوجته ان « تكدح ليلاً نهاراً لتتدبر الأمر ... فاضطرّت الى العمل كغسّالة » ، وأخذت تدفع الروبل والنصف بدل الايجار ممّا تكسبه . وقد استخلص بعض كتّاب سيرة ستالين من ذلك ان فيساريون كان ينفق المال القليل الذي يكسبه على الفودكا. ولهذا الاستنتاج بعض الاساس في ذكريات زملاء ستالين في الدراسة . والسُكر يكاد يكون احد الامراض المهنية الخاصة بالحذّائين ، والقول « سكران مثل حذّاء » يرد في معظم لغات اوروبا الشرقية . وقيل ايضاً ان فيساريون كان سيء الطبع تجاه زوجته وطفله . كتب ايريما شفيللي ، احد اصدقاء ستالين في طفولته : « ان الضرب المبرح وغير المستحق الذي تلقّاه الابن جعله عبوساً وقاسي القلب مثل ابيه » . وكانت اسلحته في الدفاع عن نفسه ضد قساوة والده الشك ، واليقظة ، والتحايل ، والنفاق ، والصمود . فقد علمته الحياة ، منذ سن مبكرة ، دروساً وبعض « الحيل الحربية » سوف تفيده لاحقاً .

ولعل صورة السكّير الارعن لا تفي فيساريون دجوغا شفيللي كل حقه . فلا بد انه كان يتمتع ببعض الخصال الاخرى ، منها الإقدام والفضول حول شؤون العالم . ولولا ذلك لما استبدل سليل الاقنان حياة قريته الراكدة بحياة المدن المحفوفة بالمخاطر . ان عبارة « الحذّاء الفيلسوف » شائعة في اوروبا الشرقية بقدر شيوع عبارة « الحذّاء السكّير » . ويشير كلا النعتين الى ميول مهنية غالباً ما تتلازم . والارجح ان ستالين قد ورث ذهنه المفكّر عن ابيه ، ولقد اشار هو نفسه الى الصراع الداخلي الذي دفع بوالده الى التصرف بفظاظة ومرارة وعنف تجاه عائلته . فبعد إخفاقه كحرفي مستقل ، غادر فيساريون وعائلته بلدة غوري متجهاً صوب تيفليس حيث اشتغل عاملاً في مصنع احذية يملكه شخص يدعى اويلخانوف . ويبدو ان عمله الجديد كان مُهيناً بالنسبة له ، فهو الذي يطمح الى ان يكون سيد نفسه ، وجد انه قد استبدل عبودية الارض بعبودية الأجر . فناضل ضد وضعه هذا قدر المستطاع ، بالرغم من انه لم يعد مُعيل عائلته . والارجح ان

ذلك هو مصدر سرعة غضبه وتهوّره . في احد منشوراته الاولى ، فسّر ستالين نقطة من نقاط النظرية الماركسية بالاستشهاد بابيه ، فكتب يقول :

« تصوّروا حذّاءً يملك محترفاً صغيراً ، لكنه عاجز عن مواجهة منافسة رأس المال الكبير ، فيغلق هذا الحذّاءُ محترفه ، ويؤجر نفسه لاويلخانوف مثلاً في مصنع الاحذية في تيفليس . وهو لم يدخل مصنع اويلخانوف ليبقى عاملاً الى الابد ولكن ليوفر بعض المال ، ليراكم بعض الرأسمال ، ويعيد فتح محترفه . وكما ترون فبالرغم من ان هذا الحذّاء يعيش في وضع بروليتاري ، نجد ان وعيه لم **يصبح بعد** وعياً بروليتارياً ، وانما هو وعي برجوازي صغير صرف » .

ما من شك في هوية الحذّاء الذي يستشهد به الكاتب في موضوعته هذه . ان المحترَف الصغير ، وسوء الطالع في العمل ، وحتى اسم رب العمل الجديد — كل هذه جزءٌ من قصة فيساريون . والسبب الذي ادى الى حرف عقل نيساريون هو التضاد بين وضعه الاجتماعي وبين طموحه « البرجوازي الصغير » .

ولم يتمكن فيساريون من تجميع بعض الرأسمال لاعادة فتح محترفه . وتوفي في تيفليس عام ١٨٩٠ وولده لم يبلغ بعد الحادية عشر من العمر . والارجح ان موته لم يبدّل من وضع العائلة المادي ، لأن الارملة الغسّالة كانت قد اعتادت على كسب لقمة العيش لها ولولدها . وقد تلاشت صورة الأب المتوفي في ذهن يوسف فيما بعد — فما كاد يذكره بكلمة . والارجح ان ذكريات « الضرب المبرح » هي السبب في سكوت ستالين وكتّاب سيرته الرسميين حول موضوع فيساريون .

اننا نعرف عن ايكاترينا دجوغا شفيللي اكثر بكثير مما نعرف عن زوجها . انها لا تكاد تختلف عن ذلك الجمع الكبير من معاصراتها ، اولئك اللواتي قال عنهن الشاعر الروسي :

يخبىء القدر ثلاث مصائب

الاولى ان تتزوج المرأة من عبد

والثانية ان تكون اماً لابن عبد
والثالثة ان تطيع العبد حتى الموت .
وقد حلّت هذه المصائب الرهيبة كلها
بالمرأة الروسية .

كانت ايكاترينا تتميز بخنوع الفلاحة الشرقية وبصبرها الذي لا يُحدّ . تحملت ما حل بها بشجاعة ، دون ان تضمر الحقد على زوجها . ووجهت كل عطفها نحو ولدها الوحيد . وكانت بالغة التقوى ، تجد في الكنيسة عزاءها الوحيد ايام المحن . وكانت امّية . ولم تبدأ بتعلم القراءة والكتابة الا في كهولتها ، لكي يستحقها ابنها المشهور. وقد اعترف لها جميع من عرفها ، وباعجاب ، بـ « وقارها الهادىء المنضبط الذي يكتسبه المرء بعد حياة من المتاعب لا تفلح مرارتها في حرف طبعه » . ظلت « بابوشكا كيكي » (الجدّة كاثي) فلاحـة متواضعة حتى بعد صعود ابنها . وعندما امضت بعض الوقت معه في الكرملين عاودها الحنين الى محيطها الاكثر الفةً في القفقاس المشمسة ، فعادت . إلا انها حاولت ، بطريقتها الهزلية والمؤثرة في آن معاً ، ان تلعب دور والدة رجل عظيم . وتروي اليلوييفا كيف انها قابلت ذات مرة السيدة دجوغا شفيللي العجوز في « بورجوم » ، نبع الميـاه المعدنية في القفقاس ، وإذا هي ترتدي الاسود بالرغم من الحر الشديد . ولمّا سألتها عن سبب ارتدائها لتلك الثياب المزعجـة ، اجابت العجوز : « واجبٌ عليّ ... الجميع هنا يعرف من انا » .

حقاً ، كان قراراً بطولياً ذلك الذي اتخذته ايكاترينا بارسال ابنها ، وهو في التاسعة من عمره ، الى المدرسة الاكليركية في غوري . لم يكن غريباً على ابناء العائلات الفقيرة ان يصبحوا حذّائين او مساعدي نجارين في ذلك السن ، الا ان هذه لم تكن المهنة التي اختارتها ايكاترينا لابنها بالرغم من انها لو فعلت ذلك ، لخففت عنها بعض العبء المالي ، الا انها كانت تريد « يوسفها » ان ينجح حيث اخفق فيساريون ، وان يرتفع فوق وضع اهله المتواضع . وعندما كان يجنح بها الخيال ، فما من شك في انها كانت تراه قسّاً للرعية

يحيّيه الجيران باحترام . كان المشروع رائعاً – الى بضع سنوات خلت ، لم تكن المدارس الاكليركية مفتوحة امام ابناء الفلاحين .

ذهب « سوسو » الى مدرسة غوري لمـــدة خمس سنوات ، من ١٨٨٨ الى ١٨٩٣ . وكان ، في العادة ، بين التلامذة الأُول ، لا بل التلميذ الاول في صفته . وسرعان ما لاحظ الاساتذة والزملاء ان الصبي الفقير الذي يحمل آثار الجدري على وجهه يتمتع بذاكرة خارقة ويحفظ دروسه بدون اي عناء تقريباً . ولاحظوا ايضاً نزعته الى تأكيد الذات ، وشغفاً عنده بالتفوق على الآخرين اخذ يتزايد مع تزايد وعي سوسو لانتماء معظم زملائه الى عائلات اغنى من عائلته ، ولكون بعضهم ، من الواعين لهذا الفارق ، ينظر اليـــه باحتقار . الا انه كان سبّاقاً في قـاعة الدرس حيث يتلو دروسه بسهولة لا يتمتع بها ابناء تجار الخمر والحنطة المدللين ، مثلما كان سبّاقاً في الملعب بخفة حركته وإقدامه . فسرعان ما استسلم هؤلاء لأوامر ابن الحذّاء . في هذه المدرسة المغمورة ، التابعة للرعية ، ذاق ذلك الذي سيسمّى ستالين طعم التمايز والحقد الطبقيّين لأول مرة .

وهنـــاك ايضاً احتك بمشكلة سوف تشغله في رجولته – مشكلة الاقليات القومية . كانت لغة آل دجوغا شفيللي الاصلية هي اللغة الجيورجية . إيـكاترينا تجهل الروسية ، والارجح ان زوجها كان في مثل وضعها . وكانت الدروس تُلقَّن باللغة الروسية ، ولم يكن المنهـاج يسمح باكثر من بضعة دروس بالجيورجية كل اسبوع . واستوعب سوسو اللغة الاجنبية باليسر الذي يميز من هم في مثل سنه . ولكنه ظل يتكلم الجيورجية خارج المدرسة وفي البيت . وكانت اللغات التي يتكلمها بعض زملائه هي الارمنية والتركية وبعض اللهجات القفقاسية . كانت اللغـــة الروسية هي وحدها السائدة في المدرسة على حساب اللغات واللهجات الاجنبية الاخرى . وأثارت سياسة الروسنة هذه التي تنتهجها الحكومة الكثير من المرارة في اوساط الطلبة الى حد دفع بالصبية بين العاشرة والعشرين من عمرهم الى الاضراب والتظاهر دفاعاً عن لغاتهم الاصلية . وانتشرت اعمال العنف في مدارس جيورجيا طوال السبعينات : التلامذة يهاجمون الاساتذة الروس ويشبعونهم ضرباً ويضرمون النار في المدارس . لم يحدث شيء من هذا القبيل خلال وجود ستالين في مدرسة غوري ، ولكن لا بد من انه كان يوجد تذمر ضامر .

وقد لعبت الطبيعة والتقاليد وفولكلور بلدته دورها في التأثير على هـذه الفترة من حياته . تقع غوري عند ملتقى ثلاثة اودية خصبة مزروعة قمحاً وعنبـا . الصخور في خراج البلدة ، ضفاف نهر « كورا » والانهر الاخرى ، جدران الحصن البيزنطي القديم ، والحقول الممتدة بين الازقة الضيقة في البلدة نفسها – التي هي نصف قرية ونصف بلدة – كل ذلك وفـّر لصبيّنا مجالاً يلعب فيه بحرية ويأوي اليه هرباً من مسكن عائلته الباعث على الضجر . وعوضت الطبيعة نفسها لذلك الشاب ، ساكن الاحياء الفقيرة ، بعض الشيء عن رتابة وتفاهة منزله . فالريف يعج بالحيوانات والطيور والنبات والثمر – فلا عجب ان يظن البعض انـــه موطن « النعمة الذهبية » . وقد اسهمت تلك المحيطات الصحية في تكوين بنيـة ستالين القوية . وكان الريف غنياً ايضاً بالقصص والاساطير . فالاسكندر الكبير وجنكيز خـــان قد حاربا فيه . وحكايا الهجمات الفارسية والتركية تملأ الكتب المدرسية . وتحـكي الاغاني والقصص الشعبية عن قطـّاع الطرق القفقاسيين المشهورين . وغالبـــاً ما كانوا يتحولون في القصص الشعبية الى ابطال وطنيين وشعبيين : نبـــلاء جيورجيون قاتلوا ضد القياصرة الروس ، او قادة اقنان اخذوا بثأر الشعب ، يعطفون على الفقراء والمدقعين ويضمرون للاغنياء حقداً لا يرحم . مخابئهم القمم المغطاة بالثلـج ، والمغاور بين الصخور ، من حيث ينقضّون على الطرقات ليحاصروا اعداءهم ويهزمونهم . ولم تكن تلك الاقاصيص الشعبية بعيدة جداً عن الحقيقة . ففي تلك الايام ، كانت المنطقة المحيطة بغوري تغص بقطاع الطرق . كان ثمة جموع من صغار النبلاء الجيورجيين المفقـرين لا يملكون وضعاً اجتماعياً معيناً ولا مداخيل ثابتة ولكنهم يعيشون ذهنياً في عالم متلاشٍ من العصبية العشائرية والنزاعات ، وغالباً ما يشتبكون في غزوات ضد بعضهم البعض او ضد جماعات اخرى تكون قد مسّت كرامتهم او استجلبت عداءهم لسبب او لآخر . فتمتلىء المنطقة كلها باخبار الغزو والشجاعة التي تشارف على السرقة مع انها لا تفتقر الى الجواذب الرومنطيقية . وكان الصبيـة يتمثلون باقران « روبن هود » هؤلاء وهم يلعبون « عسكر – حرامية » فوق صخور غوري وحقولها .

وهكذا ، فلم تكن كل السنوات الخمس التي قضاها دجوغا شفيللي الشاب في غوري مليئة بالشقاء . على انه بدأ يعي ، منذ ذلك السن المبكر ، الظلم الاجتماعي الذي جعـل منه ، في السنوات اللاحقة ، المتمرّد والثوري الذي نعرف . ويستحيل علينا قياس عمق هذا الوعي . ان كتـّاب السيرة السوفييت الرسميين وكتاب المذكرات يدّعون ان بطلهم

انجز قراءة داروين في غوري وأصبح ملحداً . ثمة شك في انه تمكن من قراءة داروين في ذلك السن المبكر . ولكن من المحتمل ان يكون قد كوّن فكرة غامضة عن النظريـــة الجديدة من خلال تلخيصات شعبية لها ، فارتدّ عقله عن الدين . وما من شك في تطوره العقلي المبكر ، ففي عام ١٨٩٥ ، اي بعد عام واحد على مغادرته مدرسة غوري ، نشر الأشعار في احدى المجلات الجيورجية الواسعة الانتشار . ويبدو انه بدأ بكتابة الشعر في غوري . ويدّعي كتاب سيرته الرسميون انه اطلع على الافكار الماركسية وهو لا يزال في تلك البلدة . ولكن ذلك بعيد الاحـــتمال : فلم يكن للماركسية في ذلك الحين الا بعض المؤيدين في تيفليس ، عاصمة منطقة عبر القفقاس ، ولا يمكن ان يكون نفوذها قد امتد الى مدرسة غوري . ان المصفـّقين لستالين يتسرعون في إرجاع « ارثوذكسيته » الماركسية اللينينية حتى الى طفولتـــه . ولا تسمح الاحداث اللاحقة إلا بتقديم الفرضية التالية : غادر دجوغا شفيللي الشاب مدرسة غوري ونفسه مليئة بالتمرد ، يمتزج فيهـــا الاحتجاج على الظلم الاجتماعي بالوطنية الجيورجية شبه الرومنطيقية . وخلال وجوده في الصفوف العليا ، كان الحنين القومي الذي يملأ الشعرَ الجيورجي يجذبه اكثر من اية افكار اجتماعية . يقول فانو كيتز خوفيللي ، احـــد زملائه في الدراسة : « تعرفنا على الادب الجيورجي ونحن في الصفوف العليا بمدرسة غوري، ولكننا كنا نفتقد الى من يقود تطورنا ويوجه افكارنا في وجهة محددة . ان قصيدة« كاكو ، قاطع الطريق » لشافشافادز تركت اثراً عميقاً في نفوسنا . وأيقظ ابطالُ كازبيجي حب الوطن في قلوبنا الفتية . وهكذا ، كنا جميعاً توّاقين الى خدمة بلدنا عند مغادرة المدرسة . ولكن لم يكن احدٌ منا يملك فكرة واضحة عن شكل هذه الخدمة » . وبسبب حرص دجوغا شفيللي على اخفاء ارائه المتمردة عن اساتذته ، فقد اعتبروه تلميذاً مثاليـــاً وساعدوه على مواصلة الطور اللاحق من دراسته .

وكان هذا الطور اللاحق في الكلية الكهنوتية في تيفليس ، في خريف عام ١٨٩٤ ، وبدا وكأن حلم والدته سوف يتحقق . وبما ان الغسالة المسكينة كانت عاجزة عن اعالته في الكلية الكهنوتية ، حصل له رئيس مدرسة غوري وقسّها على زمالة دراسية . ولا شك ان الافق الذي انفتح امام الصبي قد شجّعه . فمجرد الانتقال من البلدة الصغيرة الحالمة الى عاصمة القفقاس الصاخبة يبعث على الدوار . في سن الخامسة عشر ، كان يوسف يتمتع بالنضج الكافي ليدرك امتيازات هذا الوضع غير المتوفرة لأبناء الفلاحين لسنين خلت . ولا

شك في انـــه قطع الاميال الاربعين الى تيفليس يغمره شعور عارم بتقدمه الاجتماعي ، شعور حقيقي اكثر بكثير من ذلك الذي خامر والده خلال رحلته من ديدي – ليلو الى غوري لعشرين سنة خلت .

* * *

مكث في الكلية الكهنوتية من تشرين الاول ١٨٩٤ الى ايار ١٨٩٩ . وكانت تلـــك السنوات سنوات تكوينية حاسمة بالنسبة لتطوره الفكري . فما هي العوامل العميقة التي ستؤثر في ذهنه من الآن فصاعداً ؟

في العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، كانت مشكلتان تحركان المجتمع الجيورجي : العلاقات الجيورجية – الروسية ، ونتائج الغاء الرق في القفقاس .

كانت روسيا القيصرية تحتل القفقاس وتدعّم احتلالها طوال قرن. وفقدت جيورجيا استقلالها نهائياً بعد ان كانت تابعة لروسيا منذ ١٧٨٣ . فكان مصير الجيورجيين مشابهاً ، في بعض جوانبه ، لمصير البولونيين . الا انهـــم لم يقوموا بمحاولات جدية للانفصال عن روسيا ، وهم بذلك عكس البولونيين الذين حملوا السلاح للنضال من اجل استقلالهم مـــع طلوع كل جيل . فالشعور المعادي للروس عند الجيورجيين ممتزج بلا مبالاة نسبية للأماني القومية . ويتميـّـع حقدهم على روسيا نتيجة وعيهم ان الجيورجيين لا يملكون وسيلة الاحتفاظ بالإستقلال على كل حال، وان روسيا هي الأقل خطراً من بين الذين قد يجتاحون جيورجيا . فقد استسلم آخر الملوك الجيورجيين الى القيصر الروسي عندمـــا هددت تركيا وايران باحتلال البلد . وارتهن هـــذا الاختيار باعتبارات دينية ، فجيورجيا تنتمي الى الكنيسة الارثوذكسية ، شأنها في ذلك شأن روسيا . وكان القفقاس ، بالنسبة للروس ، حصناً ضد الامبراطورية العثمانية لا تفوقه اهمية في ذلك إلا البلدان المحيطة بنهر الدانوب . وقد شيّدت روسيا الطريق العسكرية الكبيرة في جيورجيا تليها شبكة سكك الحديد القفقاسية فأثارت بذلك تقـــدم المنطقة الصناعي . وكانت تلك وليست هذه إلا السمات المعوضة عن مساوىء السيطرة الروسية .

اما السمة الاخرى ، فهي تأثير روسيا الثقافي على جيورجيا . فبالرغم من اعـتزاز الجيورجيين بحضارتهم العريقـة ، الاقدم من الحضارة الروسية ، كانت نظرتهم الى الحياة هي نظرة مجتمع شرقي شبه قبلي وشبه اقطـاعي . فكانت روسيا بمثابة اوروبا بالنسبة لجيورجيا . كتب المؤرخ ج. خاشابوريدزه : « بفضل تأثير الحضارة الاوروبية الغربية ، والروسية منها خاصة ً ، تسرّبت العادات والتقاليد الاوروبية الى حياة الطبقات العليا في جيورجيا » . كانت سياسة القياصرة مليئـة بالمتناقضات . فالروس يعملون على روسنة جيورجيا من جهـة ؛ ويحاولون ، من جهة اخرى ، كسب ولاء النبلاء والاكليروس الجيورجيين . ُنفيت آخر العائلات الجيورجية المالكة الى روسيـا الوسطى وسيبيريا ؛ ولكن افسح المجال امام ابناء الملوك المنفيين لتقديم خدمات ثقافية جلـّى لشعبهم انطلاقاً من سان بطرسبرغ . فأصبح بعضهم ، كالاخوة باغراتيوني مثلاً ، المتكلمين باسم « النهضة » الجيورجية ، فأقدموا على ترجمة العديد من الاعمال الادبية الاوروبية الى اللغة الجيورجية ، وعرّفوا المجتمع الروسي على الادب والتاريخ الجيورجيَين . وبلغ ذلك حداً دفع بالقيصر نقولا الاول الى ان يعيّن تايموراز باغراتيوني عضواً فخرياً في الاكاديمية الامبراطورية .

وقـد رافق هذه التأثيرات انتشار الافكار الثورية الروسية في القفقاس . فالرجل الذي احتل المقاطعة لحساب القياصرة هو الجنرال يرمولوف ، بطل معركة بورودينو عام ١٨١٢ . وكان «حاكم القفقاس» هذا يميل الى «الديسمبريين» ، قادة التمرد الليبرالي في سان بطرسبرغ في كانون الاول ١٨٢٥ . فآوى الكتـّاب ممن كانت لهـم علاقات بالمتمردين من امثال بوشكين وغريبو ييدوف ، الذي كان وزيره ومستشاره السياسي ، وبيستوجيف (مارلينسكي) وآخرين . ونـُقل فوج بأكمله من الافواج الـتي شاركت في التمرد الى القفقاس ، وهناك خدم العديد من الضباط — المثقفين كأنفار عاديين . واتصل المنفيون بالقلة المتعلمة من الجيورجيين وأثـّروا فيهم تأثيراً بالغاً . وكانوا يؤيدون القومية الجيورجية طبعاً ؛ ولـكونهم اكثر تقدماً من اصدقائهم الجيورجيون ، دعوا الى تحرير الفلاحين الجيورجيين .

مهّدت هذه الاتصالات المبكرة لتأثير متواصل تمارسه الافكار الليبرالية والثوريـة الروسية . وقد أسهم القياصرة في ذلك اسهاماً كبيراً — ولكن عن غير قصدٍ — باختيارهم القفقاس مركزاً لنفي المجرمين السياسيين . وهكذا ، فان كل جيـل جديد من الثوريين الروس ، وكل فوج من الافـكار الثورية كان يظهر في تيفليس وكوتايس وسائر مدن

المقاطعة . وتوافد النارودنيون والاشتراكيون الزراعيون من الارستقراطية الروسية والموظفين ، بعد المتمردّين العسكريين والكتّاب في القسم الاول من القرن . ثم جاء الثوار البولونيون والارهابيون الروس ، ولحق بهم ، في اواخر القرن ، نمط جديد من الثوريين : عمال المصانع من الماركسيين المبعَدين من أواسط روسيا . وكان بين هؤلاء ميخائيل كالينين ، رئيس الاتحاد السوفييتي المقبل ، وسيرجيو اليلوييف ، المنظِّم البلشفي وحمو دجوغاشفيلي — ستالين .

بينما كانت المعارضة الروسية تصدِّر أراءَها المتقدمة الى القفقاس ، كان القياصرة يبذلون ما بوسعهم للابقاء على البنية الاجتماعية للبلد على قدر من التأخر لا يفرِّط بالمصالح الروسية على المدى البعيد . أُلغي الرق في روسيا عام ١٨٦١ . وتأخر تحرير الفلاحين الجيورجيين الى الاعوام ١٨٦٤ — ١٨٦٩ ، وحتى الى ابعد من ذلك ؛ وظل الرق ، على شكل «عبودية مؤقتة» موجوداً في جيورجيا حتى عام ١٩١٢ . وعمدت الادارة الروسية على تأخير الاصلاح لاهتمامها بالمحافظة على تأييد النبلاء الجيورجيين لها . لكنها اضطرت الى تدارك الامر عندما انتشرت أخبار تحرر الفلاحين الروس في الريف القفقاسي . الاقنان في حالة تمرد ، ولم يكن من الحكمة تأجيل تحريرهم نظراً للتاريخ الطويل من الثورات الدامية التي قاموا بها . إلا ان الاصلاح هناك كان لمصلحة ملاّك الارض اكثر مما كان في روسيا . صحيح ان الفلاحين نالوا الحرية الشخصية ، ولكنهم حُرموا من حوالي نصف الاراضي التي كانت بحوزتهم ايام القنانة . وفُرضت تعويضات على الاراضي التي أُبقيت لهم عجزوا عن دفعها . وكانت تبعية الفلاحين الاقتصادية لملاك الارض تعبّر عن نفسها ، في ذلك الحين ، إما بالمحاصصة — كما في جنوب الولايات المتحدة بعد تحريم الرق — وإما بالاتفاق على « قنانة مؤقتة » . وحتى في عام ١٩١١ ، ورد على لسان مصادر ليست معادية للقيصرية البتة ما يلي :

« إن العبودية في روسيا الآن تذكر بكابوس طواه التاريخ منذ زمن . اما في منطقة عبر القفقاس ، وفي جورجيا على وجه الخصوص ، فلم يصدر الى الآن اي قانون يحرم العبودية المؤقتة ... ان تبعية فلاحينا الاقتصادية ... قد تعاظمت خلال السنوات الخمسين الاخيرة واكتست شكل عبودية جديدة » .

وهكذا ، كانت القنانة تسود البيئة التي نشأ فيها دجوغا شفيللي الشاب . ولم تكن ترزح بثقل مباشر على الفلاحين وحسب ، بل وأيضاً على العلاقات البشرية بشكل عام ،

على العائلة ، والكنيسة ، والمدرسة ، وعلى الاوضاع النفسية ، وعلى نسق الحياة نفسه . وينطبق ذلك بالطبع على الامبراطورية القيصرية كلها ، الى حدٍ ما . عند مقارنته بين الغاء القنانة في روسيا وبين تحرير الزنوج الاميركيين، اشار لينين الى ان الاصلاح الروسي عام ١٨٦١ كان اضعف من قرينه الاميركي ، واستنتج قائلاً : « إذاً ، يتبين لنا الآن ، وبعد نصف قرن من الزمن ، ان الروس ما زالوا يحملون من آثار العبودية اكثر مما يحمله الزنوج » . لا شك في ان لينين يبالغ في ملاحظته القاسية هذه . وهذه المبالغة طبيعية بالنسبة للداعية الثوري المتشوق الى رؤية المجتمع الروسي يتحرر نهائياً من ميراثه الاقطاعي . ولكن ما لم يعد صحيحاً بالنسبة للروس كان لا يزال صحيحاً بالنسبة للقفقاسيين . فحياتهم الاجتماعية مطبوعة بـ « آثار العبودية » المتعددة والمحدثة : تبعية الانسان الفظة الصريحة للانسان ، تنظيم هرمي اجتماعي جامد ومتمايز ، العنف البدائي وانعدام الكرامة الانسانية — كل هذه تسم نمط الحياة المتولد من القنانة . فكان التخفي والخداع والعنف اسلحة المضطَهدين الرئيسية ، هؤلاء الذين أُبقي عليهم في الظلمات ، وهم عاجزون ، في معظم الاحيان ، عن الدفاع عن انفسهم بواسطة عمل صريح منظّم .

* * *

كانت كلية تيفليس الكهنوتية مؤسسة غريبة حقاً. انها اهم مدرسة ثانوية في جيورجيا، لا بل في القفقاس بأسره ، مع انها ليست المدرسة الوحيدة. والمنبت الرئيسي للانتلجنسيا المحلية . ولكنها ايضاً المعقل الروحي للقنانة. فمنها تتسرّب الافكار الاجتماعية والسياسية المتقدمة وتصطدم بالتقاليد الذهنية الاقطاعية والدينية .

الكلية اشبه ما تكون بالثكنة العسكرية . يضبط الحياة في داخلها رهبانٌ قساة . وما ان ينغلق الباب على الداخل اليها حتى يُطلب منه الانقطاع كلياً عن العالم الخارجي . وكان على الطلاب البقاء في الداخل ليلاً نهاراً ، مع انه بوسعهم الحصول على اجازة لمدة ساعتين شرط تقديم طلب بذلك الى الراهب المسئول .البرنامج مليىء بالمحاضرات عن اللاهوت المدرسي وبالصلوات التي لا تنتهي . وكان الطلاب الفقراء يعيشون حياة تشارف حدود المجاعة ، كل عشرين او ثلاثين طالباً محشورين في غرفة نوم واحدة . والمدرسة

نصفها دير ونصفها الآخر ثكنة . « كانت الحياة حزينة ورتيبة » ، يقول طالب سابق ، « كنا بين جدران الثكنة ليلاً نهاراً ، نشعر كأننا سجناء حُكم علينا قضاء عدة سنوات هنا بلا سبب . كنا جميعاً كئيبين ومعنوياتنا منهارة . نُحشر في الغرف والممرات ، فلا يتسنى لفرح الشباب ان يعبِّر عن نفسه . ولكن عندما يفور دم الشباب ، بين الحين والآخر ، يكبته الرهبان والنظّار » . لم يكن يحق للطلاب استعارة الكتب من المكتبات العلمانية ؛ والكتب التي يجوز قراءتها هي التي يسمح بها الرهبان فقط. والكلية، طبعاً ، اداة روسنة . وعقوبة خرق القوانين فيها الاحتجاز في الغرفة . وبالاضافة الى هذا كله ، كان الرهبان يتجسسون على افكار الطلاب وأعمالهم ، ويفتشون حاجياتهم ، ويسترقون السمع الى احاديثهم ، ويشون بهم الى الرئيس عند ادنى ريب في تصرفاتهم .

ولكن بالرغم من ذلك ، كانت هذه الكلية القاتمة مركزاً هاماً للمعارضة السياسية . ان عدداً كبيراً من الشخصيات الوطنية وقادة الرأي العام المقبلين ، ليس في جيورجيا وحسب بل وفي روسيا ايضاً ، امضى سنواته التكوينية بين جدرانها . في عام ١٩٣٠ ، نشرت كلية التاريخ في الجامعة الشيوعية لعبر القفقاس وثائق لشرطة تيفليس المحتوية على تقارير عن تظاهرات « عصيان سياسي » في الكلية . وتعطي هذه التقارير فكرة واضحة عن غليان الافكار بين الطلاب ، ذلك لأنها تغطي فترة عشرين سنة من ١٨٧٣ الى حين دخول دجوغا شفيللي الكلية .

في عام ١٨٧٣ ، كتب مفوض في الشرطة الى رؤسائه بان رسائل محتجزة تشير الى ان بعض الطلاب قد قرأ داروين ، وباكل ، وميل ، وتشيرنيشيفسكي . فصدر امر باجراء تفتيش ، وعُثر على كتابَين « هدّامين » آخرين هما : « حياة المسيح » لرينان ، و « نابليون الصغير » لفكتور هيغو . وتبين ايضاً ان ثلاثة اساتذة يحاضرون في صفوفهم بـ « روح ليبرالية » . وهذا جرم طردهم الرئيس بسببه ووشى بهم الى الشرطة. وصدرت احكام على البعض لمجرد انهم عرفوا بهذه الاساءات ولم يبلغوا عن مرتكبيها . ويشدد التقرير على ان القومية الجيورجية هي الدافع وراء هذه التجاوزات .

وأدى هذا الغليان الى حادث مأساوي وقع في حزيران ١٨٨٦ عندما اقدم يوسف لاغييف ، وهو طالب طُرد بسبب موقفه المعادي لروسيا ، على أغتيال رئيس الكلية ،

باذيل شوديتسكي . كتب رئيس شرطة تيفليس يقول بهـذا الصدد :

« ان الكلية الكهنوتية في تيفليس في اسوأ حال اذا ما قارّناها بالكليات الكهنوتية الاخرى في روسيا . فغالباً من يتكشف الطلاب الذين يؤمونها عن ذهنية معادية للدين وللعنصر الروسي . وغالباً ما يكون اصلاح هؤلاء الطلاب امراً مستحيلاً نظراً لحساسية السكان المحليين البالغة ولكرامتهم المرَضية » .

ويضيف قائلاً ان عدة صحف جيورجية قد مُنعت لأنها حرّضت الجمهور ضد روسيا، ولأنها جعلت من الكلية الكهنوتية معقلاً للقومية الجيورجية . فأُغلقت الكلية لبضعة شهور . وقد لعب اسقف جيورجيا ، بولس ، دوراً غريباً في هذه الحادثة ، إذ اسرَّ الى رئيس الشرطة بان الاغتيال لم يكن من عمل فرد واحد وانما هو من تدبير منظمة سرية بأكملها . وذكر اسم المدعو سيلفستر دجيبلادزه ، الذي كان قد هاجم الرئيس قبل عام من ذلك التاريخ ، على انه المتهم الرئيسي . كان دجيبلادزه احد مؤسسي المنظمة الاشتراكية الديمقراطية ، وأحد اساتذة دجوغا شفيلي السياسيين . ومن الذين طُردوا عام ١٨٨٦ طالب يدعى ميخائيل تشاكايا ، وهو ابن قس ، وأصبح فيما بعد صديقاً للينين، وعضواً في اللجنة المركزية للحزب البلشفي ورئيساً لجيورجيا السوفييتية .

بعد بضعة شهور من دخول دجوغاشفيلي ، اعلن الطلاب الجيورجيون في الكلية الاضراب العام . وفي الرابع من كانون الاول ١٨٩٣، ارسل العقيد يانكوفسكي،من شرطة تيفليس ، البرقية التالية الى سان بطرسبرغ : « اعلن معظم طلاب الكلية الكهنوتية الارثوذكسية اضراباً يطالبون فيه بطرد عدد من الاساتذة ، وبالاتيان بمدرّس للادب الجيورجي » .وقد امضى اسقف جيورجيا يوماً بأكمله مع الطلاب وهو يحاول ردعهم عن الاضراب . لكن ذهبت محاولاته ادراج الرياح . فاستنجد الرئيس بالشرطة.فأغلقت الشرطة الكلية وأجبرت الطلاب على العودة الى بيوتهم . لكن رئيس الشرطة سجّل بانزعاج ، في احد تقاريره ، ان « بعض الاذكياء يرون في اغلاق الكلية عملاً ظالماً بحق الطلاب الذين كانوا يدافعون عن مصالحهم القومية مثلما يفهمونها » . اقسم الطلاب على التضامن فيما بينهم عند مغادرتهم الكلية . إلا ان سبعة وثمانين منهم طُردوا منها قبل نهاية الفصل . وهنا ايضاً ورد اسم ميخائيل تشاكايا على انه منظِّم العصيان . وكان من بين المطرودين احد التلامذة السابقين في مدرسة غوري ، وهو لادوكيتسخوفيللي ، الذي

يكبر دجوغـا شفيللي ، والذي سيصبح استاذه السياسي عما قريب . ولم يرد ذكر الدعاية الاشتراكية في اي من تلك التقارير الـــتي كانت تُجمع على ان الوطنية الجيورجية المهانة هي الدافع الاساسي وراء التظاهرات .

عندمـــا دخل دجوغا شفيللي الـكلية ، وهو في سن الخامسة عشر ، كانت اصداء الاضراب الاخير ما زالت تتردد . ولا بد من ان يكون الطلاب قـــد ناقشوا الحدث ، وعلقوا على طرد الطلاب السبعة والثمانين. ولا شك في ان الوافد الجديد تعاطف معمطلب تعليم لغته الام في الـكلية . ومن هنا ، أثّر فيه الغليان السياسي منذ البدء . لكنه اخفى شعوره عن اساتذته ، كما فعل في غوري . وكما في غوري ايضاً ، كان هنا انموذجاً للطالب الكفء والنبيه والشاطر . ولا شك في انـــه اخذ يراقب محيطه الجديد بفضول كبير . الرئيس هـــو الراهب الروسي هيرموجينيس ، والمفتش هو اباشيدز الجيورجي ، الذي يسعى ، بسبب كونـــه جيورجياً ، الى تبييض صفحته مع السلطات الروسية عن طريق إظهار خنوع مبالغ فيه . هنا كان باستطاعة دجوغا شفيللي الشاب ان يدرس الطريقة التي يعمل فيها الحـكم الفردي على نحو مصغّر . الذين يمسكون بزمام الامور يعيشون في جو من القلق والخوف . فالرئيس الروسي يتذكر سلفه القتيل ، والمفتش الجيورجي ينتابه الفزع عند ادنى بادرة عدم رضى تبدر عن رئيسه ، كما ينتابه الفزع من مجرد فكرة المؤامرات التي تُحاك ضده في زوايا المماشي المعتمة الطويلة وفي غرف منـــامة الطلاب . وبالرغم من ذلك ، فـكلما شدّد الرهبان المراقبة على الطلاب ، وزادوا في التلصلص عليهم ، و كلما كثر تفتيشهم معاطف الطلاب وحقائبهم بحثـــاً عن الـكتب الممنوعة ، كلما ازداد انتشار الهرطقة بين جدران الـكلية . واكتسب الطلاب المطرودون حديثاً سلطةً معنوية تجـــاه الطلاب الاصغر منهم سناً ، وتمكنوا من الابقاء على اتصال مع زملائهم السابقين ، فتسرب نفوذهم الى داخل الحصن الديني .

والارجح ان ستالين ، وهو بعدُ في سنته الاولى ، قـــام بعدة رحلات شبه سرية الى البلدة واتصل بأفراد من المعارضة . ويتبين ذلك من قصيدة له نُشرت في المجلة الجيورجية «إيبيريا» ، التي كان يصدرها الوطني الليبرالي ايليا شفشافادز ،وذلك يوم ٢٩ تشرين الاول ١٨٩٥ ، اي بعد حوالي سنـــة واحدة من وصول دجوغا شفيللي الى تيفليس . وأهدى القصيدة ، ذات الطـــابع الوطني الملوّن بنزعة اجتماعية راديكالية ، الى شاعر جيورجي

معروف هو ر. اريستافي . ونُشرت بامضاء « سوسيلو » (تصغير يوسف) ، لحرص الكاتب على اخفاء هويته عن السلطات في الكلية . وكان جرمه الآخر انه استعار كتباًمن مكتبة متجولة في البلدة . ومن قراءاته المفضلة آنذاك الادب الروسي والاوروبي فضلاً عن الشعر الجيورجي . وكان يتمتع اكثر ما يتمتع بالكتّاب الساخرين الكبار في روسيا من امثال غوغول ، وساليتكوف – شيدرين ، وتشيكوف ، الذين غالباً ما استشهد لهم في خطبه ومقالاته اللاحقة . ومن الكتب الاجنبية التي قرأها بترجماتها الروسية روايات فيكتور هيغو ، و « فانيتي فير » لثاكيراي . اما الكتب التي كانت ذات اهمية بالغة بالنسبة لتطوره الفكري ، فهي التبسيطات الشعبية حول علم الطبيعة الدارويني ، وحول الاقتصاد وعلم الاجتماع . فقد كانت المفاهيم الوضعية والمادية للطبيعة والمجتمع ، في ذلك الحين ، تتمتع بنفوذ واسع النطاق بين الليبراليين والاشتراكيين الشباب .

ويكاد معظم كتّاب المذكرات ، أكانوا معادين او مؤيدين لستالين ، يجمعون على الانطباع الذي تركه لنا ج. غلوردجيدز ، احد زملائه في الدراسة والذي كان لا يزال يشغل منصب مدرِّس في غوري في الثلاثينات ، إذ يقول :

« غالباً ما كان يقرأ في الكنيسة اثناء القدّاس مخبأً الكتاب تحت المقعد . وكان بالغ الحذر حتى لا يراه اساتذته . الكتب تصاحب يوسف في كل مكان ، ولا تفارقه حتى في ساعات الطعام... ومن صفات يوسف انه يتمهل في الاجابة عندما يُسأل سؤالاً ..

وكان الغناء احدى وسائل الترفيه الغريبة في جو الكلية الخانق . وشدّ ما كان فرحنا عندما كان سوسو يجمعنا في « كورس » ويصدح منشداً اغانينا الشعبية المفضلة بصوته الصافي الجميل » .

الا ان كاتباً آخر ، اريما شفيللي ، يشدد على جانب آخر اقل اشعاعاً من شخصية دجوغا شفيللي . فهو يصفه كواحد من المناقشين الرئيسيين بين طلاب الكلية الكهنوتية ، يفوق تلامذته علماً ، ويقدم حججه مشفوعة بكثير من العناد والمقدرة السجالية. ولكنه لم يكن يطيق ان يتفوق عليه احد في سعيه نحو الظهور . فيتذمر عندما تتعرض حججه لتحدٍ جدي ، ويثور ويغضب عند ادنى انتكاسة يصاب بها النقاش . ويتذكر بعض زملائه انه كان يضمر الحقد احياناً ضد خصم متفوق ، فيسعى الى الثأر منه بالنيل منه

بواسطة الشائعات . وبالرغم من ان مثل هذا التصرف لم يكن شواذاً بين الفتيان في مثل سنه ، فقد جعل رفقته صعبة .

لم يلحظ الرهبان ان تلميذهم النجيب يشذ عن السراط المستقيم إلا في بداية سنته الثالثة . ودوّن احدهم في سجل السلوك الكلمات التالية في شهر تشرين الثاني ١٨٩٦ : « يبدو ان دجوغا شفيللي يحمل بطاقة المكتبة الرخيصة حيث يستعير الكتب. صادرتُ اليوم كتاب « عمال البحر » لفيكتور هيغو ، ووجدت فيه بطاقة المكتبة المذكورة » . وقد ذيَّل الرئيس هذا التقرير بالملاحظة التالية : « ضعوه في زنزانة العقاب لمدة طويلة . سبق لي ان انذرته حول حيازة كتاب ممنوع هو ، « ثلاثة وتسعون » لفكتور هيغو » . طبعاً ، ان رواية هيغو الشهيرة عن الثورة الفرنسية لن تساعد قارئها الشاب على ان يصبح كاهناً . وتظهر تقارير مماثلة في سجل السلوك في فترات اكثر تقارباً : « في الساعة الحادية عشرة ليلاً ، صادرتُ من يوسف دجوغا شفيللي كتاب لوتورنو « التطور الادبي عند الامم » ، الذي استعاره من المكتبة الرخيصة ... وقد شوهد دجوغا شفيللي وهو يقرأ الكتاب المذكور على درج الكنيسة . هذه هي المرة الثالثة عشرة التي يشاهدُ فيها وهو يقرأ كتباً مستعارة من المكتبة الرخيصة . سلمت الكتاب للاب الرئيس » . كُتب هذا التقرير في آذار ١٨٩٨ ، اي بعد اربعة اشهر فقط من الشكوى الاولى . فأمر الرئيس : « ضعوه في زنزانة العقاب لمدة مطوّلة مع انذار شديد اللهجة » . ولا تورد الشكاوى ذكر اية كتب اشتراكية، ولا ماركسية ، شوهدت مع المذنب . ولكن نظرةً الى ذكريات معاصرية والى اعماله اللاحقة ، تبين لنا انه قد اطلع على النظريات الاشتراكية والماركسية لأول مرة عندما كان في الصفوف العليا . وقد انضم في ذلك الحين ايضاً الى حلقة نقاش سرية داخل الكلية نفسها ، والى منظمة اشتراكية سرية في البلدة تدعى « ميسامي داسي » ، وذلك في آب ١٨٩٨ . ويبدو ان الخطر الشديد كان يحيق بادخال الكتب الاشتراكية الى الكلية . ولم يكن من السهل الحصول عليها ، على كل حال. يخبرنا ياروسلافسكي انه لم يكن يوجد في تيفليس إلا نسخة واحدة من الترجمة الروسية لكتاب « رأس المال » لماركس ، وكان الشباب الاشتراكي ينسخ عنها بخط اليد . ويجوز الترجيح ان دجوغا شفيللي قرأ او قلّب في كتب او نشرات لكتّاب اشتراكيين خلال الساعات القليلة التي قضاها خارج الكلية .

ان « ميسامي داسي » ، المنظمة التي انضم اليها دجوغا شفيللي عندما كان في التاسعة عشر من عمره تقريباً ، قد تأسست عام ١٨٩٣ . وبالرغم من بقايا نفوذ للقومية الجيورجية فيها ، كانت تُعتبر من المجموعات الاشتراكية الديمقراطية الاولى في تيفليس . وقد اتخذت لنفسها اسم « ميسامي داسي » (الفئة الثالثة) لتميز نفسها عن « ميوري داسي » (الفئة الثانية)، وهي منظمة ليبرالية تقدمية قادت الانتلجنسيا الجيورجية في الثمانينات. ومن مؤسسي « ميسامي داسي » نوح جوردانيا ، و ك. شكايدز ، و ج. تسيريتللي الذي سرعان ما اشتهروا خارج جيورجيا بوصفهم المتكلمين باسم الاشتراكية المعتدلة . ومن دعاتها المتحمسين سيلفستر دجيبلادزه ، نفس الشخص الذي طُرد من الكلية لاعتدائه على الرئيس . وكان قادة « ميسامي داسي » يعرضون آراءهم على صفحات « كفالي » (الثلم) ، وهي جريدة ليبرالية .

ويسترجع دجوغا شفيللي ، بعد ذلك بوقت طويل ، الدوافع التي أدت به الى اعتناق الاشتراكية ، فيقول :

صرتُ ماركسياً بسبب وضعي الاجتماعي (كان ابي عاملاً في مصنع احذية وكانت امي شغيلة مثله) ، ولكن ايضاً... بسبب الاضطهاد القاسي والانضباط اليسوعي اللذين كانا يسحقانني بدون رحمة في الكلية الكهنوتية... كان الجو الذي ترعرعت فيه يسوده الحقد على الاضطهاد القيصري » .

وجاءت الاحداث الخارجية توفّر الدافع الاخير . فقد كانت تلك السنوات مليئة بالاضرابات العاصفة التي قام بها عمال تيفليس ، وهي اول إضرابات قامت في عاصمة القفقاس . ويصعب حالياً تقدير الاثر الذي تركته على الطبقة العاملة وعلى الانتلجنسيا الراديكالية ، إذ صارت الاضرابات امراً مألوفاً في السنوات اللاحقة ، وأفقدها التكرارُ طابعَها التحريضي . إلا ان الاضرابات الاولى كشفت النقاب عن قوة غير متوقعة لدى الطبقة العاملة . فكانت سلاحاً جديداً في المعركة الاجتماعية ، اثار الآمال والمخاوف المجسمة ، تماماً كما تفعل الاسلحة الجديدة في العادة . فرأى فيها الحكام والمحكومون ، على حد سواء ، فاتحة احداث قادمة وتغيّرات درامية — ولم يكونوا على خطأ فيما يختص بروسيا .

وشهدت تيفليس آنذاك صورة مصغرة عن الثورة الصناعية . فأخذت حياتها تعكس التأثير الجديد الذي تمارسه الرأسمالية الصناعية على القفقاس الشرقي ، القبلي والاقطاعي : « إن المنطقة التي لم يكن يقطنها ، في السنوات التي تلت « الاصلاح » ، إلا عدد قليل من السكان ، معظمهم من الجبليين ، المعزولة عن تطور الاقتصاد العالمي ، وعن تطور التاريخ نفسه – أخذت هذه المنطقة بالذات تتحول الى منطقة يقطنها صناعيو النفط وتجار النبيذ ومنتجو الحبوب والتبغ » . بهذه الكلمات تحدث لينين – الذي كان مغموراً آنذاك – عن حالة المنطقة في نهاية القرن . الصناعات البترولية تنمو بمساعدة رأس المال الانكليزي والفرنسي . وسرعان ما اضيفت الى الصناعات التي عدّدها لينين صناعة استخراج المانغانيز الخام في شياتوري . خلال العامين ١٨٨٦ و ١٨٨٧ ، لم تكن القيمة الاجمالية لانتاج المقاطعتين الجيورجيتين تيفليس وكوتايس تتعدى العشرة ملايين روبلاً . فبلغت ثلاث اضعاف ما كانت عليه في غضون سنوات اربع فقط . إذ بلغت ٣٢ مليوناً خلال العامين ١٨٩١ – ١٨٩٢ . واثناء الفترة نفسها ، ارتفع عدد العمال الصناعيين من ١٢,٠٠٠ الى ٢٣,٠٠٠ عاملاً ، باستثناء عمال سكك الحديد . وكانت تيفليس محطة اساسية على سكة حديد عبر القفقاس ، تصل شاطىء بحر القزوين بالبحر الاسود ، وتصل باكو بباطوم . فصارت ورشات سكة الحديد الصناعة الاساسية في تيفليس ، وأهم معقل للحركة العمالية القفقاسية السرية . ان هذه الورشات والاسواق الآسيوية الصاخبة هما السمتان المميزتان لحياة المدينة . ولا بد من ان يكون دجوغا شفيللي الشاب قد امضى بضع ساعات وهو يراقب عادات وتقاليد التجار الشرقيين – ومن المؤكد ان ذلك ترك اثره على فكره . على ان هذا العالم الشرقي ، « المعزول حتى عن التاريخ » ، لم يكن عالمه . فقد كان منجذباً الى عنصر جديد من عناصر الحياة القفقاسية .

كان بضع مسترهبين من الذين تحولوا الى ثوريين قد اصبحوا اساتذة له . فبالاضافة الى سيلفستر دجيبلادزه ، الذي كانت شهرته بين اعضاء « ميسامي داسي » تحول دون ان يكون صديقاً حميماً لدجوغا شفيللي المبتدىء ، كان هذا الاخير يجتمع باثنين آخرَين اصبحا استاذَيه وصديقَيه في آن معاً . وهما ساشا تسولوكيدز ولادو كيتسخوفيللي. كان تسولوكيدز ، الذي يكبر دجوغا شفيللي بثلاث سنوات ، اديباً له مكانته بين اعضاء « ميسامي داسي » ، يخدم القضية باندفاع عظيم . لكنه كان مصاباً بالسل الذي قضى عليه بعد خمس او ست سنوات. وكانت مقالاته ودراساته المنشورة في الصحف الجيورجية

تتكشف عن معرفته الواسعة بعلم الاجتماع ، وتعكس ذكاءً اصيلاً وحساً ادبياً رفيعاً . ومن كتاباته عرض تبسيطي شهير لنظرية ماركس الاقتصادية . وكان دجوغا شفيللي يرافق ساشا تسولوكيدز احياناً لزيارة مكاتب تحرير « كفالي » (الثلم) ، حيث ينصت باجلال الى الكلمات الحكيمة التي يتفوه بها المحررون شبه الليبراليين وشبه الاشتراكيين . ومع الايام ، ما لبثت الابتسامة الساخرة ان حلت محل الاجلال .

اما صديقه ومعلمه الآخر – كيتسخوفيللي – فلم يكن يمت الى الادب بصلة . كان يتمتع بذهن عملي صرف . وما ان اعتنق العقيدة الجديدة حتى انصب اهتمامه على اتخاذ الخطوات الضرورية لكي يقنع الآخرين بها . كان قد تجوّل بعض الشيء خارج القفقاس . ولكونه واحداً من « السبعة والثمانين » الذين طُردوا من الكلية الكهنوتية عام ١٨٩٤ ، فقد قصد « كييف » ، وهي مركز قديم للحياة الروحية والسياسية ، اقرب الى المدنية من تيفليس . وأمضى عدة سنوات هناك ، اتصل خلالها بعدة بمجموعات اشتراكية كانت قد اتصلت بدورها باشتراكيين من بطرسبرغ وحتى بالقادة المنفيين في سويسرا وفرنسا وانكلترا . ثم عاد الى القفقاس متلهفاً للعمل ، عازماً على انتشال الحركة في مقاطعته من مهدها . فأخذ يبحث في امكان انشاء مطبعة سرية ، وكان يعتبرها اول قاعدة راسخة تعتمد عليها فئة من الدعاة الثوريين . ولم تكن الصحف الجيورجية المحلية شبه الليبرالية وشبه الاشتراكية نافعة لذلك : كان محرروها يتلفتون يمنة ويسرة عند كل كلمة يكتبونها، كما كان عليهم ان يقدموا كل مقالاتهم للرقابة القيصرية . ولم تكن الدعاية الخجولة الواهية التي يقومون بها تقنع احداً ولا تؤدي الى اي تقدم . كان ينبغي على الشباب الثوري ان يتحرر من الرقابة بأي ثمن ، وهذا لن يكون إلا بانشاء مطبعة سرية . وأخذ كيتسخوفيللي يوجه اهتمام دجوغا شفيللي نحو مثل هذه القضايا العملية عندما انضم هذا الاخير الى « ميسامي داسي » .

وحرص كيتسخوفيللي وتسولوكيدز على تكليف تلميذهما الجديد بمهمة خاصة ، وهي ادارة بعض الحلقات التثقيفية للعمال . كان عليه ان يحاضر عن الاشتراكية امام عدد من عمال التبغ ، ومعلمي البناء ، والحذائين ، وعمال النسيج والطباعة ، وسواق عربات الخيل المحلية . ويتحلق العمال في مجموعات صغيرة لا تتعدى الاثني عشر او العشرين عاملاً كحد اقصى . ويتولى كل طالب منظم مهمة مماثلة لأن المنظمة الفتية بحاجة ماسة الى من يملك

المقدرة على تثقيف اعضائها الذين لا يستطيعون قراءة الكتب والمنشورات التي تعرض عقيدتها . وكانت الحلقات تلتئم في مساكن العمال المزدحمة ، العابقة بدخان « المافوركا » الذي يزكم الانف ، وبرائحة العرق والوسخ ، بينما يتولى احد الاعضاء مراقبة الطريق من الخارج ، ليضمن سلامة الاخرين من الشرطة . ولعل المسترهب المحاضر كان يجني الكثير من الإشباع المعنوي من عمله هذا . وكان الشعور بالارتقاء هو التعويض على اتعابه . فها هو ، واحد من قطيع الراهب اباشيدزه ، يضع الدناميت الروحي عند دعائم الامبراطورية والكنيسة . وكان العمال ينصتون اليه باحترام — وغالباً ما كانوا اكبر منه سناً — ويقبلون به مرجعاً وقائداً .

بعد اجتماع كهذا ، كان من الصعب جداً ، لا بل من المشين ، ان يعود دجوغا شفيلي الى الكلية الكهنوتية القاتمة ليبرر موقفه امام الرهبان ليبتكر الاعذار على غيابه الطويل جداً ، ليرتدي قناع التقوى وينضم الى سائر القطيع منشداً الترانيم الكنسية . كانت تلك حياة مزدوجة بالمعنى المزدوج للكلمة . فلم يكن على الكافر ان يدعي الايمان وحسب ، بل كان على الثوري — الآخذ بالبروز في البلدة والبادىء بالتصرف وكأنه شخصية معروفة — ان يرتد الى لعب دور الطالب الذي لم ينضج بعد والذي يسوقه رؤساؤه . الى اي مدى سيتحمل ذلك ؟

لا شك في ان دجوغا شفيلي قد طرح على نفسه هذا السؤال غير مرة خلال سنة او سنتين من حياته في الكلية الكهنوتية . كان يخدع الرهبان بطريقة تكاد تكون وقحة وخبيثة . إلا ان ذلك لم يترك في نفسه اي أثر للندم او الانزعاج . فهو يواجه الخداع بالخداع . أما كانوا يتجسسون عليه ويفتشون حاجياته في غيابه؟ الم تكن تعاليمهم خديعة كبرى ؟ من هنا ، فليس خبثه إلا جواباً على خبثهم . ولا شك في انه هو المنتصر في هذه المبارزة من الاكاذيب والخداع ؛ ولا شك ايضاً في ان النجاح والانبساط المتأتيين عنها قد ساعداه على تحمل وضع لا يكاد يُطاق . طبعاً ، كان بامكانه ان يحزم حقائبه ويودع الرهبان في اي يوم يشاء . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ لم يكن له من مصدر للعيش خارج الكلية . فالمنظمة فقيرة جداً لا تستطيع مساعدته . وهو لا يريد ان يكون عبئاً على امه . ولا كان ميالاً الى العمل كعامل صناعي او موظف . ورغم انزعاجه من الكلية ، فهي توفر له الوقت الكافي ليناقش ويحلم ويقرأ ، وهذه امور يصعب التخلي عنها . فلو كان اكثر انفعالاً ومثالية ، لكان غادر الكلية غير آبه بالنتائج . لكنه ابن اقنان سابقين ؛ ورغم كونه

يعمل لتغيير حياة شعب بأكمله ، فقد ورث بعضاً من جمود الفلاحين المتولد عن الخوف من التغيير . صحيح ان البقاء في الكلية يتطلب الاختفاء والاحتيال باستمرار . بيد ان هذه مما كان عليه ان يمارس منذ طفولته ، فهي تكاد تتحول الى شخصية ثانية بالنسبة له .

على ان وضعه في الكلية اخذ يتزايد صعوبة . التقارير المدونة في سجل السلوك خلال الاشهر الاخيرة من اقامته فيها لا تورد ذكر الدعاية الاشتراكية . فالارجح انه تمكن من اخفاء هذا الجانب من نشاطه . إلا ان خلافاته مع رؤسائه امست بالغة الحدة . ورد في تقرير في ٢٩ ايلول ١٨٩٨ : « في الساعة التاسعة صباحاً ، تحلّق جمع من الطلاب في غرفة الطعام حول يوسف دجوغا شفيللي الذي اخذ يقرأ لهم من كتاب ممنوع ، فعقب ذلك حملة تفتيش بين الطلبة » . وورد في تقرير آخر بعد بضعة اسابيع : «خلال تفتيش الطلاب... حاول يوسف دجوغا شفيللي اثارة النقاش اكثر من مرة ... مستنكراً حملات التفتيش المتكررة ... معلناً انها لا تجري في الكليات الكهنوتية الاخرى . ان دجوغا شفيللي هو فظ ، بشكل عام ، ولا يحترم المسئولين » .

وقد حل الرهبان انفسهم معضلة دجوغا شفيللي بعد بضعة اشهر من انضمامه الى « ميسامي داسي » ، فطردوه من الكلية بتاريخ ٢٩ ايار ١٨٩٩ ، بحجة عدم حضوره الامتحانات « لأسباب مجهولة » . وقد ادّعى ، في وقت لاحق، ان « نشر الماركسية» هو الذي تسبّب في طرده. إلا ان هذا لم يكن السبب الذي قدمته سلطات الكلية. ولكن ما من شك في انها تشتبه بقيامه بنشاط سياسي معارِض . ولم يتحسّر المطرود كثيراً على مفارقة هذه المؤسسة التي هي مزيج من دير وثكنة ، والتي قضى فيها خمس سنوات هامة من حياته .

* * *

ان انحدار والدي دجوغا شفيللي من عائلة من الاقنان يكاد يميزه عن جميع قادة الثورة الآخرين . فان معظمهم ينتمي الى قطاعات المجتمع الاخرى، من النبلاء والطبقات الوسطى والانتلجنسيا . ان لينين قد راقب حياة الفلاحين عن كثب بحشريته الفكرية الحادة ، عندما كان لا يزال طالب جامعة . لكنه ، وهو ابن مفتش مدرسة متبرجز ، لم يكن فلاحاً ولا كان ينتمي الى الفلاحين . وقد شاهد تروتسكي الاستغلال والفقر من نافذة منزل والده الذي كان مالك ارض يهودي حديث النعمة . اما زينوفييف وكامنييف وبوخارين

وراكوفسكي وراديك ولوناتشارسكي وتشيشيرين والعشرات غيرهم ، فقد كانوا يعرفون المظالم التي يثورون عليها ، ولكن عن بُعد . فالاستغلال الرأسمالي بالنسبة لهم صيغ سوسيولوجية يتفحصونها بدرجات متفاوتة من العمق ، اما الحقائق الكامنة وراء هذه الصيغ ، فلم تكن جزءاً من تجاربهم الشخصية . هذا عن الاستغلال الرأسمالي ، فكيف اذا تحدثنا عن القنانة ؟ كان بعض البلاشفة البارزين ، من امثال كالينين وتومسكي وشليا بنيكوف ، ينتمون الى الطبقة العاملة ، تشدهم جذورهم الى الريف ، كمعظم العمال الروس . ولكن لم يتنفس احد منهم هواء القنانة بالشكل المباشر والمؤلم الذي عانى منه دجوغا شفيللي — ستالين .

لا شك في ان دجوغا شفيللي ، البالغ العشرين من عمره ، قد ارتفع كثيراً عن بيئته الاصلية . فهو ينتمي الآن إلى الانتلجنسيا : ليس إلى قطاعها المستقر المحترم الواعي تمام الوعي لمكانته وقدره في المجتمع ، وانما إلى تلك الزمرة غير المستقرة من اللامنتمين . ومع ذلك ، فلم يكن يوجد أي شيء يحول بينه وبين شعور يكاد يكون حسياً بالتعاطف مع الذين ينتمون إلى الدرجات السفلى من السلم الاجتماعي . ان الثوريين الذين ينتمون إلى الطبقات العليا ، كانوا يعرفون ، عن طريق الاحتكاك الشخصي ، نخبة من الطبقة العاملة فقط : العمال الاذكياء الذين يستجيبون للدعاية الاشتراكية ويتشوقون لمصادقة المثقفين العقائديين . وكانوا ينعتون الجموع الراكدة الواسعة التي لم تصل اليها الافكار الاشتراكية بعد بانها القطاعات المتأخرة وغير الواعية من البروليتاريا . وكان الماركسيون الثوريون قد كوّنوا فكرة ما عن عبء هذا التأخر . وتذكروا مصير ثوريي الطبقات العليا في الجيل الماضي الذين « توجهوا إلى الشعب » بمثالية ليلاقون الموت بلا رحمة على يد الفلاحين المتوجسين شراً منهم ، أو يسلمون إلى الشرطة . الا ان الماركسيين كانوا يأملون ان يؤدي الوعي والتجربة السياسية إلى اعتناق الاشتراكية حتى من قبل المتأخرين وغير الواعين . ولكن في ذلك الحين ، لم يكن من لغة مشتركة بين المفكرين النظريين والدعاة من جهة ، والجماهير التي لم تستيقظ بعد من جهة أخرى . اما المشاعر الاولى التي كانت تدفع بالشباب من ابناء الطبقات العليا إلى اعتناق الاشتراكية فهي ، العادة ، مشاعر التعاطف الانساني الممزوجة بعقدة ذنب . الامر الذي يؤدي بهم إلى النظر إلى الطبقات المستَغلة على انها تجسيد للفضيلة والنبل .

ولا بدّ من ان تكون قد نمت ، عند دجوغاشفيللي الشاب ، حساسية بالغة وشبه

غريزية تجاه عامل التأخر هذا في الحياة والسياسة الروسيتين ، وهي حساسية تضاعفت قوتها في السنوات اللاحقة : وبالرغم من انه قد وجه اهتمامه هو ايضاً إلى العمال المتقدمين لانه يتعذر الوصول إلى الكتلة المتأخرة لاخراجها من خنوعها وركودها الا بواسطتهم ، فلم ينجرف مع الآمال العراض والتعميمات المثالية حول الطبقة العاملة . ولم يكن ينظر بريبة إلى المضطهدين من ملاك أرض ورأسماليين ورهبان وشرطة قيصرية وحسب ، بل وإلى المضطهَدين ايضاً ، من عمال وفلاحين الذين أعتنق هو قضيتهم. ان اشتراكيته لم تكن تحوي اي اثر للشعور بالذنب . لا شكَ في انه كان يعطف بعض الشيء على الطبقة التي ولد فيها ، ولكن حقده على الطبقات المالكة والحاكمة اقوى بكثير من هذا العطف . فالحقد الطبقي الذي يضمره الثوريون من ابناء الطبقات العليا ويبشرون به هو شعور اضافي ينمو ويترعرع فيهم نتيجة الاقتناع النظري . اما بالنسبة لدجوغاشفيللي ، فلم يكن الحقد الطبقي طبيعته الثانية ، بل الاولى . فالتعاليم الاشتراكية قد جذبته لانها تضفي إلى شعوره هذا تكريساً معنوياً . لا اثر للنزعة العاطفية في نظرته إلى الحياة . واشتراكيته اشتراكية باردة وصاحية وفظة .

ان مميزاته الشخصية هذه سوف تساعده كثيراً في المستقبل . ولكنها تجرّ عدداً من المساوىء الهامة كذلك . لقد انضم الثوريون من ابناء الطبقات العليا إلى الحركة الاشتراكية حاملين معهم التقاليد الثورية المتوارثة . صحيح انهم ثاروا ضد معتقدات وعقد بيئتهم الاصلية ، ولكنهم جلبوا معهم إلى البيئة الثورية قيم بيئتهم وصفاتها : ليس المعرفة وحسب ، بل صفاء الفكر والكلام والعادات ايضاً . وما من شك في ان تمردهم الاشتراكي كان هو نفسه حصيلة التعاطف الاخلاقية والبلورة الفكرية . وهذه هي بالضبط الخصال التي لم تنمها الحياة عند دجوغا شفيللي . بل ان الحياة ، على عكس ذلك ، اذاقته من المصائب المالية والمعنوية ما يكفي لاضعاف حساسيته وذوقه . قليلون هم القادة الآخرون الذين يعانون من شعور بالدونية الاجتماعية . فالقسم الاكبر منهم ، لو انه اختار طرقاً اقل عنفاً واكثر احتراساً ، يستطيع ان يبلغ مكانة مرموقة ومحترمة . ان رجلاً بمثل عبقرية لينين قادر على ان يصبح قائداً وطنياً عظيماً في ظل اي نظام . اما تروتسكي ، فهو اديب واسع الشهرة . اما امثال كامينيف ولوناتشارسكي وبوخارين ، فهم مؤهلون للوصول الى اعلى مراتب العالم الاكاديمي . فجميعهم خطباء مفوهون او كتاب او مفكرون يتميزون بالكثير من الحيوية والخيال والاصالة التي تجلت فيهم منذ سن مبكرة . وكان دجوغا شفيللي الشاب يتمتع بالكثير من النباهة والحسّ السليم ، ولكن

سعة الخيال والابتكار لم تكونا من خصاله. واذا كان بمكنته ان يحاضر عن الاشتراكية ببعض التناسق امام حلقات صغيرة من العمال ، فهذا لا يعني انه صار خطيباً مفوهاً. ولا هو كاتب لامع ، كما اثبتت الايام. وفي روسيا الرسمية ، المقسومة إلى طبقات ، لم يكن بمستطاع سليل الفلاحين الجيورجيين ان يصعد عالياً في السلم الاجتماعي ، حتى ولو تزود بالكثير من الطموح والعناد والحظ. ولو انه ظل في السلك الكنسي ، لكان وصل الى مصاف ابا شيدز. لذا ، كان محتماً ان تولد الظروف فيه شعوراً بالدونية لم يتمكن من التخلص منه حتى في العالم السفلي الاشتراكي.

الفصل الثاني

"العالم السفلي" الاشتراكي

صانعو الثورة القادمة .ـ الماركسيون ضد الاشتراكيين الزراعيين (النارودنيك) . ـ بليخـانوف ولينين : تأثيرهما في القفقاس. ـ ستالين يعمل كاتباً في مرصد تيفليس عام ١٨٩٩ ـ نشاطاته الثورية تدفعه الى الاختفاء عـام ١٩٠١ . ـ ستالين يصدر « بريدزولا » (الكفاح) . ـ اول اثر سياسي نثري له ـ . موقفه من البرجوازية . ـ « فضولية الشعب » كسلاح ضد الطغيان . ـ ستالين يغادر تيفليس الى باطوم عام ١٩٠١ . ـ يبدأ باستعمال الاسم المستعار « كوبا » (العاصي) . ـ ينشىء مطبعة سرية .ـ الاصطدام بين العمال والجيش . ـ اعتقال ستالين ، عـام ١٩٠٢ .

انضم دجوغا شفيللي الى « ميسامي داسي » في شهر آب ١٨٩٨ . وقبل ذلك الحين ، وفي آذار من العام نفسه على وجه الخصوص ، اجتمع بضع اشتراكيين ، لا يتجاوز عددهم العشرة ، في مؤتمر سري في مدينة مينسك واعلنوا تأسيس **حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي** . ويبين تقارب التاريخين ان دجوغا شفيللي قد انضم الى صفوف الاشتراكيين في وقت حاسم ، عندما كانت الحركة تقترب من المنعطف . لم يكن يوجد حزب اشتراكي على الصعيد الوطني في روسيا آنذاك . كان هنالك مجموعات صغيرة من الدعاة ، معظم اعضائها من المثقفين . ولم يكن الذين في الخارج يلاحظون النقاشات والمناظرات الدائرة بين هذه المجموعات الصغيرة . والى يومنا هذا ، يميل الدارسون السطحيون الى تجاهلها بسبب جمودها المذهبي . الا ان الدعاة « الانشقاقيين » كانوا صانعي تاريخ فعليين : انهم علماء وفنيو الثورة القادمة .

طوال القرن ، كان اشجع المثقفين الروس ثائراً على الحكم الفردي الاستبدادي الذي يمارسه القياصرة ، مع ان الاتجاه الاشتراكي الماركسي لم يصبح الاتجاه الطاغي ضمن المعارضة الثورية الا في اواخر القرن . فحتى نهاية الثمانينات ، كان الاتجاه الاشتراكي الزراعي ، المتمثل بالنارودنيين او الشعبيين ، ما زال الاتجاه الطاغي . ويعتقد هؤلاء ان روسيا الزراعية الاقطاعية قادرة على تفادي مظالم الثورة الصناعية التي يحركها الربح ، وتحقيق نظام اشتراكي يقوم على « المير » او « الاوبشينا » ، وهي الجماعية الزراعية البدائية في الريف . وكل ما تحتاجه روسيا لتحقيق الحرية الاجتماعية والروحية هو الغاء الرق والقضاء على الحكم الفردي . وما ان يتحقق ذلك ، حتى يضمن مستقبل روسيا . فيصبح الفلاحون ، لا البروليتاريا الصناعية ، الطبقة القائدة والقوة الخلاقة في الامة . وكان معظم الشعبيين من الثوريين المدافعين عن الثقافة السلافية والمعارضين للتأثير الاوروبي على بلدهم .

الا ان اتجاهاً نما بين صفوفهم تحت تأثير الفكر الاشتراكي الاوروبي . وفي السنة التي

ولد فيها دجوغا شفيللي ، عقد اجتماع سري للشعبيين في « فورونيج » ادى الى انشقاقهم إلى مجموعتين : تمسكت الاولى بالاراء الزراعية التقليدية ، بينما اتجهت الثانية ، بقيادة جورج بليخانوف ، الى تطعيم الحركة الثورية الروسية بافكار الاشتراكية الصناعية الغربية . وعرف بليخانوف نفسه كاقدر مصمم للفلسفة وعلم الاجتماع الماركسيين في روسيا ، وكمعلّم لينين وجيل كامل من الثوريين الروس . تنبأ بليخانوف بثقة ان الرأسمالية الصناعية سوف تجتاح روسيا عما قريب ، وتحطم بنيتها العشائرية — الاقطاعية مثلما تحطم الجماعيات البدائية التي يرتكز اليها الشعبيون فيُ اشتراكيتهم . وقال ان طبقة عاملة صناعية سوف تنمو في روسيا وتناضل من اجل اشتراكية صناعية شديدة الشبه بالاشتراكية الاوروبية الغربية .فالدعوة الى اشتراكية زراعية سلافية متمايزة تنبع من الاقطاع هي دعوة طوباوية ، سرعان ما سوف يطويها النسيان . واستنتج بليخانوف من هذا كله انه ينبغي على الثوريين الشروع بتنظيم الطبقة العاملة الصناعية .

كان متقدماً جداً بالنسبة . كانت الصناعة الحديثة لا تزال تمد جذورها الضعيفة الاولى في التربة الروسية . ويحتاج الامر الى مفكر جريء لكي يرى كل هذه المعاني في هذه البدايات المتواضعة ، وليعلق كل امله الاجتماعي والسياسي على بروليتاريا صناعية بالكاد موجودة . فبدا وكأن الماركسيين ، لا الشعبيين ، هم الذين يبشرون باراء طوباوية * .

واتسع الخلاف الاساسي عند مناقشة الخطط التكتيكية . كان الشعبيون يعملون على اثارة الفلاحين ضد الحكم الفردي ، وعلى قلبه بمحاولة اغتيال القيصر او وزرائه او موظفيه الكبار . وبما انهم يعتقدون ان اشتراكيتهم الزراعية كانت خلف القشرة القاسية للحكم الفردي الإقطاعي ، فقد كان طبيعياً ، من وجهة نظرهم ، ان يحاولوا تحطيم هذه القشرة . وحققوا انتصاراً ظاهراً عام ١٨٨١ عندما نجحوا في اغتيال القيصر اسكندر الثاني. ان الارهابيين رجال ونساء يتمتعون بصفات اخلاقية وفكرية عالية — « قبضة من الابطال رضعت ، مثل رومولوس وريموس ، من حليب الوحش الضاري » . وهم في معظمهم من ابناء وبنات العائلات الارستقراطية او النبيلة الذين ضحوا بحياتهم من

---

* من غريب الصدف ان ماركس نفسه رفض تأييد الماركسيين الروس ضد الشعبيين . راجع رسالته الى فيرازاسوليتش . (المترجم)

اجل الشعب . ومن شخصيات المؤامرة الرئيسية صوفيا بيروفسكايا ، ابنة محافظ مدينة سان بطرسبرغ . الا ان انتصارهم نفسه – اغتيال القيصر – امسى مصدراً لخيبة املهم وتقهقرهم . فقد كانوا يتوقعون انهيار النظام المقيت من جراء الضربة . والواقع انهم تمكنوا من قتل الحاكم الفرد ولكن ليس الحكم الفردي . فجاء الاسكندر الثالث خلفاً للاسكندر الثاني ، وكان اشد طغياناً منه . ورفض الماركسيون التورط في استخدام الوسائل الارهابية. كانوا ينظرون الى اغتيال الافراد – او إلى «الارهاب الفردي » ، كما يسمونه – على انه عمل لا طائل تحته . المطلوب هو قلب النظام ، والنظام لا يعتمد على حفنة من الافراد . كانوا يعقدون الآمال على البروليتاريا الصناعية التي سوف تهب ضد الحكم الفردي جماعياً . ولكن ، بما ان البروليتاريا لا تزال ضعيفة جداً للاتيان بعمل فعّال ، فلم يكن امامهم سوى الانتظار ريثما يخرج نمو الصناعة الفيالق الجبارة من العمال . ولم يكن بوسعهم حتى ذلك الحين الا القيام بالدعاية ، وضم الناس الى الاشتراكية ، وتكوين مجموعات من الاشخاص ذوي الافكار المتقاربة .

وقد برهن الزمن على صحة التوقعات الماركسية . فمع السنين ، نمت الصناعة ، وازدادت الطبقات العاملة عدداً وقوة ، وتضاعفت مشكلات العمل . وما ان اطلت التسعينات حتى بدت افكار الشعبيين باهتة قد فات اوانها في اعين الثوريين الشباب . وفي عام ١٨٩٤ ، عند ما دخل دجوغاشفيللي الى الكلية الكهنوتية ، نشر لينين الشاب كتابه «**من هم اصدقاء الشعب ؟** » ، الذي تعرّض فيه للشعبيين بالهجوم ،فدقّ بذلك مسماراً في نعشهم ، مع ان نسخة جديدة عن الاشتراكية الزراعية سوف تعود للظهور في وقت لاحق .

كان تفكير الماركسيين الروس يعاني من ازدواج غريب . فهم يقولون ، في سجالاتهم ضد الشعبيين ، انه ينبغي على الرأسمالية ان تنمو اولاً كي تصبح الاشتراكية ممكنة التحقيق في روسيا . فالاشتراكية بدون صناعة حديثة تناقض لا حلّ له ، بالنسبة لهم . قد يناضل الاشتراكيون في اوروبا الغربية لتقويض الرأسمالية ، اما في روسيا ، فكل الآمال معقودة على نموّها وتطورها . ولما كانوا يرون في الرأسمالية محطة لا بد منها في الطريق بين الاقطاعية والاشتراكية ، أخذوا يشددون على فوائد هذه المحطة ، وسماتها التقدمية ، واثرها التمديني ، وجوها الجذاب ، وما شابه . ان العديد من الكتابات الاولى للماركسيين الروس – بما في ذلك كتابات بليخانوف ولينين وستالين ، ولكن بدرجة أقل – تبدو

وكأنها مرافعات عن الرأسمالية الاوروبية الغربية الليبرالية . الا ان هذه المفارقة مالبثت ان ادت الى البلبلة . فأخذ بعض الدعــاة يشدد على قسم من الموقف الماركسي ، والبعض الآخر يشدد على القسم الآخر . فتطلع البعض الى الهدف — الاشتراكية ، في حين التفت البعض الآخر إلى المحطة في منتصف الطريق — الرأسمالية . وبعبارة اخرى ، فقد كان البعض اشتراكياً والبعض الآخر برجوازياً ليبراليا يستخدم التغطية الماركسية للدعـــوة إلى الرأسمالية التقدمية . وفي حين كانت الاشتراكية نفسها هي الابن غير الشرعي لليبرالية في اوروبا الغربية ، كانت الليبرالية في روسيا — جزئياً على الاقل — فرعـــاً من فروع الاشتراكية . وكلما ازداد اقتراب رفاق الطريق من المحطة على منتصف الطريق ، كلمـا تفاقمت خلافاتهم .

وما ان اطل منتصف القرن ، حتى لم يعد بالامـــكان الحيلولة دون الانشقاق بين الماركسيين وبين الذين يسمون الماركسيون الشرعيون . كان « الماركسيون الشرعيون » (وقد عرفوا بهذا الاسم لانهم يبشرون بالعقيدة الماركسية على نحو مجرّد فقط تقبل بـــه الرقابة القيصرية) يتجمعون حول بعض علماء الاجتماع والاقتصاد المرموقين — من امثال ستروف ، وتوغان بارانوفسكي ، وبولغاكوف ، وغيرهم — ممن يستخدمون المنهاج الماركسي في التحليل السوسيولوجي والاقتصادي ، مع تجاهلهم ، لا بل رفضهم رفضاً قاطعـــاً ، للجوانب الثورية من الماركسية * . وادى الانشقاق إلى احداث البلبلة في صفوف الاعضاء خاصة وان الماركسية قد جرت معها ، طوال فترة طويلة ولا ريب ، عدداً من الاشخاص المعتدلين . فنقدها للـ « إرهاب الفردي » ومهاجمتها منظمي الاغتيالات ، جعلاها تظهر وكأنها الاكثر اعتدالاً بين العقائد الثورية الراهنة . فكان على بليخانوف ولينـين (وعلى اصدقائهما الاقل شهرة منهما ، من امثال اكسلرود ، وزاسوليتش ، ومارتوف) ان يبذلوا جهوداً جبارة للتغلب على الفوضى ، وللتذكير بالاستنتاجات الثورية لتعليمهم ، للتميـــيز بين الليبراليين والاشتراكيين .

واستعر الخلاف على صفحات الكتب والنشرات والمطبوعات الدورية . وامتد إلى كل مركز من مراكز المعارضة السياسية في روسيا ، بما في ذلك بـــلدة تيفليس . ان

---

* في السنوات اللاحقة ، امسى الماركسيون الشرعيون المتكلمين باسم الليبرالية المحافظة والملكية . ان توغان بارانوفسكي معروف في الغرب كمؤلف لتاريخ ماركسي عن الدورات التجارية الانكليزية في القرن التاسع عشر .

« ميسامي داسي » مجموعة غير محددة تضم جميع الذين يعتنقون المبادىء الماركسية ، الا ان نظرة اعضائها المعتدلين كانت مطعَّمة « بالماركسية الشرعية » . وكان الخلاف قد بلغ طوراً متقدماً عندما انضم دجوغا شفيللي إلى « ميسامي داسي » . الجناح المسيطرهو الجناح اليميني بقيادة نوح جوردانيا . الا ان دجوغا شفيللي فضّل الانضمام إلى الاقلية اليسارية .

وما ان انتهى هذا الخلاف ، حتى برز خلاف آخر . إذ أدت الاضرابات الاولى والاضطرابات العمالية التي رافقتها إلى ولادة تيار جديد هو « النزعة الاقتصادية » . وقد أطلق الاشتراكيون الروس هذه التسمية على من يسميهم الفرنسيون بالسنديكاليين ، أو ذوي النزعة النقابية غير السياسية . أراد « الاقتصاديون » ان تقتصر نشاطاتهم على مساندة مطالب العمال لاجور أعلى وظروف عمل أفضل ، دونما اهتمام بالسياسة . كانوا يخشون من ان يؤدي الحديث السياسي « العنيف » ضد القيصر ، او ان تؤدي الدعاية الاشتراكية الى تنفير الطبقات العاملة ، التي كانوا يعتقدون انها لا تكاد تهتم بغير قضايا الخبز والزبدة . وقد رد الاشتراكيون السياسيون متهمين « الاقتصاديين » باعتناق نظرية متعالية ومزدرية حيال الطبقة العاملة . وقالوا ان الاحداث سوف تبين ان العمال هم اوعى طبقة سياسياً ، شرط ان تقنعهم الدعاية الاشتراكية باهمية السياسة . وبديهي انهم لن يرتفعوا عن مستوى الخبز والزبدة اذا كان قادتهم انفسهم يخشون الخوض في السياسة .

حتى عام ١٩٠١ ، كان « الاقتصاديون » لا زالوا يشكلون الاغلبية في المؤتمرات الاشتراكية المنعقدة في الخارج . ولكن اليأس لم يتملك السياسيين ، فراحوا يحاولون إقناع العناصر المترددة برفض موقف الاغلبية . خلال فترة وجيزة ، سيطر «الاقتصاديون» في القفقاس على السياسيين . الا ان الدعاة الذين ارسلهم بليخانوف ولينين الى تيفليس قاموا بعمل اساسي سرعان ما ادى إلى تلاشي نفوذ « الاقتصاديين » . وايد دجوغاشفيللي الشاب السياسة الثورية ضد « النزعة الاقتصادية » ، شأنه في ذلك شأن الذين يختلط بهم امثال تسولوكيدز وكيتسخوفللي وغيرهما .

اخيراً ، اخذ موضوعان مترابطان يحظيا باهتمام الاشتراكيين الشباب . فقد كانت اعدادهم تتزايد بسرعة . وما ان اطل عام ١٩٠٠ ، حتى كان عددهم قد بلغ بضعة مئات في تيفليس وحدها . والاهم من ذلك ، ان الحلقات السرية امست تضم من العمال اكثر مما تضم من المثقفين ؛ ولما كان لها صلات وثيقة بالمصانع ، صار بمقدورها الوصول الى

الجماهير الواسعة من العمال . فحان وقت الانتقال من مجرد التبشير بالمبادىء الاشتراكية امام بضعة عشرات من الافراد المختارين بعناية ، الى العمل النقابي والسياسي المتتابع بين الجماهير . ويسمّى هذا الانتقال بالتعبير الروسي « الانتقال من الدعاية الى التحريض » . وكان لكلمة دعاية معنى يختلف كثيراً عن المعنى الذي اكتسبته حالياً . لم تكن تعني إذهال الجمهور عن طريق حيل خادعة من الدعاية السياسية ، او « بيع الافكار » للسذج ، او خلق القادة على نحو مصطنع . بل كانت تعني العكس تماماً : المناقشة المتواضعة الصادقة للمبادىء في حلقات دراسية صغيرة ، وتفاعل الافكار لا الشعارات . في اواخر القرن ، شعر معظم الاشتراكيين الروس بان دعاية كهذه لم تعد كافية . ان العمل السياسي المنهجي على نطاق واسع يتطلب حزباً منظماً له قيادة وطنية شرعية يتوفر لها الحد الادنى من الوسائل المادية والمعنوية لكي تتمكن من قيادة وتثقيف وتنسيق نشاطات مختلف المجموعات المحلية . المطلوب ، بعبارة اخرى ، هو حزب على الصعيد الوطني يملك الانسجام والقوة الضاربة معاً .

طوال الاعوام العشرين او يزيد التي عقبت انشقاق بليخانوف في مؤتمر « الشعبيين » في فورونيج ، لم يولد مثل هذا الحزب . لم يكن يوجد غير مجموعات محلية ، يقودها قادة محليون ؛ وكان الوضع على هذا النحو عندما اعتنق دجوغا شفيللي الاشتراكية . وكان مؤتمر « مينسك » عام ١٨٩٨ اول محاولة لتأسيس هذا الحزب . الا ان الشرطة اعتقلت معظم اعضاء المؤتمر ، فقيّض لمقراراته ان تظل مجرد حبر على ورق لفترة من الزمن . بليخانوف ، المتكلم الرئيسي باسم الماركسية ، يعيشَ في منفاه في اوروبا الغربية ، فاقداً الاتصال بروسيا . هذا في وقت يشعر الاشتراكيون الشباب فيه بامس الحاجة الى توحيد مجموعاتهم المبعثرة . بعيداً في شمالي شرقي سيبيريا ، في قرية ما من مقاطعة « ينيساي » على بعد ٣٠٠ ميل من اقرب محطة قطار ، كان لينين ، البالغ من العمر ثلاثين عاماً ، ينتظر بفارغ الصبر اقتراب موعد انتهاء مدة نفيه البالغة ثلاث سنوات . كان قد كتب ، في سيبيريا ، عدة مقالات ، من بينها دراسة جدية قيمة حول « تطور الرأسمالية في روسيا » اكتسبت لمؤلفها شهرة ككاتب ماركسي مرموق . الا ان المنفي لم يكن مرتاحاً لنجاحه الادبي . كان يتلهف شوقاً إلى القيام بعمل ما لبناء الحزب الاشتراكي الحقيقي .

وما ان اطلق سراح لينين من سيبيريا ، حتى اتصل باصدقائه في بطرسبرغ وموسكو . واذا بهم يعتقدون بضرورة استشارة « الشيخ » بليخانوف ومعاونيه والتعاون معهم .

وكان لينين متلهفاً لذلك . فسافر خلال بضع اشهر إلى الخارج ، واوثق الصـــلات بين الماركسيين الكبار والماركسيين الشباب . ولم ينجم عن ذلك تأسيس حزب ، وانما ولادة مشروع يبدو اكثر تواضعاً من الحزب ، الا انه سوف يحتل مكانه في التاريخ الروسي ، لا بل في التاريخ العالمي . وفي اواخر عام ١٩٠٠ ، صدر في « شتوتغارت » ، العدد الاول من صحيفة دورية تدعى « إيسكرا » (الشرارة) . وكان لاسم الصحيفة دلالة رمزية : فمن الشرارة سيندلع لهيب الثورة الروسية . ولم يكتف المحررون بمجرد كتابة تعليقات صحفية على الاحداث الجارية ، بل عملوا على ايصال جريدتهم بانتظـــام الى القراء في روسيا . كانت النسخ تهرب عبر الحدود على يد اعضاء التنظيم السري . ولم يكن ثمة شيء مدهش او جديد في ذلك ، فالنشرات الدورية الروسية العديدة التي اصدرها المنفيون طوال عقود من الزمن سلكت الطريق نفسه ، ولكن ربما ليس بانتظام « إيسكرا » . ان السمة الجديدة لـ « إيسكرا » ، وقد تكون هذه هي السمة التي تجعل منها محاولة فريدة في كل تاريخ الصحافة ، هي ان الجريدة كانت الى جانب مهمتها الصحفية مركزاً لتنظيم الحزب السري داخل روسيا . فقد عين مجلس التحرير عدداً من المبعوثين والوكلاء الذين يتجولون سراً من اقصى البلد الى اقصاه ، فيتصلون بالمجموعات المحلية او يؤسسون مثـل هذه المجموعات ، ويتأكدون من بقائها على صلة دائمة بمجلس التحرير في الخارج ومن عملها حسب تعليماته . وسرعان ما تجمعت كل خيوط هذه الحركة السرية ، غير المتناسقة بعد ، في مكاتب تحرير « إيسكرا » التي نقلت من ميونيخ إلى جنيف إلى لندن ، بعيداً عن اعين الشرطة القيصرية . وبسرعة كوّن محررو الصحيفة فكرة واضحة عن قوة المجموعات المتناثرة في كل انحاء الامبراطورية الروسية ، وعن حياتها الداخليـــة . وتحولوا من مجرد معلقين وصحفيين الى نوع من اللجنة التنفيذية الفعلية للتنظيم السري . وهـا هم الآن في وضع يسمح لهم بان يعطوا هذه الحركة الهلامية شكـلاً ما ، وان يصهرونها في حزب وطني . وكان جميع الاشتراكيين في روسيا ممن يشاطرونهم هـذا الرأي يسمون انفسهم « ايسكروفتسي » او جماعة « إيسكرا » . وهكذا تحولت الصحيفة المتواضعـــة الى مهماز للثورة .

ولم يهمل مبعوثو « ايسكرا » منطقة القفقاس . وبسرعة ، صـــار لـ « ايسكرا » مجموعة بين الاشتراكيين الشباب في تيفليس ، وكان دجوغاشفيللي واحداً منهم . وكان ، كغيره من الشباب ، ينتظر بفارغ الصبر النسخ المتتالية التي تصل بالبريد السري في فترات

متباعدة . وكان وصول عدد جديد حدثاً يدعو الى الاحتفال . فهنا المرجع الفكري الذي يمكنه الركون اليه بارتياح ، فكل نسخة من « ايسكرا » تحمل غذاء للفكر والعديد من الحجج الدامغة المفيدة جداً في النقاش مع الخصوم . واسهمت الصحيفة ايضاً في تدعيم ثقة الشاب بنفسه . بمقدوره الآن افحام خصومه عن طريق حجج راسخة وصيغ دقيقة صاغها منظرون كبار في الخارج ، فيعود اليه في المقابل بعض من الفضل العائد الى هؤلاء المنظرين . طبعاً ، كان دجوغاشفيلي صغير السن وقليل الثقافة لكي يتمكن من المساهمة في « ايسكرا » ، بالرغم من انه يمكن اعتباره فاهماً بالمقاييس المحلية . وفكره مدرّب بما فيه الكفاية على استيعاب وهضم الخطوط الرئيسية للآراء المطروحة ، رغم انه لم يكن قادراً على استجلاء كل ملاحنها الخفية . فلم يعد يكتفي بالتوجه الى العمال في حلقاته عارضاً عليهم الافكار العامة للاشتراكية والاسباب الموجبة لمقاومة الحكم القيصري والاستغلال الرأسمالي وحسب ، بل اصبح بامكانه الآن ان يردد ايضاً الحجج الخاصة ضد الاشتراكية الزراعية والماركسية الشرعية والنزعة الاقتصادية . فارتكز نشاطه الذهني الى هذه القواعد الفكرية التي خدمت كاساس لكتاباته الاولى باللغة الجيورجية .

وهكذا ، كان اول عامين بعد طرده من الكلية الكهنوتية فترة حاسمة من فترات نموه الذهني والسياسي . كانت اراؤه الاشتراكية لا تزال غامضة حين غادر الكلية الكهنوتية . صحيح انه منجذب للماركسية ، الا انه كان قد الفها لتوه ، ولم يكن قد استوعبها بعد . ومهدت وطنيته الجيورجية الطريق امام ولاء اوسع : ايمانه بان الاشتراكية الاممية سوف تقضي على الاضطهاد الوطني والعرقي بالاضافة الى قضائها على الاستغلال الطبقي . الا ان ترسبات مزاجه لم تمح . وبعد سنتين من ذلك ، تركز فكره ، نتيجة تأثير كتابات بليخانوف ولينين ومعاونيهما ولا شك . وهذا ما تبين من كتاباته السياسية الاولى المنشورة عام ١٩٠١ حيث كان كل اهتمامه منصباً على المسألة « الاجتماعية » لتمييزها عن المسألة « الوطنية » . فبدأ يتكلم لغة الماركسي المقتنع « غير المساوم » .

* * *

لم يتمكن دجوغا شفيللي من الحصول على وظيفة او على مسكن طوال عدة اشهر عقبت طرده من الكلية الكهنوتية ، وبالتحديد بين ايار ونهاية عام ١٨٩٩ . فامضى بعض

الوقت عند امه في غوري ، ثم عاد الى تيفليس حيث سكن عند بعض العمال الواعين ممن يحضرون محاضراته . وتمكن ، بمساعدة بعض الاصدقاء ، من جمع بعض المال عن طريق اعطاء الدروس الخصوصية في منازل الطبقة الوسطى . وحصل على وظيفة كاتب في مرصد تيفليس في اواخر العام . كان اجره زهيداً ، ولكن للوظيفة حسنات جمة . فهي لم تتطلب عملاً كثيراً يقيده ، الى جانب كونها وفـّرت له غرفة خاصة به في المرصد ذاق فيها طعم الانفراد لاول مرة . فصار بمقدوره ان يعقد الاجتماعات في غرفته ، آملاً ان توفر له سمعة المرصد المحترمة حماية آنية من اعين الشرطة . وكان ذلك على جانب كبير من الاهمية ، إذ ان الشرطة اعتقلت عدة اعضاء من « ميسامي داسي » خلال الاشهر القليلة التي تلت . ولم يكن هو بينهم . فقد كان يتقن فن التخفي . ان حذره ، وعناده ، ونباهته ، وسرعة خاطره ، جعلت منه ، حتى في تلك السن المبكرة ، مناضلاً سرياً مثالياً في اكثر من ناحية .

امضى الاشهر الاولى في المرصد وهو منشغل ، بالتعاون مع آخرين ، في التهيئة لتظاهرة عيد اول ايار في القفقاس . وفي ذلك تحد للسلطة واعلان التضامن مع عمال اوروبا في آن معاً . الا ان التحدي كان لا يزال خجولاً آنذاك . ففي اليوم المقرر ، تسلل اربعمائة الى خمسمائة عامل من البلدة وتجمعوا عند « بحيرة الملح » في خراج تيفليس البعيدة حيث يستبعد ان تصل اعين الشرطة . هناك ، ضم المتظاهرون الصفوف ورفعوا الاعلام الحمراء ، وصوراً مرسومة محلياً لماركس وانجلز . وكان هذا الاجتماع المتواضع اشبه بمسيرة ارثوذكسية دينية استبدلت فيها الايقونات والصور المقدسة بصور ماركس وانجلز . وخطب دجوغاشفيللي في المجتمعين . وكان هذا اول خطاب عام له . وتلاه خطيبان او ثلاثة ، ثم انشد الجمع بعض الاناشيد الاشتراكية قبل ان يتفرق . قد تبدو التظاهرة ، من منظار وضعنا الحالي ، ليست ذات بال ، ويبدو المتظاهرون شديدي الخجل . إلا ان الامر كان يبدو مختلفاً في تلك الايام . هكذا كانت الاشتراكية تستجمع قواها . وفي اول ايار الذي تلاه ، اقدم المتظاهرون على تحدي « الاوخرانا » في وسط المدينة [1] .

وكان الحدثان الجديران بالاهتمام ، في عام لم تكثر فيه الاحداث الهامة ، هما الاضراب

---

(١) الاوخرانا ، التي حلت محل المكتب الثالث ، هي جهاز الشرطة السرية الذي انشىء عام ١٨٨١ بعد اغتيال القيصر اسكندر الثاني .

في ورشة سكك الحديد ، ومجيىء أحد اصدقاء لينين ، فيكتــور كورناتوفسكي ، إلى تيفليس . وتورط دجوغاشفيللي في الاضراب بطريقة ما . لا شك في انه ناقش مع رفاقه الخطط التكتيكية لاضراب عمال السكك واسهم في اصدار النشرات . إلا ان العمال المهرة المنفيين من روسيا ، من امثال كالينين والبلوييف وغيرهما ، هم الذين قادوه . واسهم مجيىء كورناتوفسكي في تنشيط الحركة الاشتراكية في تيفليس . ولا بد ان يكون صديق لينين المعجب به قد حدثهم عن لينين نفسه وعن افكاره وخططه . ولم يكن مبعوث لينين يخلو من الجاذبية في اكثر من ناحية . وقد اصبح فيما بعد بطلاً اسطورياً من أبطال ثورة ١٩٠٥ . واعجب دجوغاشفيللي به اشد الاعجاب . واعتــبره كورناتوفسكي ، من جهته ، واحداً من القادة المحليين الذين يمكن الركون اليهم ، ولكن لم تنشأ علاقــة علاقة حميمة بينهما .

كان عام ١٩٠١ مليئاً بالاحداث . وكان عيد اول ايار فيه مغامرة ضخمة اكثر جدية بكثير من العام الماضي ، واجهت فيه السلطة تحدياً اعنف واخطر . وجاء في منشور وزّع في تيفليس ما يلي :

« ان عمال عموم روسيا قد قرروا الاحتفال بعيد اول ايار علناً وفي احسن شوارع مدنهم ، انهم يتوجهون الى السلطات بفخر معلنــين ان سيوط القوزاق وسيوفهم والتعذيب الذي تمارسه الشرطة والجندرمة لن ترهبهم . »

فقررت الاوخرانا ان تبادر هي إلى الهجوم . فاقدمت على اعتقال كورناتوفسكي مع افضل الاشتراكيين المحليين في ٢١ آذار ، اي قبــل حوالي الشهرين من الاول من ايار . واقتحمت غرفة دجوغاشفيللي في المرصد ، بعدما تمكنت الشرطة اخيراً من كشف نشاط هذا الموظف المتستر . ولم يكن دجوغاشفيللي في الغرفة ، فنجا من الاعتقال ولما لم يكن بوسعه العودة الى المرصد ، ودّع وظيفته الهادئة . ولم يكن بوسعه ان يسكن في اي مكان مستعملاً اسمه الاصلي ، فيسهل على الشرطة ان تقتفي أثره فوراً . ومن البديهي انه لم يعد بامكانه مواصلة النضال العلني ، فاضطر إلى اخفاء هويته . ومهما يكن من امر ، فالقليل من رفاقه كان يعرف اسمه الحقيقي قبلاً ، ومعظمهم يطلق عليه اسماء مستعارة . امامن الآن فصاعداً ، فانه سيخفي كل وجوده خلف الجوازات المزورّة والاسمــاء المستعارة التي استعمل منها حوالي العشرين خلال الخمس عشرة سنة المقبلة . كان حتى ذلك الحين يعيش

على الحد الفاصل بين العمل السري والعمل العلني . وها هو الآن ينزل الى « العالم السفلي» إلى العمل السري الذي لن يخرج منه نهائياً الا عام ١٩١٧ ، بعد فترة وجيزة من تعيينه عضواً في اول وزارة سوفييتية . واضطر إلى ان يعتمد كلياً ، لمعيشته ، على المساعدة التي توفرها له منظمته ، الغنية بالطموح والحماس والفقيرة بالمال ، وعلى المساعدة الخاصة التي يقدمها له بعض رفاقه . ان قراره بانتهاج هذا الخط نذر فقر غير رسمي ختم فترة تدريبه كمناضل اشتراكي . وها هو المسترهب السابق في طريقه الى الانضمام الى تلك الرهبنة من صعاليك الثورة وحجّاجها الذين لا توفر الحياة لهم الا القليل من الاهتمام والسلوى خارج مجال التفاني في خدمتها .

وكانت اول مهمة قام بها بعد الاعتقالات هي الردّ على ضربة الاوخرانا . كان ينبغي انجاز مغامرة أول ايار . فلا يجوز ان تذوق الاوخرانا طعم النجاح . وفيما عدا ذلك ، فان اعتقال القادة الآخرين فرصة مؤاتية له . فما عليه إلا ان يثبت جدارته لكي يرقى فوراً إلى مرتبة اعلى في « العالم السفلي» . لذا ، كان ينبغي تنفيذ التحدي الوارد في المنشور . فاحتشد في اول ايار جمع من العمال يضم حوالي الالفي عامل – اي اربعة او خمسة اضعاف ما كانوا عليه في العام الماضي – في « سولدا تسكي بازار » قرب حديقة الاسكندر في وسط المدينة . وكان الشرطة والقوزاق بانتظارهم . فادى الاشتباك بينهما الى وقوع اربعة عشر جريحاً بين المتظاهرين واعتقال خمسة عشر منهم . وبعد بضع اسابيع من ذلك ، علق محررو « ايسكرا » على التظاهرة معتبرين اياها فاتحة احداث عظيمة : « ان حادثة الاحد في ٢٢ نيسان في تيفليس لهي ذات اهمية تاريخية بالنسبة للقفقاس باسره ، ان ذلك اليوم يعلن بداية حركة ثورية عارمة في القفقاس » .

حتى ذلك الحين ، كان دجوغاشفيللي قد كتب بعض المنشورات والبيانات عندما استدعت الحاجة . فاخذ يجرب حظه في الصحافة الثورية . كان كيتسخوفللي قد ذهب الى باكو ونجح – اخيرا – في تأسيس المطبعة السرية التي طالما حلم بها . فحلّ مسألة اصدار صحيفة سرية باللغة الجيورجية . وصدر العدد الاول من الصحيفة المسماة « بريدزولا » (الكفاح) في ايلول ١٩٠١ .

صدر برنامج الصحيفة على شكل رسالة من المحررين. وقد ادعى ستالين ، عام ١٩٤٦، انه هو واضعه ، عندما ضمه الى الطبعة الاولى من « مؤلفاته الكاملة » . من حيث

الاسلوب ، لا يمت البلاغ بصلة وثيقة الى كتاباته اللاحقة . والارجح ان اكثر من واحد وضعه ، الا ان دجوغاشفيللي كان المساهم الرئيسي فيه . لم يتعرض البلاغ الواضح البسيط، العديم البلاغة ، للافكار العامة للاشتراكية ، فقد اعتبر المحررون ان هذه من المسلّمات . بل شرعوا ، منذ البدء ، في سجالات غير مباشرة ضد الاغلبية المعتدلة في « ميسامي داسي». وفسروا الاسباب التي دفعتهم الى الطباعة السرية على النحو التالي: « واننا نعتقد بان العامل الذي يظن ان الصحيفة العلنية قادرة على الدفاع عن مصالحه يرتكب خطأ فادحاً . ان الحكومة ، في معرض « اهتمامها » بالعمال ، تدبرت امر الصحف العلنية على احسن وجه . فالحقت جمعاً كاملاً من الموظفين، يطلق عليهم اسم رقباء، بهذه الصحف... ويصدر الامر تلو الآخر الى لجان الرقابة : « لا تأتوا على ذكر العمال ، لا تنشروا شيئاً من هذا الحدث او ذاك » وما الى ذلك » .

كانت «بريدزولا » اول صحيفة حرّة ، ذلك انها تحررت من الرقابة . والذي يجعلها اكثر تمايزاً هو التواضع السياسي الذي اتسم به محرروها إذ اعلنوا صراحة انهم لا يطمحون إلى اتخاذ خط سياسي خاص بهم ، لأنه ينبغي على الحركة العمالية الجيورجية ان تكون جزءاً من الحركة العمالية في عموم روسيا . فضروري ان تخضع سياستها لسياسة القادة الاشتراكيين في الامبراطورية القيصرية . وكان ذلك اكثر من هجوم على غالبية اعضاء « ميسامي داسي » الذين يميلون الى تكوين حزب جيورجي خاص بهم يرتبط بالحزب الروسي ولكن لا يخضع له .

صدر العدد الثاني من « بريدزولا » بعد ثلاثة اشهر ، اي في كانون الاول من عام ١٩٠١ . واحتوى على مقالة طويلة ، كتبها دجوغاشفيللي ولكنها صدرت مغفلة التوقيع عنوانها « الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ومهامه العاجلة » . لم تكن المقالة اكثر من تلخيص لافكار « ايسكرا » ولافكار لينين على وجه الخصوص . لكن لم يكن من الصعب اقتفاء آثار ذلك الذي سيصبح ستالين من خلال اسلوبه ، وطريقة العرض عنده، وفي تعابيره ، وحتى في الاستعارات اللفظية المفضلة لديه التي سوف يستعملها لاحقاً في مناسبات متفاوتة ، فتذاع على العالم اجمع وتصنع التاريخ . ثمة قوة غريبة في تأكيده على نقاط البحث الرئيسية ، وهذا تكرار يكاد يبعث على الضجر يميز اسلوب لينين ايضاً ، فضلاً عن ميل نحو التصوير القاتم المضخم الشبيه بوعظة يوم الاحد في كنيسة ارثوذكسية .

« إن العواصف وجداول الدم العديدة قد اجتاحت اوروبا الغربية بغية القضاء على اضطهـاد الاقلية لأغلبية الشعب ؛ إلا ان العذاب لم ينتهِ بعد ، ولا زالت الجراح دامية كما في السابق ، والألم يزداد حدة يوماً بعد يوم » .

وبعد التخلي عن هـذه الصور الخرقاء ، ينتقل المؤلف الى اعطاء تلخيص تبسيطي لتاريخ الاشتراكية في اوروبا وروسيا ، كالذي كان اشتراكيو ذلك الزمن يقومون بـه بالاستناد الى كتـاب انجلز « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » او الى كتابات بليخانوف او لينـين . واستخدم امثلة محددة من احداث محلية راهنة للبرهان على ان القفقاس منطقة متخلفة عن سائر روسيا التي بلغت مرحلة النضج الاشتراكي . ثم هاجم الاقتصاديين الذين يريدون ان يناضل العمال من اجل قوتهم فقط ، لا ان يناضلوا ضد القيصرية ومن اجل الاشتراكية . ان وضع الاقتصاديين شبيه بوضع الاشتراكيين المعتدلين في اوروبا الغربية – انصار ادوارد برنشتاين في المانيا مثلاً – الذين يؤمنون بالاصلاحات التافهة وتخلّوا عن هدف الاشتراكية العظيم . كانت اشاراته الى الخلافات بين الاشتراكيين في المانيا مبنية على التقارير المنشورة في « ايسكرا » لأن المؤلف كان يجهل الالمانية ؛ الا ان ذلك اثبت انه متتبع للاتجاهات والتيارات في الحركة الاشتراكية الاوروبية الغربيـة بالرغم من ان مصادره ثانوية . واستطرد قائلاً انه اذا كان يحق للاشتراكيين الاصلاحيين في اوروبا الغربية ان يدّعوا انهم يعيشون في ظل رأسمالية متمدنة على الاقـل ، « حيث اكتُسِبت الحقوق الانسانية » ، كيف يمكن الاقتنـاع بالتقدم خطوة خطوة في ظل القيصرية المستبدة ؟ « ان الاهداف الكبيرة هي وحدها التي تحرك المجهودات الكبيرة » . على ان ذلك لا يعني انه لا يجوز ان يتدخل الاشتراكيون بنضال العمال من اجل قوتهم ، بـل على العكس ، ينبغي على الاشتراكيين الاسهام في هذا النضال لأنه ، بغض النظر عن اهدافه المباشرة ، كفيل بان يدفع العمال الى التكتل والاصطدام عاجلاً او آجلاً بالسلطة التي لا تمثل غير القوة المنظمة للطبقات المالكة .

ويبدأ الجزء الثاني من المقالة برسم صورة مريرة غاضبة لروسيا المضطهَدة .

« ليست الطبقة العاملة هي وحدها الرازحة تحت نير القيصرية . ان الحـكم الفردي يحاول خنق الطبقات الاجتماعية الاخرى . متذمرون هم الفلاحون الروس المتضورون جوعـاً ... متذمرون هم سكان المدن الصغيرة ، وأرباب العمل الصغـار ... والموظفون الصغار ، وبكلمة جميع اولئك الرجال الصغار الذين

يعانون من عدم الاستقرار في حياتهم كالذي تعاني منه الطبقة العاملة ، فلهم بالتالي كامــل الحق في الاستياء من وضعهم الاجتماعي . متذمرة ايضاً هي البرجوازية الصغيرة ، وحتى البرجوازية المتوسطة ، العاجزة عن تحمل لسع سياط القيصرية ، وخاصةً القطاع المثقف منها ... متذمرة هي القوميات والديانات المضطهدة في روسيـا ، من البولونيين والفنلنديين المطرودين من اراضيهم والذين جرى المساس بأقدس مشاعرهم . إن القيصرية قد داست بوحشية على الحقوق والحريات الــتي منحها التاريـخ لهــم . متذمرون هم اليهود الذين يتفاقم اضطهادهم واهانتهم ويسلبون حتى من تلك الحقوق القليلة التي يتمتع بها المواطنون الروس الآخرون – حق العيش حيث يختارون ، حق الدراسة وما شابه . متذمرون هم الجيورجيون والارمن والشعوب الاخرى الذين حرموا من حق فتح المدارس الخــاصة بهم او التوظف في الدولة ، والذين يجبَرون على الرضوخ لحملات الروسنة القسريـة ... متذمرة هي المـلايين العديدة من افراد الطوائف الروسية الذين يريدون ممارسة طقوس العبادة حسبما تمليها ضمائرهم وليس حسبما يشاء القساوسة الارثوذكس » .

ان صورة روسيـا « الاخرى » ، روسيا المضطهَدة ، المرسومة بخطوط غليظة وعن طريق التكرار الفظ الغليظ –الفعال مع ذلك– كانت تهدف الى إقناع القارىء بالامكانات الضخمة الكامنة في الثورة القادمة . فبامكان الطبقة العاملة – اكثر الطبقات ثورية – ان تعتمد على حلفاء في العديد من قطاعات المجتمع الاخرى .

الا ان المؤلف لا يتوانى عن إطلاق التحذير التالي : « المؤسف ان الفلاحين الروس لا زالوا يرزحون تحت نير العبودية والبؤس والجهل المعمي القديم ؛ انهم يستيقظون لتوهم من رقادهم ولم يتفهموا بعد من هو عدوهم الحقيقي . ان قوميات روسيا المضطهَدة لا يسعها حتى ان تفكر في التحرر من تلقاء نفسها ما دامت الحكومة الروسية ضدها ، ومــا دام الشعب الروسي لم يدرك بعد ان الحكم الفردي هو عدوهما المشترك » . الا ان تحذيره الاكبر كان ضد الانخداع بمعارضة البرجوازية للنظام القيصري : «ان البرجوازية في جميع الامم والبلدان هي افضل من يتقن سرقة ثمار انتصارات الآخرين ، انها احذق الناس في تحريك النار مستخدمة ايدي الآخرين . انها لا تريد ان تجازف بمكانتها ، التي توفر لهــا الامتيازات ، في النضال ضد عدو جبــار لا يسهل الانتصار عليه . وبالرغم من تذمر البرجوازيين ، فان معظمهم لا يزال مرفهــاً ، يتنازل عن طيب خاطر للطبقة العاملة

وللاناس العاديين بشكل عام عن حق تعريض ظهورهم لسياط القوزاق والقتال على المتاريس وما شابه » . لذلك ، ينبغي على الطبقة العاملة الصناعية ان تتسلم القيادة . فكل انتصار على القيصرية معرض للتحول الى مهزلة اذا تم بقيادة البرجوازية ، لأن لا بد للبرجوازية من ان تدوس على حقوق العمال والفلاحين بعدما يتولون تنفيذ الاعمال الخطرة بدلاً منها . اما اذا اقدم الشعب على قلب النظام القيصري بقيادة الاشتراكيين البروليتاريين ، فتكون النتيجة « دستوراً ديمقراطيا رحباً ، يعطي حقوقاً متساوية للعامل والفلاح المضطهَد والرأسمالي » .

اذا نظرنا الى هذا الاستنتاج الديمقراطي المعتدل « حقوق متساوية حتى للرأسماليين» ، بعد مضي حوالي نصف قرن على التوصل اليه ، لا بد وان يبدو متنافراً مع تهجمات المؤلف المريرة ضد البرجوازية . الا ان هذا « التنافر » كان مشتركاً بين الاشتراكيين الديمقراطيين الروس آنذاك . ففرضيتهم المشتركة ان روسيا لم تنضج بعد لقيام الاشتراكية فيها ؛ وان كل ما يمكن للثورة ان تحققه – في المستقبل الذي يمكن جلوه – هو استبدال الحكم الفردي الاقطاعي بالديمقراطية الرأسمالية . تلك هي المفارقة ، المألوفة حالياً ، في موقف الاشتراكيين التي كانت تجبرهم على النضال لانتصار ديمقراطية رأسمالية في بلدهم ، بالرغم من عدائهم للرأسمالية . وقد ادت هذه المفارقة الى حدوث انشقاق هام في صفوفهم بعد بضع سنوات . فقال الاشتراكيون المعتدلون ، او المناشفة ، انه لا بد للطبقة الوسطى الليبرالية من ان تلعب الدور الاساسي في ثورة تعمل على مجرد استبدال الاقطاع بالرأسمالية ، وانه ينبغي على الاشتراكيين ، بعد مساعدتهم الليبرالية على قهر الحكم الفردي والسيطرة على السلطة ، ان يلعبوا دور المعارضة الاشتراكية العادية في جمهورية رأسمالية برلمانية . في حين رد البلاشفة ، كما كان دجوغا شفيللي يرد عام ١٩٠١ ، بأنه لا يمكن الركون الى الليبرالية البرجوازية لقهر الحكم الفردي ، لذا ينبغي على الاشتراكيين الاضطلاع بالدور القيادي في ثورة معادية للاقطاع حتى ولو مهدوا بذلك لقيام نظام ديمقراطي يظل رأسمالياً من حيث بنيته الاقتصادية . ولم يبلغ هذا الحوار الهام ذروته الا عشية ثورة ١٩٠٥ . وبين هذا العام وعام ١٩١٧ ، لم تتغير حجة البلاشفة الاساسية تغييراً يمس ملامحها الرئيسية .

وهكذا ، فان دجوغا شفيللي ، في « اعتدال » وديمقراطية موقفه الحنبلي الذي حدا به الى الاعتقاد بالحقوق المتساوية للعمال والفلاحين والرأسماليين ، انما كان اميناً لروح

الاشتراكية الروسية في تلك الايام . والذي قد يبعث على الدهشة هو انه حتى في تلك الفترة المبكرة ، قبل عدة سنوات من حدوث الانشقاق بين البلاشفة والمناشفة ، كان موقف دجوغا شفيللي البالغ من العمر الثانية والعشرين هو عين الموقف الذي تبناه البلاشفة من بعد . فقد كان يتكلم بالطريقة التي ستتكلم فيها اللينينية حتى عام ١٩١٧ . وكانت اراؤه السياسية قد تبلورت الى درجة انها لم تتغير الا قليلاً خلال السنوات العشر او الخمس عشرة المقبلة . وقد أثر لينين فيه تأثيراً حاسماً حتى منذ ذلك الوقت المبكر ، وبالرغم من ان مؤسس البلشفية لم يكن قد نشر غير كتاباته الاولى ، فكان تأثيره خفياً لأن معظم دراساته ومقالاته ظهرت إما بأسماء مستعارة وإما مغفلة التوقيع . لكن هذا لا يعني ان القفقاسي الشاب قد تأثر بكل جوانب شخصية لينين المعقدة ، المتعددة الجوانب . فان بعض اهتمامات المعلم وأفكاره ، وحتى بعض اسس تفكيره ، ظلت بعيدة المنال بالنسبة لذهن التلميذ . الا انه تعاطف بحرارة منذ البدء مع تلك الجوانب من فكر لينين التي ُقيِّض له ان يستوعبها .

ولم يكن الكاتب الشاب مجرد داعية وحسب ، بل تبين انه منظم ثوري يهتم كثيراً بالوسائل المحددة التي تقود الحزب الى الهدف المنشود . فقد حلل مختلف وسائل العمل : حسناتها وسيئاتها ، ووضع دراسة قارن فيها بين الفعالية النسبية للاضرابات والجرائد السرية . واستنتج ان الصحافة السرية تصل الى حلقات محصورة من القراء ، وذلك هو حدّها . في حين الاضرابات اكثر فعالية منها ، لكن تحمل وزراً اكبر من المجازفة لأنها قد ترتد على العمال انفسهم . اما التظاهرات في الشارع ، فهي انجح وسيلة للعمل اكتشف لحينه . وبديهي ان ما يجول في خاطر دجوغا شفيللي هو اول تظاهرة ناجحة احتفالاً بعيد اول ايار في القفقاس التي اسهم بالاعداد لها منذ زمن ليس بالبعيد . والارجح ان نشوة النجاح قد دفعته الى تضخيم اهميتها . إلا ان تحليله كان يحوي وميضاً من رؤية ثاقبة الى اعماق نفسية الجماهير والى تركيب النظام الانتحاري الذي ابتكرته القيصرية للدفاع عن نفسها . قال ان التظاهرات التي يدعمها نفرٌ من الثوريين تحرِّك فضولية الجمهور الحيادي ، « **وليس اخطر على السلطة المستبدة من فضول الشعب** » . فالتظاهرة في الشارع تستحوذ على فكر المراقب الحيادي ، فلا يعود بوسعه البقاء على الحياد طويلاً بعد ذلك . وعندما تعمد الشرطة على تفريق المتظاهرين بوحشية ، يتعاطف بعض المتفرجين مع ضحايا الاضطهاد . فتعجز الشرطة ، في خضم غضبتها الحمقاء ، عن

التمييز بين متفرجين ومتظاهرين ، فيذوق كلاهما لسع سياطها . فتمتلىء صفوف المسيرة الاشتراكية المقبلة ببعض الذين اكتفوا بالتفرج على الاولى . ويعلق دجوغا شفيللي قائلاً : حتى السوط اضحى حليفنا ! ويتنبأ بأن « شبح الثورة الشعبية » سوف يخيِّم على نهاية هذه العملية . وكان واثقاً من استنتاجه الى درجة انه جازف باعطاء توقع محدد جداً ، إذ قال : سيظهر هذا « الشبح » بعد مدة لا تزيد عن سنتين او ثلاث سنوات . نادراً ما تأكدت نبوءة سياسية بالدقة التي تأكدت فيها هذه النبوءة . فبعد ثلاث سنوات بالضبط اندلعت ثورة ١٩٠٥ .

بالرغم من قيمتها السياسية ، لم تكن المقالة درة ادبية . ولا كانت تحتوي على ايـة ميزة مدرسية . لقد كتب لينين عندما كان في سن دجوغا شفيللي،اي في الثانية والعشرين من عمره ، دراسات اقتصادية واحصائية لا يخجل من تبنيها محـاضر او حتى استاذ في الاقتصاد . اما تروتسكي ، الذي كان في عمر دجوغا شفيللي ، فسرعان ما لمع كأحد مساهمي « ايسكرا » الاساسيين. هذا في حين لم يكن ممكناً ان تُنشر مقالة دجوغاشفيللي في « ايسكرا » وطبعاً ليس في صحيفة راقية مثل « زاريا » (الفجر) التي كان يصدرها بليخانوف ولينين ايضاً . اذا نحن قيّمنا المقـالة بهذه المعايير ، تبدو لنا من صنع تلميذ ومقلّد ؛ فتفكيرها السوسيولوجي فظ واسلوبها عادي ، رغم قوته . ولم يكن صعباً على محرري «ايسكرا» ، وعلى لينين خاصة ، ان يتبينوا أياً من مقالاتهم استلهم هذا الكاتب الريفي ، وان يقتفوا اثر المقاطع التي استعارها منهم جملةً وتفصيلا . ولكننا نظلم كتابات دجوغا شفيللي الاولى اذا نحن حاكمناها حسب مقاييس النخبة الادبية المتقدمة من الحركة الاشتراكية الروسية ، خاصة وان « بريدزولا » قد قدمت نفسها بتواضع للقراء على انها لسان الحال الجيورجي لهذه النخبة . ويمكن اعتبار مقالة دجوغا شفيللي حدثاً هاماً اذا نحن حاكمناها وفق المقاييس القفقاسية.فالباحث الذي يقرأها اليوم ، آخذاً بعين الاعتبار كتابات المؤلف اللاحقة ، يندهش ، لا محالة ، من النضج النسبي في اسلوبها . ولا شك في ان مقالة « بريدزولا » هي من افضل المقالات التي كتبها المؤلف طوال ما يزيد عن نصف قرن ؛ قليلة هي المقالات الافضل منها ، وكثيرة هي الاسوأ من حيث المضمون والاسلوب معاً .

ان السرد التفصيلي لنشاطات دجوغا شفيللي خلال الاشهر والسنوات القادمة يتطلب المجلدات الطوال . فقد عاش حياة نموذجية كمحرِّض ومنظم اشتراكي مطارَد . وجوهر مثل هذه الحياة الاضرابات والتظاهرات والاجتماعات السرية والمؤتمرات وما شابه . ولما كانت هذه النشاطات مشتركة بينه وبين الذين يشاطرونه مثل هذه الحياة ، فلم يدوّنها احد . ولم تسلط اضواء البحث عليها إلا بعد ثلاثين او اربعين عاماً . فتهافت الاصدقاء والاعداء على حدٍ سواء على اتفه خبر يتعلق بنشاطاته الاولى . فسعى الاولون الى الاثبات ان حتى شباب الزعيم الاعظم يشع بالعظمة المدهشة ، بينما صمم الآخرون على اقتفاء آثار سيئات الرجل الشرير الى المهد . لقد كتبت المجلدات الضخمة خلال ذلك . الا انها ، سواء كانت مدحاً ام هجاءً ، لا تكاد تساهم بشيء في معرفة ستالين الفعلية . وليس بوسعنا الا ان ننتقي بعض الوقائع الثابتة صحتها من بين هذا الخليط من السجالات التافهة .

في تشرين الثاني من عام ١٩٠١ ، انتخِب دجوغا شفيللي عضواً في اللجنة الاشتراكية الديمقراطية في تيفليس. وتقود هذه الهيئة المكونة من تسعة اشخاص المجموعات الاشتراكية الديمقراطية في العاصمة القفقاسية . وقد لعبت لفترة وجيزة دور اللجنة التنفيذية الفعلية للقفقاس ككل . وهكذا وجد دجوغا شفيللي نفسه في مركز ملائم لمراقبة الحركة في المقاطعة ككل . ولكنه لم يلبث ان غادر تيفليس الى باطوم ، المركز الجديد للصناعة النفطية على الحدود التركية ، بعد اسبوعين فقط من ذلك التاريخ . وكان العمل على ربط باطوم بباكو بواسطة انابيب النفط قد انتهى لتوّه . ان الشخصية الرئيسية في لجنة تيفليس هي سيلفستر دجيبلادزه ، نفس الشخص الذي اعتدى على رئيس الكلية الكهنوتية والذي اصبح فيما بعد استاذاً لدجوغا شفيللي في الاشتراكية . الا ان العلاقة بين الرجلين لم تكن على ما يرام . فالارجح ان دجيبلادزه كان يعامل تلميذه بطريقة ابوية الى حدٍ ما ، فأثار كرامته . وهو ، بالاضافة الى ذلك ، يؤيد الجناح المعتدل في « ميسامي داسي » . وهكذا فالتناقضات السياسية الشخصية جعلت من تعاونهما امراً صعباً الى حدٍ ما . والاغلب ان سفر دجوغا شفيللي كان الحل الذي اراح الجميع : دجيبلادزه ودجوغا شفيللي ولجنة تيفليس . ان باطوم بحاجة الى منظم اشتراكي نشط ، فلا بد اذاً للطرف الاصغر في الخلاف من ان يجد فيها منفساً لنشاطه وطموحه . وبالمناسبة ، خلال اقامته في تلك البلدة على الحدود التركية ، بدأ دجوغا شفيللي يستعمل الاسم المستعار « كوبا » ، اي «العاصي»

في اللغة التركية . و « كوبا » ايضاً اسم خارج عن القانون وبطل يثأر للشعب في قصيدة للشاعر الجيورجي كازبيجي ، احد الكتاب المفضلين لدى دجوغا شفيللي ايام فتوته . وهكذا ، عُرف كوبا الثوري بهذا الاسم بين رفاقه قبل ان يتبنى اسمه المستعار الاشهر — ستالين — . وقد ظل البلاشفة القفقاسيون القدامى يسمونه كوبا حتى بعد ذلك التبني .

ان باطوم اصغر بكثير من تيفليس . لا يتجاوز عدد سكانها الخمسة والعشرين الفاً ، بينما يبلغون في تيفليس مئة وخمسين الفاً . الا انها كانت تتزايد اهمية كمركز صناعي ، نتيجة تدفق رأس المال الاجنبي بشكل خاص . فالمنشآت النفطية الاساسية ملك لشركة روتشايلد ، وأكثر من ربع العمال الصناعيين في القفقاس ككل يقطن باطوم . وبالرغم من ان البلدة حظيت بنصيبها من الدعاية الاشتراكية ، الا انها لم تكن تملك منظمة سرية منسجمة . وقد جهد كوبا لردم هذه الهوة. وبعد بضع اسابيع من مجيئه ، دعا الاشتراكيين الى عقد مؤتمر . وفي اجتماع مرح مسالم احتفالاً بعيد رأس السنة ، جرى انتخاب اللجنة الاشتراكية الديمقراطية لباطوم . وكانت الخطوة الثانية هي انشاء مطبعة سرية مشابهة لمطبعة كيتسخوفيللي في باكو . ووضعت المطبعة في غرفة صغيرة كانت غرفة نوم دجوغا شفيللي في الوقت ذاته . ويروي احد الطباعين الاشتراكيين في مذكراته : « كنا نصفّ الاحرف على علب الكبريت او السجائر وعلى قصاصات الورق » . ويتذكر شاهد عيان كوبا جالساً الى الطاولة في وسط الغرفة يكتب المناشير ويعطيها لعمال الصف . وكان كوبا يسافر بين الحين والآخر الى تيفليس فيتصل بأعضاء اللجنة هناك ويشترك في مداولاتهم ، ويقدم التقارير عن منجزاته في باطوم . ووصلت المناشير التي كتبها ، والتي طُبعت في غرفته ، الى حقول النفط ، ومراكز التعبئة ، والمصانع ؛ وسرعان ما تبيّن اثرها في التململ السياسي والاضطرابات العمالية . يقول تقرير سرّي للشرطة :

« في خريف عام ١٩٠١ ، ارسلت اللجنة الاشتراكية الديمقراطية في تيفليس احد اعضائها ، المدعو يوسف فيساريونوفيتش دجوغا شفيللي ، الطالب سابقاً في الصف السادس في الكلية الكهنوتية في تيفليس ، الى باطوم للدعاية بين عمال المصانع . ونتيجة لنشاطات دجوغا شفيللي ... ظهرت منظمات اشتراكية ديمقراطية في كل مصانع باطوم . وأعطت الدعاية الاشتراكية الديمقراطية ثمارها

ابتداء بعـــام ١٩٠٢ في الاضراب الطويل في مصنع روثتشايلد وفي التظاهرات الشارعية [١] » .

وخلال احدى هـذه التظاهرات ، اطلق فوج القناصة القفقاسي النار على المتظاهرين فقتـــل خمسة عشر وجرح الكثيرين . وضاعفت الاوخرانا جهودها لاكتشاف المطبعة السرية والدعاة الاشتراكيين . واعتقل كوبا يوم ٥ نيسان ١٩٠٢ ، خلال اجتماع للجنـة باطوم . ولكن لم تتمكن الشرطة من العثور على المطبعة .

لم تطل اقامة كوبا في باطوم اكثر من اربعة اشهر ونصف ، الا انها كانت اشهراً من النشاط الكثيف . ويجدر بنـــا هنا ان نذكر حادثة واحدة لأنها تلقي الضوء سلفاً على احداث لاحقة . أثارت اعمال كوبا في باطوم نقداً عنيفاً من قبـل الاشتراكيين المعتدلين المحليين بقيـــادة نيكولاي شخايدز ، وهو مسترهب سابق مثل كوبا زرع بجذر اول بذور الاشتراكية على شاطىء البحر الاسود . وكان يحظى باحترام كبير لثقافته الواسعة ومقدرته الخطابية الرفيعة . والظاهر ان هذا الداعية لم يكن متحمساً لفكرة انشاء منظمة سرية فعّالة . فهو لا يؤمن بأن مثل هذه المنظمة تملك حظـاً في الاستمرار في بلدة صغيرة كباطوم يصعب فيها الحفاظ على السرية ، ويسهل على « الاوخرانا » القضـاء على النشاط السري في مهده . فاعتبر ان خطة كوبا هوجاء ، وطلب منه ، شخصياً وبواسطة الاصدقاء ، ان يعدل عنها وان يترك الاشتراكيين المحليين يسلكون طريقهم الخاص . الا ان كوبا لم يرتدع . وبالرغم من اتهام خصمه له بأنه « مخرِّب » و « مجنون » ، فقد نفذ خطته حتى النهاية وفضح « تخاذل » شخايدز . وسوف يلتقي الجيورجيان في لقاءات عديدة بعد ذلك . فبعد عشر سنوات ، اي في عـام ١٩١٢ ، اضحى شخايدز الخطيب

---

(١) يحتوي كتاب Stalin i Khashim (ستالين وهاشم) ص ١٤ - ٣٢ ، على وصف حي للبيئة الشرقية البدائية التي عملت فيها منظمة باطوم . فر كوبا الى انجازيان ، وهي قرية قرب باطوم ، هربـــاً من مطاردة الشرطة . وهناك ، سكن منزل مسلم عجوز يدعى هاشم ونقل المطبعة اليه . وكان اعضاء المنظمة الذين يؤمون البيت لتسلم المناشير الممنوعة يتنكرون بثياب النساء ويغطون وجوههم بالـ « شادار » ، وهي الاخمرة التقليدية الطويلة الـــتي ترتديها النساء القفقاسيات . وسرعان ما ارتاب الجيران بالامر ، وانتشرت الشائعات القـــائلة ان كوبا يزور العملة . وتأزمت الاحوال عندما اخذ سكان القرية يطالبون بحصتهم من الارباح . ولكن يبدو ان كوبا نجح في ان يفسر للقرويين طبيعة عمله الحقيقية وان يكسب ثقتهم ، الا انه اضطر الى ان يقطع وعداً على نفسه لهاشم بان يعتنق الاسلام .

المنشفي الكبير في سان بطرسبرغ ورئيس الكتلة الاشتراكية في الدومـا (المؤسسة شبه البرلمانية التي انشأها القيصر) . بينما كان كوبا قد اضحى احد قادة البلاشفة السريين ، يحرّك الخيوط التي تشدّ النواب البلاشفة في الدوما . وفي عـام ١٩١٧ ، كان شخايدز الرئيس المنشفي لسوفييت بتروغراد (هذا المنصب الذي خلفه تروتسكي عليه عندمـا تعـاظم المدّ البلشفي) ؛ في حين كان يوسف ستالين عضواً في اللجنة المركزية . وفي تلك السنة ، اشترك المسترهبان الجيورجيان السابقان في معركة في عـاصمة القياصرة تبودلت فيها اتهامات ونعوت لا تختلف كثيراً عن تلك التي تبادلوها قبلاً في باطوم .

●

الفصل الثالث

سنة ١٩٠٥

ستالين في سجن «باطوم» . ـ «سجون» القيصر مراكز لتثقيف الثوريين . ـ جذور البلشفية . ـ لينين والفقرة الاولى من نظام الحزب الداخلي . ـ نقل ستالين الى سيبيريا عام ١٩٠٣ . ـ هربه وعودته الى تيفليس عام ١٩٠٤ .ـ ثورة ١٩٠٥ . ـ سوفييت بطرسبرغ . ـ ثورة الفلاحين واضطرابات الجنود في القفقاس . ـ ستالين تلميذاً للينين .ـ الخروج من « العالم السفلي » . ـ ستالين (مستعملاً الاسم المستعار ايفانوفيتش) يحضر المؤتمر الوطني للحزب في « تاميرفورس » عام ١٩٠٥ ويلتقي بلينين لأول مرة . ـ ستالين يختلف عن لينين في موضوع الاصلاح الزراعي . ـ «الفرق المسلحة». ـ مؤتمر الحزب يعارض«المصادرات» .ـ تروتسكي يدين البلاشفة .

عندما اقفلت ابواب سجن باطوم وراء كوبـا — دجوغا شفيللي ، في اوائل نيسان ١٩٠٢ ، لم يكن بحاجة الى مقدرة استثنائية على الاستشهاد لكي يتحمل ما حـــل به . فالسجون القيصرية ، رغم سوء سمعتها ، تبدو رحيمة ، بل أكاد اقول انسانية ، بالنسبة لجيل عرف وحشيات اناس مثل هيملر او ييجوف ، وَخبِرَ معسكرات القتل في بيلسن وآرشفيتز . كان النظام في السجون القيصرية ومعسكرات النفي مزيجاً من الوحشية والميوعة « الليبرالية » . فيه ما يكفي من الوحشية للابقاء على حقد المساجين على النظام القائم ، وفيه من الفوضى والميوعة ما يسمح لهم بمواصلة العمل الثوري الفعال خلف قضبان السجن . فلعبت السجون دور « الجامعات » بالنسبة للعديد من الاشتراكيين الشباب ، إذ فتحت امامهم مجال تحصيل ثقافة ثورية غالباً ما يتولى نقلها اليهم مدرِّسون مجرَّبون. وفي العادة ، كان السجناء السياسيون ، الذين يتمتعون ببعض « الامتيازات » غـير الممنوحة للمجرمين العاديين ، ينظمون حياتهم الجماعية بروح من التضامن والتعاون المتبادل. والسجن غالباً جمعية نقاش كبرى . فلا عجب ، اذاً ، ان نجد بعض السجناء السابقين يتحدثون في مذكراتهم عن تلك المسحة من الحزن التي ساورتهم عند اطلاق سراحهم .

فرض كوبا على نفسه نظاماً صارماً . صار يصحو باكراً ، ويعمل بجديـــة ، ويقرأ كثيراً ، ويشترك في النقاشات كأحد المناقشين الرئيسيين . وقد تذكر زملاؤه في السجن ، بعد سنوات عديدة ، كيف كان يناقش الاشتراكيين الزراعيين وخصوم « ايسكرا » الآخرين . وكان اسلوبه في النقاش منطقياً وحاداً وتأنيبياً . وفـيما عدا تلك النقاشات ، كان منطوياً على نفسه ، يصعب الوصول اليه . الى هذا الحد يتفق جميع من كتب المذكرات عنه ، الا انهم يختلفون على نقاط اخرى . فالاصدقاء يتذكرونه رفيقاً صبوراً ، حساساً ، خدوماً ؛ بينما يرى الخصوم في هذا المحاوِر المعتد بنفسه ، مناوراً شغوفاً بتحقير نقّاده وتحريض اتباعه المتزمتين عليهم . ونُقل كوبا في باطوم الى سجن آخر في كوتايس ، ثم ما لبث ان اعيد الى باطوم . وأمضى في سجون القفقاس ما يربو على السنة والنصف ،

حتى نهاية تشرين الثاني ١٩٠٣ . ولم يتمكن الادعاء العام من تقديم اية ادلة ثبوتية ضده . باستثناء تقارير عملاء الشرطة السرية التي لا يعتبرها القاضي العادي كافية للادانة ، فحُكم عليه « اداريـــاً » بالنفي لمدة ثلاث سنوات ، مثله مثل معظم المشبوهين الذين يصعب توجيه تهمـــة ما اليهم . فأُرسِل الى قرية « نوفايا اودا » في مقاطعة « إيركوتسك » في سيبيريا الشرقية .

ووقع حادثان خلال وجود كوبا في السجن : الأول محـــلي ، ألقى بعض الضوء على مكانته في « العالم السفلي » ؛ أما الثاني فأهم من الاول بالنسبة لمستقبل روسيا والاشتراكية العلمية ومهنة كوبا في آن معاً . وفي آذار من عام ١٩٠٣ ، شكلت المجموعات الاشتراكية الديمقراطية في القفقاس اتحاداً لعموم القفقاس ، وانتخب كوبا ، غيابياً ، عضواً في اللجنة التنفيذية . نادراً ما كان مؤتمر ما ينتخب احد الاعضاء المسجونين الى هيئة قيادية ، اللهم إلا اذا كان هذا العضو من الاهمية بحيث يعوّض ذلك عن المصاعب التي تتكبدهـا المنظمة لاستشارته ، وهو في السجن ، حول القضايا الاساسية . لقـد سال حبر كثير لإستصغار الدورِ الذي لعبه كوبا في تلك الآونة ، او لتضخيمه . وهذا ما يثبت ان كوبا كان قـد اضحى ، وهو بعدُ في الثانية والعشرين من العمر ، شيئاً من « النيافة الرمادية » في « العالم السفلي» لمقاطعاته . لم يكن بالتأكيد فرداً مغموراً من افراد القاعدة ، كما يصفه تروتسكي ؛ ولا كان « لينين القفقاس » كما يريد كتّاب سيرته ، فشخصيته كانت لا تزال رمادية ، بالرغم من نيافتها .

امـــا الحدث الثاني ، والاهم من الاول ، فقد بدأ في تموز في غرفة خلفية من « بيت الشعب » التابع للحزب الاشتراكي في بروكسل مليئة ببالات الصوف والبراغيث ، وانتهى في لندن في اواخر آب . اخيراً التـــأم في بروكسل المؤتمر الاشتراكي الديمقراطي لعموم روسيا بدعوة من جمـاعة « ايسكرا » . وهو اول مؤتمر حقيقي للاشتراكيين الروس ، بالرغم من ان المؤتمرين سموه المؤتمر الثاني وفاءً لذكرى الاجتماع الفاشل الذي عُقد في مينسك عـام ١٨٩٨ . بعد بضعة ايام ، لاحظ المؤتمرون ان جواسيس القيصر يتابعون تحركاتهم عن كثب ، فنُقل المؤتمر على جنـــاح السرعة من بروكسل الى لندن . وكانوا يأملون بانجاز عمل « ايسكرا » والانتهاء من تكوين حزب لعموم روسيا . لكن شيئاً من ذلك لم يحصل ، فقـــد شهد المؤتمر انشقاق الاشتراكية الروسية الى جناحين ، البلاشفة والمناشفة ، الثوريين والمعتدلين ، « الصلبين » و « المائعين » كما سموا في البـدء . وترأس

تروتسكي ، ابن الثلاثة والعشرين سنة ، جلسة جماعة « ايسكرا » التي شهدت اول مناوشات ، لأن القادة الكبار لم يتفقوا على شخص آخر للرئاسة . بعد اربع عشرة او خمس عشرة سنة من حدوثه ، هزّ الانشقاق اوروبا والعالم بعنف ليس اقل من عنف انشقاق آخر بدأه مارتين لوثر قبل ذلك بأربعمئة سنة . ومع ذلك ، فان بدايته كانت تافهة جداً . طبعاً كانت كاتدرائية « فيتنبواغ » تشكل منطلقاً لولادة « الاصلاح » افضل بكثير من بالات الصوف المليئة بالبراغيث في « بيت الشعب » في بروكسل حيث ولدت الحركة البلشفية . وفي حين تحدى لوثر الكرسي البابوي بخمس وتسعين اطروحة علّقها على بوابة الكاتدرائية ، كان كل تحدي لينين موجوداً في بند صغير من فقرة قصيرة . وإذا كانت المعارضة التي أثارتها آراء لوثر قد فاجأته ، رغم ارتياحه منها ، فان لينين ، من جهته ، قد تضايق من الانشقاق الذي احدثه الى درجة انه اصيب بانهيار عصبي بعدالمؤتمر مباشرة . ويقال ان المانيا بأسرها اطّلعت على اطروحات لوثر خلال اسبوعين من نشرها ، اما الفقرة الاولى من نظام الحزب الداخلي التي اقترحها لينين فكانت مجهولة خارج قلة ضئيلة من الناس. الا ان الحركة التاريخية التي اطلقها لينين في تموز — آب ١٩٠٣ ما زالت تتقدم .

كانت الفقرة الاولى من النظام الداخلي للحزب تحدّد من يمكن اعتباره عضواً في الحزب . ويبدو انها لم تثر ، ظاهرياً ، اية مسائل مبدئية او تكتيكية . وبالفعل ، بدأ المؤتمر بمناقشة النقطة على اعتبار انها مسألة تنظيمية بحتة ، وذلك بعد الاتفاق على البرنامج المشترك والمقررات التكتيكية . وكان ثمة صيغتان بين ايدي المؤتمرين . تقول صيغة لينين: « ان عضو حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي هو اي شخص يقبل برنامجه ، ويدعمه مادياً ، ويشارك شخصياً في احدى منظماته» . اما الصيغة الاخرى، التي قدمها مارتوف، فقد استبدلت عبارة « الذي يشارك شخصياً في احدى منظماته » بالعبارة التالية :«الذي يتعاون مع الحزب شخصياً ودورياً وتحت اشراف احدى منظماته » . على السطح، بدت الصيغتان متشابهتين تقريباً ، وبدا وكأن الخلاف ضرب من السفسطة . ولكن كانت تكمن وراء هذا السطح نظرتان متباينتان الى حد التناقض حول الحزب وبنيته . فلينين يؤكد على ان الذين يساهمون دورياً في التنظيم السري هم الذين ينبغي اعتبارهم اعضاء ، ومنحهم الحق الرسمي في التأثير على سياسة الحزب . ولم يدخِل لينين ضمن هذا الاطار للحزب حواشيه النامية من الانصار والمؤيدين أكانوا من المثقفين ام من العمال . ينبغي على

اعضاء التنظيم السري ان يكونوا جنود الثورة ، ويرضخون طوعاً لانضباطها ، فضلاً عن استعدادهم للعمل وفق اوامر القيادة المركزية وتوجيهاتها . ولا يجوز الاعتماد على الانصار كجنود ثابتين دائمين للثورة – انهم الاحتياطي المدني الهلامي والمتغيّر لهذه الثورة. ورأى لينين ان علـــى الحزب ان يكون جهازاً منسجماً ، شديد التماسك والمركزية ، يملك قوة ضاربة لا تضاهى. واعتبار تلك الحواشي المتغيرة من المؤيدين المتقلبين جزءاً من الحزب لن يؤدي الا الى اضعافه والحد من قوته الضاربة . وفي رأي لينين ان هذا هو الخطر الكامن في صيغة مارتوف الغامضة الـتي لا تطلب من العضو إلا « التعاون تحت اشراف احدى المنظمات » ، بدلاً من العمل المنضبط داخل التنظيم نفسه .

ان الحزب سيكون اداة الثورة . حتى ذلك الحين ، كان شكل هذه الاداة هو وحده موضوع الخلاف . فقد افترض الطرفان سلفاً انهما على اتفاق حول طبيعة الثورة نفسها . صحيح ان محرري «ايسكرا» كانوا قد بدأوا يتحسسون التباين في وجهات النظر بينهم ، حتى قبل انعقاد المؤتمر. وإذا هم ، بشبه مزاح ، يتوزعون النعوت بين«صلب» و «مائع». وكانت « صلابة » لينين موضع اجماع : « من مثل هذه المادة يُصنع امثال روبسبير » ، قال بليخانوف عن تلميذه السابق الذي يسعى الى القيادة علنـــاً ، متحدياً بذلك الرعيل الأول من القادة . وكانت « ميوعة » مارتوف هي ايضاً موضع اجماع . إلا انهم اعتبروا مثل هذه التباينات على انها اختلاف في الاهلية والمزاج الفرديّين ، وعلى انها طبيعية بين فريق من النـــاس يعمل لهدف مشترك ؛ فالوقت لم يكن قد سمح بعد لهذه التباينات المزاجية بأن تعبّر عن نفسها في تناقضات سياسية واضحة . وفي المؤتمر ، تفاجـأ كلا الطرفين وانزعـج من طبيعة الخلاف الحاد ، ظناً منهم انهم يطلقون العنان لأهوائهم فتحملهم الى أبعد مما يسمح به العقل. فأخذوا يعزّون النفس بأن الخلاف المفاجىء سرعان ما يزول ويصفو الجو ، وان الصدع البسيط في وحدتهم سرعان ما يلتئم . وهُزم لينين حول المسألة المطروحة عـــلى بساط البحث – الفقرة الأولى من النظام الداخلي – إذ حازت صيغة مارتوف على أغلبية ٢٨ مقابل ٢٣ صوتاً . فتقبّل لينين الامر بطيبة خاطر، وأعلن : « لستُ اظن ان خلافاتنا من الاهمية بحيث تتحول المسألة الى مسألة حيـاة أو موت بالنسبة للحزب . من المؤكد اننا لن ننهار بسبب فقرة تافهة في نظامنا الداخلي». فبدا وكأن جميع الممثلين يتراجع امام دوره ، ظاناً عن خطأ ، ان مقدمة المسرحية هي خاتمتها ..

ونشب خلاف آخر عند انتهاء المؤتمر ، عندما انتخب المؤتمرون هيئـــات الحزب القيادية وهيئة تحرير « ايسكرا » ففاز مرشحو لينين ، عن غير انتظار ، وسقط مرشحو مارتوف . ولعبت الصدفة دورها في نتيجة الاقتراع . إذ غادر بعض المندوبين « المائعين» المؤتمر بحيث لم يصوت فيه إلا ثلثي العدد الاصلي من المندوبين . ففاز مرشحو لينين باغلبية صوتين فقط (١٩ مقابل ١٧ صوتاً ، وامتناع ثلاثة) . فاصر لينين على شرعية الاقتراع، وهذا حقه . إلا ان « الاقلية » رفضت القبول بالهزيمة . ومنذ ذلك الحين ، عرف جماعة لينين باسم رجال الاغلبية – **البلاشفة** ... وعرف اتباع مارتوف باسم رجال الاقلية – **المناشفة** . وبدا الاتجاهـــان – يعبران عن صدفة حسابية في عملية اقتراع واحدة ، لا عن خلافات مبدئية – وكأنهما يمثلان انقساماً سطحياً زائلاً . ولكنهما كانا يعبران ، في الواقع ، عن تصدع شقّ الحركة من رأسها إلى اخمص قدميها .

على أثر المؤتمر ، رفض المناشفة الاعتراف بسلطة اللجنة المركزية البلشفيـة ، واعلنوا مقاطعتهم لها . فاصر لينين على حرفية القرار الصادر عن المؤتمر . ولسان حاله يقول ان الاغلبية التي اقترعت إلى جانب مرشحيه هي اغلبية شرعية ، وان اللجنة المركزية هي أعلى سلطة في الحزب ؛ فالمقاطعة المنشفية ، اذاً ، عمل فردي فوضوي لا يجوز قبوله أو تحمله . وهكذا تجدد الخلاف حول طبيعة الحزب وبنيته مكتسباً حدة اضافية .وعارض المناشفة « حالة الحصار » التي فرضها لينين على الحزب ، ونظرته حول ما يجب ان يكون عليه تركيب الحزب . واتهموه بانه يفرض على الاشتراكية انضباطاً عسكرياً قاتـــلاً . واتسعت شقة الخـــلاف تدريجياً ، رغم ان لينين لم يستوعب كل دلالاته إلا بعد سنوات عديدة .

ومهما يكن من أمر ، فقد اتضح ما يلي : ان الآراء المتباينـــة حول التنظيم تعكس منطلقات مختلفة حول قضايا ثورية هامة . فالمناشفة ينظرون إلى الحزب على انه منظمة واسعة وبالتالي هلامية إلى حدٍ ما ، تعمل على استيعاب الطبقة العامـــلة والانتلجنسيا الاشتراكية وتندمج معها في النهاية ويرتكز هذا المفهوم على الاعتقاد بأن الاشتراكية ملائمـــة للبروليتاريا إلى درجة تجعلنا ننظر إلى البروليتاريا وكأنهـــا الحزب الاشتراكي الديمقراطي في حكم الإمكان . ويرى لينين ان هذا الموقف يتسم بكثـــير من السذاجة . فالطبقة العاملة ، برأيه ، كتلة كبيرة متباينة ، تنقسم حسب اختـلافات في الأصل والمعتقد ، وحسب المصالح المذهبية . ولم تكن كل قطاعات البروليتاريا، قادرة على

بلوغ درجة رفيعة من الوعي الاشتراكي. فبعضها يتخبط في الجهل والخرافة . فاذا حاول الحزب ان يستوعب البروليتاريا كلها ، أو حتى جلها ، فهذا يعني انه سيصبح عديم التجانس كالبروليتاريا نفسها ، فيستوعب ضعفها إلى جانب قوتها ، وجهلها إلى جانب تطلعها الاشتراكي ، وتأخرها إلى جانب طموحها . فلا يلبث ان يتحول إلى صورة جامدة عن الطبقة العاملة ، عوضاً عن ان يكون ملهمها وقائدها ومنظمها . والاعتماد على اندفاع العمال العفوي نحو الاشتراكية لهو ضرب من الحماقة ، في رأيه ، لانهم لن يبلغوا بمفردهم إلا الوعي النقابي الصرف الذي لا يتعارض ، بحد ذاته ، مع النظام الرأسمالي . واستشهد لينين بكارل كاوتسكي - الحجة المعترف بها حول العقيدة الماركسية آنذاك - ليشدد على النقطة القائلة بان الاشتراكية قد أدخلت إلى الحركة العمالية من الخارج، عن طريق مثقفين برجوازيين امثال ماركس وانجلز وغيرهما . وهذا يثبت ان الاعتماد على اشتراكية الجماهير «الفطرية» ضرب من العبث. ينبغي على الحزب ان يكون نخبة لا تضم بين صفوفها إلا اوعى واشجع قطاعات الطبقة العاملة، طليعتها الحقيقية التي لا تأنف العمل الحازم المنضبط. وقد بدا ذلك بالنسبة للمناشفة وكأنه تكرار مشؤوم للبلانكية ، عقيدة احد قادة «عامية باريس » ، الذي كان يعتقد ان الوسيلة الوحيدة للقيام بالثورة هي عمل مباشر تضطلع به اقلية تآمرية ضئيلة تتجاهل ارادة الاغلبية . والبلانكية هرطقة بالنسبة لعموم الماركسيين ، فسارع لينين الى التبرؤ منها . فشرح قائلاً ان الثورة لن تنجح إلا اذا كانت غالبية الشعب تريدها وتؤيدها - وهذا ما يميزه عن بلانكي . على انه ينبغي ان تكون الاغلبية تحت قيادة اقلية متحركة وعلى درجة رفيعة من التنظيم - وهذا ما يميزه عن المناشفة وعن الاشتراكيين الاوروبيين المتعاونين معهم من امثال كاوتسكي وروزا لوكسمبرغ .

وعندما التفت المناشفة الى الماضي بحثاً عن مقارنة اخرى ، وتروتسكي منهم خصوصاً الذي كان في البدء المتكلم المتحمس باسمهم ، اتهموا لينين بالـ « يعقوبية » . ولم يعتبر لينين النعت اهانة له . لا بل رضي به بشيء من الفخر ، واكتفى بالملاحظة انه في حين كان اليعاقبة حزب الطبقة الوسطى الدنيا ، فهو اشتراكي بروليتاري . وعلى كل حال ، ألم يكن اليعاقبة هم الذين قاموا بالثورة الفرنسية ؟ اليس مستغرباً ان يعتبر ثوريون ان اليعقوبية اهانة لهم ؟ وختم قائلاً ان منتقديه ما هم إلا نسخة عصرية عن « الجيرونديين » ،

انهم مقلدو اولئك المساومين الخجولين الذين اضطروا الثورة الى القضاء عليهم لكي تبلغ ذروتها اليعقوبية . وبدا في ذلك الحين وكأن التاريخ يحوّم فوق تلك المناقشة الدائرة على صفحات مناشير صغيرة ونشرات « عصبوية » مغمورة . وسرعان ما اقدم تروتسكي على تذكير لينين بان قصة اليعاقبة لم تنته بصعود الثورة ، وان خاتمتها كانت فترة تقاتل القادة اليعاقبة فيما بينهم . وكتب يقول عام ١٩٠٣ ان اليعاقبة « قد قطعوا رؤوس الناس – اما نحن فنريد تنوير اذهان الناس بالاشتراكية » . « ان الخطط التكتيكية اليعقوبية التي يتبعها البلاشفة سوف تؤدي في نهاية المطاف الى ادانتهم امام المحكمة الثورية للحركة البروليتارية العالمية باسرها بتهمة المساومة . وسيكون رأس الاسد ماركس اول رأس يتدحرج تحت نصل المقصلة » . وبدا ذلك بالنسبة للينين وكأنه ضرب من الحذلقة الفارغة المدّعية . ولم يأبه بالالتفاتات التأملية الى مرحلة ثورية دارسة . ان ذهنه المتوقد وارادته يتوجهان حالياً نحو مهمة عاجلة هي التهيئة للثورة نفسها وصنع اسلحتها . وقد عجز تروتسكي والمناشفة الآخرون عن تقديم بديل مقبول لمشروعه حول تنظيم الحزب. فالحزب الذي يريدون عاجز كلياً عن القيام بالثورة .

خلال العام التالي – عام ١٩٠٤ – ظهرت تباشير عاصفة سياسية في كل انحاء روسيا . عرفت القيصرية اولى هزائمها في الحرب ضد اليابان التي كانت قد بدأت في شباط من العام نفسه . وقد شجعت الاحداث الاتجاه الليبرالي عند الطبقة الوسطى ، فأخذت هذه تطالب بانهاء الحكم وباقامة نظام ملكي دستوري. كيف سيكون موقف الاشتراكيين الديمقراطيين حيال ذلك ؟ قال المناشفة ان الواجب يفرض عليهم دعم ليبراليي الطبقة الوسطى ضد الحكم الفردي لأن الطبقة الوسطى هي المؤهلة ، على كل حال ، لقيادة الثورة «البرجوازية» (اي الثورة المعادية للاقطاع وليس للرأسمالية) . هذا في حين عارض لينين اي تحالف مع ليبراليي الطبقة الوسطى ، ورفض طبعاً تسليمهم قيادة الثورة . ورأى ان شجاعة الليبراليين المفاجئة لهي شجاعة خادعة. وتنبأ بأنهم لن يقاوموا الحكم الفردي الاستبدادي بفعالية ولمدة طويلة لأنهم يخافون الثورة بقدر ما يخافون النظام القيصري نفسه . لذا ينبغي على الطبقة العاملة ، اي على الاشتراكيين ، ان يضطلعوا بالقيادة حتى ولو كانت الثورة لن تقوم ببناء الاشتراكية . في تلك الفترة ، دخلت كل قضايا التكتيك ، لا بل كل القضايا المبدئية ايضاً ، في حلبة الصراع . فتعمّق الخلاف واتسع واشتدت مرارته .

في المؤتمر الثاني كسب لينين الجولة الاولى ، إلا انه ما لبث ان خسر الثانية . فقد

تمسّك بآرائه بعناد شديد ، وقارع خصومه بضراوة الى درجة انه عجز عن جر حلفائه وحتى اتباعه وراءه . ورفض المناشفة المتمردون الذهاب الى « كاموسا » ، واستمروا في مقاطعتهم للجنة المركزية البلشفية ولهيئة تحرير « ايسكرا » . وإذا ببليخانوف ، الذي وقف الى جانب لينين في المؤتمر ، على استعداد لمساومة المناشفة . اما اللجنة المركزية المقاطعة نفسها ، فكانت تشعر بشيء من الحرج من السلطة الرسمية التي بين يديها ، فامتنعت عن فرضها على الاعضاء المتمردين . فوجد لينين نفسه شبه معزول . فاستقال من هيئة تحرير « ايسكرا » ، تاركاً الصحيفة بين ايدي المناشفة . ففرّط بذلك بقسم اساسي من نجاحه الاصلي ، لأن معظم الخيوط التي تحرك التنظيم السري في روسيا هي بين ايدي هيئة تحرير « ايسكرا » . إلا ان اليأس لم يتملكه ، رغم انه فوّت على نفسه عدة فرص بعد المؤتمر مباشرةً ، عندما كان وضعه منيعاً دون ادنى شك . بل على العكس من ذلك ، فقد تضاعفت عزيمته ، وبدا و كأنه قد استعاد كل ملكته التكتيكية رغم انه يقف وحيداً تقريباً بعد ان هجره الاصدقاء وثار عليه الخصوم . فنقل ثقل المعركة الى التنظيم السري في روسيا . وتوجه الى اللجان المحلية مستعيناً بها ضد المناشفة وضد ذلك القسم من البلاشفة المستعد للمساومة معهم .

بينما كانت جاليات المهاجرين الروس في اوروبا الغربية تموج بالخلاف الشديد ، كان كوبا — دجوغاشفيللي يتنقل بين سجن وآخر حتى نُفي الى «نوفايا اودا» في تشرين الاول ، عام ١٩٠٣ . ومن المحتمل ان تكون قد ترامت الى مسمعه اول الاخبار المشوّشة عن الانشقاق قبل ان تغادر قافلة المبعَدين شواطىء البحر الاسود في رحلتها الطويلة المملة في شتاء سيبيريا ، برفقة افراد الشرطة . واستغرقت رحلة كوبا الى نوفايا اودا ما يزيد عن شهر . وكانت القافلة تقف على الطريق ، بين الحين والآخر ، وينضم اليها المزيد من المبعَدين . وفيما كان المبعَدون يتجهون شرقاً ، ترامت الى مسامعهم اصداء الحرب الروسية — اليابانية . وكان الكثير من الهياج والحمى يملأ الجو ، فلم يعقل ان يظل كوبا منقطعاً عن العمل السياسي طوال ثلاث سنوات طوال . وما ان وصل الى مقصده ، حتى اخذ يمهّد للهرب . خلال الفوضى التي سادت التمهيد للحرب ، تلاشت يقظة السلطات قرب حدود مانشوريا ، فتمكن التنظيم السري من تهيئة عمليات هرب جماعية . وفي الخامس من كانون الثاني عام ١٩٠٤ ، شرع كوبا في رحلة العودة عبر الحقول المكسوة بالثلج في ما هو اليوم المنطقة الصناعية الكبرى في حوض الكوزنيتسك ، والتي كانت آنذاك

مجرد قفر موحش . أقلته عربة احد الفلاحين غرباً نحو الاورال . ورغم اصابته بمرض التقبّض صقيعاً، فقد تمكّن من الوصول الى تيفليس في اواخر كانون الثاني أو اوائل شباط من العام نفسه .

في ذلك الحين ، كانت الروايات عن المؤتمر قد بلغت المنظمة القفقاسية بعد عودة ثلاثة من مندوبي القفقاس من لندن حيث وقفوا الى جـــانب لينين . وكان طبيعياً ان يمتدحوا البلاشفـة . ووقف ليونيد كراسين ، الدبلوماسي المقبل ، الى جانب لينين ايضاً . وهو يتمتع بنفوذ واسع في القفقاس حيث يشغل مناصب ادارية عالية في الصناعة تمكنه من ان يقـــدم للعمل السري خدمات خفية ولكنها ثمينة . وقبل فترة قصيرة من عودة كوبا من سيبيريا ، جاء تيفليس احد اصغر معاوني لينـين ، ليون كامنييف ، الذي ادى قسطه من الدعاية ايضاً . إلا ان نجاح البلاشفة الاصلي في القفقاس سرعان ما تلاشى . والواقع ان كراسين نفسه هو الذي قاد البلاشفة المساومين ضد لينين . لكنه حرص على عدم السماح للانشقاق بأن يحطم المنظمـــة الناشئة ، فأخذ يسيّر النشاط اليومي وكأن الانشقاق لم يحصل . وشد ما اثار غضب لينين عندما سلـّم مطبعة باكو السرية الكبيرة والفعالة ، حيث تُطبع « ايسكرا » ، الى المناشفة الذين كانوا يشرفون على اصدار الصحيفة آنذاك . ونشب بين المناشفة ايضاً خلاف بين المساومين والصلبين .

وهكذا وجد كوبا العائد نفسه وسط معمعة من اصطراع الاجنحة والكتل . ان العمليات المرهقة التي رافقت الانشقاق قد عملت على تمويه معالم الخلاف . فكان طبيعياً ان تكون ردة الفعل الاولى تجاه البلشفية هي ردة فعل مشوشة . وقد ادعى كتـاب سيرته الرسميون ، بعد عدة سنوات ، انه وقف الى جانب لينين مسترشداً بوضوح رؤيتهالنبوئية حتى قبـــل ابعاده الى سيبيريا . وقد تحدى تروتسكي هذه الرواية مؤكداً ان كوبا كان منشفياً في بادىء الأمر . والواقع ان ما من شيء يشير الى ان ستالين كان منشفياً ولا على انه اعلن نفسه بلشفياً بعد الانشقاق مباشرة .والارجح انه تحاشى ان يورط نفسه مع اي من الجناحين ، محـــاولاً استجلاء الحقائق ومعانيها وسط ضباب من التقارير المتضاربة . ولـكن لم يطل تردده ، هذا اذا كان يجوز لنا ان نستعمل عبارة « تردد » لنصف حالته الفكرية آنذاك . فعقد العزم على تأييد لينين بعد بضعة اشهر من هربه من سيبيريا . ومـا ان شارف عام ١٩٠٤ على نهايته ، حتى نجده يدعو للبلشفية بحماس بالغ .

وأول اشاراته الصحفية للانشقاق موجودة في مقالته: «**طبقة البروليتاريا وحزبها**»،

التي كتبها بالجيورجية في نهاية العام ونشرها ، في رأس سنة ١٩٠٥ ، في صحيفة « **كفاح العمالِ** » . وهذه مطبوعة دورية ، تصدر اكثر من اربع مرات في العـــام ، **قد حلّت** محل « بريدزولا » (الكفاح) حيث بدأ حياته الصحفية الى ثلاثة اعوام خلت . المقـالة تلخيص لمنشور لينين الشهير « خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء » . يعرّف ستالين الحزب على انه « مجموعة من القادة المناضلين » . فينبغي عليه بالتالي ان يكون : أ) اصغر عدداً من الطبقة العاملة ؛ ب) متفوقاً من حيث الوعي والتجربة ؛ ج) اكثر تماسكاً من اية هيئة عمالية اخرى . « لا يجوز ان يكون حزب البروليتاريين **المناضلين** مجرد لـملمة اعتباطية لأفراد ــ ينبغي ان يكون منظمـــة مركزية متناسقة » . « ان وحدة الآراء حول البرنامج ، والخطط التكتيكية ، والتنظيم هي الاساس الذي يقوم عليه حزبنـا . فاذا انهـــارت وحدة الآراء هذه ، انهار معها الحزب » . ان القبول الخانع برأي الحزب ليس كافياً . ثمة عدد من الثرثارين على استعداد للقبول بأي برنامج يطرح عليهم . هـــذا فضلاً عن ان الهواة ليسوا من سيربح للطبقة العاملة معاركها . « حتى الآن ، كان حزبنا اشبه بعشيرة مضيافة ترّحب بأي نصير في صفوفها » . اما من الآن فصاعداً ، « فسوف نتحول تحولاً كاملاً الى قلعة لا تنفتح ابوابها إلا لأصحاب الجدارة » . وشد ما كانت هذه القلعة مختلفة عن بهو الاحتفالات الاشتراكي العزيز على قلوب المناشفة . استعار كوبا خط التفكير كله ، وحتى التشابيه نفسها ، من كتابات لينين . لكنه كان مبتكراً في نقطـة واحدة فقط ، وهي الاصرار ، الذي كان قد اضحى مألوفاً في كتاباته ، على الحـاجة لوحدة الآراء الكاملة داخل الحزب. وهو على بيّنة من انه في ذلك اكثر اصراراً ووضوحاً من لينين نفسه ، إلا انه واثق من انه يضع النقاط على الحروف بما يتلاءم مع نوايا لينين . وقال عن المناشفة ...

« انهم لا يتحدثون إلا عن القبول بالبرنامج (كشرط للعضوية) ، لكنهم لا يتفوهون بكلمة واحدة عن التكتيك والتنظيم . ومع ذلك ، فان وحدة الآراء حول التكتيك والتنظـــيم لا تقل اهمية ، بالنسبة لوحدة الحزب ، عن وحدة الآراء حول القضايا البرنامجية . قد يُقال لنا ان صيغة لينين لا ترد على ذكر ذلك ايضاً . هـــذا صحيح . ولكن لا حاجة للينين ان يناقش ذلك في صيغته . أليس بديهياً ان الذي يعمل في احدى منظمات الحزب ، والذي يناضل معه ، ويخضع لتنظيمه لا يمكنه ان يتبع خططاً تكتيكية او مبادىء تنظيمية مغايرة للــتي يتبعها الحزب ؟ » .

ولم يخطر ببال الكاتب ان الناس قد يكونون اعضاء في الحزب ، ويقبلون ببرنامجه وانضباطه ، ويختلفون معه ، رغم ذلك ، حول القضايا الثانوية المتعلقة بالتكتيك وبالوسائل التنظيمية . ان النموذج الذي يتمسك به ينبىء بتلك الحنبلية « الوحدانية » التي تطورت اليها البلشفية بعد انتصارها وبخاصة تحت قيادة كوبا . إلا ان تلك « الوحدانية » ظلت في ضمير الغد . حتى لينين لم يعتقد ان الانشقاق دائم لا محالة . كان لا يزال يأمل بامكان دمج الجناحين ، ويعتقد بأن المجال مفتوح امام مختلف الآراء لتتفاعل ضمن الإطار العام للحزب ، شرط ان تكون العوامل الموحّدة – وحدة المبدأ، والمركزية ، والانضباط الطوعي – من القوة بحيث توفر تماسكه .

في صيف ١٩٠٤ ، عاد كامنييف – معاون لينين الشاب – الى تيفليس بعد خروجه من السجن في موسكو . وكان قد رأى وتعلم اكثر من كوبا ، رغم انه يصغره بثلاث سنوات . فوراءه عمل ثوري في جامعة موسكو ، ورحلات الى جينيف وباريس ولندن ، وعمل في الخارج تحت اشراف لينين المباشر ، ونقاشات مع اعلام « ايسكرا » الآخرين . فكان لا بد من ان يؤثر بعض الشيء على كوبا . وكانت مهمته آنذاك تتلخص في التمهيد لعقد مؤتمر منطقي لبلاشفة القفقاس ، إذ ان مؤتمرات منطقية مماثلة آخذة بالانعقاد في شمال روسيا وجنوبها . ولأسباب ما زالت مجهولة ، تغيَّب كوبا عن المؤتمر القفقاسي الذي انعقد في تشرين الثاني . وانتخبت المؤتمرات المنطقية الثلاثة مكتباً بلشفياً لعموم روسيا يرأسه رئيس الوزراء المقبل الكساي ريكوف ومفوض الشؤون الخارجية المقبل مكسيم ليتفينوف . المكتب سلاح بيد لينين في وجه اللجنة المركزية المتذبذبة . بمقدوره الآن القول ان موقفه غير المساوم تجاه المناشفة يحظى بدعم مناضلي التنظيم السري داخل روسيا . فاقترح عقد مؤتمر جديد يضع حداً للوضع المضطرب المسيطر آنذاك . وقبل البلاشفة المساومون بالاقتراح . واندفع كوبا في حملة التمهيد للمؤتمر التي استغرقت نهاية ذلك العام وبداية العام الذي يليه .

لم تكن بعيدة المنال الاسباب العريضة التي جذبت كوبا للتكتيك البلشفي . فهو ينتمي ، من حيث المزاج الى النمط « الصلب » من الثوريين – إذ ان الميوعة لم تكن من خصائصه بأي حال من الاحوال . وقد جذبته افكار لينين لميّزاتها الخاصة . فهي واضحة ومحددة ، وهذا ما راق له جداً . وبالاضافة الى ذلك ، فان احد جوانب اللينينية ، حتى في تلك الايام الأولى ، كان حلاً للتوتر الفكري والعاطفي الذي يعاني منه . يبدو ان

المنشفية قد استخفـّت بدور امثاله ، لا بل انهـــا قد حطت من قدرهم ، في حين مجدت البلشفية هذا الدور . ان الثوري المحترف ، والمطارَد ، والداعية المنظـّم المتفرغ الذي يعيش حيـــاة بؤس هو « ملح الارض » بالنسبة للينين . انه ذلك الذي يبث الاشتراكية الحقيقية باستمرار في الحركة العمالية العفوية . وأعضاء اللجان من امثال كوبا هم ابناء الثورة المختارون . فليس من العسير إذاً ان نتصور مبلغ الثقة بالنفس والفخر الذي وفرته نظرية لينين لكوبا الذي لا يملك اية مكانة معترَف بها في المجتمع الرسمي ، والعاجز عن لعب دور مرموق حتى في العمل السري نفسه . فلا بد وانه كان متلهفاً لنوع من التعويض النفسي . وها هي هذه النظرية التي تجعله يجسّد مبدأ التنظيم الاسمى في مقابل الفوضى المسيطرة . وصار بمقدوره ان ينظر الى نفسه في مرآة فـكرة لينين ، فيرى نفسه الإله اطلس الذي يحمل على عاتقه مستقبل البشرية .

اخذ العمل السري يوّلد قواعده وتسلسله الهرمي وبيروقراطيته . وهي امور لم يكن بوسع المناشفة ولا البلاشفة الاستغناء عنها . وكان هذا التسلسل الهرمي في مستوى ادارة اي حزب اوروبي طبيعي ومحترم . لا بل انه متفوق عليه في بعض الجوانب : من حيث المثالية والاخلاص للقضية ، وحتى من حيث الثقافة . ولم تتوفر الصيغة المنشفية للحزب اي مـكانة او دور محددين للتسلسل الهرمي . فهذا الجهاز متساوٍ من حيث النظرية — ولكن ليس من حيث الواقع اطلاقاً — مع الجميع ، « مع كل مضرِب ومثقف اشتراكي » . وكان مارتوف منظـّراً وأديباً ، لكنه لم يكن رئيساً لجهاز حزبي قط . لكن الوضع مختلف بالنسبة للينـين . وبالرغم من ان احداً من خصومه لم يتمكن من مجاراته كمُنظر وداعية ، فقد كان ايضاً ، حتى في تلك السنوات المبكرة رئيساً للجهاز الثوري . وكان يشعر ويتصرف على انه ذلك ، دونما خجل او تخوّف . وقد حدد بوضوح إطار هـــذا الجهاز ، وامتدح نشاطاته الى حد رفعها الى مصاف المثال . من هنا ، ففي استجابة كوبا المتلهفة لموقف لينين شيء من العرفان غير الواعي بالجميل على الاشباع المعنوي الذي وّفره هذا الموقف له .

وبينما كانت الخلافات تمزق التنظيم السري الاشتراكي وموجة الهستيريا السياسية تجتاح الاجنحة المتنافرة ، بالكاد لاحظ هؤلاء اندلاع اول ثورة روسية . البلاشفة يمهدون لعقد مؤتمر جديد لهم في لندن في نيسان ١٩٠٥ . وأخيراً تمكن لينين ، بعد انسحابه من هيئة

تحرير « ايسكرا » ، من ان يصدر صحيفـة دورية جديدة في جينيف هي « فبيريود » (الى الامام) . واعلن المناشفة انهم سيقاطعون المؤتمر ويعقدون مؤتمراً خاصاً بهم . في تلك الاثناء ، انتهت الحرب الروسية ــ اليابانية بسقوط « بورت آرثر » وهزيمة روسيا . وفي التاسع من كانون الثاني ١٩٠٥ ــ حسب الروزنامة الارثوذكسية القديمة ــ سار جمع غفير من العمال ــ بقيادة الاب غابون ــ نحو « قصر الشتاء » في بطرسبرغ لتقـديم عريضة الى القيصر . وكان المفروض ان تكون المسيرة سلمية . إذ ان دافع المشتركين فيها هو ايمانهم بالقيصر واعتقادهم ان مستشاريه الفاسدين يخفون عنه حالة الشعب. وكانت لهجةعريضتهم توسلية خجولة . ومما يؤكد الطابع الموالي للمسيرة ان المتظاهرين حملوا الايقونات الكنسية وصور القيصر . إلا ان حرس القيصر استقبلهم بالرصاص . وكانت هذه الرصاصات التي أُطلقت على الجمع ايذاناً ببدء الثورة . فعمت الاضرابات البلاد . وأقدم بعض الثوريين على اغتيال الدوك الاكبر سيرجيي ، احد الوجوه البارزة في الحاشية .

ومـا ان هدأت اول موجة من الاضرابات ، حتى اندلعت الانتفاضات الفلاحية في مختلف انحاء البلاد . وانتقلت العدوى الى اطراف الامبراطورية . فتحولت الاضرابات في مدينة « لودز » البولونية الى ثورة مسلحة استمرت حوالي الاسبوع . وملأت المتاريس شوارع وساحات وارسو واوديسا . وفي مرفأ هذه الاخيرة ، انضم بحـــارة البارجة « بوتمكين » الى الثوار . وفي بعض المدن ، انتخب المضربون « مجالس مندوبي العمال » ــ أول سوفييت تنبثق من معمعة الحركة الشعبية . وتنازل القيصر ــ بعد ان تزعزعت ثقته بنفسه ــ ووعد بالدعوة الى انتخاب « الدوما » ــ اي الجمعية التأسيسية ــ ولكنه لم يمنح العمال حق انتخاب ممثلين عنهم اليها . فاحتجت كل الاحزاب المعارضة على هـــذا القرار ، ابتداء بالليبراليين وانتهاءً بالبلاشفة . وفي تشرين الاول ، انتشر الاضراب العام من موسكو وبطرسبرغ الى البلد بأسره . توقفت كل القطارات . وانتخب المضربون في بطرسبرغ مجلساً لمندوبي العمال ــ سوفييت بطرسبرغ ــ الذي سرعـان ما تحول الى أهم مركز للثورة . وخلال فترة وجيزة من الزمن ، تحول سوفييت بطرسبرغ الى منـافس فعلي للادارة الرسمية ، تحظى اوامره وتعليماته بطاعة اجماعية . وتوّجـه السوفييت الى البلد يدعوه الى الامتناع عن دفع الضرائب للقيصر . فاعتقل اعضاؤه ورئيسه الشاب ــ ليون تروتسكي . وقامت اضرابات جديدة ، توّجتها انتفاضة موسكو في كانون الاول ، وهي الذروة الحقيقية للثورة . إلا ان الانتفاضة ما لبثت ان انكسرت ، وأخذت الثورة

بالتراجع . وبالرغم من انها كانت لا تزال قادرة على تعبئة الناس ، فقد كانت تزداد ضعفاً بعد كل عملية تعبئة ، حتى خمدت جذوتها اخيراً . طوال عام ١٩٠٦ وحتى خلال قسم من عام ١٩٠٧ ، كان الغليان من القوة بحيث لم يلاحظ الجزر الذي اصاب الحركة إلا قلة من القادة السياسيين . فجميع الاشتراكيين تقريباً يتوقعون ان تستعيد الثورة زخمها . إلا ان القيصر ما لبث ان تراجع عن التنازلات شبه الليبرالية التي وعد بها خلال فترة الذعر الاولى ، وذلك بعد ان استعاد ثقته بنفسه تدريجياً . وجاء انقلاب الثالث من حزيران ١٩٠٧ ليضع حداً للثورة . ففي ذلك اليوم ، اقدم ستوليبين — رئيس الوزراء الجديد — على تفريق « الدوما الثانية » ، واعتقل خمسة وخمسين من نوابها ، كلهم من الاشتراكيين الديمقراطيين .

وفي السنوات اللاحقة ، وصف لينين ثورة ١٩٠٥ على انها « التمرين العام [1] » الذي سبق انتفاضة ١٩١٧ . وهنا يرد السؤال التالي : كيف تصرف الممثلون الرئيسيون لثورة ١٩١٧ خلال هذا التمرين العام ؟ كيف لعبوا ادوارهم وبأي درجة من الفعالية ؟ ان الجواب مثير للدهشة : ان معظم الممثلين الرئيسيين لم يظهر على المسرح اطلاقاً . ان لينين نفسه — الذي سيضطلع فيما بعد بالدور الرئيسي — اكتفى بلعب دور الملقّن البعيد عن المسرح الى درجة ان الممثلين الحقيقيين بالكاد سمعوا صوته . فقد لازم منفاه في جينيف بينما كان مدّ الثورة في تقدم . ولم يغادر سويسرا إلا في أواخر تشرين الاول عام ١٩٠٥ ، أي بعد الاشهر العشرة الطوال التي عقبت مسيرة بطرسبرغ . ولما وصل بطرسبرغ ، كان الاضراب العام الكبير قد انتهى ، ومجرى الاحداث قد تحدد — فالثورة آخذة بالصعود الى ذروتها التالية والاخيرة والفاشلة : انتفاضة موسكو . فلم يكن بوسع مهندس الثورة العظيم ان يفعل الشيء الكثير .

ما الذي ابقى لينين بعيداً عن روسيا خلال الاشهر الحرجة من ذلك العام ؟ كل شيء يدعوه الى التوقع بأن الشرطة القيصرية سوف تطارده فور عودته . وهذا ما حصل بالفعل عندما ظهر في بطرسبرغ في تشرين الاول . ولكن لا يمكن ان يكون ذلك السبب الذي دعاه الى تأخير مغادرته لسويسرا . فهو مدرك لحاجة الثورة اليه ، ومن المستحيل ان

---

(١) الاستعارة هنا من المسرح . والتمرين العام هو آخر تمرين للفرقة على المسرحية قبل تقديمها للجمهور . (المترجم)

تكون الشكوك قد ساورته حول اهمية وجوده على مقربة من ساحة المعركة . والواقع انه عندما عاد ، اخذ يوجّه اتباعه من مخبأ سري كان بوسعه ان يستعمله لو انه عاد قبل ذلك. تُراه لم يستوعب كل معنى الاحداث التي كان هو نفسه قد توقعها وتنبأ بها ؟ الظاهر ان ما عجز عن ادراكه بوضوح هو اهمية عامل الزمن في ثورة ما. ولا بد وانه قد ظن ان العملية سوف تستغرق وقتاً أطول مما استغرقته بالفعل ، وان الاحداث لن تبلغ ذروتها بسرعة ، وان التحول من المد الى الجزر لن يكون مفاجئاً كما كان فعلاً . وقد تمسك بهذا الخطأ حتى بعدما انحسر المد نهائياً .

اما في ذلك الحين ، فكان يريد استغلال كل ما توافر لديه من وقت لكي يضع الخطط التكتيكية الثورية ، ويقنع اتباعه بها ، ويلقنهم فن الثورة ، وما شابه . كان لا يزال في غمرة تجاربه في مختبر السياسة الثورية عندما قرعت الثورة بابه ، دون ان تنتظر نتائج اختباراته . ويا لها من معضلة بالنسبة للعالِم والمناضل الثوري ! فهو يرى ان كل الحركة في روسيا انما هي حركة عفوية ، تدفعها شتى انواع ردود الفعل الطارئة ، وهي هلامية ، تفتقر الى التنسيق والقيادة . ولم يكن يثق بالعفوية . انه يريد تهيئة الحزب لكي يتسلم القيادة ، وهذا لا يتم ، برأيه ، إلا اذا جرّه الى نبذ المفاهيم المنشفية . وبالرغم من ذلك ، فلو انه خرجَ من عزلته السويسرية في وقت مبكر من ذلك العام، لتوفرت له فرصة افضل للتأثير على الاحداث . كان تروتسكي الشاب اول القادة المهاجرين الذين هرعوا الى ساحة المعركة بأسرع ما يمكن ، فأمسى القائد الرئيسي للثورة الاولى . وعندما وطأت أقدام لينين ارض روسيا ، كان تروتسكي على وشك ان يصبح رئيساً لسوفييت بطرسبرغ. ولا بد وان يكون لينين قد فكر مراراً حول الفرصة الضائعة بعد عام ١٩٠٥ . وعندما سنحت الفرصة التالية ، كان مصمماً على عدم اضاعتها ؛ فلم يتردد عام ١٩١٧ في القيام برحلة عبر المانيا الامبراطورية ، التي كانت في حالة حرب مع روسيا ، لكي يصل العاصمة الروسية في طور مبكر من الثورة الثانية .

ولم يكن تخلّف لينين النسبي عن « التمرين العام » بالشواذ . فلم يسلك اي من قادة المنشفية الكبار ولا اي من القادة البلاشفة الثانويين سلوكاً مخالفاً . فقد كانت عاصفة عام ١٩٠٥ تزمجر مخلفةً وراءها اناساً مثل بليخانوف ومارتوف واكسلرود . وكان قادة عام ١٩٠٥ ، باستثناء تروتسكي ، من ابناء القادة المغمورين الذين اندفعوا بفعل الحماس الشعبي أو التذمر ، على انهم كانوا يفتقرون الى التدريب والمهارة الثوريَين . ولم يكن دور

تروتسكي ليختلف كثيراً عن الدور الذي لعبه عام ١٩١٧ بوصفه رئيساً لسوفييت بطرسبرغ . ولكن ما من شيء يضيىء « عدم نضج » الثورة الاولى بقدر ما تفعله المقارنة بين دوره عام ١٩٠٥ ودوره عام ١٩١٧ . ففي الثورة الاولى ، فعل تروتسكي بالاحداث كفرد يقف وحده تقريباً . اما في عام ١٩١٧ ، فقد لقيت مؤهلاته الشخصية الضخمة دعماً من قوة الحزب البلشفي الجبارة وقد انضم تروتسكي اليه . في عام ١٩٠٥ ، أرهق نفسه بالالعاب الخطابية الباهرة وببعض الحركات المسرحية من التحدي الثوري التي لم يكن لها أي تأثير عملي مباشر ، رغم انها استحوذت على خيال الجماهير فأسهمت بذلك في دفع القضية الى امام . فعندما طوّق القوزاق والشرطة سوفييت بطرسبرغ خلال احد اجتماعاته ، كان تروتسكي هو الذي أمر الاعضاء المسلحين بكسر أقفال مسدساتهم والاستسلام ، لأن لا جدوى من المقاومة المسلحة . اما خطبته البليغة امام المحكمة القيصرية ، التي يمجّد فيها الثورة وأعلن حقها في الانتفاضة المسلحة ، فقد انغرست عميقاً في اذهان العديد من العمال ، فكانت احدى بذور الثورة المقبلة . كان في تروتسكي عام ١٩٠٥ الكثير من الهاوي المُلهَم ، وهذا ما لن نجده في تروتسكي عام ١٩١٧ . فبدلاً من ان يقدم اعضاء سوفييت بطرسبرغ ، اقفال مسدساتهم ، بحركة رمزية ، أقدم هذا السوفييت ، برئاسة تروتسكي ، على قيادة انتفاضة اكتوبر الظافرة .

ما هو الدور الذي لعبه كوبا – دجوغاشفيللي في « عام الجنون الثوري » هذا ؟ لم يلعب دوراً على الصعيد الوطني طوال تلك الفترة . فقد بقي واحداً من القادة القفقاسيين المحليين . إلا ان القفقاس كان مركزاً هاماً من مراكز الثورة . ورغم انه مجرد مقاطعة من المقاطعات ، فقد كان قدوة للامبراطورية كلها في بعض الاحيان ، وكان آخر من استسلم للهزيمة عندما ذرّت الردة المضادة للثورة قرنها وعمت اللامبالاة سائر انحاء روسيا. ففي كانون الاول من عام ١٩٠٤ ، أي قبل بضعة اسابيع من المسيرة الى « قصر الشتاء » في بطرسبرغ ، انتهى اضراب عنيد طويل ، قام به عمال النفط في « باكو » ، بتوقيع عقد جماعي بين العمال وأرباب العمل . وكان هذا أول عقد جماعي يوقع في روسيا . فقد أُجبر الصناعيون على التفاوض مع لجنة من طريدي العدالة تضم القادة السريين للاحزاب. وأحداث باكو هذه هي المقدمة الحقيقية للثورة ، بمعنى ما . وكان كوبا قد بدأ لتوّه رحلته في المقاطعة محاضراً ضد المناشفة ، والفوضويين، ودعاة الاتحاد الفيدرالي، والارمن الطاشناق (نصف القوميين ونصف الاشتراكيين) وغيرهم ، عندما قام الاضراب . فقطع

رحلته وأسرع عائداً الى باكو . ولا يُعقل ان يكون قد قاد الاضراب ، إذ انه لم يمكث في المدينة اكثر من بضعة ايام . ولكن ما من شك في ان رأيه كان ذا اثر على قادته. ومن باكو ومن رحلاته في المقاطعة ، حيث كان الجنود المطلوبون الى الخدمة يحتجون على تجنيدهم ، استطاع ان يحدس الاحداث المقبلة .

ولم يكن بالامكان ان يفوته أول هدير للثورة ، وهو اللصيق الصلة بأرضه. ففي الثامن من كانون الثاني عام ١٩٠٥ ، اي عشية « الاحد الدموي » في العاصمة ، أصدر « الاتحاد القفقاسي للاشتراكيين الديمقراطيين » بياناً بعنوان : **« يا عمال القفقاس ، لقد دقت ساعة الثأر ! »** . والبيان من وضع كوبا ، وقد شدد فيه على ان « الحكم الفردي يخسر ركيزته الاساسية — أي محاربيه المتفانين في خدمته » ، أي الجيش الذي رأى انه آخذ بالارتداد على الحكومة . وهو هنا يبالغ في قوة الحركة . ان احد الاسباب التي مكنت القيصرية من ان تقاوم وتتخطى صدمة الثورة الأولى هو تفاني « محاربيها » بالذات . فقد كان الجيش ، بشكل عام ، لا يزال يرضى بأن يُستخدم ضد الشعب الثائر . فثمانية أو تسعة من كل عشرة جنود هم من « الموجيك »[1] ، وموقف الجيش انعكاس لهذا الواقع ، إذ ان الفلاحين لا يمحضون الثورة تأييدهم كاملاً . ويمكن ان نعزو الخطأ الذي يرتكبه كوبا هنا الى الظروف الخاصة السائدة في القفقاس . فأوضاع الفلاحين في وطنه الاصلي — جيورجيا — أسوأ بكثير مما هي عليه في سائر انحاء روسيا . فالجوع الى الارض أقوى هناك ، والثورات الفلاحية وانتفاضات الجنود أوسع انتشاراً من أي مكان آخر .

ومن جهة اخرى ، ضخم كوبا المصاعب التي ستضطر القيصرية الى مواجهتها .فتوقع ان تشهر الحكومة افلاسها لأن سمعتها آخذة بالتدهور في اوروبا الغربية . والواقع ان « بورصة » فرنسا الجمهورية سخت بالقروض التي سمحت للقيصر بأن يدخل بعض التنظيم الى ماليته . وحذّر كوبا قراءه من ان القيصرية « تبدل جلدها كالافعى » ، وقال ان الذعر سوف يجرها الى التخلي عن الزعم بأن تريد التغيير وتريد التنازل للشعب عن بعض المطالب ، إلا ان « الوقت قد حان **لتحطيم** الحكومة القيصرية ، ولسوف **نحطمها** ... ان روسيا مثل بندقية محشوة ، تنطلق عند ادنى هزة . فلنتعاضد اذاً **ولنلتف حول لجان الحزب** ! ولا يجوز ان يغيب عن اذهاننا لحظة واحدة ان **لجان الحزب هي وحدها**

---

(١) « الموجيك » هو الفلاح الروسي الفقير (المترجم) .

القادرة على قيادتنا على نحو سليم ، وهي وحدها القادرة على ان تنير لنا طريق «الارض الموعودة » ، التي هي العالم الاشتراكي . ان الحزب الذي فتّح أعيننا وأرانا أعداءنا ، ونظمنا في جيش يثير الرهبة ، وقادنا الى المعركة ، ان الحزب الذي لم يتخل عنا قط ، في السراء أو الضراء ، والذي سار دائماً في مقدمتنا ؛ هذا الحزب هو حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي » . ما اشد بروز ملامح المسترهب السابق في صلابة المناضل الحزبي! ففي نظرته للامور ، يرى الشعب تائهاً في الصحراء يبحث عن ارض الاشتراكية الموعودة ، ويرى الحزب ، مثل عمود النار التوراتي ، ينير له الطريق . ومَن غير رهبان اللجان الحزبية وصدّيقيها يقودون الشعب في « السراء أو الضراء » ؟ وينتهي البيان بالشعارات التالية « يسقط الحكم الاستبدادي القيصري ! تعيش الجمعية التأسيسية الشعبية ! تعيش الجمهورية الديمقراطية ! يعيش حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ! » .

لمواجهة خطر الثورة ، سلطت وزارة الداخلية القيصرية عصابات « المئات السوداء » على الاشتراكيين بشتى اتجاهاتهم ، وعلى الليبراليين واليهود . وبدأت منظمة « المئات السوداء » بالعمل في باكو بعد اضراب عمال النفط مباشرة . ومثلما كان اليهود ، في سائر أنحاء الامبراطورية ، كبش المحرقة الذي استخدمته القيصرية للتنفيس عن التذمر الشعبي ، كذلك كان الارمن في القفقاس . فالفتن العرقية والدينية قائمة باستمرار فيه بين الاتراك والارمن . تذكيها الاهواء التي أثارتها مجزرة الارمن على الحدود التركية ، كما يسعرها العداء المحلي للطبقة الوسطى الارمنية . فليس أسهل على «المئات السوداء» من ان تحرّض جمعاً من المسلمين على ذبح الارمن واغراق القفقاس في مستنقع النزاع القبلي الدامي . وفي مذكرات سيرغو اليلوييف ، حمو ستالين ، وصف حي لهذه الاضطرابات الرهيبة :

« السلطات التي تحظى بدعم الموظفين في كل الدوائر والرتب من أعضاء « المئات السوداء » في باكو ، وبدعم من الشرطة في البلدة والريف ، تسلح رعاع « اتحاد الشعب الروسي » فتشرع العصابات بتحريض الصبية الارمن والاتراك ضد بعضهم البعض . ثم يتشاجر البالغون بسبب الصبية المصابين . ثم يقدم افراد منظمة « المئات السوداء » على ذبح الاتراك والارمن في الكمائن ، ويحرقون البيوت . وبعد ان أثارت النزاعات شتى انواع الحيل ، حققت السلطات هدفها المنشود : ففي شهر آب ، بدأ التذابح الوحشي بين الارمن والاتراك . البلدة تضج بالطلقات النارية المدوية . الاتراك ينهبون ويحطمون حوانيت ومنازل

الارمن . الجثث ملقاة على قارعة الطريق والارصفة ، وأنين الجرحى يُسمع في كل مكان . ويقف الجنود وأفراد الشرطة ، هنا وهناك ، مكتوفي الايدي، يرنون بصمت الى المذبحة . ثم أضرم افراد « المئات السوداء » النار في المصانع وآبار النفط ، وأشاعوا ان هذا من فعل المضربين . وتحت ستار « النضال ضد اشعال الحرائق » ، أخذ اللصوص والمجرمون يتعقبون المناضلين الحزبيين البارزين ... الحياة اضحت جحيماً بالنسبة لنا جميعاً . حرائق منشآت النفط تزداد توعداً وتهديداً . النار الهادرة ، الرهيبة ، الوحشية ، العاصية حولنا ؛ والموت والدمار في كل مكان » .

وشارفت الثورة على الهزيمة ، أو هي شلت على اقل تقدير في مدن القفقاس المتعددة القبائل ، طوال عدد ليس بالقليل من الاشهر . وكتب كوبا المنشور تلو المنشور محذراً الطبقة العاملة من شر التقاتل بين الاخوة ، داعياً الى التضامن الاممي . وراح يمجّد الحالات النادرة عندما سارت جموع من الاتراك والارمن والايرانيين والروس في مواكب متآخية من الكنائس الى المساجد والمقابر « متعهدة ان تحب بعضها البعض » . وألح على الحزب ان يشجع مثل هذه التظاهرات ، داعياً الى عقد اتفاقات مع أي احزاب أو اجنحة مستعدة للعمل المشترك ضد المجازر والمذابح .

واستمر الخلاف المنشفي – البلشفي بمحاذاة هذه الاحداث . وفي ايار ، اصدر كوبا منشوراً بعنوان « مراجعة مختصرة للخلافات الحزبية » ردّد فيه حجج لينين من جديد ، وحشاه بالاستعارات عينها عن ارض الاشتراكية الموعودة . وقد بدد هذا المنشور، وغيره من المقالات ، اي شك حول لينينية كوبا العنيدة . كان البلاشفة يسيطرون على اقلية ضئيلة من التنظيم السري في القفقاس . فجيورجيا ، موطن كوبا ، معقل للمناشفة . وكان ينتمي الى اقلية ضمن الاقلية ، إذ ان معظم القادة البلاشفة في المقاطعة يسعون الى التقارب مع المناشفة . وما من شك في ان كوبا أثار انتباه لينين هنا . ذلك ان لينين قد حدس ان وجهة نظره لم تكن مطروحة بالقدر الكافي من الحماس والاقتناع في القفقاس ، وكانت مفاجأة سارة له ان يعلم عن طريق مكسيم ليتفينوف عن منشور كوبا الصادر باللغات الروسية والجيورجية والارمنية . فطلبت نادجيا كروبسكايا ، زوجة لينين ومساعدته ، نسخة عن المنشور الذي يعرض فيه كوبا آراء لينين،ونسخة اخرى عن ترجمته الجيورجية . ولا ريب في ان هذا الاتصال ، بالرغم من انه غير مباشر ، هو اول اتصال تم بين لينين

وبين خليفته المقبل . ومن المشكوك فيه ان يكون كوبا قد تمكن من اثارة انتباه لينين في تلك الفترة لو ان البلاشفة الأبرز منه في المقاطعة أيدوا لينين على طول الخط . فمن خصائل لينين انه عندما يشعر بعدم جدوى الاعتماد على القادة البلاشفة من الصف الاول ، يسعى الى اقامة اتصال مباشر مع الصف الثاني ومع القواعد الأكثر استعداداً لدعمه؛ فيشجعهم، وييسّر اليهم ، ويرفعهم الى رتب أعلى في جناحه . وقد عوضت بوادر الاهتمام الذي خص به لينين عن اخفاقه المحلي . فأخذ اسلوب سجالاته مع القادة المناشفة المحليين يزداد تعصباً ومرارة ، عاكساً ، في آن معاً ، شعوره بالعزلة بين رفاقه في المنطقة ، والثقة بالنفس التي اكتسبها عندما علم انه يسير على خطى لينين نفسه. وقد تفاقم شعوره بالعزلة بسبب موت صديقيه واستاذيه : تسولوكيدزه و كيتسخوفيللي . فلو عاش هذان القائدان من قادة الاقلية في « ميسامي داسي » ، لكان بوسعهما ان يصبحا بلشفيين صلبين مثله . إلا ان كيتسخوفيللي قضى على يد سجانيه في « قصر ميتيجي » ، السجن المحصن الرهيب في « تيفليس » ، ومات تسولوكيدزه من السل .

وفي تلك الاثناء ، كان كوبا يراقب استاذه وهو يقدم منوعات جديدة من الفن الثوري . في مؤتمر شهر نيسان بلندن ، طرح لينين على أتباعه مسألة الانتفاضة المسلحة . وما ان عاد الى جينيف حتى اخذ يطوّر هذه المسألة . فقال ان القيصرية لن تتخلى عن الحكم بملء ارادتها ، لذا ينبغي قلبها عن طريق الانتفاضة المسلحة . هذه فكرة بديهية يدين بها جميع الاشتراكيين . إلا ان العديد منهم كان يعتبر الانتفاضة تمرداً شعبياً عفوياً لا يمكن تهيئته أو التخطيط له مثلما لا يمكن التهيئة أو التخطيط لشروق الشمس أو غروبها . وقد قابل لينين هؤلاء الاشتراكيين بالازدراء ، معتبراً اياهم نواحيّ الثورة الرومنطيقيين . فهو يرى ان الانتفاضة فن ، ينبغي تعلمه وممارسته . وذكّر الحزب بمبادىء اولية ، كالتي تقول ان الثورة تنجح فقط عندما تكون في طور هجومي باستمرار ، وان الدفاعية هي حتفها . وحث اتباعه على تأسيس فروع عسكرية خاصة بالحزب .

وقد ردد كوبا هذه الدعوة في « كفاح البروليتاريا » فقال :

« ان عدداً كبيراً من منظماتنا قد حل المشكلة عملياً بتوجيه قسم من قواه وموارده نحو تسليح البروليتاريا . ان نضالنا ضد الحكم الاستبدادي الفردي قد بلغ مرحلة يعترف الكل فيها بضرورة تسليح أنفسنا . ولكن الاعتراف بهذه

الضرورة ليس كافياً : ينبغي طرح المهمة العملية بصراحة امام الحزب . ينبغي أن تعمل لجاننا فوراً على تسليح الشعب ، وتوكل ذلك لفرق خاصة ، وان تنشىء المراكز المنطقية لتجميع السلاح ، وتؤسس المشاغل لصنع كل انواع المتفجرات ، وترسم الخطط للاستيلاء على الاسلحة والذخيرة من مستودعات الدولة والمخازن الخاصة ... ولا يجوز ان تحول الخلافات بين شتى الاجنحة دون توحيد كل القوى الاشتراكية الديمقراطية للاضطلاع بهذه المهمة » .

لم يترجم كوبا تعليمات لينين الى اللغة الجيورجية وحسب ، بل وترجمها الى لغة العمل ايضاً . فشارك في تأسيس وتوجيه المنظمة العسكرية المنطقية التي كانت تملك مختبراً سرياً بالغ الفعالية لصنع المتفجرات ، أنشأه كراسين . وبالرغم من ان فكرة لينين حول الانتفاضة المبرمجة والموجّهة مركزياً لم تتجسد في « الثورة الاولى » ، على ان الفرق المسلحة هي التي تقدمت الصفوف في الانتفاضات غير المنظمة التي اندلعت في ذلك العام . وفي القفقاس ، قاومت هذه الفرق عصابات « المئات السوداء » ، وحمت المناطق العمالية من التقاتل العشائري ، وظلت على اتصال بمقاتلي الريف . ولم يكن دور كوبا في هذا الفرع الجديد من الحزب دور الضابط المقاتل ، بقدر ما كان دور المنظّم والمدير والملهم .

كان يجب تنظيم الفرع الجديد في الحزب على اساس من السرية التامة . فلُفّت قياداته وأعضاؤه بسرية تفوق السرية التي تلف سائر فروع الحزب مع الاحتفاظ ، طبعاً ، بالحد الادنى من الاتصالات بين الفرع الفني والفروع الاخرى .

وانتفخت صفوف الحزب ، وهو في اوج الثورة ، بأعضاء جدد غير مجرّبين . ومع تقلص الارهاب القيصري ، ارخى الحزب قوانينه وتقاليده السرية . قبل عام ١٩٠٥ ، كانت اللجان العليا تعيّن ، على مسئوليتها ، اللجان الدنيا ، واللجان التنفيذية ،والمسئولين الحزبيين . فقد بُني الحزب من فوق ، ولم تعرف قواعده من هم أعضاء مختلف الاجهزة القيادية . إلا تعديلاً طرأ على التنظيم خلال الثورة الاولى . فأخذت القواعد تمارس رقابة ديمقراطية على اللجان . وحلّت الانتخابات من تحت محل التعيينات من فوق . على انه لم يكن بالامكان ادخال مبدأ الانتخاب الى الفرع الفني . وهكذا ، فخلال الثورة الاولى ، وعند انحسارها على وجه الخصوص ، مارس كوبا القسم الاكبر من نشاطه داخل هذا المعقل الاكثر سرية في الحزب ، بمنأى عن رقابة الاعضاء العاديين .

ان نجاح الانتفاضة المسلحة ، سوف يؤدي الى قيام «حكومة ثورية مؤقتة» . فكانت عناصر هذه الحكومة ووظائفها هي الموضوع الثاني الذي تعرّض له كوبا . وهنا ايضاً سار بتأنٍ على خطى لينين : ليست روسيا ناضجة لبناء الاشتراكية ، لذا فان الحكومة الثورية المؤقتة لن تكون « دكتاتورية بروليتارية » . وهي لن تكون ، من جهة اخرى ، حكومة برلمانية ، فذلك متعذر خلال الثورة . فأطلق لينين على الحكومة المؤقتة اسم « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » . ولم يحاول لينين ، أو اتباعه ، تفسير هذه الصيغة المزعجة والمتناقضة ، مع انها كانت اساس الدعاية البلشفية بين الاعوام ١٩٠٥ و ١٩١٧ . وقد أدى غموض هذه الصيغة عام ١٩١٧ الى واحدة من اعنف الازمات في تاريخ البلشفية الغنية ، اصلاً ، بالخلافات والازمات الداخلية .

اما مهام الحكومة الثورية المؤقتة ، كما عرضها كوبا ، فهي التالية : شل قوى الردة السوداء المضادة للثورة ، تسلم القيادة في الحرب الاهلية ، الدعوة الى عقد «جمعية تأسيسية» يجري انتخابها في اقتراع عام . وتصدر الحكومة سلسلة من الاصلاحات الجذرية التي لا يتعدى احدها حدود الديمقراطية البرجوازية ، وذلك خلال الفترة الممتدة بين ظهور الحكومة الثورية ، التي لا تستمد سلطتها من أي مصدر دستوري ، وبين موعد انعقاد « الجمعية التأسيسية » . وتتضمن الاصلاحات ما يلي : اعلان حرية الصحافة والاجتماع ، الغاء الضرائب غير المباشرة ، فرض ضريبة تصاعدية على الارباح ورسوم تصاعدية على الارث ، تكوين لجان فلاحية ثورية للاضطلاع بالاصلاح الزراعي ، فصل الكنيسة عن الدولة ، تحقيق يوم العمل من ثماني ساعات ، خدمات اجتماعية ومكاتب توظيف وما الى ذلك . ان البرنامج ، بجمله ، أكثر اعتدالاً من البرنامج الذي تبنته حكومة عمالية معتدلة في بريطانيا بعد أربعين عاماً . ولكنه أثار هيجاناً عظيماً في روسيا في اوائل القرن ، بعد ما لا يزيد عن اربعين عاماً على الغاء القنانة .

ورأى كوبا ، كغيره من البلاشفة ، ان تنفيذ البرنامج رهن بتحالف الطبقة العاملة الاشتراكية مع الفلاحين الفرديين، لأن الطبقة الوسطى الليبرالية في المدن لن تؤيد الثورة. وقد ادرك ان الطبقة العاملة والفلاحين يسعيان وراء اهداف مختلفة ، على المدى البعيد ، وانه من المحتمل ان تتضارب مصالحهما وسياساتهما في النهاية . إلا ان هذا التضارب لن يحصل إلا عندما يحاول الاشتراكيون قلب الرأسمالية ، ولم يكن ذلك من مهمات الثورة في روسيا آنذاك . وهكذا ، فان شعار « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية »

مجرد شعار ديمقراطي ، لأن برنامج هذه الدكتاتورية لا ينطوي على « ذرة » من الاشتراكية الحقيقية؛ وهي دكتاتورية لأن هدفاً بمحدودية هدف اقامة جمهورية برلمانية غير اشتراكية يستدعي القضاء على « العهد القديم » بوسائل دكتاتورية عنيفة . وقيام الدكتاتورية على تحالف طبقتين يعني ان يدخل الحكومة ممثلون عن احزاب مختلفة . وهذا يعني ضرورة اشتراك الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الحكومة ، ليمثل فيها مصالح الطبقة العاملة بغية « تأمين هيمنة البروليتاريا » . وبعبارة اخرى ، فان الاشتراكيين سوف يقودون حزب الفلاحين أو احزابهم التي هي بالتعريف اقل تقدمية ووضوحاً وتصميماً من حزب البروليتاريا .

أصر المناشفة على رأيهم في ضرورة اضطلاع الطبقة الوسطى الليبرالية بقيادة الثورة . واستنتجوا من ذلك انه لا يجوز للحزب الاشتراكي الديمقراطي ان يدخل الحكومة الثورية المؤقتة ، لأنه ليس من شأن الاشتراكيين الديمقراطيين تسيير امور ادارة غير اشتراكية . في تلك الأيام ، كانت الغالبية الساحقة من الاشتراكيين في شتى أنحاء العالم ، بمن فيهـا من معتدلين ، ترى ان اشتراك الاشتراكيين في اية حكومة ائتلافية انما هو عمل انتهازي لا يجوز الاقدام عليه ، لا بل هو خيانة صريحة للاشتراكية . وعندما قبل « ميلران » الاشتراكي مقعداً في وزارة برجوازية ، نبذه الاشتراكيون فوراً . واتهم المناشفة لينين بال« ميلرانية » . واعتبروا ان الدعوة التي وجهها الى الاشتراكيين الديمقراطيين للاشتراك في حكومة غير اشتراكية قريبة جداً من الانتهازية الصرفة . فرد كوبا على المناشفة قائلاً انهم يخلطون بين نوعَين مختلفَين من الحكومات . فالحكومة المؤقتة ، المنبثقة من الثورة والملتزمة بالاصلاحات الجذرية ، تختلف كلياً عن ادارة عادية لا تتعدى مهمتها حدود المحافظة على الوضع القائم . وسأل : « ما هو مجلس الوزراء ؟ انه حصيلة وجود ادارة عادية . وما هي الحكومة الثورية المؤقتة ؟ انها حصيلة تحطيم الادارة العادية . فالاول ينفذ القوانين السارية المفعول بمساعدة الجيش . اما الثانية ، فانها تلغي القوانين السارية المفعول ، وتشرّع وفق ارادة الثورة بمساعدة الشعب الثائر . من المستغرب حقاً ان يكون المناشفة قد تناسوا ألف باء الثورة » . اما لينين ، كما يراه كوبا ، فليس ، بأي حال من الاحوال ، مستوزراً اخرق ، ولا صنواً لـ « ميلران » المنبوذ .

اما الانتقاد الثاني الذي وجهه المناشفة — وهو الاكثر تعبيراً عن اهتماماتهم الحقيقية — فهو ان برنامج لينين تشويه للحكم الدستوري . ذلك ان لينين اراد ان تصدر الحكومة

المؤقتة سلسلة من الاصلاحات الشاملة قبل انعقاد الجمعية التأسيسية . وقد توقع النقاد — وفي عام ١٩١٨ ، صح ما توقعوه — ان هذه الجمعية سوف تواجه واحداً من احتمالين : فإما ان توافق على هذه الاصلاحات بعد موعد صدورها ، وإما ان تلجأ الحكومة الدكتاتورية الى حلها . ورأى كوبا في هذه الحيثيات الدستورية ضرباً من السخف لا غير . فهو لا يرى سبباً يدعو الجمعية الى معارضة الاصلاحات التي تجريها الحكومة الثورية المؤقتة في غياب مؤسسة دستورية ،ما دام محتماً ان تحظى هذه الاصلاحات الديمقراطية الجذرية ، مع كونها غير اشتراكية ، بتأييد الغالبية العظمى من الشعب . لماذا النقاش اذاً حول ما إذا كان يجوز للحكومة الثورية المؤقتة ان تؤجل الاصلاحات الى حين انعقاد الجمعية التأسيسية ، ما دام جلياً مثل عين الشمس ان الحرب الاهلية ، الواقعة لا محالة ، سوف تؤخر انتخابات هذه الجمعية ، فتضطر الحكومة المؤقتة ، في هذه الاثناء ، الى الرضوخ للرأي العام السائد في البلد فتوزع الاراضي على الفلاحين ، وتجعل يوم العمل من ثماني ساعات ، وما الى ذلك ؟ ان اضطرار الثورة الى الدفاع عن نفسها هو الذي سيملي عليها خط عملها . ويتساءل كوبا :

« ألا ينضح هذا التفكير (المنشفي) برائحة الليبرالية النتنة ؟ أليس مستغرباً ان نسمعه من فم ثوريين ؟ ألا يذكّرنا المناشفة بالمحكوم بالاعدام الذي يتضرّع الى الجلاد ان لا يخدش الدملة التي على رقبته وهو على أهبة ان يضع رأسه في انشوطة المشنقة ؟ »

ان البلاشفة والمناشفة يتخذون موقفاً واحداً من الهدف العام للثورة ، وهو ان الثورة سوف تكون « برجوازية ديمقراطية » ليس إلا . اما الخلاف ، فهو حول الخطط التكتيكية . بينما كيّف المناشفة خططهم التكتيكية مع الهدف الستراتيجي المحدود ، كانت خطط لينين التكتيكية الثورية والجريئة على طرفي نقيض من الهدف الستراتيجي . كان من اليسير على البلاشفة ان يثبتوا ان الحنبلية « البرجوازية الديمقراطية » التي يتمسك بها خصومهم تعني التخلي عن الثورة . ولكن كان من الأيسر على المناشفة ان يثبتوا ان المفهوم البلشفي مفهوم متناقض . وكانت الانتقادات التي يوجهها كل طرف للطرف الآخر على نفس المستوى من حيث فعاليتها وتماسك منطقها . ومما لا شك فيه ان موقف المناشفة هو الاكثر تناسقاً ، ولكن هذا التناسق يقوم على استكانة مستسلمة سوف تورد الحزب موارد الهلاك اذا ما فاجأه سيل الثورة العارم . ان حجج لينين مبهمة ، وتلخيص كوبا

الفظ لها مفككك احياناً ؛ إلا انها تتكشف عن عزيمة ثورية لتسلّم الحكم . وقد توقع بعض نقاد لينين ان لا بد له ، في نهاية المطاف ، من ان يوائم بين استراتيجيته وخططه التكتيكية ، فإما ان يتخلى عن خططه التكتيكية المتطرفة ، وإما ان يحطم الاطار الديمقراطي الصرف ، وغير الاشتراكي ، للثورة ويقيم تجربة اشتراكية . إلا ان لينين يردد ان تجربة كهذه لن تكون ، في روسيا ، إلا مغامرة خرقاء . وكان تروتسكي الاشتراكي الوحيد الذي اعتقد ، عام ١٩٠٥ ، بأنه لا بد للثورة ، إنْ هي انتصرت ، من ان تسلك طريق دكتاتورية البروليتاريا والاشتراكية . فنظر المناشفة والبلاشفة ، على حدٍ سواء ، الى توقعاته على انها هلوسات مجنون . والواقع ان القادة الرئيسيين ، باستثناء تروتسكي ، لم يتغيبوا عن الفصول الرئيسية من « التمرين العام » وحسب ، بل ان الادوار التي اضطلعوا بها كانت مختلفة عن أدوارهم في ثورة ١٩١٧ . وهذا ينطبق على كوبا مثلما ينطبق على غيره .

في شهر تشرين الاول ، أذاع القيصر بياناً يَعِد فيه باطلاق الحريات الدستورية . فاعتبر ذلك انتصاراً لليبراليين . وأخذ هؤلاء يأملون بتحويل القيصرية الى ملكية دستورية ، ورأوا في «الدوما» ، البرلمان الذي دُعي للانعقاد آنذاك ، اداة هذا التحويل. وارتأى معظم المناشفة ، وبعض البلاشفة ايضاً ، ان الواجب يدعوهم الى خوض الانتخابات. صحيح ان الاقتراع سيكون محدوداً ، والطبقة العاملة ضعيفة التمثيل فيه ، فيسيطر الليبراليون المعتدلون على « الدوما » ؛ ولكن ليس ذلك بالامر الخطير – برأي المناشفة . ففي الثورة الفرنسية ، أقدمت الحركة الشعبية على اجبار « الجمعية » المعتدلة على اخلاء المكان أمام « الكونفونسيون » الاكثر جذرية منها . لم يكن كوبا يشاطر المناشفة رأيهم هذا ، فدعا الى مقاطعة الانتخابات ، لأن أية انتخابات في ذلك الحين ، « عشية ثورة الشعب في عموم روسيا » ، لن تؤدي إلا الى صرف اهتمام الشعب عن العمل الثوري المباشر. وقال في نداء كتبه باسم « لجنة تيفليس » : « إن البروليتاريا لا تطلب من الحكومة تنازلات تافهة مثل الغاء الاحكام العرفية ووقف الاعدامات في بعض المدن والقرى ... ان الذي يطالب الحكومة بمثل هذه التنازلات لا يؤمن بموتها المحتم ، في حين هذا هو ما تؤمن فيه البروليتاريا » . وأيضاً : « ان صرح حرية الشعب لا يقوم إلا على عظام الطغاة ، ودم الطغاة هو وحده الذي يروي ارض حكم الشعب الذاتي » . وبالرغم من ان لينين قد وافق احياناً على هذه التنفيسات عن الغضب الشعبي ، التي هي الترجمات الروسية لشعار

« الارستقراطيون الى المشانق »[1] ، فـلم يطلقها بنفسه. فقد كان ذا ذوق رفيع يحول بينه وبينها . اما في فم كوبا ، ابن الاقنان السابقين ، فلهذه الكلمات وقع مألوف. ودعا، في بيـان آخر ، الى « النضال بلا هوادة ضد الليبراليين أعداء الشعب » ، لأن الليبراليين بدأوا يساومون مع القيصرية . ولم يـكن بالمستغرب ، بعد هذا كله ، ان يخوّن المناشفة أنفسهم ، رغم ان البلاشفة والمناشفة ، كانوا لا يزالون في حزب واحد . فكتب يقول : « إما ان يكون الليبراليون البرجوازيون قد تحولوا الى مناشفة ، وإما ان يكون المناشفة القفقاسيون قد تحولوا الى ليبراليين برجوازيين » .

أثار بيان القيصر عاصفة من الاحتجاج . فهو بالغ التحفظ فلم يقنع المعارضة، وكان من البديهي انه علامـة ضعف بحيث لم يكن بد من ان يشجع على مطالب جديدة . وتوالت الاضرابات العامة والانتفاضات المحليـة عقب الاحتجاجات . فبعد شهرين من موقف القيصر شبه الليبرالي هـذا ، كتب مفوض الشرطة في القفقاس الى رئيسه في بطرسبرغ قائلاً : « ان مقاطعة « كوتياس » في وضع حرج ... فقد أقدم الثوار على نزع اسلحة الدَرَك ، وسيطروا على خط سكة الحديد الغربي وتولوا بأنفسهم بيع التذاكر وحفظ الامن .... لم أتلقَ أية تقـارير من « كوتياس » ؛ لقد سحبنا الدرك من على خط سكة الحديـد وجمعناهم في تيفليس . الثوار يفتشون الرُسُل الذين ينقلون التقارير ويصادرون الوثائق ؛ الوضع مستحيل هناك ... أُصيب المحافظ بانهيار عصبي ؛ إلا ان الوضع ليس ميئوساً منه تماماً . « الكونت » هو الذي يبت بأمر التقارير البالغة الأهميـة ، لكنه ضعيف جداً . سوف ابعث بالتفاصيل عن طريق البريد ، وإذا تعذر ذلك فبواسطة احد الرسُل » .

أخذت الاحزاب تخرج من « عالمهـا السفلي » . الصحف الاشتراكية اليومية تُطبع وتُباع علناً . في بطرسبرغ ، أصدر ليتفينوف وكراسين صحيفة « نوفايا جيزن » (الحياة الجديدة) . وأصدر تروتسكي « ناشالو » (البداية) في ألمع عمـل صحفي عرفته الثورة الأولى ، إذ بلغت مبيعها نصف مليون نسخة. وفي تيفليس ، أصدر كوبا – دجوغا شفيللي

(١) احد الشعارات الجماهيرية ابان الثورة الفرنسية (المترجم) .

و س شوميان [1] صحيفة بلشفية يومية تحمل اسماً اقل رمزية من الصحف الاخرى هو « كافكاسكي رابوتشيي ليزتوك » (جريدة العمال القفقاسية) . ولم تعمّر هـذه الصحف طويلاً ، فسرعان ما اغلقتها الشرطة عندما بدأت الانتفاضات بالتلاشي . في ذلك الحين ، كان كوبا يوزع أوقاته بين مكاتب تحرير الصحيفة العلنية، واللجان الاشتراكية الديمقراطية شبه السرية في تيفليس والقفقاس ، والفرع الخـاص التابع للحزب والبالـغ السرية . وبالاضافة الى هذه النشاطات المنوعة ، كان يمهد للمؤتمر الرابع للبلاشفة القفقاسيين الذي انتخب هو فيه مندوباً الى المؤتمر الوطني للحزب الذي دعـا لينين لعقده لأول مرة في داخل روسيا . والواقع ان المؤتمر انعقد في « تاميرفورس » ، البلدة الفنلندية ، لأن فنلندا تتمتع بقـدر من الاستقلال الذاتي والحرية ازود ممـا تتمتع سائر اجزاء الامبراطورية القيصرية ، فيشعر المندوبون فيها بقدر اكبر من الاطمئنان .

كانت تلك المرة الأولى التي خرج فيهـا ستالين من القفقاس شبه الآسيوي الى روسيا الاوروبية ، ومن ركود تيفليس الى حيوية مؤتمر وطني حقيقي . وفي « تامير فورس » ، التقى بلينين لأول مرة . وبعد سنوات من ذلك التاريخ ، سجّل الانطبـاع الذي تركه معلمه في نفسه بتلك الفظاظة المميّزة لاسلوبه :

« كنت آمل ان أرى نسر حزبنا ، الرجل العظيم ، عظيماً جسدياً مثلما هو عظيم سياسياً . كنت أتخيل لينين عملاقاً منتصباً فارضاً هيبته . وكم كانت خيبة أملي عظيمة عندما رأيت رجلاً عادي المنظر الى درجة كبيرة ، اقصر من الطول المتوسط ، لا يتميز بشيء ، ولا بشيء اطلاقـاً ، عن غيره من الفانين ... في العادة ، يأتي الرجال العظام متأخرين الى الاجتماعات لكي ينتظر الناس مجيئهم بفارغ الصبر . وبينما هم داخلون ، يتعالى التنبيه : « هسّ ... سكوت ... هـا هو آت » . ليس هذا الطقس سخيفاً ، لأنه يترك أثراً ما ويفرض الاحترام . وكم كانت خيبة أملي عظيمة عندما تبيّن لي ان لينين قد وصل الى القاعة قبل غـيره من المندوبين وانـه استقرّ في احدى الزوايا يجري حديثاً عاديـاً مع مندوبين

---

(١) شوميان هو المفوض البلشفي المقبل في باكو ، وواحد من المفوضين الستة والعشرين الذين قتلهم الروس المعادون للثورة خلال التدخل البريطاني في القفقاس .

عاديين . لن اخفي عليكم ان هذا قد بدا لي في حينه على انه خرق لبعض القواعد الاساسية » .

لا شيء يلخص نظرة كوبا الضيّقة الافق في ذلك الحين افضل من كلماته نفسها . ربما كان سليل الاقنان قد تعلم استخدام التعابير الماركسية الأولية والنقاش حول آلية الثورة. إلا ان افتقاد قائد هذه الثورة لأي من صفات السيد الاقطاعي ظل مدعاة دهشة بالنسبة له . وهكذا، فالمسترهب السابق الذي أدار ظهره للكنيسة ظل يتوهم ان لينين هو اسقف الاشتراكية الأكبر .

وها هو يحملق بلينين ، منصتاً بشغف الى حديثه ، مراقباً كل شاردة وواردة . ففي الرجل من الميزات ما يكفي لترك أثر عميق في نفس مندوب تيفليس : المنطق الكاسح في حديثه ، جرأته السياسية ، الشمول التاريخي لآرائه ، وضوح استنتاجاته وبساطتها ، وأخيراً ليس آخراً، حسه العملي الراسخ. وصل المندوبون الى تامير فورس في حالة انتشاء، فتباشير انتفاضة موسكو أثارت فيهم امل القضاء العاجل على القيصرية . وقد أثر هذا التفاؤل العام على لينين نفسه، فاكتسى المؤتمر بعض السمات المسرحية كأن يخرج المندوبون يتقدمهم لينين ليتدربوا على اطلاق الرصاص في الاحراج القريبة خلال الاستراحات . على ان ذلك لم يطِح باحتراز لينين أو توازنه . فاقترح في اول جلسة انه ، بالرغم من كل ما يحدث في « أيام الحرية » تلك ، ينبغي على المندوبين ان يستعملوا الأسماء المستعارة بدلاً من اسمائهم الحقيقية . فالاوخرانا لم تُهزم بعد ، ولم يحن الوقت للتخلي نهائياً عن السرية . واتخذ كوبا اسم ايفانوفيتش . وكان دوره في المؤتمر يمثل تواضع اسمه المستعار هذا . ولم تنشأ علاقة صداقة ، أو حتى إلفة ، بينه وبين لينين في ذلك الحين. إلا انه تعرف الى عدد من الاشخاص سوف ينشهرون فيما بعد : لوزوفسكي ، الرئيس المقبل للاممية المهنية الحمراء (البروفينترن) و لمتحدث الرسمي الرئيسي خلال الحرب الروسية — الالمانية في الاعوام ١٩٤١ — ١٩٤٥ ؛ ياروسلافسكي ، الرئيس المقبل لـ « جمعية الملحدين» ؛ بورودين، مبعوث ستالين المقبل لدى الجنرال تشاي كاي — تشيك ومستشاره العسكري ؛ ونادجيا كروبسكايا ، زوجة لينين ؛ وآخرون .

لا شك ان كوبا قد اندهش عندما علم ان الاندماج بين المناشفة والبلاشفة هو أهم موضوع بين الموضوعات المدرجة على جدول اعمال المؤتمر . كانت الاحداث قد قرّبت بين الجناحين . والاتجاه الداعي الى الاندماج اقوى في روسيا الوسطى مما هو عليه في القفقاس،

حيث لم يكن للانشقاق شأن كبير لأن البلاشفة لا يتمتعون إلا بنفوذ محدود . شعر الجناحان بأن الانشقاق يساهم في اضعافهما معاً ، فأرادا وضع حد له . وفي تاميرفورس ، اقترح لوزوفسكي ان تندمج المنظمات المحلية فوراً ، دونما حاجة لانتظار الاتفاق الرسمي بين القادة . فوافق المؤتمر على اقتراحه . وبينما مؤتمر البلاشفة في طور الانعقاد ، عقد المناشفة مؤتمرهم الذي تبنى قراراً مماثلاً لصالح الاندماج . وتقرر ان تعقب المؤتمرَين مفاوضات بين القادة في بطرسبرغ .

الموضوع الثاني الذي ناقشه مؤتمر تاميرفورس هو انتخابات الدوما . هل يشترك الاشتراكيون الديمقراطيون فيها أم لا ؟ كان كوبا قد دافع عن مقاطعة الانتخابات في مؤتمر البلاشفة القفقاسيين ، معلناً ان مكان الطبقة العاملة هو وراء المتاريس ، وليس في اقلام الاقتراع . وشدّ ما ادهشه ان يدافع لينين عن الاشتراك في الانتخابات ، أو في بعض مراحلها على الأقل ، لأن كانت ستجري على اكثر من مرحلة . وبدت خطط المقاطعة للينين سلبية خرقاء ، وبدت عملية مواجهة المتاريس بأقلام الاقتراع باللغة الفظاظة ، لا تصلح لرسم سياسة صحيحة . فثمة شيء من الصحة في الرأي المنشفي القائل ان الضغط الشعبي قد يؤدي بمجلس « كونفنسيون » جذري الى الحلول محل الدوما المعتدلة ، وهو ، بالاضافة الى ذلك ، يؤمن بالحكمة القائلة « ان المتغيبين دوماً على خطأ » . ومع ان الممارسة البرلمانية ، بخطبها وبتقاليد التسوية والمساومة التي تتسم بها ، لم تكن تجذبه كثيراً ، فهو لم يجد مانعاً يحول دون الدفاع عن قضية الثورة من على المنبر البرلماني . وإذا كان هو الذي قال ، في سنوات لاحقة ، انه ينبغي التبشير بالثورة حتى في المزابل وزرائب الخنازير ، فما المانع من التبشير بها في « زريبة خنازير » الدوما القيصرية ؟ وبدت افكار لينين كضرب من الانتهازية الصرفة في نظر معظم المندوبين في تاميرفورس ، أي في نظر المناضلين الحزبيين الذين وفدوا من « العالم السفلي » الى المؤتمر ، وصخب الاضرابات والانتفاضات ما زال يطن في آذانهم . ووقف كوبا ، ومعه المندوبون الريفيون الآخرون ، بشدة في وجه اقتراحات المعلم . والارجح انه ، وآخرون غيره ، اعتقد ان القائد العظيم ، مثله مثل العديد من المهاجرين ، قد فقد الاتصال بالحياة في روسيا واستصغر وقع الاحداث الراهنة . أما هم ، المناضلون الحزبيون ، الذين درسوا الثورة في أحياء موسكو وقازان وباكو الفقيرة ، لا في مكتبات جينيف ولندن وباريس ، فهم يعرفون عنها أكثر . وقد اهتز لينين لقوة المعارضة المفاجئة . ورجّح ان يكون المناضلون الحزبيون على حق ،

فأعلن برح انه « ينسحب من موقعه بانتظـام » . وانتخب كوبا – ايفانوفيتش عضواً في اللجنة المكلفة بصياغة قرار حول هذا الموضوع . وكان هذا أول نجاح له في مؤتمر حزبي وطني . ولكونه أحرز هذا النجاح ضد لينين ، تضاعفت ثقته بنفسه .

اختتم المؤتمر اعماله في آخر يوم من أيام تلك السنة الحافلة بالأحداث . وقد ورد في تقرير الى الشرطة السرية ، التي كان لها عميل بين المندوبين ، انـه في اليوم الذي عقب المؤتمر ، « اجتمعت اللجنـة المركزية للاشتراكيين الديمقراطيين مع عدد من المندوبين المناشفة والبلاشفة في منزل رقم ٩ بجـادة زاغورودني في بطرسبرغ ، للتفاوض حول الاندماج » . ويذكر التقرير ايفانوفيتش ، مندوب تيفليس ، كأحد الذين حضروا ذلك الاجتماع . وإذا بكوبا يفاجأ بمشهد غريب : لينين ومارتوف يتحدثان عن الاحداث الجارية بنبرة تسووية . وقد ذهب مارتوف الى حد قبول صيغة لينين للبند الأول من النظـام الداخلي ، البند نفسه الذي احدث الانشقاق . فبدا وكأن لينين قد انتصر ، وكأن الحركة الاشتراكية الديمقراطية قد اتحدت أخيراً حسب شروطه .

في أوائل كانون الثاني من عام ١٩٠٦ ، وبينما كوبا في طريق العودة الى تيفليس ، أخذ مدّ الثورة بالانحسار . هُزمت انتفاضـة موسكو . ولم تـكن انتفاضات جيورجيا أكثر من جمر تحت الرمـاد . وشفي محافظ المقاطعة من انهياره العصبي ، فأصدر أمراً باغلاق « جريدة العمال القفقاسيين » . إلا ان التغيّر الذي طرأ على الوضع لم يعلن عن نفسه إلا تدريجياً . فبدت انتكاسات الثورة بالنسبة للقادة كمجرد تعرجات في خط بيـاني معقد . وحلل كوبا أحداث العام ، من مسيرة بطرسبرغ الى هزيمة انتفاضة موسكو ، في منشور بعنوان « مناوشتان » ، فاعتبر ان سبب هزيمة الانتفاضة يكمن في كونها اتخذت موقفاً دفاعياً ، في حين ينبغي عليها اتخاذ موقف هجومي باستمرار . وقـد افتقدت الى القيادة ، وهذا مرده الانشقاق داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية . ان الأحداث قد دللت على الحاجة الى الاندماج ، وسوف يتحقق ذلك عمـا قريب وتعمّ الفرحة جميـع الاوساط .

لكن الاندماج ، هذا الدواء الشافي ، جاء متأخراً بعض الشيء ؛ وثمة شك في مـا إذا كانت محتوياته مطابقة لاسمه . فالمناشفة الذين استسلموا للتيار الراديكالي يجرفهم معه في آخر أشهر السنة ، لم يلبثوا أن ارتدوا الى موقفهم السابق الأكثر اعتدالاً وتردداً . والبلاشفة يحتاطون ضد خطر الاندماج بتكوين مكتب بلشفي سري للقفقاس ، هو نوع

من الحزب في داخل « الحزب الموحد » . وبعد هذه التحركات الأولية، أرسل الجناحان مندوبين عنهما لحضور المؤتمر الرابع المنعقد في ستوكهولم في نيسان من عام ١٩٠٦ لتكريس الاندماج . وقد مثل القفقاس في ذلك المؤتمر احد عشر مندوباً : عشرة مناشفة وبلشفي واحد . وكان هذا البلشفي هو كوبا – ايفانوفيتش .

لم تسنح له فرصة مراقبة الحياة خارج روسيا خلال رحلته الاولى هذه . فقد كان المؤتمر سلسلة متصلة من الاجتماعات الطويلة والنقاشات والملاسنات التي لا تنتهي . وتكلم مراراً دفاعاً عن لينين. إلا انه اتخذ موقفاً مستقلاً عنه في موضوع أساسي من موضوعات النقاش ، هو موضوع الاصلاح الزراعي . فقد دعا المناشفة الى مصادرة أملاك ملاك الارض وتحويلها الى ملكية بيد البلديات . في حين دعا لينين الى تأميم الاراضي . وكالعادة ، رأى المناشفة الجمهورية الروسية المقبلة تحت سيطرة الطبقة الوسطى الليبرالية ، فانشغلوا بأمر تدعيم الحكومات المحلية ، الأكثر شعبية ، في وجه الادارة المركزية . لكن لينين ، الذي يفكر بمنطق « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » ، أراد وضع ملكية الارض بيد الحكومة المركزية . وعارض كوبا – ايفانوفيتش كلا التأميم ووضع الملكية بيد البلديات. والاصلاح الزراعي الذي دعا اليه هو مجرد توزيع للملكيات الكبيرة على الفلاحين. وكان قد عرض آراءه في الاصلاح الزراعي على صفحات الجريدة الجيورجية « الفا » (العاصفة) ، قبل انعقاد المؤتمر . وواجه سياسة التأميم التي يدعو اليها لينين بحجتين اثنتين : اولاهما تبدو مستعارة من عند المناشفة ، أما الثانية فمن عندياته . قال ان الحكومة المقبلة ستكون حكومة برجوازية ، فمن الخطأ إذاً تقويتها بلا مبرر عن طريق وضع ملكية الارض بيدها . ولم يتكبد كوبا مشقة تفسير كيف يتلاءم هذا القول مع شعار « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » التي يدعو هو نفسه اليها . إلا أن اعتراضه الاساسي على التأميم ووضع ملكية الارض بيد البلديات على حد سواء ، هو ان كليهما لن يرضي الفلاحين . فهو ، المناضل ذو الاصل الفلاحي ، أكثر تجاوباً من غيره مع جوع « الموجيك » للارض . قال : « حتى في أحلامهم ، يرى الفلاحون حقول ملاك الارض ، قد أمست ملكاً لهم » . وأُطلق على وجهة النظر هذه اسم « التوزيعية » ، واتهمها معظمُ الاشتراكيين بأنها تنازل رجعي لنزعة الفلاح الفردية . فهدر صوت لينين وأرعد ضد « المناضلين الحزبيين » الذين يتملقون الموجيك المتأخر ويتجاهلون المبدأ الاشتراكي في اشارتهم ، دونما رادع ، الى اشتهائه للملكية. وأجاب ايفانوفيتش انه مامن

شك ان الاصلاح الزراعي الذي يدعو اليه سوف يدعم الرأسمالية في الريف ، ولكن هذا هو بالتحديد ما يدعو اليه جميع الثوريين . فلا شك في أن الملكيات الفردية والرأسمالية الفردية سوف تكون خطوة الى الامام بالنسبة للاقطاع. ولما كان المناشفة يتمتعون بأغلبية الاصوات ، اقترع لينين مع الجماعة الموالية للموجيك في جناحه ، آملاً ان يؤدي ذلك الى هزيمة المناشفة . إلا انه ظل يعبر عن انزعاجه من « الواقعيين » الضيقي الافق من طراز كوبا .

ان هذه الحادثة ، رغم بعدها الزمني ، مقدمة هامة من مقدمات الثورة الزراعية التي عرفتها روسيا عام ١٩١٧ والاصلاحات الزراعية التي نُفذت في اوروبا الشرقية والمانيا الشرقية تحت اشراف الجيش الأحمر عام ١٩٤٥ . ففي عام ١٩١٧ ، وزع البلاشفة الارض على الفلاحين فعلاً ، مع انهم أعلنوا تأميمها نصاً . وفي عام ١٩٤٥ ، وُزّعت أراضي اليونكرز البروسيين وملاك الارض البولونيين والمجريين دونما حاجة الى ادراج نص عن تأميمها . وهكذا ، ففي ستوكهولم عام ١٩٠٦ ، رسم ايفانوفيتش خط السير الذي سوف تسلكه هذه الثورات الزراعية ، بصورة أوضح مما فعل لينين ؛ رغم ان هذا لم يمنع ايفانوفيتش – ستالين ، عام ١٩٣٠ ، من ان يسحق « الرأسمالية الريفية » التي كان قد دافع عنها ، وأن يستبدلها بالزراعة الجماعية . وفي عام ١٩٤٦ ، أي بعد مضي اربعين عاماً على هذا الحدث ، حاول ايفانوفيتش – ستالين ، في مقدمة « مؤلفاته الكاملة » ، تفسير خلافه في ستوكهولم مع لينين ، وعزاه ، عبر نقد ذاتي، الى ضيق الافق والافتقار الى البصيرة النظرية من طرف « المناضلين الحزبيين » الذين كان هو واحداً منهم . واعترف : لم يكن بوسعنا ، نحن « البراكتيكي » ، ان نفهم ان لينين كان يتطلع ، منذ ذلك الحين ، الى الثورة الروسية كما سوف تكون عندما تنتقل من طورها « البرجوازي الديمقراطي » الى طورها الاشتراكي. هذا في حين كان ستالين يعتقد ان حقبة مديدة من التطور الرأسمالي سوف تفصل بين هذين الطورين ، لأنه تعذر عليه ان يدرك إمكان قيام ثورة اشتراكية قبل ان تنمو الطبقة العاملة فتصبح غالبية الأمة . اعتراف غريب : فعلى أساس مبدأ كهذا ، يجب على روسيا ان تظل دولة رأسمالية الى يومنا هذا . مع ذلك ، فهو يسلط الضوء على التطور المعقد للحركة البلشفية ، وعلى سعي قادتها ، تحت وقع الاحداث ، الى تغيير خط سير رحلتهم الثورية .

ما ان عاد ايفانوفيتش من ستوكهولم حتى كتب تقريراً عن «مؤتمر الوحدة» في منشور

خـــاص بتوقيع « الرفيق ك » . وكان رأيه ان المؤتمر قد اخفق . فقراراته تعكس الروح التسووية عند الغالبية المنشفية . فلا عجب ان يستقبله ليبراليو الطبقة الوسطى بالتهليل .

ومن بين القرارات التي اتخذها مؤتمر ستوكهولم قرار يمس مباشرة عمل كوبا المتخفي في الفرع الفني . فقد استنكر المؤتمر ، بطلب من المناشفة ، الغارات التي تشنها الفرق المسلحة على المصارف ونقليات الخزينة والقوات الحكومية . تصدى لينين للقرار بعنف ، ظناً منه ان الثورة ما زالت في صعود وان الغارات التي يشنها الانصار هي أنجـع طريقة لتدريب الفرق المسلحة على خوض الانتفاضة العامة المنتظرة . ولمـا كان المناشفة يشعرون بالغربة طوال فترة العصيان والانتفاضات ، إذا بهـم أسرع من البلاشفة في الاكتشاف ان الثورة آخذة بالتراجع ، رغم ان احداً لم يجرؤ آنذاك على قول ذلك بمثل هذا الوضوح . خـتم بليخانوف « مراجعته » لانتفاضة كانون الاول بالكلمات التالية : « لقد أخطأنا في اللجوء الى العمل المسلح » . فرأى لينين في ذلك كفراً لا غير — فهو ليس مستعداً البتة ان يعلن توبته عن « حماقات » عام ١٩٠٥ . وبالرغم من أن العديد من المناشفة لم يكن قد تجرأ بعد على دعم مراجعة بليخانوف هذه ، إلا انها كانت تعبر بصدق عن الجو الذي يسودهم .

في البدء ، بدا الخلاف حول الفرق المسلحة على انه خلاف فرعي إذا ما قيس بالخلاف لأكبر . إذا كانت انتفاضة كانون خطأ شنيعاً ، فان غارات الفرق المسلحة خطأ اشنع . ولكن بما ان ثمـة أملاً كبيراً في ان تسير الثورة الى أمام ، فسوف تلعب الفرق المسلحة دوراً كبيراً . أدان مؤتمر ستوكهولم « حرب الانصار » من حيث المبدأ ، لـكنه لم يتفق على اصدار حـكم مبرم بصددها . وحرّم كل أنواع الغارات باستثناء الهادفة منهـا الى الاستيلاء على السلاح والذخيرة . وسرعان ما استغلت « الفروع الفنية » هذه الثغرة الى أبعد مدى ، واستمرت في شن الهجوم تـلو الآخر على الموظفين القيصريين الكبار ، والمصارف ، ونقليات الخزينة ، فضلاً عن غاراتها على مخازن الذخيرة . ان هذا الفصل هو الأكثر غموضاً بين فصول الثورة الاولى ، ولعـله الأكثر رومنطيقية أيضاً . فقد غص بالاحداث الفاجعة والاعمال الخارقة . وكان أبطاله مثاليين لا يهابون شيئاً ، وقديسين ، ومغامرين جسورين . ولـكن كان بينهم ايضاً الجواسيس والرعاع الذين يسعون وراء مآربهم تحت بيرق الثورة (...) ولما كان الثوريون الروس يعتبرون أنفسهم في حالة حرب

مع الحكم الاستبدادي المحلي ، فقد برر لهم ذلك افعالهم من الجانب المعنوي (...)

ولكن بالرغم من الاعتقاد السائد بين الثوريين بوجود مبرر معنوي لهذا النوع من المعارضة ، فان هذا لم يمنع شعوراً بالقلق من ان يساور العديد من البلاشفة . ان لحرب الانصار دوراً ثانوياً فقط في ثورة ما ، تماماً مثلما كان دورها ثانوياً ، بعد ٤٠ سنة من ذلك ، بالمقارنة مع الحرب الاساسية التي خاضتها القوات النظامية [١] . لكن « الجيش النظامي » الذي يجب اخضاع الفرق البلشفية المسلحة له هو ، برأي لينين ، الشعب الروسي الثائر بأسره . فاذا تُركت حرب الانصار وحيدة معزولة ، ولم تهب لنجدتها انتفاضة عامة ، فمن المؤكد انها سوف تتقهقر الى مغامرة محبطة للعزائم لا طائل تحتها . منطقياً ، يتوقع المرء من لينين ان يقدم على وقف حرب الانصار وحل الفرق المسلحة حالما يتضح له ان انحسار الثورة ليس مؤقتاً ، وان السنوات سوف تمر قبل أن يبدأ المد الجديد بالصعود . في البدء ، وطوال عام ١٩٠٦ ، أصر لينين على ان الثورة لم تفقد عزيمتها بعد ؛ ولعل هذا ما يفسّره العناد الذي دافع فيه عن الفرق المسلحة حتى عندما أصرت اللجنة المركزية للحزب الموحد ، التي يسيطر عليها المناشفة ، على حلها .

لكن في الامر اكثر من ذلك . ان الهزيمة قد جرت على البلاشفة ، وعلى الاجنحة الاخرى ، ضائقة مالية عويصة . ففي عام ١٩٠٥ ، ارتفعت عضوية الحزب ارتفاعاً هائلاً ، وازداد بالتالي مدخوله من اشتراكات الاعضاء . وكان المؤيدون الاغنياء يتبرعون بسخاء لخزينته . ولكن مع مجييء الثورة المضادة عام ١٩٠٧ و ١٩٠٨ ، تقلصت العضوية بسرعة تفوق السرعة التي كانت قد نمت فيها ؛ وأخذ الانصار يديرون ظهورهم للثورة المهزومة . وهكذا وجد الحزب نفسه مفتقراً الى الامكانات المالية لمواصلة نضاله ، علماً بأن جهازه القيادي كان قد تضخم كثيراً . وكان لينين ، الرأس الفعلي للجهاز الثوري ، آخر من يقبل بأن يؤدي العجز المالي الى تحطيم هذا الجهاز . وكان لسان حاله كما يلي : ينبغي التمهيد للثورة المقبلة بالرغم من هزيمة الثورة الحالية . فصمم على الحصول على المبالغ التي تتطلبها هذه المهمة . ولكن من يمد الحزب بالمبالغ المطلوبة ، لتجاوز بون الردة القاتمة المضادة للثورة والانتصار في الثورة الثانية ، إن لم تكن الفرق المسلحة ؟ من الاقوال

---

(١) يشير دويتشر هنا الى حرب الانصار التي دعمت عمليات الجيش الاحمر في صد الهجوم النازي على روسيا خلال الحرب العالمية الثانية (المترجم) .

العزيزة على قلب لينين انه ينبغي على الثوري ان يزحف على بطنه في الوحل لبلوغ هدفه إذا اقتضى الامر . فأمر الفرق المسلحة ان تزحف في الوحل لتوفير الامدادات للثورة . ووعياً منه للمجازفة المعنوية التي ينطوي عليها مثل هذه الاعمال ، اقترح اشراف الحزب المباشر على الفرق المسلحة ، بحيث يتم تطهيرها من كل العناصر المشبوهة أو غير الجديرة بالثقة .

كان القفقاس المجال الرئيسي لنشاط الفرق المسلحة . وقد أحاطت بها في البدء هالةمن الرومنطيقية تنسجم كلياً مع اللصوصية الفروسية ، التقليد المحلي القفقاسي . في الفترة ما بين ١٩٠٥ و ١٩٠٨ ، عرف القفقاس ١١٥٠ عملية ارهابية ، وأشهرها الاستيلاء علىاموال الخزينة (أو بالاحرى عملية « المصادرة » كما سميت) التي جرت في احدى ساحات تيفليس الرئيسية في الثالث والعشرين من حزيران ١٩٠٧ . وجرت عملية اخرى ، ليست أقل شهرة من الاولى ، على متن الباخرة « نيقولا الأول » في مرفأ باكو . وكانت حصيلة غارة تيفليس ربع مليون روبل نقلت فوراً الى الخزينة البلشفية في الخارج . وبما أن الغنيمة مكونة من اوراق نقدية كبيرة ، فلم يكن من اليسير صرفها بواسطة المصارف الاجنبية التي اعلمت بأمر هذه الاموال . وقد القي القبض على عدد من البلاشفة المهمين — ومن بينهم ليتفينوف ، مفوض الشؤون الخارجية المقبل – وهم يحاولون صرفها . وأثارت القضية ضجة في الصحافة الروسية والاوروبية . وشن المناشفة حملة ضد لينين وطرحوا الموضوع على محكمة حزبية ترأسها تشيتشيرين ، مفوض الشؤون الخارجية المقبل ورئيس ليتفينوف ومنافسه في آن معاً ، وكان لا يزال من المناشفة . وتولى تروتسكي الادعاء على لينين في الصحف الاشتراكية الديمقراطية الالمانية ، ولفت نظر « الاممية الاشتراكية » الى ما سمّاه خطر تشتت الحركة الاشتراكية الروسية والحط من معنوياتها .

لعب كوبا دوراً بارزاً في كل هذه الاعمال ، رغم ان حقيقة هذا الدور لم تبرز بوضوح حتى الآن . كان يعمل كضابط اتصال بين المكتب البلشفي القفقاسي وبين الفرق المسلحة . وبحكم مسئوليته هذه ، لم يشترك مباشرةً في الغارات . تتلخص مهمته في التصديق على الاعمال التي تخطط لها الفرق المسلحة ، وابداء المشورة ، والاهتمام بتكنيك العمليات الكبرى ، ومراقبة تنفيذها ولكن عن بعد. خلال ملاحقة الشرطة القيصرية لمرتكبي هذه الاعمال ، لم يشتبهوا بأن لكوبا علاقة بهم . فهو قد أتقن فن الثورية الى درجة ان دوره ظل خافياً حتى على الحزب نفسه . القائدان الرئيسيان الاسطوريان للفرق المسلحة من

تلامذته وأتباعه ، وهما تير بتروسيان (الملقب « كامو ») وكوتي تسينسادزه ، وكلاهما ضخم الجثة ، طيب القلب ، رومنطيقي ، محنّك ، لا يعرف الكلل [1] . وبعد القاء القبض عليهما ، لقيا أوحش تعذيب على يد الاوخرانا دون ان يفشيا اسرارهما . وكان كوبا ، وهو المحيط علماً بكل خصائل رفيقيه هذين ، يعرف ان بامكانه الاعتماد عليهما ، ويبدو انه اسرّ اليهما ، وهما الثقات الثقات ، بكل اتصالاته . على ان المناشفة القفقاسيين ما لبثوا ان حدسوا الدور الحقيقي الذي يلعبه ، ذلك انهم حاولوا استصدار حكم ضده من المحكمة الحزبية لخرقه قرار المؤتمر الاخير القاضي بمنع الغارات المسلحة . إلا انه تمكن ، بطريقة ما ، من ان يتحاشى المثول أمام المحكمة ، وانتقل من تيفليس الى باكو .

ولما كان البلاشفة في مدينة النفط أقوى منهم في عاصمة القفقاس ، يستطيع كوبا ، بوصفه رئيساً للجنة باكو ، أن يتحدى المدّعين عليه . وبسبب اشرافه على نشاط الفرق المسلحة ، فان سمعته بين خصومه السياسيين ، التي لم تكن بالسمعة العالية في اي وقت من الاوقات ، تدنت اكثر فأكثر . وقد وُجهت اليه تهم من عيار « مجنون » و « مخرّب » بانتظام كامل . ولكنه لم يعر سمعته بين خصومه السياسيين أي اهتمام ، كفاه ان لينين

---

(١) لاعطاء فكرة ما عن نوعية هذه العناصر ، يكفي استعراض سيرة احدهما : تير بتروسيان .

ولد بتروسيان في غوري سنة ١٨٨٢ . وانضم الى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي سنة ١٩٠١ . وهو الذي تولى « عملية تيفليس » التي جلبت للخزينة البلشفية اكثر من ربع مليون روبل . اعتقل في المانيا عام ١٩٠٧ فادعى الجنون ، فما لبثت السلطات الالمانية ان سلمته الى الشرطة الروسية عام ١٩١٢ . فقدمته هذه الى المحاكمة في تيفليس ، حيث ادعى الجنون مجدداً ، وتمكن من اقناع اطباء مصح الامراض العقلية الذي ارسل اليه بهذا الجنون . إلا انه ما لبث ان فر منه بعد ان امضى ستة عشر شهراً فيه .

اصدرت محكمة تيفليس اربعة احكام بالاعدام على بتروسيان . الا ان المدعي العام ، الذي جذبته شخصية هذا المناضل ، ماطل في ارسال الاحكام للتصديق عليها بحيث يتسنى لبتروسيان الافادة من العفو الذي صدر في عام ١٩١٣ على المحكومين بالاعدام بمناسبة ذكرى مرور ثلاثمائة عام على تكوين اسرة رومانوف الحاكمة . وهكذا كان . فنجا بتروسيان من الموت ، لكن المدعي العام طرد من وظيفته .

اطلق سراحه من السجن في شباط ١٩١٧ . فواصل نضاله في جيورجيا الى ما بعد قيام ثورة اكتوبر . اعتقلته الحكومة الجيورجية ، التي يسيطر عليها المناشفة ، ولم يخرج من السجن إلا بعد ان سقطت هذه الحكومة . وتوفي في ١٤ حزيران ١٩٢٢ عندما صدمته سيارة في احد شوارع تيفليس . - (المترجم)

يوافقه على اعماله . وما همّ إذا هدده المناشفة المحليون بالفصل من الحزب « الموّحد » . فهو يرى ان هذه الوحدة شبه وهمية على كل حـال . ولا أقلقه الاثر المزري الذي تركته حرب الانصار على الجو السياسي في القفقاس . فقد كان العديد من الثوريين يعتبر هـذه العمليات كأعمال لصوصية عادية ليس إلا . فالغارات تثير السلطات لشن حملاتهـا الانتقامية الوحشية التي تزرع الرعب في قلوب الناس ؛ وبالرغم من ان هذه الحملات قـد ضاعفت الحقد العام ضد القيصرية ،فانها عمقت اللامبالاة التي لا تفيد منها إلا الردة المضادة للثورة . وبالاضافة الى ذلك ، فان الوسائل الهوجـاء التي اعتمدتها الفرق المسلحة كانت هادرة للنشاط وللحياة البشرية . وقد رسم س. اليلوييف في مذكراته صورة قاتمة لهذا الاستهتار البطولي ، يمكن اعتبارها ، ولكن عن غير قصد من المؤلف ، ادانة لكوبا ، زوج ابنته المقبل ، على قيادته السياسية للفرق المسلحة . وقد ثارت في وجه الاشتراكيين الروس ، منذ ذلك الوقت المبكر ، كل المعضلات المتعلقة بحرب الانصار الـتي واجهتها المقاومة الاوروبية خلال سني الحرب العالمية الثانية . وسواء أحلل المرء طريقة حل هذه المعضلات بعد اربـع سنوات من الحدث ، أو بعد اربعين سنـة منه ، فان صعوبة اصدار حكم عليها لا تتغير ، وسيان أكان هذا الحكم تمجيداً غير نقدي أم ادانة للقـــادة الذين اضطروا ، تحت ضغط الاحداث وفي خضم ألوف المجهولات ، الى اتخاذ قراراتهم الخطرة وغير مأمونة الجانب (...) .

في أيار من عام ١٩٠٧ ، عاد كوبا الى استعمال اسم ايفانوفيتش ، وذهب الى لندن لحضور مؤتمر الحزب الجديد . طعن المناشفة بشرعية تمثيله . وفي نهاية الامر ، سُمِح له بحضور المؤتمر ولكن بصوت استشاري لا غير . كانت مقاطعته قد تحولت الى « قلعة » للمناشفة ، بحيث لم يتسن له الحصول على اوراق اعتماد من أيـــة هيئة حزبية رسمية في القفقاس.فعزى النفس بكون البلاشفة يسيطرون على التنظيم في اجزاء اخرى منروسيا، في بطرسبرغ وموسكو وسواهما . وحظي البلاشفة في المؤتمر بأغلبية بسيطة ، مكنتهم من التأثير على قراراته وتوصياته . وكان من المحتم ان يثور النقـــاش حول حرب الانصار . فتهجم مارتوف على لينين بهذا الصدد ، إلا ان هذا الاخير امتنع عن الرد . فالواقع ان المعارضة للفرق المسلحة كانت قـد تسربت الى داخل الجناح البلشفي نفسه . فأراد معظم اتباع لينين وضع حد لنشاطاتها. وهذا ما سهّل على المناشفة ان يجروا المؤتمر الى اتخاذ قرار بتحريم كل الغارات و « المصادرات » المسلحة . ولازم كوبا جانب الحذر

طول فترة انعقاد المؤتمر ، فلم ينبس بكلمة ولم يأتِ بحركة ، ومرد ذلك ، على الارجح ،ان لينين حذره من ان يكشف نفسه . امتنع لينين عن التصويت على قرار المنع ، مع ان العديد من المندوبين أهابوا به ، مستنكرين ، ان يرفع يده تأييداً له . وما من شك في انه كان على استعداد لخرق قرار المنع والقيام ببعض « المصادرات » . باستثناء ذلك ، كانت النقاشات الاخرى بعيدة كل البعد عن الواقع ، لأن كلا البلاشفة والمناشفة كان لا يزال يتوقع « انفجاراً ثورياً جديداً » وشيك الحدوث ، بالرغم من ان المناشفة كانوا قد بدأوا يكيّفون سياساتهم مع ظروف حقبة الردة المضادة للثورة .

عندما عاد كوبا – ايفانوفيتش الى باكو ، عرض اخبار المؤتمر على صفحات جريدة سرية جديدة هي « باكينسكي بروليتاريي » (بروليتاري باكو) . اعتبر ان البلشفية تمثل اماني العمال المتقدمين من المشتغلين في الصناعة الثقيلة في روسيا الوسطى . وفسّر الغلبة المنشفية في منطقته على انها تعبير عن الطابع « المتأخر والبرجوازي الصغير » الذي تتسم به هذه المنطقة . كان المناشفة يتهجمون عادة على « البيروقراطية البلشفية » . إلا ان المؤتمر اظهر ان نسبة الموظفين الحزبيين بين المندوبين البلاشفة أقل منها بين المناشفة ، في حين ان نسبة العمال بينهم اكثر منها بين المناشفة . وبالاضافة الى ذلك ، فلم يشتمل الاشتراكيون المعتدلون إلا على عدد ضئيل من الروس الاقحاح – فمعظمهم من اليهود او الجيورجيين – هذا في حين كان الروس الاقحاح يشكلون الغالبية العظمى من البلاشفة .

واحتوى تقرير كوبا على سمة مميزة اخرى . فقد روى عن انشقاق المؤتمر على بعضه الى جناحين متخاصمين . وقد أثبت تروتسكي ، الذي رفض الانضمام الى أي منهما ، عن «عدم جدواه الجميلة ».والواقع ان أول لقاء بين كوبا وغريمه المقبل تم في مؤتمر لندن.كان الرئيس السابق لسوفييت بطرسبرغ ، المحكوم عليه بالنفي مدى الحياة في سيبيريا ، قد تمكن من الهرب من منفاه في الوقت المناسب لحضور المؤتمر . وكان عنيفاً جداً في استنكاره لحرب الانصار التي يدعو اليها لينين . وهكذا منذ أول اجتماع لهما ، كان الغريمان اللاحقان على طرفي نقيض في نزاع حاد ، رغم انهما لم يتبادلا الحديث طوال الاجتماعات العديدة التي عقدت في « كنيسة الاخوة » بلندن ، والتي استغرقت ثلاثة اسابيع بكاملها . ان ما يغامر به كوبا في هذا النزاع هو مكانته في الحزب . فلم يكن بدّ من ان يؤلمه ما قاله تروتسكي عن « المصادرات » . أما الحديث عن عدم جدوى تروتسكي الجميلة ، فهو يعكس الأثر الجمالي الذي تركته موهبة تروتسكي الخطابية الخارقة ، ولعل

يعكس ايضاً نفاذ صبر لينين فيها . كان الرجلان ، كوبــا وتروتسكي ، يتمتعان بمكانتين متباينتين كل التباين في تلك الايام . ولم يخطر ببال احد انهما سوف يتواجهان ، في يوم ما ، في اكبر نزاع في تاريخ روسيا بأسره. كان تروتسكي يتمتع بشهرة وطنية واوروبية ، في حين كان نجم كوبا قد بدأ بالكاد يتألق في افق القفقاس الضيق . ولكن ، منذ ذلك الاجتماع الاول في الكنيسة اللندنية ، حمل كوبــا في قلبه أول بذور النقمة على الرئيس السابق لسوفييت بطرسبرغ .

●

الفصل الرابع

كوبا يتحوّل إلى ستالين

انتصار الردة المضادة للثورة (١٩٠٧ - ١٩١٢).- « دعاة التصفية » و « الانسحابيون » . - نشاط ستالين في باكو (١٩٠٧ - ١٩١٠) . - اعتقـــاله ونقله الى سولفيشيغودسك . - هربه وعودته الى باكو(١٩٠٩).- ستالين يتهم القادة المهاجرين ، بما فيهم لينين ، « بالابتعاد عن الواقع الروسي » . - ستالين يختبىء بين عمـال النفط التتر . - مراسلاته مع الصحـافة الاشتراكية الروسية . - نفيه الثاني الى سولفيشيغودسك (١٩١٠ - ١٩١١) ، ونهاية نشاطه فيالقفقاس .- تكريس الانشقاق بينالبلاشفة والمناشفة . - ستالين عضواً في اللجنة المركزية البلشفية ، يصدر اول عدد من « برافدا » (نيسان ١٩١٢) . - دوره في انتخابات الدوما الرابعة .- رحلته الى كراكوف وفيينا . - « الحركة الاشتراكية الديمقراطية وقضايـــا القوميات » . - ستالين يجتمـع ببوخارين وتروتسـكي في فيينا . - اعتقاله عند عودته الى روسيا نتيجة وشاية احد المخبرين . - نفيه الى سيبيريا (١٩١٣ - ١٩١٧) . - الحرب العالمية الاولى.- شعار لينين «الانهزامية الثورية».- توقف نشاط ستالين خلال الحرب .

« ان حقبة من الردة المضادة للثورة قد بدأت ، وسوف تستغرق ما لا يقل عن عشرين عاماً ، إلا إذا اندلعت حرب كبرى وزعزعت أركان النظام القيصري » .

بهذه الكلمات، ودّع لينين احد اصدقائه عندما قرر العودة الى جينيف في كانون الاول من عام ١٩٠٧ . إرهاب حكومة ستوليبين ، أو « عهد الثالث من حزيران» ، يعم البلاد، فلم يعد لينين بمأمن منه في مخبئه الفنلندي . بعد تسع سنوات من ذلك التاريخ ، لم يكن قد ادرك بعد ان الثورة الثانية على الابواب . ففي كانون الثاني من عام ١٩١٧ ، أي قبل بضعة اسابيع من سقوط القيصرية وبضعة شهور من ارتقائه هو سدة الحكم ، وجه لينين رسالة تذكارية حول الثورة الاولى الى الشبيبة الاشتراكية السويسرية ، وختمها بالتأكيد انه بالرغم من ان جيله لن يعيش ليشهد الثورة الثانية ، فما من شك في انهم ، أي الشباب، سوف يشهدون انتصارها . والواقع ان الفترة ما بين الثورتين لم تدم اكثر من عشر سنوات ؛ ومن هذه السنوات كانت الخمس الاولى فقط سنوات الردة المضادة للثورة . فما ان اطل عام ١٩١٢ ، حتى انتعشت الحركة الثورية .

ولكن في نهاية عام ١٩٠٧ ، كان كل شيء يبرر تشاؤم لينين. فالقيصرية قد استعادت قوتها . بينما الارهاق وخيبة الامل يسودان اوساط الطبقة العاملة . في اوج الثورة ، اشترك اكثر من مليوني عامل في الاضرابات الموجهة ، في معظمها، لخدمة اغراض سياسية . أما في عام ١٩٠٨ ، فلم يضرب إلا ١٧٤،٠٠٠ عامل ؛ وتقلص عددهم الى ٦٤،٠٠٠ عام ١٩٠٩ ، والى ٤٦،٠٠٠ عام ١٩١٠ . وزال القسم الاكبر من حريات الكلام والاجتماع والصحافة ، بالرغم انها اطلقت بشكل محدود اصلاً . الاحزاب السرية منهوكة القوى ، منحطة المعنويات . والهزيمة تولد اليأس والتشكك بين أعضائها وأنصارها . وتخلى العاقون من الانتلجنسيا عن نزعتهم الراديكالية ، وسعوا الى العودة الى احضان المجتمع الراقي . الفئات الادبية البوهيمية التي عاشت في الحلم على مشارف النضال السري ، تغوص الآن في

نزعـات صوفية وجنسية يائسة ، أو في دعوات مثل « الفن للفن » . فأضحت المنظمات السرية مثل قرْبَة مبقورة ، تعج بقاياها بالجواسيس يقدمون للـ « اوخرانا » معلومات من مصادر اوليـــة عن نشاطات مختلف الاجنحة ومناضليها . وتوصل عملاء الاوخرانا الى التسلل حتى الى المراكز القيادية للفئات المختلفة ، وبذلوا كل ما في وسعهم لازكاء النزاعات الداخلية وتحويل « العالم السفلي » الى بؤرة للدسائس والخوف والريبة والخيانة .

وكان النفور من العمل السري احد ردود الفعل الشائعة في مثل تلك الظروف .فرفعه الكتـّاب المناشفة الى مصاف المبدأ السياسي ، مطالبين الحزب بتصفية جهازه السري ، والتخلي عن عاداته القديمة ، والتحول الى معارضة عادية تعمل لأهدافها علناً ضمن الحدود التي يرسمها القانون – مثلها مثل الاحزاب الاشتراكية الاوروبية . وأطلق لينين على دعاة « اعادة تقويم القيم » هؤلاء اسم « دعـــاة التصفية » ، حفاري قبور الحزب . وساجلهم قائلاً ان خُلـْد الحزب يجب ان يواصل سيره في العالم السفلي رغم الحالة المتردية التي تعاني منها الجماعات السرية . في ذلك الحين ، لا يزال البلاشفة والمناشفة يتطلعان باعجـاب الى الاشتراكية الاوروبية ، والالمانية منها خاصة ، بأجهزتها السياسية والنقابية الجبــارة ، وصحافتها الشعبية الحية ، وحملاتها الانتخابية المدهشة ، وتمثيلها البرلماني . وبقدر تزايد القرف من تفكك « العالم السفلي » الروسي ، بقدر ما قويت الرغبة في بناء الحركة المحلية على الطراز الاوروبي .

غير ان كل تركيب المجتمع الروسي لم يكن اوروبياً بأي حال من الاحوال.فالقيصرية لا تزال نظام حكم استبدادي فردي شبه آسيوي . صحيح ان « عهد الثالث من حزيران» ، رغم كل رجعيته ، لم يقوَ على محو كل مكتسبات الثورة الاولى . فبعد انحسار موجـة الارهاب العارمة ، خلفت وراءها بعض الجزر الرجراجة من الحرية هنا وهناك . فعادت احزاب المعارضة الى اصدار صحفها علنـــاً ، ولكن باشراف رقابة قاسية خبيثة ، فلم تتمكن من التعبير عن آرائهـــا إلا بشكل مخفـّف ، لاجئة الى الاشارات والايماءات الايزوبية[1].ولم تعمر هذه الصحف طويلاً في معظم الاحيان . فقد كانت قبضة الاوخرانا تطبق عليها لأتفه سبب . وينطبق هذا الوضع كذلك على تلك القلة الموجودة من النقابات

---

(١) ايزوب ، كاتب امثولات يوناني ، عاش في القرن السادس قبل الميلاد . وقد وضع عظاته حول قضايا عصره السياسية والاجتماعية على ألسنة الحيوانات . (المترجم) .

الشرعية ، والنوادي الثقافية والجمعيات ذات النزعة اليسارية . ولم تكن مجالس الدوما ، اشباه البرلمانات ، في وضع افضل . فمجالس الدوما الاربعة المنتخبة في الفترة بين الثورتين قد حُلت أو علقت على نحو كيفي من قبل القيصر ؛ ولم يتمتع النواب الاشتراكيون في أي منها بالحصانة النيابية ، والواقع ان معظمهم امضى مدة نيابته في المنفى السيبيري . أما الذين كانوا يحاولون ، في وجه هذه العقبات ، إلصاق حزب عمال اوروبي على جسم روسيا السياسي ، فكان الاحرى بهم ان يحاولوا زرع الاشجار الاستوائية في منطقة القطب الجليدي . كان عدد لا بأس به من القادة المناشفة لا يزال يريد الاحتفاظ بالاجهزة السرية ، غير انهم كانوا يأملون بتحويل القسم الاكبر من عمل الحزب الى الاجهزة العلنية . إلا بليخانوف ، وهو الاكثر اعتدالاً بين جميع المناشفة في اكثر من جانب ، ظل يولي العمل السري الاهمية نفسها التي اولاه اياها في السابق . وعلى هذا الاساس ، قام آخر تحالف سياسي بينه وبين لينين ، واستمر الى حين اندلاع الحرب العالمية الاولى .

عندما التفت لينين الى تلك الفترة ، بعد عدة سنوات من انقضائها ، كتب يقول :

« ينبغي على الاحزاب الثورية ان تكمل دراستها ، لقد تعلمت الهجوم .... وكان عليها ان تتعلم ان النصر مستحيل ... إلا إذا هي اتقنت فن الهجوم وفن التراجع في الموعد المناسب . ان البلاشفة هم الذين قاموا بأكثر التراجعات انتظاماً من بين جميع الاحزاب المعارضة والثورية المهزومة .... » .

لكن بعضاً من زملاء لينين وأتباعه رفض الالمام بفن « التراجع بانتظام » . كانت خطط لينين التكتيكية تقضي بتحاشي الاصطدامات غير المجدية مع الحكم الاستبدادي الفردي وتوفير قوى الثورة . ودافع عن الحزب ضد « دعاة التصفية » ، لكنه أراده ان يلجأ الى اشكال العمل الشرعية والسرية في آن معاً . وكان قد تخلى عن فكرة مقاطعة الانتخابات البرلمانية ، حتى قبل الردة المضادة للثورة ؛ وإزاء اصرار اتباعه على تكتيك المقاطعة ، لم يتورع عن الادلاء بصوته مع اصوات المناشفة لكي يُرسِل الاشتراكية الى قلم الاقتراع . وألحّ ايضاً على اتباعه ان يصدروا من النشرات الدورية ، والكتب ، والكراسات ما تسمح به الرقابة ؛ وطالبهم بضرورة العمل في النقابات والجمعيات الثقافية الشرعية . فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تسمح للحزب بأن يوصل آراءه وأفكاره لجمهور اوسع بكثير من الجمهور الذي تصله الدعاية السرية . بديهي ان الدعاية العلنية سوف تضطر الى اغفال العديد من الموضوعات ؛ ولكن هذه ثغرة تملؤها الدعاية السرية الصريحة .

وبالاضافة الى ذلك ، ينبغي على اللجان السرية ان توجه كل اشكال النشاط ، الشرعي منها أو السري ، وتشرف عليها .

وبينما كان التأفف من العمل السري هو الجو السائد بين المناشفة ، كان البلاشفة يترددون حيال العمل السري . وظلت « الانسحابية » مستحوذة على اذهانهم طوال عامي ١٩٠٧ و ١٩٠٨ . وتولى لوناتشارسكي ، وبوغدانوف ، وكراسين ، وغوركي ، وأفضل الكتاب والدعاة والمنظمين ، قيادة « اليسار البلشفي المتطرف » .

وُطرح مضمون العمل الاشتراكي على بساط البحث ، اسوة بغيره . دعا الذين أداروا ظهورهم للعمل السري الى نوع من المصالحة مع الوضع القائم . فمن المستحيل مثلاً الدعوة الى قلب القيصرية في منشورات يُفرض ان تسمح الرقابة القيصرية بنشرها . لذا قال لينين ان الذين يطالبون الحزب ان يقصر نشاطه على اشكال العمل التي تسمح بها السلطات، يتخلون عملياً عن المبدأ الجمهوري . وعلق المناشفة آمالهم على تحويل القيصرية تدريجياً الى ملكية دستورية ، شأنهم في ذلك شأن ليبراليي الطبقة الوسطى الذين اعتبروهم قادة المعارضة الشرعيين . ورأى لينين ان هذه الآمال فارغة لا تليق باشتراكيين ديمقراطيين . أما « الانسحابيون » من جهة ثانية ، فقد كانوا انشقاقيي الثورة ، لا الممهّدين لها . فتحويلهم العمل السري الى نوع من الصنم ، ورفضهم استغلال فرص العمل الاوسع ، يجعلهم يوردون الثورة موارد العقم . انهم « دعاة تصفية » بالمقلوب .

في الفترة بين الثورتين ، تحول كوبا الى ستالين ، وانتقل من مجرد مناضل سري جيورجي مغمور ليصبح احد القادة البلاشفة الوطنيين . والادعى الى الاستغراب في صعوده انه من بين السنوات العشر الممتدة بين ١٩٠٧ و ١٩١٧ ، قضى حوالي سبع منها في السجن ، أو في الطريق الى سيبيريا ، أو في المنفى نفسه ، أو في عمليات هرب من اماكن نفيه . ولا تتجاوز كتاباته السياسية في تلك الفترة جزءاً صغيراً واحداً من « مؤلفاته الكاملة » . ومهما يكن القارىء متسامحاً ، فهو لن يرى في هذا الجزء أي دليل على الانجاز السياسي أو الفكري . ان الرجل الذي اسرع ، في بداية عام ١٩١٧ ، بالعودة من سيبيريا الى بطرسبرغ ليقود البلاشفة قبل عودة لينين من سويسرا ، لم يحرز تقدماً ملحوظاً بالمقارنة مع فترة شبابه عندما كان يحرر المقالات لصحيفة « بريدزولا » . من

هنا ، فان مفتاح ترقيته الحزبية هو في نشاطاته العملية اكثر مما هو في أي موهبة أدبية أو صحفية عنده .

ولازم باكو ، بينما حط رحال لينين والقادة الآخرون مجدداً الى اوروبا الغربية . لم يكن من اولئك القادة الذين يحتاجهم الحزب في الخارج ، ولا كان بامكانه الخروج مخافة أن تعتقله الاوخرانا . وهو لم يكن من العمال النجباء الذين يُرسلون لاستكمال ثقافتهم الثورية في المدارس الحزبية المتعددة في الخارج . فان لينين قد اعتبره ، في ملفاته الخاصة ، واحداً من القادرين على التثقيف الذاتي . وباستثناء رحلتين قصيرتين الى كراكوف وفيينا ، قضى ستالين تلك السنوات كلها في روسيا ، متمترساً في العالم السفلي ، غائصاً في رتابة يوم العمل الثوري الذي يختلف كلياً عن مهرجانات الثورة العاصفة المثيرة . هذا مصدر قوة عظيمة فيه . لكنه مصدر ضعف كبير ايضاً . فهو لم يفقه شيئاً من الآفاق الاممية الواسعة التي فتحتها اوروبا الغربية أمام القادة المهاجرين . كان أممياً بالطبع ، كغيره من البلاشفة ، إلا ان أمميته كانت مسألة فكرة قطعية « دوغما » أكثر مما هي مسألة تجربة حية ، وكان ميدانها الريف . فهو يعرف الكثير عن النزاعات الدموية بين قبائل وقوميات القفقاس حيث تتجلى حماقة القومية المنغلقة . ولكن ما تفتقر اليه أمميته هو المعرفة الوثيقة بالاتجاهات العامة للحياة الاوروبية ، والتحسس بظلال وألوان ذلك القوس القزح الباهر الذي يدعى الحضارة الاوروبية . لكنه ، من جهة اخرى ، يستمد قوته فعلاً من ارض وطنه . ففيها جذوره ، اولاً بفضل الولادة والمنشأ ، وثانيا بفضل المصير السياسي .

وانتخِب عضواً في لجنة باكو في ٢٥ ايلول من عام ١٩٠٧ . فعلّق على ذلك في وقت لاحق ، بقوله :

« ان عامين من النشاط الثوري بين عمال النفط في باكو جعلا عودي يصلب كمناضل وكأحد القادة العمليين . خلال الاحتكاك بالعمال المتقدمين في باكو ... وفي غمرة اعنف النزاعات القائمة بين العمال وأصحاب آبار النفط ... تعلمتُ لأول مرة معنى ان يقود المرء الجماهير الواسعة من العمال . وهناك في باكو ، وفي خضم المعركة نفسها ، تلقيت معموديتي الثورية الثانية » .

في باكو ، تلتقي اوروبا وآسيا وتتداخل الواحدة بالاخرى اكثر مما في تيفليس .

تجارة الترانزيت مع ايران ذات طابع شرقي . ٤٨ ٪ فقط من العمال في باكو من الروس والارمن . في حين ان ٤٢ ٪ منهم من الايرانيين واللزغيين والتتر - ومعظم العمال الايرانيين من المهاجرين . أما العشرة بالمئة الباقية ، فمن الاتراك . وكان عملاً ضخماً ذلك الذي سعى الى جمع هذا الخليط من الاجناس والقوميات والاديان ، بتقاليدها وعاداتها الخاصة ، ضمن اطار منظمة ماركسية واحدة . الروس هم العمال المهرة ، روّاد نسق الحياة الحديث . والمسلمون هم العمال غير المهرة ، انهم البروليتاريا المفقَرة . أما التتر فيمارسون تعذيب النفس بواسطة السياط خلال احتفالهم المسمى « شاخسي - فاخسي » . وكانت تقاليد النزاعات الدموية ليست بعيدة ، من حيث حدّتها ، عما هي عليه في صحارى الجزيرة العربية . وفي الاحياء المسلمة من المدينة ، تعيش كل عائلة على حدة حياتها المعزولة الراكدة ، وينعدم عندها الحيوية والفضول بشأن العالم اللذين يحركان الاحياء الروسية والارمنية . لهذا ، كان الحي الاسلامي ملائماً جداً للنشاط السري . فأقام فيه البلاشفة مطبعتهم السرية . وهناك أيضاً اختبأ كوبا بعيداً عن أعين الشرطة ، مستعملاً اسم غايوز نيشارادزه .

إلا ان جمهور العمال المسلمين الموزع الى ذرات مستقلة ، لم يكن ليستجيب بسهولة للدعاية والتنظيم . ولم يعكس العنصر الآسيوي نفسه في تركيب الطبقة العاملة وحسب ، بل هو طبع سياسات شركات النفط كذلك ، رغم ان المساهمين فيها من الاوروبيين . وكان نظام الاجور مزيجاً غريباً من الاجر الطبيعي ومن « البخشيش » كما سماه كوبا في مقالاته . وهكذا ، فان جميع خدع الاستغلال التي عرفتها اوروبا الغربية في أول اطوار ثورتها الصناعية ، وكل فنون البلص التي تفتق الخبث الشرقي عنها قد استعملت لـ« مكافأة » العمال في حقول النفط على اتعابهم . إلا ان نظام الاجور في الورشات الميكانيكية ، حيث الروس والارمن ، كان اقرب الى النظام الاوروبي . ولكن ادى ذلك الى بعثرة العمل ، والى وضع عراقيل في وجه محاولات النقابيين تنسيق مطالبهم . وكان نظام الاجور الطبيعية يجعل حتى الروس انفسهم معتمدين على ارباب العمل ، الى درجة ان « شركة نفط بحر القزوين » قد سمحت لنفسها ابتداء من عام ١٩٠٩ ان تصدر قراراً تمنع بموجبه عمالها من الزواج بدون استئذان الشركة . فلا عجب ، إذاً ، ان تتخذ النزاعات العمالية هناك طابعاً حاداً ومتفجراً باطراد ، رغم تأخر السكان والتمايزات الموجودة بينهم .

وجدير بالذكر انه في أواخر عام ١٩٠٤ ، كانت الاضرابات الثورية في باكو قد سبقت

« الاحد الدموي » في بطرسبرغ . إلا ان الحياة السياسية لم تلبث ان غاصت في مستنقع النزاعات القبلية الدامية . وعرفت باكو فترة من الغليان الثوري في اواخر عام ١٩٠٧ ، بعدما كان هذا الغليان قد ركد في سائر انحاء روسيا ولم يتفكك العمل السري هناك بالسرعة التي تفكك فيها في الاجزاء الاخرى من البلد . ففي أواخر شهر ايلول ، في الانتخابات الاولية لمجلس الدوما حيث تختار كل فئة اجتماعية مندوبيها على حدة ،انتخب النافون العمال البلاشفة نواباً عنهم . فكتب كوبا « تعليمات عمال باكو الى نائبهم » ، قال فيها انه ينبغي على النائب ان يكون عضواً في الحزب ، وان ينفذ تعليمات وأوامر لجنته المركزية ، ولا يجوز له ان يعتبر مهمته مهمة تشريعية ، بل عليه ان يعلن في الدوما صراحة ان لا جدوى من أي تشريع تقدمي أو اصلاح سلمي ما دام النظام القيصري قائماً . وعليه ، الى جانب ذلك ، ان يبقى داعية من دعاة الثورة . ان هذه التعليمات سوف تصبح انموذجاً للخطط التكتيكية البلشفية في العمل البرلماني .

بعد الانتخابات ، التفت كوبا الى النزاعات العمالية في صناعة النفط . كان العمال في حقول النفط ينتمون الى نقابة واحدة يسيطر عليها البلاشفة ، بينما كان عمال الورشات الميكانيكية منظمين على حدة في نقابة بقيادة المناشفة .فدعا كوبا الى انشاء نقابة على أساس الصناعة بدلاً منها على أساس المهنة . وأصر على انه يجب على شركات النفط ان تفاوض مندوبين عن الصناعة كلها . فلا يجوز لمهنة ما ان تسمح لنفسها بالارتشاء على حساب مهنة اخرى . نظام الاجور بحاجة الى تعديل . فالذي يريده العمال ليس مزيداً من« البخشيش» ، بل نظام اجور على الطراز الاوروبي . فالعمال يطالبون باعتماد الاساليب الاوروبية بدلاً من الالاعيب الآسيوية التي يلجأ اليها أرباب العمل . وعرض هذه الافكار في سلسلة من المقالات القصيرة ، بامضاء ك. كاتو ، في صحيفة « غودوك » (العلامة) ، لسان الحال العلني للنقابات البلشفية . وبعد موافقة الصناعيين على التفاوض مع ممثلي الصناعة كلها ، ناشد كوبا « الخمسين ألف عامل في باكو » ان ينتخبوا مندوبين عنهم . وتعهدت السلطات بعدم التعرض لمجلس المندوبين . وهذا انتصار للبلاشفة ، لأن المناشفة أرادوا الشروع في المفاوضات مع شركات النفط دون وضع أية شروط مسبقة ، في حين دعا الاشتراكيون الثوريون والطاشناق الى مقاطعة المفاوضات جملةً وتفصيلا .

وانعقد مجلس المندوبين طوال أشهر عديدة ، يناقش كل بند من بنود الاتفاقات الجماعية ، ويشرف على الاضرابات ، ويبشر بآرائه السياسية . « بينما كانت الرجعية

السوداء تسود كل انحاء روسيا ، انعقد في باكو برلمان عمالي اصيل » ، كتب في وقت لاحق سيرغو اوردجونيكيدزه ، المفوض المقبل للصناعة الثقيلة ، وأحد اصدقاء كوبا المقربين في تلك الايام . كان ثمة اقدام وجرأة في تحدي باكو لعهد الثالث من حزيران . وتابع لينين الاحداث باعجاب حزين : « تلك هي ذيول الاضراب السياسي العام » . فهو يعلم إن باكو لا تستطيع دفع سائر اجزاء روسيا الى الثورة . فالثورة تخوض معركة تراجع في القفقاس . إلا ان القادة البلاشفة في باكو ، قواد المعركة ، أثاروا انتباهه . من هم اولئك الذين يتحدون كل الخنوع واللامبالاة السائدين؟ هناك ايفانوفيتش – كوبا الذي قابله في تاميرفورس وأيضاً في ستوكهولم ولندن ، الرجل المسئول عن الفرق المسلحة ، ولم يكن اسمه قد أُدرج بعد في ملفات لينين السرية ؛ اوردجونيكيدزه ، فورشيلوف (سكرتير نقابة عمال النفط والمارشال المقبل) ؛ والاخوة يينوكيدزه (وسوف يصبح احدهما نائباً لرئيس الاتحاد السوفييتي) ؛ وسباندريان ؛ ودجاباريدزه ؛ وشوميان ؛ وكلهم سوف يحتل منصب مفوض في باكو . لكن « الاشارة » المنبعثة من باكو بقوة غريبة اصطدمت بصمت مطبق في سائر انحاء روسيا . والعامل الآخر الذي جعل اسم كوبا يثير انتباه لينين اكثر من غيره هو انه اقلع عن الكتابة بلغته الجيورجية الاصلية . ففي باكو عدد قليل من الجيورجيين ، وكان اللسان الروسي ، على ما يبدو ، عنصر توحيد للغات واللهجات التي يتكلمها الناس هناك . فكانت صحيفة « غودوك » العلنية ، وجريدة « باكينسكي بروليتاريي » السرية ، اللتان يشرف كوبا على تحريرهما ، تصدران باللغة الروسية . وتُرسل بانتظام الى المقر البلشفي العام في الخارج ، حيث يمحص لينين كل مقالة وملاحظة كتبها اتباعه . ورغم ان كتابات كوبا لم تكن غزيرة ولا باهرة فكرياً ، إلا انها كانت تتسم باخلاص متناهٍ للجناح البلشفي ، وبلهجة عملية تحظى من لينين بتقدير عظيم . وهكذا ، ففي انتقال كوبا من تيفليس الى مدينة النفط على الحدود الايرانية ، كان ينتقل فعلاً من الميدان المحلي الى مسرح السياسة الوطنية .

بعد ثمانية أو تسعة شهور من العمل في لجنة باكو ، وبعد عدة اضرابات في حقول النفط ، القت الاوخرانا القبض على كوبا – نيشارادزه وعلى صديقه سيرغو اوردجونيكيدزه ، وأوضعتهما سجن بايلوف . وقد أمضيا الشهور الطويلة في انتظار صدور أمر الإبعاد ، وهما منغمسان في سياسة السجن وفي النقاشات مع سجناء يحملون أفكاراً مختلفة عنهم ، وفي تبادل الرسائل السرية والمطبوعات مع الرفاق في الخارج ، والكتابة للصحف

السرية ، وتهريب هذه الكتابات الى خارج السجن ، وما الى ذلك . وقد ضاعف يأس الهزيمة من مرارة النقاشات بين المنتسبين الى الأجنحة المختلفة . وكان كوبا ، احد المتحدثين باسم السجناء البلاشفة ، بارداً ، صارماً ، منضبطاً ؛ اما اوردجونيكيدزه ، فكان حساساً ، حيوياً ، ينفجر غاضباً عند أدنى استفزاز . وكانت الريبة تسمّم النقاشات ، فالاوخرانا قد ارسلت جواسيسها الى داخل السجن . وغالباً ما كانت تمتلك السجناء موجة من الشك العظيم ، فيتعقبون هؤلاء الجواسيس – ويقتلون أحد المشتبه بهم احياناً ، ذلك ان شرعة العمل السري تخولهم قتل الجواسيس كاجراء دفاع عن النفس ، لا بل هي تحتّهم عليه . ولعل بعض الأبرياء ممن أثاروا الشبهات قد قضى نحبه ، لسوء طالعه ، في مثل هذه الحملات التي غالباً ما كانت متنفساً للنزعات الإجرامية أو حتى فرصاً لتصفية الحسابات الشخصية . وكان كل جناح من الاجنحة سريعاً في اكتشاف الجواسيس بين خصومه ، وبطيئاً في اكتشافهم بين صفوفه . ويروي كتّاب الذكريات المناوئين لكوبا ممن شاطره العيش في زنزانته بسجن بايلوف قصصاً تصور كوبا وهو يحرّض الآخرين بخبث لكي يتعقبوا اثر اناس ابرياء والعمل على تعذيبهم بمجرد انهم اثاروا استياءه لسبب او لآخر . يستحيل البتّ في مدى صحة مثل هذه الروايات ، فقد رويت عن العديد من المناضلين السريين وهي تعكس ، ولا شك ، الريبة المتفشية آنذاك .

ويتميّز سجن باكو ، من جوانب اخرى ايضاً ، عن سجن باطوم الهادىء والمتسامح نسبياً ، حيث احتجز كوبا قبل بضع سنوات . ففي سجن باكو ، يوضع المحكومون بالإعدام ، في معظم الأحيان ، مع سائر المساجين وتجري الاعدامات في باحة السجن . هكذا ، تكون الاعصاب بالغة التوتّر عندما يرى المسجونون رفاقهم ، الذين كانوا يشاركون في النقاشات لتوّهم ، سيأتون فجأة الى المشنقة . ويروي شاهد عيان ، والذمة على الراوي ، ان كوبا كان يغط بالنوم خلال هذه اللحظات المتوترة ، مثيراً دهشة رفاقه بصلابة أعصابه ،أو يواصل محاولاته الفاشلة في حفظ حيثيات قواعد اللغة الالمانية المعقدة. وقد سعى كوبا ، وسط كل القذارة والانحطاط ، الى تتبع النزاعات في صناعة النفط ، فكتب التعليقات الدورية حولها في « غودوك » وفي « باكينسكي بروليتاريي » . الا ان لهجة تعليقاته اضحت اقل حزماً مما كانت عليه . أشار على رفاقه بعدم الاعتماد على اندلاع اضراب عام . « ان اضراب كل مؤسسة على حدة ،هو أسرع وسيلة للتراجع ،انه افضل شكل للعمل يتلاءم مع الوضع الراهن ... وحذّر العمال من مغبّة « الارهاب

الاقتصادي » — الأعمال اليائسة وهجمات العمال الأفراد على ارباب العمال والمدراء وقد ازدادت اطراداً — فانه لن يلبث ان يجرّ الويلات على الطبقة العاملة المنظمة . ولكن عندما بدأت الصحيفة «الليبرالية» — «الناطقة بلسان اثرياء النفط الكبار» بالتبشير بالاخلاق بين النقابيين الاشتراكيين وتلومهم على عدم اكتراثهم بالإرهاب الاقتصادي ، ردّ كوبا بمقالة غاضبة حول ظروف عمال النفط القاسية التي تفسّر يأسهم وعنفهم . وسخر من اقتراح تقدم به المناشفة يطالب بتعاون الاشتراكيين جميعاً مع السلطة للحيلولة دون استفحال الارهاب الاقتصادي . وختم كوبا مقاله قائلاً انه ينبغي على الطبقة العاملة المنظمة ان تنتصر على اليأس والعنف ، بالاعتماد على وسائلها الخاصة وخدمة لمصالحها ، ولكنها لن تشي بمرتكبي هذه الأعمال الى السلطات. ولن تتودد للنزعة « الليبرالية » التقية المنتشرة عند اثرياء النفط .

وتسلم في شهر كانون الثاني أمر ابعاده الى مكان يدعى شولفيشيغودسك حيث كان عليه أن يقضي سنتين تحت مراقبة الشرطة . ان سولفيشيغودسك ، وهي بلدة صغيرة أسسها التجار الروس الرواد في القرن الرابع عشر مركزاً لتجارة الملح والفراء ، تقع في القسم الشمالي من مقاطعة فولوغدا ، في روسيا الأوروبية . ومناخها أطرى من مناخ أماكن النفي الأخرى في سيبيريا الشمالية . وهكذا ، كانت شروط إبعاد كوبا رحيمة بعض الشيء . فقد كان لا يزال يلعب دوره بخفية عن الاوخرانا ، متحاشياً أن يقبض عليه بالجرم المشهود . وأُصيب بمرض التيفوس في طريقه من فولوغدا الى سولفيشيغودسك ، لكنه بلغ مقصده في أواخر شباط ١٩٠٩ . على أنه ما لبث أن هرب بعد أربعة أشهر . فعاد الى القفقاس عبر بطرسبرغ حيث حل على اليلوييف ، حماه المقبل ، واتصل بواسطته بقيادة الحزب السرية . فمدته هذه بجواز سفر مزور . وما لبث أن ظهر في باكو في حزيران منتحلاً اسم زاخارا غريغوريان ميليكيانتس. ولا شك في أنه لقي ترحيباً حاراً في قيادة الحزب ، فقد كان المناضلون الحزبيون لا يزالون يتطلعون باعجاب الى تلك « القلعة الصامدة » باكو. وهناك تسلم قراراً غير رسمي بتعيينه مراسلاً في القفقاس للصحف الحزبية المركزية الصادرة في الخارج . وخلال قيامه بهذه المهمة ، جذب اليه انظار لينين اكثر من أي وقت مضى .

ولا ريب انه قد استسلم للتأملات السوداء حول ما رآه وسمعه في العاصمة ، وهو في طريقه منها الى باكو . فقد تقلص عدد اعضاء المنظمة الحزبية فيها الى ما لا يزيد عن

٣٠٠٠ عضو في حين كانت لا تزال تضم حوالي ٨٠٠٠ عضو عـام ١٩٠٧ . فبدا له و كأن جواً من الكسل يخيّم على المقر العـام للحزب . ولما استخبر بلهفة عن القفقاس ، تبين له ان الاخبار غير متوفرة لدى المقر العام . الاتصال بين بطرسبرغ والقادة المهاجرين ضعيف جداً . والصحف السرية توزع على نطـــاق ضيّق . فرغب في ابداء العون للعاملين في بطرسبرغ .

ولم تكن الحالة التي وجد فيها « قلعة باكو » ، بعد سنة ونصف على اعتقاله ، مشجعة هي ايضاً . هنا ايضاً تقلصت قوى المنظمة الى بضع مئات من الاعضاء ، مئتان أو ثلاثمائة بلشفي وحوالي مئة منشفي . لكن عضوية النقابات اوسع من ذلك بكثير . أما النوادي الثقافية (من امثال « العـلم » و « المعرفة قوة ») فخامدة . وفي حقول النفط ، زيدت ساعات العمل من ثماني ساعات الى اثنتي عشر ساعة ، ورغم تباشير الازدهار في صنـاعة النفط ، لم يستغل العمال قوتهم الضاغطة ليحصلوا على مكاسب جديدة . أدارت المنظمـة ظهرها للبروليتاريا التترية ، واوقفت المناشير والصحف الصادرة بلغتهم الاصلية . خزينة الحزب شبه فارغة ، ولم يصدر عدد واحد من الصحيفة السرية باللغة الروسية « باكينسكي بروليتاريي » طوال عام بأكمله . غير ان الامور لا زالت تبدو احسن مما هي عليه في أي مكان آخر ، مع ان باكو لم تعد باكو المتحدية القديمة .

وكان أول ما قام به كوبا — ميليكيانتس ، بعد ان استقر في مخبأ داخل حقـــل بالاخانا للنفط ، انه أعاد « باكينسكي بروليتاريي » الى الصدور . وهــكذا ، بعد مضي ثلاثة أسابيع على عودته ، صدر عدد من الصحيفة بافتتاحية غير موقعة ، عنوانها « الازمة في حزبنا ومهماتنا » . لم يحاور ويداور في تشخيص الازمة ، بل كتب متوجهاً الى القيادة الحزبية في الخارج والى القراء المحليين في آن معاً . كتب يقول ، في مجـــال عرض بعض المعلومات التي جاء بها من العاصمة : « ان الحزب لا يملك جذوراً بين العمال . ان بطرسبرغ لا تعرف ماذا يجري في القفقاس ، والقفقاس لا تعرف مـــاذا يجري في الاورال — فكل زاوية تعيش حياتها المعزولة الخاصة . ان الحزب الموحـــد الذي يعيش حياة مشتركة ، بالمعنى الكامل لهـــذه الكلمة ، هذا الحزب الذي طالما فاخرنا بالانتماء اليه عام ١٩٠٥ و ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، لم يعد موجوداً » . واعتبر ان جاليات المهاجرين البلاشفة والمناشفة تتحمل مسئولية مشتركة في ذلك ، لأن صحفهـــا — وذكر بهذا الصدد صحيفة لينين « بروليتاريي » وصحيفة المناشفة «غولوس» — « لم توحّد المنظمات المبعثرة داخل روسيا ،

ولا هي قادرة على أن تصهرها في حياة حزبية مشتركة . من المستغرب ان يعتقد المرء ان الاجهزة الخارجية ، على بعدها عن الواقع الروسي، تستطيع ان توحد عمل حزب تخطى منذ زمن طور الحلقات الدعاوية الصغيرة » . هذه الجملة الاخيرة تخطىء الهدف . فالواقع ان الكاتب نفسه كان قد بين، في مكان آخر ، ان التنظيم السري لم يكن اقوى مما كان عليه أيام كانت «ايسكرا» القديمة تحاول جمع شتات المجموعات الصغيرة من الدعاة الرواد في حزب واحد . ان كوبا يعبر هنا عن نفاذ صبر ثوريي الداخل من القادة المهاجرين « البعيدين عن الواقع الروسي » ، وهو لم يستثن لينين نفسه من اللوم . ثم أردف قائلاً ان علاجات عديدة اقترحت ، مثل حل التنظيم السري او نقل مهماته الى المناضلين الحزبيين العاديين . ان العلاج الأول يعني تصفية الحزب ، اما الثاني ، فلن يؤدي الى تحسن كبير ما دام الشكل التنظيمي القديم قائماً ، « باساليب عمله البالية » و « قيادته» الخارجية » . وقد اصرّ على وضع كلمة قيادة بين مزدوجين دليل الاستياء.ومهما يكن من أمر ، فقد لازمت استنتاجاته جانب الحذر، إذ انه لم يطالب بنقل القيادة الى داخل روسيا . فالمطلوب ، برأيه ، انشاء صحيفة وطنية في روسيا ، تبقى على اتصال بالحياة هناك ، وتجمع شمل العناصر المشتتة في الحزب . وتقع على عاتق اللجنة المركزية مهمة انشاء مثل هذه الصحيفة وادارتها : «ان مهمة الاشراف على نشاط الحزب تعود، في أي حال ، الى اللجنة المركزية . ولكن اضطلاعها بهذه المهمة ما زال مشوباً بكثير من النواقص في الوقت الحاضر ... » . كانت تلك ايام شبه الاندماج بين الجناحين . واللجنة المركزية في طريق مسدودة نتيجة الخلاف بين المناشفة والبلاشفة. الا ان كوبا لم يتطرق لهذا الموضوع . ان التهمة التي وجهها الى اللجنة المركزية ككل هي « ابتعادها عن الواقع الروسي » ان دعوته الى انشاء صحيفة وطنية لهي فكرة عملية ؛ الا ان الامر قد استلزم ثلاث سنوات بكاملها قبل انشاء « البرافدا» (الحقيقة) في بطرسبرغ ، ودخول كوبا مجلس تحريرها . في تلك الاثناء ، كان محرر « باكينسكي بروليتاريي» يرشح نفسه ، ولكن على نحو غير مباشر ، للعمل في القيادة الحزبية العامة في بطرسبرغ واشار ، في احدى الحواشي ، الى ان فرع الحزب في باكو ، على عكس معظم الفروع الاخرى ، « ما زال يحتفظ بعلاقاته مع الجماهير » .

ونشر في « باكينسكي بروليتاريي » ايضاً قرار صادر عن لجنة باكو ، تولى هو صياغته ، حول الخلافات بين القادة البلاشفة في الخارج. ويأخذ القرار على لينين صراحة « عمله على شق الجناح البلشفي حول ما ظنه كوبا خلافات ثانوية في الرأي . في ذلك

الوقت ، كان مؤسس البلشفية على وشك الانفصال عن الراديكاليين والانسحابيين من امثال الفيلسوف والاقتصادي بوغدانوف ، والكاتب لوناتشارسكي ، والداعية مانيولسكي وغيرهم . واتهم الراديكاليون لينين بخيانة البلشفية . ورأى هؤلاء ان لينين ، بحثه اتباعه على دمج العمل السري مع النشاط العلني ، انما يشجع على تمييع المبادىء والقيام بدعاية منشفية متسترة .

وبلغت الخلافات التكتيكية حداً بالغاً من التعقيد مع بروز الخلاف الفلسفي . فقد وضع الراديكاليون موضع التساؤل بعض المفاهيم الفلسفية الماركسية ، وحاولوا مراجعة المادية الجدلية على ضوء الكانتية الجديدة والفلسفة التجريبية النقدية . وانقطع لينين ، لمدة من الزمن ، عن ممارسة السياسة اليومية ، وحبس نفسه في مكتبات باريس حيث انجز كتابة أثره الفلسفي الكبير : « التجريبية النقدية والمذهب المادي » ، حيث تعرّض بنقد كاسح للكانتيين الجدد والباحثين عن الله[1] وسائر الذين اثاروا التساؤلات حول الفلسفة الماركسية[2] . وانشأ خصوم لينين المدارس الحزبية لمنافسته ، وهكذا دخل المناضلون الحزبيون حلبة الصراع . مدرسة لينين في « لون جومو » ، قرب باريس . اما الراديكاليون والباحثون عن الله ، الذين انشأوا مدرستهم تحت رعاية مكسيم غوركي ، فقد اتخذوا جزيرة كابري مركزاً لنشر تعاليمهم . وتنافست المدرستان على الامدادات المالية والتلامذة . وهكذا ، فالعمال الذين تجشموا الاخطار الجمة للخروج من روسيا ، في لهفتهم لتعلم السياسة العملية ، والاقتصاد السياسي ، وفنون العمل السري ، وجدوا انفسهم يخوضون غمار دروس فلسفية مكثفة ، ويواجهون بالاختيار بين نظريات متضاربة ، وبضرورة التصويت حول طرد الهراطقة الذين يحملون افكاراً خاصة حول الخطط السياسية .

وعيل صبر قائد لجنة باكو ، المختبىء بين التتر في حقل بالاخلانا النفطي ،من النزاع

---

(١) البحث عن الله ، تيار ديني ، فلسفي برز خلال فترة الردة المضادة لثورة ١٩٠٥ ، وشاع بين قسم من الكتاب الاشتراكيين الديمقراطيين ، من امثال غوركي ، لوناتشارسكي ، وبازاروف . وهو يدعو الى قيام ديانة « اشتراكية » جديدة ، محاولاً التوفيق بين الماركسية والدين - (المترجم) .

(٢) يروي البروفسور بوكروفسكي في مذكراته كيف ارسل البلاشفة وفداً الى لينين يطلب منه التخلي عن دراساته الفلسفية والعودة الى ميدان السياسة العملية . وكان بوكروفسكي عضواً في هذا الوفد . الا ان لينين رفض الانصياع لطلب اتباعه .

بين لون جومو وكابري . ولا شك في انه ظن ان ابتعاد المهاجرين عن الواقع الروسي قد شارف حدود الانحراف العقلي . فصار لزاماً على لجنة باكو ان تعنّفهم وتعيدهم إلى صوابهم . ورغم ان القرار الذي اتخذته عبَّر عن الاتفاق مع اراء لينين التكتيكية والسياسية ضد الراديكاليين ، غير انه انطوى أيضاً على احتجاج على طرد لينين لبوغدانوف وعلى استهتار هذا الاخير بالانضباط الحزبي في آن معاً . وبما ان كل التيارات ضمن الجناح الواحد متفقة حول القضايا السياسية الاساسية ، ينبغي ان تعمل معاً ؛ وينبغي ان يقلع لينين عن تعديه على حقوق الاقلية . وقد رفضت باكو الانحياز الى أي من الطرفين في النزاع بين لون جومو وكابري ؛ وعلى كل حال فان معلوماتها عنه كانت قليلة . لاحظ لينين اللوم الموجّه له . وحاول في صحيفته ان يفسر لنقاده القفقاسيين انه ليس من المولعين بالتصفيات الحزبية ، وانه قد اضطر إلى طرد الراديكاليين لسبب واحد هو انهم رفضوا التقيّد بالانضباط الحزبي .

بعد الضغط الذي مارسه على المقر الحزبي العام في الخارج ، تحاشى كوبا الاصطدام بلينين فكتب خلال شهري تشرين الثاني وكانون الاول من عام ١٩٠٩ سلسلة من « الرسائل من القفقاس » لصحيفة « سوسيال ديمكرات » (الاشتراكي الديمقراطي) التي تصدر في آن واحد في باريس وجنيف عن اللجنة المركزية البلشفية — المنشفية المشتركة . ويتكون مجلس تحريرها من لينين ، وزينوفييف ، كامنييف ، مارتوف ، ودان . وقد غطت « الرسائل » ، على نحو شامل مفيد ، مجمل القضايا القفقاسية . وقد تعرّض فيها الكاتب لاوضاع صناعة النفط ، والحكومة المحلية ، والنقابات ، والعلاقات بين القوميات القفقاسية ، والعمل السري ، والنشاطات الاشتراكية العلنية ، والمقارنات بين تيفليس وباكو — وكل ذلك باسلوب دقيق ، عملي ، على الرغم من كونه اسلوب مبتدىء لا اكثر . وفي بعض « الرسائل » ، تعرض كوبا بالانتقاد العنيف للمناشفة القفقاسيين وزعيمهم نوح جوردانيا ، فاثار ذلك الاعتراض من قبل مارتوف ودان ، فتقرر نشرها في الزاوية المخصصة للنقاشات حيث تُحال عادة مثل هذه المواد السجالية . وثمة رسالة واحدة لم تنشر على الاطلاق . وقد برهن المراسل القفقاسي عن تمسك عنيد باللينينية . فامتنع حتى عن ايراد اشارة واحدة إلى الانتقادات التي كان قد وجهها إلى لينين عبر لجنة باكو وصحيفة « باكينسكي بروليتاريي » وقد سُرّ لينين للنجدة التي جاءته من المراسل القفقاسي . وعلى عادته في التكيّف مع الرأي العام السائد بين اتباعه

في روسيا ، تبنى مطلب انشاء قيادة حزبية وطنية في روسيا ، وفرضـــه على المناشفة المترددين . في تلك الاثناء ، تزايدت ضغوط باكو . ففي قرار آخر صاغـــه كوبا في بداية عام ١٩١٠ ، طالبت باكو « بنقل القيـــادة (العملية) إلى روسيا » . ودعمت طلبها بتكهن ورد في مطلع القرار ، يقول : « ان حالة اليأس واللامبالاة التي استحوذت على القوى المحركة للثورة الروسية آخذة بالزوال . فكان كوبا بذلـــك ، كما في مناسبة او مناسبتين اخريين ، متقدماً عن معظم الكتّاب المهاجرين ، مع ان تكهناً مماثـــلاً لتكهنه صدر في ذلك الوقت عن ليون تروتسكي في فيينا . وطالبت لجنة باكو كذلك ، وقد اتضح انها بدأت تنسق عملها على نحو وثيق مع عمل لينين ، بطرد « دعاة التصفية » نهائياً من الحزب ، وبالاندماج بين البلاشفة وبين اولئك المناشفة ، من امثال بليخانوف ، ممن يدافعون عن العمل السري .

في معمعة التمهيد للاضراب العام في الصناعة النفطية ، القي القبض من جديد على كوبا ــ ميليكيانتس في شهر آذار . وفي نفس الوقت الذي القي عليـــه القبض فيه ، صدر عن المطبعة السرية منشور له تحية « الى العامل اوغست بابل ، القائد الاشتراكي الديمقراطي الالماني ، البالغ السبعين من عمره ، و« الذي زعزعت كلماته عروش اوروبا ». بعد ثمانية اشهر من العمل المكثف ، ها هو الآن ينتظر من جديـــد في السجن ، وطوال ستة اشهر ، صدور حكم « اداري » جديد بحقه . ولم يكن الحكم قاسياً عليه هذه المرة . فقد حكم عليه بقضاء الفترة المتبقية من مدة نفيه في سولفيشيغودسك . ويُمنع ، بعد ذلك ، من الاقامة في القفقاس وفي مدن روسيا الكبرى لمدة خمس سنوات . وتـلى ذلك الرحلة المألوفة شمالاً . ولبث مكانه هذه المرة ، لا يحاول الهرب ، حوالي تسعة اشهر ، اي حتى انتهاء مدة نفيه في ٢٧ حزيران ١٩١١ . وقد غادر القفقاس الى غير عودة هـــذه المرة . سوف يقوم برحلات قصيرة الى مقاطعتـــه الاصلية في المستقبل ، ولكن فقط لتفقد الفروع الحزبية المحلية باسم اللجنة المركزية . وهكـــذا انطوى الفصل القفقاسي من حياته .

* * *

ان الانتعاش المرتقب في الحركة الثورية سرعان ما عبّر عن نفسه . وكانت

بواكيره تظاهرات شارعية بمناسبة مأتم ليوتولستوي عام ١٩١٠ . وفي عام ١٩١٢ تسارعت الحركة ، إذ اعلن العمال اضرابات واسعة احتجاجاً على قتل بضع مئات من المضربين في مناجم الذهب في « لينا » بسيبيريا . وفي تلك الاثناء انشق الحزب الاشتراكي الديمقراطي نهائياً . ففي الثاني عشر من كانون الثاني ، ١٩١٢ ، عقد لينين في براغ مؤتمراً للبلاشفة ولبعض البليخانوفيين لاعلان تحويل جناحه الى حزب مستقل ، او بالاحرى لاعلان جناحه الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحقيقي . وكان ذلك الانفصال النهائي عن الغالبية العظمى من المناشفة . وعُقد هذا المؤتمر ايضاً في مكان يدعى « بيت الشعب » شأنه شأن مؤتمر بروكسيل عام ١٩٠٣ ، الا ان الذين استضافوا الثوريين الروس هذه المرة هم الاشتراكيون التشيكيون . وفي مؤتمر براغ ، ادرج لينين اسم كوبا على لائحة المرشحين لعضوية اللجنة المركزية التي وُزعت على المندوبين . لكن كوبا لم ينجح في الانتخابات . فلم يكن اسمه يعني الشيء الكثير ، او هو لا يعني شيئاً البتة ، بالنسبة لمعظم المندوبين الذين تعارفوا الى بعضهم البعض في جاليات المهاجرين المختلفة. وانتخب اوردجونيكيدزه ، مساعد كوبا السابق وزميله السريع الغضب في سجن باكو ، وربما يعود ذلك الى انه جاء مباشرة من مدرسة لينين في « لون جومو » حيث كان لا يزال طالباً . لكن لينين لم يتخلَّ عن الموضوع عند هذا الحد . فالنظام الداخلي للحزب يخوّل اللجنة المركزية المنتخبة حق انتداب الاعضاء اليها . وقد استعملت اللجنة هذا الحق بالنسبة لكوبا ، بطلب من لينين . كان سائر اعضاء اللجنة المركزية هم لينين ، زينوفييف ، اوردجونيكيدزه ، ومالينفوسكي البولوني الحامل الجنسية الروسية ، وجاسوس الاوخرانا .

ما الذي جعل لينين يميل نحو كوبا ؟ في بدء الانتعاش السياسي ، اراد لينين لنفسه الحد الاقصى من الحرية في العمل . فتحرر من العلاقة المكبلة مع المناشفة حتى لا تضطره المساومات او الاعتبارات المتعلقة بوحدة الحزب الى « الحد من » دعايته وشعاراته . وها هو يلتفت الآن الى منظمته يعيد تنظيمها انسجاماً مع الوضع الجديد. كان قد انفصل عن المع زملائه خلال الانشقاقات السابقة . وبعد ان اتخذ قراره الاخير في تدمير كل الجسور خلفه ، وجد نفسه مع عدد ضئيل من الشركاء الخارقين . ان تروتسكي يرأس تحالفاً متنافراً من المناشفة اليمينيين ، والبلاشفة الراديكاليين ، والمعادين للمنشفية ، والمعادين للبلشفية ، ودعاة التصفية ، والانسحابيين ، والباحثين عن الله ، والتروتسكيين ؛

وهويشن حملة صحفية ضد اللينينية . وكان زينوفييف وكامنييف من معـــاوني لينين المقرّبين ، ولكن حتى كامنييف نفسه ، صهر تروتسكي ، كان قد بدأ يتذبذب . فلم يكن من لينين إلا ان ادار ظهره للمثقفين المهاجرين . وانتقى اعضاء اللجنة المركزية الجديدة من بين المناضلين الحزبيين السريين . بعد مضي زمن ليس بالبعيد على انتخابهـــا ، انشأت اللجنة المركزية مكتباً روسياً اوكلت اليه مهمة الاشراف على نشاطات الحزب داخـــل روسيا . وهو يضم اربعة اعضاء : كوبا ، اوردجونيكيدزه ، سباندريان ، وعضو رابع يدعى غولوشيكين . وكان الثلاثة الأول اعضاء في لجنة باكو . وهكذا صارت جماعـــة القفقاس ركن التنظيم البلشفي ، ولعبت دوراً يفوق بكثير اهمية المقاطعـــة التي تنتمي اليها . وكانت سمعة باكو ، التي اكسبتها اياها اضرابات وتظاهرات عام ١٩٠٨ ، لا تزال عالية جداً بنظر لينين ، ولعلها سمعة مبالغ بها . الا ان لينين فكـّر ، ولا شك ، على نحو التالي : المهمة تتطلب رجالاً صامدين ، عنيدين ، اذكياء ، رجالاً من امثال قـــادة باكو . في ملفات كروبسكايا ، كان الاسم السري لمجموعة باكو هو « الاحصنة » . وهـا هو لينين يسّرج احصنته .

ان ارتقاء كوبا في التسلسل الحزبي لم يأت فوراً . فلا شك ان لينين سمع الكثير من الاطراء عليه من العمال القفقاسيين في الخارج . وفي مدرسة « لون جومو » كان اردجونيكيدزه يدعو لكوبا ، الرجل القوي في لجنة باكو . وبالاضافة الى ذلك ، فان المرّشح نفسه قام ببعض التحركات الخفية ، ولكنها محسوبة بدقة ، ساعدته على الارتقاء. فقد ظل على اتصال ، وهو في منفاه ، بالحزبيين الذين قـــد يتكلمون عنه بالحسنى في قيادة الحزب ؛ وحاول التودد للجميع قدر المستطاع . واقـــترح – في رسالة من سولفيشنيغودسك الى سيمون شفارز ، عضو اللجنة المركزية – انشاء قيادة حزبية في روسيا ، وعرض خدماته الخاصة للمساعدة على بلوغ هذه الغاية . وكانت لهجـة الرسالة ودودة جداً حيال اللجنة المركزية الخارجية ، ومليئـــة بالاخلاص للينين وبالازدراء بخصومه (ان لينين فلاح عاقل يعرف تماماً من اين تُؤكل الكتف) والارجـــح ان لينين اطلع على مضمون الرسالة ، وفيها كل ما يدعوه للاعتقاد بان هـــذا المعجب القفقاسي ، المتلهف الى الارتقاء ، سيكون منفذاً اميناً لآرائه .

في نهاية حزيران ١٩١١ ، انهى كوبا مدة نفيه . وبما انه مُنِع من الاقامـة في المدن الكبرى ، فقد اختار بلدة فولوغدا القريبة من موسكو وبطرسبرغ . وبعـد شهرين من

ذلك التاريخ ، هرول من فولوغدا الى بطرسبرغ وطرق باب اليلوييف مرّة اخرى . كان جواسيس الاوخرانا يراقبون بيت اليلوييف ، لكن كوبا ، الذي احيط علماً بذلك ، ضاق صدره مما بدا له على انه مبالغة في الحيطة والحذر . ومن غريب الصدف انه في اليوم نفسه ، اغتيل رئيس الوزراء ستوليبين في كييف، على يد جاسوس نادم ، باغروف، اراد ان يستعيد سمعته في اوساط « العالم السفلي » . فذعرت الاوخرانا واعتقلت جميع المشبوهين . والقي القبض على كوبا وهو يحمل اسماً مستعاراً جديداً ، شيزيكوف . فامضى بضعة شهور اخرى في السجن قبل اعادته الى فولوغدا لقضاء ثلاث سنوات .

وبينما هو في طريق العودة ، كان مندوبو مؤتمر براغ يجتمعون في الخارج . ولم يعلم عن نتائج المؤتمر الا في اواسط شباط ١٩١٢ عندما جاءه اردجونيكيدزه ، وقد اصبح الآن عضواً في اللجنة المركزية المنتخبة حديثاً واحد رسلها . وكتب اردجونيكيدزه في احد تقاريره الى لينين يقول : « كنت عند ايفانوفيتش ، وتدبرت معه كل الامور . لقد سُرّ كثيراً لسماع ما آلت اليه الامور . لقد تركت الاخبار اثراً طيباً في نفسه » . ويبدو ان كوبا لم يُثر اي انشقاق على انشقاق نهائياً عن المناشفة . فبالاضافة الى الاعتبارات المبدئية كان ارتقاؤه الحزبي مرهوناً بهذا الانشقاق الامر الذي ادى به الى تأييد سياسة لينين . وكان شاغله الآخر هو الافلات من مراقبة الشرطة في فولوغدا والعودة الى العاصمة . وبينما هو يعدّ العدة لهربه ، كتب بياناً يفسر فيه قرارات مؤتمر براغ للاشتراكيين في روسيا . ووقع البيان بامضاء « اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا » . هاهو ينطق لاول مرة باسم القيادة الوطنية للبلاشفة . ووُزّع من البيان ما لا يقل عن ست الاف نسخة في المدن الصناعية الرئيسية . الا ان الصحافة الروسية « المحترمة » بالكاد لاحظت هذا الحدث ، مع ان كوبا كان قد بلغ به منعطفاً حاسماً في طريقه الى السلطة . فبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ ، على اثر تنازل القيصر عن العرش ، عاد كوبا من سيبيريا الى بطرسبرغ ، وبفضل اقدميته الحزبية العائدة لعام ١٩١٢ ، تسلم قيادة البلاشفة بانتظار عودة لينين من سويسرا .

ولكن من الخطأ الاعتقاد ان مكانة كوبا بين البلاشفة ، في ذلك الوقت ، كانت تلي مكانة لينين مباشرة ، كما يدّعي كتّاب سيرته الرسميون . فالامر بعيد كل البعد عن ان يكون على هذا النحو . فالتنقلات دائمة في القيادات البلشفية . ولم يكن ثمة أي ثبات في التسلسل الهرمي آنذاك ، سوى ثبات الشخصية المركزية فيه ، لينين ، الذي تعتمد سلطته على الثروة الفكرية والسياسية غير المحدودة التي يتمتع بها ، وليس على اي تطلب

شكلي للطاعة والاخلاص من طرف اتباعه . كانت مجموعة من الاجرام تصعد وتهوى في دورانها في فلك لينين ، فتفقد باستمرار اجراماً قديمة وتكسب اخرى جديدة . ان عدداً لا بأس به من الاشخاص قد طوى الزمن اسماءهم ، مع انهم كانوا يشغلون في التسلسل الهرمي البلشفي رتباً مشابهة للرتبة التي يشغلها كوبا . لكن ترقيته عام ١٩١٢ لا تكتسب كل معناها إلا نسبة إلى عمله اللاحق . ومع انه جاء ليبقى ، على عكس غيره ، فقد بدت ترقيته إلى عضوية اللجنة المركزية ، في ذلك الحين ، كاجراء بين جملة من التنقلات في المسئوليات الحزبية . والأمر الذي اكد ذلك هو ان الوافد الجديد لم يكن قد برّز كمكتشف لافكار جديدةولا كمخطّط سياسي . فهو سوف يصبحالساعد الحديدي للجنة المركزية ، ولكن ليس عقلها او قلبها .

وبالاضافة إلى ذلك ، فان ما زاد في التأكيد على الطبيعة الآنية ، بل الطارئة ، لهذا الانعطاف في حياة كوبا ، هو قلة نشاطاته خلال السنوات الخمس التي تفصل بين ترقيته هذه وبين اندلاع الثورة الثانية . فهو لم يتولّ مهمات عضو في اللجنة المركزية الا في السنة الاولى منها فقط ، إذ كان مبعداً في سيبيريا شبه القطبية خلال السنوات الاربع الباقية . وحتى خلال تلك السنة نفسها ، تعذر عليه العمل طوال خمسة اشهر عندما أُلقي القبض عليه وابعد ثم ما لبث ان هرب مجدداً . فكان مجموع المدة التي امضاها في عمل سياسي فعلي لا يتعدى السبعة اشهر ، مرّت خمسة منها فقط دون انقطاع . ومع انها كانت كافية بالنسبة له ليتعرف على مهنته ، ويألف قياديي الحزب ، وربما ليدعم مركزه ايضاً ، فلم تكن كافية اطلاقاً لاكسابه خبرة جديدة او لاحداث تغيير جذري في وضعه .

إلا ان الفترة الوجيزة التي قضاها بالعمل السياسي كانت مزحومة بالنشاط . توّجه من فولوغدا جنوباً ليستمزج رأي البلاشفة القفقاسيين بقرارات مؤتمر براغ . واسرع من القفقاس الى موسكو ، ليتبادل الانطباعات مع اردجونيكيدزه حول ردود فعل معظم الفروع لخط لينين الجديد . وعاد في اواسط نيسان إلى العاصمة للمساعدة في التهيئة لاعياد اول ايار . وعقب ذلك بيان اول ايار الذي صدر بتوقيع اللجنة المركزية مع انه يردّد اصداء الكلية الكهنوتية :

« ان بحر الحركة العمالية يتسع اكثر فاكثر ، غامراً بلاداً ودولاً جديدة

باستمرار من اوروبا واميركا الى آسيا وافريقيا واستراليا ... ان خضمّ الغضب البروليتاري يزمجر مطلقاً الزفرات على شكل امواج واضرابات تصفع بعنف متزايد صخور الرأسمالية المتداعية ... ان العمال واثقون من النصر الاكيد ، هادئون واقوياء ، يسيرون بفخر على طريق الارض الموعودة ... ينبغي على العمال الروس ان يعلمنوا ، وفي هذا اليوم بالذات مثلهم مثل رفاقهم في اراضي (اوروبا) الحرة ، انهم لا ولن يعبدوا العجل الذهبي .... »

خلال اقامته في بطرسبرغ ، التي لم تطل اكثر من اثني عشر يوماً الى حين اعتقاله ، اتصل بالنواب البلاشفة في الدوما ، وكانت اللجنة المركزية قد كلفته الاشراف على عملهم ؛ واصدر ، بحماس جديد ، ثلاثة اعداد من « زفيزدا » (النجمة) ، مالئاً معظم صفحاتها بمقالاته ؛ ومهّد لاصدار العدد الاول من « برافدا » (الحقيقة) . واخيراً ، في ٢٤ نيسان ١٩١٢ ، صدرت البرافدا ، وعلى صفحاتها الاولى بيان كوبا الافتتاحي . وبما ان ردود فعل العمال تجاه انشقاق لينين النهائي عن المناشفة لم تكن ايجابية جداً ، فقد آثر كوبا التحدث اليهم بلغة التعقّل العذبة . فوعد ان البرافدا لن تعمل على تمويه الخلافات بين الاشتراكيين : « اننا نؤمن بانه لا يمكن ان توجد حركة قوية نشطة بدون خلافات – ان الاتفاق التام في الاراء لا يوجد الا في المقابر » . ان ما يجمع مختلف تيارات الحركة العمالية اكثر بكثير مما يفرّق بينهم . لذا ، فان البرافدا سوف تدعو إلى الوحدة الاشتراكية في الصراع الطبقي – « الوحدة باي ثمن » . « ومثلما ينبغي ان نناضل بلا هوادة ضد اعدائنا ، ينبغي كذلك ان نقوم ببعض التنازلات لبعضنا البعض . الحرب على اعداء الحركة العمالية ، والسلم والتعاون الاخوي داخل صفوفها » . هذا هو النص الذي نشرته الصحيفة التي ستنشهر فيما بعد بتزمتها الستاليني . في اليوم الذي صدرت فيه هذه الكلمات ، كان كاتبها قد دخل سجن بطرسبرغ . وبعد ثلاثة اشهر منه ، صدر حكم الابعاد لثلاث سنوات ، وهذه المرة الى مقاطعة « ناريم » في سيبيريا الغربية . وبعد شهرين تماماً من ذلك التاريخ ، هرب كوبا من ناريم وظهر في بطرسبرغ في الوقت المناسب لقيادة حزبه في انتخابات الدوما الرابعة .

ان الحملة الانتخابية بين العمال تمر بمراحل عدة : انتخاب الممثلين في المصانع والمحترفات ، الممثلون ينتخبون الناخبين ، والناخبون ينتخبون النواب . ولكن ، بعد ان قطعت

الانتخابات مرحلتها الاولى ، الغت السلطات النتائج الانتخابية في بعض المصانع الكبرى. فدعا كوبا الى اجتماع للجنة التنفيذية البلشفية ، واخذ يعد العدة لاعلان الإضراب احتجاجاً . فاخذت الحكومة تتعقب خطاه . طوال كل من مراحل الحملة ، كان البلاشفة والمناشفة يتنافسون علناً لكسب اصوات العمال . واقرّ مجلس ناخبي العمال في العاصمة ما كتبه كوبا من « تعليمات لنواب العمال » الشديدة الشبه بالتعليمات التي كان قد كتبها في باكو خلال الانتخابات الماضية . وورد فيها انه ينبغي على النائب العمالي ان يعمم مطالب العمال (« برنامج ١٩٠٥ بجذافيره ») ، وان يكون لسان حال الثورة في المجلس ، وان لا « يتعاطى لعبة التشريع الفارغة في الدوما القيصرية » . ان صرامة التعليمات ونجاح كوبا اثارت اعجاب لينين ، الذي الهم الحملة وتتبع اطوارها من كراكوف في بولونيا . وكان للبلاشفة القوة الاكبر بين ناخبي العمال . وفي النهاية ، نجح ثلاثة عشر اشتراكياً ديمقراطياً ، ستة منهم بلاشفة وسبعة مناشفة . الا ان كل النواب البلاشفة كانوا منتخبين من ناخبي العمال ، بينما نجح معظم البلاشفة في الدوائر الانتخابية التي تسود فيها الطبقة الوسطى . واستنتج لينين من ذلك ان الطبقة العاملة تؤيد البلشفية في صراعها العلني الاول مع الجناح المعتدل . الا ان كوبا ما لبث ، في مقالاته في البرافدا وفي مراسلاته الى « سوسيال ديمكرات » ، ان خفف بعض الشيء من تفاؤل لينين ، مشيراً الى انه في حين ينجذب العمال الى شعارات البلاشفة الجذرية ، رغم ذلك ، لا يتجاوبون مع الانشقاق العلني بين الجناحين الاشتراكيين .

ما ان انتهت الانتخابات ، في شهر تشرين الثاني ١٩١٢ ، حتى سافر كوبا لقضاء بضعة ايام في كراكوف حيث اجتمعت اللجنة المركزية للتداول في الاوضاع . فاصرّ لينين على الانفصال العلني بين النواب البلاشفة والنواب المناشفة في الدوما . كان متيقناً من ان العمال سوف يقتنعون بجدوى الانشقاق عاجلاً ام آجلاً . لكنه كان على استعداد لان يرسم بوضوح خطاً فاصلاً بين البلشفية والمنشفية حتى لو لم تحظ هذه الخطوة بكثير من التجاوب الشعبي . بعد عودته الى بطرسبرغ ، حاول كوبا تدوير زوايا سياسة لينين الحادة . ولم يكن النواب البلاشفة على استعداد لإعلان انشقاق اشتراكي داخلي امام مجلس دوما يسيطر عليه اليمين المتطرف . وشدّ ما ازعجه ان لينين اعتبر ان البرافدا ايضاً تحاول تفادي الانشقاق . ولعل لينين قد تساءل ما اذا كان القفقاسي الذي جاء به الى اوساط الحزب القيادية قد بدأ يخيّب له امله . في سيرته لحياة ستالين .. يصف تروتسكي الحادث على انه احدى المؤامرات الماكرة التي حاكها كوبا ضد معلمه . لكن لينين بالكاد نظر الى الموضوع من هذه

الزاوية . فقد اعتبره خلافاً اخرق لكنه طارىء ، وكان يأمل بان يسويه باسلوبه الذكي المرن . فدعا إلى عقد جلسة مشتركة للجنة المركزية والنـــواب البلاشفة الستة في كراكوف ، ومهد لاجراء تبديل في مجلس تحرير البرافدا ، متحاشياً الاساءة بذلـــك الى كوبا .

في نهاية كانون الاول من عام ١٩١٢ ، غادر كوبا روسيا لستة اسابيع ، هي اطول مدة قضاها في الخارج طوال حياته [١] . ان الاعمال التي قام بها في تلك الفترة القصيرة لهي ذات اهمية بالغة بالنسبة لمستقبله . سرعان ما سُوِّيت الخلافات ، ولم تترك اي اثر للمرارة بين المعلِّم وتلميذه . ونجح لينين في حث النواب الستة على اعـلان انفصالهم عن زملائهم المناشفة . ولام البرافدا على لهجتها التسووية ، وبهدوءٍ ارسل رجـــلاً يدعى يعقوب سفيردلوف إلى بطرسبرغ ليتسلم تحرير الجريدة . فور وصوله ، اقدم سفيردلوف (الرئيس المقبل للجمهورية السوفييتية) على كف يـــد مجلس التحرير ، ومن اعضائه الطالب الجامعي الشاب سكريابين مولوتوف ، ونفخ رياحاً جديدة في اشرعة البرافدا. وخفـَّف لينين من وطأة فعلته على ستالين ، فكلفه ببعض المهمات الهامة في كراكوف وفيينا .

---

(١) وصف ستالين رحلته هذه الى ا . س . اليلوييفا ، اخت زوجته . كان يسافر بدون هوية : ولم يكن يعرف احداً في البلدة الصغيرة الواقعة على الحدود بين بولونيا الروسية وبولونيا النمساوية ، الا انه تعرف ، عن طريق الصدفة الى رجل فقير من سكانها :

تحدثا طوال الطريق ... وكان البولوني يعمل حذاء ... ولما بلغا بيته ، دعا ضيفه الى الاستراحة وتناول وجبة طعام ... كان طيب القلب ، متحفظاً ، فلم يسأل الا ما اذا كان ضيفه قد جاء من مكان بعيد .

«من بعيد» اجاب ستالين . وتلفت الى كرسي الحذاء وادواته في الزاوية : « ابي كان حذاء ايضاً ، هناك في وطني جيورجيا » . « في جيورجيا » ، ردد البولوني . « انت جيورجي اذاً ؟ سمعت عن بلدكم ، جميل هو — جبال وكروم . ومليء بجنود القيصر مثل بولونيا . »

« نعم ، تماماً مثل بولونيا » ، اجاب ستالين ، « لا توجد مدارس تعلم بلغتنا الاصلية ، لكن يوجـــد العديد من الشرطيين » فنظر واحدهما الى الآخر . وتساءل ستالين بينه وبين نفسه : « هل اثق به ؟». ولما استقر فكره على رأي ، قال له : « يجب ان اعبر الحدود اليوم » .

فلم يطرح الرجل اية اسئلة اخرى . قال : « حسناً . ساعبرك الحـــدود . اني اعرف الطريق ... » . عند الحدود ، اراد ستالين ان يدفع له بعضاً من المال ... الا ان الدليل ازاح له يده : « لا » ، قال بحزم ، « لا تفعل ذلك ... نحن ابناء قوميات مضطهدة ويجب ان نتساعد ». — ا.س . اليلوييفا ، فوسبومينانيا ، ص ١٨٥ — ١٨٧

ولا شك في ان لينين اراد التعرّف بشيء من التفصيل الى تلميذه . ما هو تركيبه الذهني ؛ ما مدى امتلاكه للعقيدة الماركسية ؟ اين مكمن القوة والضعف فيه ؟ كان لينين خبيراً بالرجال ، وله أسلوب أشبه ما يكون بالاسلوب السقراطي في التّقرب منهم . ولا شك في انه سأل كوبا ، بادىء بدء ، حول امور شتّى : سياق الانتخابات في بطرسبرغ ، وضع التنظيم السري ، الاجناس والقوميات في القفقاس ، وما إلى ذلك . ويحق لنا ان نخمّن ان الامتحان لم يكن بالغ الحذلقة . فالارجح ان الفاحص اكتشف بسرعة محدودية تلميذه . لكن أرتاح لنتيجة الامتحان . فبالرغم من ان الشاب ، وكان كوبا قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره - ليس مفكراً مستقلاً ، إلا أنه منفتح ، وذكي ، ويملك معرفة واسعة بالامور المهمة عملياً . فهو مثلاً على اطلاع واسع على قضايا القوميات القفقاسية المعقّدة . وسرعان ما أخذت الاحاديث بين الرجلين تدور حول هذا المحور . كان لينين قد كوّن بعض الاراء حول المسألة ، بينما عمد كوبا ، بالاعتماد على تجربته الخاصة ، إلى تعبئة الاطر العامة التي صاغها المعلّم ببعض المضمون .

وفي سياق احد النقاشات ، عرض لينين على كوبا ان يكتب دراسة عن الموضوع لنشرها في « بروسفيشيناي » (الاشعاع) ، مجلة الحزب السوسيولوجية .

كان العرض مغرياً ، فلم يسبق لكوبا ان تجرأ على خوض ميدان النظرية المتقدمة . لكن مسألة القوميات أعقد بكثير من مسألة ذلك الخليط من الاجناس الذي يعرفه القفقاس . فهنا في كراكوف ، عاصمة بولونيا العائشة في القرون الوسطى ، مدينة الملوك والشعراء ، يستحيل التغاضي عن اماني البولونيين القومية . فعلى قاب قوسين من منزل لينين ، كان بيلسودسكي يهيء كوادر جيشه لاعلان الثورة على روسيا . يقول لينين :

« ان البولونيين يكرهون روسيا ، وليس بدون سبب . ولا يسعنا إغفال قوة شعورهم القومي . ينبغي على ثورتنا ان تعاملهم برفق شديد ، إلى حد السماح لهم بالانفصال عن روسيا ، اذا أقتضى الامر ذلك » .

ثم هناك العلاقات المعقدة بين مختلف الاجناس والقوميات في الامبراطورية النمساوية- الهنغارية : المجريون ، الالمان ، التشيكيون والسلافيون الجنوبيون . وكان الاشتراكيون النمساويون قد وضعوا برنامجاً لهذه القوميات . فيجدر المقارنة بين سياسة البلاشفة وسياسة هؤلاء الاشتراكيين النمساويين . ولعل لينين أوحى لتلميذه ، دونما

مساس بعزة نفسه ، بمنهج الدراسة ، وحجتها الاساسية ، واستنتاجاتها . وتطلب انجاز الدراسة بضعة اسابيع من العمل ؛ وفيينا ، عاصمة امبراطورية آل هابسبرغ المتعددة القوميات ، افضل مكان لكتابتها . على كل حال ، كان يجب إرسال مندوب عن اللجنة المركزية إلى فيينا لمعالجة بعض الامور الفنية ، كطبع قرارات الحزب وتدبير أمور البريد الحزبي من باريس إلى كراكوف ، فقرر كوبا ان يقتل عصفورين بحجر واحد . هذا هو أصل الدراسة المعنونة : « الحركة الاشتراكية الديمقراطية وقضايا القوميات » ، التي صدرت بتوقيع ك . ستالين (الرجل الفولاذي) . وهذه هي الدراسة التي اشاعت عنه سمعة كونه خبيراً بالموضوع ، وهي من الاسباب الرئيسية التي حدت بلينين ، بعد خمس سنوات من ذلك ،إلى تعيينه مفوضاً للقوميات في حكومته .

لبث كوبا في كراكوف قرابة الاسبوعين ، بعد ان غادرها النواب واعضاء اللجنة المركزية الآخرون . ولعله تأمل ، وهو جالس قرب لينين ، في اتهامه السابق للمهاجرين بالـ « ابتعاد عن الواقع الروسي » . أي نوع من الرجال هو لينين ، على كل حال ؟ لم يكن بدٌ ان يتفحّص التلميذُ معلمه . ولم يبدُ له لينين بعيداً عن الواقع الروسي على الاطلاق . فهو يملك معرفة بالواقع تثير الدهشة ،ولا تفوته أي من الامور الجوهرية في أي وضع من أوضاع البلد . كانت معرفته الوثيقة لاسلوب عمل التنظيم السري مدعاة دهشة اكثر البلاشفة اختباراً ومعرفة بالشؤون المحلية . اما سيطرته على الرجال فمذهلة . لقد بلغ الاربعين من العمر ؛ وقد شحذت التجربة حكمه وارادته ، فاندمجا اندماجاً كاملاً في شخصية ناضجة متزنة . ولم يكن ليزاحمه احد على رئاسة الجهاز الثوري بين الرجال اللامعين الذين قادوا الاشتراكية الروسية . ولا شك في ان هذه الصفة من صفات لينين قد استهوت كوبا — ستالين اكثر من غيرها . ولكن ، لماذا كان هذا الرجل العملي يهدر نشاطه في ملاسنات تيارية ومماحكات عقائدية ؟ ما الذي يدفع هذا القائد الاصيل للجهاز السري الى الخوض في خلافات مريرة غير مجدية ، كالتي دارت بينه وبين فلاسفة جزيرة كابري ؟

كان كوبا — ستالين ، مثله مثل الغالبية العظمى من المناضلين البلاشفة ، ملماً بما فيه الكفاية بالتقاليد الفكرية الماركسية بحيث لا تفوته الدلالات السياسية للخلاف الفلسفي. ليس من شك في ان النظرة الماركسية احادية Monitsic. ففيها يندمج العلم الطبيعي ، والفلسفة ، وعلم الاجتماع ، والسياسة في نظام واحد من الافكار . على ان اهتمام المناضلين

العمليين من امثال ستالين في امور الفلسفة والنظرية محدود جداً . فهم يتبنّون بعض الصيغ السياسية من الفلسفة الماركسية ، كما نقلها اليهم مصمّمو العقيدة ، لما توّفره من جهد في المجال الفكري والسياسي . إذ ان هذه الصيغ مداخل ممتازة لحل اعقد المشكلات – وليس ادعى الى الاطمئنان بالنسبة لانصاف المثقفين من امتلاك مثل هذه المداخل . وكان انصاف المثقفين هؤلاء ، الذين تجنّد الحركة الاشتراكية بعض كوادرها المتوسطة منهم ، يستخدمون الماركسية كوسيلة لاختزال الجهد الذهني ، فهي سهلة الاستعمال ورائعة في فعاليتها . فيكفي ان يضغط المرء على زرّ هنا لتخرج له فكرة ما ، ويضغط على زرّ هناك لتخرج فكرة اخرى . ان الذي يستخدم هذه الحيل الموّفرة للجهد ، نادراً ما يفكر في الابحاث الشاقة التي سبقت ولادتها . ولا تطرأ على باله الدراسة المنّزهة ، غير العملية ظاهرياً ، التي قد تؤدي الى تجاوز احدى هذه الحيل . وربما كان من الطبيعي ان يعامل مالكو هذه الحيل الفكرية الماركسية ملكيتهم بهذه الطريقة النفعية الضيقة . ولكن لينين ، على عكس معظم اتباعه ، كان اشبه بالتلميذ الناقد في مختبر الفكر . فهو يوجه نتائج ابحاثه ، في نهاية الامر ، لخدمة اغراض سياسية ، على ان هذه النتائج لم تزعزع قناعاته الماركسية ، باي حال من الاحوال . كان يخوض غمار البحث والتنقيب بذهن منّزه منفتح . وعندما تبرز امامه ضرورة ملء فجوة هامة في معرفته ، فهو لا يتردد في الانقطاع لسنة بكاملها عن السياسة العملية ، فليقبع في المتحف البريطاني او في المكتبة الوطنية الفرنسية ، ويجمع ثروة من المواد ، قبل ان يبدي رأيه بقضية تحتمل الاخذ والردّ في مثل هذه المناسبات ، كان ينفذ صبر امثال ستالين من مستعملي الحيل الماركسية من المفكّر المدقق . ولم يكن لينين العالم ليأبه بتذمرهم ، لكن لينين القائد الحزبي كان يهتّم بها . ومن الجهة الثانية ، كان التلامذة يكتمون انزعاجهم من المنظّر بسبب ثقتهم المطلقة بالقائد الحزبي . وما من شك في ان حاجزاً فكرياً انتصب بين لينين وتلميذه عندما التقيا في كراكوف . وحاول لينين ازالة هذا الحاجز بتشجيع زميله الشاب على معالجة موضوع اساسي من موضوعات النظرية السياسية . فهو ليس مفكر الحزب وقائده وحسب ، بل وايضاً المعلم الحاذق النبيه الذي يقدر الظروف الصعبة التي فعلت فعلها في بلورة شخصية تلميذه . ولم تردعه خشونة هذا التلميذ العقلية من مساعدته على ابراز افضل خصائله .

في النصف الاخير من كانون الثاني ، ١٩١٣ ، سافر كوبا الى فيينا . ومكث هناك

قرابة الشهر ، كتب خلاله دراسته عن الاقليات ، وبعض المقالات والبيانات الاخرى ، وأمّن الاتصال الفني بين مختلف المراكز البلشفية . وهنـــاك ايضاً ، قابل بعض المنفيين البارزين : نيقولاي بوخارين ، الرئيس المقبل للاممية الشيوعية ؛ ألسكندر ترويانوفسكي ، السفير السوفييتي اللاحق في الولايات المتحدة ؛ وليون تروتسكي . بوخارين ، وهو لا يزال في العشرينات من عمره ، آخـذ بالبروز كبحّاثة موهوب . وهو يُعد دراسة نقدية عن المدرسة الاقتصادية للفائدة الحدّية Marginal utility في فيينا ، ومن ابرز ممثليها البروفسور بوهم – باويرك . ولا شك ان الشاب لعب دور الدليل للقفقاسي الخشن ، وقد شعر بالغربة في العاصمة النمساوية بسبب ضعف لغته الالمانية . ولعل بوخارين ساعده على نبش الكتب والنصوص التي يحتاجها . وكان بوخارين على خلاف مع لينين حول نقاط حساسة من النظرية والسياسة الماركسيتَين ، بما في ذلك مسألة القوميات . ففي حين يدعو لينين الى حق تقرير المصير ، ويفسّره على انه حق البولونيين والاوكرانيين والليثوانيين وغيرهم في الانفصال عن الامبراطورية الروسيـــة والعيش كأمم مستقلة ؛ كان بوخارين يخالف هذا الرأي ويرى فيه تنازلاً لا طائل تحته للقوميات البولونية والاوكرانية وغيرهما. فهو يعتقد بأن الثورة سوف تتخطى الانقسامات القومية الراهنـــة . إلا ان موقف بوخارين لم يترك اثراً في دراسة ستالين ، التي كانت لينينية جملةً وتفصيلا . لكن يبدو ان الرجلين افترقا وهم على علاقة وديـــة . وكان اجتماعهما هذا في فيينا مقدمة لشراكة سياسية وثيقة انعقدت بينهما بعد عشرين سنة ، وانتهت بتحطيم ستالين لبوخارين .

ولم يترك لنا تروتسكي ولا ستالين وصفاً لاجتماعهما في فيينا . فتروتسكي لا يتذكر منه إلا « شرر العداء » المتطاير من « عيون ستالين الصفراء » . وليس في هذا « العداء » ما يثير الدهشة . فمنذ بضع سنوات ، تعدى تروتسكي على ستالين دون ان يدري ، عندمـــا ادان الفرق المسلحة . لم تختفِ النقمة القديمة ، بل اضيفت اليها نقمة جديدة . كانت حملة تروتسكي ضد انشقاق لينين نهائياً عن المناشفة قد بلغت ذُروتها . في آرائه حول مهـــام الثورة ،لم يكن تروتسكي منشفياً ولا بلشفياً . فهو لا يشاطر المناشفة جنوحهم نحو ليبرالية الطبقـــة الوسطى . ولا يشاطر رأي لينين القائل بأن الثورة لن تكون ذات طابـــع اشتراكي . وبشّر ، ضد الجناحين معـــاً ، الى قيام دكتاتورية البروليتاريا في روسيا ، وتوقع انتقال الثورة السريع من الطور المعادي للاقطاع الى الطور المعادي للرأسمالية ، أو بالاحرى اندماج الطورَين في سياق الاحداث . ولكن ، بما ان « روسيا ليست ناضجة

للاشتراكية » ، فان خلاصها رهن بقيام الانتفاضة الاوروبية . ان الثورة الروسية سوف تؤدي الى اندلاع الثورة في سائر انحاء اوروبا ، الناضجة للتحويل الاشتراكي . هـذه هي ، باختصار شديد ، نظريته عن « الثورة الدائمة » ، التي تضعه ، لأكثر من سبب ، الى يسار البلاشفة والمناشفة معاً . ولكن بالنسبة للخلاف داخل الحزب ، اتخذ تروتسكي موقفاً وسطاً بين الجناحين ، إذ بشّر بوحدة جميع الاشتراكيين . وكان كل هجومه السجالي موجهاً آنذاك ضد لينين ، لأن لينين هو الذي نبذ صراحةً فكرة الوحدة ، وشقّ الحزب عن قصد . وأدان تروتسكي مؤتمر براغ على انه « خداع واغتصاب » . مع ان الفضل في ارتقاء ستالين في التسلسل الهرمي البلشفي يعود الى هذا « الاغتصاب » بالذات .

ولكن لم يختلف خصما المستقبل على امور مبدئية فقط . وها هو تروتسكي يتعرض للمرة الثانية ، ودونما علم منه ، لمكانة كوبا الشخصية في التنظيم السري . وكما في المأساة الاغريقية ، كان ثمة خيط من التتابع القَدَري في الظروف والصدف الـتي خلقت اول عناصر النزاع قبـل مدة طويلة من ان تبدأ الدراما الحقيقية . ان ستالين مسئول عن صحيفة البرافدا البلشفية في بطرسبرغ . وصب تروتسكي كل هجومـه على « انفصالية » لينين على صفحات صحيفة البرافدا التي يصدرها هو في فيينا . وخلال انتخابات الدوما ، كان تروتسكي يمد صحيفة « دعاة التصفية » المناشفة في بطرسبرغ بمقالاته . وقبل ان يسافر ستالين الى فيينا ، كتب في برافدا الصادرة ببطرسبرغ ملخصـاً نتائج الانتخابات ، فقال :

« ان السياق العملي للحركة قد بدّد خطة تروتسكي الصبيانية الراميـة الى دمج ما لا يمكن دمجه .... لقد تحول تروتسـكي من داعية للوحدة الخيالية الى مساعد لـ « دعاة التصفية » .... ان تروتسكي قد بذل كل ما في وسعه لكي يكون ثمة صحيفتان متنافستان ، وبرنامجان متعارضان ، ومؤتمران متضاربان — والآن ، ها هو هذا البطل ذو العضلات الزائفـة يروم اغراءنا باغنيته عن الوحدة » .

وفي رسالة الى « السوسيال ديمكرات » بتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩١٣ ، ظهر توقيع ستالين تحتها لأول مرة ، كتب يقول :

« يقال ان تروتسكي ، بدعوته الى « الوحدة » ، قد بث روحاً جديدة في اوساط « دعاة التصفية » . هذا القول عار عن الصحة . فبغضّ النظر عن كل جهوده « البطولية » و « تهديداته المروعة » ، برهن تروتسكي على انه بطل ثرثار مبتذل ذو عضلات زائفة ؛ فبعد مضي خمس سنوات على « جهوده »، لم يتمكن من توحيد احد غير دعاة التصفية » .

بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ ، سوف يحيي البلاشفةُ تروتسكي كقائد للثورة ليس ابرز منه فيها إلا لينين ، وكمؤسس الجيش الاحمر ، وكمنظم النصر في الحرب الاهلية . لكن فكرة الاستهزاء من « البطل الثرثار ذي العضلات الزائفة » سوف تراود ذهن ستالين تكراراً . ذلك انه ، على الرغم من فظاظة عبارته ، قد عيَّن بوضوح مكمن الضعف في تروتسكي — تقصيره في مجال المناورة واللعبة التكتيكية التي سوف يبرهن ستالين على انه سيّد اسيادها . ومن الجهة الثانية ، فالارجح ان تروتسكي قد راقب بفضول هذا العضو المغمور في لجنة لينين المركزية الجديدة . ولم يكن في هذا الرجل الفظ الذي يتكلم لغة روسية هزيلة ، بلكنة جيورجية واضحة ، ولا يساهم بأية فكرة مبتكرة في النقاش ، ما يبهر المفكّر والاديب المتعجرف . وقد فاته بالتأكيد ان يلاحظ الحس العملي الخارق والارادة الصلبة عند محادثه المغمور . ولعله تمتم لنفسه : « يا للاناس التافهين الخاملين الذين يختلط بهم لينين حالياً » . وبعد فترة وجيزة من ذلك، كتب الى شخايدزه ، قائد المناشفة في الدوما (شخايدزه نفسه الذي اتهم كوبا عام١٩٠١ في باطوم بأنه « مجنون » و « مخرِّب ») ، فقال :

« يا لها من هوس تافه هذه المماحكة البائسة التي يثيرها بانتظام سيّدُ المماحكين ، لينين ... هذا الذي حترف استغلال تخلف الحركة العمالية الروسية ... » .

ولعل ستالين ، في نظر تروتسكي ، نموذج عن هذا « التخلف » .

في منتصف شهر شباط ، كان ستالين في طريق العودة . ان معنوياته مرتفعة . فقد حظيت دراسته عن الاقليات باعجاب لينين الشديد . ومن شبه المؤكد ان لينين قد شذب المقالة من الزوائد الاسلوبية والمنطقية التي لا بد وان النص الاصلي يعجّ بها .

لكنه لم يسعه إلا ان يُعجَب بمهـارة تلميذه الذي غطى كل مفارقات القوميات الاوروبية الشرقية ، عارضاً كمية ضخمة من المعلومات ، ومتوّجـاً تحليله بعرض مكثف وواضح للبرنامج البلشفي . وفي احدى رسائله الى غوركي ، يتحدث لينين ، بشيء من الافتخار بتلميذه ، عن عمل « الجيورجي الرائع » . لقـد تلاشى الانزعاج الناتج عن الحزازات القديمة ؛ وها ان لينين مسرور جداً برؤية تلميذه يسير في طريقه لأن يصبح منظّـرا . وكان هذا الطموح قد راود كوبا سراً لمدة طويلة خلت . ولعدم توّفر الفرصة لاشباع هذا الطموح ، كان يسره احياناً ان يخفي كتبه بمحاولة الظهور كرجل عملي ضيق الافق . اما الآن ، فباستطاعته نزع هذا القناع . لقد عزز الامتيازُ الفكري مكانتَه الرسمية في الحزب .

بعد اسبوع من عودته الى بطرسبرغ ، في ٢٣ شباط ، قطعت الشرطة السرية عليه نشاطه . وقد ادى اعتقاله هذه المرة الى نفيه لمدة اربع سنوات كاملة . ان ظروف اعتقاله مروعة حقاً . فقد وشى به الى الاوخرانا زميله في اللجنة المركزية ، مالينوفسكي ، النائب البلشفي عن موسكو . ان هذا الجاسوس قد ابلغ بيليتسكي ، رئيس الشرطـة السرية ، بكل تفاصيل مؤتمر كراكوف ، وتولى هـذا نقل المعلومات بدوره الى وزير الداخلية ، ماكاروف . فنُصِبت الاشراك لأعضاء اللجنة المركزية العائدين . في يوم اعتقـاله ، حضر ستالين حفلة موسيقية بريئة نظمها البلاشفة باذن من الشرطة — وهي واحدة من عدة نشاطات ثقافية شرعية يلجأ اليها الحزب ليظل على اتصال دائم بانصاره. وبدون ان يرتاب بشيء ،سأل ستالين مالينوفسكي ما إذا كان حضوره ينطوي على المجازفة . فطمأنه الجاسوس ، وأبلغ الاوخرانا فوراً بالنبأ . ولما احس رفاق ستالين بالخطر المحيق ، حاولوا اخراجه من الـكمين المنصوب له بأن ألبسوه معطفاً نسائياً لتضليل جواسيس الاوخرانا . إلا ان خطتهم باءت بالفشل .

واكتأب لينين للنبأ ، لكنه كان يأمل باخراج ستالين من السجن سريعاً . ولم يكن الرجل الذي كلّف بتهيئة عملية الهرب الا مالينوفسكي نفسه . فعلاوة عن كونه عضواً في اللجنة المركزية ، ينتمي الى هيئة صغيرة مكلّفة بالقضاء على الجواسيس وبتنظيم عمليات الهرب الكبيرة . ويشترك لينين وكروبسكايا ومالينوفسكي في وضـع الشيفرات المعقدة للنشاط السري ، وابتكار الاسماء المستعارة وما شابه . وهكذا ، طلب لينين من « العضو

رقم ٣ » ان يعمل على اخراج «فاسيل» من السجن . لكن «العضو رقم ٣» (مالينوفسكي) طلب ان يشدِّد دَرَكيو تورخانسك ، المقاطعة السيبيرية الشمالية ، الحراسة على «فاسيل» (ستالين) ، وان يبعدوه شمالاً الى منطقة التوندرا شبه القطبية . وغمر اليأس لينين ، فجميع معاونيه الهامين – وبينهم يعقوب سفردلوف ، رئيس تحرير البرافدا – قد اختفوا بالطريقة عينها . لكنه رفض الظن بمالينوفسكي ، على الرغم من ان المناشفة قد اعلنوا ارتيابهم به تكراراً . وفيما بعد ، قدّم مالينوفسكي استقالته من الدوما تلبية لرغبة رئيس الاوخرانا الجديد الذي كان يريد اتقاء فضيحة ممكنة . وعلم رودزيانكو ، رئيس الدوما الليبرالي ، بالامر ، لكنه اخفاه عن اعضاء الدوما . وحتى بعد استقالة مالينوفسكي، أصر لينين على رفض الشك في نزاهته ، وطرده من الحزب بسبب خرقه الانضباط الحزبي لا غير . ولم تبرز الحقيقة المذهلة إلا عام ١٩١٧ ، عندما وضع البلاشفة يدهم على ارشيف الاوخرانا .

بعد اعتقاله بما يزيد عن العام،أي في آذار من عام ١٩١٤ ، نُقِل ستالين الى مستعمرة « كورايكا» في منخفضات منطقة «ينيساي» . وفيها ما يربو عن العشرة آلاف مستوطن، موزعين على ارض بحجم اسكتلندا . وهم يعيشون في قرى صغيرة ، تفصل الواحدة منها عن الاخرى عشرات بل مئات من الاميال في صحراء جليدية مترامية الاطراف . هناك يستغرق الشتاء ثمانية أو تسعة شهور ، والصيف قصير وحار وجاف . خلاله ، يسكن الاهالي – الاوستياك – خيماً مصنوعة من جلد الغزال ؛ وينكفئون في الشتاء الى مساكن نصفها اكواخ ونصفها الآخر مغاور . الارض مغطاة بالجليد ، لا تدرّ أي غذاء . ويعيش الاوستياك على الصيد والقنص ، ويلجأون الى الفراء والفودكا طلباً للدفء . فقط بعد الشروع بتنفيذ الخطط الخمسية ، اخذت تتحسن موارد رزقهم بفضل الآلة والوسائل الزراعية الحديثة . أما في ايام منفى ستالين ، كانت الارض قفراً موحشا .

وصمدت صحة المنفي ، الذي نشأ في القفقاس شبه الاستوائي ، في وجه الامتحان المناخي القاسي . وجاءت الكتب والصحف ، التي يبعث بها الاصدقاء والتي يحملها ساعي بريد غير منتظم يجيىء مرة كل بضعة اشهر ، لتخفف من وطأة التوحد والخمول . في

البدء ، سكن محررا البرافدا السابقان ، ستالين وسفيردلوف ، في غرفة واحدة . ويصف سفيردلوف حياتهما المشتركة على النحو التالي :

« نحن اثنان هنا ، ذلك اني اسكن غرفة واحدة مع الجيورجي دجوغا شفيللي . انه شاب طيب ، لكنه فردي جداً في حياته اليومية . هذا في حين يصعب علي العيش بدون بعض من مظاهر الترتيب على الاقل . وهذا مصدر توتري العصبي في بعض الاحيان .... والاسوأ من ذلك ، ان لا مفر من عائلة صاحب البيت . فغرفتنا ملاصقة لغرفتهم ، وليس لها مدخل مستقل . ويقضي اولادهم ساعات طويلة بيننا . وهم يعرقلون اعمالنا احياناً . وعلاوة على ذلك ، يأتي سكان المستعمرة لزيارتنا . فيدخل احدهم الغرفة ، ويجلس ، ويلازم الصمت مدة نصف ساعة . ثم ينتصب فجأة قائلاً : « عليّ ان اذهب الآن ، السلام عليكم » . وما ان يخرج ، حتى يدخل آخر ، ويلعب نفس الدور ، وهكذا دواليك . وهم لا يأتون إلا مساءً ، افضل وقت للمطالعة ، كأنما يفعلون ذلك عن قصد ... بما انه لا يوجد « كاز » عندنا ، تجدنا مضطرين للقراءة على ضوء الشموع .... ».

ويبدو ان الامور لم تسر على ما يرام بين الرجلين ، وسرعان ما نُقِل سفيردلوف الى مستعمرة اخرى ، فظل ستالين لوحده يقتنص ويصطاد ويطالع طوال السنوات الباقية . في البدء ، لازمته فكرة الهرب ، لكنها تلاشت تدريجياً عندما شُددت الحراسة عليه ، وما لبثت ان تبخّرت نهائياً مع اندلاع الحرب – فمع اعلان الاحكام العرفية في روسيا ، فضّل المنفيون ملازمة اماكنهم . وفي البدء ايضاً ، تابع ستالين دراسته للاقليات القومية . وكتب مقالة عنها بعث بها الى لينين عن طريق اليلوييف الثمين الذي كان لا يزال يسكن بطرسبرغ . لكنها لم تُنشر : فإما انها ضاعت على الطريق ، وإما انها كانت دون مستوى المقالة السابقة ، فلم ترق للينين . ولم يكتب غيرها طوال المدة المتبقية له في كورايكا . وثمة بون في « مؤلفاته الكاملة » بين شباط ١٩١٣ وآذار ١٩١٧ ، يحاول الناشرون تفسيره بقولهم انه « لم يعثر بعد » على كتابات ستالين في تلك الفترة . وبما ان الثورة هي التي اطلقت سراح ستالين من المنفى ، وبما انه لا يعقل ان تكون الاوخرانا قد اتلفت هذه الكتابات ، لا يبدو هذا التفسير معقولاً . فالارجح انه لم يكتب

شيئاً نظراً لانقطاعه عن النشاط العملي . فهو احد مناضلي الثورة ، لكنه ليس من ادبائها .

ترامى اليه نبأ اندلاع الحرب العالمية الاولى وهو قابع في وحدته بكورايكا . ومع ان الحدث لم يكن رمية من غير رام ، إلا انه زرع البلبلة في صفوف الاشتراكيين الروس والاوروبيين على حد سواء . ففي السنوات الماضية ، وجهت المؤتمرات الاشتراكية الاممية نداءات الى الطبقة العاملة العالمية تندّد فيها بالعسكرية ، لكن قلة ضئيلة من القادة كانت مقتنعة بأن الحرب وشيكة الحدوث فعلاً . وطوال العامين اللذين سبقا الحرب ، كان لينين منغمساً في قضايا الاجنحة المتصارعة ، بحيث انه بالكاد كتب شيئاً يُستدل منه وعيه لخطرها . ولما اندلعت الحرب ، صعقه سلوك الاشتراكية الاوروبية . ولم يصدّق عينيه عندما قرأ في الصحف السويسرية ان النواب الاشتراكيين الالمان قد أيدوا حرب القيصر ؛ واعتبر التقرير ، بادىء بدء ، خدعة من قيادة اركان الجيش الالماني لجر الطبقة العاملة الى تأييد المجهود الحربي . فايمانه بقوة الاممية الاشتراكية عظيم ، على بساطته . وخارت عزيمته لفترة وجيزة راودته خلالها فكرة التخلي عن العمل السياسي كله . لكنه ما لبث ان استجمع قواه ، وقرر « اعلان الحرب على الحرب » . وبما انه لم يكن داعية سلم ، فقد رد على الحرب بالثورة . فانقض على التروستات والكارتيلات والمصارف يحملها المسئولية الفعلية في اعلان الحرب ، وأدان الهدنة الوطنية بين الطبقات التي دعا اليها معظم الاشتراكيين في البلدان المتحاربة ، رافعاً شعار : « حوّلوا الحرب الاستعمارية الى حرب اهلية » . ولم تردعه التهمة القائلة ان إشعال الثورة قد يجرّ البلد الى هزيمة عسكرية ، بل وصف نفسه صراحةً بأنه انهزامي ثوري . واعتبر ان هزيمة القيصرية هي بين الشرور ارحمها ؛ وبما انها سوف تعجّل بالثورة ، فمرحباً بها . ومهما يكن من أمر ، فان جميع احزاب المعارضة ، ومن ضمنها ليبراليو الطبقة الوسطى ، قد اتخذت موقفاً انهزامياً من الحرب الروسية اليابانية ، قبل ذلك بعشر سنوات . وخطا خطوة اخرى الى امام عندما رفض التعاون مع الاشتراكيين الذين لا يشاطرونه رأيه . لا وحدة مع القادة العماليين الذين يحشون مدافع قيادات اركان الجيوش الاوروبية . فهم بنظره خونة للاشتراكية ؛ والتعاون معهم خيانة ليس إلا . لقد انتهت الاممية (الاشتراكية) الثانية — ولم يبقَ إلا العمل من جديد لبناء الاممية الثالثة من الاساس .

وكما حدث احياناً في الماضي ، نجد لينين يمشي بسرعة تفوق بكثير سرعة معظم تلامذته وأتباعه . هذا لا يعني ان موجة شوفينية الحرب قد جرفتهم معهـا هم ايضاً . فالواقع انهم ظلوا امينين لآرائهم المعادية للعسكرية وعارضوا الحرب . ولكن بدا لهم ان لينين قد ضخم الامر الى درجة خطرة . وقد ارتكبوا حيال الحاح لينين وزينوفييف على ابراز آرائهم الانهزامية في كتاباتهم بسويسرا .وحوالي ذلك الوقت، كان تروتسكي يدعو من باريس لشعار : « لا هزيمة ولا انتصار » ، بل الثورة ؛ ورأى العديد من البلاشفة ان ذلك اكثر معقولية من شعار لينين . وقد صعقتهم دعوة لينين الى الانفصال عن الاممية الثـانية بأسرها ، وهم الذين اعتادوا التطلع اليها كتجسيد لكل الاحلام والامـاني الاشتراكية . بين الاشتراكيين الذين يؤيدون الحـرب (اي « الاشتراكيون الوطنيون » او « الدفاعيون ») وبين الذين يعارضونها ، كان ثمة كتلة كبيرة يتمثل فيها الرأي العـام الاشتراكي المتذبذب ، الذي خاب امله بأفعال « الاشتراكيين الوطنيين » لكنه متردد في القبول بالانشقاق الحاسم .

وخشي معظم القادة البلاشفة في داخل روسيا ان يؤدي تبنّيهم الصريـح لسياسات لينين الى انعزالهم عن هذه الكتلة الكبيرة رغم تذبذبهـا . في بداية الحرب ، اعتقلت الحكومة القيصرية النواب البلاشفة في الدوما ، وأودعتهم السجن ، ووجهت اليهم تهمـة الخيانة العظمى . ومن جملة من قُدِّم الى المحـاكمة كامنييف ، المشرف على توجيه سياستهم ومحرر البرافدا بعد اعتقال ستالين وابعاده . واستخدم الادعـاء كتابات لينين الانهزامية كأدلة ضد المتهمين . فسارع كامنييف وبعض النواب على التنصل من لينين ، من جهة لأنهم يعارضون انهزاميته ، ومن جهة اخرى ، لحرصهم على صد هجمات الادعاء العام . وأُبعِد النواب وكامنييف الى سيبيريا ، الى مستعمرات مقاطعـة ينيساي . وأثار وصولهم موجة من النقاشات المرتبكة الغاضبة بين المبعَدين . فاتهمهم اتباع لينين من الانهزاميين بالافتقار الى المبدأ السياسي ، وبالسلوك المشين امام المحكمة . وكان المنفيون يقطعون مئات الاميال على زحافات يجرها الكلاب أو الغزلان للوصول الى مراكز الاجتماع في احدى المستعمرات حيث تجري المداولات . وقد حضر ستالين بعضاً من هذه الاجتماعات . وليس معروفاً ما الذي قاله هناك، والى أي فريق انحاز . يدّعي كتّـاب سيرته الرسميون انه كان المتحدث الرئيسي باسم الانهزاميين الثوريين — إذ ان طقوس الحنبلية الستالينية تحرّم الاعتراف بانه يجوز ان يكون بطلهم قد اتخذ موقفاً مغايراً لموقف لينين في مناسبة من المناسبات . ومن

جهة ثانيـــة ، نجد الاصرار عينه ، عند كتاب سيرته المعادين للستالينية ، على القول ان موقف ستالين كان مغايراً لموقف لينين . والارجح ان ستالين قد وقف على الحياد ، ما دام هذا هو الموقف الذي نجده متمسكاً بـــه عام ١٩١٧ ، فور عودته الى بطرسبرغ .

ومهما يكن من أمر ، فالخلاف لم يثِر اهتمامه الى درجـــة كبيرة . فهو يبعد آلاف الاميال عن مسرح السياسة العملية ، وليس من عادته ان يسعى وراء المبادىء لنفسها ، دونما أي امل بتطبيقها الفوري . ان المنفيين الاكثر حماساً منه ، أو الذين يميلون الى الفكر التأملي قد هاجوا وماجوا وحاججوا و كتبوا الدراسات والاطروحات طوال ثلاثة أشتية قارّية طويلة . أما ستالين فازداد بعداً عنهم ، حتى انكفأ اخيراً على نفسه في وحدة شارفت حدود الترهّب .

* * *

ليس بوسعنا التحدث مطولاً عن حياة ستالين الخاصة ، رغم انـــه بلغ الآن منتصف الثلاثينات من عمره . وقد امتنع هو نفسه ، في وقت لاحق ، عن القاء أي ضوء عليها . وبالاضافة الى ذلك ، فان حياة الثوري المحترف بالكاد تفسح مجالاً لقيام « حياة خاصة » . تزوج في شبابه من ايكاترينا سفانيدزه ، اخت احد زملائه الاشتراكيين في كلية تيفليس الكهنوتية . وقد توفيت خلال الثورة الاولى ، تاركةً له ولداً تولى جدّاه امر تربيته . ولم يتزوج ستالين مرة ثانية إلا عـــام ١٩١٨ . لكنه كان منذ ذلك الحين على علاقة صداقة وثيقة بعائلة سيرغو اليلوييف ، حمـــاه المقبل ؛ وغالبـــاً ما كان آل اليلوييف يعتنون بشؤونه . فهم الذين أرسلوا له طرود الاطعمة والثياب والكتب خلال مدة نفيه .

ولا شك في ان بعضاً من المرارة تسلل الى حياته المتوحدة في ينيساي . يبدو ان القضية التي كرّس حياته لأجلها قد أُخمِدت . وهو إذ يلتفت الى السنوات العديدة التي قضاها في النضال السري ، لا يجد في نتائجها ما يبعث على الارتياح الشديد . ان حياته الخاصة فارغة ، مكبوتة . وقد عبّر عن توحده في رسالة الى اولغا افغيفنا اليلوييفا ، حمـــاته المقبلة . وهي ، بالمناسبة ، الرسالة الخاصة الوحيدة غـــير السياسية التي نعرفها لستالين .

ويشكر فيها آل اليلوييف على الرزم التي ارسلوها اليه ، طالبـاً منهم ان لا ينفقوا مزيداً من المال عليه ، لأنهم بحاجة اليه . فكل ما يريده بطاقات بريدية مصورة ، لأن الطبيعة حيث هو ، في ينيساي ، « ببشاعتها المملـة » ، لا تقدم شيئاً للعين باستثناء التوندرا الجليدية اللامتناهية :

« في هذا البلد اللعين ... امتلكني حنين سخيف لأن اشاهد بعض المناظر الطبيعية ، حتى ولو كانت على الورق » .

●

الفصل الخامس

سنة ١٩١٧

ستالين غير صالح للخدمة العسكرية .-ثورة شباط .-مجالس مندوبي العمال والجنود (السوفييت) .- عودة ستالين وكامنييف الى بطرسبرغ في ١٢ آذار وازاحة اليسار البلشفي بقيادة مولوتوف وشليابنيكوف . - عودة لينين في ٣ نيسان ونشره « اطروحات نيسان » . - ازمة في الحزب الشيوعي . - ستالين يتراجع ويقف الى جانب لينين . - ستالين يتفرغ لتنظيم الحزب بعد انتخابه عضواً في اللجنة المركزية . - تقلبات الثورة . - دور ستالين خلال « ايام تموز» . - ستالين يلح على لينين لكي يختبىء ، ويرأس المؤتمر السادس للحزب . - تروتسكي ينضم الى البلاشفة . - تمرد الجنرال كورنيلوف . - البلاشفة يحوزون على اغلبية الاصوات في السوفييت . - خطط لينين للثورة .- انشقاق في اللجنة المركزية .- انتخاب اول مكتب سياسي في ١٠ تشرين الاول . - موقف ستالين من مؤيدي ومعارضي الانتفاضة . - ثورة اكتوبر . - قيادة تروتسكي في الانتفاضة . - غياب ستالين عن القيادة العامة . - عمله الصحفي في « البرافدا » . - هجومه على مكسيم غوركي : « ليس بوسع الثورة ان تتحسر على موتاها ولا ان تدفنهم».

في أواخر عام ١٩١٦ ، كانت الحرب قد انهكت الحكم القيصري انهاكاً كلياً . ان زهرة الرجال الروس ملقاة في وحل جبهات لا حصر لهـا ، والوضع قد بلغ من السوء حد استدعاء المبعَدين السياسيين في سيبيريا الى الخدمة العسكرية . في آخر ايام العام ، غادر دجوغا شفيللي – ستالين كورايكا الى كراسنويارسك حيث مثل امام لجنة طبية عسكرية . وبسبب العاهة في ذراعه الايسر ، اعتُبر الماريشال المقبل غير صالح للخدمة العسكرية . وفي شباط من عام ١٩١٧ ، سُمح له بأن يقضي آخر ايام مدة إبعـاده على مقربة من كراسنويارسك . إلا ان هذه الايام كانت آخر ايام النظام القيصري ايضاً .

فبعد اسبوع ، سمعت روسيا نعي النظام القديم . بمناسبة الاحتفال بذكرى « الاحد الدموي » عام ١٩٠٥ ، اندلعت الاضرابات والتظاهرات وتتوّجت بانتفاضة عفوية وقفت فيها الحامية العسكرية الى جانب الشعب . تلك هي الثورة . وها هي تنبثق من الشعب نفسه . ولكن انقلاباً في القصر اثارهـا ودعمها ، إذ ان قسماً من حاشية القصر من القادة الليبراليين المنتمين الى الطبقة الوسطى تعاون مع الدبلوماسية البريطانية ضد القيصر ، على امل ان يؤدي انهيار حكمه الى تحرير السياسة الروسية من نفوذ الفئات الموالية للالمان ، والسماح لروسيا بأن تخوض الحرب بقدر اوفر من الفعالية . وفي الثاني من آذار ، تنازل القيصر عن العرش لأخيه الدوق الاكبر ميخائيل . وما لبث هـذا الاخير ان تنازل بدوره في اليوم التالي . إن وزراء القيصر في السجن . والامير لفوف ذو النزعة الملكية الليبرالية يشكل حكومة مؤقتة ،يشغل البروفسور مليوكوف فيها مقعد وزير الخارجية ، ويشغل كرنسكي ، النائب السابق ذو الاتجاه اليساري ، مقعد وزير العدل . الغموض يكتنف شرعية الحكومة : فقد تشكلت بمبادرة بعض اعضاء مجلس « الدوما » السابق ، شبه البرلمان الذي حلّه القيصر ، ولكنها ، على الرغم من ذلك ، باشرت عملها وسط الحماس الشعبي . فسارع الى تأييدها مجلسُ مندوبي العمال والجنود (السوفييت) في بطرسبرغ وقد تأسس قبل بضعة ايام من تنازل القيصر عن العرش .

ان اعضاء السوفييت يُنتخبون في المصانع والمعامل وثكنات الوحدات العسكرية المرابطة في العاصمة . وقد تكونت السوفييت فيما بعد في كل مدن روسيا الكبرى وفي الريف على النحو ذاته . وبسبب نظامها الانتخابي ، لم تكن السوفييت تمثل النبلاء وابناء الطبقات الوسطى الضعيفة عددياً . كانت « برلمانات للشعب » ، والطبقات العليا مقصية عنها حكماً . وبسبب غياب المؤسسات البرلمانية ، اضحت السوفييت اوسع اجهزة عرفتها روسيا عام ١٩١٧ ، واصدقها تمثيلاً . فمندوبو السوفييت لا ينتخبون لمدة محددة ، وهكذا يبقى للناخبين حق استبدالهم ساعة يشاؤون . وهكذا ، كان تركيب السوفييت يتجدد من جراء الانتخابات الفرعية المتعددة ، بحيث امست تعكس ، بحساسية بالغة ، المزاج الشعبي المتغيّر . وهنا مصدر سلطتها المعنوية التي لا تُضاهى . وفضلاً عن انها وفرت للطبقات الدنيا تمثيلاً شبه برلماني ، كانت السوفييت تتمتع بسلطة تنفيذية فعلية ، لا تضاهيها في ذلك الادارة العادية ذات السمعة السيئة . فاوامر السوفييت تُنفَّذ في المصنع ، في مستودع سكة الحديد ، في البريد ، وفي الفوج على حد سواء . ولم تجرؤ الحكومة المؤقتة ، منذ الساعات الاولى لتكوينها ، على اتخاذ قرار هام واحد دون اخذ موافقة قادة سوفييت بطرسبرغ . وهكذا كانت الحكومة اسيرة السوفييت فعلاً ، ولكنها لم تدرك ذلك في حينه ولا هو أدركه . الا ان الصراع بينهما ، الخفي تارة « والمفضوح تارة » أخرى ، سوف يواكب كل مسيرة الثورة . ومهما يكن من امر ، فان الشعب كان لا يزال يستمتع بشهر عسل الثورة : فالخلافات التي يضمرها المستقبل لا تزال مخفية والجو الطاغي هو جو نشوة . لقد حاز الشعب على الحرية ، مع ان ذلك تم وسط أهوال الحرب .

عادت مجموعات السجناء والمبعدين السياسيين من سيبيريا ، تواكبها الاحتفالات على طول طريق عودتها . ومن احدى القرى السيبيرية ، ابرق ثلاثة من المبعدين العائدين الى لينين في سويسرا يبلغونه « تحياتهم الاخوية » . انهم ستالين وكامنييف والنائب البلشفي السابق موارنوف . لقد تلاشت ذكريات الحزازات الماضية ، والثلاثة متلهفون لتحية معلمهم في ساعات الحرية الاولى . وفي ١٢ آذار ، وصل ستالين ورفيقاه إلى بطرسبرغ حيث احتفي بهم على انهم قادة الحزب الكبار ، إذ ان القادة المهاجرين لم يكونوا قد وصلوا بعد . وكان احد المكاتب المؤقتة التابعة للجنة المركزية قد اشرف على التنظيم البلشفي في بطرسبرغ خلال ثورة شباط . وهو يضم ثلاثة يافعين : فياشسلاف سكريابين–

مولوتوف ، المساهم في تحرير « البرافدا » قبل الحرب ، واسكندر شليابنيكوف ، وبطرس زالوتسكي . والآخران عاملان نشيطان تثقفا ذاتياً . ولم يكن الثلاثي يملك ما يكفي من المعرفة والخبرة السياسيتين لرسم خط سياسي واضح يتلاءم مع ما تخفيه الثورة من احداث . ان الفوضى تعمّ الحزب . فالبلاشفة من اليسار واليمين على خلاف فيما بينهم ، وما من فئة تتمتع بقيادة يملكون ما يكفي من السلطة لكسب الحزب كله الى صفّها . وكان الثلاثي يمثّل اليسار البلشفي . ولم يكن راضياً عن تكوين حكومة الامير لفوف ، حيث تسيطر العناصر البرجوازية الليبرالية ، ولا عن السياسة المعتدلة للسوفييت حيث يسيطر المناشفة والاشتراكيون الزراعيون او الاشتراكيون الثوريون . ووقف الثلاثي موقفاً معادياً من عزم الحكومة المعلن على مواصلة الحرب « حتى نهايتها الظافرة » ، ومن موقف المناشفة الوطني او « نزعتهم الدفاعية » . فدعت « البرافدا » التي يشرف مولوتوف على تحريرها ، الى خلع الامير لفوف فوراً ونقل كل السلطات للسوفييت . اما الجناح اليميني من البلاشفة ، بقيادة فويتنيسكي ، فكان يدعو الى تأييد نزعة الامير لفوف « الدفاعية » والى اندماج البلاشفة والمناشفة في حزب واحد . ومع عودة كامنييف ، تدعمت مواقع الفئات اليمينية . واخذ ستالين يتلمس طريقه بحذر ، مبتعداً عن كلا الفئتين المتخاصمتين ، محاولاً ردم الهوة بينهما .

وبحجة أقدميته كعضو في اللجنة المركزية لعام ١٩١٢ ، اقدم ستالين على « خلع » ثلاثي بطرسبرغ من مراكزه القيادية ، وتسلم تحرير « البرافدا » بالتعاون مع كامنييف . وقد مارس ستالين القيادة الفعلية في الحزب طوال ثلاثة اسابيع تقريباً ، الى حين عودة لينين من سويسرا في الثالث من نيسان . وقد قبل به الجناحان نظراً لموقفه الوسطي . ولم يكن اسمه يعني شيئاً بالنسبة لجموع العمال ، شأنه في ذلك شأن معظم قادة « العالم السفلي » المجبرين على التستر وراء الاسماء المستعارة . الا ان تسترهم هذا كان ذا فائدة شخصية وسياسية ، إذ انه ينطوي على سجل حافل بالخدمة الغيرية المخلصة . وعندما ظهر ، بعد بضعة ايام من عودته ، في اجتماع اللجنة التنفيذية لسوفييت بطرسبرغ بوصفه احد المندوبين البلاشفة الى تلك الهيئة ، لم يرحب به كصديق قديم الا بعض المناشفة الجيورجيين من امثال شخايدزه الذي كان قد اكتسب شهرة واسعة في العاصمة انذاك . اما بالنسبة لسائر الاعضاء ، فقد كان احد جنود الثورة المجهولين .

ولم يلبث التغير الذي طرأ على القيادة البلشفية ان انعكس باشكال محددة . فاخذ

البلاشفة يتحدثون بلهجة اكثر اعتدالاً في اجتماعات السوفييت وعلى صفحات « البرافدا » على حد سواء . ان داعية هذا الاعتدال هو كامنييف . ورغم ان مقالات ستالين كانت اكثر يسارية من مقالات كامنييف ، فانها لم تكن بجذرية مقالات مولوتوف . نشر ستالين مقالة قصيرة حول دور السوفييت بعد يومين من وصوله . قال فيها ان السوفييت تجسد تحالف طبقتين – العمال والفلاحون – وقد اعتبرهما ، حسب المفهوم البلشفي القديم ، ضمانة الانتصار النهائي للثورة . الا ان الروابط بين الطبقتين لم تتوثق بالقدر المنشود . فالمهمة اذاً هي « تدعيم السوفييت ... وتوحيدها تحت اشراف السوفييت المركزي ... بوصفه جهازاً من اجهزة حكومة الشعب الثوري » . وها هو يستبق الشعار الذي سوف يحتل المرتبة الاولى بين شعارات البلاشفة بعد عودة لينين الى روسيا : « كل السلطات للسوفييت » . وبدا وكأن مثل هذا الموقف يجر الى المعارضة العنيفة لحكومة الامير لفوف . لكن ستالين اكتفى بايراد الجانب الايجابي من مبدئه ، ممتنعاً عن استخلاص دلالاته السلبية . وقد لخص برنامج الثورة على النحو التالي : « الارض للفلاحين ، حماية عمل العمال ، وحكومة ديمقراطية لجميع مواطني روسيا » . وبعبارة اخرى ، فالثورة سوف تظل معادية للاقطاع ولكن ليس للرأسمالية ، ستكون ثورة « برجوازية ديمقراطية » ، لا ثورة اشتراكية .

« حول الحرب » هو عنوان مقالته الثانية التي جمعت ، شأنها شأن التي سبقتها ، الموقف الجذري من حيث المبدأ العام الى الغموض من حيث الاستنتاجات العملية . الحرب ذات طابع استعماري ، وقد احتفظت بهذا الطابع حتى بعد القضاء على النظام القيصري : « اننا مقتنعون اشد الاقتناع بان سير الاحداث في روسيا سوف يبرهن عن خطأ الصيحات حول « الحرية في خطر » . ان التضليل الوطني سرعان ما يتلاشى ويتجلى للشعب السعي الحقيقي للاستعماريين الروس وراء المضيق [1] .. ووراء فارس » . هذه صفحة في كتاب للينين . الا ان شعار « تسقط الحرب » بمفرده ليس شعاراً مجدياً على الاطلاق ... وهو يؤدي عملياً الى طريق مسدودة » . بعد ابداء هذه التحفظات رحب ستالين « ببيان سوفييت بطرسبرغ الى شعوب العالم » شبه السلمي وشبه الدفاعي ، الا انه شكك في امكان بلوغه مسامع عمال البلدان المتحاربة . ينبغي على العمال والفلاحين

(١) يعني مضيق الدردنيل - (المترجم)

والجنود ان يمارسوا الضغط على الحكومة المؤقتة لكي تعلن عن نيتها في الشروع بمفاوضات سلم فورية . وبدا ذلك وكأنه دعوة الى عقد سلم منفصل مع المانيا . لكن الكاتب يحث الحكومة المؤقتة ، في الجملة التالية ، « ان تعمل علناً وعلى مسمع من الجميع لمحاولة اقناع جميع القوى المتحاربة بفتح مفاوضات السلم فوراً ... » . إذا نحن ابتغينا تقييم هذا النص ، يتضح لنا ان حجة ستالين تشدد كثيراً على الجانب « المعادي للاستعمار »،ولكنها تغفل القول ان الدفاعيين ، من مناشفة أو ليبراليين على حد سواء ، يتخذون مواقفهم عن حسن نية ، وهي اشارة سوف يسخر منها لينين عما قريب .

بعد بضعة ايام ، علق ستالين على احد تصريحات مليوكوف ، وزير الخارجية ، حول اهداف روسيا الحربية ، فقال : « ان قراء البرافدا يعرفون ان هذه الاهداف الحربية انما هي اهداف عسكرية : احتلال القسطنطينية ، السيطرة على ارمينيا ، تقسيم النمسا وتركيا واحتلال شمال بلاد فارس ... فتكون النتيجة ان يبذل الجنود الروس دماءهم في ساحات الحرب ليس « للدفاع عن الوطن » ولا من اجل «الحرية» ، كما تؤكد لنا الصحافة البرجوازية المأجورة ، وانما من اجل احتلال الاراضي الاجنبية .... » . وكان وزير العدلية كرنسكي ، مدّعي اليسار ، قد اعلن ان مليوكوف لم يعبّر إلا عن وجهة نظره الخاصة ، لا عن وجهة النظر الحكومية . فعلق ستالين قائلاً : « هناك احتمالان لا ثالث لهما : إما ان كرنسكي يكذّب ، واما ينبغي على مليوكوف ان يستقيل » . (طبعاً لم يخطر ببال الكاتب آنذاك انه بعد حوالي ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ سوف يتبنى هو نفسه بعضاً من اهداف مليوكوف الحربية ، وان مليوكوف بدوره سوف يصفق له بحرارة من على فراش الموت في منفاه الباريسي) .

في احدى المقالات التي كتبها ستالين ، ولم يمضِ اسبوع واحد بعد على عودته من سيبيريا ، نبرة قلق على نتائج الثورة الممكنة . فقد ادرك بوضوح ، منذ ذلك الوقت المبكر ، النزاع الضار بين السوفييت والحكومة المؤقتة . ان الثورة تعتمد اساساً على العاصمة ، على سوفييت بطرسبرغ ، في حين تستمد الحكومة المؤقتة قوتها من الريف . لكن ثنائية السلطة هذه لا يمكن ان تعمّر طويلا . فالحكومة المؤقتة تمثل البرجوازية المعتدلة التي اثارت حفيظتها « تجاوزات » الثورة حتى قبل ان تخطو هذه اولى خطواتها . ان حكومة كهذه قد تتحول بسهولة الى درع لردة اقطاعية وبرجوازية مضادة للثورة . لذا ، ينبغي على الثورة ان تكسب تأييد الريف . وينبغي تسليح العمال وتنظيمهم في

تشكيلات من « الحراس الحمر » . ان الجيش يقف « بين الثورة والردة المضادة للثورة » ، ولن يكون بمكنة السوفييت الاعتماد عليه في حالة طوارىء ، بسبب كثرة تنقل قطاعاته وحالة التفكك التي تسوده . وأخيراً ، تحتاج الثورة الى ان تكرسها « جمعية تأسيسية » لا شك في انها ستكون اكثر جذرية من الحكومة المؤقتة .

في نهاية شهر آذار ، انعقد في بطرسبرغ اول مؤتمر عام للبلاشفة منذ تنازل القيصر عن العرش ، وذلك في قصر فخم صودر من عشيقة القيصر ،راقصة البلاط كشيسينكسايا، وجرى تحويله الى مقر عام للقيادة البلشفية .وساد المؤتمر جو من الارتباك والبلبلة المتوترة. حاول المندوبون استخلاص سياسة من النهج البلشفي حول الثورة كما بشّر به لينين قبل الحرب . على انه يبدو ان التاريخ زعزع اركان هذا النهج ، بحيث عجز عن استيعاب الاحداث الراهنة. كان الافتراض السائد ان الثورة ستكون ثورة ديمقراطية لا اشتراكية ، وانها ستؤدي الى قيام جمهورية ديمقراطية للعمال والفلاحين لا الى قيام دكتاتورية بروليتارية . وكان الجميع لا يزال يلتزم بهذا الافتراض الى درجة انه عندما وضع احد الخطباء هذا الافتراض موضع التساؤل ، على نحو شبه هزلي ، منعه رئيس المؤتمر من اتمام حديثه . وقد ساد ايضاً الافتراض بان الطبقة الوسطى الليبرالية سوف تدعم النظام القيصري في السراء وفي الضراء ، وان الطبقة العاملة هي التي سوف تتسلم قيادة الانتفاضة الديمقراطية ، فتكون « الحكومة الثورية المؤقتة » تحالفاً لأحزاب العمال والفلاحين ، يلعب الماركسيون فيه الدور الرئيسي . غير ان القطاعات الليبرالية من النبلاء والطبقة الوسطى تخلت عن القيصر ، ووقفت على رأس النظام الجمهوري . فبدا وكأن المفهوم المنشفي للثورة كان اكثر واقعية من المفهوم البلشفي . ماذا يجب ان يكون دور الاشتراكيين البروليتاريين والحالة هذه ؟ هل يبقون في صفوف المعارضة للحكومة الليبرالية ، حارسين مصالح الطبقة العاملة الصناعية ، كما اقترح المناشفة منذ عام ١٩٠٥ ؟ لكن التاريخ يتحايل على النهج المنشفي ايضاً . ذلك ان المناشفة يميلون الى التحالف مع ليبراليي الطبقة الوسطى . وكان البلاشفة المعتدلون يريدون من حزبهم ان يقدم دعماً مشروطاً لحكومة لفوف .

اما بالنسبة للفئات الاكثر جذرية ، المتشربة روح التطرف الشعبي السائدة في الحزب ، فقد بدا لها ذلك على انه هراء لا معقول . وجادلوا قائلين : ان الثورة المعادية للاقطاع لم تنتصر بعد انتصاراً فعلياً ، وبالرغم من ازاحة القيصر عن العرش ، فان ارستقراطية

الارض لا زالت تسيطر على الريف الروسي ؛ ومن المستحيل ان يصادر الامير لفوف املاك طبقته ليوزعها على الفلاحين ؛ من هنا ، فان الطبقة العاملة هي وحدها القادرة ، بواسطة السوفييت ، على الاضطلاع بمهام الثورة الزراعية . وهكذا ، فان هذا النهج يحمّل العمال الصناعيين العبء الاكبر في الثورة ، في حين يكون الفلاحون هم المنتفعين الرئيسيين منها . ويصعب ان تلاقي سياسة كهذه تجاوباً بين العمال ، وهي التي تطلب منهم ان يكونوا مجرد مدافعين سياسيين عن مصالح الفلاحين . ان منطق الوضع يقتضي ان تكون حصة العمال في الثورة مرسومة بوضوح حصة الفلاحين وعلى نفس مستواها ، وهذا يعني ربط تشريك الصناعة بتوزيع املاك الاقطاعيين ، وجعل الثورة معادية للرأسمالية الى جانب كونها معادية للاقطاع . ولكن ذلك يعني التخلي نهائياً عن الشعار القديم ، القائل انه ليس بوسع روسيا ان تبدأ ثورة اشتراكية . ولم يكن أي من تلامذة لينين ليملك الشجاعة الكافية للقيام بهذه المراجعة الجذرية في امور العقيدة . فظلوا يتدافعون مع حججهم في الطريق المسدودة التي يفضي اليها شعار الثورة المعادية للاقطاع فقط ؛ فلا يرى فيه البلاشفة المعتدلون مبرّراً للتطرف ، كما لا يجد فيه المتطرفون مجالاً كافياً للتعبير عن اندفاعهم الثوري .

طوال اسبوع، اشرف ستالين على الخلاف الدائر بحذاقة حذرة ومستسلمة في آن معاً . وبوصفه المتحدث الرئيسي باسم اللجنة المركزية المؤقتة ، لم يكن يهمه حل المعضلة الاساسية بقدر ما كان يهمه توفير الصيغة القادرة على حجب هذه المعضلة ، وتأجيل الحل ، والحيلولة دون انشقاق الحزب المحتم . وفي معرض حديثه عن « الحكومتين » ، حكومة الامير لفوف وحكومة السوفييت ، قال :

« يوجد ، بل ينبغي ان يوجد، احتكاك وصراع بينهما . ان الادوار موزعة . ان سوفييت مندوبي العمال والجنود قد شرع فعلاً في التحويل الثوري . ان السوفييت هو القائد الثوري للشعب الثائر ، انه جهاز لمراقبة الحكومة المؤقتة . اما من الجهة الثانية ، فان الحكومة المؤقتة قد اضطلعت بدور توطيد مكتسبات الشعب الثوري . ان السوفييت يعبىء القوى ويمارس الرقابة ، اما الحكومة المؤقتة ، المترددة والمتذبذبة ، فتضطلع بدور توطيد مكتسبات الشعب .... ولمثل هذا الوضع حسناته وسيئاته . ليس من صالحنا حالياً ان نستبق الاحداث فنعادي الفئات البرجوازية التي لا بد لنا من ان نتخلى عنها في المستقبل . ينبغي

علينا كسب الوقت فنحول دون انفصال هذه الفئات عنا ريثما نهيىء انفسنا للنضال ضد الحكومة المؤقتة .... » .

وراح يغيِّر مركز الثقل في نقاشه حسب تغيُّر الضغوط، فتارة يقترح الدعم المشروط للحكومة ، وطوراً يحجب هذا الدعم ، واخرى يقترح ، على نحو هروبي ، ان المهم ليس ما اذا كان ينبغي دعم الحكومة ام لا، وانما هو ما إذا كانت الحكومة سوف تؤيد مبادرة السوفييت الثورية أم لا .

ونشب خلاف مثلث الاطراف حول اقتراح الاندماج مع المناشفة . فئة تؤيد الاندماج دون قيد أو شرط . فيتصدى لها مولوتوف ، باسم الراديكاليين ، معلناً ان الاندماج ممكن فقط بين الذين يتبنّون برنامجاً يقف صراحة ضد الحرب . هذا في حين يدعو ستالين الى فتح مفاوضات الاندماج فوراً على اساس القبول « بمبادىء زيمرفالد وكينثال » ، أي المبادىء التي اعلنها مؤتمران اشتراكيان امميان انعقدا في بلدتين سويسريتين ، واللذين نعى لينين عليهما الافتقار الى الروح الثورية . وتغاضى ستالين عن اعتراضات مولوتوف ،فقال: « لا جدوى من استباق الخلافات . لا حياة حزبية بدون خلافات . وسوف نتخطى الفروقات الهامشية في الرأي ضمن الحزب » . إلا انه طمأن اليسار معلناً ان المفاوضات ستكون تمهيدية ، ولن تكون نتائجها ملزمة للحزب . والواقع ان المفاوضات بدأت فوراً ، ولم تنقطع إلا بعد عودة لينين .

ما ان عاد لينين ، حتى انسحب ستالين الى ما وراء الكواليس . ان بضعة اسابيع كانت كافية ليظهر براعته : انه من الحزب وفي الحزب ، لكنه ليس متقدماً عليه . وقد نَفَر من الفئات المتطرفة ولازم التيار الوسط ، رغم ان ذلك ادى به الى المراوحة والتردد . وتسلم القيادة لأنه جارى التيار السائد وعبّر عنه بخليط من الصيغ الباهتة ، دون ان يحاول سكبه في قالب جديد. ان قيادة كهذه قادرة على ابقاء حزب عادي يعمل ضمن الوضع القائم على ما هو عليه ، لكنها ليست طرازاً من القيادة يتسنى للبلشفية في ظله ان تصبح مولّدة ثورة جديدة .

في الثالث من نيسان ، عاد لينين الى بطرسبرغ من رحلته الشهيرة في « القطار المقفل »

عبر المانيـــا حيث استقبلته جموع العمال والبحارة والجنود [1] . وانتقل من محطة سكة الحديد في قافلة ظافرة من السيارات المصفحة ، طـــافت به شوارع العاصمة . وبالكاد استطاع كتم انزعاجه من خطب الترحيب الفارغة الساذجة التي انهمرت عليه. كان يتحرق شوقـــاً للقاء رفاقه وأتباعه . فعقله وإرادته مستنفران للانقلاب الذي ينبغي ان يقوم به في حزبه ، قبل التمكن من القيام بثورة جديدة في البلد . وما ان انتهى هذا الترحيب المفاجىء ، حتى كتب ، باسلوب تلغرافي عجول ، عشر « موضوعات » . وقدم مبادىء الايمان هذه ، وهذا النهج الجديد للثورة، هذه الشرعة البلشفية الجديدة الى المؤتمر البلشفي الذي انعقد عقب وصوله بيوم واحد .

كان اتباعه على اهبة الاجتماع بالمناشفة في مؤتمر يكرّس الاندماج بين الجناحين، عندما صفعهم لينين بموضوعاته ، وقدّم لها بهجوم كاسح على الغزَل السياسي القائم . قال انـــه خـــلال رحلته الى روسيا ، كان يتوقع ان يُعتقل فور وصوله الى المحطة ، ويُساق الى « حصن بطرس وبولس » ، السجن السياسي الرهيب . ولكن عوضاً عن ذلك ، جـــاء اعداء الثورة وخونتها يرّحبون به . ثمة خلل ما . « النزعة الدفاعية » سائدة في روسيا مثلما هي سائدة في الخارج . البرجوازية والمناشفة يخدعون البروليتاريا :

« ان ما تتميز به روسيا هو ذلك التحول السريع العظيم من طور العنف الهمجي الى

---

(١) استعان لينين في التهيئة لرحلته باشتراكيين فرنسيين وسويسريين ونمساويين والمان مشهورين. وكان التعهد الوحيد الذي قدمه للحكومة الالمانية هو ان يبذل ما بوسعه للسماح لمجموعة من المدنيين الالمان بالخروج من روسيا . وما من شك في ان الحكومة الالمانية ، العارفة بمعارضته للحرب ، كانت تأمل بالافـــادة من الدعاية التي سوف يقوم بها داخل روسيا.والواقع ان لينين ابدى تحفظاته قبل ان يقرر الافادة من تسهيلات السفر عبر المانيا . الا ان شاغله الاساسي سرعان ما بدد هذه المخاوف ، وهذا الشاغل هو ان يكون لينين في مركز الثورة باسرع وقت ممكن . كان يفضل السفر الى روسيا عبر انكلترا ، الا ان الحكومة البريطانية حرمته من حق المرور في اراضيها . ولم يلمه احد على رحلته عند وصوله الى روسيا . وقد رحب به قـــادة الاحزاب المعتدلة بوصفه واحداً من القادة القدماء المجربين . وبعد بضعة اسابيع ، حذا مارتوف ومناشفة آخرون حذو لينين وسافروا الى بلدهم بواسطة الطريق ذاتها ، دون ان يلاقوا اي لوم أو نقد . ولكن في وقت لاحق ، عندما بدأ نفوذ لينين يتزايد ، استغل بعض من اخصامه قصة « القطار المقفل » ، وحولوها الى عملية تواطؤ بين القيادة العامة لأركان الجيوش الالمانية وبين البلاشفة . ن. سوخانوف Zapiski o Revolutsii ، الجزء ٣ ، ص ١٠ - ١٣ ؛ لينين ، « كيف وصلنا » في المؤلفات الكاملة الجزء ٢٠ ، الكتاب الاول ، ص ٩١ - ٩٣ ؛ Leninskii Sbornik ، الجزء ٢ ، ص ٣٧٦ - ٤٠٦ ؛ ٤١٠ - ٤١٢ ؛ ٤٤٨ - ٤٥٧ .

ارقّ انواع الخداع » ، ذلك الذي يقود الجماهير الى الايمان بصواب اهداف حكامهم العسكرية . لا يجوز ان يتعاون البلاشفة مع الدفاعيين ، او اشباه الدفاعيين . ان مهمتهم هي اقامة دكتاتورية البروليتاريا . خلال ثورة شباط ، كانت الطبقة العاملة تمسك بزمام السلطة ، إلا انها تخلت عنها ببساطة للبرجوازية لأنها لم تكن تدري ماذا تفعل بها . «حتى جماعتنا من البلاشفة يحضون الحكومة ثقتهم . ولا يمكن تفسير ذلك بغير الخور الذي اخذ يتسلل الى عصب الثورة . هذا هو حتف الاشتراكية . انتم ، يا رفاق ، تمحضون الحكومة ثقتكم . فاذا كان هذا هو موقفكم ، فليس طريقهم هو طريقي . اني اؤثر البقاء في الاقلية » . ان ثورياً واحداً من امثال كارل ليبنخت ، القائد الالماني المعادي للعسكرية ، لهو افضل من جمع كامل من المناشفة والاشتراكيين الوطنيين والدفاعيين : « إذا كنتم تؤيدون ليبنخت وتمدون اصبعاً واحداً باتجاه الدفاعيين ، فتلك خيانة صريحة للاشتراكية الاممية » .

وبالرغم من ان لينين تحاشى الخوض في مماحكات شخصية ، مفضلاً افساح المجال امام اتباعه المضللين لكي يهتدوا تدريجياً الى الصراط المستقيم ، فلم يتوانَ عن التهجم على البرافدا بلا هوادة : « طلبت البرافدا من الحكومة التخلي عن اطماعها التوسعية . ان مطالبة حكومة الرأسماليين التخلي عن اطماعها التوسعية لهو خطل ...واستهزاء ... وخداع... لقد آن اوان الاعتراف بالخطأ ... اعفونا من التحيات والقرارات ! دقت ساعة العمل » . ان اللفظية الثورية عند المناشفة مجرد « تزّلف للشعب الثوري » . ولم يدعُ لينين الى تسلم الحكم فوراً ، لأن البلاشفة لا يزالون اقلية في السوفييت . وما داموا لم يصبحوا الاغلبية بعد ، ينبغي ان يشرحوا سياستهم بصبر للجماهير التي لا تزال تثق بالمناشفة ، حتى يقنعوا غالبية الشعب بضرورة قيام ثورة جديدة . الى حين يتم ذلك ، يجب ان يعلنوا للشعب ان ما يسعون اليه « ليس جمهورية برلمانية ... بل جمهورية سوفييت ... والغاء الشرطة ، والجيش النظامي والادارة الرسمية » . الفلاحون يريدون الارض ، « ... لكنهم لن يطلبوا اذناً منكم ... سوف نستولي على الارض ولن يتمكن الملاك من استرجاعها » . لكن هذا ليس كل ما في الامر . ان الثورة قد دخلت طورها الاشتراكي . وينبغي دمج المصارف في مصرف وطني واحد يسيطر عليه السوفييت . ليس بالمستطاع تشريك الصناعة فوراً ، إلا انه ينبغي وضع الانتاج والتوزيع تحت السيطرة العمالية . لقد آن الاوان لتعديل برنامج الحزب القديم ، وحتى تغيير اسمه : « ... أقترح ان ندعوه ...

الحزب الشيوعي... ان غالبية الاشتراكيين الديمقراطيين الرسميين قد خانت الاشتراكية... هل تخشون التنكر لذكرياتكم القديمة ؟ ولكن لكي نرتدي قميصاً نظيفاً ينبغي علينا ان نخلع القميص القديم الوسخ » . ان موضوعته الاخيرة هذه تستبق تأسيس « الاممية الثالثة » الجديدة . وقد ختم محذراً بأنه لن يتردد إذا تلكأ رفاقه في مماشاته ... انه يفضل السير وحيداً ، مثل ليبنخت في المانيا ، والنضال ضدهم ، وهو واثق من ان المستقبل له .

وكان احد الكتّاب غير المنتمين للحزب البلشفي موجوداً بالصدفة في المؤتمر، فكتب يصف وقع كلمات لينين :

« لن انسى ذلك الخطاب كالرعد ، صاعقاً ومذهلاً ليس بالنسبة لي وحسب ، انا الكافر الذي صادف وجوده هناك ، وانما ايضاً بالنسبة للمؤمنين جميعاً . يقيناً، ان ما من احد كان يتوقع شيئاً من هذا القبيل . فبدا و كأن كل عناصر وروح الدمار الشامل قد افلتت من عقالها ، غير آبهة بالعراقيل ، مقدامة ، لا تعرف المصاعب أو الاعتبارات الشخصية ،وأخذت تحوم فوق غرف قصر تشيسينسكايا ، فوق رؤوس التلامذة المسحورين » .

وتابع لينين حملته طوال الايام القليلة التالية . فتصدى له كامنييف وكالينين وغيرهما، وواجهوه بصيغه ومفاهيمه القديمة ، وبتأكيداته القائلة ان روسيا ليست ناضجة بما فيه الكفاية لقيام دكتاتورية البروليتاريا والاشتراكية . فردّ بمرارة على « البلاشفة القدامى الذين لعبوا دوراً بائساً في اكثر من مناسبة في تاريخ حزبنا » ، لأنهم يتمسكون ، على نحو رجعي ، بصيغ الامس التي يحفظونها عن ظهر قلب ، عوضاً عن ان يراجعوها نقدياً على ضوء التجربة الجديدة . واعترف ان روسيا ليست ناضجة بما فيه الكفاية لقيام نظام اشتراكي ، هذا اذا نظرنا اليها بمعزل عن سائر اجزاء اوروبا . إلا ان اوروبا ككل ناضجة بما فيه الكفاية لذلك ، وروسيا مدعوة لافتتاح الثورة الاشتراكية الاوروبية . وهمهم اللينينيون متذمرين ، مذكّرين بالخلافات السابقة : « ولكن هذا ضرب من التروتسكية وليس من اللينينية بشيء » . وبعد بضعة ايام من الجدال الكثيف ، تمكن لينين من جلب غالبية اعضاء الحزب الى جانبه . فأقدمت احدى الفئات البلشفية – اقصى اليمين – على

الانفصال عن الحزب كلياً متهمة قائدها السابق بأنه متآمر فوضوي وباكونين[1] جديد . على ان الفئات الراديكالية ، التي حاول مولوتوف وشليابنيكوف عبثاً التحدث باسمهـــا ، تقبّلت هذا الموقف ورحبت به . فوجدت في موضوعات لينين تعبيراً منهجياً عن تطلعاتها . ان اطار الثورة الديمقراطية وحسب — الذين ترددوا في تجاوزه لأنه كان يحظى بدعم من عقيدة الحزب الرسميـــة ، رغم شعور غامض انتابهم بأن هذا الاطار يحد بدون مبرر من طموحهم الثوري — هذا الاطار قد تحطم الآن على يد واضع عقيدة الحزب نفسه . نجح « انقلاب » لينين الى درجة انه اثار الاستغراب ، والواقع ان هذا مرده كونه يلبي حاجة نفسية داخل حزبـــه . فوفـّر الإقدام والشعور الهادف لرجال يتلمسون طريقهم وسط الضباب . وبدا هذا التغيير لخصومه من العنف والقطعية بحيث حكموا عليه بالعقم . وصمد كامنييف وكالينين وغيرهما في مواقعهم ، وألمحوا الى ان غياب لينين الطويل عن روسيا قد افقده الاتصال بالواقع الروسي ، وأخذوا يمنون النفس بأن الحزب سوف يفيق ، عـاجلاً ام آجلاً ، من انبهاره بهذه اللينينية الجديدة ويعود الى انتهاج سياسات اكثر اعتدالاً وأقل تهوراً . طوال عام الثورة ، وعشية انتفاضة اكتوبر خاصة ، ظل الخلاف محتدمـــاً بين اللينينية الجديدة واللينينية القديمة مهدداً وحدة القادة بالانفراط ؛ وقد عـاد السجال الى الظهور بعد موت لينين وخلال النزاع الذي دار حول خلافتـــه . ولكن ، ابتداء بشهر نيسان ، اخذت البلشفية تصعد في الطريق الشاق الخطر المؤدي الى الثورة الثانية .

ان وابل الحجج الذي انهمر به لينين على اتباعه دفع ستالين الى التزام الصمت الواقي . وليست هذه هي المرة الاولى التي يتردد فيها ذهنه الحذِر بعد ان تنهال عليه ضربة مفاجئة من ضربات المعلم . ولكن ليس بمقدوره ان يتهم لينين بخفة العقل أو التهور ، فهو قـــد عرف منه ما يكفي لاستبعاد مثل هذه الاحتمالات . ورغم انـه ليس من اليسير عليه ان يلحق دائماً بالشطحات الـتي يتفتق عنها خيال المعلم السياسي الجريء ، فقد نما عنده ايمان ضامر بواقعية لينين . ولا يعقل ان تكون المسألة مجرد تخريفة ما دام لينين يدافع عنها — لعل هذا ما قاله بينه وبين نفسه . وسكت على مضض حيال تهجمات لينين ضد البرافدا ،

---

(١) ميشال باكونين (١٨٢١ - ١٨٩٣) ، مفكر ثوري روسي فوضوي . قاد الجناح الفوضوي في « الاممية الاولى » ، وما لبث ان انشق عنها بعد سجالات طويلة مع ماركس وانغلز . في روسيا ، كانت الباكونية احدى الينابيع الفكرية الـــتي استقت منها الحركة « الشعبية » . ويرى الباكونيون ان فلاحي روسيا ناضجين للثورة . وكان تكتيكهم هو التآمر والانتفاض العفوي والارهاب الفردي . (المترجم) .

رغم انها انطوت على شيء من الاهــانة له ، وهو الذي لعب ، منذ مدة ليست ببعيدة ، دور قائد الحزب . على انه لم يتعرض كثيراً لانتقادات لينين ، بعد ان صمّم على عدم الرد عليها . وعلى كل حال ، فهو ليس من « دعاة المساومة » المفضوحين من امثال كامنييف . فموقفه يتأرجح بين المساومين وبين الراديكاليين بقــدر كاف من الحذر يسمح له بالقبول باطروحات لينين دون ان يخسر ماء وجهه . وقد انعكس موقفه المتذبذب هذا في الاحراج الذي وقع فيه ، وقد انفرج لانعتاقه منه . ولم يكن لينين ، من جهته ، يبغي تحقير الذين قادوا الحزب في غيابه ما داموا على استعداد للاستسلام لخطه الجديد . فبقي ستالين رئيساً لتحرير البرافدا ، وساعده لينين على التكيُّف مع الوضع الجديد . ومـا ان مضت عشرة ايام على نشر لينين لاطروحات نيسان ، حتى سارع ستـالين الى الاعراب عن تضامنه مع لينين على صفحات البرافدا .

فكانت الافتتاحية المعنونة « الارض للفلاحين » ، والـتي وقعها باسمه ، نقضاً للآراء التي كان قد دعا اليها لتوه . كان وزير الزراعة ، شينغاريف ، قد منع الفلاحين من فلاحة اراضي الملاك الذين اموا المدن متخلين عن ملكياتهم ، هاربين من جو يسود الارياف وينذر باندلاع انتفاضة فلاحية دامية . وناشد الوزير الفلاحين الانتظار بصبر ريثما تصدر الجمعية التأسيسية قانون الاصلاح الزراعي . فعلق ستالين على ذلك قائلاً : « ما دام موعد انعقاد الجمعية التأسيسية لا يزال مجهولاً ، وما دامت الحكومة المؤقتة هي التي تؤجله ... إذاً ، ينبغي ان تظل الارض بدون فلاحة ، وان تظل بيد الملاك ، وان يبقى الفلاحون بدون ارض ، وتبقى روسيا – عمالها وفلاحوها وجنودها – بدون خبز يكفيها » . ودعـا الفلاحين الى ان يتولوا تطبيق العدالة بأنفسهم ، وان « يشكلوا لجاناً فلاحية تحرث الارض بشكل منظّم ، دون انتظـار أي إذن مسبق » ، ودون الاهتمام بالوزراء الرجعيين ، «الذين يضعون العصي في عجلات الثورة» . وكان قد قال ، قبل بضعة ايام ، انه لا ينبغي ان يقدم البلاشفة على استباق الاحداث ، لأن هذا من شأنه تنفير التقدميين البرجوازيين . وها هو الآن يدين هذا الرأي بالذات ، متهماً اياه بأنه « فكرة طوباوية رجعية » . « ان المسيرة الظافرة للثورة سوف تكنسهم (أي البرجوازيين التقدميين) مثل زبالة تافهـة لا يسر لها إلا اعداء الثورة » . وكان قبل بضعة ايام من ذلك قد شكك باستعداد عمـال اوروبا الغربية للاستجابة لأية دعاية ضد الحرب . وها هو الآن (في بيان اول ايار الذي كتبه باسم اللجنة المركزية) يجزم ان « رعد الثورة الروسية قد ايقظ عمـال الغرب من

رقادهم ... ان الارض تحترق تحت اقدام الرأسماليين اللصوص – ان علم الاممية الاحمر يرتفع مجدداً فوق اوروبا » . تلاشت احلام الاندماج مع الاشتراكيين المعتدلين ، لأن هؤلاء من « تعبوا من الثورة » . « ان الذين يراوحون ايام الثورة يتخلفون حتماً عن الركب ؛ ولا رحمة للذي يتخلف عن الركب – ان الثورة سوف تقذف به الى معسكر الردة المضادة للثورة » .

في اواخر نيسان ، انعقد مؤتمر وطني للبلاشفة ، وانتخب لجنة مركزية جديدة من تسعة اشخاص منهم لينين ، زينوفييف ، ستالين وسفيردلوف . وهي المرة الاولى التي يثبَّت فيها منصب ستالين القيادي بعدد كبير من الاصوات في انتخاب علني مباشر . انه الآن شخصية مألوفة لدى كوادر الحزب ، مع انه لا يزال اسماً لا غير بالنسبة للذين في الخارج . وكلّف بتقديم تقرير للمؤتمر عن مسألة القوميات . وكانت الحكومة المؤقتة في صراع مع الفنلنديين العاملين على الانفصال عن روسيا . قال ستالين : « لا يعقل ان نتغاضى عن عملية يتم بموجبها اجبار امة ما على البقاء ضمن إطار دولة معينة » . وإذا نحن فعلنا ذلك ، « نكون مكملين للسياسة القيصرية ليس إلا » . وأعلن انه ، بوصفه جيورجياً ، لا يريد انفصال القفقاس عن روسيا ؛ ولكن إذا كان هذا ما تريده شعوب القفقاس ، فلا يحق لأحد ان يحول بينها وبين هذا الانفصال . وعندما اعترض البولوني فيليكس دزرجنسكي ، منشىء الشرطة البلشفية السرية ، بقوله ان التطلعات الانفصالية عند مختلف القوميات انما هي تطلعات انفصالية ، أجابه ستالين :« ولكن ، أليس نضال الايرلنديين ضد الانكليز نضالاً ثورياً ؟ » . وأردف قائلاً ان المسألة بالغة الاهمية ، لأنها تتعلق بمصير جميع الشعوب المستعمَرة . ان تأييد التطلعات القومية لهذه الشعوب يعني « مد جسر بين الشرق والغرب » ، وتأمين دعم آسيوي واسع للثورة الاشتراكية في اوروبا . وها هو محرر البرافدا يكرِّس سمعته كأول خبير في الحزب حول هذه المسألة .

في تلك الاثناء ، كان مد البلشفية في صعود . ان المندوبين المائة والثلاثين الذين حضروا المؤتمر يمثلون حوالى ٧٦,٠٠٠ عضواً . (هذا في حين ، لم تكن عضوية الحزب ، ابان ثورة شباط ، لتزيد عن ٣٠,٠٠٠ عضواً) . طبعاً ، لا يزال هؤلاء « حفنة من الرجال » لا تزن كثيراً في انتخاب برلماني عادي . ولكن ليس هذا هو المقياس الذي يُقاس على أساسه النفوذ الاجتماعي والسياسي في عام الثورة . فهذه « الحفنة » من البلاشفة مكوّنة من المناضلين الصلبين يضمهم تنظيم وانضباط صارمان ، يعملون في مواقع

استراتيجية حاسمة في الصناعة والنقل ، في الجيش والسوفييت . ومعظمهم من النقابيين أو من مندوبي المصانع والوحدات العسكرية ، وهم يمارسون نفوذاً مطرّد النمو في اوساط العمال والجنود . انهم « المحرضون » ، « الطليعة الثورية » التي يسير وراءها الى المعركة قوة جماهيرية سياسية اصيلة . ويعمل البلاشفة في كل سوفييت كجهاز متماسك ؛ ومع ازدياد اعدادهم في الانتخابات الفرعية المتتالية ، كان نفوذهم الفعلي يزيد بمعدل يفوق نسبتهم العددية . وكان لا بد من ان يتولى احدهم الاهتمام بشؤون هذه الكتلة الواسعة من المحرضين والنقابيين ومندوبي السوفييت . لا بد من شخص ما يكون على اتصال يومي بهم ، ناقلاً اليهم قرارات اللجنة المركزية ومقدّماً التعليمات حول التصويت في السوفييت والتعامل مع الاحزاب الاخرى . وقد اوكلت هذه المهمة الشاقة الى ستالين وسفيردلوف . ان الفوضى السائدة في قطاع النقل ، والوضع الناجم عن كون بطرسبرغ هي محور الثورة ، جعلا من المستحيل على اعضاء اللجنة المركزية ان يتفقدوا باستمرار فروع الحزب في المناطق . فبين الحين والآخر ، يتوافد المندوبون الى العاصمة لحضور مؤتمرات السوفييت الوطنية ، واجتماعات لجان الجيش ، أو مهرجانات النقابات والفلاحين . فكان مسئولا التنظيم في اللجنة المركزية يستغلان مثل هذه الفرص لابلاغ التعليمات الى المندوبين والاشراف على نشاطاتهم وتوجيهها ، إن في قصر كيشينسكايا ، المقر الحزبي العام ، أو في قصر التوريد ، مقر سوفييت بطرسبرغ . وبينما كان لينين وزينوفييف وكامنييف يعتلون المنابر ويخوضون غمار السجالات الكلامية والقرارات ، كان ستالين وسفيردلوف يشرفان ، على نحو سري ولكن بلا كلل ، على المجموعات البلشفية في هذه الاجتماعات ، ويعملون بحيث تتصرف القواعد الحزبية وتصوّت بما يتلاءم مع سلوك القادة . الآن ، ينبغي على المنظم المنضبط الحاذق ، الذي كلفه لينين بتنفيذ هذه المهمة الدقيقة ضمن خطته الثورية ، ان يبرهن عن جدارته ، ليس ضمن حدود العمل السري الضيقة ، ولكن وسط حركة شعبية علنية ومطردة النمو . إلا ان دوره ظل ، بحكم طبيعته ، مجهولاً ومتواضعاً كالسابق . ليست له الشعبية والشهرة اللتان تغدقهما الثورة بسخاء وسرعة على قادتها الجماهيريين وخطبائها الكبار .

في تلك الاثناء ، اكتسبت الحركة البلشفية قائداً جماهيرياً جديداً بشخص ليون تروتسكي ، الذي سرعان ما تمكن ، بفضل جرأته واندفاعه السياسي وبراعته الخطابية ، من ان يبز القادة الموهوبين الآخرين الذين كانوا يخاطبون البلد يومياً من على منبر

سوفييت بطرسبرغ . عاد تروتسكي الى روسيا من معسكر اعتقـاله في كندا ، بعد شهر واحد من وصول لينين . وكان شغوفاً بأن يطوي سجاله الطويل مع مؤسس البلشفية ، وان يمد له يده . وكانت الحرب قد عدّلت جزئياً من نظرته للامور . فتخلى عن مشروعه القديم الداعي الى توحيد البلاشفة والمناشفة . كان قد منّى النفس بان الثورة سوف تدفع بالمناشفة جهة اليسار ، وتؤدي بالبلاشفة الى التحرر مما اعتبره قطعية تيـــارية تطبعهم . لكنه وجد ، عوضاً عن ذلك ، ان المناشفة قد اتجهوا الى اليمين وأضحوا من«الدفاعيين». ومن جهة اخرى ، بدا له ان البلاشفة اضحوا اكثر انفتاحاً بعد ان خرجوا من « العـــالم السفلي » . وكان على استعداد لأن يعترف لينــين ، وليس هو ، كان على حق في الخلاف الذي دار بينهما حول طبيعة الحزب الثوري وبنيته وانضباطه . وعزّى نفسه بالتفكير ان مؤسس البلشفية قد تبنى ، في اطروحات نيسان ، الفكرة الـتي كان تروتسكي يدعو اليها منذ زمن طويل ، والقائلة بانه ينبغي على الثورة الروسية ان ترمي الى اقامة دكتاتورية بروليتارية [1] — فلا عجب اذاً ان تعم الدهشة اوساط البلاشفة القدامى حول «الانحراف

---

(١) ان دوتيشر يقع هنا ضحية سوء تفاهم ، او سوء فهم ، ساد الاوساط التروتسكية حول تفسير ثورة ١٩١٧ الروسية . اذا كان تروتسكي قد عرّف الثورة الروسية ، منذ عام ١٩٠٥ ، على انها ستكون ثورة يتسلم العمال فيها الحكم ، فهل يعنى ذلك ان لينين بتبنيه في نيسان ١٩١٧ شعار « دكتاتورية البروليتاريا » واسقاطه الشعار البلشفي القديم «دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية» قد اكد صحة موضوعة تروتسكي؟ تروتسكي ، والتروتسكيون من بعده ، يجيبون على هذا السؤال بالايجاب .

على ان هذا الجواب ، والتفسير المبني عليه ، يغفلان عبارة اساسية للينين في اطروحات نيسان . يقول لينين ان ثورة شباط قد اقتربت من شعار « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » ، لا بل قد حققته « ما خلا بعض التفاصيل » . ان تروتسكي ، والتروتسكيين ، قد فسروا هذه العبارة على انهـا ضرب من الثورية ، لعب على الكلمات . والواقع انها ، عند لينين، تشير الى التغير الذي طرأ على الوضع الروسي بعد شباط ١٩١٧ ، والذي يحول دون محاولة تفسيره على ضوء موضوعات وشعارات تعود لفترة سابقة له . ان مأخذ لينين الاساسي على كامنييف (والجناح المعارض للانتفاضة المسلحة) هو انه قد اغفل هذا الوضع الجديد الذي يتسم خاصة ببروز السوفييت . ان ثورة شباط قد رفعت البرجوازية الى سدة الحكم المركزي (الدولة) ، لكن البروليتاريا والجنود والفلاحين ما لبثوا ان فرضوا سلطة خاصة بهم ، موازية لسلطـــة البرجوازية ، هي سلطة السوفييت ، من هنا ثنائية السلطة الـــتي برزت مع ثورة شباط . الا ان السوفييت فوض البرجوازية السيطرة على الدولة . ان سلطة السوفييت هي سلطة « ديمقراطية»(لانها تمثل غالبيةـــ←

التروتسكي » الذي انزلق لينين اليه فجأة .

وكان تروتسكي يرأس في بطرسبرغ مجموعة صغيرة من الاشتراكيين الموهوبين النافذين تدعى « ميزرايونتسي » (اي منظمة عبر الاحياء) ، التي انضمت الى الحزب البلشفي في شهر تموز . وينتمي الى هذه المجموعة اناس مثل لوناتشارسكي ، مفوض التعليم اللاحق ، بوكروفسكي ، المؤرخ الكبير ، ريازانوف ، واضع سيرة ماركس ، ودبلوماسيين من امثال مانيولسكي ، يوفا ، كاراخان ، يورينييف وغيرهم . وحتى قبل اعلان انضمامهم الرسمي ، كان تروتسكي وبعض من زملائه يعملون بالتعاون مع لينين ، ويتكلمون احياناً باسم البلاشفة في السوفييت وخارجه . ان جمهرة من القادة الجماهيريين الكبار النشيطين ، كما لم تعرفها اوروبا منذ ايام دانتوف وروبسبيير وسان جوست ، برزت الى المقدمة تحت الاضواء ، هذا في حين كان ستالين لا يزال يواصل نشاطه في ظلمة الكواليس .

ارتفعت الحمى الثورية باطراد في بطرسبرغ خلال شهري ايار وحزيران . فضحت الانتخابات البلدية في العاصمة هزال حزب مليوكوف – الدستوريون الديمقراطيون (الكاديت) – الحزب المسيطر على الحكومة . حاز الاشتراكيون المعتدلون على نصف الاصوات ، وتقاسم الاصوات الباقية الحزبان المتطرفان – الكاديت والبلاشفة – وبرزا كأقليتَين قويتَين . وحلت محل الحكومة التي يسيطر عليها الكاديت حكومة ائتلافية من الكاديت والمناشفة والاشتراكيين الثوريين . إلا ان الحكومة ، في محاولتها السيطرة على العاصمة ، لم تبرهن عن تمتعها بقوة فعلية . ان البلاشفة يسيطرون على ضواحي بطرسبرغ

← الشعب الحقيقية). لهذا السبب يعلن لينين اقتراب الوضع بين شباط ونيسان ١٩١٧ من تحقيق شعار البلاشفة عام ١٩٠٥ « ما خلا بعض التفاصيل » . من هنا ، فالدعوة في نيسان ١٩١٧ الى تحقيق « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » ضرب من العبث ، ما دام هذا الشعار قد تحقق تقريباً . من هنا ، فلا يمكن للمرحلة القادمة الا ان تنهي ثنائية السلطة ، ان تحسمها بسيطرة السوفييت على سلطة الدولة وخلع البرجوازية . فكان شعار « كل السلطات للسوفييت ! » .

(اعتمدت هذه الملاحظة على العدد المزدوج ٩ و ١٠ من « الدفاتر الماركسية اللينينية » (شباط ١٩٦٦) التي تصدرها حلقة الطلبة الشيوعيين في دار المعلمين العليا بباريس ، فرنسا) . (المترجم) .

العمالية . وفي الجيش ، تتعالى جلبة متعاظمة مطالبة ً بالسلم ، هذا في حين يضغط حلفاء روسيا الغربيون على قيادة الاركان الروسية العامة لحملها على شن هجوم شامل على الالمان . استقبل البلاشفة ُ التحالفَ الجديد بعداء ظاهر ؛ لكنهم عبّروا ، في معارضتهم لها ، عن خيال تكتيكي ومرونة لم يلبثا ان احرزا لهم مكاسب سريعة وواسعة النطاق . فلم يقدموا على مجرد تسقيط الحكومة ، لأنهم يعلمون ان الطبقة العاملة ما زالت مبهورة بكون الاحزاب الاشتراكية مشاركة في الحكم ، وذلك لأول مرة في تاريخ روسيا . لكن الطبقة العاملة ، الى جانب ذلك ، تشكك بالكاديت ، حزب الطبقة الوسطى ، الشريك الاكبر في الحكومة الائتلافية . لذا ، اخذ لينين يضغط على الاشتراكيين المعتدلين لفصم الائتلاف واقامة حكومة منهم فقط ، تعتمد على السوفييت . وفي ضواحي العاصمة الحمراء ، رفع المحرِّضون البلاشفة شعارَين بسيطَين : « يسقط الوزراء الرأسماليون العشرة ! » و « كل السلطات للسوفييت ! » . الشعار الاول يغذّي الريبة المتفشية حيال الكاديت في اوساط قواعد المناشفة والبلاشفة على حد سواء . اما المطالبة بنقل كل السلطات للسوفييت ، فهو يعني المطالبة بأن يتسلم الاشتراكيون المعتدلون السلطة بمفردهم ، ما داموا يتمتعون بأغلبية الاصوات في السوفييت ؛ وهكذا ، فان هذا الشعار يلقى صدى مشجعاً في اوساط العمال المناشفة العاديين . فانضمت افواج من العمال المناشفة الى الحزب البلشفي خلال شهري ايار وحزيران . وفي الثامن عشر من حزيران ، سار نصف مليون عامل وجندي في شوارع العاصمة في مسيرة دعا اليها ، رسمياً ، قادة ُالسوفييت من المناشفة ، لكن القسم الاكبر من جماهير المظاهرة رفع يافطات لا تكاد تحمل إلا الشعارات البلشفية . وكان المؤتمر الروسي الاول للسوفييت في طور الانعقاد آنذاك ؛ ولم يكن بوسع مندوبي المناطق — والبلاشفة بينهم اقلية لا تتجاوز نسبتهم سدس المجموع — إلا ان يتأثروا بهذا التعبير عن النفوذ البلشفي في العاصمة .

ووقع في مؤتمر السوفييت حادث هام . بينما كان احد الوزراء الاشتراكيين يبسط ، على نحو تبريري ، ضرورة وجود حكومة تمثل اكثر من طرف واحد ، مؤكداً ان ما من حزب يستطيع ان يعالج ، بمفرده ، التفكك والفوضى المتأتيين من الحرب ، قاطعه لينين من القاعة ، معلناً باقتضاب ان حزبه مستعد للاضطلاع بالسلطة كلها . ورغم ان كلمات لينين قد استقبِلت بالضحك الصاخب الهازىء ، إلا ان المسيرات الجماهيرية في شوارع العاصمة اضفت عليها تأكيداً قاطعاً .

الواقع ان البلاشفة لم يكونوا مؤهلين لتسلم الحكم . ظلوا يعتبرون ان السوفيت هي المصدر الشرعي للسلطة الثورية . وما دام حزبه اقلية في السوفيت ، استبعد لينين اية محاولة يقوم بها البلاشفة لتسلم الحكم . ولكن بقي عليه ان يقوم بعمل شاق لكبح جماح مجموعات العمال والجنود والبحارة النافذة الصبر ، وشبه الفوضوية ، التي نفرت من تكتيكاته الحذرة . ورأى ان الوتيرة المتفاوتة لتطور الثورة تعرض خطة عمله للخطر . ففي حين كانت هذه السياسات لا تزال تبدو شديدة التطرف بالنسبة للطبقة العاملة في المناطق ، كان قسم كبير من الحامية ومن البروليتاريا في العاصمة قد بدأ يشك بالبلاشفة ايضاً لاعتدالهم الزائد أو لافتقارهم الى القدر الكافي من الجرأة الثورية . وهذا ما اضطر ستالين الى ان يحذّر ، على صفحات البرافدا ، الضواحي الحمراء من المحرضين الفوضويين أو شبه الفوضويين الذين يحثون العمال على « النزول الى الشارع » قبل ان يحين الاوان لذلك . وفي بضعة الاشهر التي تلت ذلك ، اضطرت الحركة البلشفية الى ان توازن ، بصعوبة ، بين مخاطر تأجيل الثورة وبين المجازفات المترتبة على القيام بعمل سابق لأوانه .

والامر الذي ضاعف هذه المخاطر والمجازفات هو ان الردة المضادة للثورة كانت هي ايضاً تتحفز للمعركة الحاسمة . فالجنرالات الملكيون ، وعُصَب الضباط الوطنيين ، وجمعيات متقاعدي الجيش ، والطبقة الوسطى المؤيدة لحزب الكاديت ، كل هؤلاء أدركوا معنى تظاهرة حزيران وقرروا مواجهة المد البلشفي الصاعد بانقلاب عنيف . وارتبك القادة الاشتراكيون المعتدلون ، وساورتهم فكرة تقول ان هذه المواجهة سوف تخلصهم من منافسيهم اليساريين في وقت يتزايد فيه شعورهم بالعجز عن التصدي لهؤلاء المنافسين . وصمم لينين وزملاؤه على ان لا يساقوا الى اعلان انتفاضة سابقة لأوانها . انهم على يقين من ان بوسعهم تسلم الحكم فوراً ، بالاعتماد على الجماهير البروليتارية في العاصمة وحدها ؛ لكنهم كانوا مقتنعين ايضاً بانهم لن يستطيعوا الصمود في وجه معارضة سائر انحاء روسيا . وقد ادركوا ، فضلاً عن ذلك ، ان اية تظاهرة كبرى تنزل الى شوارع بطرسبرغ معرضة لأن تتحول ، الآن اكثر من اي وقت مضى ، الى حرب شوارع . فالعمال مسلحون . والجنود نادراً ما يشتركون باية تظاهرة دون بنادقهم . وعلى كل حال ، فكل تظاهرة غير مسلحة معرضة لأن تكون هدفاً لرصاص العصابات المضادة للثورة . لذا ، منعت اللجنة المركزية للحزب البلشفي التظاهرات على انواعها . غير انها عجزت عن وضع هذا القرار موضع التنفيذ . إذ تعذر عليها السيطرة على الجموح الثوري في الضواحي والثكنات . هذه هي

خلفية الازمة العنيفة في « ايام تموز » حيث لعب ستالين دوراً غريباً، وحيث مُني البلاشفة بانتكاسة شديدة ، لكنها آنية .

في تقرير له الى المؤتمر السادس للحزب ، الذي انعقد بعد حوالي اسبوعين من « ايام تموز » ، قدم ستالين وصفاً حياً وصادقاً ، على ما يبدو ، للاحداث . في بعد ظهر يوم الثالث من تموز ، اقتحم وفد يمثل احدى القطعات العسكرية قاعة مؤتمر الحزب في المدينة ، معلناً ان قطعته وقطعات اخرى قد قررت « النزول الى الشارع » في مساء اليوم نفسه ، وانهم قد ارسلوا الرسل الى القطعات والمصانع الاخرى لدعوة الجميع الى الالتحاق بالتمرد . فأقدم فولودارسكي ، قائد « لجنة الحزب في بطرسبرغ » ، على تذكير الجنود ، بحزم ، بان الحزب يتوقع منهم ، بوصفهم من اعضائه، ان يتقيدوا بقرار منع التظاهرات . ثم اجتمعت اللجنة المركزية ، ولجنة بطرسبرغ ، والمنظمة العسكرية البلشفية مجدداً لتؤكد قرار المنع ، وأرسلت الدعاة الى المصانع والثكنات للاشراف على تطبيقه . وفي الوقت ذاته ، انتدبت اللجنة المركزية ستالين لابلاغ اللجنة المركزية للسوفييت ، التي يسيطر عليها المناشفة ، بالتطورات الجديدة. وبعد مضي ساعتين على بدء هذه الاحداث، كان ستالين ينفذ المهمة الموكلة اليه . إلا ان العاصفة كانت قد هبت ، ولا من يصدها . فعند المساء ، تحلقت جموع من العمال وعدد من القطعات العسكرية ، بكامل سلاحها وعتادها ، امام مكاتب لجنة الحزب في بطرسبرغ . وناشد الخطباءُ البلاشفة الجمعَ ان يتفرق بهدوء ، لكن الجمع قاطعهم بالزعيق والتهويش. ان عناصر الثورة الهائجة تعاندهم. ثم اقترح هؤلاء على المتظاهرين ان يسيروا الى قصر التوريد ، قصر السوفييت ، لتقديم مطالبهم الى اللجنة التنفيذية للسوفييت . فتحركت المسيرة على انغام نشيد «المارسلييز» . وطوال الليل ، حاصر الجمع قصر التوريد ، منتظراً عن عبث جواباً على طلبهم بأن يتبرأ قادة السوفييت من الحكومة المؤقتة وان يتسلمون الحكم بأنفسهم .

في تلك الاثناء ، كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون يعدون الساعات بانتظار ان تهب الى نجدتهم سريعاً القوات الحكومية « الموالية » . حتى ذلك الحين ، كانت الاجتماعات والمسيرات لا تزال سلمية ،لكن الهياج يتزايد ساعة بعد ساعة حتى وصل الى حد الانفجار. وتعرّف الجمع الى تشيرنوف ، وزير الزراعة ، فأقدمت زمرة من الرعاع على « القاء القبض عليه » . ولولا سرعة خاطر تروتسكي وجرأته ، لما كان امكن انقاذ الوزير ، وهو ثوري قديم ، من التعرض لأعمال عنف ، واطلاق سراحه . بعد ان انتصف الليل

بساعات ، كان لا يزال زينوفييف ، من على شرفة قصر التوريد، يتناقش بلا كلل وبصوته الجهوري مع الجمع ، محاولاً تحقيق المستحيل : اقناع الجمع بالعودة الى بيوتهم ولكن مع اذكاء حماسهم الثوري . اللجنة المركزية البلشفية في حالة انعقاد دائمة – تعالج المعضلة العويصة . وتقرر ، اخيراً ، ان يشترك الحزب في التظاهرة بغية قيادتها الى شاطىء الامان . والخطر في ذلك ان يتعذر عليهم الامر ، ان يعجزوا عن تفادي المعركة ، وهذا قد يؤدي في النهاية الى هزيمة نكراء ترّجح كفة الردة المضادة للثورة. والهزيمة في مواجهة كهذه هي الارجح ما دام البلاشفة يعمدون على تفادي المعركة باستمرار . امـا الطريق الثاني المفتوح امامهم ، فهو التخلي عن المتظاهرين والقاء الحبل على غاربها . ولكن ليس من شيم حزب الثورة الخلود الى سكينة كهذه. إذا ُتركت الجماهير لتتدبر امرها بمفردها، لأهوائها وتسرّعها ، فانها سوف تقع ، لا محالة ، في فخ الحرب الاهلية . وهي لن تغفر للبلاشفة أبداً تخليهم عنهم في الساعات الحرجة . ولا كان البلاشفة يريدون تشويه سمعتهم في أعين هؤلاء الناس الذين يتوقف على ثقتهم ودعمهم النصر الاكيد .

في بضعة الايام التالية تزايد عدد التظاهرات وتفاقمت حدتها ، فأدت الى اصطدامات متقطعة ودامية . إلا ان اسوأ ما توقعه البلاشفة لم يحـدث – لم تتحول الاصطدامات الى حرب اهلية . فسرعان ما خمدت جذوة الحركة كلها وانطفأت . وعلى الاثر ، اندلعت حركة مضادة تسير بسرعة متسارعة . وانضمت الى المعركة عصابات يمينية مسلحة وسط ارتياح الطبقات الوسطى والعليا . واجتاحت المقر البلشفي ومكاتب البرافدا . وسط كل هذه الاضطرابات ، ورد نبأ اخفاق الهجوم الروسي على الجبهة .فالقي اللوم على البلاشفة؛ وارتفعت الاصوات مطالبة بالثأر . فاتهـم المحرضون اليمينيون لينين وأتباعه بالعمالة لالمانيا . ونشرت احدى الصحف الواسعة الانتشار مجموعة من الوثائق المزيفة كان المفروض فيها اثبات التهمة . وشنت القوات الحكومية حملة تأديبية ضد الضواحي الحمراء .

طوال « ايام تموز » ، كان ستالين يجري المداولات مع اللجنة التنفيذيـة للسوفييت كمندوب عن اللجنة المركزية ، وباذلاً جهده للسيطرة على العناصر العاصية . في البدء ، ابلغ اللجنة التنفيذية قرار البلاشفة ضد التظاُهر ، لكنه سرعان ما سمع ان القرار قـد ُنقِض . ويبدو انه كلـِّف بابلاغ قـادة السوفييت بالتغيّر الذي طرأ وشرح الاسباب الداعية اليه . ويبدو ايضاً ان صدق نية ستالين كان امراً مسلماً به في اوساط السوفييت القيادية ؛ لأن ما من احد تعرّض له فيما بعد ، عندما اصدرت الحكومة الاوامر باعتقال

القادة البلاشفة ، وذلك رغم كونه عضواً في اللجنة المركزية . وقد اوكل اليه ايضاً ان يتولى تنفيذ آخر فصل من فصول شبه الانتفاضة هـذه ، تسليم الثوار لحصن « بطرس وبولس » المنيع . ذهب ستالين الى الحصن ، الواقع على جزيرة مقابل المقر البلشفي العام ، بصحبة عضو منشفي من لجنة السوفييت التنفيذية ، في اللحظـة نفسها التي كانت القوات الحكومية تحتل هذا المقر . وكانت حامية الحصن مكونة من بحارة كرنستاد ، المسلحين بالرشاشات الذين بدأوا التمرد ، ومن الحرس الاحمر المدني ، وكلهم يرفض الاستسلام ويتهيأ لحصار طويل دام . فيسهل علينا ان نتصور مبلغ دقة مهمة ستالين وصعوبتها . ومما ساعده تأكيدات رسمية بان المتمردين لن يجازوا على اعمالهم ؛ لـكنهم اصروا ، رغم ذلك ، على عدم الاستسلام . وفي النهاية ، اقنعهم ستالين ، بمهارة ، ان يستسلموا للجنـة التنفيذية للسوفييت ، وهذا أشرف من الاستسلام للحكومة . وهكذا امكن تفادي حمّام دم لا تحمد عقباه .

ان الانتكاسة الـتي اصابت البلاشفة انما هي انتكاسة سطحية ، وهذا ما سوف تثبته الاحداث . غير ان جميع الاطراف نزعت ، على اثر « ايام تموز » ، الى تضخيم الانتكاسة . وظن معظم القادة البلاشفة ، ومنهم لينين ، ان الهزيمة افدح مما هي عليه فعلاً . استعرت حمـلة التشهير بالبلاشفة . اُتهم لينين وزينوفييف بالتجسس لصالح المانيا . ورغم ان الاشتراكيين المعتدلين كانوا يعلمون تمام العلم ان التهمة باطلة اصلاً ، إلا ان حقدهم على البلاشفة كان من العنف بحيث منعهم من تبرئة لينين ورفاقه منها . وقد شك معظمهم في ان لينين قد اقدم ، خلال « ايام تموز » ، على محاولة جادة لتسلم الحكم .

وها هي اللجنة المركزية تناقش ما يجب ان يفعله لينين وزينوفييف : ان يستسلما للسلطات أو ان يتواريا عن انظارهـا . وتردد الرجلان : خشيا ان يؤدي تهربهما عن مواجهة المحكمة الى تثبيت التهم الموجهة اليهما في نظر الرأي العام غير المطلع بما فيه الكفاية على الحقائق . وكان هذا ، في البدء ، موقف لوناتشارسكي وكامنييف ايضاً . إلا ستالين ، فقد نصحهما ، على عكس رفاقه ، بأن يتواريا عن الانظار . وقـال ان الركون الى عدالة الحكومة المؤقتة ضرب من الجنون لا غير . ان الهستيريا المعـادية للبلشفية قد بلغت حداً لن يتردد عنده أي ضابط شاب يكلـَّف بسوق « الجواسيس الالمان » الى السجن — أو من السجن الى المحكمة — عن اغتيالهما على الطريق ، ظنـاً منه انه يقوم بذلك بعمل وطني . لكن لينين ظل متردداً في القبول بنصيحة ستالين . فاتصل هذا ، اذ ذاك ، باللجنـة

التنفيذية للسوفييت عارضاً عليها استعداد لينين للمثول امام المحكمة ، شرط ان تضمن اللجنة التنفيذية حيـــاته وسلامته الشخصية من العنف الكيفي . ولمـا امتنع المناشفة والاشتراكيون الثوريون عن تحمّل مثل هذه المسئولية ، قرر لينين وزينوفييف ، اخيراً ، الإستخفاء .

واستخفى لينين في ٨ تموز ، متذكراً ، ولا شك ، وضعاً مماثلاً هو وضـع روبسبيير الذي لوحق بطريقة مماثلة بعد مدة قصيرة من تسلمه الحـكم ؛ فاستخفى عند نجار يعقوبي . اما « نجار » لينين ، فهو العامل اليلوييف ، صديق ستالين القديم . فامضى لينين بضعة ايام في منزله . وفي ١١ تموز ، رافقه ستالين واليلوييف ، عبر شوارع المدينة المعتمة ، الى المحطة البحرية ، حيث غادر العاصمة ليختبىء في القرى المحيطة بها ، ثم في فنلندا . منذ ذلك التاريخ وحتى ثورة اكتوبر ، ظل لينين متخفياً ، يلهم استراتيجيـــة حزبه ، بل تكتيكه ايضاً ، عن طريق مناشير ومقالات ورسائل امطر بهـــا اللجنة المركزية . ورافقه زنيوفييف في رحلته هذه . وبعد بضعـة ايام ، القي القبض على كامينيف ، وعلى تروتسكي — الذي اعلن تضامنه الصريح مع لينين — ولوناتشارسكي وغيرهم . هكـــذا تبعثر القادة الكبار . وها هو ستالين ، في هذه اللحظة الحرجة ، يخطو مجدداً الى مقدمة المسرح ليتولى قيادة الحزب . وقد اسعفه في ذلك انه من المغمورين نسبياً ، فلم يثر اسمه الغضب والحقد اللذين تثيرهما الاسماء الاخرى .

بعد رحيل لينين بمدة قصيرة ، كتب بتوقيعه الكامل (« ك . ستالـــين ، عضو اللجنة المركزية » ، الخ) نداءً بعنوان « رصّوا الصفوف » ، موجهاً الى الحزب المنهزم غير المقضي عليه . فكرر القول ان الاحداث قد اجبرت الحزب على خوض غمار « ايام تموز » ، وان الردة المضادة للثورة قد دخلت طور الهجوم ، وان « المساومين » يتحملون مسئولية فادحة . ان هجوم الردة المضادة للثورة لم ينته بعد — « انهم ينتقلون الآن من الهجوم على البلاشفـــة الى الهجوم على كل الاحزاب المشاركة في السوفييت وعلى السوفييت نفسها » . وتكهن بوجود ازمة سياسية جديدة على الابواب :

« استعدوا للمعارك القادمة .... تحذيرنا الاول : لا تستجيبوا لاستفزازات اعـــداء الثورة ، تسلحوا بالصمود والسيطرة على النفس ، وفروا قواكم .... تحذيرنا الثاني : مزيد من الالتفاف حول الحزب ، شجعـــوا الضعفاء ، جروا المتخلفين عن الركب » .

وقد ردد التعليمات ذاتها امام مؤتمر بلاشفة المدينة الذي انعقد قبل « ايام تموز » وواصل اجتماعاته على نحو شبه سري بعدها . وتبنى المؤتمر بياناً كتبه ستالين باسلوب هو خليط متميز من الثورية والروح الشرقية والبيان الكهنوتي :

« بديهي ان يأمل هؤلاء السادة بتفريق صفوفنا ، ببث الريبة والفوضى في اوساطنا ويجعلنا نشكك بقادتنا . تباً لهم ! انهم لا يعرفون ان اسماء قادتنا (اي اسماء لينين ، تروتسكي ، زينوفييف وكامينيف) لم تكن عزيزة وقريبة الى قلوب الطبقة العاملة اكثر مما هي الآن ، في اللحظة التي يقدم فيها زبانية البرجوازية الوقحة على تدنيسها . يا للخونة المأجورين ! انهم لا يفقهون ان حب العمال لقادتهم يتزايد بتزايد تجديف البرجوازيين الاجراء ... ان وصمة عار تلطخ جبين المتخرصين ... احملوا هذه الوصمة معكم الى القبر من ٣٢ الف عامل منظم في بطرسبرغ... وانتم ، ايها السادة الرأسماليون ، وملاك الارض واصحاب المصارف ، ايها النفعيون والكهنة وعملاء الاستخبارات ... لقد اسرعتم في دفن الثورة الروسية العظمى . ان الثورة حية لم تمت ، وسوف تلسعكم نيرانها ، ايها السادة ، يا حفاري القبور ! »

وبالتأكيد ، سرعان ما تعافى البلاشفة من الضربة التي حلت بهم . وفي نهاية شهر تموز ، تمكنوا من ان يعقدوا ، على نحو شبه سري ، مؤتمراً وطنياً تمثل فيه ٢٤٠,٠٠٠ عضو حزبي ، اي ثلاثة اضعاف ما كانوا عليه في نيسان من العام نفسه . وكان ستالين وبوخارين المتحدثين الرئيسيين باسم اللجنة المركزية . ومن اهم وقائع المؤتمر النقاش الذي دار بين ستالين وبوخارين وبريوبراجنسكي حول طابع الثورة القادمة . وهو ، من جهة ، صدى للسجال حول موضوعات نيسان للينين ؛ ومن جهة اخرى ، استباق لسجال اكثر درامية سوف يدور في السنوات اللاحقة . تقدم ستالين بمشروع قرار يقول ان الثورة الروسية الظافرة سوف توجه سلطتها ، « بالتحالف مع البروليتاريا الثورية في البلدان المتقدمة نحو تحقيق السلم وتحويل المجتمع على اساس اشتراكي » . وورد تعديل من بريوبراجنسكي ، الاقتصادي الماركسي الشاب ، يقول بانه ينبغي على الحكومة الثورية « ان توجه سلطتها لتحقيق السلم ، وبناء الاشتراكية في حال قيام الثورة البروليتارية في الغرب » . وقد افترضت الصيغتان ان « التحالف » بين الثورة الروسية والبروليتاريا الاوروبية الغربية امر بدهي. غير ان بريوبراجنسكي يرى انه لا يجوز لروسيا ان تشرع في

البناء الاشتراكي الا اذا قامت الثورة في اوروبا الغربية . وفي حال عدم قيامها ، تكتفي الثورة بتحقيق السلم (وبتدعيم النظام الديمقراطي) . وقد حدّد بوخارين اهداف الثورة على نحو مماثل . اما ستالين ، فلم ير سبباً يحول دون شروع روسيا ببناء الاشتراكيـــة ، بغض النظر عن قيام الثورة في الغرب ام لا ، ورد على بريوبراجنسكي بقوله :

« ليس بمقدورنا ان نستبعد احـتمال ان تكون روسيا بالذات هي البلد الذي يمهد الطريق للاشتراكية ... ان قاعدة الثورة في روسيا اوسع ممـا هي عليه في اوروبا الغربية ، حيث تقف الطبقة العاملة بمفردها ضد البرجوازية . اما عندنا ، فالطبقة العاملة تحظى بدعم فقراء الفلاحين .... في المانيا ، يعمل جهاز الدولة بفعالية لا تضاهى .... ينبغي ان نتخلى عن الفكرة البالية القائلة ان اوروبا هي التي سوف تدلنا على الطريق الواجب اتباعها . توجـــد ماركسية قطعية وتوجد ماركسية خلاقة . اني اختار هذه الاخيرة » .

ومن سخريات القدر ان رأي ستالين ، في تلك الفترة ، كان مطابقاً لرأي تروتسكي ؛ ذلك ان تروتسكي ايضاً كان يجادل قائلاً ان روسيا سوف تبدأ الثورة الاشتراكية قبـــل اوروبا . ولم يكن ستالين قد بدأ يبشر بفكرة « الاشتراكية في بلد واحد » التي تقول ان روسيا قادرة ، بمفردها وبمعزل عن سائر اجزاء العالم ، على بناء صرح الاشتراكية كاملاً . وهو لم يبلور هذه الفكرة بالتعاون مع بوخارين ، وضد تروتسكي ، الا بعد عدة سنوات . ولكن ، منذ ذلك الوقت المبكر ، اخذ يشدد في حديثه على رسالة روسيا الاشتراكية المتميزة اكثر من تروتسكي ولينين معاً . اننا نجد التشديد ذاته في كتابات تروتسكي ولينين في ذلك الحين ، ولكن الذي يبطل مفعوله هو تأكيدهما في المقابل ، وبنفس الإلحاح ، على ارتهان مصير الاشتراكية في روسيا في نهاية المطاف، بمصير الثورة البروليتارية في الغرب. ولسان حالها هو التالي : ان روسيا قادرة على الشروع ببناء الاشتراكية ، وهذا مـــا سوف تقدم عليه فعلاً ، قبل البلدان الاخرى الاكثر تقدماً منها ؛ ولكنها لن تقطـــع اشواطاً بعيدة في هذا الميدان اذا هي ظلت بمفردها . وكان ستالين يميل الى ترديد الشطر الاول من هذه الموضوعة ، مهملاً شطرها الثاني . والواقع ان كلماته تنضح بايمان ضامر ، شبه واع ، بمقـــدرة الثورة الروسية على ان تكفي نفسها بنفسها . ولكن في تموز وآب من ع م ١٩١٧ ، لم يلاحظ احد هذه الالحاحات الحبلى بالمعـــاني التي تشير الى الانشقاق اللاحق .

ان انضمام مجموعة تروتسكي رسمياً الى الحزب البلشفي خـــلال المؤتمر الذي قاده ستالين ، والذي انتخب فيه تروتسكي ، وهو بعد في السجن ، عضـواً في لجنته المركزية الجديدة ، لهو حدث ينطوي على مسحة من السخرية . اما الاعضاء الآخرون فهم لينين ، ستالين ، كامينيف ، زينوفييف ، سفيردلوف ، ريكوف ، بوخارين، نوغين ، يوريتسكي ، مليوتين ، كولانتاي ، ارتيم ، كرتينسكي ، دزرجنسكي ، يوفـــا ، سوكولينوف ، سميلغا ، مورالوف ، شوميان ، برزين . وقد حيا المؤتمر القادة المضطهدين بان انتخب لينين ، تروتسكي ، زينوفييف ، لوناتشارسكي ، كامينيف و كولانتاي اعضاء فخريين في مجلس الرئاسة .

على ان الرجل الذي قادالحزب خلال غياب القادة الكبارلم يتفتق عن افكار عظيمة . وقد خلا خطابه من اية ومضة من الفكر المبتكر . فكلماته جافة وباردة . لكنـــه يتمتع بثقة بالغة بالنفس . وكان صموده وركانته كافيين لان يضعا حداً لاي بوادر ذعر قد تعم الصفوف . وبينما كان يتلو تقريره امام المؤتمر ، تواترت انباء عن حملات تأديبية تشن ضد البلاشفة فيمدن مختلفة ، بما فيها تساريتسين(التي سوف تسمى ستالنغراد فيما بعد)،وعن فرض الاحكام العرفية على البـــلد ككل . لم يضطرب المؤتمر . فستالين مثله مثل كوبا ايام باكوالسالفة عندما كان مد الثورة الاولى في صعود ، تمكن من السيطرة على العاصفة .

وانسحب ستالين مرة اخرى الى عتمة الكواليس بعد المؤتمر ، عندمـا اطلق سراح القادة السجناء واحداً واحدا : كامينيف فتروتسكي فلوناتشارسكي وغيرهم .

في نهاية شهر آب ، ساد العاصمة جو من الذعر اثاره تمرد الجنرال كورنيلوف ، القائد العام للجيش ، ضد الحكومة المؤقتة ؛ وهو تمرد اكد التحذيرات البلشفية المتتاليـــة عن خطر الردة المضادة للثورة المداهم . ان اصل الانقلاب غامض . كان كرنسكي ، رئيس الوزراء ، قد قرر التصدي للبلاشفة في مواجهة حاسمة ، فطلب من الجنرال كورنيلوف ان يبعث الى العاصمة بقوات يمكن الاعتماد عليها . لكن الجنرال لم يكن ليكتفي بقمـع البلشفية ، فهو يريـــد تحرير الوطن من السوفييت ، والاشتراكيين المعتدلين ، ومن كرنسكي نفسه ايضاً . محشواً بالاعتداد بالنفس ، وبشعور بالقيام بمهمة « انقاذ المجتمع » لم يخف كورنيلوف مراميه ،فسحب اعترافه بالحكومةوامر قواته بالزحف على بطرسبرغ بعد ان سلم « ريغا » للالمان .

وعم الذعر اوساط الحكومة والسوفييت واللجان التنفيذية المنشفية والاشتراكية الثورية . ليسوا في وضع يسمح لهم بالانتصار على محاولة كورنيلوف الانقلابية دون مساعدة البلاشفة ، دون تسليح العمال الذين يدينون بالولاء للينين ، دون بعث النشاط في اوصال السوفييت ، واستدعاء الحرس الاحمر المحلول منذ « ايام تموز » . فتوجه كرنسكي نفسه بطلب الى البلاشفة لكي يحثوا بحارة كورنستاد ، الذين لعبوا دوراً مرموقاً خلال عصيان تموز ، على « حماية الثورة » . وكبت البلاشفة استياءهم وتحاملهم ، ولبوا النداء ووقفوا في « الصفوف الامامية » يحاربون كورنيلوف . هكذا ، تجاوزت الردة المضادة للثورة حدودها ، ودفعت بجميع الاجنحة الاشتراكية الى تكوين « جبهة موحدة » قضت عليها . لكن البلاشفة ، من جهتهم ، تحاشوا ارتكاب عين الخطأ الذي ارتكبه كرنسكي . ولما زار بحارةُ كرونستاد تروتسكي في سجنه ، وسألوه ما اذا كان ينبغي « الاطاحة » بكورنيلوف و كرنسكي معاً بضربة واحدة ، نصحهم تروتسكي بضرب اعدائهم واحداً واحدا. فانهارت المحاولة الانقلابية بعد بضعة ايام [1] .

---

(١) الواقع ان موقف البلاشفة التكتيكي لم يكن بهذه البساطة . في رسالته الى اللجنة المركزية (بتاريخ ٣٠ آب ، ١٩١٧) ، يعتبر لينين ان عصيان كورنيلوف انعطاف حاسم في سير احداث الثورة ،ينبغي التوقف عنده لمراجعة خطة الحزب التكتيكية .

كانت ردود الفعل الاولية لبعض البلاشفة ، حيال خطر عصيان كورنيلوف المضاد للثورة ، الدعوة الى تبني فكرة الدفاع عن الوطن ، وتشكيل جبهة مع الاشتراكيين الثوريين ودعم الحكومة المؤقتة . وفي معرض الرد على هؤلاء ، يستعيد لينين بوضوح وتحديد كاملين ، مفهومه للتحالفات السياسية .

ـ مسألة الدفاع عن الوطن : يؤكد لينين ان استيلاء الالمان على ريغا واحتمال استيلائهم ـ أو استيلاءهم الفعلي ـ على بطرسبرغ لا يجوز ان يؤدي بالبلاشفة الى تبني شعار الدفاع عن الوطن :

« لن نصبح انصاراً للدفاع عن الوطن إلا بعد تسلم البروليتاريا الحكم ، بعد عرض السلم ، بعد ادانة المعاهدات السرية ، بعد قطع العلاقات مع المصارف » . (البلاشفة وثورة اكتوبر ، ص ٩٠) .

ـ الموقف من حكومة كرنسكي : هل ان محاربة كورنيلوف ينبغي ان تؤدي بالبلاشفة الى دعم حكومة كرنسكي ؟ يجيب لينين : ان محاربة كورنيلوف لا يجوز ان تؤدي الى دعم حكومة كرنسكي ، كما وان عدم دعمها لا يعني مهادنة كورنيلوف . فبين هذه وتلك حد فاصل لا يجوز تجاوزه . بدلاً من دعم ←

ان اخفاق الردة المضادة للثورة في بلوغ مراميها قد حفز الحركة البلشفية لأن تقفز آخر قفزة لها في الطريق الى السلطة . فخرج البلاشفة من الازمة والرأي العام ينظر اليهم بوصفهم الاكثر تصميماً بين المدافعين عن الثورة ، ان لم نقل انهم المدافعين الوحيدين عنها . وبعد قمع تمرد كورنيلوف ، دعا لينين المناشفة والاشتراكيين الثوريين ، علناً ، الى فصم شراكتهم مع الكاديت ، اعوان كورنيلوف ، والى تسلم زمام الحكم ، وارسائه على السوفييت ، واعداً بانهم إذا سمعوا نصيحته ، فان البلاشفة سوف يكتفون بلعب دور المعارضة الشرعية الدستورية ضمن اطار السوفييت . ولما رفض المناشفة والاشتراكيون الثوريون العمل بمقتضى هذه النصيحة ، فما من شك في انهم قد حطوا من قدر انفسهم في نظر الطبقات العاملة . ونمت شعبية البلاشفة في الجيش مع ارتفاع الجلبة المطالِبة بالسلم وبالارض للفلاحين . ولعل الافتتاحية التي كتبها ستالين لعدد ٣١ آب من صحيفة « رابوتشيي » دون توقيع ، نموذج عن الاسلوب البسيط النافذ الذي اعتمدته الدعاية البلشفية آنذاك ، علماً بأن كتابات ستالين لم تكن في اي يوم من الايام « القطع النادر » في الدعاية البلشفية :

« ان الردة المضادة للثورة التي اثارها ملاك الارض والرأسماليون قد هُزمت، ولكنها لم تتحطم نهائياً .

انهزم الجنرالات اكلورنيلوفيون . لكن انتصار الثورة لم يصبح اكيداً بعد .

← كرنسكي ، ينبغي على البلاشفة العمل بانتظام لفضحه .

ان التعديل الذي طرأ على تكتيك البلاشفة بعد عصيان كورنيلوف هو تعديل في شكل النضال ضد حكومة كرنسكي . و « التنازل » الوحيد الذي يجوز للبلاشفة تقديمه لها ، في هذا الصدد ، هو عدم العمل للاطاحة بها . صحيح ان البلاشفة كانوا يعملون على فضح كرنسكي بانتظام قبل عصيان كورنيلوف ، لكن التعديل الذي طرأ بعده هو ان عملية الفضح هذه اضحت المهمة الرئيسية فيما يتعلق بموقف البلاشفة من كرنسكي . وترجمتها العملية هي في مطالبته باعتقال كورنيلوف ، وتسليح عمال بطرسبرغ ،واستدعاء بحارة كرونستاد ، وحل مجلس الدوما ، والسماح بتوزيع اراضي الملاك الكبار على الفلاحين ، واقامة رقابة عمالية على القمح والصناعة ... وليست هذه المطالبة موجهة الى كرنسكي بقدر ما هي موجهة الى العمال والجنود والفلاحين الذين يحاربون كورنيلوف ، لجرهم الى مواقع اكثر جذرية . (البلاشفة وثورة اكتوبر ، ص ٩٠ و ٩١) - (المترجم) .

لمـــاذا ؟

لأن المساومين يتفاوضون مع اعدائنا – بدلاً من ان يشنوا عليهم الحرب بلا هوادة .

لأن الدفاعيين يعقدون الصفقات مع ملاك الارض والرأسماليين ، بدلاً من ان يقوموا بسحقهم .

لأن الحـكومة تدعوهم للاشتراك بالوزارة ، بدلاً من ان تعتبرهم خارجين عن القانون .

ان الجنرال خالدين يعد العدة لتمرد مضاد للثورة في روسيا الجنوبية . غـير انهم قد عينوا صديقه – الجنرال الكسييف – رئيساً للأركان .

وفي عاصمة روسيا ، اقدم حزب مليوكوف على دعـــم الردة المضادة للثورة علناً . مع ذلك ، فان ممثلي هذا الحزب – من امثال ماكلاكوف و كيشكين –قد دُعوا للانضمام الى الوزارة .

ولقد حان الوقت لـكي نضع حداً لهذه الجريمة النكراء بحق الثورة .

آن الاوان لـكي نعلن بحزم وقطعية **ان على المرء ان يناضل ضد اعدائه لا ان يسعى الى الاتفاق معهم** .

ضد ملاك الارض والرأسماليين ، **ضد** الجنرالات وأصحــاب المصارف ، **مع** مصالح شعوب روسيا ، **مع** الســـلم ، **مع** الحريـة ، **مع** الارض – تلك هي شعاراتنا .

المهمة الاولى : اعلان القطيعة مع البرجوازيين وملاك الارض .

المهمة الثانية : تشكيل حكومة عمال وفلاحين » .

بعد مضي بضعــة ايام على اعتقال الجنرال كورنيلوف ، وقع حادث هام في سوفييت بطرسبرغ . إذ اضحى البلاشفة حزب الاغلبية فيه ، نتيجة انتخابات فرعيـــة اجريت مؤخراً . وجرت تحولات مماثلة في سوفييت موسكو والمدن الاخرى . وسرعان ما انتخِب تروتسكي ، بعد اطلاق سراحه بكفالة ، رئيساً لسوفييت بطرسبرغ،وهو المنصب الذي شغله عام ١٩٠٥ . فطلب السوفييت ، بقيادته ، من اللجنة التنفيذية المركزية ، التي

لا يزال يسيطر عليهـا الاشتراكيون المعتدلون ، ان تدعو الى عقد مؤتمر ثان للسوفييت في عموم روسيا ، ونقل كل السلطات اليه . منطقياً ، يمكن اعتبار هذا القرار مقدمة للثورة. فما دام المناشفة الاشتراكيون الثوريون هم الذين يشكلون الاغلبية في السوفييت ، فلا يمكن للضجة التي يثيرها البلاشفة حول شعار « كل السلطات للسوفييت » ان يؤدي الى ايـة نتائج عملية مباشرة . وكان هذا الشعار يعني انه يجب على المناشفة والاشتراكيين الثوريين ان يتسلموا كل السلطات . ولكن أنْ تتبع الاغلبية هذا الخط أم لا ، امرٌ عائد لهـا . أما الآن ، فان شعار « كل السلطات للسوفييت » يعني تسلم البلاشفة للسلطة بوصفهم حزب الاغلبية الجديد . هنا يرد السؤال التالي: ولكن ماذا لو رفضت الحكومة المؤقتة الانصياع لهذا الامر ، والتنازل عن سلطاتهـا للسوفييت ؟ آنذاك ، يفرض الواجب السياسي على البلاشفة ان يؤكدوا على مطالبهم في وجه الحكومة المؤقتة ، وان يعملوا على الاطاحة بها، ووضع حد لثنائية السلطة الموجودة . وهذا لن يتم إلا بواسطة الانتفاضة .

هذه هي النتيجة التي توصل اليها لينين في منتصف ايلول . وقرر ان يحث اللجنـة المركزية على التهيئة للانتفاضة . وبما انه يتعذر عليه حضور اجتماعاتها شخصياً ، فقد ظل على اتصال برفاقه عن طريق سلسلة من الرسائل التي تشكل (بالاضافة الى المحاضر غـير الكاملة لاجتماعات اللجنة المركزية) منفذاً فريداً الى قلب المراحل التمهيدية للانتفاضة ، وعلى الاخص الى السجال الدرامي بين القادة البلاشفة الذي سبقها . فيحمل احد المبعوثين الرسائل الى منزل سيرغو اليلوييف حيث اختبأ لينين خلال « ايام تموز » والى حيث انتقل ستالين بعده بقليل . وستالين هو ضابط الاتصال بين لينين وبين اللجنة المركزية . وقد حمل معه الى جلسة اللجنة المركزية في ١٥ ايلول مذكرتين من لينين: « واجب على البلاشفة ان يتسلموا السلطة » و « الماركسية والانتفاضة » . كتب لينين :

« لكي نعالج الانتفاضة بطريقة ماركسية ، أي بوصفها فناً ، ينبغي ان ننظـم ، دون أي تأخير ، فِرق الثوار ، وان نوزع القوى ، وننقل الوحدات العسكرية الموثوقة الى المراكز الحساسة ، ونحاصر مسرح الكساندرينسكي (حيث ينعقد ما يسمى « الندوة الديمقراطية » ، ان نستولي على حصن بطرس وبولس ، ونعتقل القيادة العامة للجيش وأعضاء الحكومة ... ونسيطر على بدالات الهاتف ومراكز البريد والبرق ، ونتخذ من بدالة الهاتف مقراً لقيادتنا الثورية ، ونصله ، بواسطة الهاتف ، بكل المصانع والافواج والمراكز الامامية وما الى ذلك » .

ان الخطة الاولى للانتفاضة لم تكن تمت بكبير صلة لمجراها اللاحق . لم يهتم لينين بالمناخ السياسي للانتفاضة ، ولا بالسلطة التي يجب اعلان هذه الانتفاضة باسمها [1] . فهو بعيد

---

(١) ان عبارة دويتشر هذه تثير الدهشة حقاً . ذلك ان الرسالتين اللتين يستشهد بهما تدحضان ما يقوله هنا . في رسالته المعنونة « الماركسية والانتفاضة » يفسر لينين معنى « معالجة الانتفاضة كفن » من خلال تحديد المناخ السياسي الذي يجعل الانتفاضة ضرورية . ويبدأ بتعيين شروط هذه الانتفاضة كما يلي :

١ ـ يجب ان تعتمد على طبقة طليعية ، لا على مؤامرة ولا على حزب .
٢ ـ يجب ان تعتمد على اندفاع الشعب الثوري .
٣ ـ يجب ان تقوم عندما يبلغ تاريخ الثورة الصاعدة منعطفاً يتميز بما يلي : بلوغ نشاط طليعة الشعب اوج قوته ؛ وبلوغ التردد ذروته في اوساط اعداء الثورة،وفي اوساط اصدقاء الثورة من البرجوازيين الصغار، الضعفاء والمتذبذبين والمليئين بالتناقضات .

ثم ينتقل لينين الى الاثبات ان ما يفسر حالية الانتفاضة هو ، بالتحديد ، كون هذه الشروط متوافرة في روسيا . ولأجل اثبات ذلك ، يجري مقارنة بين ايام ٣ و ٤ تموز وبين اوضاع روسيا كما هي عليهفي شهر ايلول فيبين ما يلي :

١ ـ خلال ايام تموز ، لم يكن البلاشفة يتمتعون بأغلبية اصوات العمال والجنود في سوفييت العاصمتين (موسكو وبطرسبرغ) . وهذا ما اضحوا يتمتعون به بعد حملات القمع التي عقبت ايام تموز وبعد عصيان كورنيلوف . والواقع ان اغلبية الشعب تقف الى جانب البلاشفة.فالفلاحون قد بدأوا يعون انالاشتراكيين الثوريين (حزب الفلاحين التقليدي) لن يتمكنوا من توزيع الارض عليهم . وهـذا ما اعتبره لينين « ... النقطة الجوهرية التي تضفي على الثورة طابعها الوطني » .

٢ ـ لم يكن الحماس الثوري قد عم اوسع الجماهير الشعبية خلال ايام تموز ، وهو قد عمها بعد عصيان كورنيلوف .

٣ ـ خلال ايام تموز ، لم تعرف اوساط اعداء الثورة واوساط البرجوازية الصغيرة التردد الحـاد الذي طبع مواقفها بعد عصيان كورنيلوف . وقـد عبر هذا التردد عن نفسه بظاهرتين : اولاً : حيرة العدو الرئيسي (اي دول الحلفـاء الامبريالية) بين العمل لاحراز النصر وبين عقد صلح منفصل موجه ضد روسيا . وثانياً : تردد ديمقراطيي البرجوازية الصغيرة الذي تجلى في رفضهم التحالف مع الكاديت (حزب البرجوازية) .

اذا كان دويتشر لا يعتبر ذلك « اهتماماً بالمناخ السياسي للانتفاضة » ، يحق للمرء ان يتساءل كيفيكون هذا الاهتمام ! (« البلاشفة وثورة اكتوبر » ـ محاضر اجتماعات اللجنة المركزية للحزب البلشفي بين آب ١٩١٧ وشباط ١٩١٨ ـ منشورات فرانسوا ماسبيرو ، باريس ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٦ ـ ١١١) .
اما بالنسبة للشطر الثاني من الجملة : عدم اهتمام لينين بالسلطة التي ينبغي اعلان الانتفاضة باسمها ، ينبغي التذكير ان لينين قد عينها بوضوح في رسالته : « واجب على البلاشفة ان يتسلموا السلطة » ثم يتساءل مـا اذا كان يوجد جهاز يتسلم السلطة،ويجيب : «بلى،يوجد هذا الجهاز : انه السوفييت والمنظمات الديمقراطية». (المصدر ذاته ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦) ـ (المترجم) .

عن مسرح العمل بحيث لم يتسنّ له ان يضع خطة عملية . وفي ضوء الانتفاضة نفسها ، تبدو محاولته الاولى ساذجة ومغامِرة . ولم يقابلها تروتسكي وستالين وغيرهما من اعضاء اللجنة المركزية إلا بهز الكتفين . وعلى كل حال ، فان لينين نفسه لم يعتبرها اكثر من اقتراح تقريبي . فقصده أن يبيِّن لرفاقه حالية الامر ، ان يحذرهم من الحسابات الاعتباطية التي تراهِن على « انتفاضة شعبية » عفوية ، وأن يذكرهم بضرورة معالجة الانتفاضة كفن ، وأن يحثهم ، بالتالي ، على العمل الفوري . وانقسمت اللجنة المركزية على نفسها حول الموضوع . وافق تروتسكي على تأكيد لينين على الحالية ، لكنه وضع خطة اكثر دقة وتفصيلاً من خطته من حيث جوانبها السياسية والعسكرية . وعارض الفكرة القائلة انه ينبغي على الحزب ان يتحمل بمفرده مسئولية الانتفاضة ، وأراد اشراك السوفييت بها لأن السلطة المعنوية لـ « برلمان العمالي » ارفع بكثير ، في نظر العمال ، من سلطة الحزب. ان هذا الاعتبار السياسي والنفسي يملي توقيت الانتفاضة . وإذا كان المفروض ان ينعقد مؤتمر السوفييت لعموم روسيا في العاصمة في الايام الاخيرة من شهر تشرين الاول ، ينبغي ان تصادف الانتفاضةُ موعد انعقاد المؤتمر .

كان تروتسكي على اتفاق مع لينين من حيث الستراتيجية ، لكنه معارض له من حيث التكتيك . أما كامينيف وزينوفييف ، فان معارضتهما له كانت على المبدأ الستراتيجي نفسه . عندما تليت رسائل لينين حول الثورة في جلسة الخامس عشر من ايلول ، بلغ تخوّف كامينيف من ان يورّط الحزبُ نفسه في انتهاج خط العمل الذي اقترحه لينين الى درجة انه اقترح احراق الرسائل . وصوّت ستة اعضاء مع اقتراح كامينيف . واقترح ستالين ، في المقابل ، بتعميم الرسائل على منظمات الحزب الرئيسية لمناقشتها . وهذا ما يوحي بأنه يؤيد لينين لأن أي نقاش موسّع للموضوع سوف يذهب باتجاه إلزام الحزب بالانتقال من حيز النقاش الى حيز العمل . وقد فسّر تروتسكي (فيما بعد) موقف ستالين بأنه كان يأمل بان تؤدي احالة المسألة على المنظمات المنطقية الى وضعها على الرف ؛ لأن المناطق كانت اكثر تردداً من اللجنة المركزية نفسها . قد يكون ذلك صحيحاً أو لا — وعلى كل حال ، فقد رُفِض اقتراح ستالين .

طوال بضعة الاسابيع القادمة ، وقف مؤيدو الانتفاضة ومعارضوها وجهاً لوجه في لجنة الحزب المركزية والاوساط الدنيا من القيادات . وسرعان ما تسنى لهم ان يمتحنوا قواهم بمناسبة دعوة الحكومة الى عقد ما سمّي « البرلمان التحضيري » ، وهو محاولة هزيلة

متأخرة وبائسة من طرف كرنسكي لبعث النشاط في اوصال عهده عن طريق هيئة تمثيلية يواجه بها السوفييت . والبرلمان التحضيري مجرد هيئة استشارية تعيّن الحكومة اعضاءه. هل يقبل البلاشفة بتعيينهم ويشاركون في هذا البرلمان ، أم يقاطعونه ؟ ورغم ان السؤال هنا ليس نفس السؤال المطروح بالنسبة للانتفاضة ، إلا انـــه متعلق به . رأى المؤيدون المتحمسون للانتفاضة ان لا خير يرجى من برلمان مزيّف ، وان ايامــه معدودة على كل حال . أما الذين تقاعصوا عن العمل بمشاريـع لينين ، فقد ايدوا الاشتراك في البرلمـــان التحضيري . وطرحت المسألة على التصويت في المؤتمـر الوطني للحزب ، وتكلم ستالين وتروتسكي دفاعاً عن المقاطعة . وهذه من المناسبات النادرة التي وقف فيها خصما المستقبل موقفاً موحداً . إلا ان كامينيف وزينوفييف ، اللذين دافعـــا عن الاشتراك في البرلمان التحضيري ، حازوا على اغلبية اصوات المؤتمرين . وهكذا ، قبل ما لا يزيـد عن شهر واحد من موعد قيام الثورة ، ساد حزب الانتفاضة جوّ وصمه لينين حانقاً بانه « انحراف عن الطريق البروليتارية الثورية » .

في تلك الاثناء ، اخذ البلد يغوص أكثر فأكثر في مستنقع الهزيمة والفوضى. وراودت الحكومة والقيادة العامة للجيش فكرة اخلاء بطرسبرغ ونقـــل الوزارات لموسكو . والاشاعات التي انتشرت حول هذا الموضوع ما لبثت ان نفحت رياحاً جديدة في اشرعة البلاشفة ، لأنه تم تفسير المشروع كمؤامرة مضادة للثورة . فقيل ان الحكومة ترمي الى قطع رأس الثورة عن طريق تسليم العاصمة الحمراء . وشحذ التهديد سوفييت العـــاصمة وأجبره على تسنم مسئولية الدفـــاع عن بطرسبرغ . وبينما البلاشفة على قاب قوسين من السلطة ، أخذوا يتحولون تدريجياً من المعارضة غير المشروطـة للحرب الى موقف شبه دفاعي منها ؛ فدعوا للدفاع عن بطرسبرغ بوصفها عاصمة الثورة ،لا عاصمة الامبراطورية . والتقت ،لبرهة من الزمن ، الدفاعية التقليدية العادية التي ينتهجها الاشتراكيون المعتدلون بدفاعية البلاشفة الجديدة . وهكذا ، حظي قرار السوفييت الداعي الى تسنم مسئوليـة الدفاع عن العاصمة بتأييد جميع الاطراف الممثلة فيه .

ان مبادرة السوفييت هذه وفرت لها المكانة والسلطة اللتين سوف تسمحان لهـــا من الاطاحة بالحكومة المؤقتة في المستقبل القريب . ونجح تروتسكي،رئيس السوفييت والمهيمن على كل نشاطاته ، في ان يعرض الشرط الاولي لقيام الثورة على انه اجراء تمليه الضرورات الوطنية للحفاظ على الجمهورية . فأعلن السوفييت ، من حيث المبدأ اولاً ثم فعلياً ، حقه في

السيطرة على تحرك الوحدات العسكرية في العاصمة والمناطق المجاورة لها ؛ أي حقه في السيطرة على القيادات العسكرية . والامر الذي عزز موقف السوفييت وهيأه للتصدي لأية معارك قد تنشب في المستقبل هو الارتياب العام بالضباط الذي بلغ درجة رفيعة من الحدة بعد عصيان كورنيلوف . وكانت « اللجنة العسكرية الثورية » هي الهيئة التي اضطلعت بهذه المهام باسم السوفييت ؛ وقد عينتها اللجنة التنفيذية يوم ١٣ تشرين الاول . ورئيس السوفييت هو ايضاً رئيس هذه اللجنة التي لعبت ، بحكم طبيعتها ، دور القيادة العامة للانتفاضة .

والعجيب هنا ان جهاز الثورة لم يكن زمرة سرية عينت نفسها بنفسها ، ولا عصبة من المتآمرين ، بل كان جهازاً انتخبته ، في وضح النهار ، مؤسسة تمثيلية واسعة هي السوفييت . لقد جرى تغليف المؤامرة بغلاف الشرعية السوفييتية ، إن جاز القول؛ وهو اجراء شلّ ، الى حد كبير ، معارضة الاشتراكيين المعتدلين . وهكذا ، لازم المناشفة والاشتراكيون الثوريون مراكزهم في السوفييت ، ولكن كشهود مذعورين ، ضعفاء ، يشاركون ، الى حدٍ ما ، في ما جنت ايديهم . وبعد ان جمع تروتسكي كل خيوط الانتفاضة بين يديه ، نجح في ان يضفي عليها مظهر عملية محض دفاعية ، ترمي الى استباق ودحر ردة مضادة للثورة ؛ وهذه خطة تكتيكية دفعت القطاعات المترددة من الطبقة العاملة والحامية العسكرية الى الوقوف بجانب الثوار . إلا ان ذلك لا يعني ان الطابع الدفاعي الذي اكتسبته الانتفاضة مجرد عذر من الاعذار . فالواقع ان الحكومة ، ومن ورائها الجنرالات الملكيون والسياسيون اليمينيون ، كانت تهيء هجوماً معاكساً : عشية الثورة، اعلن كرنسكي حل اللجنة العسكرية الثورية ، وأصدر الاوامر باعتقال القادة البلاشفة ، وحاول تعبئة القوات الموالية ، وألغى الصحافة البلشفية . ولكن في السباق بين الثورة وبين الردة المضادة للثورة ، كانت الثورة قد قطعت أشواطاً بعيدة ؛ وقد اسعفها في ذلك ذكاء قائد الانتفاضة في محافظته على طابعها الدفاعي حتى النهاية .

بينما كان تروتسكي يكسب مواقع قوة في السوفييت ، الواحد تلو الآخر ، نجد لينين ، في مخبئه ، يبذل قصارى جهده للتغلب على معارضة زينوفييف وكامينيف للانتفاضة ، ويحاول اقناع اتباعه بالانسحاب من البرلمان التحضيري الذي دعا اليه كرنسكي ، حسب اقتراح ستالين وتروتسكي . وفي السابع من تشرين الاول ؛ ترامى الى مسامع البرلمان التحضيري صخب الثورة المقتربة في بيان تروتسكي الناري الراعد الذي اعلن انسحاب

البلاشفة من « مجلس التواطؤ مع الردة المضادة للثورة » ، وفي الصيحة التي اطلقهـا : « بطرسبرغ في خطر ! الثورة في خطر ! الشعب في خطر ! » ، والتي انسحب البلاشفة على اثرها من القاعه . في اليوم التالي ، عاد لينين سراً من فنلندا الى بطرسبرغ . وبعـد يومين ، التأمت اللجنة المركزية لاتخاذ قرارها النهائي . وفيها قدم زينوفييف وكامينيف ابلغ دفاع عن موقفهما : « امام التاريخ ، امام البروليتاريا العالمية ، امام الثورة الروسية والطبقة العاملة الروسية ، نعلن انه لا يحق لنا ان نراهن بكل المستقبل على الانتفاضة المسلحة » . وحثّا اللجنة المركزية على الانتظار ريثما تنعقد الجمعية التأسيسية التي دعت اليها الحكومة المؤقتة ، والتي يتوقعان ان تكون الاغلبية فيها للاتجاه الراديـكالي . وتصورا الدولة الجديدة مزيجاً من جمهورية سوفييتية ومن ديمقراطية برلمانية . وحـذرا من الكارثة القاضية التي سوف تتعرض الثورة لها إن هي سلكت الطريق الذي يرسمـه لها لينين :

« ان بعض الظروف التاريخية قد تفرض على الطبقة المضطهدة ان تعترف انه من الافضل ان تتقدم نحو الهزيمة بدلاً من ان تستسلم بدون معركة . هل ان الطبقة العاملة الروسية تجد نفسها حاليـاً في مثل هذه الظروف ، لا ، والف لا !!! »

وعارضا الانتفاضة لسببين و سوف تدحض الاحداث اللاحقة احدهما ، بينما تؤكـد الثاني . قال زينوفييف وكامينيف : ان دعاة الانتفاضة يضخمون قواهم ، ويستصغرون قوات الحكومة المؤقتة . ووقفا موقفاً بالغ التفاؤل من اقـتراب الثورة البروليتارية في اوروبا الغربية .

وضرب لينين بكل الآمال المعلقة على الجمعية التأسيسية عرض الحائط ، مؤكداً ان الحكومة قد اجلت موعد انعقاد هذه الجمعية اكثر من مرة ، فاين هي الضمانات بانهـا لن تفعل عين الشيء هذه المرة ايضاً ؟ ان تأخير الانتفاضة يعني افساح المجال امام الجنرالات الكورنيلوفيين لـكي يقيموا دكتاتوريتهم عن طريق انقلاب عسكري . ونظر لينين الى رأي خصميه المشكك بموضوع العلاقات المتبادلة بين القوى على انه دعوة للتخاذل. فوراء البلاشفة اغلبية الطبقة العاملة الروسية ، ومن المؤكد ان كل « اوروبا البروليتارية » سوف تؤيدهم . من بين الاعضاء الاثني عشر الذين حضروا الاجتماع ، اقـترع عشرة ، بما فيهم

ستالين ، مع الانتفاضة . بينما اقترح زينوفييف وكامينيف ضدها . بعد التصويت ، انتخبت اللجنة مكتباً سياسياً ، بناء على اقتراح من دزيرجنسكي ، مهمته ان « يتولى القيادة السياسية في المستقبل القريب » . وقد ضم هذا المكتب : لينين ، زينوفييف ، كامينيف ، تروتسكي ، ستالين ، سوكولينكوف ، وبوبنوف . وهكذا نشأت الهيئة التي سوف تتحكم فيما بعد بمصير الدولة والحزب والثورة . وفي الاجتماع نفسه ، جرى تعيين يوم العشرين من تشرين الاول موعداً للانتفاضة .

تعذر على المكتب السياسي الاضطلاع بالمهام الموكلة اليه . إذ رفض زينوفييف وكامينيف الانصياع لقرار اعلان الانتفاضة ، وبذلا كل ما بوسعهما لنقضه . ان لينين الذي ظهر في جلسة العاشر من تشرين الاول متنكراً بشعر مستعار ، ما لبث ان عاد الى الاستخفاء ، ولم يتمكن من المشاركة في الاعداد اليومي للانتفاضة . وقد بذل كل جهده في محاولة منتظمة ، تكاد تكون يائسة ، للتغلب على « التذبذب المشين » وعلى « التشوش والجبن المذهلين » عند الرجلين اللذين كانا اقرب الاصدقاء والاتباع اليه . اما تروتسكي ، فقد كان منهمكاً في اعمال السوفييت واللجنة العسكرية الثورية بحيث لم يشارك في اعمال اللجنة المركزية . وبالاضافة لذلك ، فان مخططات لينين للانتفاضة لم ترق له كثيراً . وسرعان ما اهمل لينين خطته الاولى الداعية الى القيام بانقلاب في بطرسبرغ . واقترح توجيه الضربة في موسكو اولاً . ثم ما لبث ان اقترح ان تبدأ الانتفاضة في هلسنكي وتزحف على بطرسبرغ . وظل تروتسكي يهز كتفيه رداً على هذه « النصائح من الخارج » كما نعتها لينين نفسه . وكذلك فعل ستالين الذي استعاد ، في وقت لاحق وبشيء من السخرية ، الخطط المنوعة التي اقترحها لينين للانتفاضة ، قال :

« كنا نعتقد ، نحن المناضلين الحزبيين ، ان باستطاعتنا ان نرى المزالق والمهاوي والحفر التي يحفل بها طريقنا . لكن اليتش (لينين) عظيم ، لا يهاب المزالق والمهاوي والحفر على الطريق ، انه لا يهاب المخاطر . وهو يقول : « إنتصبوا وسيروا قدماً نحو هدفكم » . اما نحن ، المناضلين الحزبيين ، فقد اعتقدنا ان تصرفاً كهذا ليس لائقاً ، وانه من الضروري ان نذلل العراقيل لكي نتمكن من الامساك بالثور من قرنيه . فلم نسر وراء لينين رغم الحاحه » .

بالاضافة الى عدم تناسقها ، من الناحية العسكرية ، كانت خطط لينين تشتمل على

خطأ سياسي مشترك ، فقد نزعت الى تضييق قاعدة الانتفاضة ، والى حرمانها من بركة السوفييت ، والى تحويل ما اعتبره تروتسكي عملاً شعبياً الى عمـــل اضيق يتعلق بالحزب البلشفي وحده . وقد نزعت كذلك الى حرمان الانتفاضة من غلافها الدفاعي ، وإضفاء طابع هجومي مفضوح عليها ، يجعلها تظهر وكأنها عملية استفزازية حتى بالنسبة للذين لا يريدون للثورة الا النجاح .

في السادس عشر من تشرين الاول ، عقدت اللجنة المركزية اجتماعـاً حضره اعضاء حزبيون بارزون من خارجها ، وقد صدق هذا الاجتماع على قرار اعلان الانتفاضة . وفي اليوم التالي ، نقل زينوفييف وكامينيف معركتهما ضد لينين الى العلان ، وحـذرا الرأي العام من الانتفاضة على صفحات جريدة مكسيم غوركي « نوفايا جيزن » (الحياة الجديدة) التي كانت تقف موقفاً وسطاً بين البلاشفة والمناشفة . واثار افشاء السر هذا غضب لينين ، فنعت رفيقيه بانهما من « مخربي الاضرابات » ومن « خونـة الثورة » ، وطالب بفصلهما فوراً من الحزب . ولكن بدت العقوبة بالغة القسوة بالنسبة للاعضاء الآخرين في اللجنة المركزية . ونشر ستالين استنكار لينين في الصحيفة البلشفية ، لكن حاول التخفيف من وطأته بافتتاحية تسووية تحاول ردم الهوة بين الاراء المتضاربة . والواقع انه في جلسة اللجنة المركزية يوم ١٦ تشرين الاول ، جادل زينوفييف وكامينيف على النحو التالي :

« ان ما يقترحه زينوفييف وكامنييف يؤدي موضوعياً الى افساح المجال امام الردة المضادة للثورة لكي تتحفز وتنظم صفوفها. وهذا ما سوف يجرنا الى التراجع الى ما لا نهاية والى خسارة الثورة ... ان ما نحتاج اليه الآن هو المزيـــد من الايمان .... ثمة خطتان سياسيتان هنا : الاولى تريد السير باتجاه انتصار الثورة والتطلع الى اوروبا ، والاخرى لا تثق بالثورة وتأمل بان يظل الحزب حزب معارضة لا غير .... ان سوفييت بطرسبرغ قد سلك طريق الانتفاضة » .

هذه العبارة الاخيرة تعني انه بينما كانت اللجنـة المركزية تضيـع الوقت ، كان السوفييت ، بقيادة تروتسكي ، قد انتقل الى حيز العمل . لماذا اذاً يحمي ستالين رفيقيه غير الكتومين اللذين يعملان عن قصد لوضع العصي في عجلات الانتفاضة ؟ هل يريـــد تفادي انشقاق حزبي ؟ هل ان التحذيرات وصيحات الذعر التي اطلقهـا كامينيف وزينوفييف قد جعلته متردداً هو كذلك ؟ ام تراه ، كما يؤكد تروتسكي ، يريد ان يضمن

نفسه ، بخبث ، من امكان إخفاق الانتفاضة دون ان يغادر صفوف دعاتها علناً ؟ وفي الجلسة التالية للجنة المركزية ، دافع ستالين عن كامينيف مجدداً عندما قدم هذا استقالته من القيادة . قبلت الاستقالة . فقدم ستالين استقالته هو ايضاً ، وقد تعرض لنقد لينين بسبب افتتاحيته. الا ان اللجنة المركزية رفضت هذه الاستقالة ، في محاولة للحيلولة دون ارتماء رئيس تحرير صحيفة الحزب في احضان خصوم الانتفاضة . ولما غفرت لستالين زلته هذه ، جهد لأن يظهر على اتفاق تام مع دعاة الانتفاضة . واقترح ان يكون لينين وتروتسكي ، القائدان الاكثر حزماً من اعضاء الاغلبية الداعية للانتفاضة ، المتكلمين الرسميين باسم الحزب في المؤتمر القادم للسوفييت ، مؤتمر الثورة .

في تلك الاثناء ، كانت اللجنة التنفيذية للسوفييت ، التي يسيطر عليها المناشفة ، قد اجلت موعد افتتاح المؤتمر لخمسة ايام اخرى ، الى الخامس والعشرين من تشرين الاول . وهذه الايام القليلة هي التي أُنجزت فيها الاستعدادات الحاسمة للانتفاضة . في ٢١ تشرين الاول ، اعلنت لجان الافواج في بطرسبرغ اعترافها الرسمي باللجنة العسكرية الثورية بوصفها القائد الفعلي للحامية ، لا يجوز اطاعة اي امر لا يحمل توقيع ممثل عن هذه اللجنة او تروتسكي او معاونيه انطونوف—اوفسينكو وبودفويسكي ، او اي مفوض آخر مخول بذلك . وفي ٢٣ تشرين الاول ، عينت اللجنة العسكرية الثورية مفوضيها لدى كل فرقة عسكرية تقريباً في العاصمة وحولها ، مؤمنة بذلك الاتصال بكل القوات تحت امرتها . وتجاهلت الحامية اوامر التنقلات الصادرة اليها من القيادة العامة للاركان . ولما صدرت تعليمات للفرق بمغادرة العاصمة ، رفضت التحرك . وعزل الضباط الذين رفضوا الانصياع لسلطة السوفييت ، والقي القبض على بعض منهم .

واخيراً ، في ٢٤ تشرين الاول ، قررت الحكومة الرد ، فوفرت بذلك مبرر قيام الانتفاضة . احتلت قوات حكومية الصحيفة التي يرأس ستالين تحريرها ، واغلقت مطابعها . فذهب وفد من عمال المطبعة الى اللجنة العسكرية الثورية يطالبها بان ترسل قواتها الى مكاتب الجريدة لتأمين صدورها . وهكذا فعلت . كتب قائد الانتفاضة فيما بعد يقول : « ان ختم الشمع الاحمر على باب غرفة تحرير الصحيفة البلشفية اجراء عسكري — وليس بالامر الخطر . لكنه كان اشارة رائعة لبدء المعركة ! » وبسرعة ، امتدت المعركة الى الجسور ، ومحطات سكة الحديد ، ومراكز البريد ، والنقاط الستراتيجية الاخرى : احتلتها القوات بقيادة تروتسكي دون اطلاق رصاصة واحدة .

دارت المعركة الفعلية الوحيدة خـــلال هجوم الثوار على قصر الشتاء ، مقر الحكومة المؤقتة . حتى هذه العملية ، التي قادها انطونوف – اوفسينكو (السفير السوفييتي المقبل في بولونيـــا ، وفي اسبانيا خلال الحرب الاهلية) ، لم تخلُ من اللمسات الهزلية كقصف القصر بقنابل فارغة اطلقتها البارجـــة « اورورا » . الحكومة المؤقتة معزولة بقدر ، والثوار يتمتعون بدعم كاسح بحيث تمكنوا من ازاحة الحكومة من الوجود بلكزة خفيفة . وعندما اجتمع المؤتمر العام الثاني للسوفييت في ٢٥ تشرين الاول ، كانت القومة قد أوشكت على الانتهاء ، فمنحتها اغلبية المؤتمر البلشفية تأييدها فوراً [١] .

لم يلعب ستالين دوراً بارزاً خـلال ايام الانتفاضة . لازم ظل الكواليس اكثر مما كان يفعل عادةً ، وهذا ما احرج كتّاب سيرته الرسميون ؛ ولعله يبرر قول تروتسكي بأنـه « كلما اتسعت رقعة الاحداث ، كلما تقلص دور ستالين فيها » . ومردّ ذلك جزئياً عدم فعالية اللجنة المركزية حيث مركز ستالين اهم منه في خارجهـا . في الجلسة الحاسمة التي عقدتها اللجنة المركزية في ١٦ تشرين الاول ، انتدِب ستالين مع اربعة اعضاء آخرين (هم سفيردلوف ، بوبنوف ، دزيرجنسكي ، ويوريتسكي) لتمثيل الحزب لدى اللجنة العسكرية الثورية للسوفييت . إلا ان ستالين لم يساهم في عمل هـذا الجهاز الحزبي – هذا إذا نحن صدّقنا كلام تروتسكي ، رئيس اللجنة . لنا ان نستبعد شهادة تروتسكي لتحيزها ، شرط ان نجد بين كومة الوثائق عن الانتفاضة ما يثبت علاقة مباشرة لستالين بهـــذه اللجنة . ولكن لا وجود لمثل هذه الوثائق .

منذ ان تسلم ستالين زمام السلطة المطلقة ، والجهود تُبذل لتنقية كل كتب التـــاريخ الرسميـــة عن الثورة من اسم تروتسكي بدقـــة وانتظام . فلا يرد ذكره إلا « كخائن » و « مخرب » للانتفاضة الفعلية . ان جميع الكتب والتواريخ الرسمية تتحدث عن قيـادة لينين وستالين ، وتنسب ما لا يمكن اهماله من افعال تروتسكي وأقواله الى اللجنة العسكرية

---

(١) حتى الآن ، كانت التواريخ حسب الروزنامة الروسية القديمة المستعملة قبـــل الثورة . ومن الآن فصاعداً ، سوف نستعمل التواريخ حسب الروزنامة الجديدة (وهي متقدمة على الروزنامة العتيقة بثلاثـــة عشر يوماً) .

الثورية المجهولة . ولكن ، رغم صدق نواياهم واندفاعهم الذي لا يمكن انكاره ، لم يتمكن المؤرخون السوفييت الرسميون من ان يسجلوا اسم ستالين في الفراغات التي كان يحتلها اسم تروتسكي منها . وحتى كتاب « تاريخ الحرب الاهلية في الاتحاد السوفييتي » ، الذي جُمعت مواده بقصد واضح ، والذي حرره ستـــالين نفسه ، وجدانوف ، وفوروشيلوف ، ومولوتوف ، وغوركي ، وكيروف ، لا يحتوي على وثيقة واحدة أو حدث محدد يدعـــم الاقوال المجردة عن دور ستالين القيادي في اللجنة العسكرية الثورية ، اللهم إلا إذا صنفنا بين الوثائق التاريخية الرسوم الرخيصة الى حد ما • والكاذبة الى حد كبير التي رسمهـــا امثـــال سفاروغا أو فلاديميرسكي بعد مضي سنوات عديدة على الحدث ، والتي يظهر فيها ستالين مقداماً وسيماً يصدر التعليمات للثوار . وحتى سيرة ستالين المفصلة لا تمدنا بالمعلومات الوافية حول هذه النقطة . والادعى الى الاستغراب انه لم يحضر اجتماع اللجنة المركزية في يوم الانتفاضة نفسه . يقول تروتسكي بهذا الصدد :

« ليس السبب في ان ستالين جبان . فلا اساس لإتهامه بالجبن . انـه ببساطة شخص لا يتقيد بمواقف سياسية واضحة . وقـــد آثر هذا المناوِر الحذر التزام الحياد في اللحظة الحرجة . كان ينتظر مآل الانتفاضة قبل ان يلزم نفسه بموقف. ولو اخفقت الانتفاضة ، لكان قال لي وللينين وللذين أيدوها : «الذنب ذنبكم !». ينبغي على المرء ان يستعيد الوضع المحموم الذي كان سائداً في تلك الآونة لـكي يستطيـع ، على ضوء ذلك ، ان يقدّر مقدار برودة اعصاب هذا الرجل ، أو تخاذله ، إن شئتم » .

يبدو تفسير تروتسكي متناقضاً : فبرودة الاعصاب التي ينعت بهـا منافسه تبدو ، في نهـــاية المطاف ، ملوّنة بالتخاذل . ولكن ، يستحيل ان نقبل بتفسير تروتسكي لسبب آخر : الواقع ان ستالين قد التزم بموقف حـازم منذ العاشر من تشرين الاول ، عند أول اقتراع حول الانتفاضة في اللجنة المركزية ، عندمـا اقترع الى جانب لينين وتروتسكي . وفي السادس عشر منه ، اقترع مجدداً مع الانتفاضة ودافع عنها ، ولكن ليس ضمن حدود اللجنة المركزية الضيقة ، وانما في ندوة أوسع حضرها مندوبون عن منظمة بطرسبرغ ، والفرع العسكري في الحزب ، والنقابات ، وسوفييت بطرسبرغ ، ولجان المصانع، وعمال سكة الحديد ، وغيرهم . ان « مناوِراً حذراً يؤثر التزام الحيـاد عند اللحظة الحرجة »

لا يقف بمثل هذا الحزم الى جانب لينين أمام انظار جمع من هذا النوع. ليس من الممكن ان نجد تفسيراً بديلاً لغياب ستالين عن المقر العام خلال الانتفاضة ولا لعدم قيامه بعمل ما. إلا ان الحقيقة الغريبة باقية، ولا يمكن التنكر لها.

ولا يرقى شك الى ان المركز الذي مارس ستالين فيه نشاطه، في تلك الفترة الحرجة، هو مكاتب تحرير « رابوتشيي بوت » (طريق العمال)، الاسم الجديد لبرافدا. هنـــاك تحدث باسم الحزب في افتتاحيات معظمها مغفل من التوقيع. لكنه لم يـــدعُ للانتفاضة علناً، وهذا امر بدهي. كما تروتسكي في السوفييت، كذلك ستالين في صحيفته يغلـف سياسية هجومية اساساً بغلاف الدفاعية؛ فذلك هو التمويه الحذر للانتفاضة. وحتى قبل ان تقترع اللجنة المركزية لأول مرة حول الانتفاضة، كان قد كتب يقول :

« لقـــد احبطت اول مؤامرة كورنيلوفية. لكن الردة المضادة للثورة لم تُسحق بعد .... ينبغي تحطيم المؤامرة الكورنيلوفية الثانية الـتي يجري التمهيد لها، واقتلاعها من الجذور، بحيث يزول الخطر المحيق بالثورة لأمد بعيـد .... لتتخذ السوفييت واللجان كل الاحتياطات التي من شأنها سحق المحاولة الثانية للردة المضادة للثورة بكل ما اوتيت الثورة من قوة ! ».

وبعد ذلك بثلاثة ايام، ازدادت كتاباته وضوحاً : « لقد آن الاوان لكي نضع شعار « كل السلطات للسوفييت ! » موضع التنفيذ ». وها هو، في صبيحة الانتفاضة نفسها، يلخص مسيرة الثورة على النحو التالي :

« بعد انتصار ثورة شباط، ظلت السلطـة بيد ملاك الارض والرأسماليين، اصحاب المصارف والمضاربين، والنفعيين واللصوص — هنا مكمن الخطأ المميت الذي ارتكبه العمال والفلاحون .... ينبغي تصحيح هذا الخطأ فوراً ».

ثم استطرد مردداً عبارات لينين، منوهاً بمعارضة زينوفييف وكامينيف :

« دقت ساعة العمل، وكل تأخير يهدد بالاطاحة بكل ما انجزته الثورة ... ان الحكومة الحالية التي عينت نفسها بنفسها، والـتي لم ينتخبها الشعب ولا هي

مسئولة تجاهه ، ينبغي استبدالها بحكومة ... ينتخبها ممثلون عن العمال والجنود والفلاحين وتكون مسئولة تجاههم » .

بعد اربعة عشر عاماً من ذلك ، وصف تروتسكي الجو السائد في اوساط الثوار على النحو التالي : « كان يسود جميع الذين اشتركوا في الانتفاضة يقين بأنهم سوف يحرزون النصر بدون ان تقع اصابات . هنا كانت قوة الانتفاضة . ولكن هنا ايضاً كان مكمن ضعفها في بعض الاحيان». ان كلمات ستالين ، المكتوبة قبل بضع ساعات من الانتفاضة، تنضح بهذا اليقين :

« اذا سار عملكم بروح رفاقية وبحزم ، فما من احد يجرؤ على معاندة ارادة الشعب . بقدر ما تتقدمون بقوة وانتظام ، بقدر ما تخلي الحكومة القديمة المكان سلمياً للحكومة الجديدة » .

ولعل خير تعبير عن مشاعر الرجل ومزاجه عشية الحدث العظيم يتكشف لنا في مقالة يرد فيها على الاسئلة النقدية القلقة حول خطط البلاشفة ونواياهم ، وقد انهالت عليهم من كل حدب وصوب . فكان جواب ستالين رائعة من الغموض التجريحي أو التجريح الغامض :

« ها هو الجواب . أما بالنسبة للبرجوازية و « جهازها » فنقول : سوف نصفي حساباتنا معكم على حدة ، وأما بالنسبة لعملاء البرجوازية وأذنابها ، فاننا نحيل هؤلاء الى اجهزة مكافحة الجاسوسية . فباستطاعتهم هناك ان « يستعلموا » وان «يعلِموا » بدورهم الآخرين عن « اليوم » و « الساعة » اللذين سيحدث فيهما الانقلاب الذي وضع زوزنامته جواسيس « دايين » .... اما هؤلاء الابطال (أي الاشتراكيون المعتدلون) ، الذين وقفوا الى جانب ... الحكومة ضد العمال والجنود والفلاحين ، فليس لنا ان نقدم لهم أي حسابات . لكننا سنعمل على ان يتولى مؤتمر السوفييت محاسبة هؤلاء الابطال في التخاذل فقط » .

احتفظ ستالين بأعنف هجوم لمكسيم غوركي ، الكاتب الشهير والثوري الذي رافق لينين طوال سنوات عديدة ، والذي سوف يعمّده ستالين نفسه ، في ذات يوم ، نبياً للحضارة الجديدة . كانت صحيفة غوركي ، عين الصحيفة التي نشر زينوفييف وكامينيف على صفحاتها معارضتهما للانتفاضة ، قد سألت لينين ورفاقه ان « يكشفوا اوراقهم » ؛ وتولى غوركي نفسه شن الهجوم على البلاشفة في مقالة « لن ابقى صامتاً » ، استعار عنوانها من احد سجالات تولستوي ضد القيصرية . فردّ ستالين عليه بسورة غضب :

« اما بالنسبة للمتعَبين في « نوفايا جيزن » (صحيفة غوركي) ، فاننا لم نفهم تماماً ما الذي يريدونه منا . اذا كانوا يودون معرفة « موعد » الانتفاضة لكي تسنح لهم الفرصة ان يعبئوا سلفاً قوى المثقفين المذعورين ... تمهيداً للهرب الى فنلندا مثلاً ، فليس لنا إلا ان نطري على فعلتهم هذه ، لأننا نؤيد تعبئة القوى « بشكل عام » . اما إذا كانوا يسألون عن « موعد » الانتفاضة لكي يهدئوا من توتر اعصابهم « الفولاذية » ، فاننا نقول لهم انه حتى لو كان « موعد » الانتفاضة قد تحدد وهمس البلاشفة به في اذنهم ، فلن يجني هؤلاء المتعبون أية راحة من ذلك ، بل سوف يثيرون اسئلة وهستيريات جديدة ، وهلم جرا » .

الواقع ان القادة البلاشفة الآخرين قد انزعجوا من غوركي ؛ ولكن ما من احد منهم تعرّض له ولرفاقه بمثل هذا التهجم الشخصي السام ، متهماً اياه بالجبن والخيانة وما الى ذلك . وكانت سخرية ستالين اشد ظلماً ورعونة :

« ألا يفسّر ذلك ما عناه غوركي بمقالة « لن ابقى صامتاً » ؟ انه امر لا يصدّق لكنه صحيح . لقد قبعوا صامتين عندما دفع ملاك الارض ... بفلاحيهم الى اليأس والقيام بأعمال « شغب » من شدة جوعهم . قبعوا صامتين عندما كان الرأسماليون وأذنابهم يمهّدون لسحق العمال في عموم روسيا .... ولكن يبدو ان هؤلاء الناس لا يستطيعون السكوت عندما تقف طليعة الثورة ، المتمثلة بسوفييت بطرسبرغ ، للدفاع عن العمال والفلاحين المخدوعين ! وأول

كلمة لوم يتفوهون بها ليست موجهة ضد الردة المضادة للثورة ، ولكن الى الثورة نفسها التي يتحدثون عنها بحماس خلال احتساء الشاي ، ويتهربون منها ، كأنها الطاعون ، في احرج الاوقات » .

ويتوّج ستالين هجومه بهذه الكلمات الحبلى بالمعاني :

« ان الثورة الروسية قد اطاحت بعدد لا بأس به من الرجال المرموقين . ان قوتها تعبّر عن نفسها ، فيما تعبّر ، بعدم السجود لـ « اسماء الكبيرة » . ان الثورة قد وضعتهم في خدمتها ، او قذفت بهم الى العدم عندما رفضوا التعلّم منها . ويوجد جمع غفير من مثل هذه الاسماء الكبيرة التي نبذتها الثورة : بليخانوف ، كرونوتكين ، بريشفوسكايا ، زاسوليتش ، وبشكل عام كل الثوريين القدامى المرموقين لأنهم **متقدمون في السن** فقط . نخشى ان تكون امجاد هؤلاء « الاركان » قد قضت مضجع غوركي . نخشى ان هؤلاء المحنطين يمارسون سحراً قاتلاً على غوركي . ومهما يكن من امر ، فكل انسان سيد نفسه ... ان الثورة لا تستطيع ان تدفن موتاها ولا ان تتحسر عليهم » .

بالنسبة لسليل الاقنان الجيورجيين وعضو القيادة البلشفية الذي كتب هذه السطور ، ليست الثورة مجرد انتصار للطبقات المضطهَدة . انها ايضاً انتصار مناضلي الخلايا المغمورين المجهولين على « الاسماء الكبيرة » في الحركة الاشتراكية الروسية . فهو لا يرتبط برابط أو علاقة عضوية بأي تقليد من التقاليد ، ولا حتى بالتقليد الاشتراكي . وهو بذلك يختلف كثيراً عن غيره من القادة ، وعن لينين خاصة الذي لا تساوره نفسه مطلقاً ان يقول عن استاذه السابق بليخانوف انه « لامع لأنه متقدم في السن فقط » . ليس من الصعب ان نستشفّ وراء تهجمات ستالين الجموحة كبت رجل لم تجعل منه مؤهلاته الخاصة « اسماً كبيراً » حتى وهو على عتبة السلطة . إلا ان الثورة ، رغم ان قذفت ببعض الاسماء الكبيرة « الى العدم » ، لم تلبث ان خلقت اسماء جديدة لمعت ببريق اكبر ، وانحفرت في عقول الناس وقلوبهم .

ان الاحداث اللاحقة تضفي على كلمات ستالين تحدياً غير واعٍ ، أو ربما شبه واعٍ ،

لهذه الاسماء الجديدة . كانت الثورة آنذاك تدير للعالم وجهاً من وجهَيها ــ وجهها المشرق بالحماس والامل النبيل . أما وجهها الآخر ، وجه الوحش الذي يفترس ابناءه ، فقد كان لا يزال مخفياً . ولكن هذا هو الوجه الذي كان ستالين بدأ يعبده في تلك الآونة . « ان الثورة لا تستطيع ان تدفن موتاها ولا ان تتحسر عليهم » ــ يا له من نص يصلح عنواناً للتصفيات الكبرى التي اقامها بعد ما يقارب العشرين عاماً .

●

الفصل السادس

ستالين في الحرب الأهلية

مقدمة : معضلات الثورة . ـ تعيين ستالين مفوضاً للقوميات . ـ حكومة لينين الاولى . ـ تحالف البلاشفة مع الاشتراكيين الثوريين . ـ ستالين يذهب الى هلنسكي لاعلان استقلال فنلندا . ـ آراؤه في حق الشعوب الصغيرة في « تقرير المصير » . وضعه لمسودة الدستور السوفييتي الاول (١٩١٨) . ـ صلح بريست ليتوفسك (٣ آذار ١٩١٨) . ـ ستالين يصوت مع لينين للصلح ويحارب « البلاشفة اليساريين » الداعين الى « حرب ثورية » ضد الالمان . ـ الارهاب والارهاب المضاد . ـ ستالين يرأس مفاوضات السلم مع مجلس «الرادا» الاوكراني في كورسك، حزيران ١٩١٨ . ـ يؤيد فوروشيلوف وبوديني ضد تروتسكي . ـ اصل الخلاف الكبير . ـ ستالين يطالب بصلاحيات واسعة في الجبهة الجنوبية . ـ لينين يحاول مصالحة ستالين وتروتسكي. ـ تقارير متضاربة حول الدفاع عن تساريتسين. ـ استدعاء ستالين الى موسكو، تشرين الاول ١٩١٨ . ـ ردة فعله لثورات عام ١٩١٨ في اوروبا : « عن نور الشرق » . ـ ستالين يدافع عن بطرسبرغ ، ايار ١٩١٩ . ـ منح ستالين وتروتسكي وسام « العلم الاحمر » . ـ ستالين ادارياً . ـ دوره في الحرب الروسية ـ البولونية عام ١٩٢٠ . ـ عصيان كرونستاد والسياسة الاقتصادية الجديدة (١٩٢١) . نظام الحزب الواحد والحظر على الاجنحة المعارضة داخل الحزب البلشفي . ـ ستالين يفيد من تزايد نفوذ الجهاز الحزبي البلشفي .

تطلبت انتفاضة اكتوبر الحد الادنى من العنف ، لكن لم تهرق فيها الدماء . وعقبتها حرب اهلية وتدخل اجنبي وحشيان استغرق قرابة ثلاث سنوات . والواقع ان الدولة الثورية الفتية لم تتبلور تحت تأثير الافكار التي بشّر البلاشفة بها عندما تسلموا الحكم ، بقدر ما تبلورت تحت وطأة مستلزمات حرب اهلية ضروس. فاضطرت الاحداثُ حزب الثورة الى التخلي عن بعض تطلعاته وآماله واوهامه بغية انقاذ اطار الثورة الاساسي . فعرف ، بقياداته وقواعده ، خلال هذه العملية ، تغيراً نفسياً وسياسياً عميقاً .

ان احدى السمات العامة لهذا التغيّر لهي سمة مشتركة بين جميع الثورات التي قامت حتى الآن . تبدأ كل ثورة عظيمة بانفجار مذهل يعبر عن زخم الشعب وكبته وغضبه وامله . وتنتهي وقد عمّ التعب والانهاك وخيبة الامل اوساط الشعب الثائر . في طورها الاول ، نجد الحزب الذي يعبّر عن المزاج الشعبي اصدق تعبير ينتصر على خصومه ، يحوز على ثقة الجماهير ، ويتسلم الحكم. ولكن حتى اكثر الاحزاب ثورية لا يكون ثورياً بما فيه الكفاية في نظر القطاع الاكثر تطرفاً من الشعب . فيدفعه المدّ العارم الى امـــام لكي يتخطى العراقيل التي تعترض طريقه ، ويتحدى جميع القوى المحافظة . ثم يأتي امتحان الحرب الاهلية المحتوم . لا يزال الحزب الثوري يساير غالبية الشعب . وهو مدرك كل الادراك لتلاصقه بالشعب ولتناغم اهدافه مع رغبات الشعب وامانيه . فيسهل عليه ، اذّاك ، ان يدعو غالبية الامة الى بذل المزيد والمزيد من الجهود والتضحيات ، وهو على يقين من انها سوف تلبّي النداء . فالحزب الثوري ، في هذا الطور البطولي، هو الحزب الديمقراطي بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، على الرغم من انه يعامل اعداءه بحزم دكتاتوري ، ولا يأبه بالشكليات الدستورية . فالقادة يثقون ضمناً بتأييد الجماهير الواسع لهم ، ويرسمون سياساتهم على اساس هذه الثقة . وهم مستعدون ، لا بل شغوفون ، بأن تُطرح سياساتهم للنقاش العلني ، ويرضخون للحكم الذي يصدره الشعب عليها. وعلى الرغم من انهم يتطلعون الى قيادة الجماهير ، فهذا لا يمنعهم من ان يسمحوا للشعب بأن يقودهم .

لكن هذه العلاقة السعيدة بين حزب الثورة – أكان يسمّى « الاستقلاليون » ام « اليعاقبة » ام البلاشفة – وبين غالبية الشعب لا يمكن ان تعمّر طويلاً . وهي بالكاد تتجاوز فترة الحرب الاهلية . ان العديد من المؤيدين المخلصين النشيطين للنظام يقضون نحبهم في الحرب الاهلية . بينما يرقّى آخرون من مراكزهم المتواضعة الى مراكز القوة والنفوذ ، وغالباً الى مراكز الامتياز . ويخرج حزب الثورة منتصراً من الحرب الاهلية ، مليئاً بالفخر والثقة بالنفس ، لكنه منهك ومضطرب داخلياً في الوقت ذاته . بيد أن انهاك الشعب اشدّ . فالبلد الذي اجتاحه التدخل الاجنبي والحرب الاهلية سرعان ما يغوص في بؤس اسوأ من البؤس الذي ثار الشعبُ ضده اصلاً . ففي عام ١٩٢٠ ، عانت روسيا من الجوع والحرمان اكثر مما عانته عام ١٩١٧ . فلا يلبث بطش الحكام الجدد ، الذي املته الظروف وضرورات الدفاع عن النفس ، ان يولّد ردة فعل عكسية . وقد تكون ردة الفعل هذه اعنف منها في اي مكان آخر بين اولئك الذين حثوا الحزب سابقاً على سلوك الطريق الذي جعل البطش حتمياً .

هنا تُصاب الثورة بجزر بعد مدّ عارم . يتعذر على القادة ان يفوا بوعودهم السابقة . لقد حطموا النظام القديم ، لكنهم عاجزون عن تلبية حاجات الشعب اليومية . صحيح ان الثورة قد ارست اساس تنظيم ارفع للمجتمع كما ارست اسس التقدم في المستقبل غير البعيد . وهذا ما يبرر موقفهـــا في نظر الاجيال القادمة . لكن ثمار الثورة لا تنضج الا ببطء ، بينما اللحظة الراهنة تعج ببؤس السنوات الاولى بعد الثورة. خلال هذه السنوات، تكتسي الدولة الجديدة شكلها ، هذا الشكل الذي يفضح البون بين الحزب الثوري والشعب . تلك هي المأساة الفعلية التي تحلّ بحزب الثورة . فاذا هو سمح للمزاج الشعبي بأن يملي عليه اعماله ، إضطر الى الامّحاء ، او الى التنازل عن السلطة على اقل تقدير . ولكن ما من حكومة ثورية تتنازل عن الحكم بعد حرب اهلية خرجت منها منتصرة ؛ ذلك ان المطالبين الوحيدين بالسلطة ممن يملك القدرة على ترجمة هذه المطالبة الى عمل ، لا زالوا بقايا الردة المهزومة التي تقنع بقوة لا يُستهان بها . فالتنازل هنا بمثابة الانتحار . وهو يؤدي ، فضلاً عن ذلك ، الى ضياع الجهود الشاقة التي بذلتها الثورة من اجل تحويل المجتمع ، وهي جهود لم تنتهِ بعد. ان الآلية السياسية لنظام حكم عصفت بـه انواء الثورة والردة المضادة للثورة على حد سواء ، لا تشبه بشيء آليـــة نظام برلماني مستقر تتناوب الحكومات فيه على الحكم ، دخولاً او خروجاً ، بشيء من اللياقة ، دون ان تضطر

الواحدة الى قطع رؤوس افراد الحكومة الاخرى . ان حزب الثورة لا يعرف التراجع . فهو قد اندفع نحو المأزق الذي يجد نفسه فيه حالياً بفضل انصياعه لارادة الناس انفسهم الذين اخذوا يتخلـّون عنه. فيواصل تنفيذ ما يعتقده واجبه دون ان يأبهبصوت الشعب. وسرعان ما يضطر الى خنق هذا الصوت .

ولا يحيط حزب الثورة ، باديء بدء ، بكل مدلولات هذه المرحلة الجديدة . لقد تسلـّم الحكم بوصفه حكومة من الشعب ، بواسطة الشعب ، ولاجل الشعب . وها هي هذه الحكومة تتخلى عن احدى هذه الصفات على الاقل – فهي لم تعد حكومة بواسطة الشعب . ويمني الحزب نفسه بالآمال العراض حول مرحلية هذا التنافر بينه وبين الرأي العام في البلد ، ظناً منه ان بذل الجهد في هذا الاتجاه او ذاك سوف يلهب حماس الشعب مجدداً ، ويستعيد الماضي البطولي القريب . لكن البون يزداد اتساعاً وعمقاً . وسرعان ما يكتسب الحكام عادات الحكم الاستبدادي ، ويصبحوا هم انفسهم محكومين من قبل هذه العادات . وهكذا فالمغامرة الشعبية الحماسية التي انطلقت وسط التفاؤل العـــام ، لا تلبث ان تتقهقر الى حكم استبدادي ضيق وبارد . وينشق حزب الثورة ، خلال عملية التحول هذه الى فئة تغذي هذه النظرة الجديدة او ترضى التعايُش معهـــا ، والى فئة ترفضهـــا . ويشير بعض القادة بذعر الى الطلاق الواقع بين الثورة والشعب . بينما يبرر آخرون سلوك الحزب على اساس ان الطلاق واقع لا محالة . ويصرخ البعض بهلع ان ثمة خيانة تُرتكب بحق الثورة،لانهم يرون ان الحكم بواسطة الشعب هو جوهر الثورة نفسها، فبدونه لا حكم من اجل الشعب . ويبرر الحكامُ مواقفهم بتبني الرأي القائل ان كل ما يقومون به سوف يخدم مصالح اوسع جماهير الامة في نهاية المطاف . وهكذا نجدهم ، على العموم ، يستخدمون سلطاتهم من اجل تعزيز مكتسبات الثورة الاقتصادية والاجتماعية . ووسط الاتهامات وردّ الاتهامات ، تتدحرج رؤوس القادة الثوريين ، وترتفع سلطة دولة ما بعد الثورة عالياً فوق المجتمع الذي تحكمه .

ان اموراً عديدة تبدو مبسـّطة او مضطربة في هذا النهج العـــام لتطور الثورة . فالحقيقة التاريخية ليست في التعميمات العريضة بقدر مـــا هي في سياق الاحداث المعقـّد الذي يختلف بين ثورة واخرى . فبعض السمات التي لا تظهر الا بالكاد في ثورة ما ، تبدو جلية بارزة في ثورة اخرى . فالتطورات التي ادّت الى اخماد جذوة الحركة اليعقوبية والى انهيارها ، مثلاً ، لم تستغرق اكثر من بضعة اشهر ؛ هـــذا في حين سارت ببطء ،

بالنسبة للحركة البلشفية ، واستغرقت عقوداً من الزمن ، وادت الى نتائج متباينة كثيراً في بعض الاحيان . لكن المهم هنا هو الاتجاه العام للاحداث ، وهو القاسم المشترك بين جميع الثورات الكبرى حتى الآن . وافضـــل فهم للتحولات التي طرأت على الحركة البلشفية الظافرة وعلى مصير ستالين نفسه ، ينبغي ان ينطلق من هذه الرؤية الشاملة .

* * *

ان قلة من الرجال عرفت انتقالاً من الظلمة والفقر والاضطهاد الى سدة السلطان والشهرة بسرعة وزخم الانتقال الذي جعل من القادة البلاشفة حكاماً على روسيا . بعد ان ازال لينين « الماكياج » عن وجهه وخلع شعره المستعار ونظارتيه الكبيرتين والتقى باصدقائه في سمولين عشية الانتفاضة ، اسرّ ، بشيء من السخرية ، ان دوراً قد انتابه من جراء هذا التحول . ولعل ستالين احسّ بشعور مماثـــل وهو يستمع ، يوم السادس والعشرين من تشرين الاول ١٩١٧ ، الى كامينيف يتلو امام مؤتمر السوفييت اسماء اعضاء الحكومة السوفييتية الاول ، اول مجلس لمفوضي الشعب . وقد اشتملت القائمة على اسم يوسف فيساريو نوفيتش دجوغاشفيللي — ستالين ، « رئيس مفوضية القوميات » .

الا ان جميع الاحزاب ، باستثناء البلاشفة ، قاطعت الحكومة التي ينتمي اليها. وكان من بين اعضائها الخمسة عشر ، احد عشر مثقفاً واربعة عمال . رئيسها لينين ، ومفوض الشؤون الخارجية فيها تروتسكي . وتولى ريكوف الشؤون الداخلية ، ومليوتين الزراعة ، وشليابنيكوف العمل . وانيطت الشؤون العسكرية والبحرية بلجنة من ثلاثة اشخاص : انطونوف — اوفسينكو ، الثوري والضابط السابق ؛ كريلنكو ، المحامي والعريف السابق ؛ وديبنكو ، وهو بحار ضخم الجثة ، شبه امّي ، مرح ، برز كقائد ثوري في اسطول البلطيق . أ . لوناتشارسكي ، « الباحث عن الله » والعالم ، مسئول عن التعليم . قررت الحكومة الجديدة الاستغناء عن العادات والهيئات التقليدية للحكم . وقد برز ميلها للتجديد حتى في اسمها ، إذ استبدلت لقب وزير بلقب مفوض. وتدار شؤون كل مفوضية من المفوضيات من قبل لجنة ، يرأسها المفوض . وقد عبّر تنظيم الحكومة الجديدة عن نزعتها الديمقراطية الجذرية .ولا يسعنا القول هنا ان نظرة هذا الفريق الجديد من المفوضين تطابق « التصميم الحديدي » و « الاندفاع المتزمت » اللذين اقترنا في اذهان النـــاس ، فيما بعد ، بالبلشفية . فالعكس هو الصحيح . إذ ان « ميوعة » معظم المفوضين سرعان

ما اوقعت الحكومة في عدد من المواقف المأسوية – الهزلية . ولا يسمح لنا المجال هنا ان نروي اكثر من اثنتين او ثلاث من هذه الحوادث الطريفة .

بينما الانتفاضة البلشفية لا تزال مستعرة في موسكو ، سرت شائعات تقول ان قصر الكرملين قد تهدّم خلال القتال . فأعلن لوناتشارسكي ، مفوض التربية ، استقالته من منصبه احتجاجاً على « الاعمال الهمجية » التي يرتكبهـــا الحراس الحمر . وصاح في احد بياناته :

« ايها الرفاق ! ان ما يجري حالياً في موسكو لهو كارثة مروعـــة لا يمكن إصلاح الدمار الذي احدثته ... ان الشعب ، في نضاله للاستيلاء على السلطة ، قد شوّه وجه عاصمتنا الجيدة ... ان تولي منصب مفوضية التربية العامة ، في هذا الظرف الذي تدور فيه رحى قتال عنيف وحرب مدمرة ، لهو امر بالغ الصعوبة ... ولكن ، قريباً ، قريباً جداً ، سوف يستيقظ اجهل النـــاس ، ويدركون اي مصدر للغبطة والقوة والحكمة هو الفن » .

ولما تبين ان الشائعة مبالغ فيها جداً ، نجح لينين ، ولكن ليس بدون صعوبة ، في اقناع المفوض الحساس بالعودة الى منصبه .

منذ اليوم الاول لقيامها ، تبين للحكومة ان الموظفين يقاطعونها ، ويرفضون تنفيذ اوامر السادة الجدد . ويروي شاهد عيان الحادثة التالية : « عينت الكسندرا كولونتاي مفوضة للخدمات العامة ، فاستقبلها موظفو وزارتها باضراب عام لم يتخلف عنه اكثر من اربعين موظفاً . وكان فقراء المدن يعانون من حرمان شديد ، فأقدمت وفـــود من الكسيحين الجياع والايتام ذوي الاوجه الواجمة المزرقة على محاصرة البناية . فأمرت كولونتاي إذ ذاك ، والدمع ينهمر على وجنتيها ، باعتقال المضربين الى حين يسلمون مفاتيح المكتب والخزينة » . لا تزال الثورة تقمع تخريب اعدائها والدموع تنهمر من عينيها .

على الرغم من احتجـــاج لينين ، اصدر مجلس المفوضين ، في عداد اول المراسيم التي اصدرهـــا ، مرسوماً يلغي عقوبة الاعدام . اعتقل الحراسُ الحمر الجنرال القوزاقي كراسنوف ، الذي هجم على بطرسبرغ للاطاحة بالبلاشفة ولتشتيت سلطة السوفيت ، الا انهم ما لبثوا ان اطلقوا سراحه لقاء تعهد منه بأن لا يعاود القتال . فيما بعد ، قاد

كراسنوف هذا احد الجيوش المعادية للثورة في جنوب روسيا . وانقضى بعض الوقت قبل ان تجفف الثورة دموعهـا ، وسط محن الحرب الاهلية ، فتقرر عدم تصديق تفرع اعدائها ، وتعمل بحزم لا يلين وسمها بسمات جديدة منفـّرة كانت ، على الرغم من كل شيء ، العامل الحاسم في صمودها وبقائها . عما قريب ، سيبرز لنا « الرجل الفولاذي » في عداد الذين انتشلوا الثورة من حساسيتها المثـالية (ام تراها مثالية عاطفية ليس إلا ؟).

لم يتعرض ستالين لاي تخريب اقدم عليه موظفو وزارته ، وذلك لسبب بسيط هو انه لم يكن يوجد من قبل دائرة خاصة تتولى شؤون مختلف القوميات غـير الروسية . فاضطر الى تأسيس مفوضيته انطلاقاً من الصفر . كان كل « جهاز » دائرته ، اول الامر ، لا يتعدى طاولة وحيدة في غرفة من غرف سمولني علقت عليها يافطة كـُتب عليهـا اسم المفوضية الطنـّان . لكنه ما لبث ان حصل ، فيما بعد ، على مركز افضل لها بعدما اشترك بحزم في مشادة شبه هزلية نشبت بين المفوضين بصدد تأمين مراكز لمفوضياتهـم . ثم راح يجمع حوله فريقاً من المساعدين ، من الجيورجيين والاوكرانيين واليهود ، وهم المهيأون لمعالجة القضايا التي تدخل ضمن اختصاص مفوضيته .

وما أن باشر عمله حتى حُـلّ المجلس الاول لمفوضي الشعب . كان الجناح اليميني في الحزب ، المكوّن من معارضي الانتفاضة السابقين ، يشكل قوة في الحكومة ، فأخذ يعمل من وراء الستار على اجراء مصالحة مع المناشفة والاشتراكيين الثوريين. وراح يحث الحزب على إشراك الاشتراكيين المعتدلين في الحـكم . وحظي هذا المطلب بتأييد ريكوف ، مفوض الداخلية ؛ ومليوتين ، مفوض الزراعة ؛ ونوغين ، مفوض الصناعة والتجـارة ، ولوناتشارسكي وكامينيف (وكان هذا الاخير قد انتخِب رئيساً للجمهورية)،وزينوفييف. فاستقال هؤلاء المفوضون ، مجبِرين لينـين بذلك على فتح باب المفاوضات مع الاحزاب الاخرى . لكن مشروع المصالحة سرعان ما باء بالفشل ، لأن المناشفة اصروا على اقصاء لينين وتروتسكي ، زعيمَي الانتفاضة ، عن الحكومة الائتلافية . وترددت اللجنة المركزية بعض الشيء بصدد هـذا الشرط ؛ إلا ان الغالبية رأت في ذلك محاولة « لقطع رأس الحزب البلشفي » ، فرفضته . وصوّت ستالين ضد اقصاء لينين وتروتسكي ، ومع وقف المفاوضات مع المناشفة . فقـُدّمت على الاثر مجموعة جديدة من الاستقالات من الحكومـة ومن اللجنة المركزية ، ولم يرتدع المستقيلون إلا بعد ان هُددوا بالطرد من الحزب . وكان

لينين وتروتسكي وستالين اول من وقّع على البيان المتضمن لهذا التهديد . غير ان الازمة ما لبثت ان افضت الى تشكيل حكومة جديدة اشترك فيهـا الجناح اليساري من الاشتراكيين الثوريين . وهم الفئة الوحيدة التي ارتضت التعاون مع لينين وتروتسكي ، وذلك بغية تنفيذ برنامج الثورة الزراعية الى النهاية .

يصعب فهم الدور الحاسم الذي لعبه ستالين في الحكومة السوفييتية منذ اعلانهـا ، دون ان نأخذ بعين الاعتبار الاثر الذي تركته على لينين « ميوعة » معظم القادة البلاشفة . ان تذبذبهم ملأه بالتخوّف والذعر . ورأى حكومته تواجه من المحن اقساها : الفوضى الداخلية ، الشلل الاقتصادي ، الردة المضادة للثورة المحتمة ، وتركة الحرب . فالتفت حوله باحثاً عن رفاق في الحكومة واللجنة المركزية يمكن الاعتماد عليهم لتشكيل نواة متماسكة قادرة على العمل الحاسم والسريع الذي تتطلبه مواجهـة الطوارىء القادمة . وفكر بانشاء وزارة مصغّرة بدلاً من تكتل دكتاتوري . على اثر انتصار الثورة ، عينت اللجنة المركزية البلشفية لجنة تنفيذية من اربعة اعضاء : لينين ، ستالين ، تروتسكي ، سفيردلوف . وبعد تشكيل التحالف البلشفي – الاشتراكي الثوري اليساري ، اوكلت الحكومة الاعمال الهامة والمستعجلة الى وزارة مصغرة مكونة من خمسة مفوضين ، ثلاثة بلاشفة واشتراكيان ثوريان . وكان الاعضاء البلاشفة هم لينين ، تروتسكي ، وستالين .

لقد رأينا كيف اصبح ستالين عضواً في اللجنة المركزية في عام ١٩١٢ . كان لينين ، في ذلك الحين ، على خلاف مع ابرز زملائه (وبالمناسبة ، فان بعضهم عاد الى الحزب عام ١٩١٧) . وكان انتقاء قيادات بلشفية جديدة امراً املته ضرورات إقـالة او استقالة هؤلاء ؛ فحل مناضلو العمل السري ، وبخاصة مناضلو لجان باكو ، محل القادة المثقفين . وها ان شيئاً مماثلاً يجري الآن . فترقية ستالين تعود الى انفصال عدة اعضاء عن اللجنة المركزية . صحيح ان المنشقين هذه المرة لم يغادروا الحزب ، ولم يطردوا ، لا بل انهم استعادوا فيما بعد نفوذهم في الاوساط العليا من الحزب البلشفي. لكنهم ظلوا في الاحتياط لفترة من الزمن . هذا لا يعني ان ستالين كان بمأمن من شكوك وتذبذب القـادة الاكثر اعتدالاً ؛ فهو قد مرّ بفترة تردد عشية انتفاضة اكتوبر . لكنه كان في الاصل جرم في سماء لينين ، يدور دائماً في فلكه . وكان احكامه وحدسه السياسي يدفعان به ، بين الحين والآخر ، الى الانحراف ؛ كما كانت احكامه ، من جهـة اخرى ، اسلم من احكام لينين في بعض المناسبات الهامة . ولكن الجاذبية التي يمارسها المعلم عليه كانت من القوة ، خلال

اول سنوات الثورة على الاقل ، بحيث انها ابقته بانتظام ضمن المدار المعين له . وما من شك في ان لينين ادرك ذلك ؛ ولم يأنف من الافـــادة منه لاقصى حد . في شؤون الايديولوجية والمبادىء ، كان يأخذ اراء معظم اعضاء اللجنة المركزيـــة على محمل الجد اكثر من اراء ستالين ؛ اما بالنسبة لعمل الحكومة اليومي ، لنشاطها الاداري الواسع ، فلعله كان يقدِّر مساعدة ستالين اكثر من مساعدة اي شخص آخر . وقد امضى ستالين ليلة ٢٧/٢٨ تشرين الاول الى جانب لينين في قيـــادة الاركان ببطرسبرغ ، مراقباً الاجراءات المتخذة لدحر زحف الجنرال كراسنوف على العاصمة . وكان الى جانب لينين ايضاً ، بعد بضعة ايام من ذلك ، عندما طلب هذا من القائد العـــام للجيش ، الجنرال دوخونين ، ان يعرض الهدنة على القيادة الالمانية واصدار امر وقف اطلاق النـــار ؛ وعندما اقدم لينين ، ازاء رفض الجنرال دوخونين القيـــام بذلك ، على اقالته وتعيين كريلنكو قائداً عاماً مكانه . وكان ذلك بداية نشاط ستالين العسكري الذي سيزداد اتساعاً واهمية مع تقدم الحرب الاهلية .

* * *

ظهر ستالين علنـــاً لاول مرة بوصفه مفوضاً للقوميات في مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي الفنلندي بهلسنكي ، بعد ثلاثة اسابيع من الانقلاب البلشفي . وهذه مناسبة غريبة يتذكرها الفنلنديون : إذ اعلن ممثل الحكومة الروسية الجديدة استقلال بلادهم عن روسيا . ان دمج فنلندا تدريجياً بالامبراطورية القيصرية بدأ في عهد القيصر الكسندر الاول ، عقب الحروب النابليونية . اما حكومة كرنسكي ، التي اعتبرت نفسها الوريث الشرعي للامبراطورية ، فقد اصرت على ممارسة سيادتهـــا على فنلندا حتى في الفترة التي كانت سيادتها على روسيا نفسها آخذة بالتلاشي . وها ان خطأً قديمـــاً يجري تصحيحه الآن . واغرب ما في مؤتمر هلسنكي ان الرجل الذي تولى باسم الحكومة الروسية تنفيذ حكم العدالة التاريخي هذا لم يكن هو نفسه روسياً ، بل ابناً لامة صغيرة اخرى عانت هي ايضاً من الاضطهاد القيصري . ان صياغة خطابه الطليقة تتناقض مع القائد المائع الركيك. فالخطيب يتمتم عباراته الروسية الجرداء ، ويلفظها بلكنة اجنبية واضحة . ولكن ذلك اضاف مسحة من الصدق على المناسبة إذ حررها من كل تزويق :

« ان كامل الحرية في تقرير المصير ممنوحة للفنلنديين ولسائر شعوب روسيا !

تحالف اختياري صادق بين الشعوب الفنلندية والروسية ! لا وصاية ، لا رقابة من فوق على الشعب الفنلندي ! تلك هي المبادىء التي تسيِّر سياسة مجلس مفوضي الشعب » .

تَلك هي رسالة روسيا الجديدة التي حملها ابن جنوب جيورجيا لتحرير مواطني فنلندا الشمالية . وفي الثامن عشر من كانون الاول ، اعلنت الحكومة السوفييتية ، رسمياً ، استقلال فنلندا . وحمل المرسوم توقيعَي لينين وستالين معاً .

ان هذه البادرة النبيلة تنسجم كلياً مع البرنامج الذي عرضه ستالين في دراسته حول « الماركسية ومسألة القوميات » ، عام ١٩١٣ . وقد دافع فيها عن حق الشعوب التي تضطهدها الامبراطورية القيصرية في تقرير المصير ؛ وفسر هذا المبدأ على انه يعني منح كل شعب مضطهد حرية الانفصال عن روسيا وتكوين دولة مستقلة صحيح ان الاشتراكية لا تشجع الحركات القومية الانفصالية وتشكيل عدد لا ينتهي من الدويلات غير القادرة على الاكتفاء الذاتي . فهدفها البعيد هو المجتمع الاشتراكي الاممي . ويرى الاشتراكيون ان التقدم الاجتماعي والاقتصادي يتطلب ازالة الحواجز التي تفصل بين الامم . ولكن محاجَّة ستالين هي التالية : ان المجتمع الاشتراكي الاممي لا يمكن ان يقوم الا عن طريق اتفاق طوعي بين الشعوب المنضمة اليه ؛ والاتفاق الطوعي يعني انه يجب ان تحوز كل امة على كامل حريتها اولاً باول . ودافع لينين عن هذا الرأي باجراء مقارنة طريفة بين هذه الحرية وبين حرية الطلاق التي كان الاشتراكيون يدعون لها . فقال : « اننا لا نريد من ذلك ابداً ان نحث النساء على تطليق ازواجهن ، رغم اننا نريدهن ان يتمتعن بحرية الطلاق إن هن اخترن ذلك » . ان موقف البلاشفة شبيه بهذا الموقف : فهم يدافعون عن حق الشعوب غير الروسية في الانفصال عن روسيا ، لكنهم لا يشجعون التطلعات الانفصالية . وبعد مضي اسبوع على قيام الثورة ، اي في الثاني من تشرين الثاني ، تجسدت هذه المبادىء في « اعلان حقوق شعوب روسيا » . وكان الاعلان ، الذي كتبه لينين وستالين ، احدى الوثائق التي تُطلِع العالم على مبادىء الثورة . جاء فيه :

« ان مجلس مفوضي الشعب قد قرر تبني ... المبادىء التالية اساساً لعمله : ١) مساواة شعوب روسيا وسيادتها ؛ ٢) حق شعوب روسيا في تقرير المصير حتى الى درجة الانفصال وتكوين دول مستقلة ؛ ٣) الغاء كل الامتيازات او

التحريمات ذات الطابع القومي او القومي – الديني ؛ ٤) التطور الحر للاقليات القومية والمجموعات الاثنية الساكنة ضمن حدود روسيا » .

وعلق القادة البلاشفة املهم على ان تحذو القوميات غير الروسية حذو روسيا وتقوم بثوراتها الخاصة ؛ وان تعود جميعها ، رغم تمتعها بحق الانفصال ، الى الاندماج بروسيا في اتحاد حر من الامم الاشتراكية . الا ان حق الفنلنديين والاوكرانيين وسكان البلطيق وغيرهم في الانفصال عن بروسيا لم يُرهَن بنوع النظام الذي يقيموه في بلادهم . وفي ٢٢ تشرين الاول ، ١٩١٧ ، ترافع ستالين امام اللجنة التنفيذية للسوفييت ، التي تقدم اليها بمشروع مرسوم استقلال فنلندا ، على النحو التالي: « اذا نحن نظرنا الى الصورة بانتباه... نجد ان مجلس مفوضي الشعب ، بغض النظر عن نواياه ، لم يعطِ الحرية لشعب فنلندا ، ولا لممثلي الطبقة العاملة فيها ، وإنما الى البرجوازية الفنلندية ... التي استولت على الحكم وحصلت على الاستقلال من اشتراكيي روسيا ». ان « الميوعة والتخاذل العجيبين » اللذين تكشف عنهما الاشتراكيون الديمقراطيون الفنلنديون هما السبب في ذلك ، ولكن « ما من قوة في العالم تستطيع ان تجبر مجلس مفوضي الشعب على نقض تعهداته » القاضية بالاعتراف باستقلال فنلندا . وبالرغم من توجيه اللوم الى المجلس بسبب سياسته هذه ، ينبغي عليه ان يعالج مطالب البرجوازية الفنلندية « بامانة كاملة » .

انصب النقد على هذه السياسة من اطراف عديدة. هاجت الاحزاب المعادية للبلشفية ، مستنكرة « بيع » روسيا . ورأى البلاشفة من امثال بوخارين ودزرجنسكي في سياسة ستالين تنازلاً لا طائل تحته للنزعات القومية البرجوازية عند الشعوب الصغيرة ، يتم على حساب الثورة الروسية نفسها . الا ان ستالين تمسك بموقفه ، مدعوماً من لينين .

ولكن سرعان مـــا اتضح ان هذا الموقف يتعارض مع الواقع . برزت الحكومات الجديدة في كل اطراف روسيا . وكلها معادية للبلشفية ، وتطالب بالانفصال الكامل عن روسيا . هكذا ُفسِّر كلام لينين وستالين حرفياً . وكانت المسألة الاوكرانية أخطر هذه المسائل . فسرعان ما اصطدمت حكومتها المؤقتة المنشأة حديثاً ، والمسماة « رادا » ، بالسوفييت . واصدر اتامان بتلورا ، « القائد العام للقوات الاوكرانية المسلحة »، اوامره الى كل الوحدات الاوكرانية بمغادرة الجبهات والعودة الى اوكرانيا . ورأى البلاشفة في ذلك مسخاً لمبدأ تقرير المصير . فاصدر ستالين بلاغاً رسمياً يعرض فيـــه خلفية النزاع

المضطرم . ان البلاشفة يعترفون بأن لكل امة الحق بأن يكون لها جيشها الخاص ؛ لكنهم ليسوا في وضع يسمح لهم بتجميع كل قواتهم المسلحة لتلبية مطلب الاوكرانيين. انهم متلهفون لانهاء الحرب وعقد الصلح مع المانيا ؛ وقد ضمنوا هدنة قصيرة ، ودخلوا في مفاوضات السلم في بريست ليتوفسك . ولكنهم لا يستطيعون تشتيت الجيش ، وتفكيك الجبهة ، وزرع الفوضى في نظام النقل قبل عقد معاهدة صلح . لم يعرف الجيش القيصري القديم تمييزاً بين الجنود على اساس القوميات التي ينتمون اليها ؛ والبدء بمثل هذا التمييز الآن يعني تسديد ضربة قاتلة للثورة الروسية التي تواجه الجيش الالماني الذي لا يزال يطيع اوامر القيصر . هنا مكمن التنافر بين التطلعات القومية الاوكرانية وبين مصالح الثورة الروسية .

وعبرت المعضلة عن نفسها باشكال عديدة . في جنوب روسيا، جيّش الجنرال القوزاقي خالدين جيشاً معادياً للثورة واعلن الحرب الاهلية . فقررت الحكومة السوفييتية ارسال قوات الى الجنوب حيث يتهدد هجوم خالدين منطقة الدونيتز المشهورة بمناجم الفحم ، والموالية للحمر . واذا باوكرانيا كالإسفين يفصل بين شمال روسيا وجنوبها . فرفضت « الرادا » الاوكرانية السماح للقوات الحمراء باجتياز اراضيها. هل يرضخ السوفييت لقرار « الرادا » احتراماً لحق اوكرانيا في تقرير المصير ، رغم ان ذلك يعرّض بتسليم جنوب روسيا لجيوش البيض ؟ الا ان المعضلة لم تنتهِ هنا . كانت الثورة السوفييتية تنتقل الى اوكرانيا ايضاً ؛ فنشب قتال ضار هناك بين السوفييت الاوكرانية وبين « الرادا » ، عندما اقدمت هذه على تفريق السوفييت بقوة السلاح . هل تقف بطرسبرغ الحمراء مكتوفة الايدي بينما تكتسح الردة المضادة للثورة كييف وخاركوف المواليتين للحمر؟

لم يطل تردد مفوض القوميات . فعرض المعضلة امام المؤتمر العام الثالث للسوفييت ، الذي انعقد في كانون الثاني ١٩١٨ ، وطالب بتعديل السياسة : ان مبدأ حق تقرير المصير للامم الصغيرة « لا ينبغي ان يُفهم على انه حق البرجوازية في تقرير المصير ، بل على انه حقٌ ممنوح للجماهير الكادحة في الامة المعنية . ينبغي استخدام مبدأ حق تقرير المصير كوسيلة للنضال من اجل الاشتراكية ، كما ينبغي اخضاعه للمبادىء الاشتراكية » . وتولى مارتوف توجيه النقد لمفوض القوميات باسم المناشفة . فتساءل : لماذا منح البلاشفة الاستقلال للبرجوازية الفنلندية ، ولم يمنحوه للبرجوازية الاوكرانية ؟ لماذا يحث ستالين على دعم السوفييت الاوكرانية ، بينما يدعو تروتسكي ، وقد شرع في مفاوضات السلم في

بريست ليتوفسك ، الى اقامة استفتاءات في بولونيا! وفي الاطراف الاخرى التي تحتلها المانيا ؟ واجاب ستالين بانه لا يوجد اختلاف بين رأيه ورأي تروتسكي ، ولكنه لا يوجد اي سوفييت في بولونيا ولا في اي من الاطراف الاخرى ، ولا ينوي البلاشفة « اختراعها » او خلقها على نحو مصطنع . لكن السوفييت موجودة في اوكرانيا ، وليس البلاشفة على استعداد للعودة من السوفييت الى « البرلمانية البرجوازية » . فاعلن المؤتمر تأييده لموقف مفوض القوميات .

واشتمل مشروع قرار قدّمه ستالين للمؤتمر نفسه حول دستور الدولة السوفييتية على مراجعة ثانية لاحد المبادىء . إذ اقترح تنظيماً فيدرالياً للسوفييت . وكان ستالين قد عارض الفيدرالية في دراسته عن القوميات ، شأنه في ذلك شأن لينين . وجادل في ذلك الحين قائلاً ان الشعوب المضطهدة تتمتع بحرية الانفصال عن روسيا كلياً ، ولكنها اذا ارتضت البقاء ضمن روسيا ، فعليها ان تقبل البنية المركزية للدولة الجديدة ، لأن الاقتصاد الحديث يتطلب منح المركز سلطات واسعة ، ولأن اقامة الحواجز بين القوميات المختلفة ضمن دولة واحدة امر مضرّ سياسياً . هكذا كان رأي ستالين عام ١٩١٣ . ولكن تجلى للسوفييت عام ١٩١٨ انه ليس من مصلحتها ان تنفصل جميع الامم الصغيرة . فكان الدستور الفيدرالي للدولة الجديدة يوفّر افضل توازن بين حاجات روسيا البلشفية وبين مطالب الامم الصغيرة .

* * *

غير ان وقت صياغة الدساتير الفعلية لم يكن قد حان بعد . فالحكومة السوفييتية ليست سيّدة على الوطن بعد . وهي قد اضطرت لتوّها الى القيام بانقلاب آخر من اجل الاحتفاظ بالسلطة . ففي مطلع كانون الثاني ١٩١٨ ، اقدمت على حل الجمعية التأسيسية بعد ان امتنعت هذه عن التصديق على اجراءاتها الثورية : السيطرة العمالية على الصناعة ، تأميم المصارف ، مصادرة ممتلكات اسياد الارض ، والدعوة الى الشروع فوراً بمفاوضات السلم التي عممها تروتسكي على جميع الدول المتحاربة . لعل هذه الجمعية ، التي انتخبت على اساس القانون الموضوع ايام كرنسكي ، لم تكن تعكس التغير الذي طرأ على الرأي العام الشعبي عشية ثورة اكتوبر . وإذا بالبلاشفة والاشتراكيين الثوريين اليساريين ، في حلهم لها ، يقتلعون من الجذور اول غرسة روسية للديمقراطية البرلمانية . فظلت السوفييت الهيئة

التمثيلية الوحيدة والمرتكز الاوحد للسلطة .

الا ان ازمة اعنف نشبت ابان الحوار حول الحرب والسلم . توقع البلاشفة ان تنتشر الثورة في اوروبا انتشار النار في الهشيم ، فتضع حداً للاعمال العسكرية . لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحصل . فعلى الرغم من « التآخي » بين القوات الروسية والقوات الالمانية في الخنادق ، وهو سياسة شجع البلاشفة على انتهاجها أملاً منهم بأن تنقل جرثومة الثورة الى المانيا ، لم يفقد الجيش الالماني شيئاً من قدرته الحربية ، او هو فقد منها النذر اليسير . اما بريطانيا وفرنسا وايطاليـــا ، فلم تكن اي منهم على استعداد للبحث في مسألة السلم ؛ خاصة بعد ان دخلت الولايات المتحدة الحرب . وتعذر على روسيا مواصلة القتـــال . فالاصابات في صفوفها لا تُعد ولا تُحصى . اما تسليح وتجهيز قواتها فهو من اسوأ ما يمكن . فتعهدت الحكومة الجديدة بأن تنهي الحرب فوراً ، وطالبت بأن يحاكمهـــا الشعب على اساس تقيدها بهذا التعهد . وكانت الثورة الزراعية قد اسدت الضربة القاضية للجيوش في الميدان . ففر الموجيك من الخنادق ، وراحوا يتدفقون الى قراهم للمساهمـــة في اقتسام ممتلكات اسياد الارض : « لقد صوتوا للسلم ... بارجلهم » ، على حد تعبير لينين . فلم يبقَ للسوفييت من مخرج غير السعي لعقد صلح منفصل مع المانيا .

ولكن ليس بالامكان الحصول على السلم الا حسب شروط الالمان . وتتضمن هذه ضم المانيا ، بشكل او بآخر ، لبولونيا ودول البلطيق وجزء من اوكرانيا ، بالاضافـــة الى الاراضي التي تحتلها اصلاً . على ان البلاشفة كانوا قد التزموا بعقد الصلح « دون ضم او تعويض » . وهو شعار اساسي من الشعارات التي اطلقها دعاتهم . والواقع انهم ذهبوا الى ابعد من ذلـــك ، إذ اعلنوا ، في بعض المناسبات ، انهم لن يعقدوا معاهدة صلح الا مع حكومة المانية ثورية ، وليس مع خدام الامبراطور . فها ان المثال والواقع يصطدمان مجدداً .

بذل لينين قصارى جهده لاقناع رفاقه بأن الوضع ميئوس منه الى ابعد حد، ولدفعهم على الموافقة ، على السلم . وحجته انه لا بد من الانصياع للشروط التي تمليها الامبريالية الالمانية بغية انقاذ الجمهورية الفتية المزعزعة الاركان . فالثورة قد تأخرت في المانيـــا ، وسوف يقضى عليها في المهد عندما تقوم اذا كانت الجيوش قد تمكنت من سحق الثورة الروسية . أن تبقى سلطة السوفييت ، حتى ولو افتدت حياتها بما قد يبدو نقضاً لاحـــد

مبادئها ، هو العامل الذي سيشجع البروليتاريا الاوروبية ، عاجلاً ام آجلاً ، على القيام بثورتها . وعلى كل حال ، فالاراضي التي سوف تتخلى روسيا عنها لن تضيع الى الأبد ، لان السوفييت سوف يستغلون فترة الهدنة ، التي دفعوا ثمنها غالياً ، للتهيئة للجولة القادمة .

وقعت كلمات لينين على آذان صمّاء، اول الامر . الغالبية الساحقة من رفاقه ومؤيديه تدعو الى « حرب ثورية ضد الامبريالية الالمانية ». وترأس بوخارين الجناح الداعي لمواصلة الحرب ، وقد دعي هؤلاء « الشيوعيون اليساريون » . وحجتهم ان السلم سوف يطلق يد الحكومة الالمانية في ضرب الثورة القادمة في البلد . هكذا تلطخ الثورة الروسية اسمها بالعار اذا هي اقدمت ، للنفاد بجلدها ، على خيانة الاشتراكية الالمانية والعالمية، وتواطأت مع ضم امبراطورية الهوهنزولرن لاراض اجنبية . وحتى لو اضطرت سلطة السوفييت الى خوض معركة غير متكافئة القوى ، فان هزيمتها وخرابها اشرف من بقائها منغمسة بالعار والخيانة . فمثال الثورة الروسية المهزومة سيكون قدوة للآخرين كي يواصلوا النضال ، تماماً كما كانت هزيمة عامية باريس ذلك المثال البطولي قبل نصف قرن من الزمن . واعتبر هؤلاء ان لينين يحث البلاشفة على التضحية باعزّ امنية في حياتهم لمجرد ان يظلوا على قيد الحياة .

اما تروتسكي ، الذي كان يرأس الوفد السوفييتي الى مفاوضات السلم في بريست ليتوفسك ، فقد رفض الانضمام الى اي من الجناحين . فهو يوافق لينين على ان سلطة السوفييت عاجزة عن خوض حرب ثورية ؛ لكنه ، من جهة اخرى ، يتفق مع بوخارين بانها سوف تلطخ اسمها بالعار إن هي رضخت لشروط السلم . فراح ، في بريست ليتوفسك ، يماطل ويماطل في المفاوضات على امل ان تظهر بوادر الثورة في المانيا . واخرج ، امام الجنرالات والدبلوماسيين الالمان والنمساويين ، كل ما في جعبته من العاب نارية في مجال الخطابة الثورية الهادفة الى فضح الدكتاتورية الالمانية ، والى ايقاظ وعي الطبقات العاملة الالمانية ؛ فأثار دهشتهم وانزعاجهم في آن معاً . لكن ثمار الدعاوة الثورية لا تنضج الا ببطء . ولا تزال معضلة الحياة والموت تلح مطالبة بحل . وتمكن تروتسكي من اقناع اللجنة المركزية بالعودة عن قرارها المؤيد للحرب الثورية ، وتبني صيغته : « لا حرب ولا سلام » . لكن الاحداث اللاحقة ما لبثت ان فضحت الطبيعة الهروبية لهذه الصيغة . إذ لم يكن بد من الاختيار بين الحرب والسلم . وإذا كان « عدم

اختيار هذه ولا ذاك » قد يرضي الصحفي والداعية ، فلا فائدة ترجى منه لرجل الدولة والسياسي .

اين وقف ستالين من هذا الخلاف الحاد ؟ لم تهزه تضرعات الشيوعيين اليساريين ولا مواعظهم عن الاخلاقية الثورية. فالرأي القائل بأن تضحي الثورة الروسية بنفسها في سبيل الثورة الاوروبية رأي غريب عنه . علماً بأن لينين ، على الرغم من كل ما فيه من واقعية ، يتردد في استبعادها بخفة. فمفهوم الثورة الاوروبية، بالنسبة للرجل الذي امضى القسط الاوفر من حياته النضالية في باكو وتيفليس ، يبدو غامضاً وبعيداً الى درجة انه لا يؤثر في تفكيره حول قضايا قد تقرر مصير الجمهورية السوفييتية ، هذه الجمهورية التي اسهم هو بنفسه في جعلها امراً واقعاً ، رغم هزالها الراهن . ولم يبهره موقف تروتسكي هو ايضاً . فلم يتردد في الاستخفاف بالفكرة القائلة ان النداءات التي يوجهها تروتسكي من بريست ليتوفسك الى البروليتاريا الالمانية سوف تؤثر ، بأي شكل من الاشكال ، في توازن القوى على الجبهة ؛ لا بل هو راح يهزأ من مثل هذه الافكار . فادلى بصوته مع لينين ومع جناحه الصغير الداعي الى السلم . وكان لينين يسخر من الشيوعيين اليساريين على اعتبار ان لسان حالهم يقول : « اننا نراهن على الحركة الاشتراكية الاممية ، لذا لنا كل الحق في ارتكاب الحماقات » . وشبّه بوخارين ورفاقه بالنبلاء البولونيين ، « الذين يؤثرون الموت في وقفة جميلة ، والسيف الى جانبهم ، مرددين : السلم عار والحرب شرف » . وقال : « انهم يناقشون من وجهة نظر النبيل البولوني ، اما انا فاتكلم من وجهة نظر الفلاح الروسي » . أغريب ان يقنع حديث كهذا سليل الفلاحين الجيورجيين ؟

لم يبرّز ستالين في النقاشات التي عصفت ، طوال شهرين ، باللجنة المركزية والحكومة والمؤتمر الرابع للسوفييت والمؤتمر السابع للحزب . وبالمناسبة ، لم يشترك ستالين فعلاً في أي من النقاشات الكبيرة ، تلك السجالات الفعلية بين الافكار التي كان الحزب يخوض غمارها دورياً خلال حياة لينين . لكنه قال ما فيه الكفاية في احد اجتماعات اللجنة المركزية بحيث يمكننا استخلاص منحنى تفكيره :

« إن قبولنا بشعار الحرب الثورية يدفع بنا الى احضان الامبريالية لا محالة .
أما موقف تروتسكي ، فليس موقفاً البتة . لا توجد حركة ثورية في الغرب ،

لا توجد قرائن (تشير الى وجود) حركة ثورية هناك ، كل مـــا هنالك مجرد إمكانية ؛ ولا يحق لنا ان نبني عملنا على الامكانات وحدها . اذا زحف الالمان ، فان زحفهم سوف يعزز قوى الردة المضادة للثورة[1] في بلدنا ... خلال ثورة اكتوبر ، تكلمنا عن الجهاد المقدس ضد الامبريالية ، لانه قيل لنـــا ان كلمة واحدة — « السلم » — كفيلة بإضرام نار الثورة في الغرب . لكن شيئاً من ذلك لم يتحقق ... »

وعلى الرغم من اقترابه الى جانب لينين ، كان يوجد بعض التمايز في التركيز بينهما . فلينين ، كعادته ، يحيط بكل حيثيات الوضع وإمكاناتـــه وهو يتحدث عن تأخر نضج الحركة الثورية في الغرب . اما ستالين ، فهو يتمسك بالحيثيات ، لكنه يهمل الامكانات — « لا توجد حركة ثورية في الغرب » . صحيح انه يستطرد قائلاً انـــه لو جرى تبني شعار تروتسكي — « لا حرب ولا سلم » — فان « من شأن ذلك ان يضع اصعب العراقيل امام الحركة الثورية في الغرب » ، منوهاً بذلك الى انه هو ايضاً مهتم بهذا الجانب من القضية . ولكن بالنسبة لجوهر تفكيره ، فهذا مجرد تنازل منه للفظية البلشفية الالزامية . فمركز الثقل في تفكيره هو انكار حالية الحركة الثورية في الغرب ، وتوجيه الملاحظات القاسية ضد اوهام اكتوبر المتلاشية .

بعد كل التقلبات التي عرفها السجال العنيف الذي هدد احياناً بتمزيق وحدة الحرب ، بعد انهيار الهدنة وزحف الجيش الالماني السريع بحيث اضحى على ابواب بطرسبرغ ، بعد ان وقّعت « الرادا » الاوكرانية صلحاً منفرداً مع المانيا ، بعد انفضاح عجز السوفييت الرهيب في المجال العسكري ، وبعد النداءات وصيحات الإنذار العديدة التي اطلقهـــا لينين — بعد هذا كله ، انحازت غالبية اعضاء اللجنة المركزية وغالبية قواعد الحزب —

(١) لقد آثرت في هذا الكتاب ان اترجم عبارة Counter - Revolution بـ« ردة مضادة للثورة » بدلاً من « الثورة المضادة » . والسبب في ذلك ان هذه الترجمة الحرفية الشائعة لا تفي بالغرض . ان الثورة ، بأبسط تعريف لهـا ، عمل يسعى الى اجراء تغيير جذري في العلاقات المجتمعية القائمة ، امـا Counter Revolution فهي تسعى، في المقابل ، الى الحيلولة دون هذا التغيير ، او الى العودة الى الوضع السابق كما كان عليه قبل قيام الثورة. ليست ، اذاً ، « ثورة مضادة » لواقع ما ، بقدر ما هي ارتداد الى وضع ما قبل الثورة ، انها « ردة مضادة للثورة » . (المترجم)

اخيراً – الى جانب الجناح الداعي للسلم . وفي الثالث من آذار ، اقدم سوكولينكوف ، الذي حل محل تروتسكي على رأس الوفد السوفييتي في بريست ليتوفسك ، على التوقيع على شروط السلم . لم يحاول لينين تجميل هذا العمل . فلم يبزّه احد في ادانة « العار » الذي ينطوي عليه . فقارن معاهدة بريست ليتوفسك بسلم « تلسيت » الظالم المهين الذي فرضه نابليون على بروسيا عام ١٨٠٧ ، الذي استغله السياسيون البروسيون التقدميون من اجل اجراء الاصلاحات الداخلية الجذرية ، ومن اجل التهيئة ، من بعد، لانتصار بروسيا . وتنبأ بقيام حرب ثورية في القريب العاجل . ولكن ، ما ان شارف العام على نهايته ، حتى انهار النظام الملكي في كل من المانيا والنمسا وتحطم معه كل جبروته العسكري ، فراح الجيش الالماني ، وقد بدأ التحويل الثوري يأخذ مأخذه منه ، يجلو عن اوكرانيا ، وهكذا الغيت معاهدة بريست ليتوفسك حكماً .

الا ان السجال الذي دار حول بريست ليتوفسك خلّف اثارا معقدة ، ونتائج سياسية متعددة الجوانب . الشيوعيون اليساريون لا يهاودون . وعلى الرغم من هزيمتهم حول المسائل الراهنة ، فهم يعبّرون عن آراء فئة لا يستهان بها من الحزبيين ، فئة يسودها التذمر الايديولوجي ، والانزعاج من خط المساومات والانتهازية الذي اضطرت الثورة الى انتهاجه حاضراً ومستقبلاً . فئة تعبر عن الاخلاص الفظ المتهور والطوباوي للمبادىء الاولى ، وعن طهارة الايمان الثوري التي لا يشوبها أي تعقل . وعلى الرغم من ان هذا الجو قد قُمع وهُزم في الطور الاول ، إلا انه سوف يظهر في الطور الذي يليه ، مغيراً باستمرار اوجهه وانعكاساته والمعبرين عنه ، ليقلق الضمير البلشفي المرة تلو الاخرى .

لعل ابرز نتيجة من نتائج صلح بريست ليتوفسك هي انفصام التحالف بين البلاشفة والاشتراكيين الثوريين اليساريين ، إذ استقال هؤلاء من الحكومة في شهر آذار . وكان بعض دوافعهم مطابقة ، في بعض جوانبها ، لدوافع الشيوعيين اليساريين ؛ أما الدوافع الاخرى ، فقد املتها النزعة القومية المحضة . ها ان مسئولية الحكم تقع من الآن فصاعداً على عاتق حزب واحد . وعلى الرغم من ان حكم الحزب الواحد لم يرد في برنامج البلاشفة ، إلا ان سياق الاحداث فرض عليهم الانفراد بالحكم بعد ان رفض شركاؤهم مشاطرتهم مسئولية عقد الصلح . لكنهم احجموا عن التنكيل بخصومهم ، باستثناء اليمين المتطرف الذي اشعل الحرب الاهلية . ولم يقدموا على حل الحزب المنشفي والجناح اليميني من الاشتراكيين الثوريين إلا في حزيران من عام ١٩١٨ ، عندما كانت الحرب الاهلية في

اوجها ، وبعدما تأكد لهم ان بعض اعضاء هذين الحزبين قد انضم الى الحرس الابيض . ولكن سُمِح للمناشفة بمعاودة نشاطهم العلني ، في شهر تشرين الثاني من العام نفسه ، بعد ان تعهدوا بلعب دور المعارضة المخلصة ضمن إطار النظام السوفييتي .

أما الاشتراكيون الثوريون اليساريون فقد استنزلوا على انفسهم ، ابتداء بشهر تموز ، اول انفجار حقيقي للارهاب البلشفي . أقدم يعقوب بلومكين ، عضو الحزب الاشتراكي الثوري اليساري ، على اغتيال السفير الالماني ، الكونت فون ميرباخ ، وذلك في محاولة لتخريب السلم ودفع البلاشفة الى الحرب مع المانيا . وقاد هذا الحزب ايضاً سلسلة من الانتفاضات في اماكن مختلفة من البلد ، منها موسكو الى حيث نقلت الحكومة مقرها بعد التوقيع على معاهدة الصلح . في ٣٠ آب ، جُرِح لينين واغتيل قائدان بلشفيان آخران — يوريتسكي وفولودارسكي ، على يد ارهابيي الحزب الاشتراكي الثوري اليساري. ونجا تروتسكي باعجوبة من محاولة لاغتياله . فردّ البلاشفة بحملة انتقامية واسعة النطاق ؛ ولم تكن عملية الدفاع عن النفس بأقل وحشية من الهجوم الذي تعرضوا له . ولعلنا نستطيع تكوين فكرة عن الجو السائد آنذاك من برقية بعث بها ستالين الى سفيردلوف من تساريتسين ، وستالينغراد لاحقاً ، حيث كان يشغل منصب مرشد سياسي . فقال :

« ان المجلس الحربي في منطقة شمال القفقاس العسكرية ، بعد ان سمع بمحاولة الاغتيال الدنيئة التي قام بها اجراء الرأسمالية على حياة الرفيق لينين — اعظم الثوريين وقائد البروليتاريا المجرّب — قرر الرد على هذا الكمين السافل بتنظيم حملة ارهاب علنية ، منتظمة ، وواسعة النطاق ضد البرجوازية وعملائها » .

وحملت البرقية توقيع ستالين وفوروشيلوف ، قائد جيش تساريتسين . فبدأت « التشيكا » (اللجنة الاستثنائية) التي حلت محل الـ « اوغبو » O.G.P.U ، بحملة محمومة لم تتقاعس فيها عن اعدام الرهائن ، وقد ترأسها دزرجنسكي البولوني . طبعاً ، صدر امر بحل الحزب المسئول عن المحاولات والاغتيالات . هذه هي الاهواء التي اثارها صلح بريست ليتوفسك ، وتلك هي نتائجه القاتمة . وقد وفى ستالين بالوعد الذي قطعه على نفسه من تساريتسين . وسرعان ما صار الارهاب الاحمر مضرب مثل في المدينة التي ستحمل فيما بعد اسمه ، تماماً مثلما كانت الفظائع التي ارتكبها اليعقوبي الشاب — فوشيه — في ليون مضرب مثل في فرنسا — الثورة ، قبل ذلك بمئة وثلاثين عاماً . وهكذا سار

الارهاب المضاد في خط حلزوني رهيب يتسع باطراد .

ومن النتائج الفرعيـــة للسجال الذي دار حول بريست ليتوفسك تلك التي تتعلق بالمكانة الشخصية لمختلف القادة البلاشفة . خرج لينين من المعمعة وهو يتمتع برصيد معنوي ضخم . فقد برهن عن منطق مرن وعن قوة في العقيدة سمحا له بأن يتحدى الرأي العام السائد في الحزب ، كما برهن عن تمتعه بقوة اقناع خارقة مكنته ، اخيراً ، من تغيير رأي الحزب . فصار بوسع الحزب والبلد، ولم يريا منه الا القليل خلال انتفاضة اكتوبر ، قياس اهميته الفعلية ، وتقدير الخصائل النادرة التي يتسم بها ذهنه وطبعه. خلال الازمة ، انضم زينوفييف اليـــه ، وهو الذي نعته لينين ، ايام الانتفاضة ، بأنه « هارب ومفشّل اضرابات » . فتناسى لينين تحامله القديم عليه بالسرعة التي كان صارماً فيها في هجومه عليه. الا ان نجم تروتسكي اصيب بخسوف آني. فقد افصح عن احد مكامن الضعف الهامة فيه : افتقار الى الواقعية الصرفـــة ، وميل الى الحلول الكلامية والحركات المسرحية في وضع لا يتطلب هذه ولا تلك . الا ان خسوفـــه لم يكن خطراً . فسلطته المعنوية تأتي مباشرة بعد سلطة لينين . واستقال تروتسكي من مفوضية الشؤون الخارجية ، حيث حل تشيشيرين محله ، وتسلم مفوضية الحرب . وقد صعد ، في منصبه الجديد هذا ، الى ذروة جديدة من ذروات الشهرة بوصفه مؤسس الجيش الاحمر . لكن القادة لم ينسوا موقفه خلال أزمة بريست ليتوفسك ، وقد أخذ هذا عليه بعد عدة سنوات ، ابان النزاع المرير حول خلافة لينين .

وتعززت مكانة ستالين كذلك ، على الرغم من حـــل الوزارة المصغرة بعد انفراط الحكومة الائتلافية . وبما انه لم يعتلِ المنصة ليدافع عن السلم علناً ، لم تتسع شعبيته . ولكن تضاعفت حاجة لينين اليـــه في نضاله ضد « فرسان العبارات الرومنطيقية » والافاقون الثوريون المتطرفون . « استغلوا الهدنة » ، « عززوا الانضباط والتنظيم » — تلك هي تعليمات لينين الجديدة الى اتباعه . ورأى لينين انه يستطيع الركون الى مفوض القوميات في الاضطلاع بهذه المهمة الرتيبة الجديدة .

لم تكن الجمهورية قد دفعت ثمن الهدنـــة كاملاً . ظلت تعيش في خوف من ان تقدم المانيا على مواصلة الحرب ضدها . وكان ينبغي تنفيذ معاهدة الصلح بنداً بنداً ، وكل بند اكثر إذلالاً من الذي قبله . يقضي احد البنود بفصل اوكرانيا عن روسيا . وهذا هو

البند الذي كان يحول بخاطر ستالين عندما حث الحكومة السوفييتية – في الثاني من نيسان عام ١٩١٨ ، اي بعد عقد معاهدة الصلح بقليل – على الشروع فوراً بفتح المفاوضات مع مجلس « الرادا » الاوكراني ، ذلك ان السوفييت كانوا لا يزالون في حالة حرب معه . فتردد مجلس مفوضي الشعب طوال ما يقارب شهر بأكمله . واليكَ سبب تردده : قبل توقيع معاهدة الصلح ، قام البلاشفة بانقلاب في اوكرانيا وشكلوا حكومة خاصة بهم تنافس « الرادا » . وكان ستالين نفسه ضابط الاتصال الرسمي مع السوفييت الاوكرانية ، حتى انه طلب منها إرسال ممثلين عنها الى مفاوضات بريست ليتوفسك . وها ان اقتراحه الحالي يقضي بنزع الاعتراف بمنظمات السوفييت الاوكرانية لصالح « الرادا » . ويبدو ان مجلس المفوضين رأى في ذلك استعجالاً لا مبرر له ، فلم يتخذ اي قرار بهذا الصدد طوال شهر بأكمله . في تلك الاثناء ، صدر امر عن القيادة الالمانية العامة باحتلال اوكرانيا عسكرياً . فوافق مجلس المفوضين اخيراً – في السابع والعشرين من نيسان – على البدء بالمداولات مع « الرادا » ، وعين ستالين رئيساً للوفد السوفييتي الذي تقرر ان يجتمع بالمبعوثين الاوكرانيين في كورسك . وما أن بدأت المداولات ، حتى تواترت الانباء القائلة ان القيادة العسكرية الالمانية حلت « الرادا » ، ذات النزعة الاشتراكية المعتدلة ، وعينت محلها حكومة عميلة برأسها السياسي الملكي هيتمان سكوروبادسكي . واحتلت القوات الالمانية ، الى جانب اوكرانيا ، المناطق الصناعية الروسية الصرفة على البحر الاسود ، تاغانروغ وردستون – على – الدون والقرم .

ولم يفلح امر وقف اطلاق النار على الجبهة الاوكرانية ، الذي اصدره لينين وستالين في الخامس من ايار ، في منع تقهقر الموقف . فعاد ستالين من كورسك الى موسكو لاستشارة حكومته . واثير السؤال حول ما اذا كان ينبغي على البلاشفة ان يفاوضوا حكومة سكوروبادسكي العميلة ، المكروهة جداً في اوكرانيا . فلم يتردد ستالين في الاجابة على السؤال . فأعلن في مقابلة مع صحيفة ازفستيا : « ان الانقلاب الذي جرى في اوكرانيا لم يسيء حتى الآن الى مفاوضات السلم . بل على العكس ، يمكن الافتراض انه لا يحول دون إمكان عقد معاهدة صلح بين السوفييت وبين الحكومات الاوكرانية ». واستطرد قائلاً ان الاحداث قد اثبتت ان لا مبرر لوجود « الرادا » التي حاولت سلوك طريق وسط بين الامبريالية الالمانية وبين البلشفية . والمح ستالين ، ولكن بتحفظ ، الى ان سكوروبادسكي ، عدو الثورة المفضوح وعميل المانيا ، قد يكون احسن من غيره

كمفاوض لاحلال السلم . ان ستالين يحفظ بسرعة دروسه في مدرسة المصلحية .

* * *

لما كانت القوات الالمانية قد احتلت كل اطراف روسيا الغربية ، تقلص ميدان عمل ستالين كمفوض لشؤون القوميات حتى شمل رقعة جد ضيقة . ولم يكن بوسعه ان يفعل الشيء الكثير حتى في موطنه القفقاس . فقد احل الالمان جيورجيا ، دون ان تبدي حكومة جيورجيا المنشفية اي اعتراض . وزحف الاتراك الى باطوم . واذا بالاحداث في القفقاس تؤكد رأي ستالين بأن الامم الصغيرة ، الواقعة بين مطرقة العسكرية الالمانية وسندان البلشفية ، ليست في وضع يسمح لها بأن تحتفظ بأي نوع من الاستقلال ، حتى ولو كان مجرد استقلال اسمي . وفيما كان البلاشفة يمنحونها حق تقرير المصير ، كانت هذه الامم تقع الواحدة تلو الاخرى فريسة الامبريالية الالمانية . التفت ستالين ، لبرهة من الزمن ، شطر القبائل الهمجية المتأخرة القاطنة شرق روسيا ، على الحدود بين آسيا واوروبا . وتبين له ان ضم هذه الاجناس والقبائل الى الحظيرة البلشفية لهو ايسر من بعض الجوانب ، واعسر ، من بعضها الآخر ، من ضم القوميات الاكثر تقدماً في اطراف روسيا الغربية . فالتطلعات السياسية للتتر والبشكيريين والتركمان جد بدائية . ولم تبرز بينهم اي نزعات انفصالية . الا ان الجهد الجهيد هو في تكييف نسق حياتهم قبل الرأسمالي ، او حتى قبل الاقطاعي والبدوي ، بحيث يتلاءم مع السياسات الماركسية الشيوعية الصادرة عن الحكومة المركزية . فقام ستالين بأول محاولة له في هذا المضمار في اواسط شهر ايار ١٩١٧ ، عندما دعا الى انشاء حكومة للتتر والبشكيريين تكون جزءاً من اتحاد جمهوريات روسيا السوفييتية .

ولكن ما ان شرع في هذه المحاولة ، حتى اضطر الى اهمالها ، نظراً للاخطار الجديدة المحدقة بالسوفييت . ففي ربيع وصيف عام ١٩١٨ ، احرزت قوات البيض انتصارات هامة ، فتقلص نفوذ السوفييت حتى اقتصر على الرقعة المعروفة بـ « دوقيّة موسكو الكبرى» . في شرق البلاد، تحالفت الفرقة التشيكية، المكونة من اسرى حرب سابقين، مع الحرس الابيض واحتلت ، في هجوم سابق لم يستغرق اكثر من بضعة اسابيع ، كل المراكز الستراتيجية والاقتصادية في سيبيريا والاورال ومنطقة الفولغا الوسطى . هكذا خسر السوفييت جمهورية التتر والبشكيريين المنشأة حديثاً . وفي آب ، احتل البيض

مدينة قازان ، فهددوا موسكو مباشرة . وفي الجنوب، حاول القوزاق التابعون للجنرال كراسنوف الزحف شمالاً للالتقاء بقوات البيض في قازان . وعطلوا ، خلال زحفهم ، سكة الحديد التي تصل تساريتسين بموسكو. بهذا انقطعت عاصمة السوفييت عن شمال القفقاس ، اي عن المنطقة الوحيدة القادرة على مدها بالحبوب بعد سقوط اوكرانيا وسيبيريا . فتقلصت حصة عمال بطرسبرغ وموسكو من إعاشة الخبز الى اقة واحدة تقريباً في اليوم . وفي الوقت ذاته ، شنت قوات « الحلفاء » عدة هجمات على السوفييت انطلاقاً من الجبهة الغربية . نزلت القوات الاميركية في سيبيريا . واحتل البريطانيون آركنجل في الشمال وباكو في الجنوب . و بينما كانت قوة السوفييت العسكرية في احط الدركات ، اندلعت انتفاضات الاشتراكيين الثوريين ، وجرت محاولة اغتيال لينين .

في فترة الخطر المداهم هذه ، غادر موسكو معظمُ اعضاء الحكومة ، مسرعين الى المواقع الرئيسية على الجبهة . ومكث لينين في الكرملين يتولى تسيير المعركة برمتها بالتعاون مع بعض المساعدين الفنيين ، محافظاً على اتصال دائم بقادة المواقع على الجبهة . وأُرسل رجلان لتحسين الاوضاع حيث هي في اسوأ حال . في محاولة لانقاذ العاصمة من الخطر العسكري المحدق بها ، اقلع تروتسكي – مفوض الحربية – الى سفياجسك بالقرب من قازان على متن قطاره المصفح الذي احيط بهالة اسطورية خلال الحرب الاهلية . اما ستالين ، فاصطحب كتيبة من الحرس الى تساريتسين على الفولغا في محاولة لانقاذ العاصمة من المجاعة التي تتهددها . وقد كلف بالاشراف على نقل الحبوب من شمال القفقاس الى موسكو . وكان المفروض ان ينجز مهمته المدنية هذه خلال فترة وجيزة ، يذهب على اثرها الى باكو في الجنوب . الا ان ظروفاً لم تكن بالحسبان اقتضت تمديد اقامته في تساريتسين. وبقدر ما طال بقاؤه فيها بقدر ما انغمس في مجرى الحرب الاهلية في الجنوب وفي النزاع مع تروتسكي ، حتى تحولت رحلته الى هذه المدينة على ضفاف الفولغا الى منعطف حاسم في حياته السياسية .

في السابع من حزيران ، اي بعد يوم واحد فقط من وصوله ، بعث ستالين بتقرير الى لينين ينبؤه فيه بتحركاته الاولى . قال ان « الانتفاع ضارب اطنابه » في منطقة حوض الفولغا ، وان اول خطوة ينبغي اتخاذها هي تقنين المواد الغذائية وفرض الرقابة على الاسعار في تساريتسين . كما ينبغي اعتقال الموظف السوفييتي المسئول عن التجارة . « قلْ لشميدت (مفوض العمل) الا يرسل اوغاداً من هذا الطراز الى هنا بعد الآن » . هكذا

كانت لهجة هذا الاداري النشيط الميال الى التسلط والقمع – ولعل لكليهما ما يبرره اذا اخذنا جميع الظروف بعين الاعتبار . لم ترق له الفوضى الديمقراطية المغالية التي خلفتها الثورة هناك : « إن تعدد المجالس واللجان الثورية يؤدي الى بث الفوضى في مواصلات سكة الحديد » . فبعد ان خلع البلاشفة المدراء القدامى في الصناعة والنقل ، حاولوا تسييرها بواسطة اللجان . وها هم الآن يزيلون آثار هذا التنظيم غير الفعال ، على الرغم من كونه جد ديمقراطي ، ويستبدلونه بادارة ومسئولية فرديتين. فاحتج الشيوعيون اليساريون بشدة على هذا الاجراء . لكن ستالين كان حازماً في موقفه . إذ انه سرعان ما عين المفوضين المكلفين بالقضاء على الفوضى في النقل والمواصلات .

بعد مضي شهر واحد على وجوده في تساريتسين ، طلب ستالين منحه سلطات عسكرية استثنائية على الجبهة الجنوبية . فقد اضحى تموين موسكو شأناً عسكرياً بالدرجة الاولى نظراً للعمليات العسكرية التي تقوم بها قوات القوزاق بقيادة كراسنوف . ولما وردت رسالة من لينين يستفسر فيها عن تمرد الاشتراكيين الثوريين ، اجاب ستالين مطمئناً موسكو بأنه « سيبذل كل ما في وسعه للحيلولة دون حدوث مفاجآت هنا . كونوا على ثقة باننا سنضرب بيد من حديد » . واستطرد قائلاً ان الخط الحديدي الذي يصل تساريتسين بالمناطق الزراعية في شمال القفقاس « لم يرمم بعد . اني احث المتقاعسين على العمل ، واؤنبهم عند الحاجة . كونوا على ثقة باننا لن نعفي انفسنا ولا الآخرين ، واننا سنبعث اليكم بالخبز المطلوب ... » . وكان في رسائله يدمج الحس العملي المتزن بشغف غريب الى استعمال التعابير المعبرة عن التصميم الشرس .

ووردت في الرسالة ذاتها التي طلب فيها منحه سلطات عسكرية اول اشارة الى خلافه مع تروتسكي . إذ اشتملت على الملاحظة التالية : « لو ان الخبراء العسكريين عندنا (وليسوا اكثر من اسكافيين !) لم يتقاعسوا ولم يتكاسلوا ، لما كان انقطع الخط ؛ على كل حال ، فاذا اعيد ترميمه ، فلن يكون ذلك بفضل جهود العسكريين وانما ضد ارادتهم » . تلك هي الشرارة التي انطلق منها خلاف تساريتسين الشهير .

قبل بضعة اشهر من ذلك ، وعلى اثر تفكك الجيش السابق وتشتته ، باشر تروتسكي في بناء الجيش الاحمر ، معتمداً ، اول الامر ، على المتطوعين ، ثم على فرض الانضباط العسكري على العمال والفلاحين . وبما ان الجيش الجديد لم يكن يملك جهازاً من الضباط ،

فقد وضع تروتسكي ضباط الجيش القيصري القديم على رأس القطعات والوحدات المكونة حديثاً . ونظراً لانــه لا يمكن الركون سياسياً الى الضباط القدامى ، فقد أُلحق بهم مناضلون شيوعيون يتولون مهمات الارشاد السياسي. فكانت مهمة « الخبراء العسكريين » تقتصر على تدريب الجيش وقيادته في المعركة ، في حين يتولى المرشدون السياسيون مهمة مراقبــة سلوك الضباط والحيلولة دون خيانتهم ونشر الوعي السياسي في صفوف الجيش . فلا يصدر امر عسكري الا بعد ان يوقع عليه الضابط والمرشد السياسي معاً ؛ وكلاهما يشرف على التقيد بالانضباط العسكري . ونظر قادة الحزب الى هذه التجربــة الجديدة الجريئة بعين التشكك والريبة ؛ الا انهـــا اثارت معارضة عنيفة في اوساط الشيوعيين اليساريين . ولم تتبدد شكوك لينين الا بعد ان اطلعه تروتسكي على ان الجيش الاحمر قد استخدم نحواً من اربعين الف « خبير » ، الامر الذي يؤدي الى انهيار كل الجهاز العسكري للجمهورية في حال الاستغناء عنهم . وأُعجب بالدهاء الذي تنطوي عليــه التجربة ، فالقى بكل ثقله وراء تروتسكي ، ووصف اجراءَه على انه محاولة في بنــاء الاشتراكية تقوم على استخدام الاحجار القديمة المتبقية من بنيان النظام القديم المنهار ، وهي طريقة لا يمكن لاية عملية بناء الاستغناء عنها .

ولكن ، على الرغم من ان التجربة امر لا مفر منه ، فلم تسر على ما يرام . فحوادث الخيانة بين الضباط السابقين متعددة ، تتضاعف اعدادها كلمـــا تبدى لهؤلاء ان حظ السوفييت في احراز انتصارات عسكرية اضحى مستبعداً . وفي عز الحرب الاهلية ، راح قادة الافواج والالويــة وحتى قادة الجيوش ينضمون الى قوات البيض مصطحبين جنودهم احياناً . وكان كل حادث خيانة يعزز موقف خصوم لينين وتروتسكي . فخيّم جو من التوتر والشك على جميع مستويات القيادة العسكرية — من قيادة الفرق الى القيادة العامة للاركان — بعدما أقدم تروتسكي على ترقيــة فاتزيتيس الزعيم السابق في الجيش القيصري ، الى رتبة القائد الاعلى للقوات المسلحة . وتدهورت العلاقــة بين المرشدين السياسيين والضباط من جراء تشكيك هؤلاء باولئك ؛ وقد عبروا عن شكوكهم بخشونة وفظاظة مسّت كرامة الضباط . لكن هـــذا ليس الا جزءاً من خلاف اوسع . سعى تروتسكي الى ان يدمج ذلك العدد الغفير من كتائب الانصار والحراس الحمر المشتتة في جيش موحد يتمتع بنظام فعال من القيادة المركزيــة والادارة والتموين . فراح قادة العصابات الحمراء يعرقلون عملية التحويل هذه . لقد برّز هؤلاء في الحرب الاهلية ، وهم

يرفضون الانصياع لاوامر الضباط المحافظين – وهذا امر طبيعي . اما الشيوعيون اليساريون ، وفي موقفهم قدر اكبر من الحذلقة ، فقد اعترضوا على تمركز السلطة العسكرية من حيث المبدأ . وذكروا لينين وتروتسكي بالوعود القاطعة التي التزما بموجبها بأن تعمل السلطة السوفييتية على الغاء الجيش النظامي (والشرطة السياسية) نهائياً ، واستبدالها بالميليشيا الشعبية . وقد تخلى البلاشفة عن هذا التعهد ، كما تخلوا عن غيره من التعهدات التي قطعوها على انفسهم قبل ثورة اكتوبر .

تحولت تساريتسين الى مركز للمعارضة العنيفة ضد السياسة العسكرية الجديدة . فهي المقر العام للجيش العاشر الذي يقوده كليم فوروشيلوف ، العامل الذي زامل ستالين ، لعشر سنوات خلت ، في اللجنة البلشفية بباكو ، وترأس نقابة عمال النفط هناك . وكان فوروشيلوف نفسه من ضباط الصف خلال الحرب . اما القائد العسكري الآخر ، فهو بوديني : نقيب سابق ، وفارس في سلاح الخيالة ، وقائد عصابات بارز . وكان اردجونيكيدزه المرشد السياسي للجيش العاشر . وهكذا ، فما ان وصل ستالين الى تساريتسين حتى وجد نفسه وسط اصدقاء قدامى يرتبط واحدهم بالآخر بذكريات النضال الماضية . فكأن لجنة باكو القديمة قد تحولت الى قيادة عامة للجيش العاشر . وهذا وحده يكفي لان يجعله يعطف على « كتلة تساريتسين » ، على الرغم من انه كان قد انتقد اعمالها .

رفضت كتلة تساريتسين الخضوع لسلطة قائد الجبهة الجنوبية – سيتين – الضابط القيصري السابق . واذا بالشكاوى حول خرق فوروشيلوف للانضباط العسكري تتوالى من قيادة الجبهة الجنوبية الى القيادة العامة ، فتحيلها هذه بدورها الى تروتسكي . فينهال هذا على قيادة تساريتسين بالتحذيرات والارشادات والاوامر والاحتجاجات . ولا شك في ان حوادث الخيانة المتعددة التي ارتكبها « الخبراء » هناك قد زاد في عناد « معارضة ضباط الصف » – وهو الاسم الذي اطلقه تروتسكي على كتلة تساريتسين .

ان تعاطف ستالين مع المعارضة يدعو الى الاستغراب لأول وهلة ، حتى ولو أخذنا صلاته القديمة بفوروشيلوف بعين الاعتبار . فهو ، في الحكومة واللجنة المركزية ، من دعاة الانضباط والسلطة المركزية . ومقدرته على فرض الانضباط،عن طريق الاجراءات الحاسمة ، على عناصر الشغب شبه الفوضوية هي من الخصال الرئيسية التي يقدّره الناس

عليها . فما الذي دفعه الى التواطؤ مع هـذا التحدي للسلطة في تساريتسين ؟ لعل ارتياب كتلة تساريتسين، ومعظم افرادها من اصل شعبي ، بالانتلجنسيا القديمة ، وبفئة النبلاء التي ينتمي اليها الضباط السابقون ، هو من العوامل الاساسية التي حركت المفوض ذا الاصل الجيورجي الفلاحي . ومهما يكن من امر ، فلم تكن كل الصالحات في السجال في جهـة واحدة ، ولا كانت الطالحات في الجهة الاخرى . حث بوديني القيادة العامة على تكوين فرق من الخيالة الحمر واستخدامها في تشكيلات كبيرة ، بـل كجيش مستقل . فأهمل الخبراء العسكريون فكرته اللامعة . تماماً كما اهمل خبراء آخرون الاقتراحات الداعية الى استعمال الدبابات في تشكيلات كبيرة في مطلع الحرب العالمية الثـانية . ورفض تروتسكي فكرة بوديني أول الامر ، خوفاً من ان يسيطر القوزاق — فرسان روسيا الاصليين — على فرق الخيالة ، وهم معادون للسوفييت . ومرت فترة من الزمن قبل ان يصدر تروتسكي امره : « ايها البروليتاريون ، اعتلوا صهوات خيولكم ! » ، الذي جسد الفكرة وأطلق الاسطورة الاكثر رومنطيقية في الحرب الاهلية ، اسطورة الخيالة الحمر وقائدهم بوديني . في تلك الاثناء، كان النقيب السابق في تساريتسين يعبّر عن كبته واستيائه من القيـادة العامة ومن مفوض الحربية ، فوجد عند ستالين اذناً صاغية .

لكن السبب الذي حدا بستالين الى احتضان كتلة تساريتسين ليس هنا — انـه في التنافس الخفي القائم بينه وبين تروتسكي . لم يسمع الجمهور شيئاً عن هـذا التنافس طوال سنوات ، ذلك انه تفاقم وازداد حدة ضمن جدران المكتب السياسي . وحتى في المكتب السياسي نفسه ، الذي تسهر عليه عين لينين اليقظة ، كان الغريمان يتصرفان بتحفظ نسبي بحيث خفي حتى عن القدامى فيه كل ضراوة الخصومة ومرارتها . كان لينين وتروتسكي وستالين يمثلون البلاشفة في الوزارة المصغرة . وكان ستالين العضو الأقل شأناً في هذا الثلاثي . فالعضوان الآخران يرفلان بالشهرة وبالعطف الشعبي ، يذكر اسماهما معـاً في الحديث العادي . إذ يُشار الى الحكومة على انها حكومة لينين — تروتسكي . ويُشار الى الحزب ، في روسيا اولاً ثم في سائر انحاء العالم ، على انه حزب لينين — تروتسكي من قبل الخصوم والمؤيدين معاً . وكانت المؤتمرات والاجتماعات تستقبل هذين الرجلين دائمـاً بالتصفيق الحاد . وتمركز كل الحماس الذي اثارته الجمهورية الفتية حول هذين القائدَين على نحو عفوي . فلم يكونا بحاجة الى القاب رسمية لتدعيم مكانتهما . امـا العضو الاصغر في الثلاثي ، فقد ظل مغمورا . والتباين بين سطوته وبين كونه مغموراً من شأنه ان يقلق

حتى من هو اقل منه طموحاً واعتداداً بالنفس . فاضحى هـــذا التباين بالنسبة له امراً لا يُطاق ، وهو الذي لم يشبـع حبه للبروز منذ شبابه المبكر على الرغم من الاعمال الخارقة التي قام بها. وهو الذي اجتمعت في نفسه كافة العوامل التي تغذي شعوره بالدونية على نحو منحرف ، بما في ذلك الترقيات الحزبية التي جاءت في معظم الاحيان وليدة الصدفة الى حد كبير . ان تفوق لينين لا يضايقه. فقد اعتاد النظر الى هذا التفوق على انه امر بديهي ناتج عن ظرف قاهر ، مثله مثل الفارق في السن بينهما . ولكن لم يكن بد من ان يثير صعود تروتسكي في نفسه ضغينة مرة . فغريمه من معاصريه ، وُلِد في العام ذاته الذي ولد هو فيه . ولبضع سنوات خلت ، كان ستالين قد تعرض له بهجوم يحمل القدر الكبير من الازدراء ، إذ نعته بانه « بطل ذو عضلات مزيفة » ، و « مهرج دعي » ، و « حليف مقيت للمناشفة ، دعاة التصفية » . وقد محضه لينين آنذاك تأييده الكامل على هجومه . من هنا ، فان ثمة قدراً كبيراً من السخرية الكريهة في وضع يسمح لتروتسكي بأن يتفوق عليـــه ، وهو لا حول له ولا قوة ازاء ذلك ، فاذا بتروتسكي قد نُصِّب بطل الثورة الاعظم ، واذا بالجماهير البلشفية تهتف وتصفق لتهريجه . ولعل الامر الذي زاد من تحامله عليه هو تعديل الحكومـــة بعد استقالة الاشتراكيين الثوريين وحل الوزارة المصغرة . فتضاءل نفوذه بالسرعة التي كان قد تصاعد فيها ، في حين تعاظم نفوذ تروتسكي مع تزايد اهمية مفوضية الحربية التي اضحت محور الحكومـــة مع تطور الحرب الاهلية . فأخذت بذور الامتعاض والحسد عنده تنمو وتترعرع في تساريتسين .

هكذا نجد ان اعظم واعنف نزاع عرفه تاريخ روسيا تافه في اصله . بحيث يبدو من غير المعقول اطلاقاً ان يكون الاستياء والحسد الوضيع مصدراً لذلك التيار العاصف من الاحداث الذي اطلقه النزاع . لكن هذا هو الواقع الذي لا يمكن إنكاره . وما من شك في ان دوافع ايديولوجية وسياسية اكبر واقوى راحت تحرك الاطوار اللاحقة للنزاع بين ستالين وتروتسكي. فلا يعقل ان تكتسي الخصومة الشخصية بمفردها الاحجام التي اكتستها هذه الدراما العظيمة التي غيرت ، تدريجياً ، من وجه الجمهورية السوفييتية بأسرها ومن وجه الاممية الشيوعية ايضاً. لكن الخصومة كانت محض شخصية في طورها الاول ، وهذا سبب ضيق رقعتها . لم تكن خصومة متهورة ، اول الامر ، ولا كان فيها ما يدعو الى الاستغراب . فلم تختلف مطلقاً عن الحزازات الشخصية المألوفة بين القادة داخل حزب واحد او حكومة واحدة في بلد ما ، والتي توفر مادة دسمة للثرثرة على صفحات الصحف

الواسعة الانتشار . ان الذي يدرس نشاط الرجلين خلال تلك الفترة ، مهما تبحر في دراسته ، يعجز عن اكتشاف خلاف مبدئي يفصل بين مفوض الحربية ومفوض شؤون القوميات . (حتى في السجال الدائر حول السياسة العسكرية ، ما لبث ستالين ، في نهاية المطاف ، ان وقف علناً الى جانب تروتسكي ؛ او بالاحرى الى جانب لينين الذي يدعم موقف تروتسكي) . كل منهما يعمل باسلوبه الخاص وضمن مجال اختصاصه لخدمة هدف واحد . وكل منهما يستهلك كفاءاته وطاقاته ، المختلفة عن كفاءات وطاقات الآخر ، لانقاذ الثورة من شر الهزيمة التي تتهددها . واذا لم ينعتق هذا او ذاك من المطامح والاهواء الشخصية ، خلال ممارسة مهامهما الثورية ، فلأنهما بشر .

على ان ستالين لم يكن وحيداً في موقفه المعادي لتروتسكي . فالواقع ان الحزبيين السابقين ، رجال النضال السري وكتلة لينين من المنظمين ومحترفي الثورة ، يتمتعون بعصبية خاصة تجمع بينهم . فرأى العديد منهم في تروتسكي دخيلاً عليهم لا غير . فمكانته الاستثنائية في الحزب تسيىء ، بشكل عام ، الى شعورهم الجماعي . فما من كتلة مسيطرة تحتمل الدخيل اللامع الذي ينضم الى الحزب ، فيعصف بقلوب اتباعه ويشدهم اليه ، ويرقى الى مكانة ارفع بكثير من مكانة الكتلة المسيطرة نفسها . صحيح ان البلاشفة رحبوا بتروتسكي اعظم ترحيب عندما انضم اليهم عام ١٩١٧ . لكن الحزب كان يسعى الى السلطة آنذاك ، وقد انضم تروتسكي اليه خلال ازمة تموز وكل خصومه متكتلين ضده ، وهو لا يدري كيف ستكون الخطوة التالية التي يخطوها : ايعود الى العالم السفلي ، عالم النضال السري ، ام يرتقي سدة الحكم . هكذا ، رفع انضمام شخص بمكانة تروتسكي من معنويات الحزب المنحطة آنذاك . وها ان اهوال الحرب الاهلية ترص صفوف البلاشفة مجدداً . واذا كان مستقبلهم منوطاً بفرد من الافراد ، فما من شك في انه منوط بنجاح مفوض الحربية او باخفاقه . وظلت الكتلة المسيطرة على ما هي عليه ، بحكم سير الاحداث . وكان يوجد باستمرار عدد كاف من المناضلين الحزبيين يتذكر الخلافات السابقة ، بحيث لا يصعب تأليبهم على تروتسكي ، خاصة وان الشكاوى الجديدة راحت تعزز الذكريات القديمة .

تمكن ستالين من ايصال شحنات المواد الغذائية من شمال القفقاس الى موسكو وفاءً لوعده . وهذا ما جعل مجلس مفوضي الشعب ممتناً من مبعوثه في تساريتسين. ولما لم يتسلم ستالين جواباً على طلبه الاول ، الخجول بعض الشيء ، بمنحه سلطات عسكرية استثنائية ،

الحّ على طلبه في برقية بعث بها الى لينين في العاشر من تموز ، ١٩١٨ . واشتملت البرقية ، التي نُشرت عام ١٩٤٧ لاول مرة ، على هجوم عنيف ضد تروتسكي ، وعلى غمز من قناة لينين نفسه . قال ستالين فيها : اذا استمر تروتسكي في ارسال رجاله الى شمال القفقاس والى منطقة حوض الدون بدون علم المسئولين هناك ، « فان كل شيء سوف ينهـــار في شمال القفقاس في غضون شهر واحد ، ونخسر تلك المنطقة الى الابـــد ... حاولوا إفهام تروتسكي ذلك... لا غنى لي عن سلطات عسكرية استثنائية هنا من اجل صالح القضية. لقد سبق لي و كتبت بهذا الشأن ، فلم اتسلم اي جواب . حسناً ، اذاً . سوف اقـــدم بمفردي ، والحالة هـــذه وبغض النظر عن كل الشكليات ، على تسريح اولئك القادة والمرشدين الذين يخربون علينا عملنا ... ان عدم وجود تفويض خطي من تروتسكي لن يمنعني ، طبعاً ، من القيام بذلك » .

من الناحية الشكلية البحتة ، يمكن اعتبار تدخل ستالين في الشؤون العسكرية خرقاً للشرعية . ومطالبته القيادة العامة المركزية بعدم اصدار اي تعيينات قبل اخذ موافقته وموافقة فوروشيلوف هي ايضاً تجاوز لصلاحياته . ومهما يكن من امر ، فان شؤون التموين اضحت متداخلة مع الشؤون العسكرية ، بحيث شعر ستالين بأنه ، كأحد اعضاء الحكومة و كواحد من القادة الكبار في الحزب ، مخوّل بأن يفعل ما فعله بغضّ النظر عن وجود صلة رسمية تربطه بالجيش. اما تروتسكي ، فقد الح ، في المقابل ، على النقطة التالية : بما ان ستالين تابع للقيادة العامة في تساريتسين ، ينبغي عليه الخضوع للقيادة العسكريـة العليا ، ولا يجوز له ان يستغل منصبه الحكومي او عضويته في اللجنة المركزية من اجل نسف التسلسل العسكري. وعلى الرغم ان من الحاح تروتسكي صحيح شكلاً ، فهو غير واقعي من الناحية النفسية . ان ستالين شديد التمسك بمكانته الرفيعة في التسلسل الحزبي . وهو يرفض التنازل عنها ازاء اصدقائه القدامى . أما لينين ، فقد احترس من مغبة إزكاء نار الخلاف بينهما ، بغض النظر عن رأيه في لهجة برقيات ستالين . فهو يقدر عمل كلا الرجلين حق قدره ، مع انه يقيس كلاً منهما بمقياس خاص . فانصب همـــه على تصفية الحزازات بينهما . فلم يطلع تروتسكي على برقيات ستالين العنيفة اللهجة ضده ، ولم ينقل لستالين كل انتقادات تروتسكي ، محاولاً كبح جماح الاول والتخفيف من حدة الثاني . ومُنح ستـالين السلطات الاستثنائية التي طلبها ، ولكن بموافقة تروتسكي . إلا ان لينين لم يترك مجـــالاً للشك في دعمه الاجراءات الرامية الى تعزيز سلطة القيادة المركزية .

ان متابعة المماحكة الدائرة حول تساريتسين بكل تفاصيلها امر ممل . لم تفلح المساومة التي اقترحها لينين في ازالة الخلاف بين الرجلين . ظل الخط اللاسلكي المباشر الذي يصل موسكو بتساريتسين يبرق الاوامر ، والتهديدات ، والشكاوى ، والانذارات . كتب ستالين في ذيل احد الاوامر الصادرة عن تروتسكي : « يُرجى اهماله » . في ايلول ، اجبر فوروشيلوف الحرس الابيض على التراجع الى ما وراء منطقة الدون . فبعث ستالين بأنباء الانتصار الى مجلس المفوضين : « لقد مني العدو بهزيمة نكراء ، واجبر على التراجع ، الوضع في تساريتسين راسخ ، الهجوم مستمر » . وخلال زيارة ستالين لموسكو ، بعد ذلك بقليل ، بعث لينين وستالين برسالة مشتركة تتضمن « التحيات الاخوية الى القادة والجنود الابطال على جبهة تساريتسين ». إلا ان لهجة رسالة ستالين الحازمة لم تكن تعتمد على ارض راسخة ، فسرعان ما عاد الحرس الابيض الى حصار تساريتسين . والواقع ان الدافع لعودة ستالين الى موسكو كان شكاوى تروتسكي المتكررة من تصرفه . أبرق تروتسكي الى لينين يقول : « اني أصر على استدعاء ستالين فوراً . الاحوال سيئة على جبهة تساريتسين رغم تفوقنا العددي . ان فوروشيلوف مؤهل لقيادة لواء ، لكنه عاجز عن قيادة جيش من خمسين الف جندي. وعلى الرغم من هذا ، قررت ان أبقيه في منصبه على رأس الجيش العاشر ، شرط ان ينصاع لأوامر سيتين ، قائد جيش الجنوب . لم تبعث تساريتسين الينا بالتقارير عن عملياتها العسكرية الى الآن .... لقد طلبتُ منهم ارسال تقارير الاستطلاع والعمليات مرتين في اليوم . اذا لم يتم ذلك غداً ، سوف استصدر امراً عسكرياً ... باحالة فوروشيلوف الى المحكمة العسكرية » . وقد كرر تروتسكي تهديده هذا في مقابلة وجاهية بينه وبين فوروشيلوف ، فما لبث هذا ان اذعن للأمر .

في السنوات اللاحقة ، شاطر معظمُ الجنرالات السوفييت رأي تروتسكي في ضعف مؤهلات مفوض الحربية والقائد الأعلى للقوات المسلحة المقبل ؛ وهذا ما تأكد عام ١٩٤١ عندما اخفق فوروشيلوف ، بمعية بودييني ، اخفاقاً كلياً كقائد عسكري في الحرب ضد المانيا . واستدعي ستالين امام « المجلس الثوري للحرب » لتفسير موقفه امامه ، فتبرأ من التواطؤ مع « معارضة ضباط الصف » ، وسعى ، ظاهرياً على الاقل ، الى مصالحة تروتسكي . فاعيد الى تساريتسين في ١١ تشرين الاول ١٩١٨ والحرس الابيض يتحفز لحصارها مجدداً . لكن قوات الحمر تمكنت ، بعد بضعة ايام من ذلك التاريخ ، من فك الحصار ، وهزمت المحاصرين الى غير رجعة هذه المرة .

استتبع انتصار تساريتسين مساجلة طويلة حول تحديد لمن يعود الفضل فيه. وفي رواية تروتسكي – وهي الرواية التي ايدها معظم الجنرالات السوفييت قبل التصفيات الكبرى في الثلاثينات – ان الفضل في الانتصار يعود الى قيادة الجبهة الجنوبية التي اقدمت قواتها، من الخارج، على كسر طوق الحصار حول تساريتسين. اما ستالين وفوروشيلوف وبوديني، فقد زعموا ان النصر من صنع ايديهم. ويدخل هذا السجال في نطاق المماحكات العسكرية غير المجدية التي يصعب البت فيها – علماً بأن أي جهد في هذا الاتجاه يضيع سدى – وهو لا يكتسي اهمية مضخمة إلا بالنسبة للاطار السياسي الذي جرى ضمن حدوده. يبدو ان الكرملين استبعد مزاعم كتلة تساريتسين، لأن لينين لم يرضخ لطلب تروتسكي إلا بعد فك الحصار عن تساريتسين، فاستدعى ستالين من الجبهة الجنوبية، وأطلق يد تروتسكي في التعامل مع فوروشيلوف. وقد جددت كتلةُ تساريتسين السجال بعد بضع سنوات، وتشكل مزاعمها جزءاً اساسياً من الاسطورة العسكرية التي نُسجت حول ستالين، والتي اسهمت أي اسهام في تزايد مطالبة ستالين بالسلطة العليا. بعد خمس سنوات من الحدث سمّيت تساريتسين بستالنغراد (مدينة ستالين). وفي عام ١٩٤٢، عندما صمم ستالين على خوض المعركة الحاسمة في الحرب العالمية الثانية على مشارف ستالنغراد وفي شوارعها، لم يكن دافعه المعطيات الستراتيجية وحدها. كان يتحرك ايضاً بمقتضى ما يمكن تسميته «عقدة تساريتسين»: إذ دافع امام التاريخ عن اسطورته الاولى في عين الوقت الذي كان ينسج فيه اسطورته الثانية الاقرب الى الواقع منها.

في نهاية صيف عام ١٩١٨، زال الخطر الذي يتهدد موسكو من الشرق. وكانت القيادة لا تزال، حتى ذلك الحين، تولي الجبهة الجنوبية اهمية ثانوية وحسب. ولكن عندما أُجبر التشيكيون على التراجع الى جبال الاورال في شهر تشرين الاول، صار بمكنة تروتسكي ان يولي الجنوب اهتمامه كاملاً، رافضاً أي تدخل في اوامره من أي جهة اتى. وبما ان الجبهة الجنوبية لم تعد تتسع للغريمين معاً، فكان لا بد لاحدهما من الانسحاب منها. فانسحب ستالين. وبذل لينين قصارى جهده كي يخفف وقع ذلك عليه. فأرسل رئيس الجمهورية – سفيردلوف – لمرافقة ستالين في رحلته الى موسكو على متن قطار خاص، مصحوباً بكل التشريفات اللازمة. وطريقة التعامل هذه من ميزات لينين: فهو يدرك تمام الادراك مكامن الضعف في شخصية ستالين، لذا كان شديد الاحتراس كيلا يمس كرامته

واعتداده بنفسه بدون مبرر . امـــا اسلوب تروتسكي ، فكان على عكس اسلوب لينين تماماً . فهو يستصغر خصمه ، ولا يتسع صدره لطموحه ، ويهينه باستمرار ، على ان ذلك ينبع من طبع تروتسكي نفسه ، وليس من أي نية مقصودة ، أو خطة مدبرة. وفي الطريق الى موسكو ، التقى قطار سفيردلوف وستالين بقطار تروتسكي المتجه صوب تساريتسين. فبذل سفيردلوف جهوداً دبلوماسية جمة لتهيئة لقاء بين الخصمين في مقصورة تروتسكي . ويروي تروتسكي ان ستالين طلب منه في تلك المقابلة ، وبشيء من الضعف ، ألا يقسو على « الصبية في تساريتسين » . فكان جواب تروتسكي قاطعاً مترفعـــاً : « ان هؤلاء الصبية العظماء سوف يجرّون الخراب على الثورة التي لا تملك الوقت الكافي للانتظـــار حتى يبلغوا سن الرشد » . وعلى اثر ذلك ، نُقِل فوروشيلوف من تساريتسين الى اوكرانيا .

وصل ستالين العاصمـــة وهي تتهيأ للاحتفال بالعيد الاول للثورة . فكتب لصحيفة « برافدا » تلخيصاً مبتسراً وجافاً لاحداث العام المنصرم :

« ان اللجنة المركزية للحزب ، وعلى رأسها لينين ، هي التي الهمت الانتفاضة من اولها لآخرها . كان لينين مختبئاً في وكر سري في حي فيبورغ ببطرسبرغ . فاستدعي الى سمولني مساء يوم الرابع والعشرين من تشرين الاول لتسلم قيـــادة الحركة . ان كل العمل المتعلق بتنظيم الانتفاضة قـــد تم تحت القيادة المباشرة للرفيق تروتسكي ، رئيس سوفييت بطرسبرغ . ويمكن القول يقيناً ان الحزب مدين ، اولاً وبشكل رئيسي ، للرفيق تروتسكي في انحيـــاز الحامية السريع الى جانب السوفييت وفي الطريقة الفعالة التي جرى فيها تنظيم عمل اللجنـــة العسكرية الثورية » .

بعد انقضاء ثلاثين عاماً على كتابتـــه ، يبدو تقويم ستالين لدور تروتسكي في الثورة مدهشاً بقدر ما يحوي من ثناء . وقد اسقط ستالين هذا النص من « مؤلفاته الكاملة » في عام ١٩٤٧ . ولم يجرؤ مؤرخ او كاتب سوفييتي ، خلال السنوات العشرين الاخـــيرة من حياته ، على الاستشهاد به — إذ اضحت كلمات ستالين نفسه هرطقة بالغـــة الخطورة . لكنها لم تبدُ مطلقاً كنوع من الثناء عندما نُشرت لاول مرة . كان هدفها استصغار دور تروتسكي وتصويره ، على نحو لا ينطبق كلياً على الوقائع، على انه منفذ قدير — لكنه مجرد منفذ — لافكار لينين . وهذا هو الحد الاقصى الذي استطاع ستالين الوصول اليه للتعبير

عن تحامله ضد تروتسكي في ذلـك الحين : لم يكن بمقدوره ان يهين خصمه الا بشوكة مضمومة في باقة ورد .

* * *

بعد انقضاء بضعة ايام على العيد الاول للثورة الروسيـة ، اندلعت الثورة في كل من المانيا والنمسا . فاذا بانهيار عروش آل هوهنزولرن وهبسبرغ يعلن خاتمة الحرب العالمية الاولى . انبثقت مجالس مندوبي العمال والجنود (السوفييت) في كل من برلين وميونيخ ووارسو وريغا . وتسلم القادة الاشتراكيون المعتدلون زمام الحكم في البلدين المهزومين . وكان البلاشفة على ثقة بأن هذه العملية سوف تؤدي الى قيام « اكتوبر » اوروبية ، إن لم نقل « اكتوبر » عالمية شاملة ؛ وان اشتراكيي اقصى اليسار سوف يطيحون ، في وقت قريب ، بالاشتراكيين المعتدلين ، تماماً مثلما اطاحوا هم بكرنسكي في روسيـا . فتنعتق الثورة الروسية من عزلتها في غضون اسابيع او اشهر ، وتُرسى اسس المجتمع الاشتراكي الاممي . فتتولى بلدان الغرب المتقدمة والمصنعة والمتمدنة قيادة هذه الحركة الجبـارة ، وتجر « روسيا شبـه الآسيوية المتخلفة » نحو طور ارقى من التمدن . تحت تأثير سكرة هذا الوهم ، راح القادة البلاشفة جميعاً يترقبون بتوتر متفائل سير الاحداث في الغرب . فكان لينين ، وتروتسكي ، وكامنييف ، ولوناتشارسكي ، وزينوفييف ، وكولونتاي ، وبوخارين وغيرهم ممن قضى عـدة سنوات منفيَ في اوروبا الغربية يستجلي التباشير ويترجمها الى جماعته . ان عيون روسيا شاخصة ، تحدّق بالغرب .

ان اهم انشقاق عرفته روسيا في حياتها الروحية والسياسية جرى في القرن التاسع عشر بين انصار المدنية الغربية وانصار المدنية السلافية ، بين الذين يسعون الى بناء روسيا على الطراز الغربي والذين يؤمنون برسالة روسيا الرامية الى بناء حضارة خاصة بهـا ، مستقلة عن حضارة اوروبا الغربية ، او متمايزة بوضوح عنها . وكانت الماركسية الروسية ، في الاصل ، احد روافد التيار « الغربي » . الا ان التيارين ما لبثا ان التقيا في البلشفية . وفي عام ١٩١٣ ، تحدث لينين عن « اوروبا المتأخرة وآسيا التقدمية » في معرض تعليقه على الثورة الجمهورية في الصين . لانه يرى ان السعي نحو الثورة والاشتراكيـة هو السمة الاكثر تقدمية للمدنية الحديثة ، فقد نعت بالغرب ، الواقع في حبال الامبريالية والمحافظة ، بالـ « تأخر » ؛ كما نعت الشرق بالـ « تقدم » ، لأنه يغلي بالتغيرات الاجتماعية . وبقدر ما

ويستخدم لينين هذا المقياس ، يمكن اعتباره ممثلاً للتيار « الشرقي » ، على الرغم من ان الشرق بالنسبة له ، خلافاً لـ « شرق انصار المدنية السلافية ، لا يقتصر على روسيا والشعوب السلافية بل يضم الى ذلك الاجناس الملونة – شعوب المستعمرات الآخذة بالاستيقاظ من رقادها الطويل . على ان لينين ظل « غربياً » في اكثر من جانب. فالتقدم عنده يعني تبني الشرق للماركسية ، وليدة الفلسفة الالمانية والاقتصاد السياسي الانكليزي والاشتراكية الفرنسية . بالاضافة الى انه لا يعتقد بأن الشرق قادر ، بمفرده ، على تحقيق تحرره التام . ان الغرب ، بحكم تصنيعه والمستوى الارفع من التنظيم الاجتماعي الذي بلغه، مقدّر عليه ان يقود الشرق بعد ان يطيح بالرأسمالية الاستعمارية . وكان هذا التيار او ذاك يحتل المكانة الاولى في تفكير لينين تبعاً للظروف . عندما بدا وكأن فجر الثورة سوف يبزغ فوق اوروبا ، احتل العنصر « الغربي » في اللينينية المقام الاول . وفي تلك الايام بالذات تأسست « الاممية الشيوعية » على عجل ، لتضم الاجنحة اليسارية المتطرفة من الحركة الاشتراكية في اوروبا الغربية ، الى جانب الحركة البلشفية الروسية .

كيف كانت ردة فعل ستالين لهذا الوضع ؟ لم يتحدث كثيراً عن احداث الغرب . فهذا مجال اختصاص القادة المهاجرين الذين يتكلمون عن معرفة وثيقة بالغرب ونتيجة دراسة طويلة لمشكلاته . والجدير بالملاحظة ان مساهمة ستالين في النقاش الدائر تتلخص في مقالين ، اولهما بعنوان « لا تنسوا الشرق » ، والثاني « عن نور الشرق » . فالرجل الذي ترعرع بين عمال النفط الروس ووسط التتر والايرانيين والفلاحين الجيورجيين على التخوم بين اوروبا وآسيا ، يلتزم بالتيار « الشرقي » من البلشفية . والادعى الى الاستغراب ان التيارين لم يكونا على تضاد آنذاك . ولم يكن اي من القادة ، بمن فيهم ستالين نفسه ، يعي التضاد الكامن بينهما . واية اشارة الى تفضيل عقلاني من قبل ستالين للعنصر الشرقي من النظرية البلشفية على العنصر الغربي يتناقض مع الوقائع التاريخية في تلك الفترة . ان تفضيلاته حدسية لا غير . فهو لا يزال يرى ، مثله مثل غيره ، ان « سلاسل الاستعمار قد مُدّت انطلاقاً من الغرب لتكبّل العالم بأسره ، لذا ينبغي تحطيمها هناك بالدرجة الاولى » . غير ان ملاحظته هذه حول اهمية الغرب في الثورة العالمية لا تعدو كونها صدفة من الصدف ، على الرغم من التأكيد الحازم شكلاً الذي تنطوي عليه . والغرض منها التشديد على الانذار الذي اطلقه : لا تنسوا الشرق . وفي كلامه ، الى ذلك ، مسحة من الحسد السياسي من احتكار الغرب لاهتمام الثورة الروسية : « في

هذه اللحظة ، نجد ان الشرق بمئات الملايين من سكانـــه الذين يستعبدهم الاستعمار تمحي صورته من امام اعيننا فوراً ويطويهـــا النسيان » . وها هو في حديث له الى ندوة الشيوعيين المسلمين من اجل نشر الدعاية البلشفية في فارس والهند والصين ، يؤكـــد ما يلي : « ينبغي ان تتعلموا هذه الحقيقة للمرة الاولى والاخيرة : ان الذي يريد انتصار الاشتراكية لا يسعه إغفال الشرق ». اما مقاله الثاني الذي يعالج انتعاش الحركة البلشفية في اوكرانيا ، فقد ختمه بالعبارة التالية : Ex Oriente lux . ان الغرب ، موطن الرأسماليين اكلة لحوم البشر ، قد اضحى بؤرة ظلام وعبودية . من هنـــا ، فمهمتنا تتلخص في تدمير هذه البؤرة ، وهذا عمل سوف يستقبله كادحو العالم بالتهليل والانشراح. تلك صيحة من الصميم يطلقها المناضل السابق في لجان باكو بعد ان استقر في الكرملين . ان الحاحه على اهمية الشرق امر شرعي بالتأكيد من منظار الستراتيجية البلشفية؛ ولهجته « المعادية للغرب » من الغموض بحيث انهـــا لا تثير اي اعتراض . على ان صورة الغرب « كبؤرة للظلام والعبودية » لهي اوضح في ذهنه من صورته كغرب ثوري واشتراكي . وسوف يزداد غموضها فيما بعد ، ابان العدوان البريطاني – الفرنسي على روسيا للاطاحة بحكم البلاشفة عندما ارتكب ستالين خطأ عدم الاكتراث بأهمية المعارضة لهذا العدوان داخل بريطانيا ، وعندما استبعدها على انهـا مجرد « خدعة » ترمي في الواقع الى زيادة الاعمال العدوانية ضد روسيا السوفييتية . والحال ان هذه « الخدعة » استتبعت لا اقل من مقاطعة كاملة فرضها عمال الموانىء البريطانيين لشحن الذخيرة الى بولونيا ابان الحرب السوفييتية – البولونية عام ١٩٢٠ .

من المثير ان نقارن اقوال ستالين بالأمر رقم ١٥٩ الذي وجهه تروتسكي الى الجيش والبحريـــة السوفييتيين في الرابع والعشرين من تشرين الاول ١٩١٩ ، خلال زحف يودينيش على بطرسبرغ عندما كان الشعور المعادي لبريطانيا قد بلغ ذروته في روسيا :

« ايها المقاتلون الحمر ، انكم تواجهون مكر عدوتنا بريطانيـــا على جميع الجبهات . ان قوات الردة المعادية للثورة تستخدم المدافع الانكليزيـــة لقصف مواقعنا . والذخيرة التي استوليتم عليها في ثكنات شنكورسك واونيغا ، على الجبهتين الجنوبية والغربية ، لهي ذخيرة بريطانية المنشأ. والسجناء الذين يعتقلون يحملون الاسلحة البريطانية . والطيارون الانكليز هم الذين يقصفون آركنجل

واستراخان بقنابل بريطانية الصنع ، فيقتلون ويشوهون النساء والاطفال . هذا في حين تقوم البوارج الانكليزية بقصف شواطئنا .

ولكن حتى في هذه الفترة ، حيث بلغ القتال ذروة ضراوته ضد يودينيش – عميل بريطانيا – اناشدكم ان تتذكروا ان هذا ليس كل ما في انكلترا . فالى جانب انكلترا الارباح ، والعنف ، والرشوة ، والتعطش الى الدم ، توجد انكلترا العمل ، والقوة الروحية ، والمُثُل العليا والتضامن الاممي . ان انكلترا البورصة ، انكلترا القذرة عديمة الشرف هي التي تحاربنا . اما انكلترا الكادحة ، انكلترا الشعب ، فهما الى جانبنا » .

ما اشدها تباعداً اللهجات واللكنات التي كانت تختلط في صوت البلشفية آنذاك ! ان اللهجات الغربية قد طغت مؤقتاً على اللهجات الشرقيــة ، لكن الغد للهجات الشرقية .

* * *

بلغت الحرب الاهلية اوجها في عام ١٩١٩ . وهو العام الذي شهد اعنف تدخل من قبل القوى الغربية . في اوائل العام ، زحفت قوات البيض بقيادة كولشاك نحو الشرق واستولت على « بيرم » . وما ان انتهت قوات الحمر من صد عدوان كولشاك ورده على اعقابه ، حتى شن دينيكين هجومه في الجنوب ، فاحتل كييف وكورسك وزحف باتجاه موسكو . في الوقت ذاته تقريباً ، كان يودينيش يزحف ، في شهر ايار ، على بطرسبرغ على امل احتلال المدينة بمساعدة من « الطابور الخامس » في قيادة حاميتها . فأرسِل ستالين الى العاصمة السابقة للاشراف على الدفاع عنها . فكشف المتآمرين ، وقاد العمليات العسكرية ، وأبقى المدينة تحت سيطرة السوفييت . إلا ان يودينيش عاود الكرة في تشرين الاول ، وتمكن من دخول ضواحي بطرسبرغ . فكان تروتسكي هو الذي انقذ المدينة هذه المرة .

كان شهر تشرين الاول احرج فترة عرفها الوضع ، إذ بدت موسكو وبطرسبرغ بمتناول قبضة الحرس الابيض . وحظي البيض بدعم كامل من بريطانيا وفرنسا . « المجلس

الاعلى للحلفاء » يعترف رسمياً بكولشاك عندما اعلن هذا نفسه دكتاتوراً على روسيـــا . قوات الحلفاء البحرية تتجه نحـو البحر الاسود لدعم دينيكين . القوات الفرنسية تحتل اوديسا . البحرية البريطانية تساعد يودينيش في خليج فنلندا . وكان تشرشل في بريطانيا وكليمنصو في فرنسا من اشد المتحمسين للتدخـــل ضد روسيا . ولكن عجز الجنرالات البيض عن تنسيق العمل فـــيما بينهم ، فكل واحد منهم يطمح الى الاستئثار بدور منقذ روسيا لنفسه . كما عجزت القوى الغربية نفسها عن تنسيق العمل فيما بينها . وما ان حل شهر تشرين الثاني ، حتى كانت قوات البيض تتقهقر مشتتة على كل الجبهـات . فانتصرت الثورة في الحرب الاهلية . امـــا فصلها الاخير فقد جرى عام ١٩٢٠ ، على اثر الحرب البولونية ــ الروسية ، على شكل حملة ضد الجنرال رانغل في الجنوب . لكنها حملة ثانوية إذا ما قورنت بالحملات السابقة . احتفلت موسكو الحمراء بانتصارها ، في تشرين الثاني ، فمنحت كلاً من تروتسكي وستالين وسام العلم الاحمر .

ظـــل تروتسكي طوال الحرب الاهلية وحتى عام ١٩٢٥ على رأس الجيش الاحمر . واعتبِر مهندس النصر . وعلى الرغم من منح ستالين ارفع وسام في الجمهورية ، فـــلم ترتفع شعبيته في نهاية الحرب الاهلية عما كانت عليه في مطلعها . والتواريـخ والمذكرات التي كتبهـا الذين شاركوا في هذه الحرب لا تذكر اسمه إلا نادراً . لكن الاعتماد على هذا الواقع وحده لاستخلاص النتائج حول دوره فيها امر خاطىء . وبوسعنا القول على ضوء المراسلات العسكريـــة آنذاك ــ التي نشر ستالين بعضاً منها ونشر تروتسكي البعض الآخر ــ ان دوره يظهر على انه اكبر بكثير مما توحي بها الكتابات التي نُشرت عندمـا كان تروتسكي في الحكم ، لكنه ليس بالضخامة والاهمية التي تصوره بها التواريخ الرسمية الصادرة خلال الحقبة الستالينية .

سال حبر كثير حول السجالات الستراتيجية التي دارت وقتذاك . والغرض من تلك الكتابات ، اساساً ، هو نسج الاساطير حول مختلف المتنافسين على السلطة . وبدهي ان كلاً من القائدين ليس معصوماً عن الخطأ . فقد صدرت عن كل منهما احـكام صحيحة في بعض المناسبات ، كما ارتكب اخطـــاء فادحة في مناسبات اخرى . كانت استراتيجية تروتسكي ضد كولشاك حذرة الى حد التخاذل . فلما استتبعَ الهزيمـــةَ انهيارُ معنويات قوات كولشاك ، رفض تروتسكي ان يتعقبهم الى الاورال ؛ وكان ستالين من جملة الذين ألحّوا على تعقب الجيش الاحمر لهـــا وتطهير معظم اجزاء روسيا الآسيوية من البيض .

ومن جهة اخرى ، اثبتت الاحداث ان الخطة التي رسمها تروتسكي للحملة ضد دينيكين في الجنوب لامعة جملة وتفصيلا . فاقترح ان يشنّ الهجوم في منطقة المناجم في دونيتز ، حيث يعطف السكان على الجيش الاحمر. الا ان القيادة العامة ، بدعم من ستالين ولينين. آثرت شن حملتها في منطقة حوض الدون التي يقطنها القوزاق المعادون للثورة . وكما في ثورة اكتوبر ، كذلك في الحرب الاهلية : تبيّن ان تروتسكي يملك النظرة الاكثر نفاذاً الى التداخل بين القوى الاجتماعية والقوى العسكرية في الحرب الاهلية . وقد اهمل زملاؤه خطته حتى اضطرهم زحف دينيكين على «اوريل» على تغيير موقفهم . وايضاً ، خلال زحف يودينيش على بطرسبرغ للمرة الثانيــــة ، بالغ لينين في تقدير قوة المهاجم ، فاقترح تسليم بطرسبرغ لضمان فاعلية الدفاع عن موسكو . فعارض تروتسكي وستالين هذا الاقتراح ، واثبتت الاحداث صحة موقفهما . على ان هذه الخلافات لم تكن تعكس تعارضاً في السياسة او الاستراتيجية ، بل هي حصيلة اختلاف الآراء حول ما هو ملائم عسكرياً .

ويظهر ستالين ، عبر رسائله وتقاريره السرية من مختلف الجبهات التي عمل عليها ، بصورة مغايرة للصورة التي يظهر فيها من خطبه العامة وكتاباته الصحفية . والفارق شاسع فعلاً بين بياناته العلنية وبين تقاريره السرية . فمكامن الضعف فيه اشد بروزاً على المنبر او على صفحات الجرائد منها في اي مجال آخر . فكلامه ينم عن شحة في الخيـــال مستبعدة التصديق ، ونادرة حتى بـــين الذين يتعاطون السياسة . فهو رتيب ، جاف وباهت — انه « منوِّم » ، على حد تعبير تروتسكي . وحججه التي يلوكها ويلوكها الى حد لا يُطاق تعج بالمتنافرات المنطقية . وصوره واستعاراته ، عامة ، متعارضة جداً فيما بينها . ومن حسن الحظ انها قليلة ومتباعدة ، فهي لا تتجاوز العشرات في كتابات العشرين سنة الاولى ، ونادرة في كتابات الثلاثين سنة الاخيرة . وما ان يستحوذ ذهنه على صورة ما ، حتى يروح يلوكها ويلوكها ، ويعود اليها مراراً وتكراراً برتابة تفضح ضيق بصيرته . فهو عندما يواجه جمهوراً من المستمعين ، يعجز عن التفتق عن ومضـــة فكرية واحدة ينقلها اليهم . وليس مرد ذلك مجرد تقصير ادبي او خطابي عنده . فالواقع انه يرتبك من جراء التعرض لامتحان الجمهور له ، بحيث تبدو الكلمات هجينة فكأنهـــا خارجة من بطنه . ثمـــة اصطناع مقصود في طريقته واسلوبه ، اصطناع التمثيل الفاشل .

ولكن يظهر ستالين في رسائله السرية كرجل مختلف تماماً عما سبق . فاسلوبها ، على العموم ، واضح قاطع ، مختصر ودقيق . هنا يتكلم الاداري الكبير ، وقد انعتق من كل القيود التي يمليها عليه الظهور امـــام الجمهور ، فلا نكاد نجد اثراً للتكرار المرهق ، أو التنافرات الهجينة ، أو الاستعارات الفاشلة . هنـــا يبرز البحّاثة الرزين الذي يحقق في الامور الخطيرة ، وهو يكتب عما توصل اليه بتعابير مباشرة اشبه ما تكون بتعـــابير رجال الاعمال . حتى ليسهل علينا ان نرسم صورة له وهو ينفذ مهمته هـذه : ها هو قد وصل لتوه الى مقصده ، وراح يلقي على ساحة المعركـة نظرة باردة خالية من أي وهم ، يلاحظ المفاصل الضعيفة في الآلة العسكرية ، وفوضى القيـــادات ، واللجان الحزبية والسوفييت المحلية وغيرهـا . فيتكون عنده انطباع اولي يبعث به على شكل تقرير الى موسكو . يبدأ بتأنيب وطرد المخالفين والمقصّرين،وهو يواصل تحقيقه مكتشفاً تقصيرات ومخالفات جديدة إنْ في ساحة المعركة وإن في القيادات العليـا . ثم يشكل كتلة صغيرة متماسكة من الذين شعر بانه يستطيع الركون اليهم ، فيرقيهم ، ويطرد البعض ، ويقـدم البعض الآخر الى المحـكمة العسكرية ؛ ويتدبر أمر التموين ... ثم يكتب تقريراً جديداً الى موسكو . وكان يذيل كل تقرير تقريباً بملاحظة لاذعة موجهة ضد تروتسكي .

هذا هو ، بشكل عـــام ، اسلوب رسائله التي بعث بهـــا من بيرم ، وبطرسبرغ ، وسمولنسك ، وسيربوخوف ، وأماكن اخرى متعددة ؛ ولعل تلخيص هذه الرسائل يقع على عاتق الذين سيكتبون تاريـخ الحرب الاهلية اكثر مما يقع على عاتق الذين يكتبون سيرته . ولعل ألمع التحقيقات التي اجراها هو تحقيقه في بيرم في مطلع عام ١٩١٩ . وقد قصدها برفقة فيليكس دزرجنسكي ، رئيس الشرطة السياسية المنشأة حديثـاً ، للتحقيق في اسباب الانتكاسة الاخيرة التي مُني بها الجيش الثالث . وقد ورد في تقريره ما يلي :

« ان الضعف ، برأينا ، لا يكمن في الجيش الثالث وحسب ، بل وأيضـاً في الهيئات التاليـــة ايضاً : ١) في القيادات العامة والمنطقية التي ... ارسلت الى الجبهة ... وحدات غير موثوق بها اطلاقاً ؛ ٢) في « مكتب المرشدين السياسيين لعموم روسيا » الذي يبعث الى وحدات المؤخرة بالصبية،لا بالمرشدين السياسيين؛ ٣) في اللجنة العسكرية الثورية للجمهورية التي زرعت الفوضى في ادارة الجبهات والجيوش عن طريق ما نسميه ارشاداتها وأوامرها .

ان جنود الاحتيـاط - شبه المعادين للثورة - الذين ارسلهم المركز لم ينفعوا الجيش الثالث كثيراً . ان التعب والاجهاد في الجيش الثالث بلغا من الحدة، خلال التراجع ، بحيث راحت مجموعات بأكملها في الجنود ترتمي على الثلـج وتتضرع الى المرشدين بان يطلقوا النار عليها : « اننا لا نقوى على النهوض، فكيف الى السير؟ اننا منهكون ، اقتلونا ، يا رفاق » . ينبغي وضع حد لمحاولة خوض الحرب بدون احتيـاطي ... ولن نحصل على هذا الاحتياطي إلا بعد اجراء تغيير جذري على نظام التجنيد القديم .. ، الذي تؤيده القيادة العامة ، وبعد تجديد اعضاء القيادة العامة نفسهـــا . (هذا هجوم على القائد العام فاتزيتيس ، صديق تروتسكي . وسرعان ما حـل كامينيف ، صديق ستالين ، محله . وهو ضابط اركان قيصري سابق ، شأنه شأن سلفه) .

السوفييت (المحليـة) تضم عناصر غير موثوق بها ، ولجان الفلاحين الفقراء يسيطر عليها الفلاحون الميسورون (الكولاك) ؛ منظمات الحزب ضعيفـــة ؛ ويحاول القـــادة المحليون التعويض عن هذا الضعف العـام الذي يسود الحزب ومؤسسات السوفييت بالاعتماد الكبير على التشيكا (الشرطة السياسية) الـــتي اضحت الممثل الوحيد للسلطة السوفييتية في هذه المنطقة .... إن صحف الحزب والسوفييت في بيرم وفياتـكا سيئة .... (لا تكاد تجد فيها إلا العبارات الفارغة حول « الثورة الاجتماعية العالمية ») ... مع العلم ... بانه من بين ٤٧٦٦ موظفاً هو مجموع عدد الموظفين في الهيئات السوفييتية في بلدة فياتـكا ، يوجد ٤٤٦٧ كانوا يشغلون المناصب الادارية ذاتها ايام الحكم القيصري » .

ان الاقتراحات الفنية والسياسية العديدة الرامية الى الاصلاح ما لبثت ان تتوجت باقتراح يدعو الى انشاء مفوضية خـاصة تتولى مراقبة وتفتيش كل فروع الادارة . فأقرّ مجلس مفوضي الشعب هذا الاقتراح ، وكلـّف ستالين بان يترأس المفوضية الجديدة .

كان لينين يدرس التقارير بدقة . ونظر الى الانتقادات الموجهة الى تروتسكي بكثير من التحفظ . ولما ضاق صدر تروتسكي من الاتهامات الموجهة اليه ، قدم استقالته . على ان المكتب السياسي اتخذ قراراً بالاجماع يأمره فيه ، بحزم ، البقـاء في منصبه . (وصوّت ستالين مع القرار ، على الرغم من انه كان قد طالب بتنحية تروتسكي) . ان التحقيقات

العديدة التي اجراها ستالين عزّزت سمعته كاداري كبير . وبعد فترة وجيزة على تعيينه رئيساً لمفوضية التفتيش العمالي والفلاحي ، انتقد احدُ الحزبيين البارزين تراكم هذا القدر من الوظائف الهامة بين يدي ستالين ، فأجابه لينين :

« اننا بحاجة الى رجل يتمكن أي ممثل وطني شكاويه اليه .... اين نجد مثل هذا الرجل ؟ لستُ اعتقد ان بريوبراجنسكي يستطيع ان يدلنا على احد غير ستالين . ان ما ينطبق هنا ينطبق على قضية مفتشية العمال والفلاحين ايضاً . المهمة ضخمة . وللاضطلاع بها ينبغي ان يوجد على رأس المفتشية رجل يتمتع بسلطات واسعة » .

وقعت الحرب الروسية – البولونية على اثر انتهاء الحملات ضد دينكين ويودينيش . وشغل ستالين خلالها منصب المرشد السياسي للقطاع الجنوبي من الجبهة . في ايار من عام ١٩٢٠ ، زحف الجيش البولوني ، بقيادة المشير بلسودسكي ، الى اوكرانيا واحتل مدينة كييف . إلا ان انتصار بلسودسكي لم يدم طويلا . فقد اصطدم جيشه بعداء الفلاحين الاوكرانيين له ، وقد شكوا بأن انتصار البولونيين سوف يعيد سلطة ارستقراطية الارض البولونية على الريف الاوكراني . في حزيران تراجع البولونيون عن كييف ، وتعقبهم توخاتشيفسكي من الشمال وييغوروف وبوديني من الجنوب . وبعد هجوم صاعق ، وصل الجيش الاحمر الى نهر « باغ » الذي يكاد يفصل بولونيا ، إثنياً ، عن اوكرانيا . هل يعبر الجيش الاحمر النهر ويواصل القتال على الارض البولونية في محاولة لاحتلال وارسو ؟ ذلك هو السؤال الذي طرح على بساط البحث في المكتب السياسي . دعا لينين الى مواصلة الهجوم ، بينما طالب تروتسكي بعرض السلم على البولونيين . ووقف ستالين ، اول الامر ، الى جانب تروتسكي ، إلا انه ما لبث ان انضم الى لينين .

المجازفة التي ينطوي عليها المشروع ضخمة جداً . كان لينين يأمل بان يؤدي دخول الجيش الاحمر الارض البولونية الى حث الطبقة العاملة البولونية على اعلان الثورة الشيوعية . لكن اهتمامه الاساسي ليس بولونيا بل المانيا التي تعاني من فترة غليان ثوري . وقصده هنا ان يصل الثورة الالمانية بالثورة الروسية . وقد جال بباله ان الحركة الشيوعية الغربية ، التي لا تملك ما يكفي من القوة للاستيلاء على السلطة بمفردها ، قد تتضاعف قوتها في حال زحف الجيش الاحمر. فهو يرمي الى « امتحان اوروبا عن طريق حِراب الجيش الاحمر» ،

وهذه فكرة تتناقض كلياً مع تحذيراته السابقة من محاولات تصدير الثورة على رؤوس الحراب . وقد عكس موقفه هذا يأسه المتولد من عزلة السوفييت المزمنة ؛ فكان محاولة في كسر طوق العزلة . وهب زينوفييف وكامينيف الى الدفاع عن رأي لينين ، وهما على حالهما منذ عام ١٩١٧ يشكان في امكان بقاء النظام الشيوعي في روسيا دون قيام الثورة في الغرب . وأرسيا كل موقفهما على استصغار المقاومة التي قد يبديها الشعب البولوني ضد الهجوم السوفييتي ، بما فيه الطبقات الكادحة التي كانت آنذاك تنعم بشهر عسل الاستقلال الوطني .

ان رؤية اوضح للجو السائد في بولونيا دفعت بكل من تروتسكي وستالين الى معارضة مشروع الزحف على وارسو . وحتى قبل ان يستعيد الحمر مدينة كييف ، كان ستالين قد حذّر الحزب ، على صفحات « البرافدا » ، من ان « مؤخرة القوات البولونية ... تخدم بولونيا ، وهي تختلف كلياً عن قوات كولشاك او دينكين ... من حيث انها منسجمة ومتماسكة **قومياً** .... والجو السائد في اوساطها هو ... جو وطني ... فاذا ما حاربت القوات البولونية داخل بولونيا ، فلا شك في ان التغلب عليها سيكون بالغ الصعوبة » . وكرر ستالين انذاره هذا ، بلهجة احدّ ، مع بدء الهجوم الروسي : « اعتقد ان التبجح المخرب عند بعض الرفاق ليسا في محلهما : البعض منهم لا يكتفي بالانتصارات على الجبهة بل يصيح : « إزحفوا على وارسو » ، اما البعض الآخر ، ممن لا يكتفي بالدفاع عن جمهوريتنا ضد العدوان ، فيعلن مدعياً انه لن يوقع معاهدة السلم إلا مع «سوفييت وارسو الاحمر » . لا حاجة للقول ان هذا التبجح والرضا الذاتي لا يتلاءمان مع سياسة الحكومة السوفييتية ولا مع توازن القوى على الجبهة » . ولكنه ، بعد كل هذه التحذيرات المتزنة ، ادلى بصوته مع « المتبجحين الراضين ذاتياً » ، دعاة شن الهجوم . هُزم معارضو الزحف على وارسو ، وهم تروتسكي والبولونيان دزرجنسكي وراديك (الداعية الثوري الشهير ذي الاصل الالماني – البولوني الذي انضم الى البلاشفة) . وكما في الماضي ، انساق ستالين وراء رأي معلمه ، وهذه المرة على الرغم من صواب رأيه الاصلي .

عاد ستالين الى مقر قيادته على الجبهة الجنوبية يوم ١٢ تموز ، عندما كانت الجبهة بأسرها تتقدم بشكل كاسح . وفي غضون بضعة اسابيع ، كان جيش توخاتشيفسكي على مشارف وارسو . ولكن خطوط الاتصال متباعدة على نحو خطر ، والجنود متعبون ، والاحتياطي نافذ . فأخذ بلسودسكي يتأهب لهجوم مضاد على الجناح الجنوبي من جيش

توخاتشيفسكي ، بدعم من الجنرال الفرنسي ويغان . فأصدرت القيادة السوفييتية العليا امراً لقادة الجيش الجنوبي ، ييغوروف وبوديني ، بالزحف شمالاً نحو وارسو لشل ضربة بلسودسكي المضادة . إلا ان قائدي الجيش الجنوبي تصرفا على هواهما . كانا يريدان احتلال لفوف في الوقت الذي تدخل فيه توخاتشيفسكي الى وارسو . وكما حصل في تساريتسين ، اهمل ستالين اوامر المركز ، وشجع ييغوروف وبوديني على التقـدم نحو لفوف . ثم رجحت كفة البولونيين فجأة . فربحوا المعركة الشهيرة على نهر فيستولا. وفي ذلك الحين، كان ستالين وييغوروف وبوديني قد عدلوا عن مشروعهم وأسرعوا لنجدة توخاتشيفسكي، ولكن بعد فوات الاوان . إذ كان الجيش الاحمر قد بدأ يتراجع من وارسو .

فكان لا بد من ان يعقب ذلك نقاش حول الاخطاء التي اسهمت في الهزيمة . لام تروتسكي وتوخاتشيفسكي القيادة الجنوبية على تأخرها في تغيير خط سيرها من لفوف الى وارسو . اما ستالين ، فراح يردد اتهامه المألوف القائل ان تروتسكي والقيادة العامة لم يحشدا احتياطياً قوياً خلف خطوط القتال وللانتقادات المتبادلة ما يبررها على الرغم من ان السبب الرئيسي للهزيمة لا يكمن في الاخطاء المرتكبة خلال الهجوم، بقدر ما تكمن في قرار نقل المعركة الى داخل بولونيا نفسها .

* * *

عاد السلم اخيراً الى روسيا بعد الحرب البولونية وبعد حملة سريعة ضد البارون رانغل طُردت فيها قواته من القرم وألقيت في البحر عند مضيق بيروكوب . السلطة السوفييتية قد تعززت، والحزب الحاكم ثابت على مقاعد الحكم، والقادة فخورون بامجادهم. لكن البلد بائس وجائع ومريض .

ان الحالات الاستثنائية قد دفعت الحزب الحاكم ، المرة تلو الاخرى ، لأن يعمل ضد نواياه الاصلية ، لأن يناقض نفسه ويتجاوزها . كان البلاشفة قد تعهدوا بالغاء الشرطة وتسريح الجيش النظامي . ولكن ، بدلاً من ان يجري ذلك ، نمت الشرطة السرية — « سيف السلطة الضارب » — بحيث اضحت « الممثل الوحيد لسلطة السوفييت » في عدة اجزاء من البلد — على حد تعبير ستالين في تقريره من بيرم . وحاول البلاشفة التسامح مع خصومهم اول الأمر . فكنتَ تجد ، في مؤتمرات السوفييت والنقابات ، المناشفة

والاشتراكيين الثوريين والسنديكاليين والفوضويين يعبرون عن آرائهم بحرية ويوجهون النقد القارس للحكومة . لا زال البلد ينعم بحرية تعبير محدودة لكنها لا تزال واسعة النطاق . الخلافات العلنية قائمة باستمرار داخل الحزب الحاكم نفسه ، يتراشق الفرقاء فيها بالآراء ، ولا يرحم سوطُ النقد مرجعاً من المراجع مهما علا شأنه . وكان اعضاؤه ينعمون بحرية الانضمام الى فرق وأجنحة من اجل الدفاع عن آرائهم داخل الحزب . ولم يكن ثمة من حد فاصل واضح وثابت بين الفرق والاجنحة التي تتقلب وتتغير حسب الاحداث وحسب المسائل المطروحة على بساط البحث . هذه النزعة التحررية للثورة عايشت اوج الحرب الاهلية واستمرت حتى عام ١٩٢٠ . ولم تبدأ بالتلاشي إلا في الاطوار الاخيرة للصراع ، وإذا بالنصر مضمون تقريباً . فحُرمت الاحزاب المعارضة من حرية النشاط العلني ، ووجد الحزب الحاكم نفسه ان حريته اضحت مكبلة بالكوابح والتحريمات .

يعود سبب هذه المفارقة الى ان النظام لم يتعرض لأفدح المخاطر إلا بعد ان اطلقت آخر رصاصات الحرب الاهلية . صحيح ان الثورة نجحت في سحق اعدائها ؛ لكنها خسرت ، في المقابل ، معظم اصدقائها . فمن اجل إطعام المدن الجائعة وضمان تموين جيوشها ، لجأت الحكومة الى مصادرة المواد الغذائية من الفلاحين على نحو تعسفي . وليس من العسير ان تتقهقر المصادرة المنظمة الى نهب صريح ، في معمعة الحرب الاهلية . هكذا ، فالفلاحون الذين اسهموا في انتصار البلاشفة في عامي ١٩١٨ – ١٩١٩ ، ما لبثوا ان ارتدوا عليهم عام ١٩٢٠ ؛ وقد تزايد عداؤهم لهم بقدر ما تزايدت ثقتهم بان قوة اسياد الارض والجنرالات البيض آخذة بالتضاؤل . فعمت البلد موجة من الانتفاضات الفلاحية . ولم يكن النظام ليثق بتأييد العمال الصناعيين ، وقد كانوا من اشد مؤيدي الحركة البلشفية ، فضلاً عن ان الدكتاتورية تمارَس باسمهم . إلا ان اعدادهم تضاءلت كثيراً . فقد مات الاكثر اندفاعاً ومثاليةً بينهم . اما الاحياء فمنهكون ، يجرهم الى اليأس الجوعُ والبطالة والتضخم المالي الذي جعل الروبل بلا قيمة اطلاقاً . النشاط الصناعي اقل من خمس ما كان عليه سابقاً . فمصانع الصلب لا تنتج اكثر من ٥ ٪ من حجم انتاجها قبل الحرب . أما في المصانع والمشاغل المواظبة على العمل ، بفعل معجزة ما ، فالعمال يتسلمون اجورهم على شكل سلع . الامر الذي يضطرهم الى هدر النشاط والوقت على مقايضة هذه السلع لقاء المواد الغذائية . الطبقة العاملة مقتلعة الجذور – انتزعت من بيئتها الصناعية المنتظمة والقي بها في خضم السوق السوداء . لقد تعززت « دكتاتورية البروليتاريا » الى حد ما ؛

ولكن ، خلال عملية التعزيز هذه ، اختفت البروليتاريا كعنصر واعٍ طبقياً وكعامل تنظيم .

لاعادة تسيير الصناعة ، لجأت الحكومة تدريجياً الى فرض النظام العسكري على العمل . فاستخدمت ، اول الامر ، الجيوش الممنوحة فترة راحة من الاعمال العسكرية للقيام باعمال اساسية مثل التحطيب ونقل المحروقات والمواد الغذائية . فجرى تحويلها الى « جيوش عمل » . كانت الفكرة من تروتسكي. وهكذا اضحى ستالين رئيساً للمجلس الاوكراني لجيش العمل بوصفه المرشد السياسي للجبهة الاوكرانية . ثم استخدمت هذه الطريقة على نطاق اوسع وبمدلولها العكسي : فلم يقتصر الامر على استخدام الجنود للقيام بالاعباء الصناعية ، بل جُنّد العمال الصناعيون للقيام بالاعمال العسكرية. في عام ١٩٢٠، دافع تروتسكي عن « عسكرة العمل » امام المؤتمر السنوي لاتحاد النقابات . وقد وافقت النقابات على ان تكون اداة عسكرة العمل هذه، على الرغم من معارضة المناشفة للمشروع. وهكذا ، فالحزب الذي وعد بالغاء الجيش النظامي ، وجد نفسه مضطراً لتحويل الشعب العامل الى جيش .

كان ذلك اجراء لا بد منه خلال الحرب الاهلية ؛ إلا ان الحكام ما لبثوا ان حولوا الضرورة الى فضيلة . فطلبوا من الشعب القبول به ليس بوصفه اجراء استثنائياً ، وانما بوصفه اشتراكية حقيقية ، بوصفه نسق حياة جدي ، بوصفه التعبير عن ارقى مستوى من مستويات تمدّن المجتمع السوفييتي . ذلك هو الوهم الرئيسي الذي خلّفته فترة « شيوعية الحرب » . وبينما كان لينين وتروتسكي يدافعان عن جيوش العمل بوصفها سمة حتمية من سمات الاشتراكية ، كان بوخارين يمجّد التضخم المتعاظم وتدني سعر العملة بوصفها المرحلة المؤدية الى اقتصاد شيوعي حقيقي تزول فيه العملة . وقد تعارضت هذه الافكار تعارضاً شديداً مع البطء والحذر اللذين تعمدهما البلاشفة ، في الشروع بتأميم الصناعة الكبيرة بعد الثورة ، عندما كانوا يدركون تمام الادراك التعقيدات التي تنطوي عليها عملية الانتقال من واقع روسيا شبه الاقطاعي الى الاقتصاد الاشتراكي.ولكن يبدو ان الحرب الاهلية فرضت على الحزب الحاكم ان يستبدل واقعيته الاصلية بالتنطح بعناء لتحقيق « المدينة الفاضلة » الوهمية . فكأننا بالبلاشفة يأملون اختصار الطريق نحو المجتمع الطبقي الكامل الذي تزول فيه الطبقات وذلك عن طريق العنف ، على حد تعبير راديك . والاهم من ذلك ، انهم اعتادوا اصدار الاوامر العسكرية وتشبثوا بها حتى عندما واجهتهم الفوضى

الاقتصادية والسياسية التي لا تنفع الاوامر العسكرية في تحويلها الى أمن ونظام .

في آذار من عام ١٩٢١ ، انفجر الجو المتوتر في البلد على شكل انتفاضة كرونستاد التي صادفت موعد انعقاد المؤتمر العاشر للحزب . فقال عنها لينين : « تلك هي الومضة التي اضاءت الواقع افضل من غيرها » . والسخرية المريرة في الامر ان يكون مسرح الانتفاضة هو كرونستاد : معقل البلاشفة عام ١٩١٧ . هناك تحالف مؤيدو الحرس الابيض مع الفوضويين وحتى مع البلاشفة ليقاتلوا جنباً الى جنب القوات الحمراء المتدافعة ، تلبية لأوامر توخاتشيفسكي ، على سطح خليج فنلندا المتجمد لقمع الانتفاضة . ومما يثبت مدى الذعر الذي اثارته هذه الانتفاضة في اوساط الحزب الحاكم ان مؤتمر السوفييت اوقف نقاشاته وأرسل معظم مندوبيه للمشاركة في الهجوم على كرونستاد ، على اثر سماعه انباء الانتفاضة فيها. والواقع ان البلاشفة لم يذعروا في احلك فترات الحرب الاهلية قدر ما ذعروا عند اندلاع انتفاضة كرونستاد .

طالب عصاة كرونستاد بانهاء دكتاتورية الحزب البلشفي ، واعادة تكوين السوفييت لحكومة اصلية تنفيذاً للوعد الذي قطعه البلاشفة على انفسهم . كما طالبوا بوضع حد للقمع الاقتصادي والسياسي . ولكون البعض من قادتهم ينتمي الى الفوضويين والى الشيوعيين اليساريين، فقد استعاروا الشعارات التي اطلقها البلاشفة في الايام الاولى للثورة. لكن العصيان ، على الرغم من طابعه اليساري المتطرف ، بعث ببريق امل في اوساط الردة المهزومة المضادة للثورة . والواقع ان الدكتاتورية كانت قد بلغت طوراً مألوفاً من اطوار الثورات ، وهو الطور الذي تدفع الثورةُ فيه اليمينَ واليسار ، المحافظين والثوريين معاً ، الى خوض نضال مرير ضدها ، بعد ان تكون قد قضت على انصار العهد البائد .

هُزِمَ العصيان ، فاستخلص لينين من تجربته الخلاصة التالية :

« ... لقد تقدمنا اكثر مما يجب ... لم نضمن لانفسنا قاعدة منيعة نعود اليها ... فحدست الجماهير ما تعذّر علينا صياغته على نحو واعٍ ... وهو ان الانتقال المباشر الى الاشكال الاشتراكية الخالصة ، الى التوزيع الاشتراكي

الصرف ، امرٌ يفوق طاقتنا ، وانه إذا نحن لم نثبت عن مقدرتنـــا على التراجع والاقتصار على مهمات أيسر ، فان كارثة تتهددنا » .

بناءً على ذلك حلّت « السياسة الاقتصادية الجديدة » محل نظام « شيوعية الحرب». اقامت « النيب » ، وهو الاسم الذي اطلق على هذه السياسة ، نظاماً اقتصادياً مختلطاً . ظلت الصناعة الكبيرة والنقل ملكاً للدولة . ولكن سُمح بالتملك الفردي في مجـــالات الصناعة الصغيرة والصناعة المتوسطة والتجارة . دعيت الشركات الاجنبية الى اعادة فتح فروعها في روسيـــا ، حتى في مجال الصناعة الكبيرة . الغيت مصادرة المواد الغذائية في الريف ؛ واستبدلت بضريبة عادية تدفع بالسلع اولاً ثم بالمال . وجرى تثبيت الروبـل اخيراً . وكان الهدف من كل هذه الاصلاحات الجذرية هو اعادة تجهيز الصناعة انطلاقاً من الصفر ، وتجديد تبادل السلع المصنوعة لقاء المواد الغذائية والاولية ، باختصار : اقـامة نظام اقتصادي فعال بمساعدة رأس المال الخاص . وقد احتفظت الدولة لنفسها بالاشراف الاقتصادي العام فضلاً عن احتفاظها بالملكية الصناعية الكبيرة .

لقد فرض هذا النهج الجديد على القطاعين الاشتراكي والخاص من الاقتصاد الوطـــني الدخول في مزاحمـــة تجارية فيما بينهما . وكان المؤمل ان تؤدي هذه المزاحمة الى توسيع القطاع الاشتراكي تدريجياً والى تقلص القطاع الخاص في المقابل . فانتصار الاشتراكية ، بنظر لينين ، يضحى ممكناً ، ولكن ليس بالضرورة اكيداً ، عندمـــا تتفوق الصناعة الكبيرة على الاقتصاد الصغير ، وعندما تنتهج الحكومة سياسة حماية معتدلة للقطـــاع الاشتراكي . وكان المفروض على المزاحمـة ، من حيث الجوهر ، ان تكون سلمية وتجارية فعلاً . إذ ينبغي على الاشتراكية ان تثبت عن تفوقهـا عبر المباراة الاقتصادية بينها وبين الاقتصاد الرأسمالي . وكان بدهياً ان تكون بعض نقاط البرنامـج الاساسية على شيء من الغموض والالتباس ؛ فكان النقـــاش الذي دار حول هذه النقاط جزءاً من الصراع على السلطة بعد وفاة لينين . لم يسهم ستالين في صياغة برنامج « النيب » الاهلي ؛ فقد وضعه لينين بمفرده . ولم تبرز تباينات بارزة في وجهات النظر بين الحزبيين عند تبني البرنامج . فقد وضع الاصلاح موضع التنفيذ عقب انتفاضة كرونستاد ، ودون نقاش اولي .

في الوقت ذاته ، ولكن على نحو اقل بروزاً، اتخذ الحزب اجراءاً في المجال السياسي لم تتضح عواقبه لأي من الذين قاموا به . في حين كان الحزب يخفف ، على نحو جذري ، من

الدكتاتورية الاقتصادية ، راح ، في المقابل ، يعزّز قبضة الدكتاتورية السياسية . قُمعت احزاب المعارضة من مناشفة واشتراكيين ثوريين قمعاً نهائياً في الاطوار الاخيرة من الحرب الاهلية . فكانت الخطوة التالية هي تحريم تكوين الاجنحة المعارضة داخل الحزب الحاكم نفسه . ها هي البلشفية تتلمس طريقها ، على غير هدى، وتصل الى عتبة ما اضحى فيما بعد الدولة التوتاليتارية . هنا ينبغي ان نتوقف لبرهة لنتأمل ، للمرة الثانية ، قسمات الحركة البلشفية ، ولتحليل محركاتها ودوافع قادتهـــا ؛ وذلك بهدف تبيان سُبل تطور السلطة السوفييتية اللاحق وصعود ستالين .

أقرّ المؤتمر العاشر للحزب تحريم الاجنحة المعارضة داخل الحزب الحاكم بعد مناقشة حامية حول دور النقابات في النظام السوفييتي . فبرزت ثلاث أو اربع وجهات نظر في الخلاف الكبير الذي نشب عشية انتفاضة كرونستاد . « المعارضة العمالية » بقيـــادة شليابنيكوف ، مفوض العمـــل السابق ، والكسندرا كولونتاي ، تطالب بنقل السلطة الاقتصادية الى النقابات العمالية . والداعي للدهشة هنا ان زعماء النقابات ، امثال تومسكي وروودزوتاك ، لم يكونا بين قادة المعارضة العمالية ؛ فهذه لا تعبّر عن تطلعات قيـــادة الاتحاد العـــام للنقابات ، بل عن تذمر العديد من الحزبيـــين العاديين من الدكتاتورية الاقتصادية التي يمارسها الحزب. وانتقدت المعارضة كذلك تنامي البيروقراطية الاقتصادية واستهتارها بمصالح العمال وحقوقهم . ويمـكن تلخيص حجة شليابنيكوف و كولونتاي على النحو التالي : ان النقابات ، بوصفها الممثل المباشر للطبقة العاملة ، ينبغي ان تكون مسؤولة عن التخطيط وعن تسيير الاقتصاد الوطني ؛ كما ينبغي ان تشكل قوة مواجهـة لقوة المكتب السياسي والحكومة اللذين يسيطر عليهما عين الاشخاص . وقـــد ركـّز الفريق الآخر من المتذمرين — وهو جناح « الديمقراطيين المركزيين » — على النقاط ذاتهـا متهماً قيادة الحزب بتشجيع« البيروقراطية المركزية » . والواقع ان هذا الفريق المطالب اساساً بالحرية داخل السوفييت والحزب ، هو ، في أكثر من جـــانب ، سلف حركات المعارضة اللاحقة التي نعمت بقسط اوفر من النفوذ مما نعم هو به .

أما تروتسكي وجماعته ، فقد مثـّلوا « البيروقراطية المركزية » المتطرفة في المؤتمر . فطالبوا بدمج النقابات بجهاز الدولة . أشار تروتسكي الى ان النقابات قد تعدت وظيفتها

القديمة . فالدولة دولة عمالية . وحكومتها ، تعريفاً ، تمثل المصلحة العامة والمشتركة للبروليتاريا ، تمييزاً لذلك عن المصالح القطاعية لمختلف الفئات العمالية التي كانت النقابات تدافع عنها باستمرار . وبما انه لا يجوز ان تتعارض مطالب العمال القطاعية مع مصلحتهم العامة والمشتركة ، لذا ينبغي على النقابات ان تتعاون مع الحكومة في تنفيذ مشاريعها الاقتصادية بدلاً من ان تتولى الدفاع عن العمال ، كأفراد أو كمجموعات ، في وجه الدولة العمالية . وهكذا ، بينما كان شليابنيكوف وكولونتاي يطالبان الدولة والحزب بالتنازل عن سلطاتهما للنقابات ، إذا بتروتسكي يطالب النقابات بان تتخلى عن استقلالها وان تستسلم للدولة والحزب .

حاول لينين ان يسلك طريقاً وسطاً بين الطرفين ، يدعمه في ذلك اثنا عشر من اعضاء اللجنة المركزية ، ومنهم ستالين . فرفض دعوة تروتسكي وبوخارين الرامية الى ابتلاع الدولة للنقابات . وقال ان سلطة السوفييت ليست دولة عمالية بالمعنى الكامل لهذه العبارة . فهي تمثل طبقتين : العمال والفلاحين . وهي تعاني ، الى ذلك ، من « العاهة البيروقراطية » . وبلغ الذروة الديالكتيكية لتحليله عندما قال انه ينبغي على العمال الدفاع عن هذه الدولة ، كما ينبغي عليهم الدفاع عن انفسهم ضد هذه الدولة بواسطة النقابات الذي ينبغي لذلك ان تتمتع ببعض الاستقلال عن الحكومة . كما ينبغي ان يتمتع العمال انفسهم ببعض الاستقلال عن النقابات ، فيمنحوا حرية الانضمام أو عدم الانضمام اليها .

إلا ان المعركة الرئيسية لم تكن بين لينين وتروتسكي . فقد تحالفا ضد « المعارضة العمالية » وضد كتلة « الديمقراطيين المركزيين » ، لأن الخطر المباشر الذي كان يتهدد الحزب والحكومة متأتٍ منها . وقد عبّر لينين عن وعيه لفداحة هذا الخطر بهجومه المرير المفاجىء على « الفوضويين ــ السنديكاليين » ، كما كان يسمي خصومه ، الى درجة انه نعت افكارهم ، ناهيك عن اعمالهم ، بانها « خطر سياسي مباشر على وجود الدكتاتورية البروليتارية نفسها » . فكان ذلك الدافع الى تحريم تكوين الاجنحة المعارضة داخل الحزب . وليس الخطير في أمر المعارضة العمالية ، بنظر لينين ، آراؤها الخاصة حول النقابات بقدر ما هو رغبتها في ان تعيّن للحزب دوراً اقل شأناً من الدور

الذي كان يلعبه . حاول لينين ، ولكن دون حماس يُذكر، ان يخفف من وطأة التحريم: فسُمِح للحزبيين بان يعرضوا وجهات نظرهم المختلفة على صفحات « نشرة نقاش » خاصة ، كما اعيد انتخاب بعض زعماء المعارضة اعضاء في اللجنة المركزية . إلا ان لينين ابطل بنفسه مفعول بادراته الليبرالية هذه ، عندما اقنع المؤتمر بأن يعلن : « ان التبشير بالافكار (الفوضوية – السنديكالية) يتناقض مع عضوية الحزب الشيوعي الروسي » . وقد منح المؤتمر اللجنة المركزية صلاحية طرد القادة الحزبيين المنتخبين من قبل المؤتمر ، مسلطاً بذلك السوط على رقاب المتحدثين باسم المعارضة العمالية الذين اعيد انتخابهم لتوّه اليها . واستغني عن خدمات امناء السر الثلاثة كريستنسكي ، سيريبرياكوف وبريوبراجنسكي ، وهم حزبيون قديرون ومثقفون ومستقلو التفكير . واستعيض عنهم باناس « موثوق بهم » من امثال مولوتوف وياروسلافسكي ، وهما من اقرب معاوني ستالين . وقد صوّت تروتسكي مع قرار التحريم ، دون ان يخطر بباله قط ان هذا القرار سوف يستخدم في يوم من الايام كفخ مميت ضد معارضته .

لم تكن فكرة تفرد حزب واحد بحكم السوفييت واردة في البرنامج البلشفي . ولم يرد فيه كذلك فكرة منع كل الاحزاب ما عدا الحزب الحاكم . كتب تروتسكي يقول ان منع احزاب المعارضة ، « يتعارض – بداهةً – مع روح الديمقراطية السوفييتية » ، وقد « اعتبره القادة البلاشفة ، اجراء مؤقتاً للدفاع عن النفس ، وليس مبدأً من المبادىء » . ان تحريم المعارضة الداخلية ، بالنسبة لحزب يحمل وراءه تاريخاً حافلاً بالنقاش الداخلي الحر الطليق لهو طلاق رهيب مع كل تقاليده . ها هو الحزب اذاً يتعارض مع طبيعته نفسها ، يناقض نفسه حتى وهو في معرض تأكيد الذات .

وما ان وضعت الحرب الاهلية اوزارها ، حتى كانت الحركة البلشفية في صراع مع الطبقات التي ايدتها في السابق . عبّر المناشفة والاشتراكيون الثوريون والفوضويون عن تذمر العمال والفلاحين ؛ فكان نقدهم آنذاك مقنعاً وفعالاً على عكس ما كان عليه بين ١٩١٧ و ١٩١٩ . ولو انه سُمح لآلية الديمقراطية السوفييتية بأن تسير سيرها الطبيعي ، لو كانت السوفييت منتخبة بحرية وحرّة في انتخاب الحكومة ، فشبه الاكيد انها كانت

اطاحت بالبلاشفة وأعادت الى الحكم الاحزابَ ذاتها التي ادارت ظهرها لها سابقاً . إلا ان البلاشفة صمّموا على ألا يسمحوا بحصول ذلك . فهم يرون ان الثورة بمأمن من اي شر ما دام حزب الثورة في الحكم . ان الثورة قد انتصرت على الرغم من شكوك وتردد وعراقيل المناشفة والاشتراكيين الثوريين وصدها . وبما ان الاشتراكيين المعتدلين لا يملكون المقدرة على خوض حرب اهلية ، فعودتهم الى الحكم ، بنظر البلاشفة ، لن تكون إلا فترة انتقالية تؤدي الى عودة الحرس الابيض والعهد البائد . صحيح ان الإجهاد يحدو بالجماهير الى العطف على المناشفة والفوضويين ؛ ولكن هل يُسمح للجماهير بان تخرّب كل انجازات الثورة ؟ هل ينبغي ان يُعاد للسوفييت حرية العمل مع العلم بانها سوف تستخدم هذه الحرية لتعلن حل نفسها بنفسها ؟ ذلك وضع « تصيح به الجماهير : « الموت لحياتنا ! والحياة لموتنا ! » ، على حد تعبير دانتي . لكن معظم القادة البلاشفة رفض الاصغاء .

إلا ان التذمر الشعبي لا يزول بمجرد إسكات المعبرين عنه أو ابعادهم . ولا يمكن الغاء وجود المصالح المتناقضة لمختلف الطبقات ، وخاصة الفلاحين منها ، بمجرد قمع الناطقين باسمها . الآن بدأت اجواءَ الكبت والتذمر تتسلل الى ذهن الحزب الحاكم نفسه ، ذلك الظافر الوحيد في ساحة القتال السياسية . وإذا بالشكاوى والتذمرات تتصاعد من هذا القطاع من الحزب أو ذاك . فالانشقاقات الموجودة في البلد تهدد بشق الحزب الحاكم نفسه ، فكان لا بد من السيطرة عليها بقبضة حديدية . كان يجب تبليد إحساس الحزب ، وإضعاف بصره وسمعه بحيث يضحي ذهنه منيعاً حيال التأثيرات غير المستحبة . وقد تفاقمت الحاجة الى ذلك بسبب اصلاحات « النيب » . فقد افسحت مجالات جديدة للفئات والمصالح الرأسمالية على الصعيد الاقتصادي ؛ لكن لم يكن يوجد أي حزب ليمثلهم على الصعيد السياسي . فكان من الطبيعي ان يبحثوا عن وسائل تعبير عن مصالحم ، وان يجدوها ضمن الحزب السياسي الوحيد الموجود . من هنا ، كانت العزلة التامة هي الوسيلة الوحيدة لمنع الحزب من ان ينشق الى عدد من الاحزاب المتضادة .

ومهما يكن من امر ، فان المهمة التي عينها الحزب البلشفي لنفسه لا تكاد تختلف

بكثير عن مهمة تربيع الدائرة . كان عليه ان يقمع الوتيرة العفوية لحياة البلد السياسية بغية انقاذ المنجزات الثورية . لكنه ، بعمله هذا ، كان آخذاً بتشويه جسمه وعقله . فمن الآن وصاعداً ، حُرِّم على الاعضاء طرح آراء قد يتبيّن ، بعد تحليلها ، بانها « تعبّر عن ضغط الطبقات المعادية » . وصارت المصادر العليا وحدها هي المنوطة بتقرير ما هو الموقف البروليتاري والبلشفي وما ليس هو . اضحت القضايا العقائدية جد غامضة ؛ وأضحى المكتب السياسي المعقل الاوحد للحكمة الثورية . فراح معظم القادة يفقدون الصلة تدريجياً بأحاسيس اتباعهم ما دامت حركة الافكار تسير في خط واحد : من المكتب السياسي نزولاً الى المرتبات الادنى . فاذا بالحزب يحوّل نفسه تدريجياً الى آلة بيروقراطية . صحيح ان مصلحة الثورة هي التي حدت بالبلاشفة الى سلوك الطريق التي حددها المؤتمر العاشر ؛ لكن الصحيح كذلك ان الحركة البلشفية كانت تخسر سماتها الاصلية الواحدة تلو الاخرى وهي تسلك تلك الطريق . فمن اجل انقاذ الثورة ، لم يعد الحزب شراكة حرة بين ثوريين مستقلين وشجعان وذوي اذهان نقدية . فرضخ معظمهم للآلة الحزبية المتنامية النفوذ . لم تجد أمامها من حل آخر . وهكذا ، فالذين يسيرون تلك الآلة وأكثر الحزبيين ارتباطاً بها والذين تناسبت النظرة البيروقراطية كلياً مع طبعهم وتربيتهم سرعان ما اضحوا قادة الحقبة الجديدة . فراح الاداري يطرد الحزبي العقائدي ، وراح البيروقراطي ورجال اللجان الحزبية يصفّيان المثالي . فمن يفيد من هذا التطور ويؤيده أكثر من ستالين ، رجل اللجان الحزبية بكل ما للكلمة من معنى ؟

إلا ان اتجاه الاحداث هذا لم يبرز بسرعة . فقد نما تدريجياً ، عبر تقلبات وتذبذبات متناقضة . ولا كان حدث الشقاق بين الاداري والمثالي بسرعة وحدة . لم يخلُ الاداريون من المثالية ؛ وقد انصاع المثاليون أول الامر للبيروقراطيين طوعاً ، أو هم تحالفوا معهم لفرض الانضباط الجديد . وهكذا ، ففي النقاش حول النقابات ، نجد تروتسكي العقائدي يزايد على نفسه في اثارة التطلعات البيروقراطية الى درجة انه صد اشد البيروقراطيين تعصباً واستجلب لنفسه عداء كثيراً . اما عند لينين فالسمات المختلفة تتمازج

على نحو كامل . وهذا ما جعله افضل من يقود فترة انتقال حزبه من طور لآخر . وقـد عمل على استغلال سطوته المعنوية لكي يفرض مساومة مؤقتة رجراجـــة على التيارات المتصارعة ، وهي مساومة كان لا بد من ان تنهار بعد وفاته . ولكن حتى في ايامه ، كان وزن الجهاز البيروقراطي يتزايد بسرعة ، ولكن بشكل خفي، شهراً بعد شهر؛وكذلك ازدادت اهمية الدور الذي يلعبه ستالين داخل هذا الجهاز .

●

الفصل السابع

الأمين العام

تجمع السلطة في يدي ستالين . ـ دوره كمفوض لمفتشية العمال والفلاحين. ـ مركزه داخل المكتب السياسي . ـ ستالين يعين اميناً عاماً للجنة المركزية (٣ نيسان ١٩٢٢) . ـ مهام الامانة العامة ومفوضية الرقابة المركزية . ـ ستالين يقود حملة « التصفيات » الاولى . ـ مرض لينين . ـ صدام ستالين مع البلاشفة الجيورجيين المعارضين للسيطرة من موسكو . ـ اعـــادة التأكيد على « شوفينية روسيا العظمى » . ـ ستالين كواضع لدستور ١٩٢٤ . ـ صدام ستالين مع لينين . ـ وصيـة لينين . ـ لينين يهاجم ستالين كمفوض لمفتشية العمال والفلاحين (كانون الثاني ـ شباط ١٩٢٣) . ـ نجاح ستالين في مؤتمر الحزب الثاني عشر . ـ الثلاثي : زينوفييف وكامينيف وستـــالين . ـ نزاع ١٩٢٣ . ـ الصراع بين الثلاثي وتروتسكي . ـ اصل عبادة شخصية لينين . ـ وفاة لينين (٢١ كانون الثاني ١٩٢٤) . ـ قسم ستالين بالولاء للينين . ـ وصية لينين ، التي تنصح باقصاء ستالين ، تقرأ في جلسة للجنة المركزية (ايار ١٩٢٤) . ـ زينوفييف ينقذ ستـــالين . ـ شخصية ستالين في اواسط العشرينات . ـ اساليبه تجـــاه الخصوم والشركاء . ـ « المناظرة الادبية » خريف ١٩٢٤ . ـ ستالين يدافع عن زينوفييف وكامينيف ضد تروتسكي . ـ ستالين يعارض « الاشتراكية في بلد واحد » ربيع ١٩٢٤ . ـ ستالين يبدل رأيـــه في الخريف . ـ تروتسكي و « الثورة الدائمة » . ـ الخلفية النفسية « للاشتراكية في بلد واحد » ،

نادراً ما تبدو التطورات الهامـة لمعاصريها غير واضحة المعالم ودونما اهميـــة ، لكن هذا ما حصل بالنسبة لتجمع السلطة المدهش في يدي ستالين ، ذلك التجمع الذي حصل عندما كان لينين لا يزال حياً ، فبعد سنتين فقط من انتهاء الحرب الاهلية كان المجتمـــع الروسي قد عاش تحت سيطرة ستالين الفعلية دون ان يعرف اسمه ، والاغرب من ذلـــك ان ستالين انتخب ووضع في مراكز القوة من قبل منافسيه بالذات . لقد كان هناك الكثير من المأساوية في الصراع الذي نشب فيما بعد بين ستالين ومنافسيه ، لكن هـذا الصراع لم يبدأ الا بعد أن قبض ستالين بحزم على جميع مصادر السلطة ، وبعد ان حاول منافسوه ، الذين استفاقوا على الدور الذي يلعبه ، ازاحته من مركزه المسيطر المنيع ، لكنهم حينئذ وجدوا ذلك ضرباً من المستحيل .

كان لثلاثة من المناصب التي شغلها ستالين بعد الحرب الاهلية مباشرة اهمية حاسمة فقد كان مفوضاً للقوميات ومفوضاً لمفتشية العمال والفلاحين وعضوا في المكتب السياسي . اما كمفوض للقوميات فقد كان قيماً على شؤون مـــا يقارب نصف سكان الجمهورية الاشتراكية الاتحادية الروسية السوفييتية ، كما اصبحت تدعى الدولة التي خلفت روسيا القديمة ، فقد كان ٦٥ مليوناً من مجموع السكان البالغ عددهم ١٤٠ مليوناً ينتمون الى غير القوميـــة الروسية ، وكانوا يمثلون جميع مراتب الحضارة من الحياة شبه الاوروبية التي كان يعيشها الاوكرانيون الى نمط الحياة القبلية البدائية التي كان يعيشها ٢٥ مليوناً من الرعاة التركمان ، مروراً بالبيلوروس والقرغز والاوزبك والاذربيجانيين والتتـــار والارمن والجيورجيين والتاجيك والبيورات والياكوت والكثير سواهم ممن ليس لاسمائهم مقابـــل في اللغات الاخرى ،وكل هؤلاء كانوا على مستويات من التطور متفاوتة تتراوح بين التجمعات البدائية والمجتمعات الحديثة . ادى تعطش البلاشفة الى اجتذاب كل هـــذه القوميات ومحو آثار الاضطهاد القيصري من ذاكرتها الى اعطائها حكماً ذاتياً واستقلالا داخلياً ، لكن القليل من هذه الجماعات كان يتمتع بحس (قومي) والاقل كان يمتلك الحد الادنى من الثقافة الذي لا

غنى عنه للحكم الذاتي ، لذا كان هؤلاء معتمدين في ادارة شؤونهم على المساعدة الخارجية اي على مساعدة مفوضية القوميات ، وقد كانت المسائل العقائدية بعيدة عن معظمهم بعد نظريات اينشتين عن شيوخ بخاري فالثورة لم تكن تعني بالنسبة لهم سوى تحرير مجتمعاتهم من سيطرة الامراء والشيوخ ورجـال الدين كما تعني قدراً يسيراً من ادخال الحضارة الاوروبية اليها .

اذن كان على مفوضية القوميات ان تجابه ذلك القطاع الخامل الشاسع من روسيا : وروسيا الشرق باستثناء اوكرانيا فقد كانت تحكمها حكومة مستقلة الرأي على رأسها كريستيان راكوفكسي ، ولم يكن ليصلح لرئاسة مفوضية القوميات غير ستالين فغيره من القادة قضوا معظم سني شبابهم في اوروبا ، اما هو فقد كانت معرفته المستندة على الخبرة بعادات وتقاليد الاقوام التي كان على المفوضية ان تتعامل معهم لا تضاهى ،وكذلك كانت مقدرته على التعامل معهم (بسياستهم) ذات الخفايا تلك السياسة التي كانت تمتزج فيها التارات الدموية والمؤامرات الشرقية برغبة حقيقية في اللحاق بركب الحضارة الحديثة . كان اسلوب ستالين، الذي يمتزج فيه الصبر بالحزم الابوي بالدهاء ، هو ما تحتاجه معاملة هذه الاقوام فاعتمد المكتب السياسي على ذلك وامتنع عن التدخل في شؤون المفوضية . هكذا اصبح القطاع الاسيوي من روسيا منطقة نفوذ ستالين الاولى التي لا ينازعه فيها احد ، ولم تكن اهمية هذا القطاع قد برزت بعد فقد كانت معظم قيادات الامة بعد الثورة مباشرة تنتمي الى المدن الراديكالية المضطربة في روسيا الاوربية وعلى الاخص بطرسبرغ وموسكو ،اما عند انحسار الثورةفقد اخذت المقاطعات البدائية بثأرها وبدأت بالاعلان عن نفسها بالف طريقة : اقتصادية وسياسية وثقافية ، واصبح الجو النفسي فيها مصيرياً بالنسبة للبلد ككل ، وارتدت حقيقة كون هذا الجو النفسي جواً شرقياً اهمية بالغة فستالين الذي كان صالحاً للتكلم مع الشعوب الشرقية باسم الشيوعية الروسية كان صالحاً ايضاً لتحويل الحزب الى حزب (شرقي) . اجرى ستالين خلال تسلمه لمفوضية القوميات اتصالات جديدة ووثق علاقاته القديمة مع القادة البلاشفة في مناطق الحدود ، اولئك القادة الذين اصبح بمقدوره الاعتماد على دعمهم الخالص والذين اصبح الكثيرون منهم اعضاء في حاشيته في الكرملين فيما بعد .

عين ستالين مفوضاً لمفتشيه العمال والفلاحين عام ١٩١٩ بنـاء على اقتراح زينوفييف ، وكانت الرابكرين ، كما كانت المفتشية تدعى ، قد انشئت لمراقبة كل فروع الادارة بهدف

القضاء على علتين اساسيتين ورثتها الادارة السوفيتية عن سابقتها القيصرية الا وهما : نقص الفاعلية والفساد . كان على المفتشية ان تعمل كمراقب صارم مستنير على الجهاز الحكومي المهلهل وان تفضح كل اساءة لاستعمال السلطة وكل شطط في الروتين كما كان عليها ان تدرب نخبة من موظفي الخدمة المدنية الثقاة لكل فرع من فروع الحكومة ، وتعمل المفتشية من خلال فرق من العمال والفلاحين لها الحق في دخول مكاتب اية مفوضية في اي وقت ومراقبة العمل الدائر هناك ، وفي النهاية اصبحت الرابكرين تحضر بانتظام المؤتمرات الخاصة للدوائر الحكومية وحتى اجتماعات مجلس المفوضين. انشىء هذا النظام في الاساس لتدريب نخبة من الموظفين ولكنه ادى في النهاية الى وضع الرابكرين في موضع تستطيع منه مراقبة كل مجريات الامور في الجهاز الحكومي .

كان نظام التفتيش الغريب هذا من بنات افكار لينين الذي ضاق ذرعاً بنقص فاعلية وفساد الادارة فحاول علاجها بالرقابة القاسية المتطرفة (من القاعدة) فكانت المفتشية وسيلة الى ذلك،ويدل اختيار ستالين لرئاستها دليلاً على مدى ثقة لينين به،ذلك انه كان من المفترض في المفتشية ان تكون نوعاً من (ما فوق الحكومة) خالصاً من كل عيوب ونقائص الرسميات والمكتبية .

اثبت علاج لينين انه في رداءة المرض الذي حاول ان يعالجه ، فاخطاء الادارة كانت ، كما بين لينين نفسه مراراً ، انعكاساً للنقص الثقافي الرهيب وللتعاسة المادية والمعنوية التي كان البلد يرزح تحت وطأتها ، وعلى ذلك كان على الرابكرين ان تكون مفتشية من الملائكة حتى تستطيع الارتفاع فوق وهاد البيروقراطية الروسية المظلمة ، هذا عدا عن رفع الاخرين فوقها . استغاث لينين بالعمال ضد بيروقراطيته ذاتها، وذلك لايمانه العميق بالفضائل الذاتية الكامنة في الطبقة العاملة ، بيد ان دوامة الروتين حولت العمال انفسهم الى بيروقراطيين . هكذا اصبحت المفتشية ، كما اكتشف لينين فيما بعد ، مصدراً اضافياً للفوضى والفساد والتآمر البيروقراطي • وفي النهاية اصبحت شرطة غير رسمية دائمة التدخل تسيطر على الادارة . لكن لماذا نستبق سير قصتنا ؟ يكفي هنا ان نقول ان ستالين كرئيس للمفتشية سيطر على الجهاز الحكومي باعماله وموظفيه اكثر من اي مفوض آخر .

اما مركز القوة الثالث الذي احتله ستالين فقد كان المكتب السياسي الذي تكون

طوال الحرب الاهلية من خمسة اشخاص فقط هم : لينين وتروتسكي وستالين وكامينيف وبوخارين ، وكان هذا المكتب الحكومة الحقيقية التي تسيطر على البلد منذ ان انفصل البلاشفة عن الاشتراكيين الثوريين . كان لينين الرئيس المتعارف عليه للحكومة والحزب، وكان تروتسكي مسؤولا عن قيادة الحرب الاهلية ، اما كامينيف فقد لعب دور نائب لينين بصلاحيات متنوعة ، بينما كان بوخارين مكلفاً بتسيير امور الصحافة والدعاية، اما تسيير امور الحزب اليومية فقد كان منوطاً بستالين . اعتاد المكتب السياسي ان يبحث امور السياسة العليا بينما كان مكتب التنظيم (الاورجبيرو) ، وهو هيئة كالمكتب السياسي منتخبة من قبل اللجنة المركزية، مسؤولا عن اعضاء الحزب من جهة استدعائهم وتوجيههم في العمل وتوزيعهم في الجيش والادارة المدنية طبقاً لحاجات الحرب الاهلية . اصبح ستالين منذ بداية عام١٩١٩ ضابط الاتصال الوحيد بين المكتب السياسي ومكتب التنظيم فضمن وحدة السياسة والتنظيم، اي انه حرك قوى الحزب طبقاً لتوجيهات المكتب السياسي وهكذا اصبح الوحيد بين اعضاء المكتب السياسي المنهمك في عمل الحزب اليومي الشاق والممل ، والمنغمس في طبخ جميع المؤامرات السياسية في داخله .

عند هذا الحد ، كانت قوة ستالين هائلة ولكنه زاد قوة على قوة عندما عين في ٣ نيسان ١٩٢٢ اميناً عاماً للجنة المركزية . كان المؤتمر الحادي عشر للحزب قد انتخب لتوه لجنة مركزية جديدة موسعة واحدث تغييرات تنظيمية استحدث بموجبها منصب الامين العام لتنسيق اعمال الفروع المتشابكة النامية باستمرار للهيئات القيادية التي كانت تشكو من التضخم . يدعي تروتسكي ان لينين عبر في هذه المناسبة لمقربيه عن عدم ارتياحه لترشيح ستالين لهذا المنصب بقوله « هذا الطباخ لا يستطيع الا ان يضيف بهاراً حاداً الى الاطباق التي يقدمها » ، ومهما يكن من امر فان الشكوك التي ساورت لينين لم تكن بليغة اذ انه في النهاية تبنى ترشيح (الطباخ) . عين زينوفييف وكامينيف مساعدين لستالين ، وكان اولهما قد عمل قبل ذلك كأحد امناء الحزب ، واعلنت الصحافة الروسية هذه التعيينات دونما ضجة على انها حدث ثانوي في حياة الحزب الداخلية .

بعد ذلك بقليل ، بدأت تتنامى على اعلى مستوى في الحزب ازدواجية في السلطة ، فقد كان الرجال السبعة الذين يشكلون المكتب السياسي (الخمسة السابقون بالاضافة الى زينوفييف وتومسكي اللذين انتخبا حديثاً) يمثلون حقاً دماغ البلشفية وروحها ، ولكن

القوة المادية ، قوة الادارة والتوجيه ، كانت تقبع في مكاتب الامانة العامة ، اذ ان الامانة العامة خاضعة اسمياً للمكتب السياسي الجليل ولكن اعتماد المكتب السياسي على الامانة العامة اخذ يتزايد باستمرار حتى اصبح المكتب السياسي ، بدون مساندة الامانة العامة ، يبدو وكأنه جسم معلق في الفراغ بشكل مخيف فالامانة العامة هي التي تحضر جدول اعمال كل اجتماع من اجتماعات المكتب السياسي ، وهي التي تزوده بالوثائق اللازمة لمعالجة كل نقطة من نقاط البحث ، وهي التي تنقل قراراته الى المراتب الادنى ، وهي التي كانت على اتصال يومي بالآلاف المؤلفة من الموظفين الحزبيين في العاصمة والمقاطعات وهي التي كانت مسئولة عن تعيين هؤلاء وترقيتهم وانزال رتبهم . كان باستطاعة الامانة العامة ، والحالة هذه ، ان تؤثر على رأي المكتب السياسي في اية مسألة حتى قبل طرحها للنقاش كما كان باستطاعتها ان تنحرف بالتطبيق العملي لقرارات المكتب وفقاً لذوق الامين العام. ان هيئات كهذه توجد في اي جهاز حكومي ولكنها نادراً ما تتمتع بسلطة مستقلة فهي لا تستطيع تجاوز صلاحياتها ومواقعها بسبب توزع السلطة في جهاز الحكم كله وبسبب الرقابة الفعالة عليها ، واحياناً بسبب نزاهة الموظفين الرسميين انفسهم ، ولكن تركز السلطة الشديد في القيادة البلشفية والنقص في الرقابة الفعالة ، واخيراً وليس آخراً، مطامح الامين العام ، كل ذلك ادى الى الاهمية الفائقة التي بدأت الامانة العامة تتمتع بها بعد اشهر معدودة فقط من انشائها .

لن تكتمل الصورة ما لم نتطرق الى ذكر مؤسسة اخرى هي هيئة الرقابة المركزية التي احتلت حيزاً مهماً في الشؤون البلشفية . كان دور هذه الهيئة بالنسبة للحزب مماثلاً لدور مفتشية العمال والفلاحين بالنسبة للحكومة اذ كان عليها ان تراقب اخلاقية الحزب . انشئت هذه الهيئة في المؤتمر العاشر عام ١٩٢١ بناء على طلب المعارضة العمالية ، التي عاملها الحزب فيما عدا ذلك بقسوة بالغة ، وانيطت بها مهمة اجراء ما دعي بالتطهيرات التي استحدثها المؤتمر بناء على طلب المعارضة ذاتها . كان الهدف الذي اقرت من اجله (التطهيرات) هو تنظيف الحزب دورياً من الوصوليين الذين ركبوا الموجة باعداد كبيرة ومن الشيوعيين الذين تبرجزوا ومن المفوضين الذين ادارت رؤوسهم خمرة السلطان . تبنى لينين الفكرة عازماً على استخدامها لايقاف اتباعه الذين يخالفون مقاييس الحزب الصارمة عند حدهم ، ولكنه ايضاً استخدم سلاح (التطهير) ضد (النقابيين الفوضويين) والمترددين والمتشككين وايضاً ضد المنشقين الذين كانوا المحركين الحقيقيين للاسلوب الجديد اسلوب (التطهيرات) .

كانت الطريقة التي يجري بها التطهير مختلفة تماماً عما آلت اليه في السنين اللاحقة ، فلم يكن للقضاة اية علاقة بالتطهيرات بل كانت هذه تباشر من قبل الهيئات المحلية للحزب امام اجتماع عام للمواطنين يحق حضوره للبلاشفة كما يحق حضوره لغيرهم ، وكان سلوك جميع اعضاء الحزب ، بدءاً بأكثرهم اهمية وانتهاءاً بأدناهم مرتبة ، خاضعاً لرقابة شعبية صارمة ، اذ ان باستطاعة اي رجـــل او امرأة من الجمهور ان يتقدم ليدلي بالشهادة ، وعندما يثبت ان سجل بلشفي ما غير مرض فان اللوم يوجـــه له وفي الحالات القصوى توقع عليه عقوبة الفصل من الحزب ، ولم يكن باستطاعة هيئات الرقابـــة الحزبية ايقاع عقوبات غير هذه .

كانت الدوافع الاصلية التي كمنت وراء التطهيرات دوافع خيالية كيشوتية تقريباً ، اذ كانت تهدف الى تمكين الشعب من اسماع حكامه فرقعة السوط بصورة دورية ، ولكن لما كان الحزب مقتنعاً بأنه لا يستطيع في الواقع الخضوع للرقابة الشعبية في تقرير الامور السياسية الجوهرية فان هذه الوسائل (التطهيرات) كان محكوماً عليها مسبقاً بالفشل ولم يكن ممكناً الا ان يثبت عدم فاعليتها ، ومن هنا اوضحت هذه التطهيرات معضلة الحزب التي كانت قد اصبحت حينئذ مألوفة الا وهي طلاقه المتنامي مع الشعب من جهة وحرصه في الوقت ذاته على الاحتفاظ بطابعه الشعبي من جهة أخرى ، هذه المعضلة التي كمنت وراء جميع التجارب التي اجراها لينين على الحزب في السنتين الاخيرتين من سني نشاطـــه السياسي . كان على التطهيرات ان تشكل بديلاً للانتخابات الحقيقية ، كان عليها ان تبعد الاعضاء الفاسدين عن الحزب دون ان تبعد الحزب عن السلطة [١] .

سرعان ما اصبحت هيئة الرقابة المركزية في موسكو محكمة تمييز عليا لضحايا التطهير في كل ارجاء البلد ، وكان المفترض فيها اساساً ان تكون مستقلة عن كل من اللجنـــة

---

(١) شكلت التطهيرات غطاءاً جيداً تختفي تحته كل انواع الاحقاد الشخصية . في ايار ١٩٢٢ ، كتب لينين رسالة الى ستالين يقول فيها (... لقد كشف تطهير الحزب ان الضغائن والاحقاد الشخصية تسود معظم لجان التحقيق المحلية ... ان هذه الحقيقة لا شك فيها وهي حقيقة خطيرة) ، وشكا لينين في الرسالة ذاتهـا من الافتقار الى رجال حزبيين (يملكون ثقافة قانونية كافية ... تمكنهم من مقاومة كل التأثيرات المحليـــة الخالصة) . انظر The Essentials of Lenin ، المجلد الثاني ص ٨٠٩ .

المركزية والمكتب السياسي ولكنها فيما بعد وضعت على قدم المساواة تقريباً مع اللجنة المركزية واصبحت الهيئتان تعقدان اجتماعات مشتركة بانتظام وقامت الامانة العامة بأعمال التنسيق بينهما ، وهكذا اصبح ستالين ، بصورة غير رسمية ، المحرك الرئيسي للتطهير .

كان لينين وكامينيف وزينوفييف ولحد ما تروتسكي هم الذين يرشحون ستالين لجميع المناصب التي احتلها ، فقد كانت هذه المناصب من ذلك النوع الذي نادراً ما يجتذب المثقفين اللامعين من اعضاء المكتب السياسي ، اذ ان نبوغهم في المسائل العقائدية وعظم مقدرتهم على التحليل السياسي ما كانا ليجدا مجالاً لا في مفتشية العمال والفلاحين ولا في الامانة العامة فهذه اعمال تحتاج الى مقدرة عظيمة على العمل المضني غير الملهم وعلى الاهتمام الصبور الدائب بكل تفاصيل التنظيم . على هذا ، لم يكن احد من رفاق ستالين ليحسده على المهام التي توكل اليه ، فهم ينظرون اليه على انه مجرد مساعد للينين ما دام لينين ، الذي رضي جميعهم بقيادته ، لا يزال على رأس الحكومة . لم يلحظ لينين ، كما لم يلحظ بقية اعضاء المكتب السياسي ذلك التغير الدقيق الذي كان ستالين يتحول بموجبه بالتدريج من لعب دور المساعد الى لعب دور الشريك .

* * *

بعد اقل من شهرين من تسلم ستالين للامانة العامة ، افلتت اعنة الحكم من يدي لينين ، ففي نهاية ايار ١٩٢٢ اصابته نوبة الشلل الاولى التي نقل على اثرها فاقد النطق تقريباً من الكرملين الى الريف قريباً من موسكو ولم يبل من مرضه بالقدر الذي يسمح له بالعودة الى منصبه الا في منتصف الخريف ولكن نشاطه حينئذ اصبح محدوداً ، وفي نهاية الخريف اصابته نوبة ثانية اقعدته عن العمل حتى نهاية الشتاء في اذار ١٩٢٣ ، عندما اصابته نوبة ثالثة اخرجته نهائياً من مسرح العمل السياسي على الرغم من ان جسده ظل يصارع الموت حتى ٢١ كانون ثاني ١٩٢٤ .

لسنا بحاجة الى المبالغة في تأثير مرض لينين على القيادة البلشفية ، فقد توقفت تلك المجموعة بكاملها ، وفي الحال تقريباً ، عن ان تشع بالضوء المنعكس عن عقلها المفكر او ان تدور في نفس المدارات المألوفة ، فبدأ حواريو لينين واتباعه (عدا تروتسكي فلم يكن

ينتمي الى اي من المجموعتين : لا الحواريين ولا الاتباع) يتلمسون طرقهم الخاصة وينزعون عن انفسهم تلك الصفات التي كانت مجرد تقليد والتي اصبحت طبيعة ثانية لهم ، طبيعة افضل من طبيعتهم الاصلية ، فاصبح الجانب السلبي لتأثير لينين الطاغي والمستمر على اتباعه يتضح بصورة جلية . يمكننا ان نرى كم كان ذلك التأثير طاغياً اذا اخذنا بعين الاعتبار تلك الحقيقة التي يشهد عليها تروتسكي من ان زينوفييف وكامينيف خلال سني تلمذتهما على قائدهما لينين ، اكتسبا عنه حتى خطه . اما بعد موته فقد استمر هذان يكتبان بخطه ولكن دون الهام افكاره .

كان ستالين اقل اعتماداً على لينين من غيره من زملائه فقد كانت حاجاته الفكرية اقل من حاجاتهم وكان اهتمامه منكباً على الاستخدام العملي للوسائل اللينينية لا على المختبر اللينيني الفكري ، كما ان سلوك ستالين اصبح خاضعاً لضغوط وحاجات الجهاز السياسي الضخم الذي كان تحت سلطته فاصبحت فلسفته السياسية مقتصرة على تأمين سيطرته على هذا الجهاز باسهل الوسائل واكثرها ملاءمة ، وغالباً ما يكون القهر اكثر الوسائل ملاءمة في ظل نظام صريح الديكتاتورية . قد يكون موت لينين سبباً في اشاعة الفوضى في المكتب السياسي ، اما الامانة العامة فلم تتأثر بذلك بل على العكس بدأت تعمل بثقة في النفس وبقدر اكبر من الحزم لانها لم تعد مجبرة على تبرير اعمالها امام المراقب النابه الصارم لينين ، وكانت مفتشية العمال والفلاحين مثل الامانة العامة في ذلك . جر كل من الامانة والمفتشية انتقادات حادة من قبل تروتسكي الذي اقترح الغاء المفتشية ، ولكن اقتراحه هذا لم يفعل شيئاً سوى انه ازعج اعضاء المكتب السياسي ، تلك الهيئة التي كانت على كل حال حائزة على تبريكات لينين ، وهكذا لم تعد انتقادات تروتسكي تجدي فتيلا فقد كان ستالين (الامين العام) يعرف جيداً كيف يبرر كل عمل من اعمال القهر التي كان يرتكبها ضد البلاشفة المستائين على ضوء الانظمة الحزبية التي اقرها مؤتمر الحزب العاشر والحادي عشر بناء على اقتراحات لينين ودعم تروتسكي . كما ان ستالين كان حريصاً على اظهار كل خطوة يقوم بها على انها نتيجة لقرارات سبق تبنيها بالاجماع ، ثم انه ملأ المناصب باتباعه واصدقائه ورجاله — رجال باكو وتساريتسين . رفع المفصولون والمستاؤون قضاياهم الى المكتب السياسي حيث تبناها تروتسكي ، وهنا آلا ستالين ، كجواب على ذلك ، على تقسيم المسؤوليات المتفق عليه : للمكتب السياسي ان يتخذ قرارات بشأن المسائل العليا ، اما الامانة العامة ومكتب التنظيم فهما الهيئتان المنوطتان

باعضاء الحزب ، وعلى ذلك لم يفلح تروتسكي سوى في اضجار اعضاء المكتب السياسي بانتقاداته الملحة .

كانت اخطر التهم التي توجه الى ستالين متعلقـــة بما كان يفعله في وطنه الام — جورجيا ، ولا بأس هنا ان نوضح سوابق الخلاف باختصار . كانت جورجيـــا ، حتى شباط ١٩٢١ ، تحكم من قبل حكومة منشفية ، على الرغم من ان بقيـة القوقاز كان قد انخرط بالتدريج تحت الحكم السوفييتي . ظلت موسكو ، الى حد ما ، صابرة على الحكم المنشفي في تفليس على الرغم من ان وجود جوردانيا وراميشفيلي،خصمي ستالين القديمين منذ ايام ميسام داسي ، على رأس الحكم فيها كان لا بد وان يسبب الازعـاج لستالين . تجمل المكتب السياسي بالصبر واثقاً ان جورجيا منشفية لا تستطيـع ان تعيش طويلا في قوقاز سوفييتي اذ انها تعتمد عليه في امدادها بالخبز والوقود . بـــدأت شعبية حكم المناشفة في جورجيا بالنفاذ ، ولكن صبر ستالين كان ينفذ بسرعـــة اكبر ، ففي شباط ١٩٢١ ، غزت فصائل من الجيش الاحمر الثاني جورجيا من الشمال القوقازي مجبرة الحكومة المنشفية على الهرب .

لم يكن الشعور القومي عند مناشفة جورجيا حقيقياً تماماً ، فهم لم يطالبوا باستقلال بلادهم لا اثناء حكم القياصرة ولا اثناء حكم كيرنسكي بل كان اقصى ما يطمحون اليـــه درجة من الحـكم الذاتي داخل روسيا فيدرالية وقد كانوا يعارضون بشدة ، اثناء حـكم كيرنسكي ، انفصال اي من مقاطعات الحدود عن روسيا سواء كانت هذه المقاطعة فنلندة ام جورجيا . اذن لم تكن وطنية المناشفة الجورجيين الجديدة المفتعـلة سوى شكل من اشكال معارضة البلشفية ، ولكن على الرغم من ذلك اثار غزو الجيش الاحمر نقمـــة الجبليين في جورجيا. كان ستالين الذي اعطى للفنلندنيين قبل سنوات ثلاث وعداً قاطعاً بأن (لا تحكم ولا سيطرة من الاعلى على الشعب الفنلندي، هو نفسه الذي اعطى اوامر غزو جورجيا وكان صديقـــه القديم سيرجو اورجونيكيدز المفوض السياسي الملحق بالجيش الغازي . كتمت التحضيرات لحملة الغزو من مفوض الحرب ولكن هـذه الخطوة حظت بتأييد لينين واعضاء المكتب السياسي الذين افهموا ان انتفاضة شيوعية قد قامت في تفليس وان الجيش الاحمر لن يفعل شيئاً سوى ترجيح كفة الميزان لصالح الشيوعيين الذين سيحرزوا نصراً اكيداً لو تركوا ليحاربوا وحدهم ولكنهم في هذه الحالة سيدفعـون

ثمناً باهظاً . في الحقيقة كانت ثورة شيوعية قد نشبت في تفليس ولكن الدعم الشعبي لها لم يكن من الاتساع بحيث يضمن لها النصر .

لم يكد ستالين ينتهي من انتقامه من مواطنيه المناشفة حتى غمس نفسه في نزاع مع بلاشفة تفليس ، فبعد اشهر من الغزو ذهب ستالين الى تفليس لتوجيه اللجنة القوقازية للحزب ، وكان قد تبنى في خريف ١٩٢١ ، وبدعم من لينين ، فكرة انشاء اتحاد فدرالي للجمهوريات السوفييتية القوقازية ، ولكن بلاشفة تفليس لم يرق لهم ذلك ، اذ انهم كانوا يفضلون ان يبقى بلدهم جمهورية سوفييتية حائزة على استقلال ذاتي ومرتبطة ارتباطاً واهياً بفدرالية لعموم روسيا ، على ان يضحوا باستقلالهم الذاتي لمصلحة فدرالية قوقازية محلية قوية .

من الصعب ان نحدد نقاط الخطأ ونقاط الصواب في هذا النزاع ، فقد كان القوقاز ممزقاً بفعل التارات الدموية بين الجيورجيين والارمن والتتار وكل هؤلاء يعادون الروس بدرجات متفاوتة ، هذا بالاضافة الى ان قبائل القوزاق والشيشان والاوسيشان وغيرها من القبائل الجبلية الصغيرة كانت منهمكة في مذابح قاسية متبادلة حاول ستالين ان يقضي عليها عن طريق نقلهم واعادة اسكانهم وهي الطريقة ذاتها التي استعملها بعد ربع قرن من الزمن ، على نطاق عملاقي اضخم ، مع الاوكرانيين والبولنديين والالمان وغير ذلك من القوميات . قد يكون صحيحاً ما ادعاه ستالين من ان القادة البلاشفة الجيورجيين (بادو ومديفاني وفيليب ماخاراج) الذين عارضوا الاتحاد القوقازي الفيدرالي كانوا مصابين بمرض (القومية المحلية) ولكن الامر الاكثر احتمالاً هو ان يكون هؤلاء قد شعروا ان الاتحاد القوقازي لن ينجح في هذا الجو المشحون بالتارات والحزازات الدموية ، وقد يكونوا ارادوا ان يحتفظوا لجيورجيا بما هو اكثر من استقلال اسمي خاصة وان ثلاث سنين من الحكم المنشفي اعادت الحنين الجيورجي القديم النصف — منقرض لوجود دولة جيورجية مستقلة الى الحياة وجعلته شعوراً شعبياً عارماً . لقد جرح الغزو هذا الشعور كما جرحته بعد ذلك الاوامر الصادرة من مفوضية القوميات في موسكو ونشاطات وكلاء البوليس السياسي الروس الذين ارسلوا الى تفليس (لتصفية) بقايا المناشفة المحليين ، هذا بالاضافة الى ان بعض البلاشفة الجيورجيين احتجوا على اضطهاد المناشفة فقد كانوا ينظرون لهم كرفاق قدماء على الرغم من كل الخلافات اللاحقة وكل الاضطهاد الذي لاقاه البلاشفة انفسهم تحت الحكم المنشفي .

كل هذه السياسات اثارت الخوف الجيورجي القديم من السيطرة الروسية ، ولم يكن مهماً ان يكون ملهم هذه السياسات جيورجيا يخاطب جماهير تفليس بلغتها الوطنية فقد كان يتكلم باسم موسكو، ومما زاد الامور سوءاً على سوء كون دجوغاشفيلي القديم لايزال حياً في شخصية زعيم الكرملين (ستالين) ، فقد كان من الممكن ان ينظر اي مبعوث للكرملين سواه الى النزاعات والخلافات المحلية بتحفظ وترفع اما ستالين فسرعان ما غرق حتى اذنيه في الاهواء المحلية وذكريات الشباب ، ووجد نفسه مرة أخرى ذلك الراديكالي المغلوب على امره الذي كاد يطرد مرة من تفليس من قبل اغلبية (ميسام داسي) البورجوازية الصغيرة . هكذا بينما كان ستالين ينظر الى نفسه على انه دجوغا شفيلي الذي اتى ليصفي حساباته القديمة على بعد مئات قليلة من الامتار من المدرسة الدينية كان يطالب لنفسه بالخضوع المترتب على كونه ستالين ، ولكنه لم يحصل ابداً على ذلك الخضوع .

في السادس من تموز ١٩٢١ خاطب ستالين اجتماعاً لاعضاء الحزب في تفليس فهاجم خصومه ووصف الازمة الاقتصادية التي ستعاني منها جورجيا اذا ما اصبحت دولة معزولة كما وصف الفوائد التي ستجنيها في حال تعاونها مع بقية القوقاز ، وقال ان جورجيا ستحصل عندئذ على الزيت من باكو دون مقابل وان الجمهوريات القوقازية ستحصل على قرض بملايين الروبلات الذهبية من موسكو ، وبعد ان لوح بهذه الهدايا مضى يهاجم (القومية المحلية) وعبر عن الصدمة التي اصيب بها من جراء الشوفينية المحلية التي نمت بلا حدود في القوقاز وقارنها بصورة زاهية رسمها (للتضامن الاخوي الكامل) الذي كانت تعيشه الطبقات العاملة القوقازية ايام كان هو في القوقاز ، ومضى ستالين قائلا ان المهمة التالية للشيوعيين الجيورجيين هي (النضال بلا هوادة ضد القومية المحلية) فعليهم ان يحرقوا (بقايا القومية بالحديد والنار) وعليهم ان يحيلوا « غول القومية » الى حطام ، واضاف يقول ان على الحزب ان لا يخشى تطهير صفوفه فالحزب الروسي الام لديه ٧٠٠,٠٠٠ عضو فقط مع ان بامكانه استيعاب سبعة ملايين عضو لو كان ما يهمه العدد لا النوعية ولكن نوعية اعضاء الحزب الروسي مكنته من صنع الثورة والصمود امام كل هجمات الامبريالية العالمية ، فهذا اذاً مثال جدير بالتقليد .

كانت انتقادات ستالين القاسية « للقوميين » الجورجيين مبررة وصحيحة من وجهة نظر جورجية محلية ، وما كانت لتثير شيئاً من الاهتمام لو انها اتت من القادة المحليين ، اما ان تأتي من ستالين المتكلم باسم موسكو فكان لا بد من ان يرى الجيورجيون «شوفينية

روسيا العظمى » مختبئة وراءها . كانت شؤون شعوب مناطق الحدود تسوى ايام الحكم القيصري من قبل الحكومة المركزية الروسية ، اما الآن وبعد الثورة فقد بدأت هذه الشعوب تتساءل عما اذا كانت الثورة قد غيرت شيئاً في هذا المضمار ، وكان للجيورجيين من الاسباب ما يجعلهم اكثر من غيرهم عرضة للشك ، فجاءت عظة ستالين التي وبخت انانيتهم المفرطة المعيبة لتمكن الشك من نفوسهم . كان ما حدث شبيهاً بما يحدث لو ان وزيراً بريطانياً قرع جمهوراً في دبلن عاصمة ايرلندا ، مع كل ما يحمله هذا الجمهور من ذكريات الامبراطورية البريطانية ، مهاجماً « غول » القومية الايرلندية ، اذن لكانت كلماته نشازا حتى ولو كان هذا الوزير من اصل ايرلندي وحتى لو كان يتكلم باسم حكومة بريطانية ثورية اعلنت حل الامبراطورية ، خاصة اذا كان الوزير يتكلم بعد غزو انجليزي مباشر لايرلندا . هذا بشكل عام ما احدثته تصريحات ستالين في تفليس .

لم يكن ستالين ليعبأ بانعدام التجاوب معه فأصدر تعليمات لاورجونيكيدز بأن يطهر الحزب من معارضي الاتحاد الفدرالي ومن الوطنيين المحليين ومن اولئك الذين لا يزالون يكنون بعض العطف على المناشفة . لم تكن هناك حاجة للقمع الوحشي ، بل كان يكفي ان يفصل بعض « الوطنيين المحليين » وان تملأ مؤتمرات الحزب بمن يرغبون في الخضوع لقيادة اورجونيكيدز ، اما اولئك الذين ترددوا او شكوا فقد امتثلوا عندما قيل لهم ان المكتب السياسي اقر فكرة الاتحاد القوقازي الفيدرالي بالاجماع ، وكان هذا بالفعل ما حصل [1] . في النهاية وجد قائدا المعارضة البلشفية ، مديفاني وماخاراج ، نفسيهما يخسران بانتظام في كل اقتراع يجري في اي مؤتمر او اجتماع ، وعندئذ بدآ يحتجان على « شوفينية روسيا العظمى » التي يبديها مفوض القوميات .

لعل التطور الذي وضع الاشتراكي الجيورجي السابق « ستالين » في موضع اصبح فيه اسمه يرتبط بشوفينية روسيا العظمى تطور جدير بالملاحظة اكثر من جدارة العملية التي

---

(١) قبل لينين فكرة الاتحاد على علاتها ، ولكنه حث اتباعه القوقازيين في نداء وجهه لهم على ان يتفهموا (ضرورة عدم نقل تكتيكنا ، بل تغييره بما يتفق مع اختلاف الظروف الموضوعية) (كونوا اكثر اعتدالا وحرصاً واستعداداً لتقديم التنازلات للبورجوازية الصغيرة وللانتلجنسيا ، وعلى الاخص للفلاحين) (طبقوا في جمهورياتكم روح دروس تجربة ١٩١٧ - ١٩٢١ ولا تطبقوا نصها) . The Essentials of Lenin المجلد الثاني ص ٦٩٨ - ٦٩٩ .

جعلت بونابرت الكورسيكي مؤسساً للامبراطورية الفرنسية او التي جعلت هتلر النمساوي اكثر قواد القومية الالمانية عدوانية ، اذ ان الكورسيكيين لم يكن لديهم الكثير من الظلامات ضد فرنسا ، حتى ان ابا نابوليون كان عضواً في « الحزب الفرنسي » في كورسيكا ، وكذلك كانت فكرة الوحدة الالمانية تمارس دائماً تأثيراً عظيماً في النمسا ولم يكن ليقف في طريقها سوى المصالح المتفسخة لعائلة هابسبرج . اما في جورجيا فلم يكن هناك ، ولم يكن ممكناً ان يكون ، اية مشاعر موالية لروسيا فقد كان شعور الجيورجيين بالضيم حاداً وان لم يكن في حدة شعور البولنديين ، وعلى هذا لم يكن ممكناً ان يصبح ستالين « روسياً بالتبني » الا من خلال البلشفية التي اجتذبت رجالاً مثله باممیتها وعلى الاخص بموقفها الحساس تجاه القوميات المضطهدة . لم يظهر ستالين ابداً متلبساً بتلك العواطف والتحيزات التي ترتبط عادة بالقومية ، على الرغم من ان تهمة القومية الروسية الصقت به اكثر من مرة ، فهو في الحقيقة لم يكن سوى ممثل لمبدأ المركزية ، ذلك المبدأ الذي يشكل قاسماً مشتركاً لكل الثورات الحديثة ، ولكنه اعطى لهذا المبدأ تعبيراً فظاً مبالغاً فيه . على اي حال مهما كانت دوافع ستالين فان النتائج العملية لافعاله كانت كما لو انه تصرف بوحي من الشوفينية الروسية .

هناك من الدلائل ما يشير الى ان هذا الموقف المتناقض كان يعطي ستالين بين حين وآخر شعوراً ساراً غريباً ، فمن منا لم يقابل انجليزياً بالتجنس ينفخ اوداجه قائلا (نحن الانجليز) او اكثر من ذلك (نحن الامبراطورية البريطانية ...) . بهذا النوع من الغرور قال ستالين في احدى خطبه الموجهة الى الشيوعيين المسلمين ان القومية الروسية لم تكن يوماً امراً خطيراً . لقد كان الروس امة حاكمة ولذا فانهم عموماً والشيوعيين منهم بوجه خاص لم يعرفوا اي اضطهاد عرقي ولم يضطروا الى مواجهة الاتجاهات القومية داخل صفوفهم لانها لم تكن موجودة اصلاً عدا عن بعض الميل نحو « شوفينية الدولة الكبرى » . كان هذا تصريحاً محيراً ولا بد ان كثيراً من البلاشفة صدموا عند قراءته في برافدا فلم يصرح به ستالين بعد ذلك ابداً . من الصحة بمكان ان الروس في تاريخهم الحديث لم يعرفوا ذلك النوع من القومية الحساسة التي تنمو على الاضطهاد الاجنبي فقد كانت قوميتهم قومية المضطهدين (بكسر الهاء) ، قومية قاسية وحشية واكثر خطراً بكثير ، وقد نبه لينين اتباعه الى خطرها حاثاً اياهم على التصرف بصبر وحكمة حتى تجاه ادعاءات الاقوام المضطهدة سابقاً المبالغ فيها ، لان ذكريات حكم القياصرة لا يمكن ان يقضى عليها

الا ببطء بالغ ، فشوفينية روسيا العظمى هي الشر الاساسي الذي كان على الشيوعيين الروس ان يحاربوه بينما كان على رفاقهم في مقاطعات الحدود ان يقفوا في وجه مظاهر غليان الوطنية المحلية . لم يكن من السهل التوفيق بين وصايا لينين الكريمة وبين متطلبات الحكومة المركزية التي كان يقف الى جنبها ، فمالت سياساته الى الاصطدام بعضها بالبعض ولم يكن ممكناً الا لاداري حكيم ذكي مثله ان يحفظ التوازن فيما بينها ، اما ستالين فمن الواضح انه اخطأ في اتجاه المركزية الشديدة .

عكس خطأ ستالين ، ان كانت كلمة خطأ هي ما يجب استعماله هنا ، تيار فكر ومطامح جهاز الادارة المدنية الروسي بعد اعادة تشكيله اثر الثورة ، وكان هذا التيار يسير اكثر فاكثر نحو مركزة الحكومة وحتى نحو اعادة بناء روسيا « العظيمة التي لا تتجزأ » . كان الشيوعيون يدعمون المركزية لفوائدها الادارية والاقتصادية الجمة ولكنهم ، على حد تعبير لينين، لم يكونوا سوى « نقطة ماء في بحر » ، لقد قاموا «بثورة زراعية عظمى ... بجرأة لا مثيل لها في الاقطار الاخرى ، ولكنهم كانوا في الوقت ذاته مفتقرين الى المخيلة التي تمكنهم من القيام باصلاح من الدرجة العاشرة في الروتين المكتبي » . من هنا لم يكن ممكناً للثورة ان تنقذ نفسها من براثن فوضى عارمة الا باعادة استخدام البيروقراطيين القيصريين الذين كانوا على الرغم من انخفاض مستوى كفاءتهم متفوقين على الثوريين السابقين في امور الروتين الاداري. بدأ المحافظون والقوميون من الطبقات المهنية يعرضون خدماتهم على الحكام الجدد بعد اعلان السياسة الاقتصادية الجديدة « نيب » فاستقبلوا باذرع مشرعة ، واستشرى الامل في ان تعود روسيا الام على اعقابها حتى بين المهاجرين البيض فترجم احدهم ، وهو البروفسور اوستريالوف ، العضو السابق في حكومة كولخاك ، هذا الامل الى برنامج سياسي حاثاً اتباعه على التأقلم مع النظام السوفييتي ليعملوا من داخله في اتجاه تطويره من خلال النيب الى الرأسمالية والقومية . كان جهاز الادارة القديم عنصراً صلداً من عناصر الجهاز الجديد في اوائل العشرينات [1] ، وكانت قوته تكمن في الوظائف العليا حيث الحاجة الى الخبراء ماسة ، ولم تكن العلاقات بين الشيوعيين وبين الموظفين القيصريين السابقين علاقات حسنة فقد

---

(١) وظفت الحكومة السوفييتية قرابة نصف مليون موظف من الموظفين القيصريين القدامى بعد الحرب الاهلية بقليل .

كان الشيوعيون ينظرون الى شركائهم في الرحلة ، نظرة يتمازج فيها الاحترام بالشك اما « شركاء الرحلة » فقد كانوا يدربون البلاشفة وهم يشعرون شعوراً يتمازج فيه الخوف او الاحتقار مع ضرورة اداء الواجب القومي ، لكن وعلى الرغم من كل ذلك الصدام ، الذي كان صداماً حاداً في بعض الاحيان ، فقد مارس كل من الطرفين تأثيراً عضوياً دائماً على الآخر .

طبيعي ان ينشر موظفو الادارة المدنية القدامى فكرة روسيا « العظيمة التي لا تتجزأ في الاوساط التي تحتك بهم ففي ذلك كانوا يجدون تبريراً لخضوعهم للثورة امام ضمائرهم المحافظة ، ومن هنا اعتبروا اعمالاً كغزو جورجيا واعادة توحيد المقاطعات النائية مع روسيا نصراً ايديولوجياً لهم . اما اللينينيون الصادقون فقد كانوا ينظرون الى هذه الاعمال على انها نصر للثورة لا لروسيا فروسيا ذاتها ، في نظرهم ، القلعة الاولى للثورة العالمية ولذا فان مصالحها يجب ان تخضع لاستراتيجية الاشتراكية الملتزمة ، تلك الاستراتيجية التي تتخطى الحدود القومية . لكن حدود روسيا كانت على كل حال هي ذاتها حدود الاشتراكية المنتصرة ومن هنا شعر اللينينيون ان اعادة توحيد معظم ، ان لم يكن كل ، المقاطعات التي كانت تحكمها القيصرية تحت العلم السوفييتي انما هو خدمة لمصالح الاشتراكية ، شعروا بذلك على الرغم من انهم ما زالوا يؤمنون ان الاشتراكية تقتضي المساواة بين الامم ، وفي هذه النقطة بالذات كان الحد الفاصل بين اللينينية والاوستريالوفية (نسبة الى اوستريالوف السالف الذكر) مشوشاً غير واضح المعالم واصبح هناك مجال واسع للخلط بينهما ، وكان ان تسللت القومية الجديدة ، نصف الحقة نصف الكاذبة ، الى التفكير السياسي للحزب كما اعترف ستالين بعد ذلك بقليل[1]. كان ستالين نفسه ، اكثر من اي من القادة الآخرين ، جزءاً من الادارة المدنية الملغمة فسجل تناقضاتها بدقة جهاز تسجيل الهزات الارضية ، وهكذا نجد ان انحرافه وتحيزه في المسألة الجيورجية اتفق مع الضغوط العامة التي كانت تفرض اثرها على الدولة .

---

(١) كتب البروفسور اوستريالوف عام ١٩٢١ عندما كان لا يزال مهاجراً يقول ، ستناضل الحكومة السوفييتية باسم الثورة العالمية وبكل الوسائل لاعادة توحيد الاراضي النائية مع المركز ، وسيناضل الوطنيون الروس في سبيل الهدف ذاته باسم روسيا العظيمة التي لا تتجزأ ، وعلى الرغم من كل الخلافات العقائدية فان الجماعتين تسيران عملياً على الطريق ذاته .

في صيف عام ١٩٢٢ ، وجدت مفوضية ستالين نفسها في نزاع جديد ولكن مع اوكرانيا هذه المرة ، فقد احتجت الحكومة الاوكرانية هي ايضاً على تدخلات ستالين وتمسك قائداها : راكوفسكي ، ابن العائلة الارستقراطية الثورية ذات الاصل البلغاري — الروماني ، وسكربنك ، البلشفي القديم ، تمسكا بنص وروح وعود الحزب بمنح الاستقلال للمقاطعات الخارجية وطالبا بتنفيذ هذه الوعود ، كل ذلك على الرغم من ان تدخلات ستالين في كييف او خاركوف لم تبلغ مدى بعيداً كذلك الذي بلغته تدخلاته في تفليس ، ومن ثم وضع الاوكرانيون ايديهم بايدي الجيورجيين وقرروا معاً تحدي ستالين ومعارضته في المناظرات القادمة حول الاصلاح الدستوي .

ان من الخطأ ان نبالغ في اهمية هذه الصدامات لان لنشاطات ستالين جانب اكثر بريقاً فقد عمل بتصميم وعزم شديدين على حل واحدة من اكثر المسائل التي ورثتها الثورة صعوبة وتعقيداً . لنذكر انه في عام ١٩١٨ ، اعاد الى الحياة جمهورية البشكير ذات الاستقلال الذاتي وان جمهورية سوفييتية انشئت للتتار في ربيع عام ١٩٢٠ ، وتبعتها في تشرين الاول من السنة ذاتها حكومة قرغيزيان الذاتية ، بعد الحرب الاهلية انشئت جمهورية الداغستان من عديد من القبائل التي كانت تتكلم ٣٦ لغة ولهجة ، اما الياكوت والكرليان فقد مضوا قدماً في انشاء ادارات ذاتية . لم تكن اي من هذه الجمهوريات مستقلة تماماً ولكنها جميعاً تمتعت بدرجة عالية من الحكم الذاتي والحرية الداخلية ، وتذوقت ، تحت قيادة مفوضية ستالين ، بعض ثمار المدنية الحديثة . كما ساعدت المفوضية على انشاء الالاف من المدارس في مناطق لم يكن فيها قبلا سوى العدد اليسير منها ، ووضعت الخطط لري الاراضي البور واقامة المحطات الكهرومائية ، كل ذلك في خضم البؤس المادي الذي كان سائداً في تلك الفترة . هذا بالاضافة الى ان اللغة التترية اصبحت لغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة الروسية ، كما منع الروس من السكنى في سهول قرغيزيا التي احتفظ بها لتوطين قبائل البدو الرحل من المواطنين ، كذلك فان القوانين التقدمية حررت النساء الاسيويات من الطغيان الابوي والقبلي . وضعت كل هذه الاعمال، التي نفذت بالضرورة على نطاق ضيق ، مثلاً يحتذى في الجهود المقبلة ، كما كانت ، حتى في بداياتها المتواضعة دليل اهتمام بالتقدم ولهفة عليه مما اثار اعجاب الكثيرين من خصوم البلشفية .

بدأ المكتب السياسي ، في صيف عام ١٩٢٢ وبعد اصابة لينين بنوبة المرض الاولى ،

في بحث الاصلاح الدستوري لتسوية علاقات روسيا بالجمهوريات الخارجية . كان ستالين المهندس الرئيسي لهذا الاصلاح فقد عكف على اعداد مبادئه طوال النصف الثاني من عام ١٩٢٢ ، وكانت هذه المبادىء باختصار كما يلي: — يجب ان تستبدل فيدرالية الجمهوريات السوفييتية باتحاد لهذه الجمهوريات على ان يتكون هذا الاتحاد من اربع مناطق هي : — روسيا وترانزقوقازيا واوكرانيا وبيلوروسيا(كان ضغط ستالين على الجيورجيين للانضمام الى اتحاد ترانزقوقازيا جزءاً من خطته هذه) . عارض ستالين انشاء الاتحاد من الجمهوريات المكونة له مباشرة واصر على وجوب قيام وسائط بين الحكومة المركزية والحكومات الجمهورية المنفردة وكان تبريره لذلك هو ان السيطرة المركزية ستكون اكثر فاعلية اذا مورست من خلال اربعة مجارٍ رئيسية مما لو تشتتت في عدد كبير من الاتصالات المباشرة بين موسكو والادارات المحلية ، اما المفوضيات فيجب ، في رأيه ، ان تقسم الى ثلاثة اقسام : —

١ — القسم الاول ويشمل الامور العسكرية والسياسة الخارجية والتجارة الخارجية والنقل والمواصلات ، وكل هذه يجب ان تكون من مسؤولية الحكومة المركزية في موسكو وحدها ويجب ان لا تنشىء الجمهوريات المختلفة اية مفوضيات لهذه الشؤون .

٢ — القسم الثاني ويحتوي على دوائر المالية والاقتصاد والغذاء والعمل ومفتشيات العمال والفلاحين وجميع هذه لا تخضع للحكومة المركزية ولكنها تخضع لمقدار من التنسيق يوجه من موسكو .

٣ — القسم الثالث ويضم الشؤون المحلية والعدل والتربية والتعليم والزراعة ، وكل هذه تديرها حكومات المقاطعات في استقلال تام .

اما سلطة السيادة فكان ستالين يرى انها يجب ان تكون في يد « مؤتمر السوفييت لعموم الاتحاد »، على ان تكون في يد اللجنة التنفيذية المركزية في فترات ما بين انعقاد المؤتمر ، وهذه اللجنة يجب ان تتكون من مجلسين هما المجلس الاعلى ومجلس القوميات ، ويتساوى في مجلس القوميات عدد ممثلي كل مجموعة عرقية ، وكان ستالين يعتقد ان اللجنة التنفيذية المركزية هي التي يجب أن تعين مجلس المفوضين اي الحكومة .

استشير لينين خلال فترة نقاهته الاولى حول هذا المشروع فوافق عليه ، وهنا ضغط المكتب السياسي مرة اخرى على الجيورجيين لينضموا الى اتحـــاد ترانزقوقازيا ، اما الاوكرانيون فقد وضعوا العراقيل في وجه نية موسكو ادارة شؤونهم الخارجية بالنيابة عنهم ورفضوا ان يلغوا مفوضية الشؤون الخارجية في اوكرانيا . مهما يكن من امر فان المشروع كان يعطي للجمهوريات قدراً كبيراً من الحكم الذاتي فقد سمح لهـــا ان تدير باستقلال شؤونها المحلية وشؤون الامن وكذلك دائرة شؤون البوليس الـتي كانت في ظل الظروف السائدة حينذاك اكثر الدوائر اهمية ، لكن هذا كله كان اسميا ، ففي الواقـع كانت الممارسة الفعلية للحكومة المركزية قد اصبحت في تصادم فاضح مـع نص المشروع المقترح [1] . كان هذا الوضع بالذات هو الذي ادى الى صدام مرٍ حقاً بين لينين وستالين للمرة الاولى والاخيرة في تاريخ ارتباطهما الودي الطويل .

* * *

كان لينين يبل من مرضه ببطء في الريف في النصف الثاني من عام ١٩٢٢ ، فقام ستالين بزيارته عدة مرات وابقاه على اطلاع على مجريات الامور ، وكان ان كتب ستالين مقالا يتدفق اعجاباً بالقائد المريض يصف فيه احدى زياراته للينين ويبلـــغ الحزب ان لينين سيعود الى العمل في المستقبل القريب . لا بد ان مناقشات المكتب السياسي وهجومات تروتسكي على مفتشية العمال والفلاحين ومشروع الدستور الجديد والمعارضة في جيورجيا واوكرانيا كانت جميعاً ضمن النقاط الرئيسية التي تناولتهـا محادثات ستالين ولينين خلال هذه الزيارات ، ومن الواضح ان لينين قبل روايات ستالين للاحداث لانه كان يدعمه بلا تحفظ واستمر في ذلك بعد ان عاد الى مكتبه في تشرين الاول وفعل كل مـــا في وسعه لتقوية مركز الامين العام ، فانب بغضب الجيورجيين المستائين ورفض كل نقد للمفتشية وبدأ يستعد للدفاع عن مشروع الدستور الذي وضعه ستالين امام المؤتمر العاشر لعمـوم السوفييت في كانون الاول . هكذا بدت ثقة لينين في مساعده صلبة لا تتزعزع . بعـــد

---

(١) في الواقع نص الدستور عندما تم تبنيه في النهايـــة على ان تدير موسكو البوليس السياسي في كل الجمهوريات .

ذلك في تشرين الثاني او اوائل كانون الاول تزعزعت ثقة لينين بشكل حاسم ، واغلب الظن ان ذلك لم يكن نتيجة حادث واحد وانما كان حصيلة عدة عوامل ، فقد رد قادة المعارضة الجيورجية على تعنيف لينين لهم بعرض كامل لوجهات نظرهم التي ربما اعطته مادة دسمه للتفكير واعادة التقييم ، وفي الوقت ذاته عادت لجنة تقص للحقائق برئاسة دزيرجنسكي ، رئيس البوليس السياسي ، من جيورجيا وقدمت له تقريراً عن مهمتها علم منه للمرة الاولى ببعض فظاعات اورجونيكيدز فثار غضبه وطالب بتعليق عضوية تلميذه السابق في مدرسة لونج جوميا في الحزب والوظيفة . كان لينين حذراً من الاعتماد فقط على تقرير دزيرجنسكي فقد كان رئيس البوليس السياسي برغم امانته البالغة ومثاليته متعصباً يتدخل بشك في اعمال الدوائر الحكومية الاخرى مما حمل لينين على تعنيفه علانية في احد مؤتمرات الحزب، وفوق ذلك كان دزيرجنسكي يعاضد سياسة ستالين في تفليس ولذا طلب لينين من سكرتاريه الخصوصيين ان يقدموا له تقريراً وافياً عن جيورجيا .

لم تكن قضية جيورجيا هي الوحيدة التي بدأت تزعج لينين فقد شعر عند عودته الى منصبه تغيراً غامضاً في الجو المحيط به ، فقد ساءت احوال الجهاز الاداري خلال غيابه واصبح من الصعوبة بمكان الحصول على اجوبة سريعة مباشرة للاستفسارات ، واخذ الناس يتذمرون من سوء المعاملة التي يلاقونها في بعض المكاتب ومن الروتين في البعض الآخر وحتى من سوء استعمال السلطة في البعض الثالث . كانت اوامر لينين ذاته وتعليماته تعترض بعض الاحيان في الطريق فلا تصل الى من يجب ان يتسلموها ، فاحس ان اشياء غامضة تجري من وراء ظهره ، وكان قبل مرضه قد اسر للحزب انه يشعر تماماً ان الجهاز الحكومي يسير في اتجاه مختلف عن الاتجاه الذي يريده رغم انه هو الذي يقوده اما الآن فقد نما هذا الشعور واصبح قوياً حاداً . حاول لينين ان يتتبع مصدر هذا التغير فقادته محاولته هذه الى مكاتب الامانة العامة مباشرة وهنا بدأت قضية جيورجيا والخلافات داخل المكتب السياسي تتخذ في نظره شكلاً وبعداً جديدين .

في منتصف كانون الاول اصيب لينين بنوبة ثانية ، وبعد اسبوع واحد شفي بالقدر الذي يسمح له باملاء بعض الملاحظات ، ولكنه كان يشعر بدنو اجله ، فاملى في ٢٥ كانون الاول على سكرتيره مذكرة قصيرة على شكل وصية افتتحها بالاعراب عن خوفه من حدوث انشقاق داخل الحركة البلشفية : (حزبنا يعتمد على طبقتين — العمال والفلاحين —

واذا لم يكن هناك اتفاق بين الطبقتين فان سقوط حزبنا محتم ... ولن تستطيع اية اجراءات ان تمنع حدوث انشقاق)[1] لكن هذا الخطر (بعيد وغير محتمل) . ان قول لينين هذا يتضمن رأيه في ان الخلافات داخل المكتب السياسي لا تعكس التناقضات الاساسية بين الطبقتين ، ومع ذلك فقد اشار الى خطر وقوع (انشقاق في المستقبل القريب) . عند هذا الحد ، وصل تفكير لينين الاجتماعي الماركسي الى نهاية مفاجئة لدرجة انه لم يحاول ان يشير مجرد الاشارة الى الخلفية الاجتماعية للخلاف داخل المكتب السياسي ، وبدلاً من ذلك مضى لينين بايجاز وحذر شديد آراءه في خلفائه وكأنه بذلك يشير الى ان مرد الخلافات هو العداوات الشخصية ، وان كانت قد تتخذ في المستقبل اهمية اكبر ، ولم يتردد لينين في الاقرار بأن ستالين وتروتسكي هما الخصمان الرئيسيان ووصفهما بأنهما (اقدر القادة في اللجنة المركزية الحالية) . لا بد ان هذا الوصف فاجأ معظم زملاء لينين وحوارييه عندما سمعوه للمرة الاولى ، فقد كان تروتسكي ينظر الى منافسه بامتعاض وبقي حتى آخر ايامه ينظر اليه على انه (عادي جداً) ، كذلك لم يكن اي من اعضاء المكتب السياسي الآخرين ليتفق مع لينين في رأيه هذا فقد كان كل منهم يشعر بتفوقه الذهني على الامين العام . اما لينين فلم يكن يساوره ادنى شك في من هو اقدر الخصمين (انني شخصياً ارى ان الرفيق تروتسكي هو اقدر رجال اللجنة المركزية الحالية) ، ومع ذلك لم يفترض لينين ان مواهب تروتسكي الالمع ستؤمن له السيطرة ، اذ كان الشك في نتيجة الصراع والرغبة في ايقافه قبل فوات الاوان يتخللان الوصية بكاملها .

(لقد ركز الرفيق ستالين في يديه قوة هائلة عندما اصبح اميناً عاماً ، وانا لست متأكداً من انه يعرف دائماً كيف يستعمل هذه القوة بالحذر الكافي) . كانت كلمات لينين هذه موزونة بدقة ، فهو وان عبر عن المخاوف والشكوك التي ساورته قبل وفاته الا انه لم يكن يشعر ان الحقائق المتوافرة تبيح اصدار حكم مباشر بادانة ستالين . اما بالنسبة

---

(١) وصية لينين هنا مأخوذة من كتاب ليون تروتسكي : واقع الحال في روسيا ص ٣٢٠ - ٣٢١ . لم ينشر نص الوصية ابداً في روسيا ، لكن الكتاب الرسميين اقتطفوا منه بعض ملاحظات ضد بوخارين وزينوفييف وكامينيف تتفق مع ما اورده تروتسكي فكان ذلك تأكيداً لروايته . انظر مثلا ن . بوبوف « التاريخ المختصر » المجلد الثاني ص ٢٦٤ حيث يوجد النص الكامل تقريباً الوصية عدا الاجزاء المحبذة لتروتسكي والناقدة لستالين .

لتروتسكي فقد كان حكمه عليه اكثر انتقادية على الرغم من امتداحه لمواهبه العظيمة ، فقد روى حادثاً قريب العهد (صارع فيه تروتسكي اللجنة المركزية) وابدى (ثقة بالنفس تذهب الى حد بعيد وميلاً الى التأثر بالجانب الاداري البحت من الامور). اذا كان للحزب ان يختار بين (الرجلين الاكثر قدرة) على اساس هذه الملاحظات فقط فان الكفة قد ترجح قليلاً لصالح ستالين ، فمعايب تروتسكي لم تكن بارزة في الوصية فحسب ، بل كانت هناك ايضاً اشارة الى ميله الى وضع نفسه في موضع المعارض للجنة المركزية وهذا خطأ جسيم في قائد حزب نما في ظل النظام والعمل الجماعي ، حزب ينظر الى (الفردية) بشك وتوجس . حرص لينين على ان لا يعزو نوايا سيئة الى اي من الخصمين — فهما (قد يسببان ببراءة حدوث انشقاق واذا لم يتخذ حزبنا خطوات في سبيل الوقوف في وجه ذلك فان الانشقاق قد يحدث من حيث لا يدري احد) .

لم يكن لينين يملك الكثير ليقوله عن بقية القادة ، فذكر اتباعه ان معارضة زينوفييف وكامينيف لثورة اكتوبر عام ١٩١٧ (لم تكن صدفة) فكان هذا اعراباً ضمنياً ولكن حازماً عن اعتقاده بأن اكثر حوارييه قرباً منه كانا مفتقرين الى الجرأة والسلوك الثوريين ، ولكن (احداث فترة اكتوبر ... يجب ان لا تستخدم ضدهما شخصياً الا بالقدر اليسير الذي يمكن ان يستعمل فيه ماضي تروتسكي اللابلشفي ضده) . ان التذكير بماضي تروتسكي اللابلشفي يدل على انه لم ينس على اي حال . وتنتهي الوصية بملاحظات موجزة عن اصغر القادة سناً : بوخارين (اعظم النظريين واكثرهم قيمة) و (الرجل المفضل في الحزب كله) الذي كان فيه لسوء الحظ (شيء من الاكاديمية) وبياتاكوف (رجل قادر جداً ولكن يجب ان لا يعتمد عليه في المسائل السياسية الخطيرة) .

* * *

كانت الوثيقة التي تركها لينين مخيبة للامال كوصية لعدم شمولها . اذ ان تحذيره من النزاع داخل الحزب قابله عجز كامل عن تقديم اية وصايا عملية لعلاجه ، وكانت نصيحته الوحيدة هي ان(يرفع عدد اعضاء اللجنة المركزية من ٥٠ الى ١٠٠ عضو) تلك النصيحة التي اثبتت عدم جدواها اذ ان قوة المكتب السياسي والسكرتارية العامة قد

ازدادت في اللجنة المركزية الموسعة على عكس توقعاته .

بينما كان لينين يمحص النظر في وصيته ، كان ستالين يقود اعمـــال المؤتمر العاشر لعموم السوفييت في روسيا ، ذلك المؤتمر الذي تبنى مبدئياً الاصلاح الدستوري . بالـغ ستالين في مدح هذا الاصلاح على انه (خطوة مصيرية على الطريق نحو توحيد شغيلة العالم في جمهورية سوفييتية اشتراكية عالمية) ، وبعد ذلك بثلاثة ايام في الثلاثين من كانون الاول امتدحه في حفل تأسيس مؤتمر السوفييت لجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية ، على انه انجاز يعدل في اهميته بناء الجيش الاحمر خلال الحرب الاهلية . كان هذا بالطبـع مبالغة قصد بها القول (انني انجزت ما لا يقل عما انجزه تروتسكي) ومضى ستالين ليقول (ان هذا اليوم هو يوم انتصار روسيا الجديدة على روسيا القديمة ، روسيـــا التي كانت دركي اوروبا وجلاد آسيا ... لندع هذا المؤتمر يبرهن للذين لم يفقدوا بعـد المقدرة على الفهم ان الشيوعيين يجيدون بناء اشياء جديدة قدر اجادتهم هـــدم الاشياء القديمة) .

اما لينين ، الذي كتب في تلك الايام بعضاً من آخر مقالاته القوية ، فقد امتنـع عن النطق بكلمة واحدة في العلن عن الحدث المحتفى به ، وفي ٣٠ كانون الاول عندما افتتح مؤتمر السوفييت لاتحاد جمهوريات روسيا السوفييتية الاشتراكيـــة ، املى لينين بعض الملاحظات بصدد الصدام في جيورجيا : — انني اعتقد ان تسرع ستالين وفظاظته الادارية لعبا دوراً مصيرياً هنا ، وكذلك لعبت ضغينته على (الشوفينية الاجتماعيـــة) السيئة السمعة ، والعنيفة بشكل عام تلعب اسوأ دور ممكن في السياسة . انني اشعر ايضـاً ان دزيرجنسكي... ميز نفسه بميوله الروسية الحقيقية (من المعروف ان النـــاس الذين هم من اصل غير روسي واصبحوا روسيين يتمادون **بعيداً** في مسألة حقيقة الميول الروسية) ... من الضروري بمكان ان نميز بين قومية الامم المضطهدة (بكسر الهاء) وبين قوميـــة المضطهدين ... ان من الواجب علينا ان نلقي مسؤولية هذه الحملة القومية الحقيقية ، التي دفع اليها التحيز (لروسيا العظمى) على عاتقي ستالين ودزيرجنسكي . تصلبت شكوك لينين في الايام الخمسة التي تبعت كتابة وصيته وتحولت الى اقتنـــاع بذنب ستالين ، فانتقل لينين حينئذ من النقد الحذر الى الادانة غير المتحفظة . وقد يكون لينين استقبل خلال هذه الايام الخمسة زواراً من المقاطعات قدموا الى موسكو لحضـور المؤتمر ، او ان سكرتاريه وضعوا امامه تقريرهم عن المسألة الجيورجية ، او انه قـــد اصطدم بالامين

العام ، او ان كل هذه الاحتمالات حدثت سوية . على كل حال يكفي ان نقول انه استقر على رأي وبدأ يعيد النظر في وصيته ، ففي كانون الثاني املى ملحقاً للوصية مليئاً بغضب رجل شعر انه خدع من قبل مساعده المفضل :

ستالين وقح جداً وعيبه هذا ... لا يطاق اذا كان يحتل منصب الامين العـــام ولذا فانني اقترح على الرفاق ان يجدوا طريقة ما لازاحته عن هذا المنصب وتعيين رجـل آخر له ... رجل اكثر صبراً ، اكثر ادباً واكثر عناية بالرفاق ، واقل تقلباً . قد يبدو هـذا تافهاً وغير ذي قيمة ولكننا اذا نظرنا الى الامر من وجهة نظر منع حدوث انشقـاق ومن وجهة نظر العلاقات بين ستالين وتروتسكي التي بحثتها فيما سبق فان هـذا لن يبدو تافهاً او انه سيبدو من تلك التفاهات التي قد ترتدي اهمية مصيرية في المستقبل .

لم يكن احد يعلم بامر وصية لينين غير زوجته كروبسكايا وسكرتاريه ، وقد اسرع لينين بكتابة تهمه للامين العام ونصيحته للحزب بدافع خوفه من اصابته بشلل كامل او موت مفاجيء . لكن صحته ، بعد ذلك بقليل ، بدت في تحسن فبدأ يهاجم الامين العام بحذر في البداية وبقوة متزايدة بعد ذلك . ان جزءاً من وصف هذا الحادث مبني على مـا كشف عنه تروتسكي فيما بعد وهذا ما يمكن للشكاك ان يتساءل عن مدى صحته ولكن الجزء الاهم من هذه القصة مبني على مقالات لينين نفسه في البرافدا تلك المقالات التي اعيد طبعها في كل طبعات كتاباته وهـذه لا تتفق مع ما يقوله تروتسكي فحسب ولكنهـا تدعمه بقوة ، وعلى كل حال فان اية رواية اخرى للاحداث لم ترو لا من قبل ستالين ولا من قبل اولئك الذين كان همهم تبريره .

في ٢٥ كانون الثاني نشرت البرافدا اول انتقاد وجهه لينين لمفتشية العمال والفلاحين وكان هـذا الانتقاد مصوغاً بلهجة لطيفة وغامضاً في دلالاته العمليـــة . وفي الاسبوع الاول من شباط املى لينين مقالاته « احسن بقليل ولكن احسن » وكانت هجومـاً مقذعاً على ستالين بوصفه مفوضاً للمفتشية ولكن هذه المقالة التي كانت آخر ما ظن للينين لم تظهر في البرافدا الا في ٤ آذار ، اي بعد اربعة اسابيع من كتابتها ، ومن الواضح ان ستالين واصدقـــاءه بذلوا محاولات فاشلة ، في هذه الفترة ، لاقناع لينين بعــدم شن هجومه .

قال لينين « دعونا نتكلم بصراحة ونقول ان مفوضية الشعب لمفتشية العمال والفلاحين لا تملك حتى القليل من الاعتبار المعنوي فالكل يعلم ان مؤسسة اسوأ من مفتشيتنا للعمال والفلاحين لم توجد بعد ، وفي ظل الظروف الحاضرة لا يمكن ان نتوقع من هذه المفتشية اي شيء » . لم يرد اسم ستالين في المقال ولكن الهجوم على شخصه كان ضمنياً اذ انه كان رئيس المفتشية لمدة اربع سنوات اي منذ انشائها . مضى لينين يقول : « ما الفائدة من انشاء مفوضية الشعب لمفتشية تقوم بعملها كيفما اتفق ، مفتشية لا تتمتع بأي قدر ولو ضئيل من الثقة ولا يحمل عملها اي وزن ؟ ... ان هدفنا الرئيسي تغيير ذلك كله » « يجب حقاً ان نبدأ العمل ... لخلق مثال يحتذى ويكسب احترام الجميع بفضل مزاياه لا بفضل رتبته ولقبه فحسب » . لم تكن ملاحظات لينين حول الفضائل التي يجب ان تتمتع بها المفتشية بعد اصلاحها سوى انعكاسات لمعايب المفتشية تحت ظل قيادة ستالين : « اننا نأمل ان لا تعاني مفتشية العمال والفلاحين الجديدة من ... الدقة المبالغ فيها الى حد السخف ، تلك الدقة التي ... صنعتها ايدي البيروقراطية في الحزب وفي السوفييتات . نعم دعونا نعترف ان في مكاتب سوفييتاتنا بيروقراطيين».ان اصل المشكلة يكمن في الافتقار الى السلوك المتمدين « يتكلم الناس باسهاب وطلاقة عن الثقافة « البروليتارية » . اننا سنكون قانعين تماماً بثقافة بورجوازية حقه كبداية وسنكون سعداء جداً اذا استطعنا كبداية ان نستغني عن الانواع الاقل رقياً من الثقافة البرجوازية اي الثقافة البيروقراطية وثقافة الاقنان . ان التسرع والاجراءات المرتجلة هما اسوأ ما يمكن ان يفعل في الامور الثقافية » . ان المفتشية التي كان عليها ، بقيادة ابن قن جورجي (ستالين) ، ان تراقب جميع اعمال الادارة ، كانت هي نفسها تتخبط في (الثقافة البيروقراطية وثقافة الاقنان) . كانت هذه الضربة العلنية الاولى التي وجهها لينين ، اما وراء الستار فقد كان يعد لضربة قاصمة في المؤتمر الثاني عشر للحزب الذي تقرر عقده في نيسان ، واتفق مع تروتسكي ان يعملا لذلك معاً . في الخامس من آذار ، اي بعد يوم واحد من نشر (البرافدا) لنقد لينين لمفوضية ستالين ، اصطدم الرجلان اصطداماً عنيفاً فوجه لينين رسالة الى ستالين يخبره فيها انه (قطع) كل علاقاته الشخصية معه ، وفي اليوم التالي ٦ آذار ، ابرق لينين الى قادة المعارضة الجيورجية يعدهم انه سيدافع عن قضيتهم امام المؤتمر : « انا معكم في هذه المسألة قلباً وقالباً ، انني اشتعل غضباً على غرور واستعلاء اورجونيكيدز وتغاضي ستالين ودزيرجنسكي ». اتصل لينين

مرة ثانية بتروتسكي بصدد تكتيكاتهما المشتركة واصدر توجيهاته الى كامينيف الذي كان سيسافر الى تفليس في مهمة خاصة لتقصي الحقائق . في ٩ آذار ، وفي وسط كل هذه التحركات ، اصيب لينين بنوبة مرض ثالثة اقعدته ولم يشف منها ابداً .

لم يكن ستالين يعلم تحركات لينين بدقة ولكنه احس بالخطر فقد كان يعرف خصمه الرهيب حق المعرفة ليتيقن من ان حياته السياسية كلها في خطر ، وما دامت الحالة هذه فلا بد انه استقبل وفاة لينين بمشاعر مختلطة ، هذا اذا اردنا ان نقول القليل [1] ، فعدم وجود لينين ليقرعه ويوبخه امام المؤتمر وفر عليه سلفاً قدراً كبيراً من الاحراج . بخلاف ذلك كان لدى ستالين ما يجعله يتوقع هجوماً من تروتسكي الذي يمكن ان يكون ناقداً مراً خطراً او « بطلا بعضلات مزيفة » ، من هنا بدأ ستالين يعمل لتقييد تروتسكي فاقترح ، في اجتماع عقده المكتب السياسي لبحث ترتيبات عقد المؤتمر الذي كان اول مؤتمر في تاريخ الحزب يعقد بدون قيادة لينين ، ان يخاطب تروتسكي المؤتمر مندوباً عن اللجنة المركزية بصفته مقررها . كان المشهد الذي عقب ذلك ، كما وصفه تروتسكي ، مهزلة من الصعب ان نقرر اي الخصمين لعب الدور الاخبث فيها اذ رفض تروتسكي ان يقوم بتمثيل دور لينين المعتاد لئلا يظن الناس انه بذلك يدعي بحقه في القيادة حتى قبل موت لينين . كان تعليله هذا حقيقياً بالتأكيد ولكنه بعد ذلك مضى ليقترح ان يحل

---

(١) هذا اكثر ما يمكن قوله عن مشاعر ستالين تجاه وفاة لينين. يشير تروتسكي الى انه يحتمل ان يكون ستالين قد دس السم للينين ، ولكن هذا ، كما يقرر تروتسكي نفسه، ليس اكثر من مجرد تخمين، ولا يبدو هذا التخمين واقعياً بالنظر الى ان تروتسكي لم يرفع هذه التهمة في وجه ستالين ولم يشر اليها اطلاقاً خلال سني صراعه الطويل معه ، حتى عام ١٩٣٩ – ١٩٤٠ عندما ادلى بها للمرة الاولى (ليون تروتسكي : ستالين ص٣٧٢ – ٣٨٢) . من الواضح ان تروتسكي عكس تجربة التصفيات في اواخر الثلاثينات على عام ١٩٢٤ ، ولكن هذا يتعارض مع وصف تروتسكي نفسه لستالين . يقول تروتسكي « لو استطاع ستالين ان يتنبأ منذ البداية الى اين سيقوده صراعه مع التروتسكية ، لتوقف عند حده برغم احتمال انتصاره على جميع خصومه ، ولكنه لم يكن قادراً على ان يتنبأ بشيء (المصدر ذاته ص ٣٩٣) هكذا وحتى بعد ان اتهم تروتسكي ستالين بتسميم لينين، فانه لازال يعتبره اساساً رجلا اميناً قصير النظر، وهذا ما لا يتفق مع التهمة . هناك ايضاً حقيقة ان ستالين لم يتخلص من تروتسكي بطريقة مشابهة عندما كان هذا في روسيا ، مع انه كان بالتأكيد قادراً على ذلك اذا كان قادراً على اغتيال لينين . على اي حال ، يبدو ان قصة العلاقات بين ستالين ولينين في ذلك الوقت تبرر القول ان ستالين شعر بارتياح عظيم عند موت لينين .

ستالين محل لينين في مخاطبة المؤتمر بوصفه اميناً عاماً ، ولكن ستالين كان اكثر حذراً من ان يقبل ذلك ، وفي النهاية قبل زينوفييف ذلك الشرف الخطر .

في هذه الاثناء ابدى ستالين تواضعاً وتفانياً نحو لينين وكان ان حمته مثل هذه الادعاءات من الاتهامات الموجهة اليه ، فبعد ايام قلائل من اصابة لينين بنوبته المرضية الجديدة نشر ستالين مقاله في « الاستراتيجية والتكتيك الشيوعيين » مليئة باشارات التبجيل نحو القائد المريض (وهذه المقالة ليست الا عرضاً مكثفاً لوجهات نظر الرفيق لينين الاساسية) عندئذ لو تسربت قصة صدام لينين الحاد مع ستالين خارج الكرملين فانها ستبدو لمعظم الناس شيئاً لا يصدق . تابع ستالين تودده الغامض لتروتسكي ، ففي اجتماعات المكتب السياسي كان ستالين ليناً ومرناً يقبل اي تعديل على المقترحات التي كان يعدها للمؤتمر لدرجة انه كاد يرحب باية فرصة لتقديم تنازلات كلامية لمنتقديه . لذا اصبح الاقتراح الخاص بالسياسة تجاه القوميات الصغيرة ينم في النهاية عن اسلوب تروتسكي اكثر مما ينم عن اسلوب ستالين اذا كان جوهر الاقتراح يكمن في اعادة انذار « الموظفين السوفييت في المركز وفي المقاطعات » الذين رأوا بشوفينية ان اتحاد الجمهوريات السوفييتية ما هو الا بداية اعادة بناء « روسيا العظمى التي لا تتجزأ » . بالاضافة الى ذلك كان هناك ملحق للاقتراح ينص بصراحة على امكان الاستغناء عن اصلاح ستالين الدستوري ، وعلى امكان ترك شؤون الجمهوريات المستقلة لتتدبرها حكوماتها الناشئة الى ان تتعلم البيروقراطية الروسية ان تعطي « اعتباراً بروليتارياً واخوياً حقاً لحاجات ومطالب القوميات المتخلفة » لكن ستالين حصل ايضاً على ادانة « للقوميات المحلية » فكان ذلك منفذاً لتبرير سياساته الخاصة .

قال فريدريك الكبير مرة انه قد عقد اتفاقاً مع شعبه يتكلمون بموجبه على هواهم ويتصرف هو على هواه ، وكذلك كان ستالين راغباً ، في هذه المرحلة ، في ان يتكلم كما يريد تروتسكي ما دام باستطاعته ان يتصرف كما يريد هو . قرر المكتب السياسي ، بعد كل هذه التنازلات ، ان لا يعرض على المؤتمر ملاحظات لينين بصدد المسألة الجورجية على اساس انه ليس من الواضح ما الذي كان يريد لينين ان يفعله بهذه الملاحظات . كان هذا النصر التكتيكي الاول لستالين ، اما النصر الثاني فكان امتناع تروتسكي عن القيام بالهجوم الذي كان قد اعده على الامين العام . (لم يعضد اي من اعضاء المكتب السياسي المعارضة

الجورجية والمعارضة الاوكرانية علناً سوى بوخارين) . تريث تروتسكي املاً في شفاء لينين واعتقاداً منه بأن عملاً مشتركاً من جانبهما سيكون ابلغ اثراً من جهده الخاص ، اما ستالين فكان في هذه الاثناء قد بدأ يعمل .

* * *

في مثل هذا الوقت ، تشكل داخل المكتب السياسي ثلاثي ستالين وكامينيف وزينوفييف . كان تصميم هؤلاء الثلاثة المشترك على منع تروتسكي من خلافة لينين في قيادة الحزب هو اساس تضامنهم ، فكل منهم على حدة لا يستطيع مغالبة تروتسكي اما ثلاثتهم مجتمعين فقد كانوا يشكلون مزيجاً قوياً من الموهبة والتأثير . كان زينوفييف سياسي المجموعة ، الخطيب المفوه الذي يصل الى قلوب الجماهير ، اما كامينيف فقد كان صانع استراتيجية المجموعة ، عقلها المفكر ، وكان خبيراً بامور العقيدة تلك الامور التي لعبت فيما بعد دوراً فائقاً في الصراع على السلطة ، اما ستالين فكان صانع التكتيك في الثلاثي والقوة المنظمة (بكسر الظاء) فيه . كان الثلاثة فيما بينهم يسيطرون على الحزب وبالتالي على الحكومة فقد كان كامينيف مساعداً للينين ورئيساً لسوفييت موسكو وكان زينوفييف رئيساً لسوفييت بطرسبرغ التي سميت بعد ذلك بقليل لينينغراد ، اما ستالين فقد كان يسيطر على معظم المقاطعات ، وبالاضافة الى ذلك كان زينوفييف رئيساً للاممية الشيوعية التي كان تأثيرها في روسيا حينذاك قوياً لدرجة تجعل كل مدعٍ يبذل اقصى جهده للحصول على دعمها .

بالاضافة الى كل ما سبق ، كان الرجال الثلاثة يمثلون تقليد الحزب فارتباطهم المتواصل بالبلشفية يعود الى ايام انشقاق عام ١٩٠٣ ، ولذا كانت لهم الاقدمية ضمن القيادة . اما اعضاء المكتب السياسي الآخرين ، عدا تروتسكي ، فقد كانوا بوخارين الذي كان اصغر سناً بكثير ، وتومسكي قائد اتحادات العمال الذي كان حديث العهد بعضوية المكتب . كانت الاقدمية تحمل معها هالة الماضي البطولي الذي تميز بتفان لا يتزعزع للبلشفية ، ومن هنا اصبح الرجال الثلاثة يرفضون ان يتبعوا ذلك (المنشفي السابق) الذي اصبح يعتبر خليفة لينين بعد ارتباط بالحزب دام خمس سنين فقط . كان هذا هو الدافع الوحيد لتضامنهم ، الدافع الذي اجبرهم على ان يتصرفوا بتنسيق فيما بينهم ، فيما كان

اعضاء المكتب السياسي الآخرين كل يسير على هواه ، كان الثلاثي يحصل على الاغلبية بصورة اوتوماتيكية فقد كانت مقترحاتهم التي يتفقون عليها مسبقاً قبل كل اجتماع للمكتب السياسي تقر باستمرار ، اما اعضاء المكتب الباقين فقد فقدوا حرية الحركة بفعل النظام الداخلي للمكتب السياسي – فاي محاولة من جانبهم لبحث الخلافات الداخلية علناً سوف تظهر وكأنها عمل من اعمال الخيانة . لم يبق لدى ستالين ما يخشاه بعد ان اعد للامر عدته فلم يعد في مواجهته سوى معارضين من الدرجة الثانية لا يستطيعون ان يكسبوا الى جانبهم صلب اعضاء المؤتمر . هذا بالاضافة الى ان كثيراً من الاعضاء كانوا معتمدين في وجودهم السياسي على الامانة العامة . لقد اشار ستالين نفسه الى الدرجة التي وصل اليها هذا الاعتماد عندما وصف للمؤتمر الطريقة التي تعمل بها دائرة الملاك في الامانة العامة ولقد القى وصف ستالين هذا الضوء على الاسلوب الذي كان الحزب يؤمن به سيطرته على كل حقل من حقول الحياة العامة . قبل سنة واحدة كان ٢٧ ٪ فقط من قادة المناطق اتحادات العمال اعضاء في الحزب اما الآن فَ ٥٧ ٪ منهم شيوعيون . ازدادت النسبة المئوية للشيوعيين في ادارات التعاونيات من ٥ ٪ – ٥٠ ٪ ، اما في هيئات الاركان القيادية في القوات المسلحة فقد ازدادت من ١٦ ٪ الى ٢٤ ٪ .

وحصل الشيء ذاته في كل المؤسسات التي وصفها ستالين بأنها (حلقات وصل) تربط ما بين الحزب والشعب : لا يجب ان تترك مؤسسة عامة واحدة خارج نطاق شبكة حلقات الوصل هذه .

احتفظت دائرة الملاك بملفات ضخمة تحوي على تقارير مفصلة عن اعضاءالحزب الهامين، وذلك لكي تستطيع الامانة العامة تسيير القوى التي وضعت تحت امرتها . كان عدد اعضاء الحزب حينئذ ، وبعد التطهيرات الاولى ، يبلغ قرابة ٤٠٠,٠٠٠ عضو عادي وحوالي ٢٠,٠٠٠ رسمي ، في الوقت الذي استطاعت فيه دائرة الملاك اتمام تقارير عن القطاعات العليا والوسطى في الحزب بما فيها تقارير عن ١٣٠٠ من مديري الصناعات . كشف ستالين النقاب عن ان البحث والتدقيق لا زالا مستمرين ، وان اعداد التقارير يتم مع ايلاء اهمية خاصة للقدرات المهنية والتخصص ودرجة الاعتماد السياسي والتحمل الخلقي لكل عضو . كانت كل شائبة تشوب تاريخ اي عضو تسجل بجذافيرها . قال ستالين (ان من الضروري دراسة كل فرد دراسة شاملة) ، و (الا فان السياسة تفقد معناها

وتصبح بمجرد تخبط فارغ) . امتدت شبكة فروع دائرة الملاك الى جميع اطراف البلد اذ انه كان من واجبها ان تفي او تساعد في ايفاء اية متطلبات يتقدم بها الرسميون ، وكان لها الحق في ان تطلب منهم الانتقال من العاصمة الى اقاصي سيبريا او الى اية سفارة في الخارج ليقوموا باداء اية مهمة . قد تكون المهمة ، حتى ولو كانت مشرفة ، ستاراً لعقاب عضو مشاكس نوعاً ما . كان هناك القليل من الاشخاص ، مهما كانت مؤهلاتهم الذين يستطيعون ان يكونوا على ثقة من انه اذا ما اغضبت سياساتهم الامانة العامة فان الاخطاء التي ارتكبوها في الماضي لن تعلن ضدهم . على اي حال لم يكن ذلك الاسلوب قد دخل بعد طور الممارسة .

كان الامين العام مسؤولا ايضاً عن تعيينات القادة الحزبيين في المقاطعات . تكلم ستالين عن ذلك متظاهراً بالحزن فاخبر المؤتمر ان الوقت قد حان لكي تنتخب منظمات المقاطعات امناء سرها بنفسها بدلاً من الحصول عليهم بالتعيين من فوق ، ان الافتقار الى الرجال الاكفاء حاد جداً لسوء الحظ لدرجة ان الفروع المحلية كانت تزعج الامانة العامة طوال الوقت طالبة منها ان ترسل لها رجالاً من المركز . « ان تدريب القادة الحزبية مسألة غاية في الصعوبة فهي قد تستغرق خمس ، عشر او ما هو اكثر من السنين . ان قهر هذا البلد او ذاك بمساعدة سلاح فرسان الرفيق بوديني لاسهل بكثير من تدريب اثنين او ثلاثة قياديين من صفوف الحزب» . دافع ستالين عن لجان المقاطعات التي كثيراً ما هاجمتها الصحف واتهمتها بالسخف ، ودافع عن امناء سر اللجان الذين اختارهم ، واختلق الاعذار حتى لمؤامراتهم ودسائسهم ، التي كان لها وجهها الحسن كما كان لها وجهها السيء ، لانها ساعدت في بلورة (نواة متماسكة من القادة) . اي ان لجان المقاطعات ، بكلمات اخرى ، كانت صوراً مصغرة عن المكتب السياسي لكل منها ثلاثيها وثنائيها وفي كل منها جماعتها من المعارضين .

اعترف ستالين في المؤتمر للمرة الاولى علناً عن وجود الثلاثي واعلن تضامنه في وجه اية معارضة ، وذلك في معرض رده على احد النقاد . كانت هذه كلمات ستالين « امتدح اوسنسكي ستالين ، كما امتدح كامينيف ، ولكنه هاجم زينوفييف ظناً منه انه يكفي ازاحة احدهم في الوقت الحاضر الى ان يأتي دور الاخرين . كان هدفه ان يحطم النواة التي شكلت نفسها داخل اللجنة المركزية عبر سنين من العمل الشاق ... اجد لزاماً علي ان

احذره من انه يناطح صخرة اخشى ان يتحطم رأسه عليها » . وعندما وقف ناقد آخر ليطالب بمزيد من حرية النقاش داخل الحزب اجاب ستالين بان الحزب ليس جمعية المناظرات ، فروسيا محاطة « بذئاب الامبريالية ، ونقاش جميع المسائل الهامة في ٢٠٠٠٠ خلية حزبية معناه ان نكشف جميع اوراقنا امام العدو ». وانتهى ستالين، وسط تصفيق طويل حاد ، الى القول « انني لم ار منذ امد بعيد مؤتمراً موحداً وملهماً بفكرة واحدة كهذا المؤتمر ، وانني اذا شعر بالاسف لان الرفيق لينين ليس معنا فانني واثق من انه لو كان هنا لقال « لقد اعتنيت بهذا الحزب خمسة وعشرين عاماً حتى ترعرع واصبح عظيماً وقوياً » . لم يتكلم ستالين في اي مؤتمر سابق بلهجة تقارب لهجته هذه ثقة في النفس .

هزم المستاءون في المؤتمر فقد كانوا بلا قيادة ولا حول ، وبعد اشهر ثلاثة ، اي في آب ١٩٢٣ ، اصيب المكتب السياسي بالجزع نتيجة اندلاع كثير من الاضرابات في الصناعة . كان الاقتصاد الروسي قد بدأ يستعيد قواه بعد اعلان السياسة الاقتصادية الجديدة « نيب » عام ١٩٢١ ، ولكن العملية كانت طويلة ومضنية ، فالصناعة لا تزال قادرة على الوفاء بمعظم احتياجات البلد الاساسية كما كانت قد فشلت في تزويد الريف بالبضائع التي قد تغري الفلاحين على بيع الطعام . دفعت الاجور المنخفضة والبطالة والمجاعة الطبقة العاملة الى اليأس ، ولما كانت النقابات ترفض تبني مطالب العمال انفجر الاستياء في سلسلة من الاضرابات (غير الرسمية) ، وتسللت الحالة النفسية المشاكسة الى داخل الحزب الحاكم فاكتشفت جماعات معارضة سرية داخل صفوفه بعضها نصف منشفي اما البعض الآخر فبلشفي تماماً مكون من بقايا المعارضات التي منعت عام ١٩٢١ بالاضافة الى عناصر جديدة ، وكان المطلب الاساسي لهذه الجماعات هو حرية النقدداخل الحزب . طرد بعض المعارضين واعتقل بعضهم ، وكانت هذه هي البوادر الاولى لظهور حركات معارضة سرية فيما بين الشيوعيين ، ولم تكن هذه الحركات ، في هذه المرحلة تنسق اعمالها كما كانت تفتقر الى القيادة ولكن الثلاثي خشي ان يحدث اتصال بين منافسيهم وبين الجماعات المستاءة داخل صفوف الحزب .

واجه الثلاثي الازمة بطريقة متناقضة مع نفسها، فمن جهة وضعوا امام المكتب السياسي اقتراحاً بضرورة اعادة الديمقراطية وحرية النقاش الى اعضاء الحزب ، ومن

جهة أخرى حركوا البوليس السياسي لضرب جماعات المعارضة السرية . وجد البوليس ان البلشفيين العاديين كثيراً ما يرفضون التعاون معه في ملاحقة وتتبع جماعات المعارضة فطلب دزيرجنسكي من المكتب السياسي ان يخول البوليس اتخاذ اجراءات بحق البلشفيين غير المتعاونين . هنا دخل الصراع بين تروتسكي والثلاثي مرحلة جديدة ، اذ ان تروتسكي بدأ بمهاجمة الثلاثي دون ان يوضح ما اذا كان يعتقد ان دزيرجنسكي يجب ان يجاب الى طلبه ، واكد ان ما حدث لم يكن سوى عرضاً من اعراض الحالة العقلية للحزب ، من اعراض شعوره بالخيبة وفقدان الثقة في القيادة ، فحتى اثناء الحرب الاهلية « لم يصل نظام التعيين (من فوق) عشر الحد الذي وصل اليه الآن . لقد اصبح تعيين امناء سر لجان المقاطعات هو القاعدة » ، واعترف تروتسكي بان في مطلب ديمقراطية العمال بذرة ديماغوجية «بالنظر الى عدم توافق ديمقراطية عمالية بعيدة المدى مع نظام الديكتاتورية »، ولكن النظام الذي كان سائداً خلال الحرب الاهلية يجب ان يخلي مكانه «لمسؤولية اوسع واكثر حيوية للحزب » ، ولكن الذي حدث بدلاً من ذلك هو ان « البيروقراطية داخل الجهاز الحزبي وصلت حداً لم تصله من قبل وادى كبت التعبير العلني عن النقد والاستياء الى دفعهما الى السرية متخذين اشكالا خطرة لا يمكن السيطرة عليها » .

تملص الثلاثي من المسائل التي اثارها تروتسكي واتهموه بالضغينة والطموح الشخصي واهمال واجباته في الحكومة وما الى ذلك ، كما اتهموه بالسعي الى تثبيت نفسه كخليفة للينين . كانت هذه التهمة الاخيرة صحيحة الى حد ما ، ذلك ان الصراع على الخلافة كان كامناً في الموقف العام ، وبرغم ذلك كانت هذه التهمة كغيرها من التهم بعيدة عن المسألة الاساسية فالازمة كما شخصها تروتسكي كانت حقيقة واقعة .

في خضم تبادل التهم والهجوم هذا ، اصدر ستة واربعون شيوعياً لامعاً تصريحاً يتفق في جوهره مع انتقادات تروتسكي ، وكان بين الموقعين على هذا البيان : بياتاكوف ، الذي وصفه لينين في وصيته بانه احد اقدر قائدي الجيل الجديد ، وبريوبراجنسكي وسيربرياكوف ، العضوان السابقان في المكتب السياسي ، وانطونوف – اوفزينكو ، القائد العسكري لثورة اكتوبر ، وسميرنوف واوسنسكي وببنوف وسابرونوف وميرالوف ودروبنيس وغيرهم من القادة الممتازين في الحرب الاهلية ، وكان هؤلاء جميعاً رجال فكر واخلاق قاد بعضهم معارضات سابقة ضد لينين وتروتسكي معبرين عن حالة (الضيق)

التي انتابت الحزب عندما بدأت قيادته تضحي بالمبادىء الاولية في سبيل المصلحة ، كذلك اصبحوا في المرحلة الجديدة يعبرون عن نفس حالة (الضيق) التي كانت تتنامى باستمرار بقدر ما يتزايد انفصام الحزب عن بعض مبادئه الاولية . ليس هناك ما يشير بالتأكيد الى ان تروتسكي قد حرض مباشرة على كتابة البيان المشار اليه ، فقد كان حتى ذلك الوقت ماضياً في نزاعه مع الثلاثي داخل اسوار المكتب السياسي وكان الحزب بجمله يتصور ان تروتسكي يقف بكل عواطفه وراء السياسة الرسمية . هكذا كان تروتسكي في موقف لا يحسد عليه فهو ينوء تحت عبء مسؤولية سياسة كان يقف منها موقف المعارضة وهو لم يفعل شيئاً ليجمع وراءه في الوقت الملائم اولئك الذين كان من الممكن ان يدعموه .

في تشرين الاول قاد الانذار الذي احدثته الازمة الثلاثي الى وضع اقتراح يحبذ الاصلاح الديمقراطي في الحزب ، هكذا وافق ستالين ، كما فعل في المسألة الجيورجية ، على ان يقدم تنازلات كلامية لتروتسكي . اقر الاقتراح بالاجماع ولم يكن تروتسكي يملك الا ان يوافق عليه . وفي ٧ تشرين الاول اعلن زينوفييف رسمياً افتتاح مناقشة عامة في جميع المسائل التي تدور في الذهن البلشفي . عندئذ بدا وكأن حالة الحصار في الحزب قد رفعت اخيراً .

لم يكن هذا ما حصل في الحقيقة ، فلم تكن الحالة التي قامت المعارضة ضدها مجرد نتيجة لطموح او سوء نية ستالين او غيره من اعضاء الثلاثي ، بل كان لها جذور اعمق. لقد انقذت الثورة نفسها ببناء جهاز سياسي ضخم ، كما ان لامبالاة ، ان لم نقل عداء ، الجماهير دفعها الى الاعتماد المتزايد على الحكم القسري اكثر من الاعتماد على الحكم بالاقناع . من ذا الذي يستطيع اذن ان يقول متأكداً ان الوقت قد حان لعكس هذا كله ، للاستغناء عن الاعتماد على الجهاز السياسي او الحد منه والاعتماد على صدق واصالة الرأي الجماهيري ؟ من ذا الذي يستطيع ان يكون متأكداً من ان ذلك لا يهدد سلامة الثورة ؟ واذا كانت هناك حاجة لديمقراطية عمالية ، فهل يعني ذلك ان يسمح للمناشفة والثوريين الاجتماعيين بالعودة . كان معظم ناقدي ستالين ، بما فيهم تروتسكي ، موافقين على ان المناشفة يجب ان يبقوا مبعدين ، ففي نظرهم لم يحن الوقت بعد لرفع حالة الحصار في الجمهورية — لقد كانوا يريدون رفعها في الحزب فقط . ولكن هل كان

من الممكن ان يصبح الحزب جزيرة للحرية في وسط مجتمع حكم عليه ، سواء حقاً أو ظلماً ، ان يعيش تحت ظل حكم دكتاتوري ؟ عدا عن ذلك كله ، كان الجهاز الدكتاتوري الضخم قد اصبح ذا مصلحة راسخة في الحفاظ على النفس ، هذه المصلحة التي استطاع ان يجعلها متوافقة مع المصلحة العامة للثورة . كان طرفا النزاع واعيين لهذه المعضلة ولكن وعي طرف منهما، المعارضة، كان مصدر ضعف له بينما كان هذا الوعي مصدر قوة بالنسبة للطرف الآخر .

لم يطلب تروتسكي نتيجة لذلك اكثر من اصلاح محدود يُضمن بموجبه نوع من الليبرالية الادارية التي تنفذ من أعلى ، وكان حتى ذلك الحين حذراً ممتنعاً عن التوجه الى الرأي العام ، حتى الرأي الشيوعي ، ضد القادة ، ولكنه شعر بالحاجة الى ابراز الخلاف في العلن ، فأعطاه الافتتاح الرسمي للمناقشة العامة الفرصة لأن يفعل ذلك ، اي لأن يتوجه الى الرأي العام ضد القادة وان يفعل ذلك بتفويض رسمي من القادة انفسهم .

كان تناقض تروتسكي ، سواء كان هذا التناقض حقيقياً ام ظاهراً، نتيجة لاعتبارات اعمق ، فقد كان يعتقد بامكان قيام توازن بين الدكتاتورية والحرية ، وكان يعتقد بوجوب الحد او الاكثار من الواحدة منهما او الاخرى طبقاً للظروف ، وكان يأمل ان النظام يستطيع ان يعتمد اقل فأقل على القسر واكثر فأكثر على الدعم الاختياري وذلك مع تقدم الاشتراكية واستعادة الاقتصاد الروسي لقواه كما كان يظن ان الثورة يجب ان تستعيد شبابها وان الطلاق بين الثورة والجماهير امر مؤقت . أما الثلاثي وخاصة ستالين فقد كانوا اقل املاً بكثير .

نلمس هنا اصل معظم الخلافات بين التروتسكية والستالينية ، فكلتاهما تصر على اخلاصها للنظرة الماركسية وليس هناك ما يستدعي الشك في صدق اي منهما ، ذلك لأن ادعاء كل من الجناحين الارتباط بالماركسية واللينينية طبيعي كحلفان كل من البروتستنت والكاثوليك بالمسيحية ، وفي اي من الحالتين ، حالة البروتستنت والكاثوليك وحالة التروتسكية واللينينية ، لا تقدم ادعاءات الايمان المشترك اي دليل يفضي الى فهم العداء المستحكم بين الطرفين . ان ما يحدد ميول تروتسكي هو التفاؤل الثوري الحذر والحقيقي في آن معاً،هو الايمان بان الطبقات العاملة ستدعم الحكام اذا ما ساروا على الطريق الاشتراكي الصحيح . ان هذا الايمان متضمن في الفلسفة الماركسية وستالين لم يعارضه اطلاقاً في العلن

ولكن سياساته كانت تحتوي ما بين السطور على انكار عميق لجماهيرية الاشتراكية ، بل كانت تحتوي على ما هو أكثر من ذلك : على اتجاه متشائم في الاساس نحو الانسان والمجتمع . المتفائل الثوري يعلق اماله في النهاية على التوجه الصريح الى الجماهير حتى عندما يبدو الوضع مدعاة لليأس بينما لا يثق المتشائم الحاكم باولئك الذين يحكمهم . الشيوعي المتشائم يعامل عقيدته ذاتها على انها علم لا تتفتح مغالقه إلا على النخبة ، فهو يعتقد ان الطبقات العاملة غير قادرة في الحقيقة على قبولها إلا اذا لقنت لها قسراً . كل من المتشائم والمتفائل مؤمن بان الشيوعية هي العلاج الوحيد لشرور المجتمع الرأسمالي ، ولكن بينما المتفائل مقتنع بان المريض اذا ما اقنع سيطلب الدواء بنفسه ، نجد المتشائم ميالاً الى ان يأمر بالدواء دون تعليق اي اعتبار على رغبات المريض . على كل حال ، قد يكون هذا الكلام الآن سابقاً لأوانه .

بعد اسابيع قليلة من اعلان زينوفييف الرسمي لافتتاح المناظرة العامة تحدث ستالين الى شيوعيي كراسنايا بريسنيا ، وهي منطقة عمالية في موسكو ، عن معنى « الطريق الجديد » ، فاعترف بصراحة ان الحزب في حالة هياج وانه فقد الاتصال بالحالة النفسية للجماهير ، اما السبب في ذلك فقد عزاه ستالين الى المنظمات المحلية التي توقفت عن بحث المسائل العامة وتخلت عن الممارسة الانتخابية لتكتفي بالتعيين من أعلى ، وخطأ القيادة ، إذا كان للقيادة اخطاء ، يكمن في انها لم تكتشف هذه الاحوال غير الطبيعية في الوقت المناسب . ومضى ستالين يقول « لقد تخيلنا عام ١٩١٧ اننا سنبني كوميونة ، اننا سنبني اتحاداً للشغيلة ، واننا سنقضي على البيروقراطية قضاء مبرماً ... كان هذا هدفاً نبيلاً لا زال بعيد المنال ... ان ما نحتاجه لتحرير الدولة من العناصر البيروقراطية هو ... درجة عالية من المدنية ، حالة من الهدوء الشامل والامن السائد فيما حولنا حتى لا نحتاج الى كادرات عسكرية ضخمة ... تلك الكادرات التي تطبع بصمات اصابعها على المؤسسات الحكومية الاخرى »[1] . ان شرور الحالة الراهنة يمكن ان تعالج جزئياً بواسطة « الطريق الجديد » ، ولكن الحزب يجب ان يكون حذراً فلا يستغل الحرية المعطاة له . على الشيوعيين ان يعودا الى ممارسة الانتخاب ولكن القيود المفروضة على الانتخاب يجب

---

(١) كانت هذه بالطبع اشارة ضمنية صادقة الى ان اصل الشر لم يكن في الجهاز الحزبي وانما كان في الجيش اي في المجال الذي يدير تروتسكي شؤونه .

ان تبقى مطبقة ، يجب ان تكون هناك حرية تعبير ولكن الحدود المقررة قبلاً لهذه الحرية يجب ان لا تتخطى . كانت وخزة ما قاله ستالين تكمن في نهايته . مضى ستالين يقول : ان بعض النقاد يقتبسون تروتسكي لدعم اقوالهم ، ولست اعلم باي حق يفعلون ذلك فأنا اعرف تروتسكي (اصبحت لهجته هنا مليئة بالتبجيل) وأعرف انه يصر على ان الحزب ليس جمعية للمناظرات وانه يجب ان يكون هناك نظام في العمل . هكذا اعطى ستالين لمستمعيه انطباعاً بان تروتسكي يقف وراء سياسة الامانة العامة ، وإذا ما اخذنا الصدامات السابقة بين تروتسكي والثلاثي بعين الاعتبار تبين لنا ان ستالين قصد بكلماته اثارة تروتسكي ودفعه الى خوض مناقشة علنية .

بعد ثلاثة ايام ، في الخامس من كانون الاول رد تروتسكي برسالة مفتوحة الى شيوعيي كراسنايا بريسنيا ، فأبدى وقوفه الى جانب قرارات المكتب السياسي الاخيرة وحذر اعضاء الحزب بصرامة من ان هذه القرارات ستبقى حبراً على ورق إذا لم يمارسوا على القادة ضغطاً يقظاً متحفزاً . « ان بعض القادة ذوي الميول المحافظة (لم يذكر اسماء) يميلون الى التأكيد على دور الجهاز الحزبي والى التقليل من شأن النشاط الذاتي للحزب ويتخذون اتجاهاً نقدياً بصدد القرارات الاخيرة للمكتب السياسي . انهم يقولون ان اللجنة المركزية قد أخذت على عاتقها مهمة مستحيلة، وان القرارات الاخيرة سوف تؤدي الى اوهام خاطئة ونتائج سلبية » . لم يكن هذا بالطبع ما يراه تروتسكي فقد كان يعتقد ان الوقت قد ازف ليستعيد الحزب مبادرته وحكمه الذاتي اللذين تخلى عنهما لصالح الجهاز. « على الحزب ان يخضع الجهاز له وان لا يكف ولو للحظة واحدة عن ان يكون منظمة مركزية » . على الحزب ان يمارس حقه في النقد « بلا خشية وبلا محاباة ... وقبل كل شيء يجب ان تطهر قيادات الحزب من اولئك الذين يميلون الى سحب بطاقة العضو الحزبي عند اول بادرة من بوادر النقد أو الاعتراض أو الاحتجاج . يجب ان يبدأ « الطريق الجديد » بان يشعر الجهاز من اعلاه الى اسفله ان لا احد يجرؤ على ارهاب الحزب » . ثم توجه تروتسكي الى الشبيبة وحذر الحزب ، وكأنه يشير باصبعه الى الثلاثي (الحرس القديم للبلشفية) ، من ان « الحرس الثوري القديم » قد انتهى مراراً الى مهاوي البيروقراطية . لقد حدث ذلك بالنسبة الى قادة الاشتراكية الاصلاحية في اوروبا ويمكن ان يحدث ايضاً بالنسبة للبلاشفة . من هنا بدأ الجمهور يشعر بأول دلائل الانشقاق في المكتب السياسي .

قبـــل الثلاثي التحدي فوراً واقترح زينوفييف المتهور ان يلقى القبض على تروتسكي حالاً ، فعارض ستالين الحذر هذه الخطوة لمعرفته بشعبية تروتسكي العارمة . من الغريب ان ستالين ، في هذه المرحلة وحتى في المراحل التي تلت ، كان يبذل قصارى جهده ليبدو اكثر اعضاء الثلاثي اعتدالاً واتزاناً ومرونة . فقد كانت انتقاداته لتروتسكي اقل عدوانية من انتقادات زينوفييف وكامينيف . كان ستالين يعرف حق المعرفة ان الحزب ينفر من التقليل من اهمية تروتسكي ولذا ترك لشركائه ان يستعملوا اكثر اشكال السباب فظاظـة مما كان سيؤدي حتماً الى زعزعة هيبتهم وزعزعة هيبة تروتسكي في الوقت نفسه . أما هو فقد ركز اهتمامه على مهام اقل علانية كترويض الجهاز الحزبي . كان ستالين متلهفـــاً على الحصول على ادانة رسمية للمعارضة من مؤتمر شيوعي عـام ، ولا عجب في ذلك فقد كان معتاداً على تعليق اهمية كبرى على المناحي التكتيكية في الحياة الحزبية . ولـكن وضع النزاع امام مؤتمر منتخب كان لا يزال خطراً جداً فقرر ستالين ان يدعو مؤتمراً وطنيـاً تمثل فيه الفروع المحلية بامناء سرها ورسمييها والمعينين فيها من قبل الامانة العامة ، ومؤتمر كهذا يمكن الاعتماد عليه لدعم الثلاثي ولا بد ان تترك ادانة مثل هـــذا المؤتمر لتروتسكي اثراً على بقية الحزب . تقرر عقد هذا المؤتمر في كانون الثاني عام ١٩٢٤ .

في هذه الاثناء وبالتحديد في اواخر كانون الاول دخـــل ستالين علناً العراك المحتدم الذي كان موجهـــاً بالدرجة الاولى ضد المعارضين المتطرفين وفقط بالدرجة الثانية ضد تروتسكي . كانت حجة ستالين محفوفة بالمغالطات ، ولكنها برغم ذلك كانت مؤثرة جداً إذ انها عرت تناقضات وتحفظات المعارضة العقلية . هل تطالب المعارضة بالغـاء القواعد التي وضعها لينين والـتي تمنع قيام اجنحة أو تكتلات داخل الحزب ؟ نعم أم لا ؟ كانت هذه بالضبط النقلة التي لا تستطيـع المعارضة ان تجيب عليها ايجاباً أو نفياً بطريقة حاسمة . مهما يـكن من أمر ، كان تروتسكي في موقف متناقض مع نفسه : فهو يريد ان تطبق قواعد لينين التي ثنى عليها هو نفسه ، ولكنه في الوقت ذاته يدعي ان هذه القواعد قد اسيء استعمالهـــا . ركز ستالين نيرانه على هذه النقطة بالذات مجبراً تروتسكي على ان يتراجع ، ان يتذبذب ، ان يتخلى عن مواقعه الواحد بعد الآخر ، وان يحاول استعـادة الارض المسلوبة من تحت قدميه ولكن بعد ان يفوت الاوان ويكون الاضطراب قـــد حل بأتباعه .

* * *

بدأت في هذه المناظرة ، وبينما كان لينين على فراش الموت ، عبادة شخصية لينين ، فقد اصبحت المطالبة ، مباشرة أو غير مباشرة ، بتغيير أي اجراء اوحى به لينين اخلالاً بقانون غير مكتوب . عندما اعلن بريوبراجنسكي ان الحزب يتوق الى استعـــادة حرية النقاش «اللينينية» التي كان يتمتع بها عام ١٩٢٠ خلال الخلافات حول بريست ليتوفسك، تصدى له ستالين مؤكداً ان عادات وتقاليد تلك الفترة لا تستحق التقليد ، وتساءل : ألم يضع بريوبراجنسكي وأمثاله من الشيوعيين اليساريين خطة لاقصاء حكومة لينين وابدالها بحكومة من لونهم ؟ . كان هذا صحيحاً بصورة جزئية ولكن لم يكن ليخطر ببال أحد خلال نزاع برست لتوفسك Brest Litovsk وحتى فـــيما بعد ، ان عملاً كهذا يستدعي التقريع ، فقد حصل الشيوعيون اليساريون ، المعارضون للسلم مع المانيا ، في وقت مـــا على اغلبية مقاعد اللجنة المركزية وكان من الطبيعي ان يبحثوا فـــيما بينهم ما إذا كان عليهم ان يستولوا على الحكم ويتحملوا مسؤولية تسيير امور حرب كان لينين يعارضها ، ولم يمنع هذا الذي حصل لينين من التعاون معهم عندمـــا انتهى نزاع بريست ليتوفسك . أما الآن وفي عام ١٩٢٣ فان ما حصل عام ١٩١٨ يبدو وكأنه تمرد دنيء وعمل من اعمال التجديف والنكران ، فاقترح ستالين ان يأخذ الحزب جانب الحيطة والحذر من اولئك الذين يدعون الى العودة الى ممارسات مهلكة كهذه .

كان موقف تروتسكي ضعيفاً بالنظر الى موجة عبـــادة شخصية لينين ، فقد حذر تروتسكي الحزب من خطر «تردي» البلاشفة القدامى واستعمل في هذا المجال ضمير المتكلم « نحن البلاشفة القدماء » وكان استعماله هذا مبرراً إذ ان ٩٠ ٪ من اعضاء الحزب انضموا اليه فقط بعد ثورة اكتوبر . أجاب ستالين بسخريـــة « علي ان احمي تروتسكي من تروتسكي » ، فهو بالتأكيد ليس من الحرس القديم الذي يدعي انه بدأ ينحط ويتردى، ومضى ستالين يقول : ان تردي وانحطـــاط البلاشفة القدماء ليس إلا وهمـــاً في مخيلة تروتسكي. نعم ان هناك عناصر تحلل في الحزب ولكن هذه العناصر مكونة من البلاشفة الذين انضموا الى صفوف الحزب ولكنهم بقوا غرباء عن روحيته . لم يكن هـــذا الغمز بحاجة الى توضيح .

لم تكن المناظرة بكل ما تفرع عنهـــا سوى مجرد اعداد للفصل الحاسم في المؤتمـــر القـــادم . كانت الامانة العامة خلال ذلك تضعف المعارضة ببعثرة زعمائها ، ولم يكن تروتسكي ، بفعل مرضه وتشوشه نتيجة تحفظاته العقلية ، نشيطاً ، أما راكوفسكي

فقد وجد ان الحاجة اليه ماسة في البعثة السوفييتية الموجودة في لندن لانشاء علاقات دبلوماسية بين بريطانيا وروسيا في شباط ١٩٢٤ ، كذلك ارسل كريستنكي في مهمة دبلوماسية الى المانيا ويوف الى الصين . لم تستطع المعارضة الاحتجاج على هذه التعيينات إذ بامكان الامانة العامة تبريرها على انها مجرد استفادة من مواهب المعينين . ولم يكن باستطاعة هؤلاء الدبلوماسيين المعينين حديثاً التدخل في الشؤون الداخلية للحزب . كانت اوكرانيا قلعة للمعارضة تحت قيادة راكسوفسكي فأرسلت الامانة العامة الاداري القاسي وعامل الجلود السابق لازار كاغانوفيتش لينظف عش الزنابير . وفي موسكو منعت مقالات تروتسكي ونشراته من التداول فلم يبق لدى اعضاء الحزب المترددين والذين يعتريهم الشك أية فرصة للتعرف على وجهتي النظر معاً ، كذلك لم يترك لدى المسؤولين الحزبيين في المقاطعات أي مجال للشك في رغبات الثلاثي . بذلك كله اصبحت نتيجة المؤتمر مقررة سلفاً .

ابدى ستالين في المؤتمر وجهات نظره بطريقة اكثر فظاظة من ذي قبل : « لن اقول سوى هذا ، ببساطة لن يكون هناك اية ديمقراطية متطورة ، أية ديمقراطية كاملة » . لقد بدأ الناس ينسون « ان هناك لحظات يستحيل فيها تبني مثل هذه الديمقراطية ويصبح ذلك ضرباً من السخف » حتى ولو كان هذا التبني ضمن الحدود الضيقة للحزب . ان الظروف التي يمكن ان تعمل في ظلها ديمقراطية عمالية هي الازدهار الاقتصادي والامن العسكري والعضوية المتمدينة ، ونحن لا نزال مفتقرين الى هذه الظروف . ان من الخطأ اتهام الحزب بالبيروقراطية على الرغم من انه ليس ديمقراطياً . كانت حجة ستالين غير واضحة المعالم فالصورة التي رسمها للتنظيم ، الذي لم يكن ديمقراطياً ولا بيروقراطياً ، كانت مشوشة ، ومع ذلك فقد كانت قوة حجته تكمن بالضبط في طابعها المشوش الذي حسب بدقة لارضاء العقول المترددة . مضى ستالين ليعدد بعد ذلك « ستة اخطاء » ارتكبها تروتسكي . صوت تروتسكي في المكتب السياسي الى جانب « الطريق الجديد » ولكنه خرج لينتقد المكتب السياسي — واضعاً نفسه فوق زملائه ومتخذاً دور السوبرمان . رفض تروتسكي ان يقول بصراحة ما إذا كان يقف الى جانب اللجنة المركزية أم الى جانب المعارضة . ألب تروتسكي « ابو البيروقراطيين » الحزب على الجهاز الحزبي وألب الشبيبة على الحزب . جعل تروتسكي من نفسه اللسان الناطق باسم البرجوازية الصغيرة بينما كان القادة الآخرون ينطقون باسم البروليتاريا . لام تروتسكي نظام الحزب

الداخلي على انـــه السبب في ظهور الاجنحة والتكتلات السريــة داخل الحزب ، بينما الماركسيون يعرفون ان تعدد هذه الجماعات يعكس مصالح طبقية متباينة . يجب ان يكون الحزب كتلة واحدة ، حزبـــاً من الفولاذ ، حزباً متراصاً متناغماً . يجب ان تفتح ابواب الحزب لمئتي الف عامل « من قلب المصانع » لانهم سوف يحملون معهم الى الحزب روحية بروليتارية اصيلة محصنة ضد الفردية البورجوازية الصغيرة — كان هـــذا ما دعي بالاستدعاء اللينيني . وفي النهاية ، اثار ستالين المشاعر بان اعلن فقرة سرية من «مقترحات لينين الى المؤتمر العاشر » ، تلك الفقرة التي تسمح للجنة المركزية ان تفصل اي عضو من اعضائها إذا وجد مذنباً بتهمة النشاط الانشقاقي ، ثم طلب ستالين الى المؤتمر ان يعيد اقرار هذه الفقرة.قبلت اقتراحات ستالين جميعاً وأدان المؤتمر المعارضة على انها «انحراف بورجوازي صغير عن اللينينية » .

* * *

بعد ثلاثـــة ايام ، في ٢١ كانون الثاني ١٩٢٤ ، مات لينين ، وعلى الرغم من التعاسة وخيبة الامل التي سادت في السنين الاخيرة فقد بكاه شعبه كما لم يبك سوى القليل من القادة في التاريخ ، ولا غرو في ذلك فقد كان اسمه يرتبط في مخيلة الجماهير بوعد الثورة العظيم : مجتمع الرجال الاحرار المتساويين . بدأت الجماهير الباكية تنقل عيونهـــا بقلق فيما بين حواريي لينين: من منهم سيأخذ مكانه على رأس الدولة ؟ على الرغم من المؤامرات الحديثة العهد فقد استقرت افكار الكثيرين على تروتسكي ولكنه لم يظهر عند نعش لينين حيــنما قامت الجماهير بزيارة زعيمهـــا الراحل للمرة الأخيرة ، كما لم يظهر في الاجتماعات التذكارية العديدة التي عقدت . لقد ذهب تروتسكي الى القوقاز ليستشفي من مرضه ، وقد فشل في الوصول الى موسكو في وقت الجنازة ، لأن ستالين اخبره بتاريخ مغلوط لهـــا ، حسب رواية تروتسكي نفسه. يمكن القول ان هذا الحادث لا يزن على ميزان التاريخ سوى القليل ، ولكن الحقيقة هي ان الثلاثي ، في غياب تروتسكي ، فرضوا انفسهم على مخيلة الجماهير التي اثارتها الاحتفالات الجنائزية الطويلة المحــكمة ، فقد سلطت المشاهد التي احكمت بدقـــة الانوار على الثلاثي وهم يقومون بمهمة توديع الزعيم الراحل . ان « سيرة » ستالين ذاته تروي لنا القصة بالتفصيل يوماً بيوم بل ساعة بساعة : —

٢١ كانون الثاني ٥٠ : ٦ صباحاً يموت لينين ٣٠ : ٩ صباحاً يصل ستالين وبقية اعضاء المكتب السياسي الى غوركي .

٢٢ كانون الثاني ستالين يشترك في تحرير بيان « الى جميع شغيلة الاتحاد السوفياتي » ، ويرسل رسائل الى فروع الحزب في المقاطعات يدعوهم فيها ان يحتفظوا بايمانهم بتعاليم الزعيم الراحل .

٢٣ كانون الثاني ٠٠ : ٩ صباحاً ستالين والقادة الآخرون يحملون نعش لينين من بيته في غوركي .

٣٠ : ١ بعد الظهر يصل ستالين ورفاقه حاملين النعش الى محطة بافيلتسكي ومن ثم الى بيت اتحادات العمال في موسكو حيث يطرحون النعش ليبقى في مكانه مدة اربعة ايام .

١٠ : ٦ بعد الظهر يقف ستالين في حرس الشرف على النعش .

٢٥ كانون الثاني يدعو ستالين الحزب الى جمع تذكارات لينين لوضعها في معهد لينين المنشأ حديثاً .

٢٦ كانون الثاني ٢٤ : ٨ بعد الظهر يقرأ ستالين قسم الولاء للينين في المؤتمر الثاني لعموم السوفييت .

٢٧ كانون الثاني ٠٠ : ٨ صباحاً يأخذ ستالين مكانه بين حرس الشرف على النعش .

٣٠ : ٨ صباحاً ينتقل ستالين ليقف على رأس النعش .

٠٠ : ٩ صباحاً ستالين والآخرون يحملون النعش خارج دار اتحادات العمال .

٠٠ : ٤ مساءً الجنازة تنتهي في الساحة الحمراء — ستالين والآخرون يحملون النعش الى دهليز الضريح المقبل .

٢٨ كانون الثاني ستالين يتكلم في اجتماع تذكاري .

كانت الاحتفالات الطويلة المعقدة خروجاً فاضحاً على نظرة لينين واسلوبه . فقد كانت رصانته وبغضه للمظاهر مضرباً المثل . لقد كانت الاحتفالات معدة لتحريك مخيلة شعب

بدائي نصف – شرقي واثارة مشاعر تألية لينين ، وكذلك كان ضريح الساحة الحمراء الذي وضع فيه جسد لينين المحنط برغم احتجـــاج ارملته وسخط كثير من المفكرين البلاشفة . أمـــا بالنسبة لعشرات الالاف من الفلاحين ، الذين كبتت الثورة احاسيسهم الدينية ، فقد اصبح الضريح محجاً ومكة عجيبة لعقيدة ملحدة تحتاج الى نبي وقديسين الى اضرحة وايقونات مقدســـة . عندما كانت المسيحية الاصيلة تنتشر في الاقطار الوثنية امتصت بعض عناصر المعتقدات والطقوس الوثنية ومزجتها مع المعتقد المسيحي ، والآن يحصل الشيء ذاته بالنسبة للماركسية ، نتاج الفـكر الاوروبي الغربي ، فهي تمتص بعض عناصر التقاليد البيزنطية المتـأصلة في روسيا وبعض عناصر اسلوب الروم الارثوذكس . كانت هذه العملية حتمية فالافكار الماركسية المطلقة لا يمكن ان توجد بصورة نقية إلا في عقول المفكرين الثوريين وعلى الاخص اولئك الذين عاشوا كمنفيين في اوروبا الغربية . أما الآن ، وبعد ان ضربت العقيدة الماركسية جذورهـــا في الارض الروسية وسيطرت على تفكيرات عظيمة ، كان لا بد لها إلا ان تمتص بدورها المناخ الروحي لهذه الامة بتقاليدها وعاداتها . كانت هذه العملية تسير ببطء في الخفاء ولم يكن هناك من استطاع النفـاذ الى اعماق هذه المسألة وشعر بالضيق منها اكثر من لينين،فجاء موته ليكون التطهير الارسطي الذي اراح الكثيرين من حوارييه من عبء كوابح الماركسية النقية ، وليكشف الدرجة التي وصل اليها التمازج المتبادل بين العقيدة والبيئة .

قـــد يكون من الطبيعي ان يصبح ستالين ، وهو الذي قضى سني حياته الاولى في مدرسة روم ارثوذكس ، الوكيـل الاول لتغيير كهذا وان يعبر عنه اصدق تعبير . ان القسم الذي اداه للينين يبقى الى يومنا هذا اصدق كشف عن حالته العقلية ، ففيه امتزج اسلوب البيان الشيوعي امتزاجاً غريباً باسلوب كتاب الصلوات الارثوذكسي، كما تزاوجت المصطلحات الماركسية مع الكلمات السلافية القديمة فبدت نداءاته الثورية وكأنها ابتهال ديني : –

ايها الرفاق ، اننا نحن الشيوعيين ذوو طبيعة خاصة ، لقد صنعنا من عجينة غريبة ... ليس هناك ما هو انبل ولا ارفع من لقب عضو في الحزب الذي كان الرفيق لينين مؤسسه وقائده . لا يستطيع اي كان ان يصبح عضواً في حزب كهذا ، لا يستطيع أي كان ان يتحمل مصاعب ومشاق العضوية في حزب كهذا. ابنـــاء الطبقة العاملة ، ابناء التعاسة والصراع ، ابناء الحرمان الذي لا يصدق

والاحتمال البطولي ، هم الذين ، قبل غيرهم ، يجب ان يكونوا اعضـــاء في حزب كهذا .

عندما رحل عنا الرفيق لينين امرنا أن نرفع عالياً لقب عضو في الحزب وان نحفظه نقياً خالصاً . اننا نأخذ على انفسنا عهداً لك ايها الرفيق لينين ان نطيـع بشرف امرك هذا الذي امرت .

عندما رحل عنا الرفيق لينين ، امرنا ان نحرس وحدة الحزب كما يحرس بؤبؤ العين . اننا نأخذ على انفسنا عهداً لك ايها الرفيق لينين ان نطيـع بشرف امرك هذا الذي امرت .

عندما رحل عنا الرفيق لينين،امرنا ان نحمي ونقوي دكتاتورية البروليتاريا. اننا نأخذ على انفسنا عهداً لك ايها الرفيق لينين انـــا لن نوفر ما وسعنا من قوة لنطيع بشرف امرك هذا الذي امرت .

عندما رحل عنا الرفيق لينين ، امرنا ان ندعم بكل قوة تحـــالف العمال والفلاحين . اننا نأخذ على انفسنا عهداً لك ايها الرفيق لينين ان نطيع بشرف امرك هذا الذي امرت .

عندما رحل عنا الرفيق لينـين ، امرنا ان ندعم ونوسع اتحاد الجمهوريات . اننا نأخذ على انفسنا عهداً لك ايها الرفيق لينين ان نطيـع بشرف امرك هـــذا الذي إمرت .

عندما رحل عنـــا الرفيق لينين ، امرنا ان نحتفظ بايماننـــا بمبادىء الاممية الشيوعية . اننا نأخذ على انفسنا عهداً لك ايها الرفيق لينين اننا سنضحي بارواحنا في سبيل تدعيم وتوسيـع تحالف عمال العالم الاجمع - الاممية الشيوعية .

قـــد يبدو هذا القسم نصف - الصوفي نفاقاً خالصاً بالنظر الى ما حدث مؤخراً بين لينين وستالين ، لكن نتيجة كهذه تبسط المسألة كثيراً على الرغـــم من ان وداع ستالين المؤثر للزعيم الراحل كان مشوباً بشيء من عدم الاخلاص . ومع ذلك فقد كان ستالـــين بدون شك مخلصاً في اعتقاده انلهالحق في اعتبار نفسه تلميذ لينين الوفي فالتزامه بالبلشفية دام سنوات عشرين وعضويته في لجان لينين المركزية استمرت سنوات عشر ، كان خلال

اكثر من نصفها ، خلال سنوات ست صعبة وعاصفة ، يعمل تحت امرة لينين مباشرة باخلاص وتفان ونشاط . فهل يستطيع صدامها العنيف القصير ان يطمس معالم ارتباطهما الطويل الوثيق ؟ كان ستالين لا يزال يشعر ان من حقه اعتبار صدامه مع لينين مجرد سوء تفاهم كان سيزول لو قدر للينين ان يشفى برضى الطرفين المتبادل ، كما كان بالتأكيد مقتنعاً بان تعلقه بصلب العقيدة التي وضعها لينين لا يرقى اليه الشك . على اي حال ، لم يكن ستالين يشعر ابداً ان تأليه لينين وعلى الاخص قسمه نصف – الديني له بدا وكأنه سخرية بلينين الحقيقي [١] .

شرح ستالين اللينينية ، كما كان يفهمها ، للشبيبة الشيوعية ولطلبة جامعة سفردلوف حيث كان الحزب يعد نخبته المفكرة الجديدة ، فكان ما قاله في هذا الموضوع خالياً من الاصالة ومملاً جداً لدرجة انه لا يستأهل التلخيص . لكن الجانب الاصيل الوحيد من شرحه هذا كان الشكل الذي وضعه فيه ، فقد قدم لمستمعيه نظرية لينين ، التي كانت اساساً نظرية سوسيولوجية تجريبية ، على انها متوالية من القواعد والوصفات الاستراتيجية والتكتيكية المسطحة الموضوعة لخلاص الجنس البشري ، وكان في تعداده لهذه القواعد والوصفات دقيقاً دقة ماسك الدفاتر . صنف ستالين اللينينية وشكلها باسلوب يتسم بالبساطة والوضوح الزائفين ، ذلك الاسلوب الذي يجد صدى حسناً لدى العقول التي تملك القليل فقط من المران السوسيولوجي ، وكان ستالين يدعم كل حجة من حججه بقول من اقوال لينين يكون احياناً خارجاً عن الموضوع وأحياناً اخرى منتزعاً من القرينة ، تماماً بنفس الطريقة التي كان يدعم بها مفكرو القرون الوسطى تخميناتهم بشواهد من الكتاب المقدس . حقاً ، لقد اعتاد لينين دعم حججه باشارات متعددة لماركس ولكن ستالين حمل هذا الاسلوب بعيداً الى درجة السخف حتى اصبح بامكانه في النهاية ان يقول على طريقة ارخميدس « اعطني مقتطفاً من اقوال لينين وأنا احرك لك الارض » .

اثناء ذلك ، لم يكن ستالين ، كما لم يكن الحزب ، على علم بالنص الذي كان يمكن ان

---

(١) كان لينين يسخر بحرارة من اية محاولة لادخال ممارسات طقوسية الى الاشتراكية . سئل مرة ما اذا كان من المناسب ان يقول الاشتراكي ان الاشتراكية دينه ، فأجاب « اذا قالها عامل عادي فهي لا تعني اكثر من انه تخلى عن دينه لصالح الاشتراكية ، اما اذا اعتبر قائد اشتراكي او مفكر ان الاشتراكية دينه فهو يتخلى عن الاشتراكية لصالح الدين » .

يزحزح الارض من تحت اقدام الامين العـام ــ وصية لينين ــ وبقي الامر كذلك حتى ايار ، أي بعد اربعة اشهر من موت لينين ، عندما قرئت الوصية في اجتماع عقدته اللجنة المركزية بكامل اعضائها لتقرير ما إذا كانت الوصية ستعلن في مؤتمر الحزب القـــادم . يصف احد شهود العيـــان المشهد بقوله « شل الاحراج الرهيب جميع الحاضرين ، وبدا ستالين الجالس على درجات المنبر صغيراً وتعيساً ، لقد تفحصته بعناية ، كان واضحاً انه يعلم ان مصيره معلق على الرغم من ضبطه لنفسه واصطناعه الهدوء » . كان عـــدم اخذ وصية لينين بعين الاعتبـــار يبدو وكأنه تدنيس للمقدسات في جو سادت فيه عبادة اللينينية . في هذه اللحظات المصيرية بالنسبة لستالين هب زينوفييف لنجدتـه فخاطب الاجتماع قـائلاً « ايها الرفاق ... ان كل كلمة من كلمات اليتش (لينين) قانون لنا ... لقد قطعنا على انفسنا عهداً ان نطيع كل ما يأمرنا به لينين ، وانتم تعلمون جيداً اننـــا سنحفظ هذا العهد ». (طأطأ كثير من الحضور رؤوسهم ــ انهم لا يستطيعون ان يطيلوا النظر الى الممثل القديم) . « لكننا ، ايها الرفاق ، نشعر بالسعادة إذ نقول ان مخـاوف لينين قد ثبت بطلانها بصدد موضوع واحد ، اقصد موضوع الامين العام . لقـد شهدتم جميعاً تعاوننا المتناغم في الاشهر القليلة الاخيرة ولا بد انكم مثلي تشعرون بالسعادة لثبوت بطلان مخاوف لينين » ، واتبع كامينيف ذلك بان اقترح على اللجنة المركزية ابقـــاء ستالين في منصبه ، ولكن إذا كان ذلك سيحصل فمن المستحسن ان لا توضع وصية لينين امام مؤتمر الحزب . احتجت كروبسكايا على كبت وصية زوجها ، ولكن عبثاً ، أمـــا تروتسكي ، الذي كان حاضراً ، فقد كان اكثر اباء من ان يتدخل في امر يؤثر على مركزه هو ايضاً ، فآثر الصمت معبراً بالايماء عن اشمئزازه من المشهد كله . فاز اقتراح زينوفييف بعدم نشر الوصية والاكتفاء بابلاغ مضمونها الى بعض اعضاء المؤتمر المختارين ، بأغلبيـــة اربعين صوتاً مقابل عشرة اصوات ، وعندئذٍ اصبح بامـكان ستالين ان يمسح عن جبهته العرق البارد المتصبب فقد عاد يحتل مركز القوة بثبات وحتى النهاية .

اجتاز تضامن الثلاثي هذا الامتحان القاسي لأن زينوفييف وكامينيف كانا مقتنعين ان ليس هنـــاك ما يجعلهما يخشيان ستالين خشيتهما لتروتسكي ، فزينوفييف كان لا يزال اقدم اعضاء الثلاثي وأكثرهم شعبية ، وكامينيف كان واعياً لتفوقه الفكري على شركائه وكلاهما كان ينظر الى ستالين على انه ساعِدٌ لهما ، وعلى الرغـــم من انهما كان يشعران احياناً بالضيق من مسحة المشاكسة التي تشوب شخصيته ، فان اياً منهما لم يساوره الشك

في ان ستالين يطمح الى ان يصبح خليفة لينين الاوحد ، كذلك لم يساور أي شك من هذا النوع الحزب ككل . من جهة اخرى ، لم يكن من الصعب اثارة شكوك الحزب في تروتسكي فبدأ عملاء الثلاثي يهمسون ان تروتسكي قد يصبح دانتون آخر ، أو بونابرت الثورة الروسي . كانت حملة الهمس هذه فعالة ، ذلك ان الحزب اعتاد منذ البداية ان يأخذ العبر من الثورة الفرنسية العظيمة ، كما كان دائماً يقر ان التاريخ يمكن ان يعيد نفسه وان حكومة مديرين [1] أو مغتصباً فرداً يمكن ان يعتلي ظهر الثورة ليصل الى السلطة ، كما كان الحزب يعتقد ان المغتصب الروسي سوف يكون ، كمثيله الفرنسي ، حائزاً على ذكاء لامع وشهرة اسطورية اكتسبها خلال المعارك . هكذا كان قناع بونابرت يبدو ملائماً جداً لوجه تروتسكي ، وفي الحقيقة كان يمكن ان يناسب هذا القناع أياً من الاشخاص عدا ستالين ، وفي هذا كان يكمن بعض قوته .

كان الغموض ، الذي يمكن ان يكون تحت ظروف أخرى عائقاً لرجل يطمح الى السلطة ، مزية هامة لستالين ، فقد تربى الحزب على الشك « بالفردية البورجوازية » وعلى النضال من اجل الجماعية ، ولم يكن هناك من القادة من يبدو اكثر حصانة ضد الفردية واكثر تعبيراً عن الجماعية من ستالين ، فقد كان ما يلفت النظر في الامين العام هو ان لا شيء فيه ملفت للنظر . كانت شخصية ستالين اللاشخصانية تبدو الوسط الامثل للتعبير عن القوى المجهولة للحزب والطبقة ، فهي تعكس تواضعاً لا حدود له ، وكان باستطاعة الموظف أو رجل الحزب العادي ان يصل اليه بسهولة اكثر من غيره من القادة ، وفوق ذلك نمّا ستالين بحرص وصبر اتصالاته بالناس الذين كانوا بطريقة أو باخرى يصيغون الشهرات أو يدمرونها كامناء سر لجان المقاطعات والكتاب المقذعين المحبوبين والزوار الاجانب ، كما كان صموتاً متملكاً من فن الاصغاء الصبور للاخرين ، فقد كان يرى احياناً في زاوية احد السلالم يدخن غليونه منصتاً بلا حراك مدة ساعة او ساعتين لمتحدث غاضب ولم يكن ليقطع حبل صمته إلا ليسأل بعض الاسئلة . كانت هذه احدى مزايا ستالين التي كانت تظهره بمظهر المفتقر تماماً الى الانانية ، ولم يكن المتحدث ، الذي

---

(١) ـ المترجم : اشارة الى حكومة المديرين (Directory Cap. D.) التي حكمت فرنسا من ١٧٩٥ ـ ١٧٩٩ .

يسر لحصوله على فرصة ينفس فيها عن متاعبه ، ليفطن الى ان ستالين لم يبد رأيه خلال الحديث ، فستالين ، كما يقول سكرتيره « لم يكن يأتمن احداً على ما يدور في ذهنه ونادراً ما كان يشارك مقربيه آراءه وانطباعاته . كان ستالين يملك قدراً كبيراً من موهبة الصمت وكان في هذا فريداً في بلد يتكلم فيه الجميع كثيراً » .

كانت حياة ستالين الخاصة ايضاً فوق الشبهات والانتقادات يقول باجانوف « لم يكن هذا السياسي المتقد يملك أية معايب أخرى فهو لا يحب لا المال ولا المتعة ، لا الرياضة ولا النساء ، ففيما عدا زوجته لم يكن يشعر بوجود النساء » . تزوج ستالين في منتصف الحرب الاهلية ، وكانت زوجته ناديجدا اليليوفا تصغره بعشرين عاماً . كانت اليليوفا ابنة عامل اختبأ لينين في بيته في تموز عام ١٩١٧ ، ثم اصبحت احدى سكرتيرات لينين بعد الثورة وذهبت الى تساريتسين ، وهناك نما الحب بين المفوض (ستالين) وبين الفتاة الشيوعية . كان ستالين يسكن وزوجته في بيت صغير في الجناح الذي كان جناح الخدم في الكرملين، وكانت ناديجدا اليليوفا تدرس بلهفة في احدى كليات موسكو التقنية . استحوذت سمات البساطة والتقشف التي كانت تحيط بحياة الامين العام الخاصة على اعجاب الحزب الذي كان متزمتاً في تفكيره والذي كان قد بدأ يلاحظ اول امارات الفساد والحياة السهلة في الكرملين .

كذلك لم يكن ستالين حينذاك يبدو للناس أقل تسامحاً مما ينبغي لقائد بلشفي ان يكون ، فقد كانت هجماته على المعارضة اقل فظاظة من هجمات كامينيف وزينوفييف ، وكانت خطبه تنم عن تفاؤل طيب القلب يبعث على الراحة ، مما يتفق مع الرضا عن الذات الذي كان قد بدأ ينمو في الحزب . أما في المكتب السياسي فلم يكن ستالين يبدو وكأنه يفرض رأيه على رفاقه عندما تناقش امور السياسة العليا ، لقد كان يتتبع سيرها بحرص ليرى في اي اتجاه تهب الريح ويصوت بعد ذلك مع الاغلبية ، هذا اذا لم يكن قد ضمن الاغلبية الى جانبه سلفاً ، ولذا كان ستالين منسجماً دائماً مع الاغلبية . أما جماهير الحزب فقد كان يبدو لها رجلاً بلا ضغائن او احقاد شخصية ، لينينياً مترفعاً ، حامياً لحمى العقيدة ينتقد الآخرين من اجل المثل الأعلى فقط ، وقد كان يعطي لمستمعيه هذا الانطباع ذاته حتى عندما كان يتكلم خلف اسوار المكتب السياسي المغلقة . لذا لا يبدو غريباً ان يصفه تروتسكي في خضم صراعهما معاً لزائر اجنبي مؤتمن بانه « ثوروي شجاع مخلص » . دعونا

لنصف بعض اجتماعات المكتب السياسي ، لنحصل على لمحة حية عن ستالين : الرجل الطيب .

كتب باجانوف يقول : عندما شهدت لأول مرة اجتماعاً للمكتب السياسي كان الصراع بين الثلاثي وتروتسكي على اشده . كان تروتسكي اول من وصل الى الاجتماع ، أما الآخرين فقد تأخروا ، لقد كانوا لا يزالون يخططون للجلسة ... كان زينوفييف ثاني من وصل فمر بتروتسكي وتصرف كلاهما وكأنهما لم يلاحظا بعضهما البعض ، وعندما وصل كامينيف حيا تروتسكي بايماءة خفيفة . اخيراً وصل ستالين فاقترب من الطاولة التي كان يجلس عليها تروتسكي وحياه بطريقة ودية جداً وصافحه عبر الطاولة بقوة .

في جلسة اخرى في خريف عام ١٩٢٣ ، طالب احد اعضاء الثلاثي ان يؤتى بستالين كمراقب لمفوضية الحرب التي كان تروتسكي ما يزال يرأسها . ثار تروتسكي للاقتراح وأعلن استقالته من منصبه وطلب اعفاءه من جميع مناصبه في روسيا والسماح له بالذهاب الى المانيا ، التي كانت تبدو عند ذاك على شفا ثورة شيوعية ، للاشتراك في الثورة . واجه زينوفييف ذلك بان طلب الشيء ذاته ، وهنا وضع ستالين حداً للمشهد معلناً ان « الحزب لا يمكن باي شكل ان يستغني عن خدمات قائدين مهمين ومحبوبين كتروتسكي وزينوفييف » .

كان ستالين يلعب لعبته ببطء معتصماً بالانتظار ، فقد كانت المعارضة لا تزال قوة يحسب حسابها على الرغم من ادانتها في المؤتمر الثالث عشر للحزب في ايار ١٩٢٤ . كما ان الاتجاهات السائدة داخل الاممية الشيوعية يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ، فقد اتخذ قادة الاحزاب الشيوعية الاوروبية من المان وبولنديين وفرنسيين احد موقفين : فاما انهم احتجوا على التنديد بتروتسكي ، أو انهم حاولوا اقناع المتخاصمين بفض الخلافات . بذل زينوفييف كثيراً من المحاولات لاخراس هذه « الاصوات » وكان يملك من ورائه سمعة الحزب الشيوعي الوحيد المنتصر ، واسطورة ثورة اكتوبر العالمية ، تلك الاسطورة التي جرؤ القليلون على الافلات من قبضتها ، كما كان يملك تحت تصرفه كنز الاممية الشيوعية (الكومنترن) التي كان الحزب الروسي اكبر مساهم فيها والتي كان الكثير من الاحزاب الاوروبية معتمداً عليها الى حد ما . يكفي ان نقول ان الثلاثي نجحوا في انتزاع تنديد بالمعارضة الروسية في المؤتمر الخامس للاممية الذي عقد في موسكو في حزيران وتموز عام

١٩٢٤ ، وذلك بعد ان استعملوا جميع انواع الضغط وبعد فصل وانزال مرتبة كثير من القادة الشيوعيين . كان ستالين حتى ذلك مترفعاً عن امور الكومنترن ، أمـا الآن فقد خاطب الوفد البولندي الى المؤتمر موبخاً اياهم على تحيزهم لتروتسكي .

كان دبيب الخلاف بين الثلاثي سبباً آخر لحذر ستالين ، فعلى الرغم من ان عرى تضامنهم لم تنفصم إلا بعد سنة ، أي في عام ١٩٢٥ ، إلا ان غيرتهم الشخصية من بعضهم البعض كانت قد بدأت تفعل فعلها في علاقتهم . بدأ كامينيف وزينوفييف يشعران ان ستالين يشدد قبضته على الجهاز الحزبي ويحول دونها ودون السلطة ، اما ستالين فقد كان يشعر بالحسد تجاههما لتملكهما من امور العقيدة ، فشن اول هجوم علني له على عدم مقدرة كامينيف العقائدية بعد ادانـة تروتسكي بقليل . كان كل من اعضاء الثلاثي يعتقد ان انفصامهم قد يدفع باحدهم الى وضع يده بيد تروتسكي ضد الآخرين ، ولكن هذا لم يجعل كامينيف وزينوفييف يخففان من حدة هجومهما على تروتسكي الذي تقاربا معه في النهاية ، أمـا ستالين فقد وضع هذا الامر في حساباته التكتيكية فأثبت بذلك انه متفوق على شركائه في امور التكتيك .

اكتفى ستالين في النهاية بانتظار وقوع خصمه في الاخطاء الفادحة التي كان لا بد ان يؤدي سلوكه لها . لقد قبل تروتسكي عبادة شخصية لينين على الرغم من انها اثارت حنق عقله المنطقي وذوقه الاوروبي. لقد كان زي تلميذ لينين اضيق من ان يدخل فيه تروتسكي . على أي حال ، كانت الصوفية اللينينية قد اشتدت لدرجة يصعب معها على من يريد ان يصغي له الحزب ان يتجاهلها ، هذا عدا عن ان يتحداها . هكذا خاض تروتسكي المعركة على جبهة هو ضعيف فيها . انهال اعضاء الثلاثي على تروتسكي بمقتطفـات من اقوال لينين ضده ، كما انهالوا عليه بما هو اكثر احراجاً له ، بانتقاداته القاسية التي وجهها الى لينين قبل اثنتي عشرة سنة أو خمس عشرة سنة . أدى اختيار مثل هذه المقتطفات الى تدعيم صورة تروتسكي الذي يعارض لينـين بحقد على كل منعطف من منعطفات الاحداث ، من انشقاق ١٩٠٣ ، الى نقـاشات برست ليتوفسك واتحادات العمال ، في ذهن الشيوعيين الشباب . كان تروتسكي اذن يقف في موضع المدان من وجهة نظر الدغمائية اللينينية .

كان رفض تروتسكي لهذه الدغمائية سيعني التوجه الى الرأي العـام غير الشيوعي ضد الحزب ، وهذا ما كان بامكان ستالين ان يكون واثقاً ان تروتسكي لن يفعله .

اختلطت ، خارج الحزب ، خيبة الامل الثورية التي لم تتخذ شكلاً محدداً باتجاهات محددة مضادة للثورة ، وعندما اتخذت الجماعة الحاكمة من تروتسكي هدفاً لهجماتها ، استقطب العطف الزائف لكثير من الذين كرهوه حتى ذلك الوقت ، فكان يستقبل في شوارع موسكو بالتصفيق من قبل جماعات يختلط فيها الشيوعيون المثاليون مع المناشفة مع الاشتراكيين الثوريين مع البورجوازية الجديدة التي خلقتها السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) ، أي يختلط فيها كل الذين كانوا يأملون لأسباب مختلفة في حدوث تغيير . كان رفض تروتسكي الاعتماد على هذه الجماعات هو بالضبط السبب الذي جعله يبدي تردداً وجبناً في كل خطوة كان يخطوها . فهو لم يكن ليستطيع الكف عن معارضته للثلاثي الذين اصبحوا يمثلون الحزب وفي الوقت ذاته كان جاثماً على ركبتيه امام الحزب . هكذا كانت كل خطوة يخطوها عرضاً لضعفه ، وكان باستطاعة ستالين الانتظار حتى يهزم تروتسكي نفسه من خلال سلسلة من عروض الضعف هذه .

هنا ربطت العقدة التي لم تكن لتحل إلا في محاكمات التطهير المأساوية بعد اثنتي عشرة وثلاث عشرة سنة ، وهنا ايضاً يمكن ان نجد اهم الدلائل التي تمكننا من فهم هذه المحاكمات. في المؤتمر الذي عقد في ايار ١٩٢٤ ، كان تروتسكي يواجه العداء المستحكم من قبل تجمع امناء سر المنظمات الحزبية فأوشك على الاستسلام لنقاده والتخلي عن المعارضة . كانت كروبسكايا ورادك وغيرهم يحضون المتخاصمين على نبذ الخلاف ، ولكن زينوفييف لم يكن ليقتنع ، فقد طالب ان يستسلم تروتسكي في افكاره كما في افعاله ، ان يعترف انه كان مخطئاً في انتقاداته . كانت هذه هي المرة الاولى في تاريخ البلشفية التي يتهم فيها عضو حزبي بصورة غامضة « بجريمة ضميرية » ، تلك التهمة التي كانت مجرد تهمة ثيولوجية ، ولكن دوافعها لم تكن ثيولوجية بل كانت تكتيكية : فاذا ما خضع تروتسكي لنظام الحزب ولم يشجب نفسه علناً ، فانه يبقى عدواً جباراً للثلاثي . لذا اصر زينوفييف على ان يضيف الى شروط قبوله بالتسوية شرطاً لا يمكن القبول به ، مما يجبر تروتسكي على الاستمرار في خوض معركة غير متكافئة . هكذا جاءت اول اشارة الى « جريمة ضميرية » تجاه الحزب من رجل لقي بعد ذلك باثنتي عشرة سنة حتفه وهو يدلي بسلسلة من الاعترافات المروعة عن « جرائم ضميره » . كان ستالين ، ظاهرياً على الاقل ، خارج الحلبة ، فقد كان يكرر ان شرطه الوحيد للقبول بالتسوية هو ان يوقف تروتسكي هجماته ، فبدا المرة تلو الاخرى وكأنه يمد يديه الى خصمه .

كان جواب تروتسكي على زينوفييف حافلاً بالمأساة التي كانت ستسحق تحت وطأتها كامينيف وزينوفييف أكثر من تروتسكي نفسه . قال تروتسكي : —

« الحزب في التحليل الاخير دائماً على حق ،لأن الحزب هو الاداة التاريخية التي تحل بها البروليتاريا قضاياهـا الاساسية . لقد سبق ان قلت ان لا شيء اسهل من ان يعترف الشخص منا بخطئه أمام الحزب، ليس اسهل من ان يقول : كل انتقاداتي ، كل تصريحاتي ، كل تحذيراتي ، كل احتجاجاتي ، كل شيء كان مجرد خطأ . أما انا ايها الرفاق فلا استطيع ان اقول ذلك لأنني لا اعتقد ذلك . انا اعلم ان الواحد منـــا يجب ان لا يكون على حق « ضد » الحزب ، اعلم ان الواحد منا يمكن ان يكون على حق فقط مع الحزب ومن خلال الحزب ، ذلك ان التاريخ لم يصنع طريقاً آخر لتحقيق ما هو حق . الانكليز يقولون « على حق ام على ضلال — وطني » ونحن نستطيع ان نقول ، وفي جانبنـا تبرير تاريخي أكبر بكثير ، « على حق ام على ضلال — حزبي » .

كانت كلمات قائد المعارضة هذه اقل شبهاً بما قد يقوله انكليزي وطني منها بمـــا قد يقوله احد هراطقة القرون الوسطى معترفاً بهرطقته بشكل يثير الشفقة ومع ذلك مبدياً عناداً فيما يعتقده ، قادراً على ان لا يرى خلاصاً في غير الكنيسة ومع ذلك لا يرى خلاصاً في الكنيسة ذاتها . دحض ستالين بسخرية ما قاله تروتسكي قائلاً ان الحزب لا يدعي العصمة عن الخطأ .

* * *

كان ما يدعى « المناظرة الادبية » في خريف السنة ذاتها ، المرحلة الثانية من الصراع. افتتح تروتسكي المناظرة بكتابه (دروس اكتوبر) الذي نقل الجدل الى مواضيع جديدة غير متصلة ظاهرياً بالمواضيع التي تركز عليها قبلاً . كان الكتاب دراسة لميكانيكية الثورة ودور القيادة الحازمة فيهـا ، وكان جوهر الحجة التي يقدمها الكتاب هو ان « الحالة الثورية » فرصة زلقة يخسرها الحزب الثوري اذا لم يكن داعياً لها أو اذا كان راغباً عن اقتناصها . صحيح ان الثورة لا يمكن القيام بها اختيارياً ، فهي حصيلة التحلل الطويـــل والبطيء نسبياً للنظام القديم — هـــذا هو جانبها الموضوعي ، ولكن ما ان يصل هذا التحلل الى مرحلة حاسمة حتى يبدأ دور العامل الذاتي ، دور القيادة ، الوضعيـة الثورية

ديناميكية بطبيعتها ، إذ يتوالى صعودها وهبوطها في تتابع سريع ، الصراع الطبقي ينتقل من الحرب الثابتة الى الحركة والمناورة الصاعقة ، وهنا يعتمد كل شيء على المبادرات والقرارات السريعة لهيئة اركان الثورة ، حتى اكثر الاحزاب ثورية يعاني من شيء من الزخم المحافظ ، فجناحه الايمن يفشل في ان يفكر ويتصرف على الاسس الاستراتيجية التي تناسب الظروف ، فيتقاعس عن العمل في المكان المناسب وفي الوقت المناسب جاهلاً اهمية الوقت وآملاً ان يطول امد الفرصة التي قد لا يهبها التاريخ أكثر من مرة واحدة في كل جيل . اوضح تروتسكي نظريته هذه ضارباً المثل بتجربة عام ١٩١٧ ومؤكداً على خلاف لينينِ الحاد مع كامينيف وزينوفييف عشية انتفاضة اكتوبر .

كان كتاب تروتسكي يبدو وكأنه دراسة خالية من العاطفة وقريبة من الاكاديمية لعبر التاريخ الحديث ومع ذلك رأت الاغلبية الساحقة من اعضاء الحزب ، التي انضمت اليه بعد الثورة فقط ، في روايته لأحداث ١٩١٧ حماقة عاطفية مهينة . كيف لا وقد صنّف تروتسكي أقدم اعضاء الثلاثي (زينوفييف وكامينيف) كناطقين باسم الجناح اليميني ، ومفشّلي الثورات ، على حد تعبير لينين . طبق تروتسكي ، في مقدمة كتابه نظريته على الوضع الراهن بمقارنة الاستراتيجية البلشفية عام ١٩١٧ مع ما فعله الشيوعيون الالمان عام ١٩٢٣ في خضم الغليان الذي اجتاح المانيا نتيجة إحتلال الفرنسيين للرور فقال ان المانيا كانت ناضجة ومستعدة للثورة البروليتارية ولكن الثوريين خسروا الفرصة المتاحة لهم لأنهم انصاعوا لذات الجبن الخامل الذي اظهره زينوفييف وكامينيف عام ١٩١٧ . ظاهرياً ، كان هجوم تروتسكي موجهاً على قادة الشيوعيين الالمان ولكنه في الواقع كان يسدد هجماته على الثلاثي ، وخصوصاً زينوفييف الذي رسم سياسة فرع الكومنترن الالماني بوصفه رئيساً للكومنترن .

تفادى اعضاء الثلاثي الضربة ونسجوا رواية لتاريخ الثورة قللوا فيها وحتى نفوا ترددهم وذبذباتهم وخلافاتهم مع لينين وبذلوا كل ما في وسعهم من جهد لتقليل اهمية الدور الذي لعبه تروتسكي عام ١٩١٧ ، فكانت هذه الحلقة الاولى من سلسلة طويلة من « المراجعات » و « التصحيحات » العجيبة التي جعلت في النهاية من تاريخ الثورة لوحاً غير مقروء ذلك ان روايات عديدة ومتناقضة روكمت بعضها فوق بعض . بالاضافة الى ذلك ، انتزعت النعوت ، التي وصف بها تروتسكي لينين وأتباع لينين قبل عام ١٩١٧ ،

من الارشيفات وأعيد طبعها . اعترى الغثيان صفوف الحزب لهذا المشهد الذي بدا لا يمت بصلة إلا الى التعاسة السائدة والى الجهود البناءة التي يجب ان يبذلها الحزب والحكومة ، وظن الكثيرون ان القادة يقومون بعرض مبهم لا يمكن تفسيره لعدم تحليهم بروح المسؤولية .

كان ستالين الشخص الوحيد الذي لم يتأثر مركزه بكل ذلك ، أما تروتسكي فقد تلقى اللوم لاثارته شجاراً حول امور مضت ، بغض النظر ، عن اهمية وجهة نظره ، كما ان الكشوفات المتعددة لماضيه البلشفي – المضاد لم تكن دونما اثر ، ومن جهة اخرى ادى تذكير تروتسكي الجارح بسلوك زينوفييف وكامينيف عام ١٩١٧ الى تدعيم تضامنهما . لم يكن تروتسكي يستطيع ان يقول شيئاً عن ستالين إلا باشارات غامضة ، ذلك ان ستالين فعل ما فعله وقال ما قاله عام ١٩١٧ من وراء ستار أو بطريقته المتملصة المعهودة .

هكذا ساعد تروتسكي ستالين ، بغباء ، على التفوق على زينوفييف وكامينيف ؛فأصبح هذان في حاجة ملحة الى شهادة في جانبهما من الامين العام الذي كان يبدو الوحيد الذي يمكن ان يكون شاهداً لا مصلحة له في هذه المسألة . وبالفعل ، تقدم ستالين في تشرين الثاني ١٩٢٤ ليشهد علناً على صحة لينينية شركائه ، فأعلن ان زينوفييف وكامينيف كانا لينينيين جيدين – بلشفيين – وخلافاتهما مع الحزب كانت مجرد خلافات مؤقتة ، وهو نفسه (ستالين) قد اقترف بعض الاخطاء قبل عودة لينين الى روسيا عام ١٩١٧ ، ولكن من كان في الحزب ولم يكن من الحزب ، من كان ينظر الى الحزب بسوء نية اللامنتمي ، يمكن الآن ان يقولب الخلافات القديمة ويتلاعب بها الى هذا الحد . أما تروتسكي فهو « لم يلعب دوراً خاصاً » في ثورة اكتوبر ، حقاً ، لقد « قاتل جيداً » ولكنه فعل ذلك فقط كوكيل للجنة المركزية ، وبالمناسبة ، حتى يسار الاشتراكيين الثوريين ، الذي انقلب على الثورة فيما بعد ، قاتل جيداً حينذاك . كانت قيادة الانتفاضة في يد « مركز الحزب » الذي لم يكن تروتسكي عضواً فيه . كانت هذه مساهمة ستالين الاولى في « مراجعة » التاريخ ، وقد اذهلت هذه المساهمة اولئك الذين كانوا ما يزالون يذكرون المجريات الحقيقية للامور وقت الثورة . مع ذلك وقعت الحجة التي قدمها ستالين موقعاً حسناً بينما كان لا بد للصورة التي رسمها تروتسكي لقيادة الحزب على انها جسم بليد يحثه لينين ويدفعه باستمرار الى العمل ، من ان تجرح كرامة الحزب . حتى زوجة لينين ، التي كانت تعرف الحقيقة ،

اقنعت بان تدافع عن كرامة اقرب حواريي زوجها اليه فكانت شهادتها القول الفصل بالنسبة لأعضاء الحزب . سحبت «المناظرة الادبية» نفسها فنشر ستالين مجموعة من المقالات التي كتبها عام ١٩١٧ وصدرها بمقدمة شارحة . عادت المناظرة الى بحث الامور الراهنة واعترتهـــا اهمية جديدة عبر عنها ستالين تعبيراً كاملاً بنظريته في الاشتراكية في بلد واحد .

* * *

كون ستالين لأول مرة آراءه في الاشتراكية في بلد واحد في خريف عام ١٩٢٤ ، وأصبح الايمان بها ، بعد ذلك بقليل ، الامتحان الاسمى للاخلاص للحزب والدولة ، ففي السنين العشرة أو الخمس عشرة التي تلت لم ينج أي ممن اخفقوا في هذا الامتحان من الادانة والعقاب . مع ذلك ، اذا درسنا « مقدمات » هــذه الموضوعة الستالينية ، فلا بد ان نصاب بالذهول إذ نكتشف ان ستالين قد وضعها في البداية بصورة عرضية كمجرد نقطة من نقاط النقاش في « المناظرة الادبية » . لم يأبه أي من منافسي ستالين ، لا زينوفييف ولا كامينيف ولا تروتسكي ، لهذه الموضوعة خلال اشهر عدة وحتى صيف السنة التالية ، كما لم يكن رأي ستالين قد استقر عليهـــا ، فقد اكد في كتيب اسس اللينينية الذي نشره في اوائل عام ١٩٢٤ ، اكد بحسم على انه على الرغم من البروليتاريا يمكن ان تتسلم زمـــام السلطة إلا انهـــا لا تستطيع بناء الاقتصاد الاشتراكي في بلد واحد . كانت هذه كلمات ستالين :

لكن القضاء على سلطة البورجوازية وبناء السلطة البروليتارية في بلد واحد لا يعــني تأمين النصر الــكامل للاشتراكية . ان المهمة الاساسية للاشتراكية – تنظيم الانتـــاج الاشتراكي – يجب ان تنفذ . هل يمكن ان تنفذ هـــذه المهمة ، هل يمكن احراز النصر النهائي للاشتراكية في بلد واحد ، ودون تضافر جهود بروليتاريي عدة اقطار متقدمة ؟ لا ، لا يمكن ذلك . جهود بلد واحد كافية لقلب النظـــام البورجوازي ، هذا ما أثبته تاريخ ثورتنا . أما بالنسبة للنصر النهائي للاشتراكية ، لتنظيم الانتــاج الاشتراكي ، فجهود بلد واحد ، خاصة إذا كان بلداً فلاحياً كروسيا ، غير كافية . لتحقيق ذلك يجب ان تتضافر جهود بروليتاريي عدة اقطار متقدمة .

صحح ستالين آراءه وأكد عكسها في كتابه « مسائل اللينينية » الذي كتبه فيما بعد في السنة ذاتها ، وسحب الطبعة الاولى من « اسس اللينينية » ومنع توزيعها منكراً نسبتها اليه . لم يكن ستالين في البداية يعي تماماً الاهمية التي اسبغتها الظروف على نظريته « الاشتراكية في بلد واحد » ، فهو قد توصل اليها متلمساً طريقه وكأنه بذلك اكتشف قارة جديدة وهو يظن نفسه مبحراً في مكان آخر مختلف تماماً .

كان هدف ستالين المباشر ان يدين تروتسكي ويثبت للمرة س ان تروتسكي ليس لينينياً. نقب الثلاثي ماضي تروتسكي فعثروا على نظريته في «الثورة الدائمة» التي كونها عام ١٩٠٥ وأثاروا جدلاً ضدها ، وخلال هذا الجدل توصل ستالين الى موضوعته «الاشتراكية في بلد واحد » . ما دامت هذه الموضوعة قد جاءت كنقيض لموضوعة تروتسكي في « الثورة الدائمة » فان من المناسب هنا ان نلخص ونحلل الموضوعتين وعلاقتهما ببعضهما البعض .

اقتبس تروتسكي نظريته من ماركس وطبقها على الثورة الروسية [١] . وكان يتكلم عن « دائمية » الثورة بمعنى مزدوج : فقد تنبأ بان الظروف ستدفع الثورة من طورها المناقض للاقطاع (البورجوازي) الى طورها المناقض للرأسمالية (الاشتراكي) ، وعلى العكس مما كانت النظرة الماركسية المقبولة حتى ذلك الحين تؤكد ، رأى تروتسكي ان روسيا المتخلفة ، وليس بلدان اوروبا الغربية المتقدمة ، ستكون اول بلد يخطو في الطريق نحو الاشتراكية ، ولكن روسيا بمفردها لا تستطيع ان تتقدم على هذا الطريق . ان الثورة لا تستطيع ان تتقوقع داخل حدودها القومية بل ستجد لزاماً عليها ان تمر من طورها القومي الى طورها الاممي — كان هذا الجانب الثاني من جوانب « الدائمية » . ستصبح اوروبا الغربية بدورها في حالة ثورية بفعل تأثير زخم روسيا ، وعندئذ فقط يمكن بناء الاشتراكية على اساس اممي عريض . مضى تروتسكي في تبيان حجته بالقول ان تقدم الجنس البشري معاق ليس فقط بفعل اسلوب الانتاج الرأسمالي ولكن ايضاً بفعل وجود الدول — القومية . الحصيلة النهائية للتحول الثوري لا يمكن إلا ان تكون عالماً

---

(١) طور تروتسكي نظريته هذه للمرة الاولى ونشرها عام ١٩٠٦ ولكنه اعطاها صورتها الكاملة في « الثورة الدائمة » الذي كتبه عام ١٩٢٨ في الما أتا ، ونشره عام ١٩٣٠ في الخارج .

واحداً ، عالماً اشتراكياً واحداً . على اي حال كانت هناك علامة استفهام مقلقـة تعترض سبيل هذه التوقعات . تساءل تروتسكي عـــام ١٩٠٦ : ماذا لو فشلت الثورة في تخطي حدود روسيا الى اوروبا الغربية ؟ وجاء جوابه المروع : ان الثورة حينئذ اما ان ترضخ تحت وطأة ضغط اوروبا محافظة واما ان تتآكل ضمن البيئة الروسية البدائية اقتصاديـاً وثقافياً .

رفض البلاشفة نظرية تروتسكي هذه حتى عام ١٩١٧ كما رفضها المناشفة . رسم لينين، مرة أو مرتين ، صورة غامضة للمستقبل غير مختلفة عن الصورة التي رسمهـــا تروتسكي ، ولكن سياسته كانت بشكل عام مبنية على فرضية ان الثورة الروسية ستبقى ضمن حدود اهدافها المضادة للاقطاع . كانت هذه هي النقطة التي انكر فيها لينين « دائمية » الثورة ، ومع ذلك فقد كان هو ايضاً يعتقد ان الثورة البورجوازية في روسيـــا سوف تحفز ثورة اشتراكية في اوروبا الغربية ، وعند ذلك فقط يمكن لروسيا ان تخطو الى الامـــام نحو الاشتراكية بمساعدة « الاقطار المتقدمة » . لم ينكر لينين الطابع الاممي للثورة ولكن ما انكره كان قدرة روسيـــا الذاتية على الوصول الى مشارف الاشتراكية قبل ان تفعل اوروبا الغربية ذلك . أنب لينين تروتسكي « لتغـــاضيه » عن الفلاحين لأن احداً ما لا يستطيع ان يفترض ان بلداً فلاحياً كروسيا يمكن ان ينتقل بذاته من الثورةالبورجوازية الى الثورة الاشتراكية ، إلا اذا تجاهل تعلق الفلاحين بالملكية الفردية .

غير لينين رأيهُ عام ١٩١٧ فتبنى حزبه جوهر موضوعة الثورة الدائمة بحذافيرهـــا (وان كان بالطبع لم يتبناهـــا بمصطلحاتها شبه المدرسية) . لقد تخطت الثورة بالفعل طورها المضاد للاقطاع الى طورها المضاد للرأسمالية ، وكان لينين وأتباعه يعتقدون حتى النهاية ان الثورة سوف تنتشر خلف حدود روسيا . في اثناء ذلك كانوا ينظرون الى بلادهم على انها قلعة محاصرة ، ولكنها مترامية الاطراف وقوية لدرجة تمكنها من الصمود ، وكانوا يعتقدون ان تقدماً حاسماً يمكن ان يحرز بتنظيم الحيـــاة الداخلية لهذه القلعة على اسس اشتراكية . اشار لينين (وكذلك تروتسكي) جازماً الى الفرص المتـــاحة للتجريب الاشتراكي حاثاً اتبـــاعه على القيام بهذه المهمة ، ولكن لينين كان في الاساس ينظر الى المجتمع الاشتراكي على انه مجتمع عالمي . لقد رأينا ان ستالين في اوائل عـــام ١٩٢٤ كان

ايضاً يعتقد انه « بالنسبة للنصر النهائي للاشتراكية ، لتنظيم الانتاج الاشتراكي ، لا تكفي جهود بلد واحد ، خاصة إذا كان بلداً فلاحياً كروسيا . لتحقيق ذلك يجب ان تتضافر جهود عدة اقطار متقدمة » ، اما الآن فقد اعلن ستالين ان جهود روسيا وحدها يمكن ان تكفي للتنظيم الكامل للاقتصاد الاشتراكي . ان من المسلم به ان الاقتصاد الاشتراكي لا يمكن اعتباره إلا اقتصاد وفرة ، وهذا يفترض مسبقاً صناعة متقدمة قادرة على تأمين مستوى معيشي مرتفع للشعب كله . هنا برز السؤال التالي : — كيف يمكن لروسيا بصناعتها الهزيلة ، التي لحق بها الخراب والدمار ، ان تنجز الاشتراكية ؟ اشار ستالين الى امكانيات روسيا الهائلة : — مساحاتها الشاسعة وثراؤها العريض في المواد الخام ، ففي نظره ان حكومة بروليتارية تستطيع بسيطرتها على الصناعة والتسليف ان تنمي هذه الموارد وتنجز بناء الاشتراكية ذلك لأنها في جهودها الرامية الى ذلك سوف تتمتع بدعم الاغلبية الساحقة من الشعب بما فيها الفلاحين . هذا الجزء من المعادلة التي وضعها ستالين ، وهو اكثر اجزائها جوهرية ، بسيط جداً ، فهو يقرر ، بطريقة واضحة للجميع ، الكفاية الذاتية للثورة الروسية . صحيح ان ستالين اثار كثيراً من التساؤلات ، ولكنه لم يجرب مواجهة الاعتراضات التي رفعها كثير من نقاده فيما بعد في وجه موضوعته . كان احد هذه الاعتراضات يشير الى ان من المؤكد ان يقاوم الفلاحون التجميع بضراوة وهم على ما هم عليه من تعلق بالملكية الفردية ، فما كان من ستالين إلا ان صرف النظر عن هذا الاعتراض على انه مجرد افتراء هرطقي على الفلاحين . كذلك لم يأبه ستالين لحجة أخرى كانت تقول ان الاشتراكية ممكنة فقط على اساس التصنيع الكثيف الذي وصلت اليه اقطار اوروبا الغربية ، وان روسيا لن تستطيع بمفردها اللحاق بهذه لاقطار . كان نقاد ستالين يعتقدون ان الاشتراكية يمكن ان تحقق نصراً على الرأسمالية فقط اذا مثلت انتاجية أعلى للعمل ومستويات ارفع للمعيشة من تلك التي توصل اليها في ظل النظام الرأسمالي ، ومن هنا يستنتج هؤلاء النقاد انه اذا ما بقيت انتاجية العمل ومستوى المعيشة في روسيا أوطأ من مثيلاتها في الاقطار الرأسمالية فان الاشتراكية على المدى الطويل ستفشل حتى في روسيا ذاتها . كذلك لم يجرب ستالين ابداً ان يدحض تنبؤات نقاده بان من المؤكد ان ينشأ تفاوت

مادي جديد وصارخ بين المجموعات الاجتماعية المختلفة في ظل اقتصاد ندرة كذلك الذي سوف يكونه اقتصاد روسي معزول .

كانت معـادلة ستالين فعالة جداً سياسياً بغض النظر عن الفجوات التي كانت تتخلل مقدماتها المنطقية ، تلك الفجوات الـتي كانت واضحة فقط لأكثر رجال الحزب ثقافة . على أي حال كانت المعادلة الستالينية تتضمن عرضاً ايجابياً واضحاً : بامكاننا ان نقف على اقدامنا ، ان نبني ونكمل بناء الاشتراكية . كان هذا بالضبط ما جعل المعادلة فعـالة بالنسبة للاغراض العملية وأغراض الجدال ، فهي تقدم بديلاً بسيطاً لنظرة تروتسـكي . على ان ستالين ، لأسبـاب مختلفة ، لم يقدم موضوعته بهذا الشكل الواضح البسيط ، بل احاطهـا بكل انواع التحفظات والتبريرات . كان احد هذه التحفظات ان انتصار الاشتراكية في روسيـــا لا يمكن ان يعتبر في امان ما دامت الرأسمالية المحيطة بروسيا تهددهـــا بالتدخل المسلح . الاشتراكية في بلد واحد لا يمكن ان تغلب « بالبضائع الرخيصة » التي تنتجها الاقطار الرأسمالية ، تلك البضائع التي تحدث عنها نقاد ستالين ، ولـكنها يمكن ان تهزم بقوة السلاح . لوح ستالين ، لسنوات عديدة مقبلة ، بهذا الخطر امـــام اعين روسيا ، فبدا وكأنه يضعف من حجته ذاتها . فوق ذلك كله ، مضى ستالين ليعبر عن ايمانه بقرب حلول الثورة العالمية ، على الرغم من ان ثقته وهو يعبر عن ايمـــانه هذا كانت تتناقص باستمرار . هكذا أقر ستالين بالكفـــاية الذاتية المطلقة للثورة الروسية في النصف الاول من موضوعته ، وأنكرهـــا في النصف الثـــاني .

لم تقف غرابة هذا النزاع الايديولوجي المتقد عند هذا الحد، إذ ان ستالين ، بتطور الجدال ، نسب الى نقاده انهم يرون ان لا امكانية لبناء الاشتراكية في روسيا ، ثم صور الخلاف على انـــه بين اولئك الذين يؤمنون « بالقوة الخلاقة » للثورة وبين « المتشائمين » و « تجار الهلع » . لم يكن الموضوع بهذه السهولة فالتهم التي ألصقها ستالين بنقـــاده لم تكن صحيحة . لقد أكدوا هم ايضاً ان من الممكن ومن الضروري تنظيم الاقتصاد الروسي على اسس اشتراكية ، وعلى الاخص تروتسكي ، الذي كان منذ نهـــاية الحرب الاهلية يحث المكتب السياسي على البدء في توجيه الادارة نحو الاقتصاد الموجه والمخطط ،

والذي وضع في تلك الايام المبكرة معظم الافكار التي جسدت فيما بعد في خطة السنوات الخمس .

كثيراً ما يشعر الدارس لهذا الجدال بحق ان الهدف من ورائه غير محدد ، وانه ببساطة يتلاشى على الرغم من انه اثار العواطف والمرارات ، إذ ان الدارس يصاب بالدهشة عندما يجد ان هذه المناظرة اذا ما جردت من التشويهات والغمزات الجدلية تبدو في النهاية مركزة بشكل عجيب على مواضيع لا علاقة لها بالاوضاع الراهنة آنئذٍ . لم تكن النقطة مثار الجدل ما إذا كان من الممكن أو الواجب بناء الاشتراكية ، ولكنها كانت تدور حول ما إذا كان من الممكن اكمال بناء الاشتراكية في دولة واحدة معزولة . يمكننا تشبيهاً ان نقول ان المتعادين لم يناقشوا ما إذا كان من الممكن أو من المرغوب فيه تشييد الصرح الذي يريدون ، كما انهم لم يختلفوا على المواد التي يجب ان يبنى منها ولا حتى على شكله . ظاهرياً كانت نقطة الخلاف هي ما إذا كان من الممكن تغطية الصرح بسقف ، وكان جواب ستالين « نعم » بالتأكيد ، بينما اجاب خصومه « لا » بنفس الدرجة من التأكيد ، وكان الجانبان متفقين على ان السقف لن يوضع إلا بعد زمن طويل ، طويل جداً ، كانا متفقين على ان المرحلة الاشتراكية التي تنتفي فيها الطبقات لا يمكن الوصول اليها خلال حياة جيل واحد ولا حتى جيلين ، كما كانا متفقين على ان القوى المعادية يمكن ان تدمر البناء في أية مرحلة من مراحل تشييده — لقد كانوا باستمرار يرون ظل الحرب مخيماً على روسيا ، وأخيراً كان ستالين يعتقد ، كما كان نقاده يعتقدون ، ان المشكلة التي اثاروها سوف تتلاشى قبل ان يحين موعد بناء السقف بأمد طويل ، لأن الثورة في الغرب ستحطم طوق العزلة الذي يحيط بروسيا .

قد يبدو من المحال على رجال عمليين ، كأطراف هذا الخصام الذي نبحث ، ان يضعوا المشكلة بالشكل الذي وضعوها فيه ، بينما هم يستطيعون ان يمضوا في الطريق معاً الى حد بعيد جداً ، تاركين خلافاتهم النظرية ليقلب فيها الاكاديميون المحترفون النظر . اذن ، هل كان الخلاف كله مجرد حاجز من الدخان يخفي وراءه تصادم المطامح الشخصية ؟ لا شك ان التنافس الشخصي لعب دوراً حاسماً في الخلاف ، ولكن المؤرخ الذي يعزو كل شيء لهذا العامل يرتكب خطأً فاحشاً ، إذ ان عليه ان يفسر لماذا

احدثت نظرية « الاشتراكية في بلد واحد » الانشقاق في الصفوف البلشفية من اعلاها حتى اسفلها ، لماذا اصبح هذا الموضوع محط اهتمام قاتل لجيل كامل من الشعب الروسي ، لماذا حددت هذه النظرية توجه امة عظيمة لربع قرن . كثيراً ما يطرح تفسير آخر يقول ان الاشتراكية في بلد واحد وضعت لتهدئة ثائرة شكوك الحكومات الاجنبية التي افزعتها النشاطات « المخربة » التي كانت توجه من موسكو . لكن هذا التفسير اكثر بعداً عن الواقع من التفسير الذي سلف ، فاسم ستالين ، عندما وضع موضوعته ، كان مجهولاً الى حد بعيد في خارج روسيا ، وحتى فيما بعد ، لم تمنعه الرغبة في تهدئة شكوك الاجانب من اطلاق تصريحات بصدد الشيوعية في اوروبا جعلت الفزع يدب في قلوب كثير من المحافظين في الاقطار الاخرى .

في بعض النزاعات الهامة التي يكون فيها طرفا النزاع ملتزمين بصرامة بمبدأ مشترك واحد ، كما في النزاع الذي نحن بصدده ، فانه لا يمكن ان نجد تفسيراً للنزاع في المعنى الحرفي لكلمات المختصمين ، كما لا يمكن بالتأكيد ان نجد ذلك التفسير في الترديد الحماسي للمبادىء « المشتركة » ، بل يجب ان نبحث عنه في التغيرات الحاذقة ، التي لا يمكن اكتشافها بسهولة احياناً ، في حججهم ، بل ويجب ان نذهب أبعد من ذلك الى تفحص الحالة العقلية والنفسية للوسط الذي يخاطبونه ويعملون فيه ، فالخلاف العقائدي ، في الحساب الاخير ، ينمو من خلال هذه الحالة التي تشكل ايضاً الجهاز الحساس الذي يدل على اهمية كل من الحجج التي تتناثر هنا وهناك والتي تبدو للوهلة الاولى متشابهة الى درجة يصعب معها تمييزها ، فالجمهور الذي يصغي للمتخاصمين لا تحركه ادعاءات التمسك بالمبادىء المشتركة ، فهو يعتبرها جزءاً من الطقوس المعتادة ، ولكنه يصيخ السمع الى الاشارات والتلميحات التي يرمي بها أي من الجانبين ويستوعب بعمق جميع ما يريدون ان يقولوه ما بين السطور ، ويتعلم بسرعة التمييز بين جوهر الحجج التي يتقدمون بها وبين التحفظات وفلتات اللسان التي تبدو متناقضة مع هذا الجوهر .

كان الجزء العملي من موضوعة ستالين ، اي الشيء الجديد والبارز فيها ، هو التأكيد على الكفاية الذاتية للثورة الروسية ، اما ما تبقى فهو ترديد للمسلمات البلشفية التقليدية ، التي اصبح بعضها غير ذي فائدة ، واصبح بعضها محرجاً ولكنها جميعاً يجب ان تردد لان

لها نكهة الاحترام العقائدي . مثّل الشيء الجديد في حجة ستالين مراجعة جذرية للاتجاه الفكري للحزب ولكن هذه المراجعة تمت بطريقة تبدو وكأنها تنكر ان هناك مراجعة وتمثلها على انها امتداد مباشر لخط التفكير التقليدي ، وهذه طريقة مألوفة في تاريخ كثير من العقائد . لن نجعل القارىء يخوض غمار هذه المعركة العقائدية ، بل يكفي هنا ان نقول ان ستالين بذل كل ما في وسعه لكي يطعم بمعادلته جسم العقيدة التي ورثها عن لينين .

هناك حقيقة اهم من التعقيدات العقائدية الا وهي ان قطاعاً كبيراً من الحزب ، وربما اكثرية الحزب ، اصبحت في السنتين السابعة والثامنة للثورة تشعر ، بغموض وان كان بالحاح ، بالحاجة الى المراجعة الايديولوجية . كانت هذه الحاجة عاطفية اكثر منها عقلية ، ولم يكن اولئك الذين شعروا بها راغبين باي شكل من الاشكال في الانفصال العلني عن البلشفية . ليس هناك من حزب ثوري يمكن ان يتسلم السلطة لسنين سبع دون ان تحدث تغيرات عميقة في نظرته الى الامور . لقد اصبح البلاشفة الآن معتادين على ادارة دولة شاسعة « سدس العالم » ، واكتسبوا بالتدريج الثقة بالنفس والشعور بالاهمية الذاتية اللذين ينشآن عن امتيازات ومسؤوليات السلطة ، فاصبحت العقائد والمبادىء التي كانت مقتصرة عليهم عندما كانوا حزباً سرياً غير ملائمة تماماً لنظرتهم الراهنة . لقد اصبحوا بحاجة الى فكرة او شعار يعبر عن ثقتهم بالنفس ، تلك الثقة التي اكتسبوها حديثاً ، وهذا ما اعطتهم اياه الاشتراكية في بلد واحد ، فقد اراحتهم هذه النظرية الى حد بعيد من الشعور بالاعتماد على الاحداث التي تجري في خمسة اسداس العالم التي لم يكونوا يسيطروا عليها ، كما ان هذه النظرية زودتهم بالاقتناع النظري المريح : ان لا شيء ، عدا الحرب ، يمكن ان يهز سيادتهم على روسيا ، فالفلاحون المحبون للملكية ، والوهن الصناعي الذي تعاني منه الامة ، وانخفاض الانتاجية وانخفاض مستويات المعيشة ، كل هذه لم تكن تتضمن تهديداً بعودة النظام القديم . وبالمقابل فان اولئك الذين ما فتئوا يذكرون بالمخاطر التي تتضمنها هذه العوامل ، كتروتسكي ، وفيما بعد زينوفييف وكامينيف ، كانوا يجرحون شعور الحزب بالرضا عن نفسه .

تحت هذا الاتجاه النفسي ، الذي كان مقتصراً على الحكام ، كان هناك تيار اكثر اتساعاً : لقد اصيب الحزب ، كما اصيبت الطبقة العاملة بالضجر من توقع اندلاع الثورة

العالمية التي كانت الخبز اليومي للبلشفية ، لقد خاب هذا الامل في اعوام ١٩١٧ ، ١٩١٨ و ١٩٢٠ ، وانتعش مرة اخرى عام ١٩٢٣ ، في اثناء الغليان في المانيا ليختفي مصيباً الحزب مرة أخرى بخيبة الامل .

«لقد خانتنا الطبقات العاملة الاوروبية ،انهم ينصتون لقادتهم الاشتراكيين الديمقراطيين ويرتجفون امام موائد الدسم الرأسمالية » ، كان هذا على وجه التقريب ، تعليق كثير من العمال المسيسين على الانباء اليومية التي تتواتر من الغرب . لا شك ان الفكرة التي كانت تؤكد انه على الرغم من كل هذا فان مصير الشيوعية الروسية يجب ان ينظر اليه على انه معتمد في النهاية على انتصار او اندحار الشيوعية خارج روسيا ، لا شك ان هذه الفكرة التي لا يمكن فصلها عن نظرية تروتسكي في الثورة الدائمة ، كانت فكرة مثيرة للحنق ، كما كان هناك في الكلام المعتاد عن روسيا « المتخلفة » واوروبا « المتقدمة » شيء من الطعن بالكرامة الوطنية .

على الرغم من ان الناطقين باسم الحزب كانوا يوضحون مثل هذا الكلام باحصاءات كثيرة تقارن الفقر الروسي بالبحبوحة الاوروبية . لم يكن البلشفي العادي ليرغب في اكثر من ان يزيح بعيداً مثل هذه الافكار ، وهذا ما فعله له ستالين .

كان ما قاله ستالين للحزب ما يلي على وجه التقريب : — بالطبع نحن نأمل في اندلاع الثورة العالمية . لقد نشأنا بالطبع في مدرسة الماركسية ونحن نعلم ان الصراعات الاجتماعية والسياسية المعاصرة عالمية بطبيعتها . لا زلنا بالطبع نؤمن بقرب انتصار البروليتاريا في الغرب ونحن ملزمون بان نفعل كل ما في وسعنا لتسريع هذا الانتصار ، ولكن — وكانت هذه « لكن » كبيرة جداً وموحية جداً — لا تقلقوا كثيراً بالثورة العالمية ، فحتى لو تأخرت هذه الثورة الى اجل غير مسمى ، حتى لو لم تحصل ابداً ، فاننا نستطيع في هذا البلد ان نبني مجتمعاً اشتراكياً كاملاً تنمحي فيه الطبقية . دعونا نركز الجهد على هذا الهدف البناء . اما اولئك الذين يدمغونني بالطوباوية ويتهمونني بانني احث على ضيق النظر القومي ، اما اولئك فهم اما مغامرون واما اشتراكيون ثوريون جبناء . لقد فعلنا ، نحن بما عندنا من الموجيك الذين ينظر اليهم باحتقار ، لقد فعلنا من اجل الاشتراكية اكثر مما فعله بروليتاريو الاقطار الاخرى مجتمعين ، واذا ما

تركنا وحدنا مع ما عندنا من الموجيك فاننا نستطيع اكمال ما تبقى من المهمة .

اذا ما نزعت عن نظرية ستالين ادعاءاتها المصطلحية وعمقها الديالكتيكي الزائف فانها تتمخض عما اوردنا من العامية السهلة . لكن ستالين اصبح بنظريته هذه واضع ايديولوجية على طريقته الخاصة فهو لم يعد فقط الامين العام ، اداري الحزب الساحر : انه الآن مؤلف عقيدة كذلك كانت هذه صدمة العمر بالنسبة للبلاشفة القدامى المثقفين ، ففي احد اجتماعات الحزب ، اشترك ستالين في مناقشة نظرية ، فقاطعه النظري الماركسي القديم ريازانوف بملاحظة نصف ساخطة ، نصف ضاحكة قائلاً « كفى يا كوبا ، لا تجعل من نفسك موضع سخرية . الكل يعلم ان النقاش النظري ليس مجالك ». على كل ، لم تمنع سخرية الماركسيين المثقفين اللطيفة « الاشتراكية في بلد واحد » من ان تصبح عقيدة قومية ، ذلك ان بدعة ستالين ، على الرغم من كل ابتذالها ، كان لها وزنها و its raison d-être . يمكن تقسيم العقائد بصورة عامة الى قسمين : العقائد التي تنطلق من سلسلة طويلة من الافكار لتضرب بجرأة في المستقبل البعيد ، والعقائد التي ليست متجذرة بعمق في الافكار وليست اصيلة في توقعاتها ولكنها تشكل اتجاهاً فكرياً او عاطفياً قوياً وان كان من الصعوبة الافصاح عنه . من الواضح ان نظرية ستالين تنتمي الى القسم الثاني .

كان الطابع التراجيدي حقاً للمجتمع الروسي في العشرينات، هو توقه الى الاستقرار، هذا التوق الذي كان طبيعياً بعد التجارب التي عاشها هذا المجتمع . المستقبل يخبىء القليل من الاستقرار لاي بلد كان وعلى الاخص روسيا ومع ذلك اصبحت الرغبة في فترة راحة طويلة من المحاولات الخطرة الدافع الرئيسي للسياسة الروسية . لقد لوحت الاشتراكية في بلد واحد ، كما كانت تفسر حتى اواخر العشرينات ، بالوعد بالاستقرار ، وبالمقابل كانت نظرية تروتسكي في الثورة الدائمة ، تبدو وكأنها نذير شؤم لجيل متعب بان عليه ان لا يتوقع سلاماً او هدوءاً خلال حياته . اثبت هذا النذير صحته فيما بعد ، وان كان بطريقة لم يتوقعها مُطلقه ولم يعرها اي التفات .

توجه ستالين مباشرة في حجته ضد تروتسكي الى الخوف من المغامرة الذي تملك من كثير من البلاشفة ، فالصق بتروتسكي تهمة المغامر الذي اصبحت الثورة لعبته بحكم

العـــادة . كانت هذه التهمة بلا اساس ، فقد اثبت في اللحظات الحرجة – في ١٩٠٥ و ١٩١٧ و ١٩٢٠ – انه اكثر استراتيجيي الثورة جدية ، ولم يبد أي نزوع الى المغامرة ، كما انه لم يحث حزبه ابداً على القيام بأي انقلاب في أي من الاقطار الاجنبية ، وهـــذا ما لا ينطبق على ستـــالين نفسه . كان تروتسكي يعتقد بصرامة ان الشيوعية في اوروبا الغربية ستحرز انتصارها بفعل قواها الذاتية من خلال الصراع الطبقي الذي تلعب فيه المساعدة الخارجية دوراً ثانوياً وان كان هاماً في بعض الاحايين . أما ستالين فكان اكثر شكاً في فرص نجـــاح الشيوعية في اوروبا الغربية ، ونما شكه هذا وتصاعد في السنين اللاحقة . على اي حال التصقت تهمة « المغامرة » بواضع نظرية « الثورة الدائمة » ومضى ستالين ليتهم تروتسكي بحب الارهاب وادعى ان هذا افزع لينين . كانت هذه التهمة ايضاً غير عادلة خصوصاً وانها جاءت من ستالين . لم يحفل تروتسـكي ولم يتقاعس عن استعمال العنف خلال الحرب الاهلية ولكنه لم يكن مغرماً بالعنف كما ان الجراح غير مغرم بسفك الدماء . بالرغم من ذلك كله ، وفي الظروف التي شرحناها ، كان لهذه التهمة الغامضة وقع بليغ ومحدد ، فقد ظن الناس ان الرجل الذي الصق هذه التهمة بتروتسكي كان على الاقل رجلاً ذا عقل ليبرالي .

كان ستالين يملك ميزة رائعة الا وهي حساسيته المرهفة لكل هذه التيارات النفسية الخفية في الحزب وحول الحزب ، حساسيته للآمال والرغبات الصامتة ، تلك الآمـــال والرغبات الـــتي نصب نفسه ناطقاً باسمها ، وكان ستالين في هذا مختلفاً عن بقية اعضاء الثلاثي . في بداية المناظرة حول « الثورة الدائمة » كان اعضاء الثلاثي يتصرفون بتساوق وتناغم ، أما في النهاية فكانوا قد اصبحوا على طرفي نقيض . اعترف كل من زينوفييف وكامينيف فيما بعد انهما بدءا الهجوم لادانة تروتسكي بمقتطفات من اقوال لينين مضى عليها الزمن ضد « الثورة الدائمـــة » ، أما في الواقع فلم يكن لديهما اعتراض على موضوعاتها الاساسية التي كانت قد اصبحت افكاراً مسلماً بها لدى الحزب . لذا فان هجماتهما على نظرية تروتسكي كانت غير واقعية الى حد غريب ، فقـــد اقتصرت على المماحكة بصدد احداث اعتراها النسيان وقعت ايام النفي الذي سبق الثورة ، ولم يكن زينوفييف وكامينيف ليحلما بان يعارضا نظرية تروتسكي بنظرية ايجابية من وضعهما . بيد ان هـــذا لم يكن هو الحال مع ستالين ، فما بدأ بالنسبة له ايضاً كمجرد مقارعة نظرية اصبح صراعاً ايديولوجياً حقيقياً ، وبدأ مع الزمن يشعر ببغض حقيقي لوجهات نظر خصمه ولذا كان عليه ان

يقارعه بشيء ايجابي فتوصل عن طريق الحدس الى الحجة التي يمكن ان تثير اكبر قدر من التجاوب من قبل مجموعة اعضاء الحزب ورسمييه ، وكانت هذه الجمهرة « صوت الحق » البشري الواسع بالنسبة له ، وقد برهن على انه يستجيب على نحو مذهل لل « اشتراكية في بلد واحد » . وكما يحدث مع الملهمين ، استولت فكرة من نسج خيال ستالين عليه ، ولكنها لم تفعل ذلك إلا لأنها اتفقت مع الاشياء التي كانت كامنة في عقول الكثيرين غيره .

لم يكن زينوفييف وكامينيف لمدة طويلة واعيين للتغير الذي طرأ على الامين العام ، فقد هزا كتفيهما هزءاً باصراره الغريب على امكانية بناء مجتمع اشتراكي متكامل في بلد واحد واعتبرا ان الموضوع كله مجرد اداة اختارها شريكهما الذي يفوقانه فكرياً ليقارع بها تروتسكي ، ولم يباليا بالقاء نظرة متفحصة عليها ، كما انهما لم يعترضا عندما طلب ستالين من المؤتمر الرابع عشر للحزب المنعقد في آذار ونيسان ١٩٢٥ ان يصادق على موضوعته وحصل على اقرار رسمي لها . لم يتنبه زينوفييف وكامينيف الى اهمية موضوعة « الاشتراكية في بلد واحد » إلا في الخريف القادم أي بعد سنة تقريباً عندما انتقداها على انها تخل عن البلشفية التقليدية لصالح الشيوعية الوطنية . أما تروتسكي فلم يتحدى الموضوعة الستالينية حتى عام ١٩٢٦ عندما كانت قد حصلت على قبول واسع .

لم تكن الدلالات العملية لموضوعة ستالين قد اتضحت بعد . لقد وصلت البلشفية حينئذ الى علامة فارقة في تاريخها ما بعد الثورة ولكن التغيير الذي طرأ كان قد أثر حتى ذلك الحين على الاتجاه الفكري للبلشفية أكثر مما اثر على اتجاهها العملي . يمكن تلخيص الخطوط العامة لهذا التغيير كما يلي : — كانت البلشفية حتى الآن تنظر الى روسيا على انها تقف على حدود الحضارة الحديثة ، وفيها بدأت الثورة ووجدت الاشتراكية روادها العمليين ، ومنها انطلقت حوافز التغيير الثوري في الغرب وفي الشرق . كان دور روسيا في حركة التغيير المجتمعي على النطاق العالمي ينظر اليه على انه دور المحرك القوي للحركة كلها . ولكن اوروبا الغربية تبقى المركز الحقيقي للحضارة الحديثة وفي هذا المركز لا على حدوده ستنشأ في النهاية الاشكال الجديدة للحياة الاجتماعية . كانت العملية كلها ترى من وجهة النظر البلشفية على انها عملية تأثير تبادلي : تأثير روسيا على الغرب ، ومن ثم تأثير الغرب الاشتراكي على روسيا .

اما في موضوعة ستالين فلم تعد روسيا مجرد حد من حدود العالم المتمدين ، ففي داخل حدودها يجب ان توجد وتبنى اشكال المجتمع الجديد . ان قدرها يحتم عليها ان تصبح مركز الحضارة الجديدة المتفوقة في جميع المجالات على الحضارة الرأسمالية التي تدافع عن نفسها بهذه القوة العارمة في اوروبا الغربية . كانت وجهة النظر الجديدة هذه معبرة بدون أدنى شك عن سخط الشيوعية الروسية على عزلتها ، ولكنها سوغت هـــذه العزلة عن طريق التلويح بالوعود البراقة . هكذا انسحبت روسيا البلشفية المتعبة والمصابة بخيبة الامل الى داخل قوقعتها القومية ، لتريح عيونها الملتهبة بالنظر الى آفاق الاشتراكية في بلد واحد .

●

الفصل الثامن

التحوّل العظيم

المقدمة: ـ ستالين رجل الوسط الذهبي. ـ هزيمة تروتسكي ونهاية الثلاثي (١٩٢٥). ـ ظهور الجناح اليميني بقيادة بوخارين وريكوف وتومسكي . ـ ستالين يدعم السياسة المواليــة للموجيك . ـ تصادم الآراء حول الرأسمالية العالمية . ـ زينوفييف وكامينيف ينقلبان على ستالين (١٩٢٥) وينضمان الى تروتسكي (١٩٢٦) . ـ حادث فرونز . ـ ستالين يدافع عن بوخارين وريكوف ضد كامينيف وزينوفييف . ـ انتصار ستالين في المؤتمـــر الرابع عشر للحزب (١٩٢٥): «اللجنة المركزية اللينينية موحدة حول ستالين» . ـ زينوفييف وكامينيف يكشفان اسراراً عن ستالين . ـ تروتسكي يدلي «ببيان كليمنصو». ـ المؤتمر الخامس عشر للحزب يفصل تروتسكي واتباعه . ـ زينوفييف وكامينيف « يستسلمان » لستالين . ـ ستالين ضد بوخارين وريكوف وتومسكي (١٩٢٨ ـ ١٩٣٠) . ـ الفلاحون يهددون بتجويع المدن . ـ ستالين يبدأ التجميع الزراعي . ـ المكتب السياسي يقرر طرد تروتسكي خارج روسيا (١٩٢٩). ـ انزال مرتبة قادة الجناح اليميني ، « ستالين لينين اليوم » . ـ ستالين يأمر « بالهجوم على الكولاك » (نهاية ١٩٢٩) ، ويعلن عن خطة لتحويل روسيا الى قوة صناعية (حزيران ١٩٣٠) . ـ الفوضى والحرب الاهلية الفعلية في الريف . ـ نظرة عـــامة على المسرح السوفييتي خلال خطة السنوات الخمس الاولى (١٩٢٩ ـ ١٩٣٢) . ـ ستالين وكرومويل . ـ ستالين يتوجه الى المشاعر القومية . ـ القلق السياسي في بطانة ستالين . ـ انتحار ناديجدا اليليوفا، زوجة ستالين ، (نوفمبر) ١٩٣٢ . ـ سياسة ستالين الاجتماعية . ـ توجيه العمـــل والسخرة والقتال ضد دعاة المساواتية . ـ نجاحات التصنيع . ـ « التراكم الاولي » للاشتراكية في بلد واحد .

في عام ١٩٢٩ ، أي بعد سنين خمس من وفاة لينين ، وقفت روسيا على حافة ثورتها الثانية التي وجهها ستالين وحده . كانت الثورة الثانية في امتداداتها واثارها المباشرة على حياة ١٦٠ مليوناً من الناس ، اكثر جذرية وعنفاً من الثورة الاولى ، فقد نشأ عنها تصنيع روسيا السريع ، كما اجبرت مئة مليون من الفلاحين على التخلي عن ممتلكاتهم الصغيرة البدائية وانشاء المزارع الجماعية ، وانتزعت بقسوة المحراث الخشبي البدائي من بين يدي الموجيك واجبرته على ان يقود الجرار الحديث ، وساقت عشرات الملايين من الاميين الى المدارس وجعلتهم يقرأون ويكتبون ، كما استطاعت ان تنتزع روسيا الاوروبية من اوروبا روحياً وان تقرب روسيا الاسيوية من اوروبا . كانت فوائد الثورة صاعقة ولكن كذلك كان ثمنها : — فقدان جيل كامل لحريته السياسية والروحية . لا بد للخيال من ان يبذل جهداً عظيماً ليستطيع الواحد منا سبر اغوار عظمة وتعقيد هذه الثورة التي ليس لها مثيل في التاريخ . حتى لو اخذنا بعين الاعتبار اختلاف المسائل الانسانية باختلاف العصور ، فان اعظم المصلحين في التاريخ الروسي ،ايفان الرهيب وبطرس الكبير ، وغيرهم من المصلحين العظام في الأمم الأخرى ، لا يمكن الا ان يبدو اقزاماً بالمقارنة مع الحجم العملاق للامين العام : ستالين .

مع ذلك كانت ثياب العملاق فضفاضة على ستالين ، وكان هناك تناقضاً محيراً بين حجم الثورة الثانية وحجم صانعها . لم يكن مثل هذا التناقض موجوداً في ثورة ١٩١٧ فهناك كان القادة يبدون مساوين للاحداث العظيمة ، اما هنا في الثورة الثانية فالاحداث تعكس عظمتها على القائد . لقد تنبأ لينين وتروتسكي بثورتها واعدا لها سنين طويلة قبل ان تتحقق ، لقد اخصبت اراءهما ارض روسيا معدة اياها لحصاد ١٩١٧ ، ولكن لم يكن هذا هو الحال مع ستالين ، فلم تكن الآراء التي صنعت الثورة الثانية آراءه وهو لم يتنبأ بالثورة ولم يخطط لها ، ومع ذلك ، فهو ، وهو وحده ، الذي احرزها . في البداية دفعته الاخطار المحيقة المباشرة دفعاً الى العمل العظيم الذي بدأه متحمساً وعلى الرغم من مخاوفه

ذاتها ، وبعد ذلك استمر بقوة افعاله وسار على الطريق العملاق دونما راحة ولا توقف ، وخلفه تتخبط ملايين الاقدام الروسية الدامية ، اقدام جيل كامل يبحث عن الاشتراكية في بلد واحد . بدا طيف ستالين وكأنه ينمو الى ابعاد اسطورية ، اما عن كثب فقد كان لا يزال رجلاً ذو حجم عادي وافكار عادية . كانت قبضتيه وقدميه فقط تتناقض مع حجمه الحقيقي ، لقد كانت قبضات واقدام عملاق .

وصل بنا سردنا لحياة ستالين الى عامي ١٩٢٥ – ١٩٢٦ . منذ ذلك الحين، ومعارضوه من الشيوعيين يصفونه بانه قائد الرجعية والردة المضادة للثورة بينما كان اعداء الشيوعية يرون ولا يزالون طيف الشيوعية ملتحماً ومتمثلاً في شخصه . مع ذلك فقد كان اساساً رجل الوسط الذهبي بين قادة العشرينات البلاشفة ، فهو يمقت بغريزته وجهات النظر المتطرفة التي كانت تتنافس على رضى الحزب . لقد كانت مهمته الغريبة انه يصنع معادلات تبدو فيها الاطراف المتعارضة متفقة ، لذا فقد كانت كلماته تبدو لمجموع اعضاء الحزب المترددين عين العقل . لقد قبل هؤلاء زعامته آملين ان يسير الحزب بسلام « على منتصف الطريق » وان تكون « السلامة اولاً » المبدأ الاساسي الذي يسير الحزب . يمكن القول ان ستالين بدا وكأنه بالدوين او تشمبرلين ، هادنج او هوفر بالنسبة للبلشفية ، هذا اذا كان ربط مثل هذه الاسماء بالبلشفية لا يبدو غير لائق تماماً .

لم يكن عجز ستالين عن الاحتفاظ بنفسه في منتصف اي طريق، ولم يكن اضطراره الى التخلي عن « السلامة » من اجل اكثر المغامرات خطورة ، عيباً ولا مزية فيه . ان الثورات لا تتسامح عادة مع الوسط الذهبي و « الآراء البديهية » Common Sense واولئك الذين يحاولون في ثورة ما السير على منتصف الطريق يجدون الارض تهتز من تحت اقدامهم . كان ستالين يجد نفسه مضطراً باستمرار الى القفز بعنف حيناً الى هذا الجانب من الطريق وحيناً اخر الى ذاك ، وسوف نراه مرة تلو الاخرى اكثر يمينية من نقاده اليمينيين أو أكثر يسارية من نقاده اليساريين ، ولم تكن انتقالاته الحادة الدورية سوى محاولات رجل الوسط الذهبي المتشنجة ليحتفظ بتوازنه في خضم التغيرات التي كانت تجتاح عصره . لقد كان احتفاظ ستالين بتوازنه مدهشاً حقاً فقد كانت اي من قفزاته حرية بان تقصف رقبة اي قائد اقل مرونة منه .

هكذا ، لم يكن ستالين رجل تسوية على الرغم من كل رغبته في جمع وجهات النظر البلشفية المتصادمة ، فعدا عن ان وجهات النظر هذه كانت متباعدة لا يمكن الجمع بينها ، لم تكن خصائص ستالين الشخصية لتؤهله لان يلعب دور رجل التسوية . لقد كانت الميزة الوحيدة التي يشترك فيها ستالين مع اي من الرجال الوسطيين هي الشك وعدم الثقة بالمواقف المتطرفة ، ولكنه كان يفتقر الى الدماثة والمقدرة على الاقناع والرغبة الحقيقية في تقريب وجهات النظر المتضاربة تلك الصفات التي لا غنى عنها لمن يصنع الوئام السياسي . كان مزاج ستالين متعارضاً تماماً مع التسويات وكان الصدام بين عقله ومزاجه الدافع لكثير من تصرفاته. لقد كان يظهر على الحزب بمعادلات استعار بعضها من البلشفيين اليساريين وبعضها من البلشفيين اليمينيين ، ولكن هذه كانت معادلات تسوية غريبة من نوعها : فهدفها ليس الجمع بين المتناقضين وانما تدميرهما، لم يكن ستالين يتوسط بين اولئك الذين يسيرون على يمينه واولئك الذين يسيرون على يساره بل كان يصفيهم جميعاً . لقد كان يمثل دكتاتورية الوسط الذهبي على الافكار والمبادىء الجامحة التي ظهرت في مجتمع ما بعد الثورة ، دكتاتورية الوسط الذهبي التي لا تستطيع ان تبقى وفية لنفسها ، للوسط الذهبي .

* * *

لقد تركنا ستالين يقدم موضوعة الاشتراكية في بلد واحد ، فلنتابع الآن بسرعة خطواته اللاحقة لخلافة لينين . في كانون الثاني ١٩٢٥ اجبر تروتسكي في النهاية على الاستقالة من مفوضية الحرب . كان تروتسكي كقائد للقوات المسلحة يملك ورقة رابحة جداً ولو اختار ان يقوم بانقلاب لكان من المحتمل ان ينتصر على الثلاثي ، ولكنه تخلى عن منصبه دون ان يحاول اطلاقاً ان يستخدم الجيش الذي خلقه وقاده لسنين سبع ، فقد كان لا يزال ينظر الى الحزب ، بغض النظر عمن يقوده وكيف يقوده ، على انه الناطق الشرعي باسم الطبقة العاملة ، وفكر في انه لو وضع الجيش في مواجهة الحزب فانه بذلك يصنع من نفسه اوتوماتيكياً وكيلاً لمصالح طبقية أخرى ، معادية للطبقة العاملة ، ويسير على طريق البونابرتية الذي كان يرفض ان يطأه . وجه تروتسكي ، بعد استقالته من مفوضية الحرب ، مواهبه وطاقاته الى المهام الثانوية التي عينها له ستالين في

الادارة الاقتصادية وبقي اكثر من سنة عضواً في المكتب السياسي ولكنه احتفظ بنفسه فوق المناظرات العلنية .

بعد ان طمس تروتسكي نفسه بهذا الشكل ، انفصمت العروة الوحيدة التي كانت تربط الثلاثي بعضه ببعض . كان زينوفييف حتى اللحظة الاخيرة يطالب بصخب بايقاع عقوبات قاسية بتروتسكي ، حتى لقد طالب بالقبض عليه ، فرد ستالين على ذلك ببيان علني اكد فيه ان ازاحة تروتسكي من قيادة الحزب امر « لا يمكن تصوره » ، وبعد ذلك بقليل اتخذ الخطوة الاولى للخروج على الثلاثي : لقد رفض ان يستشير شركائه وينسق تحركاته معهم قبل اجتماعات المكتب السياسي . اصبح ستالين السيد بلا منازع على الحزب على الرغم من ان زينوفييف كان لا يزال ضارباً جذوره في منظمة موسكو ، ومن ان كامينيف كان لا يزال يقود بلاشفة لينينغراد . مع ان ستالين كان يقبض على زمام الامور في الحزب بقوة ، الا انه لم يكن باستطاعته الا ان يمارس قيادته بطريقة دستورية كناطق باسم اغلبية المكتب السياسي ، اذ ان تطور الحزب في اتجاه السلطة الكلية (Totalitarianism) لم يكن قد وصل الى الحد الذي يجعل اعضاءه يخضعون للدكتاتورية المباشرة لاي قائد فرد ، وبالفعل كان ستالين يردد دائماً ان ليس هناك من حواريي لينين من يستحق ان يحل بمفرده في مكانه وان فريقاً فقط يستطيع ان يطمح الى القيادة ، كان هذا الفريق يتمثل في المكتب السياسي الذي كان يتخذ قراراته بطريقة دستورية بالاغلبية ، وكان المكتب يتكون في عام ١٩٢٥ من سبعة اعضاء هم ستالين وزينوفييف وكامينيف وتروتسكي وبوخارين وريكوف وتومسكي . اصبح ستالين يعتمد على دعم ثلاثة اعضاء هم بوخارين وريكوف وتومسكي بعد ان انهى تحالفه مع شركائه القدامى زينوفييف وكامينيف .

جاء التحالف الجديد مع تبلور جناح يميني في الحزب والمكتب السياسي . ابتدأت هذه العملية في النصف الاول من عام ١٩٢٥ واكتملت في النصف الثاني منه ، وكان بوخارين وريكوف وتومسكي الناطقين الرئيسيين للاتجاه الجديد ، بينما اصبح كامينيف وزينوفييف قائدين للجناح اليساري . لم يكن التحالف الجديد يملك سوى القليل او لا شيء من الاشياء المشتركة مع التحالفات التي سبقته .

خلال وقت طويل من الفترة اللينينية قاد بوخارين الشيوعيين اليساريين بينما كان كامينيف وزينوفييف يتكلمان خلال الثورة باسم اكثر الجماعات اعتدالاً . لم يكن الحد الفاصل بين الاجنحة المختلفة واضحاً ولا ثابتاً ايام لينين ، فقد كانت الاجنحة تظهر وتختفي على مسرح سياسي متغير وكان الافراد ينتقلون من جماعة الى اخرى بتغير الاوضاع والظروف والميول . يساريو البارحة يصبحون معتدلي اليوم، والعكس بالعكس فلم يكن هناك حس بالانتماء الى جماعة او زمرة او عصبة . اما التحالف الجديد فقد كان من نوع مختلف تماماً فقد كان هناك نقاط خلاف محددة وتقسيمات ثابتة وكانت هذه تحمل طابع النهائية التي لا يمكن التراجع عنها ، واصبح اليمين واليسار يجابهان بعضهما ببرامج وشعارات متعارضة تغطي كل مناحي السياسة البلشفية .

لم يكن ستالين ينتمي الى هذا الجناح او ذاك ، ولكن اسباباً تكتيكية جعلته يضع يده في يد الناطقين باسم اليمين فقد كان يعتمد على اصواتهم في المكتب السياسي ، كما كان يشعر بقربه من رجال اليمين الجديد اكثر من قربه من شركائه القدامى ، إذ ان بوخارين وتومسكي وريكوف قبلوا اشتراكيته في بلد واحد ، بينما شجبها كامينيف وزينوفييف ، ويمكن اعتبار بوخارين بحق المؤلف المشارك لنظرية الاشتراكية في بلد واحد فقد دعمها بالحجج النظرية واعطاها الصبغة الثقافية التي كانت تنقص عرض ستالين الفج لها [١] . هذا بالاضافة الى ان الالفة المزاجية ساهمت في تحالف ستالين مع قادة اليمين ، فقد كان زينوفييف وكامينيف ايديولوجيين اولاً وقبل كل شيء وكذلك كان بالتأكيد بوخارين ، اما ريكوف وتومسكي فقد كانا اساساً اداريين كستالين نفسه . كان ريكوف قد اصبح رئيساً لمجلس مفوضي الشعب ، اي رئيس الحكومة السوفييتية ، وكان تومسكي قائداً لاتحادات العمال ، وكلاهما يسير اجهزة ادارية ضخمة بحذر بالغ وبشعور قوي ، وان يكن ضيقاً ، بالواقعية ، وبامانة لا يرقى اليها الشك .

---

(١) كان الشيوعيون الروس والاوروبيون على حد سواء حتى اواخر الثلاثينات يقتبسون حججهم من كتابات بوخارين لا من كتابات ستالين فقد كان كتاباه (الف باء الشيوعية) (الذي كتبه بالاشتراك مع بروبراجنسكي) و (المادية التاريخية) اهم كتابين اعتمدت عليهما الدعاية الشيوعية .

كان هذين وستالين يتكلمون نفس اللغة ، لغة الاداريين . ومع ذلك فقد كان ستالين يشعر بالضيق في تحالفه الجديد اذ انه بوصفه الرجل الوحيد في المكتب السياسي الذي يحاول ان يحتفظ بنفسه في منتصف الطريق ، اصبح بطريقة ما اسير حلفائه .

اغتنم ستالين اول فرصة سنحت له لتقوية مركزه ، فبعد المؤتمر الرابع عشر للحزب في كانون الاول ١٩٢٥ انتخب فورشيلوف ومولوتوف وكالينين لعضوية المكتب السياسي واصبح هؤلاء يشكلون «الوسط» الستاليني الحقيقي على الرغم من ان فورشيلوف وكالينين كانا يميلان الى اليمين اكثر مما يناسب ستالين . اما مولوتوف ، الذي كان بطيء التفكير وخاملاً ولكنه يتمتع بصبر خارق وقدرة على العمل ، فقد تبع ستالين كظله المخلص منذ ايام ١٩١٣ عندما ساعد ستالين على اصدار النسخة الاولى من البرافدا ، وكان ستالين يمارس عليه ذلك التأثير السحري الذي غالباً ما يمارسه الرجال المتقشفون القساة على من يفتقرون الى هذه الصفات .

تركز الخلاف الجديد على موضوع التعبيرات العملية التي يجب ان تعطى للسياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) ، فقد كان اقتصاد البلد في ظل النيب اقتصاداً مختلطاً ، وكانت الصناعة التي تملكها الدولة تشكل « القطاع الاشتراكي » ، اما الصناعة الصغيرة والتجارة فكانت تسودها المشاريع الخاصة ، وفي الزراعة كانت الملكية الخاصة سائدة تماماً . كان الجميع متفقين على ان الاشتراكية يمكن ان تبنى من خلال التوسيع التدريجي للقطاع الاشتراكي بالتنافس مع القطاع الخاص .

هنا برز السؤال التالي: — الى اي حد يجب ان يسمح بهذا التنافس واي الاشكال يجب ان يتخذ ؟ كان الكل متفقاً على ان البلد بحاجة الى درجة من التناسق والتعاون بين القطاعين ، فالصناعة الاشتراكية لا تستطيع ان تستمر دون ان تشتري المواد الغذائية والمواد الخام من المزارعين الافراد ودون ان تبيعهم جزءاً من انتاجها ، كما كان توزيع البضائع يعتمد على التجار الافراد المستقلين . لكن التنافس بين القطاعين كان يتضمن قدراً من العداء فيما بينهما ، فقد كان الفلاحون يطالبون ببضائع مصنعة اكثر وارخص كما كانوا يطالبون باسعار اعلى لمنتوجاتهم ، اما الصناعة ، التي كانت تتقدم ببطء بادئة من الخراب الشامل ، فقد كانت تنتج بضائع قليلة باسعار مرتفعة ، وكانت في الوقت ذاته بحاجة ماسة الى الطعام والمواد الخام باسعار رخيصة. بصورة عامة يمكن القول ان«جماعة

بوخارين » كانت تؤكد على التعاون المتناسق بين قطاعات الاقتصاد القومي المختلفة بينما اكد زينوفييف وكامينيف على تضارب مصالح هذه القطاعات .

حللت المشكلة العامة هذه نفسها الى مسألتين اخريين اكثر تحديداً: سرعة التصنيع الروسي ، والسياسة التي يجب ان تنتهجها الحكومة حيال الزراعة الخاصة . لقد رأى البلاشفة اليساريون في التطور البطيء للصناعة الخطر الرئيسي على الاشتراكية وضغطوا في اتجاه تسريع التصنيع ، بينما كان الجناح اليميني يعتقد ان الاشتراكية في مأمن حتى لو تقدمت الصناعة ببطء بالغ « كالحلزون البزاق » على حد تعبير بوخارين . التصنيع ،الذي يتفق الجميع على الحاجة اليه « مبدئياً » يحتاج الى اعتمادات مالية وهذه يجب ان تجبى الى حد كبير من المشاريع الخاصة والمزارع الخاصة . كان بوخارين يخشى ان تؤدي جبايات كهذه الى تثبيط الدافع الفردي وبالتالي ان تقلب التوازن الاقتصادي الدقيق ، اما اليسار فقد كان يناقش على اساس ان المزارعين والتجار لا يسلمون بضائعهم على اي حال وانهم قد يستمالون ويقتنعون ببيع كميات اكبر من الطعام والمواد الخام اذا ما غمر السوق ببضائع مصنعة رخيصة .

في اثناء ذلك كان الفلاحون يصرخون مطالبين بتوسيع التنازلات التي قدمت لهم تحت ظل النيب ، ويطالبون بتخفيض الضرائب الزراعية . كما كان الفلاحون الاغنياء يطالبون بالغاء القيود المفروضة على استئجار العمال وبما ان بيع الارض كان محظوراً ، فقد كانوا يطالبون ايضاً بالسماح بالتأجير الطويل المدى للارض وبحرية استثمار رأس المال في الزراعة وما الى ذلك. كان الحزب الحاكم يدعي « التحالف » مع الفلاحين الفقراء «والمتوسطين»وليس مع المزارعين الكبار الذين كانوا يدعون بالكولاك[1]، ولكن الحزب كان في واقع الممارسة مضطراً الى استمالة الكولاك ايضاً فقد حجبوا في احيان كثيرة الطعام

---

(١) كان الفلاحون يقسمون الى ثلاثة اقسام كما يلي: ـ الكولاك وهم المزارعون « الاقوياء » الذين يستأجرون عمالا ، والبيدناك وهم المزارعون الذين يملكون قطعاً صغيرة من الارض ولكنهم ايضاً يؤجرون انفسهم كعمال وهؤلاء يعتبرون الفلاحون الفقراء ، والسيريدنياك وهم المزارعون الذين يملكون قطعاً صغيرة من الارض وهم لا يستأجرون عمالا ولا يؤجرون انفسهم كعمال .

عن المدن واغروا الفلاحين الآخرين على فعل الشيء ذاته . ولذا كان المزارعــون في منتصف العشرينـــات يبيعون للمدن فقط عشر الطعام الذي كانوا يبيعونه لها قبل الحرب .

قامت في صيف عام ١٩٢٤ انتفاضة فلاحية في جيورجيا، وكانت هذه جزئياً رد فعل متأخر للمشاعر القومية الجيورجية المجروحة بفعل غزو عام ١٩٢١ ، كما كانت مدفوعــة بالظلامات الاقتصادية . عقد ستالين اجتماعاً لامناء سر المنظمات الشيوعية الريفية وحذرهم من أن « ما حدث في جيورجيا قد يحدث في روسيا كلها »، واضاف مستنتجاً ان الحزب قد فقد الاتصال مع الفلاحين وان عليه ان يتوجه لهم بعناية وثقة اكبر من ذي قبل .

لكن اطلاق التصريحات بالثقة بالفلاحين لم تكن كافية ، ولم يستطع المكتب السياسي ان يحدد بسهولة ما الذي يتوجب فعله . لم ينتج عن هذا الموضوع اي انقسام محدد ، فقد حث زينوفييف على اعطاء الفلاحين دوراً اكبر واكثر فعالية في ادارة السوفييتات ، امـا تروتسكي فقد تكلم عن الحاجة الى تقديم حوافز اقتصادية للفلاحين لكن الانقسام تبـلور فيما بعد ، عندما تقدم بوخارين وريكوف وتومسكي بمشروع سياسة واضحة ومحـددة في موالاتها للموجيك . فقد كانوا يريدون من الحكومـة ان تبادر الى تشجيع انشاء مزارع مزدهرة قادرة على تزويد المدن بالطعام ، ما دام الفلاحون الفقراء والمتوسطون ينتجـون بالكاد ما يكفيهم انفسهم . كان منطق هذا الاتجاه يطالب الحزب بالتخلي عن عدائـــه للمزارعين الاغنياء الذين لا يستطيعون ، من وجهة نظر بوخارين ، ان يشكـلوا اي خطر على الاشتراكية ما دامت الحكومة مسيطرة على الصناعة والنقل والبنوك ، على « المراكز القيادية » في الاقتصاد القومي ، وكان بوخارين يعتقد انه يمكن في النهايــة امتصاص حتى الكولاك في الاقتصاد الاشتراكي وان كانت قافلة الاشتراكية ستسير بالسرعة التي يفرضها عليها قطاعها الابطأ اي قطاعهـــا الريفي . كما دعا بوخارين الفلاحين بصراحة الى « اغناء » انفسهم .

اصغى ستالين الى المناظرات ولكنه تجنب في البدء الالتزام باي من الاراء المطروحة، فقد كان ميالاً الى القبول بسياسة الجماعة الموالية للموجيك لاعتبارات السهولة العمليــة ، ولكن كانت له تحفظاته العقلية ، وعلى وجه الخصوص عندما دافع الجناح اليميني علناً عن

استمالة الفلاحين الاثرياء . حاول ستالين ان يقنع شركاءه بان يمارسوا تحفظاً اكثر وشجب نداءات بوخارين الصريحة الى البورجوازية الريفية ، وعندما تكلم في النهاية جاءت كلماته انتقائية فهو قد تبنى عملياً الخط الذي دافع عنه بوخارين وحاول في الوقت ذاته الظهور بمظهر المدافع عن السنّة البلشفية التقليدية .

في نيسان عام ١٩٢٥ قام مؤتمر حزبي بترجيح كفة الميزان في المناظرات الأخيرة، فقد خفضت الضرائب الزراعية ، وازيلت الى حد بعيد القيود المفروضة على تأجير الارض واستئجار العمال الزراعيين وتراكم رأس المال . هكذا حققت الجماعة الموالية للموجيك نصراً اولياً فقد كانت تقف موقف الدفاع عن هذا الخط لا لانها تحبذ الزراعة الرأسمالية لذاتها ، ولكن لانها رأت فيها العامل الحاسم في تحسين تزويد المدن بالغذاء .

في ذات الوقت الذي حدث فيه ذات التحول في السياسة الداخلية ، تقبل الحزب نظرة جديدة الى الوضع الدولي ، فقد ابلغ ستالين وبوخارين الحزب ان فترة الضغط والتوتر الثوري في اوروبا قد انتهت وان الرأسمالية الاجنبية قد احرزت درجة من الثبات تجعل من المؤكد بقاء روسيا معزولة لفترة طويلة قادمة . تنبأ الناطقون باسم اليمين اذن بفترة من الثبات والازدهار في الاقطار الرأسمالية ربما تشبه الفترة ما قبل ١٩١٤ . اكد ستالين بحرص على الظروف التي يمكن ان تقلب هذا « الثبات » ولكن المغزى العام للحجة التي قدمها كان يقود بالنتيجة الى ان العالم الرأسمالي قد استعاد قواه التي انهكتها الحرب وان احتمالات نشوب ازمة ثورية في الخارج تقبع في المستقبل البعيد نوعاً . بالنظر الى الماضي ، فان هذه التكهنات ، التي سبقت الازمة الاقتصادية الكبيرة عام ١٩٢٩ ، تبدو مذهلة ، وهي تشكل سابقة غريبة للاشتراكية في بلد واحد وللاتجاه « التطوري » القريب من الفابية الذي ساد السياسة السوفييتية في ذلك الحين .

كانت هذه الفابية السوفييتية هي ما هب زينوفييف وكامينيف لمعارضته، فشجبا السياسة الموالية للموجيك قائلين انه كلما زادت قوة المزارعين الكبار كلما اصبح من السهل عليهم حجب الغذاء عن سكان المدن ومصارعة الحكومة للحصول منها على تنازلات اكبر فاكبر ، وبكلمة واحدة : يصبح من السهل عليهم اضعاف السوفييتات والعمل من اجل اعادة الرأسمالية . كان يجب على الحكومة ان تخفض الضرائب على الفلاحين الفقراء

والمتوسطين وان تزيدها على الفلاحين الاثرياء . البلد مهدد بازمة غذائية دائمة . في السابق كانت الامدادات الغذائية مؤمنة من قبل الاقطاعيات الكبيرة التي فتتت الآن . كان في روسيا قبل الثورة ١٦ مليون مزرعة ، اما الآن فهناك ٢٤ او ٢٥ مليون مزرعة . يجب على الحكومة ان تشرع في اقامة مزارع كبيرة تنتج حبوباً قابلة للتسويق ، ولكن هذه يجب ان تكون مزارع جماعية كبيرة لا مزارع الكولاك الكبيرة .

لم يكن البلشفيون اليساريون يقولون ابداً بان يساق الفلاحون الى المزارع الجماعية بالقوة ، بل كانوا يقولون بان الانتقال من الزراعة الخاصة الى الزراعة الجماعية يجب ان يتم تدريجياً وبرضى الفلاحين انفسهم ، فالجماهير الفلاحية الفقيرة ستكون مسرورة جداً بالانضمام الى المزارع الجماعية اذا ما قدمت لها الحكومة الحوافز المناسبة من محاريث آلية واسمدة وبذار وما الى ذلك ، فهذه الحوافز ستزيد الى حد كبير انتاجية العمل الزراعي وتقنع المالكين الصغار بفوائد الزراعة الجماعية لكن حوافز كهذه لن تكون متوافرة الا اذا توسعت الصناعة ، وبالاضافة الى ذلك يجب تعليم الموجيك استعمال الآلات . هكذا اعترف البلشفيون اليساريون بان التحويل الزراعي سيأخذ الكثير من الوقت ولكن الحكومة يجب ان تبدأ بالاصلاح بحزم .

رفض البلاشفة اليساريون ايضاً قبول وجهات نظر ستالين وبوخارين حول ثبات الرأسمالية ، ورددوا ما قاله لينين من ان الحرب العالمية الاولى احدثت ازمة عامة في النظام الرأسمالي ، وافتتحت عصراً من التحول الثوري على مدى العالم ، ولم يكن انحسار المد الشيوعي في الخارج ذا اثر ، في رأيهم ، على السمة الثورية الاساسية للعصر ، واشار البلاشفة اليساريون الى الثورة التي كانت قد بدأت في الصين والى قعقعة الازمة الاجتماعية الخطيرة في بريطانيا .

في خريف عام ١٩٢٥ انتقلت المناظرة من المكتب السياسي الى الصحافة والاجتماعات العامة . نشر زينوفييف مقالته « فلسفة عصر » وكتاب « اللينينية » . في تشرين الاول قدم قادة اليسار مذكرة الى اللجنة المركزية يطالبون فيها بفتح مناظرة حرة حول كل المواضيع المختلف عليها ، وكانت هذه المذكرة التي تشبه محاولات تروتسكي السابقة ، موقعة من زينوفييف وكامينيف وكروبسكايا وسوكولنيكوف ، وزير المالية .

كانت المناظرة الحقيقية بين الجناحين المتطرفين ، اما ستالين فلم يساهم فيها باية فكرة من عنده . لقد كان ينظر شزراً الى خطط التصنيع والتجميع الجريئة التي تقدم بهـا شريكاه السابقان واتهمهما بانهما من اتباع التصنيع المكثف، على الرغم من ان خططهمـا كانت اقرب الى ان تكون جبانة اذا ما قورنت بالخطط التي نفذهـا ستالين نفسه بعد سنوات معدودات ، كما اتهمهما بانهمـا يحاولان فصم عرى التحالف بين البروليتاريا والفلاحين ، على الرغم من ان الاجراءات « المضادة للموجيك » التي اقترحاها كانت معتدلة جداً اذا ما قورنت بالتجميع الزراعي الذي نفذ في ١٩٢٩ - ١٩٣٠ . لقـد كان الخط الذي يدافع عنه الجناح اليميني يبدو لستالين واعداً بفوائد جمة اقرب منالا ، كما بـدا له اكثر اماناً .

لكن ستالين اجهد نفسه محاولا ان يظهر امام الحزب كمدافـع عن الخط الوسطي ، فقد دافع عن الموجيك ، اي عن الفلاحين الفقراء والمتوسطين ولكنه هاجم الكولاك ، وشجب زينوفييف وكامينيف لانهما لم يحثا على معاداة الكولاك فحسب بـل الفلاحين المتوسطين ايضاً، ومع ان ستالين صنف زينوفييف وكامينيف على انهما Super industria - lizers ، فقد ضمن التصنيع للبرنامج الذي قدمه للمؤتمر الخامس عشر للحزب ، امـا في الواقع فقد وضع التصنيع على الرف طيلة ما يقارب ثلاث سنوات حتى اواخر ١٩٢٨ بينما كان برنامج الجناح اليميني يوضع موضع التطبيق . مع كل ذلك، ادت معادلات ستالين الوسطية الغامضة مهمتها فقد جعلت برنامج الجناح اليميني السياسة الرسمية للحزب في الوقت الذي هدأت خواطر اولئك الذين لو فرض عليهم ان يختاروا بصورة حاسمة مـا بين اليمين واليسار لكان من الحكمة ان يختاروا اليسار .

* * *

في هذه الاثناء استغل ستالين تردد تروتسكي وعضـوا الثلاثي السابقين (كامينيف وزينوفييف) في ان يتحدوا في مواجهته ، على الرغم من ان نقاطاً عدة قـد اصبحت مشتركة فيما بينهم . استمر ستالين يراقب ، من مركز القوة الذي كان يحتله ، خصومه المفتتين ومحاولاتهم الخجلة للاقتراب من بعضهم البعض ، كما كان يراقب الحزازات والحسد والكراهية التي كانوا لا يزالون يشعرون بها تجـاه بعضهم ، وزاد ستالين من اضطراب صفوف خصومه بايماءاته الغامضة في اتجاه الاقتراب من تروتسكي . بدأ عملاء الامانة العامة

يذكرون اتباع تروتسكي باستمرار ان زينوفييف ، وليس ستالين ، هو الذي اظهر اسوأ انواع الخبث والقسوة في الصراع ضدهم ، وتجنب ستالين نفسه في كتابه مسائل اللينينية ، الذي اصدر في كانون الثاني ١٩٢٦ ، ان يوجه اية ملاحظة عدائية الى تروتسكي بل وجه كل هجومه على زينوفييف وكامينيف. حث بعض التروتسكيين البارزين ، مثل انطونوف — اوفزينكو ورادك ، زملاءهم على الاندماج مع ستالين ، ولكن البعض الآخر كان يود لو ان طاعوناً يقضي على ستالين وشركائه السابقين على حد سواء ، فقد وصف مراخكوفسكي احد اقرب اصدقاء تروتسكي ، بايجاز خطر اي تحالف اذ قال « ستالين سوف يخدعنا وزينوفييف سوف يتسلل بعيداً عنا » . من جهة أخرى ، كان اتباع زينوفييف مشربين بقوة ضد تروتسكي الى درجة انهم كانوا يعتبرون ان ترديدهم لكثير من حجج تروتسكي ما هو الا سخرية من سخريات القدر . اثناء ذلك كله ، كان الامين العام يضرب بقبضته الثقيلة على المنشقين الجدد كما سبق وان ضرب القدامى ، فابعد اتباع زينوفييف من مراكز المسؤولية ، اما العمال العاديون الذين لا زالوا يتذكرون ان التصويت الى جانب المعارضة السابقة كلف البعض منهم وظائفهم ، فقد اصبحوا يتجنبون الالتزام — لقد كان هنـاك الكثير من البطالة في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) لدرجة ان لا احد ، عدا اكثر الناس شجاعة ، يمكن ان يجازف بالمخاطرة . بقي هناك الشكاكين والمترددين وهؤلاء استجابوا لنداءات « النظام الحديدي » التي امطرهم الامين العام بوابلها .

حدث في تلك الايام ، في نوفمبر ١٩٢٥ ، حادث غريب يظهر الى أي مدى اصبحت افعـــال الحزب الانعكاسية معتادة على الاستجابة لأكثر مطالب « النظام الحديدي » لامنطقية . وقع فرونز ، خليفة تروتسكي في مفوضية الحرب ، مريضاً ، وأشار عليــه بعض اطبائه ان يخضع لعمليـة جراحية ، بينما خشي الآخرون ان يفقد حياته إذا ما اجريت له مثـل هذه العملية لضعف بنيته . حسم المكتب السياسي المسألة وأمر المفوض ان يسلم نفسه لمبضع الجراح . أطـــاع فرونز الامر على مضض ، وكان ان قضى نحبه على منضدة العمليات . ألمح تروتسكي فيما بعد الى ان ستالين احضر احد اتباعه من الاطبـــاء ليدلي امام المكتب السياسي بشهادة في صالح العملية ، وهكذا حكم ستالين فعلياً بالموت على المفوض الذي كان قـــد اختار جانب زينوفييف في النزاع . من الصعوبة بمكان ان نكتشف الحقيقة ، ولكن الواضح والاهم في هذه القصة هو ان المكتب السياسي اباح لنفسه ان يتخذ قراراً بصدد مسألة شخصية بحتة كهذه . كان البلشفي ، سواء كان قائد أو امين

عـــام احدى لجان المقاطعات ، ملكاً بكليته للحزب ، فهو لا يملك وجوداً ولا ارادة تتخطى الحزب ، وحتى أكثر الامور الشخصية حميمية كانت عرضة لمراقبة وتفتيش من هم أعلى منه رتبة . لا حاجة للقول انه إذا كان فرونز قد خضع فان العضو العـــادي لا يجرؤ حتى على المناقشة . كـان الحزب ككل مستسلماً لمبضع الجراح الحقود ، الامين العـــام .

لا غرو ، والحـــالة هذه ، ان يهزم ستالين شركاءه القدامى في المؤتمر الرابع عشر للحزب ، عـلى الرغم من ان زينوفييف نجح في ان يضم الى جانبه مندوبي لينينغراد وان يخوض بهم صداماً عنيفاً دراماتياً . احتج كل من زينوفييف و كامينيف بعنف على حـكم الامين العام وقاموا بمحاولة متأخرة لوضع وصية لينين امـــام الحزب ، فواجههم ستالين بجميع الاتهامات التي كان قد حماهم منها لسنة خلت عندما هاجمهم تروتسكي على اساسها، فأصبحوا « المتخلفين » و « محطمي الاضراب » في اكتوبر . وقف ستالين بجانب شركائه الجدد ، بوخارين وريكوف وتومسكي ، تماماً كما وقف سالفاً بجانب زينوفييف و كامينيف قائلاً انه لمن الغريب المذهل تخيل قيادة الحزب بدونهم ، وروى للمؤتمر كيف ان نقـاده الحاليين هم الذين وضعوه في منصبه وهم الذين أبقوه فيه على الرغم من انه اراد ان يستقيل مرات عديدة . حينئذ غرقت صيحات ممثلي لينينغراد « استقل الآن » في خضم صيحات الغضب التي اطلقتها اغلبية المؤتمرين والهتافات التي قصفت كالرعد محيية ستالين «واللجنة المركزية اللينينية موحدة حوله » . من هنا بدأ استعمال هذا التعبير الذي اصبح فيما بعد كليشيهاً مميزاً . اسمياً كان الحزب لا يزال منقاداً لجماعته ، « للجنة المركزية اللينينية » ، ولكن هذه الجماعة اصبحت « موحدة حول ستالين » . دستوريـــاً ، لا يستطيع الامين العـــام ان يتخذ لنفسه مركزاً متميزاً عن بقية اعضاء اللجنة المركزية ، ولكنه اصبح معترفاً به كالأول بين انداد . وأصبح هـــذا مركزه نظرياً لعدة سنوات تلت بعد ان اصبحت اللجنة المركزية مجرد ظل له .

كانت الخطوة التالية بعد المؤتمر هي ازاحة المعارضة من معقلها في لينينغراد ، فقد كان لصوت « مدينـــة لينين » وزن كبير جداً لدرجة لا يمكن معها ان يسمح لها بان تتكلم باســـم المعارضة . كان الرجل الذي ارسله ستالين لازاحة زينوفييف من لينينغراد هو سيرجي كيروف — الذي كان اغتياله عام ١٩٣٤ فاتحة الارهاب الذي ساد في أواخر

الثلاثينات . كان كيروف ، وهو احد البلاشفة القدماء الذين كانت الاضواء أقل تركزاً عليهم ، اميناً عاماً لمنظمة باكو حتى ذلك الحين وكان منظماً نشيطاً وخطيباً مفوهاً ، وعندمـــا ذهب الى لينينغراد مزوداً بسلطات مطلقة توجه الى نزعة سكان لينينغراد الى الخضوع الى النظام ، فتوصل الى هدفه بسرعة ظاهرياً على الاقل ، فقد استمرت المدينـة في عطفها على المعارضة ولكنها خضعت لأوامر الامانة العامة .

لم يربط زينوفييف وكامينيف مصيرهما بمصير تروتسكي إلا بعد هزيمتهما في ربيـع عام ١٩٢٦ ، وفي هذه الاثناء كان تروتسكي بدوره قد اضعف مركزه بشجبه لأنصاره في الخارج الذين نشروا وصية لينين . لقد ذهب تروتسكي في ذلك بعيداً لدرجة انـــه شكك في صحة الوصية ، وكل ذلك باسم النظام . لذا لم يكن اتحاد المعارضتين اكثر من اجتماع حطامين .

تلقى ستالين نبـــأ اتحاد خصومه بملاحظة ساخرة موجزة « آه ، لقد صفحوا عن بعضهم البعض » . لم يكن ستالين ليحتاج اكثر من ان يعيد الى الاذهان ما قاله خصومه الثلاثة وكتبوه عن بعضهم البعض حتى يصمهم جميعاً بالسخف . بالاضافة الى ذلك ، سمع الحزب من زينوفييف وكامينيف « القصة الخفية » لمؤامرتهم مع ستالين على تروتسكي ، ولم تكن هـــذه الافصاحات في صالح أي من المتآمرين ، فقد صدمت الناس الذين كانوا يرون في المكتب السياسي مجمعاً لكل الفضائل وعلى الاخص التفاني ، الخالي من الانانية ، للثورة ، هذا بالاضافة الى ان «القصة الخفية» اظهرت ان زينوفييف وكامينيف عملا لمصالح خاصة واضحة مما القى ظلالاً من الشك على نزاهتهما . كانت الاشياء التي اسر بها هذان لتروتسكي واصدقائه المقربين مذهلة حقاً ، فقد حذروا تروتسكي من ان حياتـه في خطر ، وافضوا اليه بانهم انفسهم كتبوا وصاياهم احتياطاً عندما انفصلوا عن ستالين ، وصوروا الامين العام على انه شخص ماكر ، سادي يحب الانتقام ، ويسيطر عليه الغرور وشهوة السلطة ، ولكنهم فشلوا في ان يقدموا تفسيراً معقولاً لبقائهم شركاءه المقربين لمدة ثلاث سنوات على الرغم من معايبه هذه ، كما ان نوبات الهلع التي كانت تصيبهم لم تمنعهم من ان يحلموا اكثر الاحلام دموية بصدد فرص النجاح التي يتوقعونهـا ، فقد قال كامينيف لتروتسكي « يكفي ان تظهر وزينوفييف على المنصة حتى تعيدوا قهر الحزب بكامله » .

لكن ستالين لم ينتظر طويلاً ليحيل احلامهم الى هباء ، فقد كان يعرف جيداً ان المعارضة الجديدة الملغمة لا يمكن الا ان ترتطم بالعقبة التي هزمت تروتسكي قبلا ، لقد كان يعرف انهم لن يخرجوا بالصراع خارج حدود الحزب . لم تكن المعارضة تحلم حتى بمجرد الحلم بتشكيل حزب منفصل : فقد قبلت المسلمة القائلة بان حزباً واحداً فقط يمكن ان يوجد في الدولة السوفييتية وانه اذا ما تنافس حزبان على السلطة فان احدهما لا يمكن الا ان يلعب دوراً مضاداً للثورة ، ومع ذلك فان منطق الصراع ذاته كان يدفع بالمعارضة الى لعب دور الحزب المنفصل، وكانت كل خطوة تخطوها في هذا الاتجاه تملأ قلوب قادتها بالفزع والندم ، ومن هنا فقد كانوا يستنكفون ويتراجعون عن كل خطوة كهذه ليعودوا فيخطون خطوة اخرى ليستنكفوها ويعلنوا اسفهم لها . بدا اتجاه كهذا غير مخلص وغير امين في اعين معظم البلاشفة ، ولم يكن هنا بد من ان يدخل هذا الاتجاه اليأس الى قلوب اعضاء المعارضة .

كان اكثر المسائل التي اثيرت حساسية هو سلوك المعارضة في الجيش . بعد ان مات فرونز ،عين فوروشيلوف مفوضاً للحرب ،وبدا ذلك وكأنه تتويج لانتقام جماعة تساريتسين Tsaritsyn من تروتسكي ، لكن لاشيفيش صديق زينوفييف ونصيره كان لا يزال نائباً لفوروشيلوف. بدأت المعارضة الحالية ، بعد تردد طويل ، في حمل الصراع الى داخل القوات المسلحة ، على العكس مما فعلته معارضة ١٩٢٤ . في تموز ١٩٢٦ كشف ستالين للجنة المركزية ما فعله لاشيفيش من تنظيم المتعاطفين مع المعارضة في تنظيم نصف سري ، فكان ذلك ضربة قاصمة للمعارضة طرد لاشيفيش على اثرها من منصبه العسكري وفصل من اللجنة المركزية ، كما فقد سنده زينوفييف مقعده في المكتب السياسي .

ابقى ستالين للمرة الاولى سيف الطرد من الحزب مصلطاً فوق رؤوس خصومه ، وكان هؤلاء تواقين لتفادي هذا السيف ، فبدأوا في التراجع ، ووقع تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وبياتاكوف وسوكولنيكوف في ٤ تشرين الثاني وغيرهم بياناً اعترفوا فيه بانهم مذنبون لارتكابهم مخالفات بحق الحزب وقالوا انهم مزقوا الحزب من داخل الحزب ، كما انهم تنصلوا من المتطرفين في صفوفهم الذين كانوا منقادين لشليابنكوف وميديديف ، قادة معارضة ١٩٢١ . غير ان تروتسكي وجماعته ، بعد ان اعترفوا بمخالفاتهم لقواعد النظام الحزبي ، رددوا بحزم ووقار مآخذهم السياسية على ستالين وبوخارين .

جاء الدور لستالين ليشرع في العمل مرة اخرى ، ففي اواخر ١٩٢٦ فصل تروتسكي من المكتب السياسي ، وبذلك لم يعد هناك اي ممثل للمعارضة في هذا المجلس ، كما اطاح بزينوفييف من رئاسة الشيوعية الدولية وحاكمه امام اللجنة التنفيذية الدوليـــة فاقرت الاطاحة به ،ثم عقد مؤتمراً للحزب الروسي تم فيه تبني التغييرات التي طرأت على المكتب السياسي واعادة شليابنكوف وميديديف الى الحزب بعد ان اعترفا علناً بانهما مخطئين . هكذا مهد السبيل امام سلسلة من عمليات الفصل فاعلان التوبة فالاعادة الى الحزب .

تبعت هذه الاحداث هدنة زائفة في النصف الاول من عام ١٩٢٧ وكانت هذه الهدنة الاخيرة قبل المرحلة النهائية . في الصيف احتدم الصراع مرة أخرى بخصوص التطورات الاخيرة في السياسة الدولية ، ففي ١٢ ايار (مايو) هاجم البوليس البريطاني مبنى البعثة التجارية السوفييتية في لندن ، وبعد ذلك باسبوعين قطعت بريطانيا علاقاتها الدبلوماسية مع روسيا . في ٧ حزيران (يونيو) اغتال مهاجر روسي فياكوف ، ممثل روسيـــا في وارسو ، وفي حوالي هذا التاريخ انقض شيان كاي شيك على الشيوعيين الذين كانوا حتى ذلك الحين يدعمون الكيومنتانج ويرتبطون به . كانت المعارضة قـــد انتقدت ستالين بحدة لدعمه لشيان كاي شك والزامه الشيوعيين الروس والصينيين بدعمه ، ومن هنـــا كانت خطوة كاي شيك الجديدة مصدر احراج بالغ لستالين، وكذلك كان نقض اتفاق اتحادي العمال البريطاني والسوفييتي ، ذلك الاتفاق الذي دافع عنه ستالين في وجه هجمات المعارضة. في خضم هذا التوتر اصدر ثلاثة وثمانون من قادة المعارضة بياناً بليغاً وضعوا فيه اللوم على عاتقي ستالين وبوخارين بسبب كل الانتكاسات الاخيرة .

خلال هذه المناظرة ، وفي صيف ١٩٢٧ ، ادلى تروتسكي بتصريحه المشهور تصريـــح كليمنصو ، هذا التصريح الذي يشكل مفتاحاً لفهم الاحداث التي وقعت في السنين العشر التالية ، عندما كانت الحرب العالمية الثانية تخيم بشبحها . كان جوهر بيان تروتسكي يؤكد على انه اذا ما وجدت روسيا نفسها في حرب فان المعارضة ستتخذ تجاه الجماعة الحاكمـــة موقفاً شبيهاً بالموقف الذي اتخذه كليمنصو حيال حكومة سيلو Caillaux ومالفي Malvy الفرنسية خلال ازمة عام ١٩١٧ . (اتهم كليمنصو الحكومة بنقص الفاعلية والانهزامية وذلك قبل ان يستولي على مقاليد الحكم ويشن حرباً ناجحة على المانيـــا) . بكلمات اخرى ، اتهم تروتسكي ستالين وريكوف وبوخارين وفوروشيلوف بنقص في الفاعليـــة

والحزم وتشوش في الرؤيا ، واوضح انه اذا ما نشبت حرب طارئة فانه سيناضل من اجل تغيير الحكومة حتى يستنفر البلد وتنظم موارده لاغراض الدفاع . لم يكن موقف تروتسكي غير عادي اذا ما قيس بالمقاييس العادية للانظمة التي تسمح بحكومات بديلة ، فتشرتشل مثلاً طبق في بريطانيا « تكتيك كليمنصو » بنجاح عشية الحرب العالمية الثانية ، أما في ظل نظام لا يسمح بحكومة بديلة للحكومة التي تقبض على زمام السلطة فان تصريح تروتسكي بدا وكأن رائحة الخيانة تفوح منه ، وكان ان ردت عليه الامانة العامة بتصريحات معاكسة عن « جبهة متحدة مضادة للسوفييت من تشمبرلين الى تروتسكي » .

اصبحت المعارضة الآن عملياً خارجة على القانون على الرغم من ان تروتسكي وزينوفييف كانا لا يزالان اعضاء في اللجنة المركزية بعد فصلهما من المكتب السياسي . رفضت الامانة العامة نشر مذكرة اعدتها المعارضة لتعرض امام مؤتمر الحزب القادم ، فقام المعارضون بطبعها بطريقة شبه سرية ، فكان ان فصل قادة المعارضة من اللجنة المركزية بسبب ذلك . في ٧ تشرين الاول ١٩٢٧ وخلال الاحتفال الرسمي بالعيد العاشر لثورة اكتوبر ، قاد تروتسكي وزينوفييف اتباعهما في مسيرات منفصلة في شوارع موسكو ولينينغراد ، وعلى الرغم من ان هذه المسيرات كانت سلمية وان اللافتات التي حملها المتظاهرون والشعارات التي اطلقوها لم تكن موجهة ضد الجماعة الحاكمة الا غمزاً وتلميحاً ، فان هذا الحادث ادى الى احتدام الصراع ففصل كل من تروتسكي وزينوفييف من الحزب فوراً . في تشرين الثاني اعلن المؤتمر الخامس عشر للحزب « ان الانتماء الى المعارضة والدعاية لارائها لا يتفقان مع عضوية الحزب » ، ولم تجد الاعذار التي التمسها كامينيف وراكوفسكي للمعارضة نفعاً فقد كانت تغرق في خضم الصخب الهستيري الحقود المتواصل الذي كان يطلقه جمهور المؤتمرين ، ثم تكلم ستالين « كفى ايها الرفاق ، يجب ان نضع حداً لهذه المهزلة ... ان الكلمة التي القاها كامينيف كانت اكثر كلمات المعارضة التي القيت من على هذا المنبر نذالة ونفاقاً وكذباً واحتيالاً » عندئذ طلب المؤتمر من قادة المعارضة ان يشجبوا آراءهم ويعلنوا تخليهم عنها ثمناً لاستمرار عضويتهم في الحزب ، وعبثاً حاول كامينيف وراكوفسكي ان يحتجا بان مطالب كهذه تتعارض مع التقاليد البلشفية ، وانه اذا ما انصاع قادة المعارضة فانهم لن يفعلوا شيئاً سوى ان يحقروا انفسهم دون ان يكسبوا احترام اعضاء الحزب . في ١٨ كانون الاول فصل الحزب خمسة

وسبعين زعيماً من زعماء المعارضة بالاضافة الى كثيرين كانوا قد فصلوا أو اعتقلوا .

بعد ذلك بيوم واحد انشقت المعارضة ، فرفض القسم التروتسكي منها ان يرضخ لمطالب المؤتمر ، فكان ان نفي تروتسكي الى الماآتا وراكوفسكي الى استراخان ، اما زينوفييف وكامينيف واتباعهما فقد اصدروا بياناً تخلوا فيه عن آرائهم ، فكان ان هزمت المعارضة بهذا التخاذل هزيمة لا تقل عن هزيمتها نتيجة لضربات ستالين . لم يكن ذل التخاذل سوى البداية في سلسلة المذلة التي تعرض لها المتخاذلون فقد رفض المؤتمر استسلامهم غير المشروط وترك للامانة العامة ان تبت في موضوع اعادتهم الى الحزب ، وبذا كان نصر ستالين على شركائه السابقين اكمل بكثير من نصره على تروتسكي .

* * *

تبدي القصة التي تلت ذلك في نقاط عديدة تشابهاً مملاً مع القصة التي سبقت لدرجة لا تستأهل معها ان نتعرض لها بالتفصيل . انفصمت عرى شراكة ستالين مع بوخارين وريكوف وتومسكي بعد هزيمة خصومهم تماماً كما انهار تحالف الثلاثي عقب استقالة تروتسكي ، وعلى الرغم من ان المرحلة الجديدة كانت مختلفة جداً في خلفيتها السياسية والاجتماعية ، فان المطامح الشخصية للابطال الرئيسيين ومخاوفهم وبحثهم المتأخر عن محالفات جديدة ، كل ذلك كان مماثلاً لما حدث في المرحلة السابقة .

من المذهل حقاً كيف كان خصوم ستالين يقللون من اهميته ، كما ان السرعة التي كانوا يكتشفون بها خطأهم كانت مذهلة هي الاخرى . تنبأت المعارضة المهزومة بعد المؤتمر الخامس عشر ان القيادة ستنتقل من ستالين الى بوخارين وريكوف وتومسكي بعد ان صفي اليسار ، فكان تروتسكي يحذر الحزب باستمرار من « انعطاف وشيك خطير نحو اليمين » يمكن ان يؤدي إلى عودة الرأسمالية ، كما ان بوخارين وريكوف وتومسكي شعروا بدورهم انهم المنتصرون ، فقد كان المكتب السياسي المنتخب بعد المؤتمر يبدو وكأن تشكيله يضمن لهم السيطرة . كان المكتب السياسي الجديد مكوناً من تسعة اعضاء وكان ستالين متأكد من اربعة اصوات : صوته وصوت مولوتوف وصوتي العضوين الجديدين وهما كيوبيتشيف ورودزوتاك ، اما بوخارين وريكوف وتومسكي فقد كانوا

يميلون على دعم فوروشيلوف وكالينين ، ولكن عندما حلت اللحظة الحاسمة رمى هذان بصوتيهما الى جانب ستالين مما دعا بوخارين الى ان يقول فيما بعد « لقد كان لستالين سلطة خاصة عليهما لا ادري كنهها ، كان نواب اعضاء المكتب السياسي وهم كيروف وكاجانوفيتش واندرييف وميكويان وغيرهم انصاراً لستالين عدا عضو واحد هو اوجانوف ، فبدأ ستالين ، معتمداً على الاغلبية التي يضمنها ، في ازاحة اتباع بوخارين من المراكز الحساسة في الادارة والجهاز الحزبي ، متجنباً في الوقت الحاضر الدخول في صراع علني مع خصومه في المكتب السياسي .

بدأت الحملة على اليمين ضمن ظروف ازمة اجتماعية خطيرة نشبت تماماً كما تنبأ زينوفييف وتروتسكي ، فلم يكد يمضي اسبوع واحد بعد ان لفظ المؤتمر حكمه عليهما حتى وجدت مدن روسيا وبلدانها نفسها مهددة بخطر المجاعة ، فقد نقصت مشتريات الحكومة من الحبوب من الفلاحين في كانون الثاني بمقدار مليوني طن عن الحد الادنى الضروري لاطعام سكان المدن . أمر المكتب السياسي باتخاذ « اجراءات طارئة » كانت ، كما وصفها ستالين ، تتسم « بالاعتباطية الادارية وخرق القانون الثوري والغارات على بيوت الفلاحين واجراءات التفتيش غير القانونية » ، وهنا بدأ ستالين يؤكد ، على عكس جميع تصريحاته التي اطلقها في الفترة الاخيرة ، ان طبقة الكولاك بحجبها الحبوب عن الحكومة « انما تعطل السياسة الاقتصادية البلشفية » . في حزيران اعلنت اجراءات طوارىء جديدة ، وفي تموز دعا ستالين الحزب « الى الضرب بيد من حديد على الكولاك » . لم يتبع البلاشفة في الريف هذه التعليمات برضى : ذلك انهم في السنين الثلاث الاخيرة لقّنوا اهمية « التحالف مع الفلاحين » وعُلّموا ان عداء الموجيك علامة مميزة للهرطقة التروتسكية . ومن هنا قامت الامانة العامة خلال اشهر آذار ونيسان وايار وحزيران « بربيع تنظيف » في الحزب فصلت خلاله الموظفين الحزبيين الذين كانوا يعرقلون اجراءات الطوارىء .

حاول بوخارين وريكوف وتومسكي عبثاً خلف ابواب المكتب السياسي المغلقة ان يوقفوا الاتجاه الجديد وان يحموا ضحايا التطهير ، ولكنهم كانوا حذرين في ان لا يخرجوا بالنزاع على العلن ، ولذا كانوا في اعين الشعب يتحملون قسطاً من مسؤولية اجراءات

الطوارىء . جنى ستالين كل فائـــدة من كتمان معارضيه واكد للحزب ان اجراءات الطوارىء اقرت في المكتب السياسي بالاجماع فقال في تشرين الاول « ليس هناك يمينيون في المكتب السياسي » وبعد ذلك بشهر قال « اننا في المكتب السياسي متحدون وسنبقى كذلك حتى النهاية » . اما في الجلسة الطارئة للجنة المركزية فقد توقف عند مهاجمة احد المقربين من بوخارين وهو فرومكين مفوض الحرب الجديد الذي قـــال « ان الريف ، باستثناء قطاع الفلاحين الاكثر فقراً ، معارض لنا » وان « جماهير الفلاحين الاساسيـــة ينتابها الضيق واليأس » لم يذكر ستالين اسم بوخارين كقائد للمعارضة اليمينيـــة الا في نيسان ١٩٢٩ أي بعد سنة من نشوب الصراع .

على الاقل صارعت المعارضة السابقة ستالين قبل ان تنهزم ، ولكن مجموعة بوخارين لم تكن قادرة حتى على قبول التحدي . ففي مرحلة متقدمة من الصراع ، تموز ١٩٢٨ ، توجه بوخارين بحثاً عن الدعم الى كامينيف بطريقة تشبه الى حد بعيد الطريقة التي اتجه بها كامينيف وزينوفييف الى تروتسكي . كانت « الافصاحات » التي ادلى بهـا شركاء ستالين السابقون هي ذاتها بالضبط في كلتا الحالتين ، كما كانت هذه الافصاحات تسم بنفس الحالة النفسية حالة الهلع الذي يشوبه امـل غامض . تحدث زينوفييف وكامينيف عن الخطر الذي يتهدد حياتهما وحياة تروتسكي ، والآن يهمس بوخارين لكامينيف بفزع « سيخنقنا » « انه متآمر لا مبادىء له يخضع كل شيء لشهوته للسلطة . انه يغير نظرياته في اية لحظة ليتخلص من شخص ما » « اننا نعتبر الخط الذي يسير عليه ستالين ضربة قاضية للثورة ، ان هذا الخط يقودنا الى الهاوية . خلافاتنا مع ستالين اعمق بكثير من خلافاتنـا معكم » . تحدث بوخارين عن المنظمات والاشخاص النافذين الذين يمكن ان يدعموا المعارضة ، وكأنه كان بذلك يريد ان يوحي بالثقة ، ولكنه قبل ان ينهي حديثه رجا موضع سره ان لا يشير لى حديثهما السري اية اشارة لأن البوليس السياسي يراقبهما بدقة ، ثم ترك كامينيف وهو يتحدث بفزع عن « جنكيز خان » الامانة العامة . لقد وضع تروتسكي يده بايدي اعضاء الثلاثي السابقين بعد فوات الآوان اما بالنسبة لبوخارين وكامينيف فقد كان الاوان قد فات حتى لمجرد المحاولة .

ان احد اسباب هذه الحالة المثيرة للشفقة تكمن بالطبع في التزايد شبه الآلي للضغط الذي كان ستالين يمارسه على مجمل الحياة السياسية للبلاد ، فقد ادت هزيمـــة كل من المعارضات المتعاقبة الى التقليص الشديد للمجالات التي كان يمكن فيهـــا ممارسة حرية

التعبير عن الرأي . لم يكن قادة اية معارضة ليستطيعوا ان يجدوا لأنفسهم فسحة اوسع من تلك التي كانوا هم انفسهم ، بالتحالف مع ستالين ، قد حشروا خصومهم فيها ، فبعد كل حسم للصراع تصبح الاعمال التي كانت حتى ذلك الحين لا يرقى اليها الشك اعمالاً لا تغتفر . لم يستطع ستالين لاسباب شكلية ان يفصل تروتسكي من الحزب بسبب « تصريح كليمنصو » الذي ادلى به على الرغم من ان هذا التصريح كان يتضمن تهديداً بقلب الحكومة ، كذلك لم يكن باستطاعته ان يبرر الضربات الانتقامية التي كالها للمعارضة في عام ١٩٢٧ الا على اساس خروقات محددة للنظام ، تلك الخروقات التي دفع هو نفسه خصومه اليها كالطباعة السرية والتظاهرات غير المصرح بها . بعد ذلك باقل من سنة ، كانت مجرد محادثة هامة بين عضو في المكتب السياسي وأحد قادة المعارضة التائبين قد اصبحت جنحة خطيرة طلب بوخارين من المكتب السياسي الغفران لهـا وهو يذرف الدموع . كان البديل الوحيد للخضوع نفياً من دون محاكمة لا يمكن احتماله اضعافاً مضاعفة ، لانه كان يفرض على « الجانح » لا من قبل عدو طبقي ولكن من قبل رفيقه في الثورة ، ولانه كان يترك « الجانح » غير قادر حتى على البكاء في العراء .

كان هناك سبب آخر للحقيقة المتناقضة مع نفسها ظاهرياً ، حقيقة ان معارضي ستالين كانوا يزدادون كساحاً كلما ازداد عددهم . قال بوخارين لكامينيف « ان خلافاتنا مع ستالين اعمق بكثير من خلافاتنا معكم » . كان ما يدور بخلد بوخارين هو الطريقة التي كان ستالين يفرض بها نفسه ، طغيانه ، ثقته بنفسه ، عدم تعليقه اي اعتبار على الرأي العام ، واحتقاره لنخبة الحزب المفكرة . في الحقيقة كانت المعارضات جميعاً قديمها وجديدها ، متفقة بخصوص ذلك ، ولكن هذا لا يكفي لتوحيدها في جسم واحد متماسك ، بل على العكس من ذلك ، جعلت خطوات ستالين الاخيرة وابتعاده عن السياسة الموالية للموجيك الاضطراب يتنامى في صفوف نقاده ، فقد اصبح ممثلو الامانة العامة يزورون قادة المعارضة القديمة المنفيين حاثين اياهم على العودة الى كنف الحزب قائلين لقد تبنى ستالين في النهاية الآراء التي وقفتم انفسكم لها فهو يضرب الكولاك ويعتزم تصنيع البلد ، وهو يخوض غمار صراع مع بوخارين وريكوف وتومسكي اعداءه واعداءكم الحقيقيين ، فما الفائدة من بقائكم خارج المسرح السياسي في الوقت الذي يحتاج فيه الحزب بشدة الى خبراتكم ومواهبكم ، تقولون ان من حقكم ان يعاد اعتباركم بصورة علنية ، ولكن لماذا تطلبون من قيادة الحزب أن تخطّىء نفسها في هذه

اللحظة الحرجة التي يجب فيها على القيادة ان تحتفظ بهيبتها باي ثمن ، الكرامة الشخصية ليست فضيلة بلشفية ، على أي حال انتم تعرفون انكم بالفعل اقترفتم اخطاء بحق النظام، كل ما يطلبه الحزب منكم مسألة شكلية : ان تشجبوا موقفاً مضى عليه الزمن على أي حال ، وبالمقابل يصبح بامكانكم ان تستأنفوا خدماتكم الجليلة للثورة .

كان تروتسكي وراكوفسكي صلبين وممتنعين عن التوبة ، اما زينوفييف ورادك وبياتاكوف وسوكولنيكوف وسميلجا وعشرات غيرهم فقد استحثوا على « اقتراف الخطيئة في حب الفضيلة » . خلال سنتي ١٩٢٨ و١٩٢٩ كان هناك تيار متواصل من اعضاء المعارضة « التائبين » العائدين من منافيهم الى موسكو ، فقد كان المعارضون البائسون يعتقدون ان انعطاف ستالين المفاجيء نحو اليسار سوف يضع اشرعتهم في مهب الريح وانهم بذلك سيستعيدون سيطرتهم على الحزب في الوقت المناسب، وفي اثناء ذلك تخلوا عن اصدقائهم الذين فضلوا السجن او النفي على الاشتراك في لعبة تكتيكية معقدة ومهينة . هكذا كان ستالين واثقاً من الكرم الوقتي لكثير من اعضاء المعارضة القديمة بينما كان يكيل الضربات للمعارضة الجديدة . حذر بعض قادة المعارضة القديمة ، الذين ثبطت عزائمهم نتيجة فشلهم ، بوخارين وشركائه من ان يجبروا على الدخول في صدام لا ترجى منه فائدة ، ولذا بدأت الجماعة الموالية للموجيك في العمل بحذر لكسب الوقت معتقدة ان ستالين يقود البلد الى طريق مسدود ، يصبح معه فصل ستالين أمراً لا مفر منه ، وبالتالي فان كل ما عليها ان تفعله هو ان تكون مستعدة في اللحظة الحازمة للقبض على الزمام عندما ينزلق من بين يديه .

تزايدت اعراض ازمة كهذه بالفعل في أواخر عام ١٩٢٨ ، ولكن ستالين كان يرى آمال منافسيهم والاعيبهم التكتيكية بوضوح ، وكان يعلم ان تروتسكي ، الذي اكسبه موقفه المتصلب احترام العدو والصديق على حد سواء لا زال أخطر خصومه ، فاقترح على المكتب السياسي ان يطرد تروتسكي خارج روسيا ، وأقر الاقتراح على الرغم من احتجاجات بوخارين. ان هذا الحادث يمكننا من أن نسبر اغوار التدريجية التي كان فيها الصراع يحتدم ليصل الى نهايته الدموية ، ففي عام ١٩٢٨ كان ستالين لا يزال يخشى ان يعتقل تروتسكي في روسيا ، ولكنه لم يتردد بعد سنين سبع من ان يصدر حكماً بالموت عليه وعلى كل « الحرس القديم » .

بعد ان ازاح ستالين تروتسكي نهائياً من المسرح الروسي ، اسرع في تقليم اظافر الجناح اليميني فازيح ريكوف عن رئاسة الحكومة السوفييتية التي خلف لينين في رئاستها ، وفصل تومسكي من قيادة اتحادات العمال على اساس انه استخدم نفوذه لتحريض النقابات ضد التصنيع ، وفصل بوخارين من قيادة الدولة الشيوعية التي كان قد خلف زينوفييف في رئاستها ، كما فصل من المكتب السياسي ، ولم ينته عام ١٩٢٩ حتى كان بوخارين وريكوف وتومسكي قد شجبوا الآراء التي اعتنقوها فابتاعوا لأنفسهم بذلك بضع سنين من الهدوء الزائف .

اصبحت سيطرة ستالين كاملة واشرف الصراع على السلطة على نهايته ، فقد صفي كل منافسي ستالين ولم يعد احد من اعضاء المكتب السياسي يحلم بتحدي سلطانه . احتفلت موسكو في الايام الاخيرة من السنة بعيد ميلاد ستالين الخمسين وكأنه حدث تاريخي عظيم فانهالت عليه المدائح من كل زاوية من زوايا روسيا وامتدح كل امناء سر اللجان الحزبية على طول البلاد وعرضها فضائله بمبالغة وفجاجة ، كما تغطت جدران موسكو بصور ضخمة له واحتلت تماثيله الكاملة والنصفية من كل حجم ممكن الساحات وقاعات المباني العامة وشرفات كل المتاجر حتى اصغر دكان حلاقة ، ومضى الدعاة يصيحون بملء افواههم (ستالين هو لينين اليوم) كان بعض كبار السن لا يزالون يذكرون عيد ميلاد لينين الخمسين ، حين اقيم احتفال صغير متواضع حضره لينين على مضض فقط ليشارك معجبيه حبهم للابهة والاحتفالات . اصبحت عبادة شخصية ستالين تختلط الآن بعبادة شخصية لينين بل وتغمرها ، فعندما كان ستالين يقف في المناسبات التذكارية على ضريح لينين في الساحة الحمراء ، كان الضريح الضخم يبدو وكأنه مجرد قاعدة لخليفة لينين .

* * *

قد يكون من السهل على المؤرخ ان يدين ستالين اذا كان باستطاعته ان يفترض انه في صراعه مع بوخارين وريكوف وتومسكي لم يكن مدفوعاً بغير طموحه الشخصي ، ولكن هذا لم يكن الحال ، فلم تكن اهدافه الشخصية هي الشيء الوحيد الذي يتعلق مصيره بنتيجة الصراع ، لا ولا كانت الشيء الاهم ، ففي سنتي ١٩٢٨ و ١٩٢٩ العاصفتين كان مصير روسيا بأكمله معلقاً في الميزان .

كانت بداية الازمة في ظاهر الامر غير درامية البتة حتى لتظهر و كأنها ليست بذات بال ، فكل ما في الامر ان الفلاحين اخفقوا في تزويد المدن ببضعة اطنان من الحبوب ، ولكن على الرغم من ان هـذا يبدو عادياً جداً فقد كان فيه دراما حقيقية . لم يكن للفلاحين في رفضهم بيع الحبوب دوافع سياسية واضحة ، فهم لم يهدفوا الى قلب نظام حكم السوفييت برغم ان بعض عناصر الفلاحين الاثرياء الذي يملك حساً سياسياً كان يأمل في نهاية كهذه ، اما غالبية الفلاحين فقد دفعتها الظروف الاقتصادية الى استخدام هذا الشكل الغريب من اشكال (التخريب) . لم يكن معظم المزارع الصغيرة ينتج اكثر مما يكفي لاطعام المالكين ، فبعد عشر سنين بدأت الانتفاضة الزراعية بأخذ ثأرها ، فعلى الرغم من ان تفتيت الملكيات الزراعية الكبيرة ادى الى ضمان دعم الفلاحين للبلاشفة خلال الحرب الأهلية إلا انه في الحساب الاخير سبب تدهور الانتاجية الزراعية أو بالاحرى حط من قدرة الزراعة على اطعام سكان المدن ، ومن جهة أخرى طالب المزارعون الكبار باسعار عالية ثمناً للطعام ، اسعار اثقلت كاهل سكان المدن بشكل لا يطاق ،كما كانوا يضغطون في سبيل الحصول على امتيازات اكثر لصالح الزراعة الرأسمالية. واجه ستالين ، والحالة هذه ، معضلة كأداء ، فهو ان انصاع للفلاحين واجـه عداء الطبقات العاملة في المدن التي كانت تقف عموماً وراء الحكومة خصوصاً بعد أن نجحت حوالي عام ١٩٢٧ في اعادة بناء الصناعة الى ما كانت عليه قبل الحرب ، اما إذا رفض الانصياع للفلاحين فهو قد يهدد المدن بالمجاعة والاضطراب. كانت المشكلة تستدعي حلاً جذرياً ، فلو كانت الحكومة قد اخذت بنصيحة زينوفييف وتروتسكي وبدأت في تقليم اظافر المزارعين الكبار وتشجيع التجميع التدريجي من قبل ، لما كانت هنـاك حاجة للجوء الى اجراءات طوارىء عنيفة للحصول على الخبز ، اما والحال على ما هي عليه فقد كان على ستالين أن يتصرف تحت ضغط الاحداث الهائل وأدى عدم استعداده لمواجهة الاحداث الى دفعه في اتجاه يمكن أن يفقد عليه السيطرة .

ان الطريقة الذرائعية المرتجلة التي اشرف بها ستالين على الثورة الثانية كانت ستبدو شيئاً لا يصدق لو لم يسجل آراءه في السنوات السابقـة ، من ١٩٢٤ الى اواخر ١٩٢٩ . كانت فرائص ستالين حتى اللحظة الاخيرة ترتعد خوفاً من هذه الثورة ولم يكن لديـه ادنى فكرة عن العمق أو العنف الذي كانت ستتخذه، ولكنه في ذلك لم يكن وحيداً، فليس هناك من جماعة بلشفية أو جناح بلشفي كان يتصور تصنيعاً بالكثافة والسرعـة

التي حققها ستالين ولا كان احد يتصور تجميعاً زراعياً بنفس الشمول والجذرية ، فحتى اكثر البلاشفة اليساريين تطرفاً كانوا ينظرون الى التجميع على انه اصلاح تدريجي بطيء . كان الرجل الوحيد الذي دعا الى فكرة « الثورة الثانية » في الريف هو يوري لارين وهو اقتصادي من الدرجة الثانية انتمى في وقت من الاوقات الى الجناح اليميني من المناشفة ، فقد كتب عن ذلك في وقت مبكر يعود الى ١٩٢٥ ، وعندئذ واجه ستالين هذه الفكرة بسخرية على انها فكرة معتوهة ، وشجب بعنف اولئك البلاشفة الذين يعتقدون بضرورة « اثارة الصراع الطبقي في الريف » : « هذه الثرثرة الفارغة ... الاغاني المنشفية القديمة من الموسوعة المنشفية القديمة » ، وعندما وضع طلبة جامعة سفردلوف أمامه السؤال المحرج « كيف يمكن محاربة الكولاك دون اثارة الصراع الطبقي » اجاب بنفس اللهجة الساخرة ان الحزب « ليس مهتماً باثارة الصراع الطبقي » في الريف وان الشعار « غير مناسب بالمرة » .

في ايار ١٩٢٨ ، اي بعد ثلاث سنين ، وعندما كانت اجراءات الطوارىء قد دخلت طور التطبيق كان ستالين لا يزال يصر على ان « مصادرة املاك الكولاك ضرب من الحمق » ، ولم يكن يتوقع ان ينظم اكثر من جزء بسيط من الزراعة على اسس جماعية في السنين الاربع القادمة ، ولم تضع خطة السنوات الخمس التي تم اقرارها في نهاية السنة في حسابها سوى تجميع ٢٠٪ من المزارع على الاكثر حتى عام ١٩٣٣ ، وحتى في عام ١٩٢٩ عندما كان ستالين يتهم جماعة بوخارين علناً بانهم دعاة الزراعة الرأسمالية ، فاننا نجد انه ما زال يصر على ان « الزراعة الفردية ستستمر في لعب دور حاسم في تزويد البلد بالمواد الغذائية والمواد الخام » .

بعد بضعة اشهر كان التجميع « الكامل » قد اصبح على اشده وأصبحت الزراعة الفردية محكومة بالاخفاق ، وقبل أن تنتهي السنة أعلن ستالين : « لقد نجحنا في تحويل الجزء الاكبر من الاراضي الزراعية الى عدد كبير من المناطق بعيداً عن خط التطور الرأسمالي وأصبح المكتب السياسي يتوقع أن تزود المزارع التي تملكها الدولة والمزارع الجماعية نصف حاجة المدن من المواد الغذائية . في الايام الاخيرة من السنة تعالت من الكرملين اصداء اوامر ستالين « نضال شامل ضد الكولاك » : « علينا أن نسحق الكولاك ، أن نصفيهم كطبقة ... إذا لم يكن هذا هدفنا فان نضالنا ضدهم يصبح مجرد حماس

انفعالي ، مجرد تشاحن وضجيج فارغ .. علينا أن نضرب على الكولاك بقـــوة حتى نمنعهم من الوقوف على اقدامهم ثانية » ، وبدلاً من ان يشجب ستالين مصادرة امـوال الفلاحين الاثرياء على انه عمل أحمق كما فعل سابقاً ، اصبح يقول : « هل نسمح بمصـــادرة اموال الكولاك ؟ ... انه سؤال سخيف حقاً ... إذ لا أحد يأسف على فقـــدان شعرة من رأس اطاحت بـــه المقصلة ... علينا أن نحطم مقاومة هذه الطبقة في معركة مفتوحة » .

ان استعراضاً موجزاً لتصريحات ستالين الاساسية حول التصنيـع يكشف لنـــا تناقضات مدهشة كتلك التي كشفها استعراضنا لتصريحاته حول الزراعة . كانت الصناعة الروسية في منتصف العشرينات تستعيد قوتها الى ما كانت عليه قبل الحرب فزاد انتاجها بمعدل ٢٠ — ٣٠٪ في السنة . ناقش المكتب السياسي المعدل الذي يمكن أن يزداد بـــه الانتاج بعد أن تعمل المصانع الموجودة بقدرتها الكاملة فاتفق الجميع على ان معدل الزيادة السنوي سيتناقص عند بلوغ هذه المرحلة ، أما زينوفييف وتروتسكي و كامينيف فقـــد قالوا انه لا يزال من الممكن زيادة الانتاج بنسبة تقل قليلاً عن ٢٠ ٪ سنوياً فاتهمهم ستالين بانهم Super Industrializers ، وعندما تقدم خصومه بمشروع بنـــاء محطة توليـــد كهرومائية ضخمة على نهر الدنيبر وضعه على الرف مدعياً انه إذا ما أقامت روسيا محطة كهذه فانها تكون كالفلاح الذي يشتري جراموفوناً بـــدلاً من شراء بقرة . كان تقرير ستالين للمؤتمر الخامس عشر للحزب في (ديسمبر) ١٩٢٧ مليئاً بالرضا عن الحالة الصناعية للبلد ، ولكنه انتزع ورقة من كتاب المعارضين واقترح انه يجب زيادة الانتاج الصناعي في السنوات القليلة بمعدل ١٥٪ في السنة .

بعد سنة واحدة ، اختفى رضى ستالين عن حالة الصناعة واكتشف ان المصانـــع والمنشآت الروسية « تستحق كل نقد » من الوجهة التقنية ، ومن ثم بدأ يحث على تصنيـع اكثر سرعة . قال ستالين ، مشيراً الى حادثة سابقة لا تزال ماثلة في اذهان مستمعيـه ، « عندما بدأ بطرس الكبير ، بعد أن ووجه باقطار الغرب المتقدمـة ، في بناء المصانـع والورش بحماس بالغ ليزود جيوشه بالاسلحة ... لم يكن باستطاعـــة اي من الطبقات القديمة ان يتغلب على تخلف روسيا » . لكن النسبية الجديدة للمجتمـــع الروسي خلقت ظروفاً مؤاتية للتصنيـع . لم تزل مشاريـع ستالين معتدلة حتى الآن ، ففي اجتماع طارىء

للجنة المركزية اشتبك في نقاش حاد مع فرويكن،مفوض المالية الذي لم يقبل بان يخصص للاستثمار الصناعي أكثر من ٦٥٠مليون روبل بينما طالب المجلس الاقتصادي الاعلى مدعوماً بستالين بـ ٨٥٠ مليون روبل .

بلغ الاستثمار الفعلي في السنة التالية ، وهي السنة الاولى في خطـة السنوات الخمس ، مبلغ ١٣٠٠ مليون روبل أي بزيادة تقارب ٥٠٠ مليون روبل عن الحد الاعلى الذي قدره ستالين . حدث الانعطاف الجذري الحاسم نحو التصنيع في اواسط عام ١٩٢٩ عندمـا بلغ الاستثمار الصناعي ٣٤٠٠ مليون روبل أي خمسة اضعاف المبلغ الذي سمح به مفوض المالية وأربعة اضعاف المبلغ الذي طالب به ستالين نفسه،وعندئذ سارع المكتب السياسي بوضع نفسه في حالة سعار صناعي حقيقية . في حزيران ١٩٣٠ صعق المؤتمر السادس عشر للحزب عندما اعلن ستالين بزهو « اننا الآن على عتبة التحول من بلد زراعي الى بـلد صناعي » ، وتنبأ بان الخطة ستنفذ في كثير من فروع الصنـاعة في ثلاث سنين أو سنتين ونصف بدلاً من خمس سنين ، وأبلغ المؤتمر ان الاوامر قـد صدرت الى الصناعة بزيادة انتاجها بما يقارب ٥٠ ٪ خلال السنة الحالية . كان هذا في الواقع جهداً لا يخرج عن نطاق مملكة التصنيع المكثف الخيالية [١] .

اصبح ستالين مأخوذاً بفكرة انه يستطيع انجاز التحويل العجائبي لروسيا كلها في tour de force واحدة ، وبدا وكأنه يعيش في عالم نصف حقيقي نصف حالم ، عـالم من الارقـام والاحصاءات ، من الاوامر والتعليمات الصناعية ، عـالم ليس فيه من هدف لا يستطيع الحزب وصوله ، ومن ثم ابتكر العبـارة القائلة انه ما من قلعة لا يستطيـع البلاشفة قهرها ، تلك العبارة التي ظلت لسنوات عديدة تلت تتردد من قبل كل كاتب وخطيب وتعرض على كل لافتة في كل زاوية من زوايا البلد .

سنقدم فيما يلي مثالاً مدهشاً على الطابع المحموم للمحاولة التي قام بها ستالين : يشكل الحديد والصلب اساس القوة الصناعية . في ١٩٢٨ انتجت روسيـا ثلاثة ملايين ونصف

---

(١) توخياً للدقة نقول الزيادة التي امر بها كانت في الواقع ٤٧ ٪ ، لكن ستالين نفسه اعترف فيما بعد امام مؤتمر لمدراء الصناعة ان الزيادة كانت ٢٥ ٪ فقط ، وحتى هذا الرقم مشكوك فيه . انظر اللينينية المجلد الثاني ص ٣٨٥ . ومسائل اللينينية ص ٣٥١ .

مليون فقط من الحديد الخام ، وكان عليها بموجب الخطة الخمسية ان تنتج عشرة ملايين طن في نهاية عام ١٩٣٣ . لم يقنع ستالين بتقريب امد انتهاء الخطة كلها سنة أو سنتين بل أبلغ المؤتمر السادس عشر للحزب ان « عشرة ملايين طن من الحديد الخام ليست كافية... وانه يجب ان يصل الانتاج الى ١٧ مليون طن في عام ١٩٣٢ باي ثمن » ، وصنف الاقتصاديين ورجال الاعمال الذين ابدوا خشيتهم من ان هدفاً بعيداً كهذا يصعب تحقيقه ، صنفهم بانهم « انتهازيون يمينيون » و « مخربون » ، على الرغم من ان اعتراضاتهم كان لها أساس متين . في عام ١٩٤١ ، عندما هاجم هتلر روسيا كان انتاج الحديد الخام يقترب من الحد الذي كان عليه ان يبلغه قبل عشر سنين حسب اوامر ستالين .

* * *

لقد رأينا كيف دفع خطر المجاعة المزمن في عامي ١٩٢٤و١٩٢٥ ستالين الى التجميع.

اقترح بعض خصوم ستالين ان هذا الخطر يمكن ان يتجنب باستيراد الطعام ولكن امكانيات الدفع لم تكن متوفرة ولم يكن هناك ادنى امل بالحصول على سلفات اجنبية فقد كانت المقاطعة المالية لروسيا التي بدأت بعد الثورة لا تزال مستمرة فعلياً ، وعدا عن ذلك ، لو صرفت مدخرات العملة الاجنبية والذهب القليلة على شراء الطعام من الخارج لما كان باستطاعة الصناعة ان تتطور حتى على النطاق الضيق الذي نمت فيه حتى ذلك الحين ، ولكان لا بد للجمود الصناعي ان يحدث أزمة غذائية اكثر حدة وتوتراً أخطر بين المدن والريف فيما بعد .

بدا تنقيب مخازن الحبوب التي يملكها الفلاحون الاثرياء ومصادرة الكميات المخبوءة مخرجاً اسهل من المأزق ، مخرجاً ليس بالضرورة اكثر ظلماً من خطر المجاعة الذي شهره الريف في وجه المدن ، لكن الادارة كانت قادرة بالكاد على القيام بهذه المهمة حتى بمساعدة الحزب والبوليس ، فالفلاحون مشهورون بقدرتهم على التملص من القوانين التي تفرضها عليهم ادارة مدنية بعيدة عنهم نوعاً ما ، ومن هنا فان قوانين كهذه تطبق بفعالية أكبر إذا ما قام بتطبيقها جزء من السكان الريفيين انفسهم في المنطقة نفسها . لذا توجه ستالين الى الفلاحين الفقراء ضد المزارعين الاغنياء ولكنه لا يستطيع ان يتوجه لهم خالي الوفاض ، بل كان عليه ان يقدم لهم مكافآت ملموسة ثمناً لمعونتهم ، وأي مكافأة يمكن ان

تكون أكثر اغراءً للموجيك الذي يعاني من الفقر المدقع ، والذي يملك قطعة صغيرة جداً من الارض يفلحها بمحراثه الخشبي ، الموجيك الذي لا يملك لا بقرة ولا حصاناً والذي يظل بشكل دائم تحت رحمة الكولاك ومرابي القرية ، أي مكافأة يمكن ان تكون أكثر اغراء من مزرعة جماعية تعد الحكومة بالانعام عليها ببعض معدات الكولاك الزراعية وبعض قطعانه من الماشية بالاضافة الى التراكتورات .

ليس من المعروف تماماً كم من الخمسة وعشرين مليون فلاح كان ينتمي الى الطبقة الاكثر ادقاعاً ، فقد قدر عددهم بخمسة الى ثمانية ملايين فلاح وكان خمسة ملايين على الاقل من قطع الارض الصغيرة يفلح بالمحاريث الخشبية ، أما على الطرف الآخر من السلم فقد كان هناك ١,٥ الى ٢ مليون مزارع ثري ، وكان هناك ما بين الطرفين ١٥ — ١٨ مليوناً من « الفلاحين المتوسطين » . هكذا كان بالامكان الاعتماد على اقلية الفلاحين في الترحيب « بالتغير العظيم » بحرارة ، على الرغم من ان هذه الاقلية كانت كبيرة العدد . لو وقف ستالين بالاصلاح عند حدود تجميع الملكيات الصغيرة والتوزيع المعتدل للثروة بين القطاع الاكثر ثراء والقطاع الاكثر ادقاعاً من الفلاحين ، لما أصبح التجميع طوفاناً دموياً كما صار بالفعل ، ولو زودت المزارع الجماعية بالادوات والآلات وأعينت بالسلفيات الحكومية والنصح التقني ، لو نجحت هذه المزارع في تحسين معيشة اعضائها بشكل ملموس لكان من المحتمل ان تجتذب اليها كثيراً من اولئك المدعوين بالفلاحين المتوسطين الذين كانوا في الواقع يعيشون حياة مزرية على حدود الفقر .

حمل الزخم ستالين بعيداً حوالي عام ١٩٢٩ . كانت بداية التجميع ناجحة بشكل لا يرقى اليه الشك ، وبدأت تقارير التقدم المشجعة تتكدس على ادراج الامانة العامة مما حمل ستالين على دفع التجميع وراء الحدود التي كانت مقررة له فأرسل آلاف الموظفين الحزبيين الى الريف وأعطاهم تعليمات بان « يصفوا الكولاك كطبقة » وان يسوقوا الآلاف المؤلفة من الفلاحين المتوسطين الراغبين عن دخول المزارع الجماعية الى هذه المزارع. يمكننا ان نقتنص روح هذه التعليمات من خلال خطبة القاها ستالين في الحزبيين العاملين في الريف في (ديسمبر) ١٩٢٩ ، فقد استعمل اكثر الكلمات فظاظة ليقضي على شكوك مستمعيه الذين كان من الواضح انهم يشعرون ان على الثورة ان تعامل بقسوة حفنة من المستغلين لا ان تقسو على ملايين الملاك الصغار . ردد ستالين بسخرية غامضة السطور التالية التي كتبها

انجلز : « اننا نقف بحزم الى جانب الفلاح الصغير وسنفعل كل ما بوسعنا لتحسين اوضاعه وتسهيل انتقاله الى التعاونية إذا ما قرر ان يخطو هذه الخطوة ، أما إذا لم يستطع ان يحسم امره فسنعطيه كثيراً من الوقت ليفعل ذلك » ، وأبلغ ستالين مستمعيه ان « حذر انجلز المبالغ فيه » يلائم الظروف الموضوعية في اوروبا الغربية ، أمـا في روسيا فلا مكان له : يجب ان لا يعطى الفلاح الصغير وقتاً للتفكير في التجميع وهو لا يزال يملك ارضه ، وتابع ستالين موضحاً انه لا يجب مصادرة املاك الكولاك فحسب ، بل ان من السخف بمكان ان يسمح للكولاك بالانضمام الى المزارع الجماعية بعد مصادرة املاكهم ، كما كان بعض البلاشفة يقترح ، ولم يقل ستالين لمستمعيه ما الذي سيحدث لقرابة مليونين من الكولاك ، يبلغ عددهم مع عائلاتهم ما بين ثمانية وعشرة ملايين نسمة ، ما الذي سيحدث لهم بعد ان يحرموا من الملكية ويمنعوا من الانضمام للمزارع الجماعية .

أصبحت روسيا الريف بعد قليل من الوقت جحيماً فقد واجهت الغالبية العظمى من الفلاحين الحكومة بمعارضة يائسة ، وانحط التجميع ليصبح عملية عسكرية وحرباً اهلية قاسية فحوصرت القرى الثائرة بالاسلحة الاوتوماتيكية وأجبرت على التسليـم [1] ، وابعدت جماعات من الكولاك الى اقاصي سيبيريا غير المأهولة وصودرت بيوتهم ومخازن حبوبهم وأدواتهم الزراعية وحولت ملكيتهـا الى المزارع الجماعية – قدر ستالين نفسه الممتلكات المصادرة بما يزيد على ٤٠٠ مليون روبل . قررت غالبية الفلاحين ان تجلب معهـا اقل ما يمكن من ممتلكاتها الى المزارع الجماعية التي تخيلتها مصانع تمتلكها الدولة سيصبحون هم فيها مجرد ادوات ، فذبحوا في يأسهم قطعان المواشي التي كانوا يمتلكونهـا وحطموا الادوات وحرقوا المحاصيل ، فكانت هذه الاعمال ثورة الموجيك الكبيرة التي تشبه ثورة لوديت [2] . لم يكشف ستالين النقـاب عن نتائج هذه الثورة إلا بعد سنين

---

(١) في تلك الايام الحرجة ، جاب مؤلف هذا الكتاب روسيا واوكرانيا ، وهو الآن لا يزال يذكر وصفاً مروعاً لعملية التجميع ادلى به له ضابط برتبة كولونيل في الشرطة السياسية في عربة القطار في الطريق من موسكو الى خاركوف . كان الكولونيل يعاني من حالة نفسية سيئة بسبب التجارب التي خاضها حديثاً في الريف ، قـال وهو يكاد ينفجر بالبكاء « انني بلشفي قديم ، لقد عملت في المنظمات السرية ايام القيصر وقاتلت في الحرب ، فهل فعلت ذلك ، لأقوم في النهاية بمحاصرة القرى بالرشاشات ولآمر جنودي ان يطلقوا النار على جماهير الفلاحين بدون تمييز . آه : لا . لا . لا » .

(٢) لوديت : ـ احد اعضاء جماعة من العمال الانجليز عمدت في اوائل القرن التاسع عشر الى تحطيم الآلات لاعتقادها ان استعمالها يفضي الى تناقص في الطلب على الايدي العاملة ـ المترجم ـ .

ثلاث في (يناير) ١٩٣٤ : كانت روسيا تمتلك ٣٤ مليون حصان عام ١٩٢٩ فبقي منها ١٦,٦ مليوناً عام ١٩٣٣ ، أي ان ١٨ مليون حصان ذبحت ، كما ذبح ٣٠ مليوناً من المواشي أي ما يعادل ٤٥ ٪ من مجموع المواشي ، وقرابة ١٠٠ مليون أو ثلثي كل الخراف والاغنام . بالاضافة الى ذلك تركت مساحات شاسعة من الارض بدون حراثة ،فأصبحت المجاعة تتهدد المدن وسهوب الاوكران ذات الارض السوداء .

ان الحرب على الجبهة الزراعية ما لبث ان اجبر ستالين على فتح جبهة مشابهة في الصناعة فقد اصبحت المكننة السريعة للزراعة مسألة حياة أو موت ، إذ ان الزراعة على نطاق واسع تتطلب اسساً تقنية أعلى بكثير من تلك التي تتطلبها الزراعة على نطاق ضيق وخصوصاً الزراعة الروسية البدائية ، وعلى ذلك فان التراكتور يجب ان يحل محل الحصان . قدر الاقتصاديون ، قبل المجزرة التي اودت بالمواشي والاحصنة ، ان التجميع الكامل للزراعة يحتاج الى ربع مليون من التراكتورات بالاضافة الى كميات كبيرة من الآلات الاخرى ، وعندما بدأت ثورة التجميع لم يكن هناك في روسيا كلها ما يزيد على سبعة آلاف تراكتور . استطاع ستالين بجهد غير عادي ان يؤمن قرابة ٣٠٠٠٠ تراكتور خلال عام ١٩٢٩ ، ولكن هذا لم يكن سوى نقطة ماء في بحر محيط .

لم يكن التنظيم العقلاني للزراعة وتقسيم العمل الزراعي ممكناً دون توافر الآلات والارشاد التقني ، من هنا كان الكثير من المزارع الجماعية مهدداً بالتحلل والتمزق اربأ حال تكوينه . لذلك كله كان لا بد ان تقوم الصناعة بتزويد كميات هائلة من الآلات في اقصر فترة ممكنة ، وان تقوم آبار النفط بانتاج ملايين الاطنان من البترول الذي تحتاجه التراكتورات ، وان يكهرب الريف وتبنى فيه محطات توليد جديدة ، وأخيراً وليس آخراً لا بد ان يدرب الملايين من الفلاحين على استعمال وقيادة الآلات ، لكن المصانع لم تكن موجودة لانتاج هذا كله ، كما كان انتاج النفط والصلب والفحم الحجري غير كاف بصورة مريعة ، هذا بالاضافة ان الرجال الذين كان عليهم تعلم الموجيك الأمي استعمال التراكتور لم يكونوا موجودين ايضاً .

بدت التجربة كلها جنوناً مطبقاً قلبت فيه جميع قواعد المنطق ومبادىء الاقتصاد رأساً على عقب ، كما لو أن امة بكاملها قد هجرت وحطمت فجأة بيوتها وأكواخها ، تلك البيوت والاكواخ التي كانت موجودة في الواقع برغم عقمها وتحللها ، وانتقلت بكل ما

تملك الى بيوت خيالية خادعة لم تجهز في الواقع سوى بالقليل من السقالات ، كما لو ان هذه الامة بعد هجرتها المجنونة اعتزمت صنع الطوب لبناء جدران مساكنها الجديدة فاكتشفت انها تفتقر حتى الى القش لصنع الطوب ، كما لو ان هذه الامة بدأت بعد ذلك جائعة قذرة مرتعدة من البرد منخورة بالمرض ،بدأت بحثاً محموماً عن القش والطوب والحجر والحجارين والبنائين لتستطيع اخيراً بعد تجميع ذلك كله البدء في بناء بيوت لا تقارن في سعتها وصحيتها تلك البيوت الخربة التي هجرتها على عجل . تخيل ان تلك الامة كانت تعد ١٦٠ مليونـــاً من البشر ، وتخيل ان هذه الامة كان يقودها ويسوقها ، يحثها ويرعاها في هذا المشروع الفوق واقعي رجل عادي غير موهوب ومتزن ، استحوذت على عقله فجأة رؤيا نصف حقيقية نصف خيالية ، رجل نصب نفسه قاضياً أعلى ومعماراً أعلى وجعل من نفسه فرعوناً حديثاً ، كانت هذه على وجه التقريب الصورة العجيبة للحيـاة في روسيا : مليئة بالعذاب والامل ، مليئة بمـــا يثير الرثاء وما يثير العجب ، وهكذا كان مكان ستالين في هذه الصورة ، اللهم إلا ان الاشياء التي دفع شعبه لبنائها لم تكن اهراماً عديمة الفائدة .

لم يكن ستالين يرى نفسه فرعوناً حديثاً ، بل كان يعتقد انه موسى جديد يقود شعباً مختاراً في الصحراء ، ذلك ان عقل هذا الدكتاتور الملحد كان مليئاً بصور ورموز مأخوذة من التوراة ، فمن الصور والتشابيه الــتي كانت مبعثرة في كتاباته الخاملة الكئيبة ترددت عبارة المسير « نحو ارض الميعاد الاشتراكية » أكثر من غيرها ، حتى عندما كان يقود بضعة رجال حزبيين في تفليس أو باكو ، فكم اصبح وقـــع هذه العبارة اكثر واقعية في اذنيه الآن .

عندما وضع ستالين برنامجه امام الشعب ، طالبـــاً منه بذل الجهود والتضحيات ، لم يكن يستطيع ان يفسر هذا البرنامج على اساس الاستجابة لحاجات اقتصادية ملحـــة ، فحاول ان يضع حوله هالة عاطفية . توجه ستالين للمرة الاولى الى مشاعر الشعب القومية بالاضافة الى مشاعره الاشتراكية ، صحيح ان هذا التوجه المزدوج كان متضمناً في عقيدة الاشتراكية في بلد واحد ، ولكن ستالين امتنع حتى الآن من تحريك الـكبرياء والطموح القوميين بصورة علنية ، وذلك لأن العداء البلشفي لهذه المشاعر كان لا يزال مـــاثلاً في اذهان الناس ولأن أي تخل عن هذا العداء سيسبب لستالين الحرج ما دام معرضـــاً لانتقادات منافسيه ، كما انه ليس من المؤكد ان التفكير القومي كان متبلوراً في ذهنه في وقت ابكر . انطلقت هذه النغمة الجديدة بقوة من خطبة القاها في شباط ١٩٣١ ، مفنداً

بشكل مطول ممل حجج الذين يدعون الى تخفيف سرعة التصنيع وموضحاً الدوافع العالمية والمحلية لسياسته . التصنيع اساسي لبناء الاشتراكية والحكومة السوفياتية ملزمة في نظر العالم البروليتاري ببناء الاشتراكية . قال ستالين انه يضع هذه الالتزامات العالمية في موضع اسمى من الاعتبارات القومية ولكنه تكلم عن الاوجه الاشتراكية العالمية للمشكلة مستخدماً كليشيهات تفتقر الى الحيوية لدرجة يشعر الواحد معها انها لا تحتل مكاناً في قلب المتكلم ، لكن كلماته بدأت تنبض بالعاطفة وتأخذ طابعاً حياً فقط عندما تحدث عن الدوافع الروسية القومية الصرفة لسياسته : —

لا ايها الرفاق ... يجب ان لا نبطىء الخطى ، بل على العكس يجب ان نسرع بقدر ما تسمح لنا قوانا وامكاناتنا . هذا ما تحتمه علينا التزاماتنا تجاه عمال وفلاحي الاتحاد السوفياتي . هذا ما تحتمه علينا التزاماتنا تجاه الطبقة العاملة في العالم اجمع .

ان نبطىء الخطى معناه ان نتخلف ومن يتخلف يغلب . نحن لا نريد ان نغلب . لا ، اننا لا نريد ذلك . كانت روسيا في التاريخ القديم ... تقهر باستمرار بسبب تخلفها . لقد قهرها الخانات المونغوليون ، لقد قهرها البكوات الاتراك ، لقد قهرها الاقطاعيون السويديون ، لقد قهرها البانات البولنديون — اللثوانيون ، لقد قهرها الرأسماليون الانجليز — الفرنسيون ، لقد قهرها البارونات اليابانيون ، لقد قهرها الجميع بسبب تخلفها : تخلفها العسكري ، تخلفها الثقافي ، تخلفها السياسي ، تخلفها الصناعي ، تخلفها الزراعي . لقد قهرت روسيا لأن قهرها كان رابحاً ، لأن قهرها كان يذهب دون عقاب . ألا تذكرون كلمات شاعر ما قبل الثورة : « فقيرة انت ، وأنت الثرية . عظيمة انت وأنت الضعيفة ، روسيا ! ايتها الام » .

... اننا متخلفون عن الاقطار المتقدمة خمسين أو مئة سنة ، علينا ان نقطع هذه المسافة في سنين عشر . اما ان نفعل واما ان يسحقونا .

ألهب نداء ستالين للتصنيع مخيلة الطبقات العاملة في المدن بداية الامر ، فقد هدهد الجيل الجديد طويلاً الحلم بان تصبح روسيا «امريكا أخرى» ، امريكا اشتراكية ، ووضعت عشرات المشاريع الصناعية العملاقة أمام اعينهم آفاق حضارة جديدة يخضع فيها الانسان الآلة لارادته بدل ان يكون هو خاضعاً لها ولمالكيها ، فتطوع عشرات الالوف من العمال

الشباب وخاصة اعضاء الكومسومول (منظمة الشبيبة) للعمل الرائد في غياهب القفار واستقبلوا بحماس بالغ رؤيا العالم الجديد حتى لو بني هذا العالم على عظامهم . أما النــاس الاقل مثالية فقد رحبوا بالتصنيع لأنه يضع حداً للبطالة التي عانى منها العامل الروسي خلال فترة النيب بكاملها .

هنا ايضاً كما في الزراعة ذهب ستالين بعيداً بفعل زخم حركته وتخطى نفسه الى حد لا يمكن ان يجرؤ عليه أي اقتصادي مجرب ، ولكن قد يبدو غريباً ان ستالين كان يفتقر تماماً الى الخبرة الاقتصادية ، فهو لم يكن اقتصادياً بالتدرب ، على الرغم من ان النظرة الماركسية اعطته مقدرة على الفهــم الاقتصادي أكبر من تلك التي يملكها السياسيون العاديون . كان دور ستالين في تشكيل السياسة الاقتصادية ايام لينين تافهاً بقدر ما كان دوره في الادارة السياسية عظيماً ، وفي السنين التي تلت كان منغمساً في توجيه الجهــاز البلشفي ضد منافسيه فلم يكن لديه الفرصة ولا الوقت ليهتم باكثر من التوجيه العام للامور السياسية. هكذا بدأ ستالين ثورة صناعية غير واع الى حد ما للحدود التي يمكن استخدام الموارد الاقتصادية القومية ضمنها والتي يمكن حطّ التحمل الجماهيري اليها دون نتائج مهلكة. وضعت تجربة ستالين فيه ثقة زائدة بقوة الادارة عندما تكون متماسكة وقاسية. ألم يستطع التخلص من منافسيه الاقوياء جداً لمجرد انه استطاع توجيه هذه القوة ضدهم ؟ ألم يستطع ان يدجن حزباً كان يبدو غير قابل لذلك البتة ، ألم يستطـع تحويله الى مجرد جماعة من الرجال الفزعين الخنوعين المستعدين لتقبل اوامره على الدوام ؟ لماذا لا يستطيع اذن ان يتدبر حسبما يريد أمر جماعات الموجيك المفتتة المفتقرة الى التنظيم؟ لماذا لا يستطيع ان يجعل مديري الصناعات ينتجون كميات الفحم والصلب والآلات المنصوص عليهــا في الخطط . الشيء الاساسي الذي يجب فعله هو اخضاعهم لضغط متواصل لا يلين منه ومن المكتب السياسي ، ولم يكن احد ليفوق ستــالين في تعريض مرؤوسيه للضغط وجعلهم ينقلون هذا الضغط لكل مراتب الادارة .

عندما استفاق ستالين على نتائج عمله الارعن في الريف ، استبدت به الرغبة في ارضاء الفلاحين وفي تخليص نفسه من الوصمة ، فحاول في ٢ آذار ١٩٣٠ ان يصيب العصفورين بحجر واحد في بيانه « دوار النجاح » إذ وضع اللوم في كل مــا حدث على الموظفين المتحمسين اكثر مما يجب واعترف ان نصف جميع المزارع قد اخضع للتجميع وان القوة

قد استعملت في كثير من الاحيان وان بعض المزارع الجماعية غير قابل للحياة . قبل ثلاثة اشهر اعطى هو نفسه اشارة البدء الحاسمة في التجميع القسري عندما حث حزبيي الريف على عدم اعطاء الفلاحين وقتاً ليفكروا في التجميع وهم يملكون اراضيهم ، أما الآن فهو يعلن ان تعليماته اسيء فهمها : « المزارع الجماعية لا تقام بالقوة ، ففعل ذلك عمل غبي ورجعي » ، ويهاجم « الانتهازيين » و « الاغبياء » و «اليساريين الصاخبين» و «الرجعيين الجبناء » و « التحريفيين » ، وينادي بوضع حد « للفظائع » . كان ظهور ستالين كحـام للموجيك مفاجأة للمكتب السياسي واللجنة المركزية فهو لم يستشرهم بل توجه بندائه الى الفلاحين من وراء ظهور الذين كانوا مجرد اعوان له ، والذين جعلهم بندائه هذا يبدون وكأنهم المجرمون الاساسيون . حتى اللجنة المركزية الخنوعة احتجت على استعمالها بهذه الطريقة هدفاً للنقمة الشعبية ، فأصدر ستالين بياناً آخر يقول فيه ان الدعوة الى وقف العنف لا تمثل رأيه الشخصي فحسب بل رأي اللجنة المركزية بكاملها .

مهما تكن حقيقة الامر ، فقد وضع ستالين قيوداً صارمة على التجميع ، فلم يجمع خلال السنوات الثلاث التي تلت سوى ١٠ ٪ من مجموع الاراضي الزراعية وبذا اصبح ستة اعشار الممتلكات جميعاً مجمعاً في نهاية الخطة الخمسية ، كما ان طابع المزرعة الجماعية تغير ايضاً ، ففي البداية كانت جميع ممتلكات المزارعين تقريباً تعلن ملكية جماعية وكان المزارعون يتقاضون اجوراً مقابل عملهم ، أما في اوائل وأواسط الثلاثينات فقد اعطت سلسلة كاملة من « اصلاحات ستالين » تنازلات مهمة لفردية الفلاحين فأصبح الكولخوز تعاونية لا كوميوناً وأصبح اعضاءه يتقاسمون ارباح المزرعة كما سمح لهم بالملكية الخاصة لقطع صغيرة من الارض وبعض الدواجن والمواشي . نمى خلال ذلك تمايز اجتماعي جديد: فأصبح هناك كولخوزات غنية وكولخوزات فقيرة وأصبح هناك اعضاء اغنياء في الكولخوز وأعضاء فقراء . وقفت السلطة في صف « الكولخوزات المزدهرة » وأمر ستالين بتصفية معظم المزارع التي تملكها الدولة (السوفخوزات) وأهدى المزارع الجماعية اكثر من ٤٠ مليون آكراً من الارض . هكذا خلق توازن جديد ، وان لم يكن ثابتاً ، بين المصالح الخاصة والمصالح الجماعية مما مكن الحكومة ان تجمع ببطء اكثر من ذي قبل جميع الممتلكات على وجه التقريب دون ان تثير مقاومة مرة ، وبهذا لم يذهب درس ١٩٢٩ و ١٩٣٠ الدامي هدراً . في اواخر الثلاثينات اكتسب التركيب الاجتماعي الجديد لروسيا الريف نوعاً من التماسك برغم كل اهتزاز اساساته في اوائل العقد .

لم تكن تعرجات الثورة الصناعية اقل عنفاً وفجائية . طالب ستالين ، كما نذكر ، بأن يزداد انتاج الحديد والفحم بمقدار النصف خلال السنة ١٩٣٠ ، فكان ان ازداد الانتاج في الواقع بمقدار ٦ — ١٠ ٪ فقط ، كما اعترف ستالين نفسه في السنة التي تلت . اعاق تطور المناجم البطيء نمو الصناعات الانتاجية والهندسية ، فدفع ستالين بعناد في اتجاه اقامة مناجم حديد وفحم عملاقية حديثة في سيبيريا والاورال غير عابىء بالعقبات والعراقيل . كتب احد شهود العيان الاميركيين يقول « في الماجنيتوجورسك ، طوح بي في معركة ، فاشتغلت بالحديد والصلب ، ورأيت عشرات الآلاف من الناس يتحملون اعتى المشاق في سبيل بنـــاء الافران . كان الكثيرون من هؤلاء يفعلون ذلك برضى تام وحماس لا حدود له ، حماس اصابني بالعدوى منذ اليوم الاول لوصولي » ، ويختتم الكاتب كلامه قائلاً « ان بامكاني ان اراهن ان خسائر الارواح في معركة روسيا التعدينية أكثر من خسائر معركة المارن » .

كانت خسائر الارواح والطـــاقة والمواد عظيمة جداً ولكن النتيجة كانت عظيمة كذلك . صحيح ان اهداف الخطة الخمسية الاولى لم تحقق ، وصحيح ان ستالين لم يطالب الصناعة مرة أخرى ، إلا في سني الحرب ضد هتلر ، ببذل جهود كتلك التي طالب ببذلها في البداية .

كان معدل الزيادة في الانتـــاج الصناعي في الخطة الخمسية الثانية ١٣ — ١٤ ٪ ، وكان ان حققت هذه الخطة الاكثر تواضعاً ، في السنين من ١٩٣٢ الى ١٩٣٧ ، تماسك التقـــدم الصناعي .

* * *

لا يستطيع احد ان يصمد امام كل هذه الشدائد إلا إذا كان حاكماً مطلقاً لا تحـكمه لا الاعصاب ولا العواطف . هناك شيء غامض مبهم في قناع الهدوء الاملس الذي كان ستالين يضعه في تلك الايام ، ولا بد ان قلقاً وتوتراً هائلين كانا يعملان وراء ذلك القناع . لكن ستالين بدا مرة على حافة الانهيار ، فقد تراكمت المحن والشدائد خلال عـــام ١٩٣٢ وأصبح العبوس يعتري ستالين وهو يراقب شعبيته في ادنى مراتبها وأمواج الاستياء ترتفع لتضرب جدران الكرملين ، ولم يكن باستطاعته إلا ان يرى الامل الممزوج بالترقب

القلق يلمع في عيون خصومه المنهزمين : بوخارين وتومسكي وزينوفييف وكامينيف،اولئك الخصوم الذين لم يكن يكف ايديهم سوى الخطر المحيق بالبلشفية بكل اجنحتها وما يمت اليها ، فقد انمحى الفاصل القديم بين اجنحة الحزب اليمينية واليسارية لتحل محله رغبة مشوقة مشتركة في التغيير اثرت حتى على اتباع ستالين المخلصين . وزعت مذكرات عن الحاجة الى ازاحة ستالين في بطانته المقربة ، وكانت هذه موقعة من سيرتسوف ولومينيدز ، وهما الرجلان اللذان ساعدا ستالين على دحر التروتسكيين والبوخارينيين - حل سيرتسوف محل ريكوف كرئيس لجمهورية روسيا السوفييتية الاشتراكية . كما وقع ريتين ، مفوض الدعاية ، وغيره مذكرة شبيهة . اتهم هؤلاء بالتمرد واعتقلوا ، لكن الحقيقة المؤكدة انهم لم يشتركوا في أية مؤامرة ، بل كان كل ما فعلوه هو حث اعضاء اللجنة المركزية على ازاحة ستالين بطريقة دستورية ، وستالين نفسه لم يثر ، اسمياً ، أي تساؤل حول حق اللجنة المركزية الدستوري في ازاحة امينها العام . كانت الاوكران ايضاً تمور باليأس والمعارضة السرية فأرسل بوستيشيف ، احد اعوان ستالين المخلصين ليصفي الحكومة الاوكرانية التي كان المفترض فيها ان تكون مكونة من ستالينيين مخلصين ، وأدت التصفية الى انتحار سكرايبنيك ، مفوض اوكرانيا للثقافة وأحد قدامى البلاشفة .

زارت المأساة بيت الدكتاتور ذاته فكان ذلك تتويجاً لكل هذه التطورات . بدأت ناديا الليليوفا ، ابنة العامل الليليوف وزوجة ستالين التي تصغره بكثير والتي كانت حتى ذلك الحين مكرسة نفسها له ، بدأت تشك بحكمة وصحة سياسة زوجها . في احدى امسيات تشرين الثاني من عام ١٩٣٢ كان ستالين وزوجته يزوران بيت فوروشيلوف ، وكان اعضاء المكتب السياسي الآخرين هناك ايضاً ، وعندما بدأوا يتحدثون في المسائل السياسية ، تكلمت ناديا الليليوفا عما يدور بخلدها ، تكلمت عن المجاعة والاستياء اللذين يعمان البلد وعن التلف الخلقي الذي ألحقه الارهاب بالحزب. كانت اعصاب ستالين من قبل مشدودة وفائرة فانفجر امام اصدقائه موبخاً زوجته بفيض من فظ السباب . فتركت الليليوفا بيت فوروشيلوف وانتحرت في الليلة ذاتها .

يقول فكتور سيرج ، الكاتب الفرنسي الشيوعي سابقاً والذي قضى تلك السنوات في روسيا ، يقول : تحدثت الجرائد عن موت مبكر مفاجيء . اخذ المطلعون يروون ان المرأة الشابة عانت كثيراً بسبب المجاعة والارهاب بالمقارنة مع حياتها المريحة في الكرملين

وصور الامين العام التي تغطي بنايات كاملة في الساحات العامة ، فانهكتها نوبات متوالية من الحزن الاليم ...

هكذا اصبح الرجل الحديدي ، كما كان يسمي نفسه ،... وجهاً لوجه مع تلك الجثة. وقف ستالين ، بعد هذا الحادث بقليل ، في المكتب السياسي ليقدم استقالته لزملائه : « قد أكون اصبحت عائقاً في سبيل وحدة الحزب . إذا كان الامر كذلك ، ايها الرفاق ، فانني على استعداد للانزواء ... » . تبادل اعضاء المكتب السياسي ، الذي كان قد صفي من المعارضة اليمينية ، تبادلوا النظرات محرجين . أي منهم سيأخذ على عاتقه ان يقول « نعم ، ايها الرجل ، هذا ما كان . عليك ان تذهب . ليس هناك ما هو افضل من ذلك» أي منهم يجرؤ على ذلك ؟ من يقول ذلك دون ان يدعمه الآخرون يعرض نفسه لخطر داهم . لم يتحرك احد ... اخيراً تكلم مولوتوف « كفى ، كفى . الحزب يثق بك ... » فكان ذلك نهاية الحادث .

يبدو ان هذه كانت اللحظة الوحيدة التي انهارت فيها ثقة ستالين بنفسه . فقد وقف بعد ذلك بأسابيع عدة وبعد شهور من الصمت ، وقف في كانون الثاني ١٩٣٤ خطيباً في اجتماع طارىء للجنة المركزية ، فكانت خطبته رغم انها اعتذارية في لهجتها دليلاً على انه استعاد ثقته بنفسه : « لقد دفع الحزب بالبلد ونخسه الى الامام.. كان علينا ان ندفع بالبلد دفعاً ... لقد كان متخلفاً مئة سنة وكان يواجه خطراً مدلهما ... » . اعترف ستالين بان الخطة الخمسية الاولى لم تنفذ ولكنه علل ذلك بانه كان على الصناعة ان تتجه الى انتاج الذخائر الحربية بسبب خطر الحرب في الشرق الاقصى . كانت تلك ايام الغزو الياباني لمنشوريا ، ولكن من المشكوك فيه ان يكون ستالين قد ظن ان هجوم اليابان على روسيا قريب لدرجة تستدعي مثل هذا التعديل الجذري على السياسة الاقتصادية على أي حال أكد ستالين ان الخطر قد زال الآن (كان ذلك عشية صعود هتلر الى السلطة) وانه ليست هناك حاجة بعد الى تسريع التصنيع ،فالواجب الملقى كان على عاتق روسيا خلال السنتين أو الثلاث سنين القادمة هو ان تعزز مكاسبها وتتقن الاساليب الصناعية .

وقف ستالين على المنبر مرة أخرى بعد ذلك بعدة أيام ليصف الاخطار التي كان الوضع في الريف مشحوناً بها ، فأذهل الحزب بقوله ان المزارع الجماعية يمكن ان تصبح اكثر خطراً على الدولة من الزراعة الفردية الخاصة ، ففي الايام التي خلت كان الفلاحون

مبعثرين وبطيئي الحركة وكانوا يفتقرون الى القدرة على التنظيم السياسي ، أما بعد التجميع فقد اصبح الفلاحون منظمين في منظمات متماسكة يمكن ان تدعم السوفييت ولكنها لا يمكن ان تقاومها بصورة اكثر فعالية مما كان يستطيع الفلاحون المنفردون ، ولذا فقد انشئت الدوائر السياسية الريفية لضمان الرقابة الحزبية المباشرة على الفلاحين . كانت هناك مهمة مدهشة تنفذ جنباً الى جنب مع هذه الاجراءات ، فبعد سنة ابلغ ستالين المؤتمر السابع عشر للحزب ان مليونين من الموجيك الذين لم يستعملوا أية آلة من قبل دربوا على قيادة التراكتورات وان عدداً مقارباً من الرجال والنساء دربوا على ادارة المزارع الجماعية وان ١١،٠٠٠ مهندس ومهندس زراعي ارسلوا الى الريف وان عدد الاميين انخفض ليصبح ١٠ بالمئة فقط . نفذت الثورة الثقافية ، كما كانت تدعى ، بسرعة محمومة ، ولذا كانت مزيفة جداً ولكنها كانت بحق بداية التغيير الحاسم لعادات الشعب ونظرته الى الامور .

* * *

يظل وصف دور ستالين في الثورة الثانية ناقصاً ما لم نتطرق الى السياسة الاجتماعية الجديدة التي ربما كان ستالين الحافز المباشر لها أكثر من أي جزء آخر من «التغير العظيم». كانت اضواء وظلال سياسة ستالين في هذا الحقل شديدة التمايز ، ففي نهاية عام ١٩٢٩ وضع ستالين سياسة عمالية جديدة غامضة ومبهمة جداً لدرجة فقدت معها اهميتها. كانت السياسة العمالية في ظل النيب تتميز بدرجة عالية من الاقتصاد الحر : فقد كان العمال احراراً في اختيار وظائفهم ، على الرغم من ان موجة البطالة جعلت هذه الحرية نصف كاذبة ، كما كان المديرون احراراً الى درجة ما في استئجار أو فصل العمال . لكن التصنيع السريع ادى في الحال الى نقص حاد في اليد العاملة فكان ذلك نهاية الاقتصاد الحر . كان ذلك ، كما قال ستالين ، « نهاية الارتجال » في سوق العمل، وبداية ما اصبح يدعى فيما بعد توجيه العمل الذي كان ذو اشكال متعددة . كانت المشاريع الصناعية توقع عقوداً مع المزارع الجماعية يكون على المزارع بموجبها ارسال عدد محدد من الرجال والنساء الى المصانع في المدن ، وهنا يبقى المجال مفتوحاً امام التساؤل عما إذا كان اسم « السخرة » يمكن ان يطلق على هذه الطريقة . كان القسر يستعمل بقسوة في المرحلة الاولى ، فعندما يعلن عضو في مزرعة جماعية فائضاً عن الحاجة ويحرم من العضوية فانه يوضع في موضع

لا يختلف عن موضع العاطل عن العمل الذي تدفعه الحاجة الاقتصادية الى تأجير نفسه كعامل يدوي ، لكن الفلاحين الذي اصبحوا بروليتاريين كانوا احراراً في تغيير عملهم عندما يصبحون في المدينة . هدف ستالين الى ان يؤمن بقوة القانون احتياطي القوة العاملة الانسانية التي كان يخلقها في الاقطار الاخرى هرب الفلاحين المدقعين المزمن والمفاجىء الى المدن .

كانت السخرة بمعناها الصحيح تطبق على الفلاحين الذين لجأوا الى العنف في مقاومة التجميع ، فقد كانوا يعاملون كالمجرمين ويخضعون للسجن . هنا لعب التاريخ احدى نكاته الخبيثة الكئيبة ، فقد كانت اصلاحات السوفييت القانونية قد اعتبرت ، بدوافع انسانية ، سجن المجرمين اعادة تثقيف لهم لا عقاباً ، وكانت تقضي بتوظيفهم في اعمال مفيدة تحت حماية النقابات وخصصت لهم اجوراً تتفق مع الاجور التي كانت تنص عليها الانظمة النقابية ، ولكن عندما ازداد عدد الفلاحين الثائرين وضعوا في معسكرات عمل ضخمة ليشتغلوا في بناء القنوات والسكك الحديدية وقطع الاخشاب وما الى ذلك، لكن قوانين حماية المعتقلين فقدت اعتبارها تماماً في خضم المجاعة والبؤس اللذين كانا سائدين في اوائل الثلاثينات ، فانحطت « اعادة التثقيف » وتحولت الى عبودية تمتهن الحياة الانسانية بشكل رهيب وتلطخ صورة الثورة الثانية ببقعة سوداء كبيرة .

عندما ادعى ستالين فيما بعد ان العمل في روسيا السوفييتية « قد تحول من عبء ثقيل مهين الى مسألة شجاعة وبطولة ومجد» فلا بد ان كلماته قد بدت لنزلاء معسكرات العمل مليئة بالسخرية ، ولكنها بالتأكيد لم تبد كذلك للعمال المحظوظين الذين كان التصنيع بالنسبة لهم يعني تقدماً اجتماعياً . احيط العمل الصناعي والفعالية التقنية بهالة من العظمة جعلتها يجذبان الجيل الجديد ؛ فقد كانت الصحافة والمسرح والسينما والراديو يعظمون « ابطال جبهة الانتاج » بنفس الطريقة التي كان مشاهير الجنود ونجوم السينما يمجدون بها في البلدان الاخرى . فتحت المدارس الصناعية على جميع المستويات ابوابها امام العمال العاديين وتضاعف عدد هذه المدارس بسرعة مذهلة . حث ستالين البلاشفة بقوله « يجب ان نصبح خبراء ، يجب ان نصبح مهرة » .

« ما من طبقة حاكمة استطاعت الاستمرار بدون انتلجنسيا خاصة بها » . انتفخت صفوف الانتلجنسيا الجديدة خلال الثلاثينات باستمرار حتى اصبح ستالين يتحدث عنها

كطبقة اجتماعية تعدل، أو بالاحرى تفوق ، في مكانتها طبقتي العمال والفلاحين ، الطبقتان الاساسيتان في المجتمع السوفياتي. كانت الخصائص الثقافية والسياسية للانتلجنسيا الجديدة مختلفة تمام الاختلاف عن خصائص الانتلجنسيا القديمـــة التي اضاءت شعلة الثورة ايام القياصرة وقادت جمهورية العمال والفلاحين في ايامهـــا الاولى ، فقد انشئت الانتلجنسيا الجديدة على مقاومة وازدراء الطموح السياسي وكانت تفتقر الى الحذق الفكري والصفاء الجمالي اللذين كانت سابقتها تتمتع بهما، كما ان اهتمامها بالشؤون العالمية ظل نائماً ولم يستفق ، ولم تكن تملك اي حس حقيقي بالارتباط بين مصير روسيا ومصير بقية العالم . كان اهتمامها الرئيسي محصوراً في الآلات والاكتشافات التقنية ، في المشاريع الجريئة لتطوير المقاطعات المتخلفة ، في الوظائف الادارية وفي فن ادارة الاعمال . حتى في هذه المجالات، كانت الانتلجنسيا تبدي فجاجة جعلتهـــا في بعض الاحيان تصبح اضحوكة للخبراء الاجانب ، ولكنها كانت تجمع الى جانب الفجاجة رغبة عارمة في التعلم وذكاء وانفتاحاً عقلياً ، اي انها كانت تجمع كل خصائص الرواد . كان هذا حقاً جيل (الرجال الرواد) الذي خلقه ستالين .

كانت الانتلجنسيا القديمة في الوقت ذاته تعاني من المهانة ، فستالين لا يثق بعقلهـــا النقاد والنظرة العالمية لكثير من اعضائها . نظر التقنيون والاداريون القدماء الى مشاريع ستالين بشك وبرود وحتى بعداء مكشوف فانضم بعضهم الى واحـــدة او اخرى من المعارضات المتلاحقة ، واتخذ البعض الآخر اتجاهاً انهزامياً أدى بهم الى اعاقـــة وحتى تخريب الخطط الاقتصادية . كان ستالين في البداية يعامل تقنيي واداريي الجيل القديم باحترام مبالغ فيه ، ذلك الاحترام الذي يطبع البروليتاريين الحديثي العهد بالاعمـــال الحكومية ، اما بعد ان تعاظمت ثقة ستالين بنفسه وادخل نفسه في مصادمات مـــع الاقتصاديين والاداريين الذين كانوا مرتبطين الى حد بعيد بالروتين الخامل او واقعيين جداً لدرجة يصعب عليهم معها ان يواكبوا الثورة الصناعية ، فقد تحـــول احترامه الى العكس تمامـــاً فبدأ يحقرهم ويهينهم واستعمل جنحات وجرائم البعض منهم ليحيطهم جميعاً بشك محتدم ، اذ كان يكفي ان يتعرض العلماء والاكاديميون ، كالبروفسور رامزين وشركائه ، الى بعض محاكات استعراضية بتهمة انهم (مخربون) ، كان ذلك يكفي لكي ينظر العمال الى التقنيين والمديرين بحذر وشك . كانت نتائج ذلك خطيرة جـــداً على الصناعـــة ، وفوق ذلك كان تدريب الانتلجنسيا الجديدة يعتمد على التعاون الراضي

للانتلجنسيا القديمة، مما اجبر ستالين في النهاية على حماية اعضاء الانتلجنسيا القديمة فجاءت خطبه حول الموضوع مليئة بالتناقضات التي تعكس تذبذبات ستالين نفسه ومحاولاته المتأخرة لاصلاح الوضع .

لعل اهم مناحي سياسة ستالين الاجتماعية هو حربه على اتجاهات المساواتية (المساواة التامة بين البشر) ، فقد اصر على الحاجة الى سلم متفاوت للعائدات المادية مقابل العمل وذلك لتشجيع المهارة والفعالية ، وادعى أن الماركسيين ليسوا دعاة مساواة بالمعنى الشعبي ، ودعم نظريته هذه بقول ماركس المشهور انه حتى في المجتمع اللاطبقي فان العمال يأخذون في البداية كل حسب عمله وليس حسب حاجته . على الرغم من ذلك ، فقد كان في البلشفية تيار مساواتي قوي ، ففي زمن لينين ، على سبيل المثال، لم يكن يسمح لاعضاء الحزب الحاكم ، حتى الذين يمثلون اعلى المناصب منهم ، بان يحصلوا على اجور تفوق اجور العمال المهرة . ليس هناك من شك في ان حاجات التصنيع اصطدمت بمستويات المعيشة « الزاهدة » وان الافتقار الى الحوافز المادية لتشجيع التقنيين والاداريين والعمال كان يعوق اكتساب المهارة الصناعية ، ولكن ليس هناك من شك ايضاً في أن الفروق في الاجور والمعاشات وصلت خلال الثلاثينات حداً متطرفاً لا يتفق مع روح الماركسية ان لم يكن مع نصها ، فقد اصبح هناك فجوة واسعة بين سواد العمال غير المهرة وبين « ارستقراطية العمل » والبيروقراطية المحظوظة ، ويمكن القول ان هذه الفجوة اعاقت التقدم الثقافي والصناعي للامة ككل بقدر ما فعلت النظرة المساواتية المتزمتة في المرحلة الاولى .

كانت سياسة ستالين الاجتماعية هي المجال الرئيسي الذي حدا بخصومه، وعلى الاخص تروتسكي المنفي ، الى شجبه على انه قائد طبقة اجتماعية جديدة ذات امتياز ربى ستالين بالفعل تفاوت المداخيل بتصميم حازم ، فقد كان رأيه قد استقر على ذلك قبل « التغير العظيم » بمدة طويلة فقد حذر المؤتمر الرابع عشر للحزب في ١٩٢٥ ، حذره بغموض قائلا : « يجب علينا ان لا نتلاعب بتلك العبارات عن المساواة ، أن هذا لعب بالنار » ، وفي السنوات اللاحقة كان يتكلم عن دعاة المساواتية بحقد وضغينة مما يشير الى انه كان يدافع عن اضعف مناحي سياسته وأكثرها حساسية . كان هذا المنحى حساساً

جداً لأن جماعات الاداريين التي تتمتع بدخل عال اصبحت ركائز النظام الستاليني فهي تملك مصلحة مكتسبة فيه وكان ستالين يشعر ان حكمه الشخصي اكثر اماناً وصلابة إذا ما استقر على تسلسل هرمي من المصالح والتأثيرات. وهذه نقطة بالغة الضعف فليس هناك ما هو اصعب من اقامة تسلسل هرمي جديد على ارض فتتتها ضربات الثورة الاجتماعية ، فالثورة توقظ في الناس توقهم الكامن الى المساواة ، وأخطر مرحلة من مراحل الثورة هي تلك المرحلة التي يشعر فيها القادة انه ليس بامكانهم اشباع هذا التوق فينقلبون عليه محاولين قمعه ، وهنا يبدأون في تنفيذ العملية التي يسميها خصومهم غدر الثورة ولكن ضميرهم يفتقر الى الراحة وأعصابهم تصبح مشدودة بفعل غموض الدور الذي يلعبونه لدرجة ان اسوأ انفجارات غضبهم تكون موجهة نحو ضحايا هذا « الغدر » . من هنا كان العنف غير العادي الذي ضرب به كل من روبسبير و كرومويل وستالين دعاة المساواتية في عصره .

* * *

لم تبدأ ثمار الثورة الثانية في النضج إلا في اواخر الثلاثينات ، فقد بدأت قوة روسيا الصناعية تلحق في اواخر العقد بقوة المانيا . صحيح ان فعالية روسيا وقدرتها على التنظيم كانت لا تزال منخفضة و كذلك كان مستوى معيشة شعبها ، ولكن الانتاج الاجمالي لمناجمها ومصانعها اقترب من المستوى الذي لم تبلغه اكثر امم القارة الاوروبية تنظيماً وفعالية إلا بعد ثلاثة ارباع قرن من التصنيع الكثيف بمساعدة رأس المال الاجنبي ، أما الامم الاوروبية الاخرى ، التي كانت روسيا تنظر اليها من مركز الضعف لسنوات قليلة خلت ، فقد اصبحت متخلفة بعيداً . انتشرت الثورة الصناعية من روسيا الوسطى والغربية الى قفار روسيا الآسيوية البعيدة . كذلك بدأ تجميع الزراعة يعطي نتائج ايجابية ، ففي اواخر العقد زاد انتاج الحبوب بمقدار ثلاثين أو اربعين مليون طن عما كانت تنتجه الزراعة الفردية ، ويعود ذلك الى ان الصناعة اصبحت اخيراً قادرة على تزويد الزراعة بالتراكتورات وآلات الحصاد وغيرها من الادوات باعداد هائلة وصلت معها الزراعة السوفييتية أعلى درجات المكننة .

كان العالم الخارجي بدرجة أو باخرى غير واع للتغير العظيم وللتخلخل في الميزان الدولي للقوى الذي كان هذا التغير يعنيه ، ويعود ذلك الى ان الاخفاق المشهود للخطة

الخمسية الاولى دفع المراقبين الاجانب الى النظر بعين الشك على نتائج الخطتين الثانية والثالثة ، كما ان سلسلة محاكات «التطهير» المروعة كانت تشي بضعف اقتصادي وسياسي. كانت هناك بدون ادنى شك عناصر ضعف اكبر مما تبدو إذا ما نظر اليها من مركز القوة في اواخر الاربعينات ، ولكن عناصر القوة كانت اعظم بكثير مما كان يظن في اواخر الثلاثينات .

كان الانجاز عظيماً حتى إذا ما قيس فقط بمقياس المطامح الروسية القومية ، فقد وضع هذا الانجاز اسس العظمة الجديدة لروسيا ، تماماً كما وضع قانون البحرية الذي سنه كرومويل اسس تفوق بريطانيا البحري ، هذا بالطبع مع حفظ الفارق في المستوى . من هنا لم يكن بوسع اولئك الذين كانوا ينظرون الى الامور من زاوية المطامح القومية إلا ان يفردوا لستالين ارفع مكان بين جميع القادة الذين ساهموا خلال العصور في بناء عظمة روسيا ، ومن هنا ايضاً صفق كثير من المهاجرين الروس البيض لستالين على اعتبار انه بطل قومي . لكن اهمية الثورة الثانية لا تكمن فحسب بل لا تكمن اساساً في ما عنته بالنسبة لروسيا ، فقد كانت هذه الثورة مهمة بالنسبة للعالم لأنها اول اختبار عملاقي حقيقي للاقتصاد الموجه ، لأنها المرة الاولى التي تأخذ فيها حكومة ما على عاتقها تنظيم كل الحياة الاقتصادية لبلدها وتوجيه موارده الصناعية المؤممة نحو مضاعفة الثروة القومية بسرعة فريدة . صحيح ان ستالين لم يكن خالق هذه الفكرة ، فقد اقترض الكثير من المفكرين والاقتصاديين الماركسيين ، بما فيهم خصومه ، لدرجة يمكن معها في كثير من الاحيان اتهامه بالانتحال المباشر ، بيد ان ستالين كان أول من جعل من هذه الفكرة المجردة مهمة عملية حكومية . صحيح ايضاً ان بداية هامة في التخطيط خطتها الحكومة وهيئة الاركان الالمانية خلال الحرب العالمية الاولى ، وصحيح ان لينين اشار مراراً الى هذه السابقة على انها دليل للتجارب في المستقبل . لكن الشيء الجديد كل الجدة هو ان تخطيط ستالين لم يكن مجرد ضرورة املتها الحرب بل كان النموذج الطبيعي للحياة الاقتصادية وقت السلم،فحتى ذلك الحين كانت الحكومات تلجأ الى التخطيط عندما تحتاج الى وسائل الحرب ، كما ان البنادق والدبابات والطائرات كانت تنتج باعداد كبيرة طبقاً لخطط ستالين الخمسية ، لكن الانجاز الاساسي لهذه الخطط لم يكن تمكينها لروسيا من تسليح نفسها بل كان تمكينها من تحويل المجتمع وجعله مجتمعاً عصرياً .

لقد رأينا الفظائع التي رافقت « التغير العظيم » الذي انجزه ستالين ، هذه الفظائع

التي تذكرنا بالضرورة بفظائع الثورة الصناعية في انجلترا كما وصفها كارل ماركس في رأس المال ، إذ ان اوجه المقارنة عديدة ومذهلة . يصف ماركس في الفصل الختامي من المجلد الاول من كتابه « التراكم الاولي » لرأس المال ، يصف العمليات العنيفة التي تجمع بواسطتها طبقة اجتماعية وسائل الانتاج في يديها بينما تحرم الطبقات الاخرى من ارضها ووسائل معيشتها لتنزل الى مرتبة المستخدمين . ان بالامكان اطلاق اسم « التراكم الاولي » للاشتراكية في بلد واحد على العملية التي حدثت في روسيا خلال الثلاثينات . وصف ماركس « المداخل » و « المخارج » التي استطاع بواسطتها اقطاعيو انجلترة وصناعيوها مصادرة املاك طبقة الفلاحين المستقلين ، ويمكننا ان نجد مثيلاً لهذه المداخل والمخارج في قانون سوفييتي قدمه ستالين الى المؤتمر السادس عشر للحزب ، يسمح بموجبه للمزارع الجماعية ان تعدل حدودها لتمتلك مساحة مستمرة من الارض ، وبذا كان الفلاحون يجبرون على الانضمام للمزارع الجماعية أو تصادر قطع الارض التي يملكونها . يعيد ماركس الى الاذهان « النظام الدموي » الذي حول الفلاحين الاحرار في انجلترة الى مستخدمين ، « العمل المخزي الذي قامت به الدولة باستخدام البوليس لتسريع تراكم رأس المال بزيادة درجة استغلال العمل » . ان كلمات ماركس هذه يمكن ان تنطبق على كثير من الممارسات التي اقرها ستالين . يلخص ماركس صورة الثورة الصناعية الانجليزية بقوله « يأتي رأس المال (الى العالم) والدم الممزوج بالقذارة يسيل من كل مسام ، من رأسه حتى اخمص القدم » ، هكذا تجيء الى العالم ايضاً الاشتراكية في بلد واحد .

كانت الثورة الصناعية الانجليزية برغم كل « دمويتها وقذارتها » ايذاناً بتقدم عظيم في تاريخ الجنس البشري كما انها كانت بداية حقبة جديدة من حقبات الحضارة ، ولم يكن ماركس لينكر ذلك . كذلك كانت ثورة ستالين الصناعية . كثيراً ما يقال ان هذه الثورة ارتكبت فظاعات يمكن غفرانها في قرون ماضية ولكن لا يمكن الصفح عنها في هذا القرن . هذه حجة صحيحة ولكن ضمن حدود ، فقد كانت روسيا متأخرة في تطورها التاريخي . لقد اختفت القنانة في انجلترة في نهاية القرن الرابع عشر . أما أبوا ستالين فكانا لا يزالان قنين ، وإذا ما نظرنا الى الامور بمقاييس انجلترة فانه يمكننا القول ان القرنين الرابع عشر والعشرين اجتمعا في روسيا حينئذ ، كما اجتمعا في شخص ستالين ومن هنا فلا يمكن ان تأخذ الدهشة المؤرخ إذا ما وجد في شخصه بعض المسحات التي يشترك في حملها طغاة القرون الغابرة . على أي حال يحق لستالين ان يشير الى ان نظامه

كان خالياً ، حتى في اكثر مراحله تشنجاً وبعداً عن التعقل ، من حماقة قاسية كانت ترتكب في بلدان الغرب المتقدمة ، قال ستالين خلال « الازمة الكبرى » « يعتقد الرأسماليون ان من الطبيعي احراق « فائض » الانتاج الزراعي وتدمير « فائض » السلع في وقت الكساد للحفاظ على ارتفاع الاسعار وضمان عائدات عالية ، أما هنا في الاتحاد السوفييتي فان المذنبين بجرائم كهذه قد يرسلون الى مصح للامراض العقلية » .

* * *

من السهل ان نرى الى أي مدى ابتعد ستالين عن المجرى الرئيسي للفكر الاشتراكي والماركسي . كان الشيء المشترك بين اشتراكية ستالين والمجتمع الجديد كما تخيله الاشتراكيون من جميع الاتجاهات هو التخطيط والملكية العامة لوسائل الانتاج ، ولكن اشتراكية ستالين تختلف في انها اخضعت بعض قطاعات المجتمع للمهانة وثبتت الفروقات الاجتماعية الصارخة وسط الفقر الذي ورثته الثورة عن الماضي ، على ان الفرق الاساسي بين الستالينية والنظرة الاشتراكية التقليدية يكمن في نظرة كل منهما الى دور القوة في تحويل المجتمع .

كانت الماركسية الابن غير الشرعي المتمرد لليبرالية القرن التاسع عشر ، وكانت على الرغم من معارضتها الشديدة لأبيها تشاركه في كثير من السمات . شجب انبياء الاقتصاد الحر القوة السياسية قائلين انها لا تستطيع ان تلعب دوراً تقدمياً في الحياة الاجتماعية ، اما الماركسية فقد اكدت ، بالمقارنة مع الليبرالية ، على اللحظات والوضعيات التاريخية التي تستطيع القوة فيها ان تساعد في تقدم الامم والطبقات كما في الثورتين الفرنسية والانجليزية وحرب الاستقلال الاميركية والحرب الاهلية ، ولكن الماركسيين قالوا ايضاً ان الحدود التي تستطيع القوة السياسية ان تحدث تغييراً ضمنها في نظرة المجتمع حدود ضيقة ، وان مصائر البشر تتحدد اساساً من خلال عمليات اقتصادية واجتماعية ،لا تشكل القوة بالمقارنة معها سوى عاملاً ثانوياً . على الرغم من الاختلاف الكبير بين الماركسية والليبرالية فانهما تشتركان بدرجات متفاوتة في التفاؤل بصدد مستقبل الحضارة الحديثة ، هذا التفاؤل الذي كان يطبع فكر القرن التاسع عشر ، وكلاهما يفترض ان تقدم المجتمع

الحديث يتجه حـــالاً بدرجة أو باخرى الى تحقيق مثالها . عبر ماركس وانجلز عن اعتقادهما المشترك بذلك في حملتهما المشهورة القائلة ان القوة هي قابلة كل مجتمع قديم يحمل في احشائه مجتمعاً جديداً ، والقابلة لا تفعل اكثر من ان تساعد الطفل على مغادرة رحم امه عندما يأزف الميعاد. أما بالنسبة لستالين ، فقد كانت نظرته الى دور القوة السياسية ، كما عكستها افعاله اكثر من اقواله ، تشي بجو استبدادية القرن العشرين ، وكان بامكانه ان يعيد صياغة القول الماركسي الشهير على النحو التالي : — القوة لم تعد القابلة — القوة هي ام المجتمع الجديد .

●

الفصل التاسع

الآلهة العطشى

مقدمة : البلشفية واليعقوبية . ـ ستالين يراقب نشاطات تروتسكي في الخارج .ـ نفوذ تروتسكي في روسيا .ـ جيلان من المعارضين البلاشفة . ـ ستالين يتأرجح بين القمع وبين المبادرات الليبرالية (١٩٣٤) . ـ اغتيـال كيروف (كانون الاول ، ١٩٣٤) ونهاية الفترة شبه الليبرالية . ـ زينوفييف وكامينيف يتوبان من جديـد . ـ جدانوف ، مبعوث ستالين لـ « تطهير » لينينغراد . ـبوخارين ورادك : اكبر المساهمين في وضع « دستور ستالين » عام ١٩٣٦ .ـ وضع المكتب السياسي .ـ نفوذ ستالين الادبي والثقافي . ـ صداقته مع مكسيم غوركي . ـ المحاكمات الكبرى(١٩٣٦ ـ ١٩٣٨) . ـ المتهمون والتهم . ـ لماذا ادلى المتهمون بـ« اعترافاتهـم » ؟ . ـ توقيت المحاكمات . ـ مؤامرة توخاتشيفسكي . ـ ستالين يعلن الدستور الجديـد (تشرين الثاني ، ١٩٣٦) . ـ نهاية التصفيات ،في اوائل ١٩٣٩ ، ونتائجها . ـ اغتيال تروتسكي في مكسيكو ، آب ١٩٤٠ .

في منتصف الثلاثينيات يبدأ أحلك فصل في عهد ستالين : سلسلة محاكمات التصفية التي قضى فيها على كل البلاشفة القدامى تقريباً . غالباً ما قورنت هذه الحقبة بالحقبة الختامية من الثورة اليعقوبية في فرنسا ، حقبة حكم المقصلة . حقاً ان الشبه لدقيق الى درجة انه حدا ببعض ابطالها وبالعديد من المراقبين الخارجيين الى تجاهل الفوارق بينهما . لقد اتصف « حكم الارهاب » الذي مارسه ستالين ، مثله مثل حكم روبسبيير ، بنفس الصفة القاتمة ، والغيوم الداكنة من الوحشية اللاعقلانية ، والفزع الاسطوري الذي لا ينفك يثيره منظر الثورة التي تلتهم ابناءها . حتى سياق الاحداث يكاد يكون هو ذاته . ففي البدء ، هزم روبسبيير اليسار اليعقوبي بقيادة هيبير وكلوتز ، وذلك بمساعدة اليمين اليعقوبي بقيادة دانتون . ثم ارتد على دانتون ليحطمه وانصاره ، وليقيم ، لفترة من الزمن ، حكم الجناح اليعقوبي الوسطي بقيادته ، ولا من ينازعه عليه . لقد رأينا ستالين يتزعم الوسط البلشفي ، ويستعين ، بادىء بدء ، باليمين البلشفي ليهزم اليسار ، ليرتد من ثم على اليمين. ورأيناه اخيراً قائداً لجناحه المنتصر المنفرد بالسلطة .

الا ان نقاط الاختلاف بين الحقيقتين ليست اقل بروزاً من نقاط الشبه . لقد انشق القادة اليعاقبة على بعضهم البعض في طور مبكر من اطوار الثورة . وكانت الوصلات بين مختلف اطوار الثورة ، بتصاعدها وانتكاسها ، قصيرة جداً ، فبدا وكأن الاطوار جميعها تسير وفق نفس الهوى الاعمى المتجدد ابداً . في اوائل عام ١٧٩٣ ، وقفت كتلتا « الجبل » و « الجيروند » صفاً واحداً ضد الملك . ولكن في الواحد والثلاثين من تشرين الاول ، اي بعد عشرة اشهر ، كان قادة « الجيروند » يصعدون الى المقصلة . وعقب ذلك « مهرجان العقل » ، ذروة المد اليعقوبي . وما ان انقضت خمسة اشهر ، اي في آذار من عام ١٧٩٤ ، حتى تدحرجت رؤوس قادة اليسار اليعقوبي . وبعد اسبوعين فقط ، كان الجلاد يرفع رأس روبسبيير الضخم على مرأى من جمهور النظارة الباريسيين . وهكذا ، فدكتاتورية روبسبيير لم تدم اكثر من اربعة اشهر ، فقد انتهت في السابع

والعشرين من تموز (في التاسع من شهر « ثرميدور » ، حسب الروزنامة اليعقوبيـــة) ، عام ١٧٩٤ . في وجه وتيرة الاحداث العفوية والمسعورة ، لم ينفع العقـل البشري ، ولا السيطرة على النفس ، ولا غرائز الدفاع عن النفس . وهكذا ، فالقادة والاتبـاع ، والاجنحة والافراد ، كانت كلها تلعب دورها التاريخي ، دور القضـــاء على فرنسا الاقطاعية ، وتنهك نفسها حتى الموت في جذبة متواصلة من الهلوسة .

ان سياق الاحداث مغاير تماماً في الثورة الروسية . لقد دنا النظـــام السوفييتي من نهاية عقده الثاني من الحكم دون ان يصاب بعوارض الجنون اليعقوبي . طبعاً ، لم تخـــلُ سنوات الحرب الاهلية ، ١٩١٨ — ١٩٢١ ، من الارهاب . لكن هذا الارهاب لم يكن اكثر من اجراء عسكري ضد ردة مضادة للثورة ضارية ومسلحة . فتحددت وسائـــله واهدافه حسب طبيعة تلك الحرب . لم يقدم البلاشفة على إعدام « الجيروندييين » الروس ، وهم بذلك على عكس اليعاقبة . لقد سمح لابرز القادة المناشفة — من امثـــال مارتوف ، دان ، وابراموفيتش — بمغادرة روسيا ، او هم نفوا منها بعد صدور قرار بمنـع حزبهم . لقد سجن البعض منهم ، الا ان معظم المناشفة ما لبث ان تكيف مع الهزيمة ، وخـــدم باخلاص في الادارة ، وحتى في مكاتب القادة البلاشفة .

لذا ، فطبيعي ان نتوقع الا يغوص « الجيل » البلشفي في دم قادته ، ما دام قـــد اعفى عن حياة « الجيروندييين » . في اوائل الثلاثينات ، كان ثمة قصة لا تزال شائعة بين البلاشفة تقول ان قادتهم ، منذ ان بدأ الخلاف فيما بينهم ، قد تعهـــدوا ، في قسم سري مبرم ، على عدم استعمال المقصلة ضد بعضهم البعض . ومهما يكن من امر صحة هـــذه القصة ، فمن المؤكد ان ستالين قد تأمل طويلاً في السابقة الفرنسية الرهيبة ؛ وهذا مـــا ردعه طوال سنوات عن اللجوء الى اجراءات قمعية قصوى . وقد ردد ذلك في اكـثر من مناسبة . وكمثال على ذلك ، نورد رده على مطالبة زنيوفييف وكامينيف له باتخـــاذ إجراءات انتقامية ضد تروتسكي :

« لم نوافق كامينيف وزنيوفييف ، لاننا كنا نعـــلم ان سياسة قطع الرؤوس محفوفة بافدح المخاطر ... ان وسيلة قطع الرؤوس وإراقة الدماء — وقـــد كانا متعطشين للدم — خطيرة وجالبة للعدوى . اذا اقدم المرء على قطع رأس احدهم اليوم ، ثم رأس الآخر غداً ، ورأس ثالث بعد غد — مـــاذا يتبقى من الحزب في النهاية ؟ ».

فبدا و كأنه يقول ان ثورة القرن العشرين قد تسمح لنفسها بان تنبذ ابناءها ، ولكن ليس من الضروري ان تلتهمهم . في عام ١٩٢٩ ، قرر ستالين ان ينفي تروتسكي خارج روسيا . ولم يكن قد خطر ببال احد ، آنذاك ، ان يودع تروتسكي السجن ، ناهيك عن التفكير باعدامه . ان موجة الارهاب لم ترفع رأسها الا بعد عدة سنوات ، بعد ان همدت جذوة الثورة كلياً . ان هذه الحادثة ، مثلها مثل اعترافات خصوم ستالين وادانتهم لانفسهم ، تختلف جذرياً عن سلوك معظم القادة اليعاقبة في المحكمة الذي اتسم بالإباء والتحدي ؛ الامر الذي جعل محاكات التصفية التي اجراها ستالين اكثر تضليلاً من محاكات روبسبيير .

كانت الثورة الفرنسية عفوية تماماً . وقد ولدت احزابها واجنحتها إبان الانتفاضة نفسها . ولم تتوافر لديها البرامج المحددة ولا الافكار الواضحة . كانت جزءاً من تيار الثورة العظيم ، تعبّ منه سياساتها وشعاراتها والحركة تنتقل من طور الى آخر . وتكمن قوة اليعاقبة في تصميمهم على تحطيم بنية فرنسا الاقطاعية . اما مكمن الضعف فيهم ، فهو عجزهم عن تقديم تنظيم ايجابي جديد للمجتمع الفرنسي . لقد طرح روبسبيير على فرنسا فكرة طوباوية تدعو الى المساواة الاجتماعية القائمة على الملكية الصغيرة ، في وقت لم تكن هي مؤهلة لاكثر من الانتقال من اللامساواة الاقطاعية الى اللامساواة البرجوازية . وقد سعى لتحويل فرنسا باسرها الى مجتمع للطبقة الوسطى الصغيرة الفاضلة ، وارسل بخصومه البرجوازيين او شبه البروليتاريين الى المقصلة .الا ان فرنسا لم تلبث ان حطمت السجن الذي اراد روبسبيير ان يحبسها فيه ، وتحررت من الدكتاتور الطوباوي الذي حررها من قيودها الاقطاعية — وبهذا شفيت من وعكتها وواصلت تقدمها البرجوازي . ان مقدرة اليعقوبية على الصمود كانت ضعيفة جداً لان ما من جناح من اجنحتها كان يملك نظرة واقعية ايجابية لحاجات الامة الاجتماعية ولامكاناتها .

ان مقدرة البلشفية على الصمود كانت ، ولا شك ، اعظم . فعوضاً عن ان يكون حزب لينين مجرد جزء من التيار الثوري ، نراه يقتحم هذا التيار كفئة شديدة التماسك ، مصممة على السيطرة على الحركة العفوية . الخطوط العريضة للبرنامج البلشفي تبلورت قبل عام ١٩١٧ . وحتى عندما انحسرت الثورة ، كان الحزب لا يزال قادراً على ان يقدم للامة برنامجاً بناءً للتنمية الاجتماعية ، وذلك بالرغم من الخلافات الداخلية التي تمزقه . طوال حوالي العقدين من الزمن ، حالت نظرة الحزب العقلانية بينه وبين الغرائز

اللاعقلانية الكامنة في اي نظام استبداد يتولد عن ثورة . طوال حوالي العقدين من الزمن، قاومت البلشفية الآلهة العطشى . ولكنها عندما استسلمت لهم ، كان استسلامها اكثر خنوعاً من استسلام اليعاقبة .

كان استسلامها ابشع ، لكنه اقل اكتمالاً . فستالين نفسه ، على عكس روبسبيير ، لم يقع فريسة للمقصلة التي سلطها على اعدائه .

* * *

لعل ستالين تنهد بارتياح ساعة طرد تروتسكي من روسيا . حتى في منفاه السيبيري ، ظل تروتسكي على اتصال بتلك الفئة من انصاره التي لم « تستسلم » . وبقاؤه في روسيا ، وسط التذمر والتوتر اللذين يرافقان الخطة الخمسية الاولى ، يعني السماح له بان يؤسس معارضة فعالة ضد ستالين . حصل ستالين من الحكومة التركية على إذن بنفي تروتسكي الى جزيرة « برينبيكو » التركية . وكان يأمل ان يؤدي انقطاع تروتسكي عن العالم هناك الى شل حركته . لكن المنفي واصل نضاله بواسطة القلم : السلاح الوحيد المتبقي له . فاخذ يصدر ، من برينبيكو ، صحيفة دورية صغيرة تدعى « نشرة المعارضة » ، ملأها بنفسه بتعليقات على الاحداث الجارية في السياستين السوفييتية والشيوعية . كان للمطبوعة السرية ، بادىء بدء ، نفوذ مرموق في اوساط الموظفين السوفييت المسافرين الى الخارج ، فقرأوها ، وغالباً ما كانوا يحملونها معهم الى روسيا لاطلاع الاصدقاء عليها . وكان ستالين نفسه يدرس بعناية كل نسخة من نسخها . فالصحيفة وثيقة الاطلاع على الاحداث داخل روسيا ؛ وليس تروتسكي بالناقد الذي يسوغ تجاهله . وباستطاعتنا ان نقتفي آثار البعض من تحركات ستالين نفسه الى اقتراحات وردت في « نشرة المعارضة » . وبالاضافة لذلك ، فالنشرة تسمح لستالين بان يطلع على مزاج المعارضة وآمالها على نحو افضل مما تسمح له تقارير شرطته السياسية .

لم يستصغر ستالين النفوذ الذي اخذ تروتسكي يمارسه ، على نحو مفاجىء ، من الخارج . تذكر ان صحيفة لينين – الشرارة – وهي ليست اعظم شأناً من « نشرة » تروتسكي ، قد « أضرمت نار الثورة » ذات يوم . لكن تروتسكي كان يدعو الى الاصلاح ، لا الى الثورة . وخلافاً للصحف البلشفية السرية القديمة ، لم تصل « نشرته » ،

على الارجح ، لعمال روسيا ؛ لكنها كانت قيد التداول ، بشيء من الحرية ، بين الموظفين الكبار واعضاء الحزب النافذين ، الذين خدم العديد منهم تحت إمرة تروتسكي واحتفظ بنوع من الولاء تجاهه . بعد فترة من نفي تروتسكي الى جزيرة برينبيكو ، زاره احد قادة الشرطة السياسية نفسها ، المدعو بلومكين . اذ ذاك ، صمم ستالين على وضع حد لمثل هذه الاتصالات . فأعدم بلومكين في محاولة لردع الآخرين عن مثل هذه الاعمال . ويبدو ان هذه هي اول حادثة تعرض فيها احد انصار المعارضة للعقوبة القصوى . وبعد فترة من ذلك . حرم تروتسكي وافراد عائلته من الجنسية السوفييتية . واعلن ان كل من يتصل بمؤسس الجيش الاحمر ، من ذلك الوقت فصاعداً ، سوف يحاكم بتهمة الاتصال بـ « متآمر أجنبي » .

بالرغم من ذلك ، ظل لتروتسكي بعض النفوذ ، يمارسه من بعيد ، وخاصة خلال عامي ١٩٣٢ – ١٩٣٣ الحرجين . وفي عز الازمة ، حوالي الوقت الذي اقدمت فيه زوجة ستالين على الانتحار ، صدر في « النشرة » عرض مفصل للوضع الاقتصادي ، يحتوي على كمية ضخمة من المعطيات الإحصائية من النوع الذي لا يتوافر لغير اعضاء الحكومة السوفييتية . وانتهت المقالة المغفلة من التوقيع كالآتي : « نظراً لعجز القيادة الحالية عن الخروج من الطريق الاقتصادي والسياسي المسدود ، يتعاظم الاقتناع بالحاجة الى تغيير قيادة الحزب » . كان كاتب المقال هو ا . ن . سميرنوف ، المنتصر على كولشاك وأحد اتباع تروتسكي ممن « استسلمو » فاعيدوا الى وظائفهم . وفي معرض الاعتراض على حرمانه من الجنسية السوفييتية ، ذكر تروتسكي زملاءه السابقين ، مرة اخرى ، بالنصيحة التي تركها لهم لينين في وصيته بأن « يخلعوا ستالين » من منصب الامانة العامة للحزب .

تململت المعارضة في روسيا ؛ لكنها لم تتحرك . القادة الذين عادوا من سيبيريا ، بعد استسلامهم لستالين ، لم يخفوا انزعاجهم من سياساته ، لكنهم لم يقفوا علناً ضدها ، ولا كان بمقدورهم ان يفعلوا ذلك . حتى تروتسكي نفسه ، الذي لم يكن ليعفي ستالين من اي نقد ، اخذ يتردد في استنتاجاته العملية . كتب في خريف عام ١٩٣٢ : « ان الاخلال بالتوازن البروقراطي حالياً (اي الإطاحة بحكم ستالين) في الاتحاد السوفييتي ، سوف يفيد قوى الردة المضادة للثورة . هذا امر شبه اكيد » . هذا يعني انه يطالب المعارضة ان لا تأتي فعلاً غير القيام بالدعاية المجردة . لكنه يقول في مناسبة اخرى ،

« إن المستقبل القريب جداً سوف يبين ان المعارضتين اليمينية واليسارية لم تهزما ولم يقض عليهما ، بل هما ، على عكس ذلك ، القوتان الوحيدتان اللتان تتمتعان بوجود سياسي حقيقي » . في عام ١٩٣٣ ، طُرد زينوفييف وكامينيف ورفاقهما مجدداً من الحزب ، ونفيا الى سيبيريا . فاعلن زينوفييف إثر ذاك : « ان اعظم غلطة سياسية ارتكبتها في حياتي هي اني تخليت عن تروتسكي عام ١٩٢٧ » . واعتقل سميرنوف ، كاتب المقالة الاقتصادية الفاضحة في « نشرة » تروتسكي . وكذلك اعتقل ريوتين ، رئيس جهاز الدعاية ، وقد اخذ المتذمرون يلتفون حوله ، واغلانوف ، سكرتير الحزب في موسكو . هذا وقد شجب ريكوف ، وتومسكي ، وبوخارين موقف تلك الفئة من انصارهم التي سعت الى الاتفاق مع المعارضة اليسارية ، كما ادانوا افكارهم مرة اخرى . ولكن ما ان مضت بضعة اشهر — في ايار ١٩٣٣ — حتى سمح لزينوفييف وكامينيف بالعودة من المنفى ، بعد ان تبرأوا من افكارهم القديمة مرة اخرى . فعلق تروتسكي على عمليات الاستسلام الجديدة هذه بقوله : « إن ستالين ، مثله مثل بطل قصة غوغول ، يجمع الارواح الميتة لعجزه عن تجميع الارواح الحية » . لكن عمليات النفي والتبرؤ المتكررة كانت تفي غرض ستالين : فالنفي يرهب المعارضة ، والتبرؤ يزرع البلبلة في صفوفها . الا ان سخرية تروتسكي لم تكن كلياً بدون معنى . فالتذمر يملأ الحزب وعدد الاعضاء المفصولين بين ١٩٣٣ و ١٩٣٥ يصل تعداده الى مئات الالوف ؛ يزيد عنهم تعداد المفصولين من « الكومسومول » . والاهم هنا ان التذمر اخذ يعبر عن نفسه باشكال جديدة . فظهر شقاق بين جيلين من اجيال المعارضة ، بين الآباء والابناء ، ليس بعيد الشبه عن الانشقاقات التي عانت منها الانتلجنسيا الروسية في القرن التاسع عشر .

في ذلك الحين ، كان زمن طويل قد انقضى على هزيمة المعارضين القدامى ، لا بل على انكسارهم النفسي . حتى راكوفسكي الصلب ، رئيس الوزراء الاوكراني السابق والسفير السوفييتي لدى لندن وباريس ، الذي صمد في المنفى والسجن مدة اطول من الآخرين ، ما لبث ان استسلم وعاد الى موسكو عام ١٩٣٤ . وكغيره من التائبين ، وقع راكوفسكي على بيان يحتوي على ثناء على ستالين بقدر ما يحتوي على ذم بالنفس . وكان جوهر مثل هذه البيانات هو التأكيد على ان سياسة ستالين هي وحدها الصحيحة ؛ وان اية سياسات اخرى ، من التي دعت المعارضة الى انتهاجها ، كانت ستؤدي حتماً الى كارثة . لم يكن الوقت قد حان بعد ليطلب من « المستسلمين » الاعتراف بانهم سعوا الى إعادة الرأسمالية .

فاقصى ما يرد في بيانات ادانة النفس هذه هو الاعتراف بان البلد ، اذا تبنى سياساتهم ، فسوف يتعرض لخطر عودة الرأسمالية ، وذلك بالرغم من نواياهم الحسنة .

ان قبولهم القيام بمثل هذا « الانتقاد الذاتي » لا يعود فقط الى قساوة الضربات التي كالها ستالين لهم . ان انصياعهم لاوامره يثبت انهم كانوا منهكين سياسياً او مترددين في معارضتهم . ولعل اعمارهم وحدها كافية لتفسير هذا الإنهاك : فوراء معظم « المستسلمين » ما يزيد عن الثلاثين او الاربعين عاماً من النضال المتواصل ، جرى معظمه في ظروف العمل السري . اما ترددهم في المعارضة ، فكان يتنامى مع ادراكهم ان التغيرات التي اجراها ستالين ، مهما يكن رأيهم بالوسائل المستخدمة لتحقيقها ، لا يمكن العودة عنها دون الإساءة الى الثورة نفسها . وعلى الرغم من الرعب الذي اثاره اعتماد هذه الوسائل في نفوسهم ، فلم يتمالكوا انفسهم من الشعور بانهم جميعاً ستالينيين كانوا ام معادين للستالينية ، مسافرين على مركب واحد . وكان تحقير النفس الذي مارسوه هو الضريبة التي دفعوها لربانه . وهكذا ، فان « براءاتهم » لم تكن صادقة كلياً ، ولا كاذبة كلياً . وبالرغم من انهم اخذوا يوثقون اواصر صداقاتهم وصلاتهم السياسية القديمة فور عودتهم من المنفى ، الا انهم امتنعوا بحذر عن القيام باي عمل سياسي معارض لستالين . وظل معظمهم ، حتى اواسط الثلاثينات ، على اتصال باعضاء المكتب السياسي الجديد . وكان بعض التائبين – من امثال بوخارين وريكوف وبياتاكوف ورادك وغيرهم – من مستشاري ستالين الخاصين او اعضاء في حكومته . ولو خطر ببالهم اغتيال ستالين او اي شخص آخر من بطانته ، لكانت سنحت لهم فرص عديدة للقيام بذلك .

كتب احد مراسلي تروتسكي من روسيا يصف حالة هؤلاء الرجال في عام ١٩٣٣ ، فقال :

« كلهم يتحدث عن عزلة ستالين وعن مبلغ الحقد الذي يكنه ضده ... لكنهم غالباً ما يستدركون بقولهم : « لو لم يكن زمام الامر بيد هذا الـ ... (نحذف هنا الشتيمة التي يخصونه بها) ... لأنهار كل شيء . انه هو الذي يحول دون انفراط الوضع » .

كان « الآباء » المعارضون يتذمرون فيما بينهم ، يتنهدون ، ويتحدثون عن الهموم التي تنغص عليهم حياتهم . واطلقوا على ستالين نعوتاً شتى : « جنكيز خان المكتب السياسي » ، « الآسيوي » ، « ايفان الرهيب الجديد » ... وكان هذا التذمر وهذه

النعوت تنقل الى ستالين فوراً ، فجواسيسه في كل مكان . وبالرغم من انه كان يدرك تمام الإدراك المشاعر الحقيقية التي يكنها تجاهه خصومه المذلون ، وقيمة مديحهم العلني له ، الا انه كان واثقاً ايضاً من انهم لن يتجاوزوا نطاق التعبير الكلامي العنيف عن عجزهم السياسي .

صحيح ان قدامى المعارضين استسلموا لآمال مبهمة حول ما قد يحمله الغد . كان لسان حالهم كالآتي : ربما بعد الخطة الخمسية الثانية ، او ربما بعد الثالثة ، سوف يعم الرفاه والارتياح السياسي ؛ فلن يعود ثمة من مبرر لقساوة نظام ستالين ، فيرفضه الناس ولكن ، بانتظار ان يحين ذلك الوقت ، اخذوا يراوحون في امكنتهم ويحاولون التخفيف من غلواء انصارهم الشبان الأنفذ صبراً منهم . حتى تروتسكي ، الذي ارعد وازبد ضد « المستسلمين الجبناء » ، كتب في اذار ١٩٣٣ : « ان شعار « يسقط ستالين » اخذ يعم اوساطاً اوسع فاوسع في داخل الحزب وخارجه . ليس هنا مجال تفسير اسباب ذلك . الا اننا نعتقد ان الشعار خاطىء . ليست المسألة مسألة شخص ستالين ، بل زمرته .... بدهي ان النظام البونابارتي لذي يتربع على رأسه قائد فرد ، يفرض على الجماهير ان تعبده ، هو نظام يجب ان يزول ، وسوف يزول لا محالة ، بوصفه ابشع تشويه لفكرة الحزب الثوري . ولكن ما يعنينا من الامر ليس طرد الافراد ، بل تغيير النظام » . وقد ذهب تروتسكي الى حد ان يعرض على ستالين تعاونه معه لصد اخطار الردة المضادة للثورة خلال الفترة الحرجة ، عندما ينفتح النظام .

ان موقف قدامى المعارضين الانتظاري لم يرض العناصر المتذمرة بين الشباب . ان يحاول « الابناء » النضال ضد جو الدكتاتورية الخانق بحدة اكبر من نضال « آبائهم » المنهكين لهو امر طبيعي وحتمي . وطبعاً ، لم يكن بمقدور الجيل الجديد ان يبدأ حيث انتهى الجيل القديم ، اي عند الاستسلامات وحملات تحقير النفس التي لا تثير الا شعوراً بالقرف والقيء . فالجيل الجديد لا يزال ينظر بشيء من الاعجاب الى « الشيوخ الكبار » للحركة البلشفية ، على امل اعادة الاعتبار لهم وإرجاعهم الى سدة الحكم . ولم يكن « الابناء » يشعرون بان « الآباء » متفوقين عليهم من حيث الثقافة والخبرة السياسيتين وحسب ، بل واخذوا ايضاً بفكرتهم الاساسية : « العودة الى اللينينية الصافية » ، مهما كان معنى هذه العبارة . الا انهم اختلفوا عنهم في اختيار الاساليب . كان البلاشفة القدامى قد عارضوا ، ايام شبابهم ، محاولات اغتيال بطانة القيصر التي اضطلع بها

الشعبيون والاشتراكيون الثوريون . وقــد اعتمدوا ، بوصفهم ماركسيين ، على تعاظم الحركة الجماهيرية ضد القيصرية . فظلوا اوفياء لهذا التقليد السياسي . وكانوا يأملون بأن اصلاح نظام الحكم سيأتي بعد تغيير موقف الطبقات العاملة ، وليس عبر مؤامرة يقوم بهـا بضعة افراد يعملون من وراء ظهر الشعب . لم يعرف « الابنــاء » مثل هذه التحريمات . فقد لاحظوا ان الطبقة العاملة الصناعية تتكون في معظمها من فلاحين خام ، جاءوا لتوهم من الريف، فوعيهم السياسي ، بالتــالي ، فقير جداً ، وقدرتهم النضالية شبه معدومة . وإذا كان الاصلاح مرهون بعمل سياسي تقوم به الطبقــة العاملة ، إذاً على البلد ان يتحمل حكم ستالين طوال سنوات . وهذا بالذات ما يرفضه المعارضون المتحمسون بين الشباب . كانوا قد سمعوا ، في المدارس وفي اجتماعات خلايا « الكومسومول » ، القصص عن اولئك الثوريين الروس المعزولين الذين جــابهوا الحكم الاستبدادي ، في القرن التاسع عشر ، بالقنابل والمسدسات ، دون ان يحظوا بدعم اية طبقــة من طبقات المجتمع الروسي . ألم يكن شقيق لينين من بين المتآمرين الذين حاولوا اغتيال القيصر الكسندر الثالث ؟ ولمـا كانت الكتب المدرسية تضفي على هؤلاء الشهداء والابطال هالة رومنطيقية ، إذا باشباح الامس المقدسة تضع الآن القنابل والمسدسات بين ايدي بعض نافذي الصبر من مناضلي « الكومسومول » المعادين للستالينية [1] .

* * *

في محاذاة انشقاق المعارضة هذا ، برز انشقاق جديد في المكتب السياسي . اختلف اعضاؤه فيما بينهم لا على الاهداف ، بل على الوسائل والادوات السياسية ، بالرغم من ان ستالين كان قد انتقاهم بعناية بالغة ، وبالرغم من تصديهم للدفاع عن الوضع الراهن . ناشد بعضُهم ستالين على اضفاء سمة ليبرالية على حكمه الاستبدادي ، في حين دعا البعض الآخر الى انتهاج سياسة « القبضة الحديدية » . ويبدو ان « الليبراليين » هم كيروف ، فوروشيلوف ، رادزوتاك ، وكالينين . كان على فوروشيلوف ان يأخذ بعين الاعتبار تأثير التجميع الزراعي على معنويات الجيش . فقــد اعلن اللواء بلوخر ، قائد جيش الشرق الاقصى ،

---

(١) لهذا السبب ، طلب جدانوف في وقت لاحق ان تحذف من الكتب المدرسية العبارات الــتي تمجد الارهابيين الثوريين في القرن التاسع عشر .

رفضه تحمل مسئولية الدفاع عن الحدود المنوطة به اذا ما طبّق التجميع الزراعي على سكان اطراف روسيا . فدافع فوروشيلوف عن وجهة نظره امام المكتب السياسي ، وتمكن من استصدار اعفاء مزارعي الشرق الاقصى من التجميع . أرسل كيروف الى لينِنغراد لقمع المعارضة الزينوفييفية ، لكنه سرعان ما صار المتحدث الرسمي باسم الحالة المتوترة التي كانت سائدة في اكثر مدن روسيا ثورية ً واتساماً بالميسم الاوروبي . فتضرّع الى ستالين كي يرأف بالمعارضة ، وبذل ما بوسعه ، ضمن مجال نفوذه ، لكبح جماح الشرطة السياسية . فحذا حذوه رادوزتاك ، نائب رئيس الوزراء وقائد النقابات . اما مولوتوف وكاغانوفيتش ، فكانا من دعاة سياسة « القبضة الحديدية » .

لم يكن اخلاص هؤلاء الرجال لشخص ستالين موضع شك . فهم قادة « حرسه الخاص». ولم يخطر ببال احد ، وهو يشاهدهم يسيرون وراء ستالين ، ان ثمة خلافاً بينهم. اما ستالين ، فقد راقب الخلاف بهدوء ، فليس فيه ما يدعو الى القلق . واستنجد المتخاصمون بحكمته ،منتظرين قراره المبرم.فاذا به يدعم هذه الفئة تارة وتلك طوراً .وراح يتأرجح ، طوال عام ١٩٣٤ ، ما بين القمع المنظم والمبادرات الليبرالية . اصدر ، في الربيع ، قراراً يشتمل على عفو جزئي عن المتمردين من الكولاك . لكنه ، في حزيران من العام نفسه ، استصدر مرسوماً يعلن فيه المسئولية الجماعية لكل عائلة يرتكب احد افرادها خيانة ما ضد الدولة . بمقتضى هذا المرسوم ، يتعرض لعقوبة صارمة كل من لا يشي بالمعارضين من اقاربه . إلا ان ستالين ، بعد شهر فقط من ذلك ، الغى الـ G.P U. ، واستبدلها بمفوضية الشئون الداخلية . وحدّ من صلاحيات الشرطة السرية . ثم عين اندري فيشينسكي – وهو محام منشفي سابق – مدعياً عاماً يتمتع بصلاحية مراقبة نشاطات الشرطة السرية ومنع ما يتعارض منها مع القانون . وسُمِح لقادة المعارضة بالقاء الخطابات العامة والكتابة في الصحف ، شرط ان لا ينتقدوا الحكام . اذاك ، ارتفعت الآمال بان يتخذ الحكم المزيد من الاجراءات الليبرالية . وطُرح امام المكتب السياسي مشروع للاصلاح الدستوري ، ودعي قادة المعارضة الرئيسيون الى الاشتراك في وضع مسودات الدستور الجديد .

إلا ان هذا الاتجاه شبه الليبرالي لم يلبث ان انتهى عندما اقدم المدعو نيكولاييف – وهو معارض شيوعي شاب – على اغتيال سيرجي كيروف في لينِنغراد في الاول من

كانون الاول ، ١٩٣٤ . اسرع ستالين الى لينينغراد ، وتولى استجواب الارهابي طوال ساعات . فتبين له ان المجرم ينتمي الى مجموعة صغيرة من الشباب الشيوعيين المستائين من جو القمع المسيطر على البلد والمنجذبين الى افكار الارهاب الثوري ؛ وان مثل هذه الافكار واسعة الانتشار بين الشباب ؛ وان نيكولاييف ورفاقه يعتبرون انفسهم من اتباع زينوفييف بالرغم من انهم لا يرتبطون به بصلات مباشرة أو غير مباشرة. ولعله اكتشف كذلك ان تسامح كيروف هو الذي مكن الارهابيين من ان يتسللوا الى مكتبه في مؤسسة سمولني، ذلك ان كيروف كان يعترض على ان تتولى الشرطة السرية اقامة حراسة مشددة عليه . ومهما يكن من امر ، فان شرطة لينينغراد السرية كانت على علم بمحاولة الاغتيال ، ولم تحرك ساكناً لمنعها . فاستخلص ستالين من كل ذلك ضرورة وضع حد للتنازلات شبه الليبرالية التي كان قد شرع بها . وتبين له ان انتصاره على المعارضة بعيد كل البعد عن ان يكون كاملاً . فالواقع انه دفع بالتذمر من سطح الحياة السياسية الى اعماقها . فصمم على ان يضرب بعمق وبقسوة اكبر .

من الآن فصاعداً ، تسلك الاحداث طريقاً شديد الشبه بالطريق الذي سلكته العهود الاستبدادية الروسية السابقة . في الاجيال التي توالت في ظل الحكم القيصري ، كان كل جيل تقريباً يشهد نزاعاً ضامراً بين العسكريين وبين اشباه الليبراليين في حاشية القيصر . يقابله ، على صعيد المعارضة ، شقاق بين « الآباء » المعتدلين و « الابناء » المتطرفين . ولم يكن النظام القيصري ، حتى في فترات تسامحه النسبي ، من الانفتاح بحيث يرضي المعارضة ، بل كان فيه من التسامح ما يمكن الثوريين من ضربه . وكان «الآباء» المعتدلون يحاولون عبثاً اقناع الشباب الالتزام بالصبر ريثما يمنح القياصرة تنازلات جديدة اخرى . وكل محاولة ثورية ضد الحكم الاستبدادي تؤدي الى النتائج ذاتها : هزيمة اشباه الليبراليين في اوساط الفئات الحاكمة، وبروز العسكريين الى المقدمة . ولم يكن العسكريون يكتفون بقمع الثوريين ، بل يعتبرون المعارضين المعتدلين مسئولين عن اعمال الشباب المتطرف . فيعترض الليبراليون على ذلك ، ويحمّلون الحكم الاستبدادي ، الذي حال دون قيام معارضة علنية وشرعية ، المسئولية المعنوية عن « التجاوزات » التي ارتكبها الشباب . وهكذا ، تميّز عهد الكسندر الاول بالاصلاحات شبه الليبرالية . وكانت انتفاضة « كانون الاول » عام ١٨٢٥ مقدمة لقيام عهد نقولا الاول ، القيصر الحديدي ، قيصر الشرطة والعسكريين . ولما اغتال المتآمرون الثوريون القيصر الكسندر الثاني ، شبه

الليبرالي ، جاء خليفته ، الكسندر الثالث ، فقمعهم بقسوة . أما سياسة القيصر الاخير ، فتأرجحت بين النزعتين . على ان عهد ستالين أبرز هذه السمات التقليدية للنزاع السياسي في روسيا بحدة اكبر ، نظراً للاضطرابات السائدة في مجتمع ما بعد الثورة ، غير المستقر بعد.

أُعدم نيكولاييف ورفاقه . حوكموا سراً ، وحرموا من حقي الدفاع والاستئناف بمقتضى مرسوم استصدر خصيصاً للمناسبة . لم يكن ستالين ليسمح لهم بان يستغلوا قاعة المحكمة كمنبر يعرضون عليه اراءهم ، ويكيلون التهم للحكام . إلا انه لم يقف عند هذا الحد . اتهم زينوفييف وكامينيف بمسئولية اغتيال كيروف — شأنه في ذلك شأن العسكريين في السابق عندما كانوا يعاقبون « الآباء » الليبراليين على الجرائم التي يرتكبها « الابناء » المتطرفون . وجرت محاكمتهما سراً هي ايضاً . فانكرا وجود اية علاقة بينهما وبين المجرم . وأدانا الجريمة ، مع اعترافهما بانه من الجائز ان يكون الارهابيون الشباب قد استلهموا نقدهما السابق لستالين ؛ على انهما ادعيا ان ستالين هو الذي دفع بمناضلِ الكومسومول الى مثل هذه الاعمال اليائسة ، لتحريمه النقد العلني . صدر الحكم على زينوفييف بالسجن مدة عشر سنوات ، وعلى كامينيف مدة خمس فقط . لكن ستالين لم يكن يرغب إطلاقاً ان يرمي بهذين البلشفيَين القديمَين في السجن ، الامر الذي يجعل منهما شهيدين ، ويدعم مطالبتهما بالحكم . كان يهدف الى انتزاع اعتراف بالذنب منهما ، فيحطمان بذلك ، بايديهما ، هالة الشهادة من حولهما .

فعقب ذلك عملية فظة من المساومة حول صيغة الاعتراف بالذنب ، جرت بين مكاتب ستالين في الكرملين وبين زنزانة الرجلين في سجن لوبيانكا. وافق ستالين على ان يبرىء ساحة السجينين علناً من تهمة الارتباط بالمجرم ، لكنه طلب منهما في المقابل الاعتراف بانهما سعيا لاعادة الرأسمالية . وهذا ما رفضه السجينان. ثم راح يستغل نقطة من اعترافهما تقول ان الارهابيين قد استلهموا دعاية المعارضة القديمة ، حتى وافق زينوفييف اخيراً على الاعتراف علناً بما طُلب منه . ولسنا نعلم إذا تم ذلك باقتناع منه أو اضطر اليه اضطراراً تحت التهديد . فأعلن : « ان النشاط السابق للمعارضة السابقة لا يمكنه إلا ان يؤدي ، بحكم الظروف الموضوعية ، الى إثارة دناءة هؤلاء المجرمين » ، أي قتلة كيروف . الصدق هنا ممزوج بمحاولة تملص دبلوماسية . ان ادانة الاعمال الارهابية صادقة فعلاً ،

وقد تمكن ستالين من انتزاعها من زينوفييف لأن هذا الاخير يريد ، مخلصاً ، وضع حد للاتجاه نحو الاعمال الارهابية . إلا ان زينوفييف عني بالتشديد على انه لا يتحمل إلا مسئولية معنوية غير مباشرة – ان « الاعمال السابقة للمعارضة السابقة » ، حسب قوله ، هي التي قد تكون ألهمت الاتجاه نحو الاعمال الارهابية . وتتضمن صيغة الاعتراف ايضاً ادانة لستالين ، لأنها تقول ان الارهاب وليـد « ظروف موضوعية » ، أي وليد جو القمع السائد في البلد . لم يكن زينوفييف أو كامينيف ، في تلك الفترة ، على استعداد للتفوه بحرف اضافي واحد في مجال ادانة النفس ؛ فترك ستالين الامور عند هذا الحد . لكن الاستدراكات الخفية التي حشا زينوفييف « اعترافه » بها لم تكن لتعني شيئاً بالنسبة للجمهور ، الاعتراف نفسه هو المهم . وها أن قادة المعارضة قد قطعوا شوطاً جديداً في المنزلق الذي سوف يؤدي بهم الى محاكمات التصفية الكبرى .

لا شك ان اغتيال كيروف قد ارهب ستالين نفسه . ألم يكن المتآمرون قد دخلوا مكتبه الخاص ؟ فأجرى ، في ربيع ١٩٣٥ ، محاكمة سريـة لحوالي الاربعين من حرسه الخاص . فأعدم اثنان منهم . وصدرت بحق الآخرين احكام سجن مختلفة . ولم تأت صحيفة واحدة على ذكر هذه المحاكمة . وتلا ذلك حملة تفتيش واسعة النطـاق لكشف الارهابيين في كل فروع الحزب والكومسومول . أخذ ستالين يعمل على اساس المبدأ القائل انـه لا يكفي ان يضرب المرء خصومه الفعليين ، بل عليه كذلك ان يقتلع البيئة التي تحضنهم . فراح ينفس عن غضبه بالثأر من لينينغراد ، التي تحدت ارادته طوال السنوات العشر الاخيرة . عيَّن اندري جدانوف خلفاً لكيروف في حاكمية المدينة . وجدانوف شاب موهوب حازم ، تولى تطهير الكومسومول من « المنحرفين » ، وبرز من خـلال هجماته المتعجرفة ضد تومسكي في الخلاف داخل النقابات . فكان بوسع ستالين الاعتماد عليه لاقتلاع بؤر « الخيانة » في لينينغراد . في ربيع عام ١٩٣٥ ، أُبعِـد عشرات الالوف من المشبوهين من البلاشفة ومناضلي الكومسومول مع عائلاتهم من لينينغراد الى سيبيريا . وكانت جموع « قتـلة كيروف » – وهو الاسم الذي اطلق على هؤلاء المبعدين – تمـلأ السجون ومعسكرات الاعتقال في المدن الاخرى .

طرأ تغيير جذري على طريقة معاملة السجناء السياسيين . حتى ذلك الحين ، لم تـكن هـذه الطريقة تختلف كثيراً عن الطريقة المتبعـة أيام القياصرة . فالسجناء السياسيون

يتمتعون ببعض الامتيازات كالتثقيف الذاتي وحتى حق القيام بالدعاية السياسية . وكانت مذكرات المعارضة وبياناتها ومنشوراتها الدورية تنتقل بشيء من الحرية بين السجون ، وتهرّب الى الخارج احياناً . لكن ستالين،بوصفه سجيناً سابقاً ، يعلم ان السجون وأمكنة النفي هي « جامعات » لتخريج الثوريين . وبما ان الاحداث الاخيرة قد علمته عدم المجازفة ، قرر قمع النقاش والنشاط السياسيّين في السجون وأمكنة النفي ببطش ما بعده بطش . وفرض على رجال المعارضة ، عن طريق الحرمان والاعمال الشاقة ، حياة بائسة شبيهة بحياة البهائم ، بحيث تعذر عليهم ممارسة عمليات التفكير وصياغة الافكار العادية.

بينما ستالين يخيّب ، باعماله هذه ، آمال دعاة الاصلاح الليبرالي ، ظل يدعي انه راغب في ارضائهم . فقدم للشعب وجبات هي خليط من الارهاب والوهم . انه يعمل بحذاقة بالغة ، فلو انه لم يقدم لهم غير الارهاب لكان من المحتمل ان يدفعهم يأسهم العظيم الى الثورة عليه ، ولن تردعهم عن ذلك شرطته السرية مهما تعاظم بطشها . إلا انالاوهام التي يغذي بها الشعب لم تكن لتحمي حكومة مثل حكومة ستالين لو لم يكن الارهاب درعها . بعد شهرين من اغتيال كيروف ، في السادس من شباط ١٩٣٥ ، قرر المؤتمر السابع للسوفييت ان ثمة حاجة لوضع دستور جديد للبلاد ، وانتخب لجنة تتولى ذلك . وضمت اللجنة ، التي يرأسها ستالين ، اناساً مثل بوخارين وراديك وسوكولنيكوف فضلاً عن فيشينسكي ، الرجل الذي سيتولى فيما بعد الادعاء العام عليهم خلال محاكات التصفية الكبرى . طوال عام ونصف ، عقدت اللجنة اجتماعات عديدة بحضور ستالين. المساهمان الرئيسيان في وضع الدستور الجديد هما راديك وبوخارين ، وغالباً ما كانا يناقشان محتوياته على صفحات البرافدا والإزفستيا. وكان المفروض ان يتولى المؤتمر القادمللسوفييت إقرار الدستور الجديد في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٣٦ ، أي بعد عدة اشهر من إعدام زينوفييف وكامينيف . وتقرر تسميته « دستور ستالين » ، « الدستور الاكثر ديمقراطية في العالم » .

* * *

كان ستالين يعلم جيداً ان الجيل القديم من الثوريين ، رغم الانهاك والاهانات التي يتعرض لها ، لم يأخذ معجزته وسره وسلطانه على محمل الجد، باستثناء بعض الشواذات ؛

وانه سيظل ينظر اليه على انه غاصب ومزوّر للمبادىء الاساسية . فما كان منه إلا ان حل « جمعية البلاشفة القدامى » و « عصبة السجناء السياسيين السابقين » و « الاكاديمية الشيوعية » ، وهي آخر المعاقل التي تعتصم فيها الروح البلشفية القديمة . ان هذه الاجراءات ، إذا كانت تشير الى شيء ، فالى الشوط الطويل الذي قطعه ستالين منذ ان بدأ صراعه ضد « المنشقي السابق » تروتسكي ، باسم البلاشفة القدامى . وها هو الآن يتوجه الى الجيل الجديد . طبعاً ، ليس لعناصره العاصية القلقة ، ولكن لغالبيته المترددة التي ، رغم شغفها بان تتعلم وان تتقدم اجتماعياً ، لم تكن تعرف إلا القليل عن الافكار البلشفية الاصلية ، ولا كانت آبهة بها . ان هذا الجيل الجديد يتذكر ، قدر ما يتذكر ، قادة مختلف اجنحة المعارضة في ادوار الجلادين أو الضحايا . وهو قد اعتاد ، منذ نعومة أظافره ، على ان يتطلع الى ستالين وهو يرفل **بالسر والسلطان** . لم يعد ستالين كما كان ايام العشرينات ، جلوداً ، ودوداً ، خدوماً في علاقاته مع امناء سر فروع الحزب . لم تعد تراه ينصت بصبر الى شكاواهم على عتبات مكاتب الحزب . انه لا يظهر علناً إلا في المناسبات النادرة ، تحف به حاشية ضخمة ، يلحق به اعضاؤها حسب ترتيب أهميتهم في مناصب الحكم . وهو لا يتحدث الى الشعب إلا نادراً ، وتجهد الدعاية الرسمية لاظهار كل بيان يصدر عنه على انه منعطف تاريخي حاسم . في العادة ، كانت هذه البيانات ، الشبيهة بأوامر يصدرها حاكم مطلق الصلاحيات ، تمس الشعب عملياً في شتى مناحي حياته . وهكذا ، فالتناقض بين صعوبة الوصول اليه من جهة وبين نفوذه المباشر الموجود في كل مكان ، ما لبث ان اضفى على شخصه ، خاصة في نظر الجيل الجديد ، بعضاً من تلك الرهبة التي كان يستخدمها الحكام الشرقيون للتأثير على اتباعهم .

* * *

الحاشية التي تحف به هي طبعاً مكتبه السياسي . والمكتب السياسي هو مكتبه بكل ما للكلمة من معنى ، لأن الرجال الذين اختارهم اعضاءً فيه يطابقون فكرته عما يجب ان يكونه القائد . وكان ، منذ عام ١٩٢٥ ، قد صاغ هذه الفكرة على النحو التالي : ان « الطراز الجديد » من القادة لا يجوز أن يكون اديباً أو رجلاً يرزح تحت ثقل التقاليد الاشتراكية الديمقراطية ، بل يجب ان يوحي بالرهبة وبالاحترام في آن معاً . والواقع ان مولوتوف ، كاغانوفيتش ، فوروشيلوف ، كيوبيشيف ، كوسيور ، رودزياك ، ميكويان ،

واندراييف كانوا جميعاً يلبّون المواصفات المطلوبة . فكلهم تقريباً موظفون اداريون ، مخلصون لوظائفهم . وهم بلاشفة محليون ، لا يعرف أي منهم أي بلد اجنبي ، شأنهم في ذلك شأن ستالين نفسه . ومعظمهم في الاصل حزبيون صغار تولى ستالين ترفيعهم . ولكن ، مع الوقت ، ما لبثت معارفهم وتجاربهم ان تزايدت مع تزايد مسئولياتهم . فالمكتب السياسي ، بمعنى ما ، مدرسة في الحكم فريدة من نوعها . فهذه الهيئة ، التي هي في حالة انعقاد شبه دائم ، تناقش جميع شؤون البلد من اخطر القرارات الدبلوماسية والسياسية الاساسية الى اصغر المصاعب التي تعترض عمل السلطات الريفية . والمكتب السياسي هو المرجع الاخير للبت في الخلافات التي لا تنتهي بين الادارات ؛ ولستالين الكلمة الاخيرة فيه . على انه لم يكن يترأس جلساته . وهو ، في معظم الاحيان ، ينصت بصمت الى الحجج المتداولة ، ويحسم الموضوع بنكتة سوقية ، أو بتهديد مبطّن بالمزاح ، أو بحركة نفاذ صبر مفاجئة . وهكذا ، فهذه القلة من الرجال التي أُنيط بها طوال سنوات عديدة مسئولية اتخاذ قرارات شخصية حول الاجراءات الواجب اتخاذها في هذه الصناعة أو تلك ، أو في هذا الفرع من الزراعة أو ذاك ، أو في شؤون التعليم ، أو حول نوع الاسلحة الواجب اعتمادها في الجيش ... ما لبثت ان راكمت معرفة تفصيلية فنية حول عدد متنوع جداً من الوظائف ، يعجز عن مراكمتها اداريون يعملون في نظام اقل تمركزاً من النظام السوفييتي . فلا عجب إذا ذهل السياسيون والعسكريون الاجانب ، خلال الحرب العالمية الثانية ، من معرفة ستالين العجيبة بأدق الحيثيات التقنية المتعلقة بآلته الحربية الضخمة . على ان طريقة الحكم هذه الشديدة المركزية حملت العناصر السلبية القاتلة ايضاً . نشرت خوفاً شديداً من المبادرة والمسئولية في كل مستويات الادارة ؛ فحولت الموظف الى مجرد برغي في آلتها ، وغالباً ما سببت توقف هذه الآلة ، أو ، ما هو اسوأ من ذلك ، الى ان تتحرك بفعل قوة الاستمرار وحدها في اتجاه خاطىء عندما ينسى الرجل المتحكم بها ان يضغط على الزر في الوقت المناسب . هكذا تعرقلت الآلة الادارية كلها نتيجة تعقيد المعاملات والخبث البيروقراطي . بحيث وفرت للادب الساخر مادة غنية يعبّ منها ، لكن الخوف من المسئولية تملك حتى الكتاب الساخرين انفسهم ، فشلّهم .

لم يكتف ستالين بفرض ارادته على كل جانب من جوانب الحياة السياسية . فقد طمح بأن يكون الزعيم الروحي الاوحد لجيله . ولهذا الطموح سببان عنده : اولهما ان نخبة

روسيا المثقفة لم تشعر بوجوده الا عندما نصب نفسه وصياً عليها ، وهي قد عالجت بياناته الاولى حول العلوم والفن بشيء من الاستهزاء ، الامر الذي مس كرامته . وثانيهما انه لاحظ ، بعد قضائه على الهرطقة في المجالين الاقتصادي والسياسي ، ان الصحافة الفلسفية لا تزال مرتعاً للهراطقة . فغدا خوض غمار مثل هذا الميدان ضرورة سياسية بالنسبة اليه . والواقع أن الماركسية اختصرت المسافات بين السياسة والفلسفة والادب . وهاهو ستالين يبسط النظرة الماركسية حول ترابط هذه الميادين الى حد الفظاظة ، بحيث اضحت مجرد ملحقات لسياسته . فكان على المؤرخين والفلاسفة ، بعد كل سلسلة من التعليمات يصدرها بشأن السياسة والاقتصاد ، ان يراجعوا كتاباتهم الاخيرة ليتأكدوا من انها لا تتعارض مع آخر رأي تفتق عن القائد الملهم .

وكان وضع المؤرخين من اسوأ الاوضاع . فمنذ عام ١٩٣١ ، انتبهم ستالين بحدة في رسالته الشهيرة الى رئيس تحرير « بروتارسكايا ريفولوتسيا » ، متهماً الصحيفة المتخصصة بتاريخ الثورة ، بانها سمحت للتروتسكيين بالتسلل اليها . فاضحى لزاماً ان تعاد كتابة التاريخ الحديث بحيث يبرز خصوم ستالين على النحو الذي يريده لهم . وهكذا كان . ولكن تبين ، مع احتدام النزاع ، ان الروايات التاريخية التي كانت الامانة العامة قد املتها على الصحيفة المذكورة ليست مسيئة بما فيه الكفاية لخصوم ستالين . فاقتضى ذلك تعديل هذه الروايات مرة بعد الاخرى . وبما ان تغيرات طرأت على الموقف الرسمي من الماضي البعيد ، لاسباب محض عملية ، فقد تطلب ذلك اعادة صياغة احداثه . ولما كان تروتسكي يتمتع بنفوذ قوي في النقد الادبي – ليس بحكم سلطاته الرسمية وانما بصفته ناقداً ادبياً بارزاً – فصار لزاماً ان تقتلع كل مدرسة النقد الادبي التروتسكية من جذورها. وكان الفلاسفة يدرسون الديالكتيك الماركسي على اساس كتابات بليخانوف التي حظيت من لينين بتقدير عظيم ، بالرغم من خلافاته السياسية مع زعيم المناشفة . فجمع ستالين اساتذة ومحاضري الفلسفة في مكتبه وادان « ليبراليتهم الخرقاء » . حرم البروفسور ديبورين ، عميد الفلاسفة ، والعديد من تلامذته ، من فرصة التعليم في الجامعات او الكتابة في الصحف والمجلات . وبالمستطاع ان نسوق الامثلة العديدة التي تبين تسلط السيف على القلم ، الا اننا نكتفي بهذا القدر . وفي النهاية ، لم يبق للنقاد الادبيين والمؤرخين والفلاسفة الا ان يمتدحوا « الزعيم المحبوب » على انه اعظم ناقد ادبي ومؤرخ وعالم في عصره وفي كل العصور ... الآن ، وقد بويع الامين العام برئاسة المهنة الادبية ،

صار لزاماً على الكتاب السوفييت ان « يكتبوا مثل ستالين » .

وكانت الفترة التي تلت ذلك صفحة قاتمة في تاريخ الادب الروسي : صار اسلوب ستالين الشخصي اسلوب عموم روسيا . والداعية او الكاتب الذي يكتب مقطعاً او مقطعين من نص ما دون الاستشهاد بستالين انما يقوم بمجازفة ما بعدها مجازفة . اكثر من ذلك ، راح الكتاب يولون عناية فائقة لان تكون عباراتهم نفسها ، من حيث الاسلوب والمفردات ، شبيهة قدر المستطاع بالنص الذي يستشهدون به . فساد الصحافة الروسية إستواء ممل يفوق حد الوصف . حتى اللغة المحكية غدت « ستالينية » الى درجة مذهلة ، على الاقل عندما كان الناس يتحدثون بالامور العقائدية والسياسية . فكأن امة باكملها راحت تردد كالببغاء ما يقوله حاكمها .

ان هذه الظاهرة الهجينة ، التي صار بمقتضاها اسلوب الحاكم هو الاسلوب السائد في الامة ، كان بوسعها ان تكون ارحم لو ان الحاكم يتمتع بموهبة ادبية ما . لكن الاسلوب العام ، والحالة هذه ، ما لبث ان تقهقر الى عامية هجينة تتميز بالتكرار الجامد الباعث على الضجر ، وبالفظاظة السوقية الممزوجة بادعاءات شبه علمية ، وبالإعجام النحوي والمنطقي . فالواقع ان اسلوب ستالين ازداد خشونة بعد ارتقائه سلم السلطة . والتباين بين الدور المأسوي الرهيب الذي يلعبه الرجل وبين اسلوب حديثه وكتابته الممل الاخرق، الذي ينقّطه بين الفينة والاخرى باستشهاد من السخرية الشعبية الروسية او او بنكتة فظة ، ان هذا التباين لهو باعث على الدهشة فعلاً . هاكم نموذج عن اسلوبه ، اخترناه عفواً ، وهو المقاطع الختامية من خطابه امام المؤتمر السابع عشر للحزب :

« ان حزبنا هو وحده الذي يعرف كيف يقود القضية ، وهو يقودها الى امام بنجاح . ما هو سر تفوق حزبنا ؟ ان سر تفوق حزبنا هو انه حزب ماركسي ، حزب لينيني . ولأنه يهتدي في نضاله بمبادىء ماركس ، انغلز ولينين . وما من شك في اننا ما دمنا مخلصين لهذه المبادىء ، وما دمنا نهتدي بهذه البوصلة ، فالنجاح حليفنا .

« يقال انه قد قضي على الماركسية في بعض بلدان الغرب . ويقال ان التيار البرجوازي القومي المعروف بالفاشستية هو الذي قضى عليها . هذا هراء طبعاً . فقط الذين يجهلون التاريخ يسمحون لانفسهم بالتفوه بمثل هذه الاقوال . ان

الماركسية هي التعبير العلمي عن مصالح الطبقة العاملة . وللقضاء على الماركسية، ينبغي القضاء على الطبقة العاملة اولاً . ولكن القضاء على الطبقة العاملة امر مستحيل. لقد مضى ما يزيد عن ثمانين عاماً منذ نزلت الماركسية الى المعترك . وقد حاولت عشرات الحكومات البرجوازية القضاء على الماركسية ، خلال هذه الفترة . فماذا كانت النتيجة ؟ صعدت حكومات برجوازية ، وسقطت حكومات برجوازية ، والماركسية باقية . (تصفيق عاصف) وبالاضافة الى ذلك ، فقد انتصرت الماركسية على سدس الكرة الارضية ، انتصرت في البلد عينه الذي قيل ان الماركسية قد قضي عليها فيه . (تصفيق عاصف) ليس صدفة ان البلد الوحيد في العالم الذي انتصرت فيه الماركسية هو حالياً البلد الوحيد في العالم الذي لم يعرف الازمات ولا البطالة ، في حين نجد الازمات والبطالة سائدة ، منذ نيف واربع سنوات ، في كل البلدان الاخرى . لا ، ايها الرفاق ، ليس هذا بالصدفة . (تصفيق طويل) .

« نعم ، ايها الرفاق ، إن سر نجاحاتنا تكمن في اننا ناضلنا وحاربنا في ظل راية ماركس ، انغلز ولينين . من هنا الخلاصة الثانية : ينبغي ان نظل مخلصين الى الابد لراية ماركس ، انغلز ولينين العظيمة . (تصفيق) » .

ان المؤرخ ليعجب حقاً كيف ان الامة التي انجبت تولستوي ، ودوستويفسكي ، وتشيخوف ، وبليخانوف ، ولينين وتروتسكي كقادة فكريين لها ، تسمح لاعلام لغتها وادبها بأن تطفأ على هذا النحو . ولعله يعمد الى المقارنة بين هذه الظاهرة وبين التقهقر الرهيب الذي عانى منه ادب آخر اعطى العالم اناساً من طراز روسو ، وفولتير ، والموسوعيين ، خلال سني الثورة والامبراطورية والردة . في فرنسا ، كما في روسيا ، سادت حالة من الفتور والاستنقاع بعد فوران مذهل من النشاط الفكري والالمعية الادبية . ولكن لا يجوز ان نحكم على الحصيلة الثقافية للستالينية من زاوية اكتساحها للآداب والفنون فقط . يجدر ألا يغيب عن بالنا التناقض الكامن بين تأثيرات ستالين البناءة وبين تأثيراته المخربة . فهو وإن افقر حياة الانتلجنسيا الفكرية ، على انه ، في المقابل ، حمل المقومات الاساسية للحضارة الى جموع واسعة من السكان المتخلفين عن ركبها . وإذا كانت الثقافة في عهده قد خسرت من حيث العمق ، فما من شك في انها ربحت من حيث الاتساع . ولعله يجوز لنا ان نتنبأ بأن هذا الاتساع الكبير للدائرة

الثقافية في روسيا لا يلبث ان تليه حقبة جديدة من التطور المكثف ، حقبة يلتفت الجيل الجديد فيها الى المخلفات البربرية للعهد الستاليني ويتنهد تنهيدة الفرج . ولربما يقال اذاك ان الاسلوب الستاليني كان متكيفاً ، بشكل خاص ، مع مهمات حاكم ليس هو نفسه عمق الثقافة ، اضطر الى ان ينتزع الفلاحين ، ومعهم البيروقراطية الخارجة من صفوفهم ، من فوضى الفقر والظلام .

اذا نظرنا الى المسألة نفسها من زاوية اخرى ، امكننا القول ان معنى ذلك كله ، ثقافياً ، هو خوف نسبي عانت منه روسيا الاوروبية لكي تبرز ، على حسابها ، الاطراف الآسيوية او شبه الآسيوية المتخلفة . فانخفض مستوى روسيا الاوروبية ، ليرتفع مستوى الاطراف الآسيوية . الانتلجنسيا في لينينغراد وموسكو – وقدعرفت باستقلالها الفكري وغالباً ما فاقت مثيلتها الاوروبية من حيث امانة وحيوية مساعيها الفكرية – تضطر الآن الى التخلي عن العديد من مشاريعها المتحذلقة ، الى المساومة مع اخوة لها ، اصغر عمراً واكثر فظاظة ، يتوافدون الى الجامعات من الهضبات الكيزغيزية والبشكيرية . في ظل حاكم ينتمي الى الحد الفاصل بين اوروبا وآسيا ، ها ان روسيا الاوروبية قد غدت شبه مندمجة بآسيا . في حين تكتسب روسيا الآسيوية قدراً لا بأس به من سمات الحضارة الاوروبية . ان هذا التفاعل كان محتوماً ومثمراً جزئياً . لكنه غالباً ما تم بطريقة افقرت الامة فكرياً . ومن مفارقات الامور ان ستالين ، الذي غذى التمايز الاجتماعي ضمن اقتصاد مجمع ، كان يدعو الى المساواة المطلقة بطغيان وفظاظة في امور الروح والفن . ولم يفعل ذلك قصداً – فقد عمل على حضن العلوم والفنون على طريقته الخاصة – ولكن بسبب تخوفه من الابتكار الفكري والفني ، إذ كان يشتم منه دائماً رائحة الانحراف عن الطريق القويم .

وهكذا ، فسرعان ما خسر الشعر والرواية القهما القديم . « نريد تولستوي سوفييتياً » ، هكذا يتضرع النقاد الادبيون الرسميون طوال سنين . لكن تولستوي السوفييتي لم يظهر . ربما لأن تقلبات تلك الفترة لم تكن تلائم فنه الملحمي ، او ربما لأن امثال تولستوي لا ينشأون في جو يمنع عليهم ان يعلنوا : « لن اظل صامتاً ! » . ياسينين ومایاكوفسكي ، اشهر شاعرين في روسيا المعاصرة ، ماتا انتحاراً . اختار بعض من افضل الكتاب الاعتصام بالصمت ، بينما اجبر البعض الآخر عليه . اما مكسيم غوركي ، اقرب المقربين لستالين وبطريرك الثقافة البروليتارية المعلن ، فقد عايش

النصف الاول من الثلاثينات كأثر يذكـّر بالامجاد القديمة . الا ان صداقة ستالين وغوركي لم تكن حصيلة تقارب حقيقي في الآراء . فالواقع ان ستالين لجأ الى سلطة معترف بها ليدعم سلطته المعنوية والفكرية . وبما ان غوركي كان صديقاً حميماً للينين منذايام النضال السري ، فقد رأى ستالين انه من الحكمة ان يرث هذه الصداقة الى جانب الالقــاب والامتيازات الاخرى التي ورثها . من جهته ، كان غوركي قد اختلف غير مرة مع لينين الذي كان يتحمل منه اكثر مما يتحمله من اي من السياسيين . فقر الـكاتب العجوز ، المتعلق عاطفياً بالبلشفية والنادم بعض الشي على خلافاته القديمة مع لينين ، على تجنب الخلاف مع خليفة لينين الذي لا يطيق اي خلاف على كل حال. بين الحين والآخر كان غوركي يسعى للتخفيف من حدة طبع ستالين ، وان يحمي بلشفياً قديماً او اديباً شاذاً . وقد ذهب الى حد محاولة مصالحة ستالين وكامينيف . لكنه اضطر الى التخلي عن مشروعه اخيراً . وتوفي عــام ١٩٣٦ . وانقرضت بوفاته سلالة كتاب عهد ما قبل الثورة .

بعد وفاة غوركي ، في اوج التصفيات ، اشتهر في موسكو شاعران لبعض من الوقت وهما : وجمبول دجابابيف (من كازاخ) ولزغين سليمان ستالسكي (من القفقاس) كلاهمـا شاعر قبلي ، امي ، بلغ العقد العاشر من عمره ، ملتح ، طريف المنظر ، يؤلف الازجال ، باختصار : هوميروس محلي جاوز زمانه . وكانا ينزلان الى موسكو ، من الجبال والسهول ، لينشدا عند ضريح لينين ، وعلى انغام القيثارة ، اناشيد المديح لستالين .

ان اندماج روسيا الاوروبية بروسيا الآسيوية مـــا لبث ان ادى الى انعزال روسيا باسرها فكرياً ، والى انقطاعها عن اوروبا . وهــذا لا يعـود إلا جزئياً الى التناقض بين الشيوعية والرأسمالية . فالواقع انه في العشرينات ، حيث لم يكن هذا التناقض اقل حدة مما هو عليه في الثلاثينات ، كان عقل روسيا منفتحاً على التأثيرات التقدمية للفكر والفن الاوروبيين . لقد تحددت هذه العزلة حسب جو الثلاثينات الخاص ؛ وغدت تامة خلال التصفيات الكبرى .

* * *

بعد المحاكمات وحملات النفي التي عقبت اغتيال كيروف ، بدا وكأن العهد الستاليني

قد انفرج مرة أخرى . حظيت النجاحات التي احرزتها الخطة الخمسية ومشروع الاصلاح الدستوري بالقسط الاوفر من اهتمام الرأي العام بين النصف الاخير من عام ١٩٣٥ والنصف الاول من عام ١٩٣٦ . وأعيد تسليط الاضواء على ستالين ، فظهر في مناسبات عديدة ، تعـلو الابتسامة وجهه ، ويحيط به العمال الستاخانوفيون والمزارعون الكولخوزيون المتفوقون مع نسائهم ، يشكرونه على نعمة « الحياة المرحة الجديدة » التي أغدقها عليهم . حضر الاحتفالات الشعبية ، ووزع الجوائـز على الفائزين في المباريات الرياضية ، وتسلم باقات الزهر من الاطفال بينما يلتقط له المصورون عدداً لامتناهياً من الصور المرحة . فبدا وكأن كل شيء يبشر بفترة مديدة من الانفراج السياسي . من بين قادة المعارضة ، كان زينوفييف وكامينيف وسميرنوف لا يزالون رهن الاعتقال في سجن فيرخني — اورالسك ، لـكنهم يأملون باطلاق سراحهم قريباً . بوخارين يرأس تحرير الازفستيا . وراديك هو الناطق الصحفي الرسمي باسم الكرملين في شؤون السياسة الخارجية . بياتاكوف يشغل منصب مفوض الصناعة الثقيلة ، وهو منظمها الفعلي . ريكوف ، رئيس الوزراء السابق ، يشغل منصب مفوض البرق والبريد . أما راكوفسكي ، يورينييف ، بوغومولوف وغيرهم ممن عقد الصلح مـع ستالين ، فكانوا في الخارج كسفراء أو مبعوثين خاصين أو رؤساء بعثات تجارية . حتى في جيورجيا ، بدا وكأن ستالين قد صفح عن خصومه السابقين الذين عارضوه على ايام لينين . فعاد رئيسهم بودو مديفاني الى منصبه كنائب لرئيس حـكومة جيورجيا . الهدوء يخيم على علاقات ستالين بقادة الجيش . وفي عام ١٩٣٦ ، اعيد تنظيم الجيش بتحويله من جيش حدود الى جيش ثكنات ، وفُرِض عليه النظام الذي كان سارياً قبل الثورة ، بمـا في ذلك الرتب العسكرية . وجرى ترفيـع خمسة من القادة العسكريين الى رتبـة مشير ، وهم توخاتشيفسكي ، ييغوروف ، بلوخر ، فوروشيلوف وبوديني .

إلا ان عمليات التصفية لم تتوقف في قواعد الحزب . ففي أواخر عام ١٩٣٥ ، كانت البرافدا والازفستيا لا تزالان تنشران القصص عن اكتشاف خلايا سرية للمعارضة في كل مدن روسيا واوكرانيا تقريبـاً . وتحدثت الصحف كذلك عن بروز معارضة بين العمال ضد اساليب العمل الستاخانوفية ، أي زيادة وتيرة العمل في المصانع ودفع الاجور حسب مردود العمل . هنا وهناك ، راح العمال يهاجمون الستاخانوفيين ويذهبون الى حد اغتيالهم ، ويحطمون الآلات . الفلاحون الفقراء المنخرطون حديثاً في الصناعة ، غالبـاً ما يعطبون

ادواتهم أو يخربونها من جراء استعمالهم لها بطريقة خرقاء وصبيانية . وأحياناً ، عندما ينفذ صبر الفلاح من عطل طرأ على آلته ، يلجأ الى ضربها بالمطرقة أو الفأس على أمل اعادة تشغيلها . ذلك هو « التخريب » الذي يعمل بواسطته تخلفُ روسيا وجهلها ويأسها على عرقلة مسيرة الثورة الصناعية القسرية . ولكن لم يخطر ببال احد آنذاك ان يتهم بياتاكوف ، المنظم الرئيسي للصناعة منذ عدة سنوات ، بارتكاب اعمال التخريب ، كما لم يخطر بالبال اتهام غيره من قادة المعارضة السابقين .

كان تروتسكي مشغولاً بمحاولة تأسيس اممية رابعة تحل محل اممية ستالين الثالثة ، عندما نشرت البرافدا والازفستيا التقارير المستفيضة عن حملات التصفية اللامتناهية ضد التروتسكيين والزينوفييفيين . فعلق عليها في « نشرة المعارضة » بقوله : « **يمكن القول بثقة ان اكبر وأوسع وأقوى فرع للاممية الرابعة هو فرعها في الاتحاد السوفييتي ،** وذلك على الرغم من ثلاث عشرة سنة من اضطهاد وقمع لا مثيل لهما من حيث البطش والوحشية ، وعلى الرغم من الاستسلامات والتساقطات العديدة » . الواقع ان قولة تروتسكي هذه ليست ، جزئياً ، إلا ادعاءً فارغاً ، لأن سبع سنوات من المنفى افقدت تروتسكي كل صلة شخصية له بروسيا . غير ان التروتسكية ظلت ، في المقابل ، تياراً سياسياً يتمتع بامكانات ضخمة داخل روسيا . أما الاثر الوحيد الذي تركته تأكيدات تروتسكي المغالية فهو انها ضاعفت حذر ستالين المتيقظة أبداً . ولعله قال بينه وبين نفسه عند قرائها : سوف نرى ! ولم تكد ستة اشهر تمضي على ذلك ، حتى صُعقت روسيا ، والعالم الاجمع معها ، ببدء محاكمة زينوفييف وكامينيف .

ليس هنا مجال وصف سلسلة المحاكمات الطويلة . فالذي يهمنا هو دور ستالين فيها والدوافع التي حركته خلالها . لم يظهر ستالين في قاعة المحكمة قط . وهكذا ، فالرجل الذي اعتُبِر الضحية الرئيسية لهذه المؤامرات البشعة العديدة والواسعة النطاق ، لم يستدعَ مرةً واحدة للادلاء بشهادته امام المحكمة . إلا ان المرء كان يشعر ، طوال هذه المسرحية المأسوية ، بوجود ستالين في دور الملقن . بل اكثر من ذلك : فضلاً عن كونه الملقن ، كان ستالين المؤلف والمدير والمخرج المستتر ايضاً .

من بين سلسلة المحاكمات اللامتناهية ، العلنية منها والسرية ، تحظى اربعٌ منها بأهمية خاصة : « محاكمة الستة عشر » (زينوفييف ، كامينيف ، سميرنوف ، مراشكوفسكي

وغيرهم) في آب ١٩٣٦ ؛ «محاكمة السبعة عشر» (بياتاكوف ، راديك، سوكولنيكوف، مورالوف ، سيربرياكوف ، الـــخ) في كانون الثاني ١٩٣٧ ؛ محاكمة سريـــة للمشير توخاتشيفسكي ومجموعة من جنرالات الجيش الاحمر الكبار ، في حزيران ١٩٣٧؛و«محاكمة الواحد والعشرين » (ريكوف ، بوخارين ، كريتنسكي ، راكوفسكي ، ياغودا ،..) في آذار ١٩٣٨ . ومن بين المدعى عليهم في هـذه المحاكمات كل اعضاء المكتب السياسي ايام لينين ، باستثناء ستالين طبعاً ، وتروتسكي ، المتهم الرئيسي الذي حوكِم غيابيـاً . ومنهم ايضـــاً رئيس وزراء سابق ، وعدة نواب لرئيس الوزراء ، ورئيسان سابقان للاممية الشيوعية ، ورئيس اتحاد النقابات (تومسكي ، الذي انتحر قبل ان يحين موعد محاكمته)، ورئيس الاركان العامة للجيش ، والمفوض السياسي الاكبر في الجيش، وقادة جميع المناطق العسكرية الرئيسية ، وكل السفراء السوفييت في اوروبا وآسيا تقريباً ، وأخيراً ، ليس آخراً ، رئيسا الشرطـــة السرية : ياغودا الذي هيأ محاكمة زينوفييف وكامينيف ، وييجوف ، الذي هيأ المحاكمات الاخرى . وقد اتـهم هؤلاء جميعاً بمحاولة اغتيال ستالين وأعضاء المكتب السياسي الآخرين ، وبالعمل على اعـــادة الرأسمالية ، وعلى تخريب قوة البلد الاقتصادية والعسكرية ، والتآمر لتسميم وابادة جماهير العمال الروس باشكال مختلفة . كما اتهموا جميعـــاً بالعمل منذ اول ايام الثورة في خدمة دوائر الاستخبارات البريطانية والفرنسية واليابانية ، وبعقد اتفاقات سرية مع النازيين لتجزئة الاتحاد السوفييتي والتنازل عن مقاطعات منه لألمانيا واليابان . ولو كانت هـذه التهم ، التي تراكمت من محاكمة الى اخرى ، صحيحة فعلاً ، لكان من المستحيل تفسير وجود وبقاء الدولة السوفييتية طوال ذلك الوقت. غير ان المتهمين بالارهاب، بعد ان تسللوا الى كل مستويات الجهاز الاداري حتى قمة الهرم فيه، لم ينجحوا إلا في اغتيال رجل واحد من وجهاء العهد الستاليني : كيروف . خلال المحاكمات ، اضاف الادعاءُ ضحيتين اخريين للتآمر المزعوم همـــا كيوبيتشيف ، رئيس لجنـــة الدولة للتخطيط ، ومكسيم غوركي . إلا ان النتيجة الوحيدة لهذه الاتهامات هي انها ابرزت التناقض الفاضح بين شمول « المؤامرة » وبين هزال وتفـــاهة نتائجها .

ان تصرف المتهمين كالاشباح ، على الاقل من حوكم منهم علناً ، زاد في ابراز الطبيعة الخيالية لكل هذه الامور . حوكم عدة اشخاص بارزين سراً ، ويشمل هؤلاء جميـــع العسكريين والعديد من القادة المدنيين ؛ واعدم كثيرون بلا محاكمة لانه يستحيل اجبارهم

على الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها والتوبة عنها . لكن جميع الذين سلطت عليهم الاضواء، ندبوا وناحوا واعترفوا باخطائهم صراحة ، معتبرين انفسهم حلفاء الشيطان ، وممجدين من الاعماق الانسان المتفوق وهم ينسحقون تحت قدمه . هكذا فرض على امـــة مبهورة مذعورة ان تردد بصوت واحد : « اقتلوا الكلاب المسعورة ! » ، وهي العبارة التي كان يختتم بها المدعي العام فيشينسكي مطالعاته . اعترافات المتهمين هي الادلة الوحيـــدة التي ارتكزت اليها الاحكام الصادرة بحقهم . لم يقدم دليل واحـــد يمكن التحقق من صحته حسب طريقة التحري القانونية المألوفة . وفي الحالات النادرة ، عندما كان المتهمون يشيرون الى احداث محددة تتعلق بلقاءاتهم المزعومة بتروتسكي في الخارج ، وهي اعترافات يمكن التثبت من صحتها ، سرعان ما يتبين كذب هذه الاعترافات . فقد زعم المتهمون هلولتزمان ، دافيد وبيرمان – يورين انهم كانوا على موعد مع تروتسكي في احد الفنادق في كوبنهاغن ، ولكن سرعان ما تبين ان هذا الفندق كان قد اغلق ابوابه قبل الموعد بعدة سنوات . وزعم بياتاكوف انه هبط على متن طائرة المانية في احد المطارات القريبة من اوسلو للاجتماع بتروتسكي ، الا ان سلطات المطار نفت ان تكون اية طائرة اجنبية قـد هبطت عليه في ذلك الموعد . ولا قبله او بعده بعـــدة اشهر . والى جانب ذلك ، تمكن تروتسكي وابنه من جمع عدة وثائق تثبت انه يستحيل عليهما جسدياً ان يكونا موجودين في امكنة زعمت الاتهامات انهما كانا فيها في مواعيد معينة ؛ وقد حملت بعض هذه الوثائق توقيع ادوار هيريو ، رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك المعروف بميله الى ستالين .

اذا تذكرنا قصة الخلافات التي عصفت بالحزب ، فان توبات المتهمين تثير من الدهشة قدر ما كانت تثيره لو ان الامر خلاف لذلك . فهي لم تكن رمية من غير رام . منـــذ اواسط العشرينات والتوبات من الشعائر المألوفة والروتين المعهود عند رجال المعارضـــة المقهورين . بدأوا بالاعتراف باساءات عادية ضد الانضباط الحزبي ، وانتهوا بالاقرار بانهم ارتكبوا خطايا مميتة . وبين هذا وذاك درجات عديـدة ، عبروها ببطء ، كمن يمشي في المنام ولا يكاد يرى اتجاه سيره . ومع كل توبة ، كانوا يقبلون بالاعتراف بخطيئة افـــدح من الخطيئة التي اعترفوا بها سابقاً . طبعاً ، كانوا يأملون ، في كل مرة ، بان يكون ذلك آخر تضحية تطلب منهم من اجل الحزب ومن اجل خلاصهم والارجح انهم حتى عندما وصلوا الى نهاية المطاف ، تعذر عليهم ان يروا بوضوح الفاجعة التي تنتظرهم .

كانوا طوال تلك الفترة فريسة نزاع عويص بين خوفهم من الوسائـــل التي ينتهجها

ستالين في حكمه من جهة ، وبين تضامنهم مع النظام الاجتماعي الذي اضحى صنواً لحكم ستالين من جهة اخرى . الا ان هذا النزاع لم يكن كافياً ليحدو بهم الى التصرف بالطريقة التي تصرفوا بها . ان تروتسكي نفسه عانى من مثل هذه المعضلة في منفاه ، لكنه لم يستسلم. ان مخاوفهم وندمهم تنهشهم من جهة ، وارهاب ستالين يرعبهم من جهة اخرى . يمكن ان نستبعد بسرعة الروايات القائلة انهم نوموا مغناطيسياً او حقنوا بمخدرات عجيبة . ولكن ما من شك في انهم تعرضوا لتعذيب جسدي ونفسي من النوع الذي يمارسه مستنطقو الدرجة الثالثة في روسيا وسواها من البلدان . ويذكر ، بالاضافة الى ذلك ، ان الشرطة السرية منحت صلاحية احتجاز اقارب المتهمين كرهائن . وقد ظهر بعض من هؤلاء في قاعة المحكمة كشهود . هنا شعر اشد المتهمين صلابة ، واكثرهم استعداداً للتضحية بالنفس من اجل قضيتهم ، انه لا حق لهم ان يضحوا باقاربهم واطفالهم بالطريقة ذاتها . وما من شك في ان المتهمين ظنوا ان اعترافاتهم سوف تؤدي الى انقاذ عوائلهم ؛ ولعل بريق من الامل لاح امامهم بانهم قد يتمكنون من انقاذ انفسهم كذلك . فبعد اغتيال كيروف ، حرم الارهابيون من حق الاستئناف ، ولكن اعيد تثبيت هذا الحق قبل بضعة ايام من بدء محاكمة زينوفييف وكامينيف ، كأنما لتعليل المتهمين ببريق الامل هذا الى النهاية . ونجا بعضهم من الاعدام فعلاً ، كراديك وراكوفسكي مثلاً ، وكانت نجاة رجل واحد من الموت تبعث بالامل في نفوس العشرات بانهم قد ينجون منه هم كذلك . ومن المؤكد ان المتهمين كانوا يظنون انهم لم يدينوا انفسهم الا تحت الضغط الشديد الذي تعرضوا له ، وان الاتهامات التي كالوهـا لانفسهم هي من العبث بحيث لن تؤثر على سمعتهم قط . (في معسكرات الاعتقال النازية ، كان الحراس يجبرون السجناء على ان يشتموا انفسهم على النحو التالي : « نحن خنازير » ، وهذا طراز من الشتائم لا يصدقه انسان صحيح العقل) وهكذا ، فالضغوط والدوافع التي حدت بهذا العدد الكبير من الرجال البارزين ان يمروا من امام ستالين وهم يطلقون هذه الصرخة المروعة : « المجد لك ، ايها القيصر ، إن الذين على اهبة الموت يحيونك ! » [1] ، انما كانت متعددة ومعقدة .

* * *

---

١ – كانت هذه هي الصيحة التي يحيي بها المصارعون اباطرة روما (المترجم) .

لماذا كان ستالين بحاجة الى مثل هذه المسرحية المروعة ؟ قيل انه اعـــدم البلاشفة القدامى كاكباش محرقة لإخفاقاته الاقتصادية . توجد ذرة من الحقيقة في هذا القول ، لا اكثر . فالواقع ان حالة البلد الاقتصادية سجلت تحسناً ملموساً خـــلال السنوات التي جرت فيها المحاكمات . ومن المؤكد انه لم يكن بحاجة الى هذه الاعـــداد الغفيرة من الضحايا لذلك ، وحتى لو كان بحاجة اليهم فعلاً فان عقوبة السجن تفي بالغرض كما كان الحال في المحاكمات السابقة للمناشفة ولما سمي « الحزب الصناعي » . إن البعض من الذين ادينوا في هذه المحاكمات المبكرة ما لبث ان عاد الى الظهور في الاربعينات كشخصيات بارزة تحمل ارفع الاوسمة كالبروفسور رامزين مثلاً . الواقع ان دافع ستالـــين الحقيقي الاشمل كان تحطيم الرجال المؤهلين لتشكيل حكومة او حكومات بديلة لحكومتـــه . طبيعي ان لا يكون بوسعنا اثبات ذلك بالاستشهادات من خطب ستالـــين وكتاباته . فالدافع الكامن وراء اعماله هذه انما هو في سياق القصة كلها ، وفي الاطـــار الذي جرت المحاكمات ضمنه ، وفي نتائج هذه المحاكمات . بدأ بالاعتقاد ان اية محاولة تشكيل حكومة بديلة ، او حتى التفكير بها ، هو عمل مضاد للثورة . فكانت النتيجة البديهيـة المباشرة للمحاكمات هي تحطيم كل المراكز الرئيسية التي قد تنبثق منها مثل هـــذه المحاولات اذا ما توافرت الظروف الملائمة لذلك .

ينبغي ان نجيب الآن على السؤال التالي : لماذا سعى ستالين الى هدفه هذا في عـــام ١٩٣٦ بالذات ؟ ان مقتضيات السياسة الداخلية لا تقدم تفسيراً لهذا التوقيت . فالمعارضة مبعثرة ، مسحوقة ومشلولة ، عاجزة عن تجميع قواها المشتتة المحطمة المعنويات الا اذا تعرض جهاز الحكم بأسره لصدمة مفاجئة أو لتشنج عنيف يزرع الفوضى في ارجـــائه . والواقع ان خطراً من هذا النوع بالتحديد كان آخذاً بالتبلور ، مهدداً روسيا من الخارج. ان اولى المحاكمات الكبرى ، محاكمة زينوفييف وكامينيف ، جرت قبل بضعة اشهر من اجتياح جيوش هتلر للراينلاند ، وجرت المحاكمة الاخيرة ، محاكمة بوخارين وريكوف ، بينما الابواق تعلن احتلال النازيين للنمسا . سوف اتعرض في الفصول اللاحقة لاستعدادات ستالين الدبلوماسية لدرء هذا الخطر . يكفي ان نقول هنا انه لم يتوهم قط ان تفادي الحرب كلياً امر ممكن ، وراح يزن الاحتمالين المفتوحين امامه : الاتفاق مـــع هتلر او اعلان الحرب عليه . في عام ١٩٣٦ ، بدا ان امكان عقد اتفاق مع هتلر ضعيف جداً . الفتور الغربي يملأ نفس ستالين بالشكوك . اذ تصور ان الغرب لم يكن متواطئاً مـــع

انتعاش النزعة العسكرية الالمانية وحسب،بل كان يحرض هتلر على اجتياح روسيا ايضاً .

في المقابل ، بدت إمكانات خوض حرب بين روسيا والمانيا قاتمة دكناء . ففي الحرب العالمية الأولى ، وعلى الرغم من توزّعها على جبهتين ، تمكنت الآلة الحربية الالمانية من أن تسدي ضربة قاسمة لروسيا وان تزعزع أركان النظام القيصري. ولعل شبح آخر القياصرة الروس ظهر لستالين في أكثر من مناسبة ، وهو يراقب استعدادات هتلر للحرب . وبالامكان وضع حوار وهمي يُفترض انه دار بين الرجل والشبح :

يهمس الشبح : « لقد دنت نهايتك . لقد استخدمت فوضى الحرب لتطيح بعرشي . وها ان خوض حرب أخرى سوف تطيح بك » .

فيجيب الرجل : « انتم الملوك المخلوعون لا تفقهون شيئاً . ان الذي هزمك ليس الحرب ، بل الحزب البلشفي . طبيعي أننا قد استغلينا ظروف الحرب لصالحنا ، ولكن ... » .

ويقاطعه الشبح : « هل انت متأكد من ان المعارضة لن تستغل الحرب القادمة لصالحها ؟ هل تذكر البلبال العظيم الذي امتلك بطرسبرغ عندما تواترت انباء احتلال الالمان لريغا ؟ ماذا يحصل الآن إذا ظهر الالمان مجدداً في ريغا ، أو في كييف ؟ أو في القفقاس ؟ أو حتى على ابواب موسكو ؟ » .

— « أقول لك ان الحزب البلشفي الجبار هو الذي انتصب ضدك ، أما أنا فقد نفيت تروتسكي وسحقت خصومي الآخرين » .

فيقهقه الشبح: «ألم ابعدك الى سيبيريا بين ١٩١٤ و ١٩١٧ ؟ أو لم يكن كلا من تروتسكي ولينين في المنفى آنذاك ؟ ... » .

ما من شك في ان قادة المعارضة ، لو ظلوا على قيد الحياة ، لكانوا تحركوا عندما تبلغ ازمة الحرب اوجها ، يدفعهم اقتناع قد يكون مصيباً أو خاطئاً لا فرق ، بأن سلوك ستالين في الحرب تخريبي وليس على مستوى المسئولية . ولعلهم كانوا يعارضون اتفاقه مع هتلر . ألم يتكهن تروتسكي بمثل ذلك في اطروحاته الشهيرة عن كليمنصو ؟ لنتخيل ، للحظة واحدة ، ان قادة المعارضة عاشوا ليشهدوا هزائم الجيش الاحمر عام ١٩٤١ وعام

١٩٤٢ ، وهتلر على ابواب موسكو ، وملايين الجنود الروس في المعتقلات الالمانية ، والازمة الخطيرة التي استولت على معنويات الشعب في خريف ١٩٤١ عندما كان كل مصير السوفييت معلقاً بخيط ولا ارفع ، وعندما بلغت سلطة ستالين المعنوية اسفل دركاتها . من المعقول ، اذ ذاك ، ان يحاولوا خلع ستالين . إلا ان ستالين صمم على ان لا يسمح للامور بان تصل الى هذا الحد .

طبعاً ، التهم التي وجهها اليهم لا تعدو كونها ترهات صفيقة . لكنها تقوم على «حقيقة سيكولوجية » شوهاء ، على استباق مفجع ومنحرف للتطورات الممكنة . ولعل تفكيره تسلسل على النحو التالي : قد يعملون على الاطاحة بي في حال نشوب ازمة ما — لذلك سوف اتهمهم بانهم قاموا بالمحاولة فعلاً . أكيد انهم يعتقدون انهم اصلح مني لقيادة المجهود الحربي،وهذا هراء . ان تغيير الحكومة سوف يضعف قدرة روسيا على القتال ؛ ولنفترض انهم نجحوا في ذلك ، هذا يعني اضطرارهم الى توقيع الهدنة مع هتلر ، وربما الى التخلي عن بعض المقاطعات ، كما فعلنا ذات مرة في بريست — ليتوفسك . سوف اتهمهم إذاً بانهم عقدوا ، منذ الآن ، تحالفاً غادراً مع المانيا (واليابان) ، وانهم قد تعهدوا بالتخلي عن اجزاء من الوطن السوفييتي لصالح هاتين الدولتين .

إن مبرراً اضعف من هذا المبرر لم يكن كافياً لذبح البلاشفة القدامى . فلو هو أعدمهم بحجة معارضتهم له أو حتى لكونهم متآمرين حاولوا الاطاحة به ، لكان اناس كثيرون اعتبروهم شهداء قضية عادلة . ينبغي ان يموتوا كخونة ، كمرتكبي جرائم تفوق حد التصديق ، لقادة لطابور خامس جرار . اذ ذاك فقط يطمئن ستالين من ان اعدامهم ليس يجر الى مضاعفات خطيرة ؛ بل يؤدي ، الى العكس من ذلك ، الى ان يتطلع الجيل الجديد بشكل خاص — الفتي وقليل المعلومات — الى ستالين على انه مخلّص الوطن . لا ضرورياً ان نفترض انه تصرف بهدى همجية رعناء أو شهوة في الحكم . انه يستحق ان نعترف له بانه كان مقتنعاً ، عن اخلاص ، بان ما يقوم به انما يخدم مصالح الثورة ، وبانه هو وحده القادر على تفسير هذه المصالح على النحو الصحيح .

* * *

كان لا بد للمؤامرة الوهمية التي تقضّ عليه مضجعه من ان تكتسي لحماً وعظماً وسط معمعة التصفيات . فبقدر ما اتسعت حلقة الارهاب المفرغـــة ، بقدر ما قل عدد الذين يشعرون بالاطمئنان . فحدا ذلك بالبعض الى العمل على ايقاف هذه الآلة الجهنمية الرهيبة. ولم يبادر بهذا العمل قادة المعارضة السابقة — وقـد باتوا الآن لا حول لهم ولا قوة — بل جاء على يد رجال كانوا حتى ذلك الحين فوق الشبهات ، سلمت نفوسهم من عذاب التوبات اللامتناهية ، وهم لا زالوا يتمتعون ببعض السلطات . بدأت ردة الفعل ضد الارهاب بين اعضاء بطانة ستالين بعد فترة وجيزة من محاكمة راديك وبياتاكوف وسوكولنيكوف ، في أوائل عـــام ١٩٣٧ . ويبدو ان خلافاً نشب بين ستالين واوردجونيكيدزه ، وهو البلشفي القديم الذي زامل ستالين في معتقل باكو ، والذي تولى ترشيحه لعضوية اللجنـة المركزية عام ١٩١٢ ، وساعده على قمع جيورجيا المنشفيـة بعد ذلك بعشر سنوات ، ثم تعاون معه بحماس في صراعه مع المعارضة .وها هو اوردجونيكيدزه نفسه ينفعل لاضطهاد نائبه بياتاكوف والعديد من القـــادة الصناعيين الآخرين . وقـــد حُسم الخلاف بموت اوردجونيكيدزه المفاجىء الذي لم تجلَ ملابساته حتى الآن . ثم ارتد على ستالين رجلٌ آخر هو رادزوتاك ، احد زعماء الجناح الستاليني الذي يحتل منصب نائب رئيس الوزراء ورئيس اتحاد النقابات .

إلا ان المؤامرة الحقة لم تبدأ إلا مع قادة الجيش : توخاتشيفسكي وشركاؤه . لم يتأكد بعد ما إذا كان القادة المدنيون شبه الليبراليين من امثال رادزوتاك وميجلوك (نائب آخر لرئيس الوزراء وأحد زعماء الجناح الستاليني) قد تعاونوا مع العسكريين . والواقع ان تفاصيل مؤامرة توخاتشيفسكي وإخفاقها لا تزال مجهولة حتى الآن . إلا ان جميع الروايات غير الستالينية تجمع على ان الجنرالات حاولوا القيام بانقلاب عسكري . وقـــد خططوا لذلك بمحض ارادتهم ، دون التحالف مع أية قوة اجنبية [١] . يتلخص القسم الاكبر من الانقلاب في عصيان داخل الكرملين نفسه ، يتوّج باغتيال ستالين . وقد اعِدّ الى جانب

---

(١) لم يعثر بين وثائق محاكمات نورنبرغ للقادة النازيين على اية وثيقة تحمل ولو اشارة واحدة الى الطابور الخامس النازي المزعوم داخل الحكومة والجيش السوفييتيين . هـــل من دحض لمحاكمات التصفية الستالينية أبلغ من هذه الثغرة العجيبة في الدلائل المستفيضة عن استعدادات هتلر للحرب ؟

ذلك عملية عسكرية حاسمة خارج الكرملين ، وهجوم على المقر العام للشرطة السياسية . كان توخاتشيفسكي لولب المؤامرة . وهو قائد يتمتع بعبقرية عسكرية قل نظيرها ، فهو الذي عمل على تحديث الجيش الاحمر ، تحف به امجاد انتصاراته في الحرب الاهلية ، مما جعله القائد المفضل لدى افراد القوات المسلحة . وكان ، الى ذلك ، الوحيد من بين جميع القادة العسكريين السوفييت الذي يشبه ، في اكثر من ناحية ، نابليون بونابرت ، الامر الذي أهّله لأن يستعيد دور القنصل الاول في روسيا. انضم الى المتآمرين المرشدُ السياسي الاول في الجيش ، غامارنيك ، الذي انتحر فيما بعد . ووعد الجنرال ياكير ، قائد حامية لينينغراد ، بان يضع قواته تحت تصرف الانقلاب الذي اشترك فيه ايضاً الجنرالات اوبوريفيتش ، قائد المنطقة الغربية ، وكورك ، قائد الكلية الحربية في موسكو ، وبرياكوف ، نائب بوديني في قيادة سلاح الخيالة ، وغيرهم . في أول ايار عام ١٩٣٧ ، وقف توخاتشيفسكي الى جانب ستالين على منصة ضريح لينين يشاهدان الاستعراض بمناسبة عيد العمال . لكنه خُلِع من منصبه بعد احد عشر يوماً من ذلك . وفي الثاني عشر من حزيران ، اعلن عن اعدام توخاتشيفسكي ورفاقه . ولم يبدِ المتآمرون أي ندم على فعلتهم ، ولم يعترفوا بشيء. ويقال ان الشرطة السرية هي التي اكتشفت امرهم . وان توخاتشيفسكي جُرح عند محاولة اعتقاله ، فجيء به الى ستالين على حمالة . وقد اعيد المشير الى السجن بعد ملاسنة قارسة طويلة دارت بينه وبين ستالين . وقد وقّع على أمر اعدامه ، شكلياً على الاقل ، كلٌ من المشيرين الاربعة الآخرين : فوروشيلوف، بوديني، بلوخر وييغوروف. وقد نحّي هذان الاخيران عن منصبهما بعد ذلك بوقت قصير .

إن أكمل سرد لقصة المحاكمات ليعجز عن اعطاء فكرة كاملة عن نتائجها . لقد جرت التصفيات الحقيقية بالجملة بعيداً عن اضواء الدعاية وقرقعة طبولها ، دون اعترافات يدلي بها الضحايا ، وأحياناً دون محاكمات البتة . وكتب تروتسكي معلقاً على محاكمات موسكو الهجينة : « إن ستالين اشبه ما يكون برجل يريد ان يطفىء عطشه بشرب الماء المالحة ». لقد ارسل الآلاف لملاقاة حتفهم وعشرات بل مئات الالوف الى السجون ومعسكرات الاعتقال . وهذا ما ساقته اليه طبيعة هدفه نفسها . لقد رمى الى تحطيم الرجال القادرين على تشكيل حكومة بديلة . ولكن كل واحد من هؤلاء الرجال كان يحمل وراءه سنين طويلة من الخدمة ، درّب خلالها ورفع الموظفين والاداريين ، وأنشأ الصداقات العديدة .

ولم يكن ستالين ليطمئن على عدم خروج من يأخذ بثأر ضحاياه من بين صفوف اتباعهم . فبعد ان حطم الفريق الاول من القادة الممكنين للحكومة البديلة ، لم يعد بوسعه ان يعفو عن الفريق الثاني ، فالثالث ، فالرابع ، وهكذا الى آخر العقد . فجميع الحزبيين الذين نشأوا في كنف زينوفييف وكامينيف وبوخارين وريكوف ؛ والدبلوماسيين الذين عينهم راكوفسكي وسوكولنيكوف ؛ والضباط الذين تحتوي ملفاتهم في الكلية الحربية على شهادة ثناء ممهورة بامضاء توخاتشيفسكي ؛ جميع المدراء الصناعيين الذين عملوا تحت امرة بياتاكوف – جميع هؤلاء خطرون ، مشبوهون وملعونون . وللحال ، عَلِق في الشبكة الشيوعيون اللاجئون من المانيا النازية ، وبولونيا الرازحة تحت دكتاتورية بلسودسكي ، ومجر الطاغية هورثي ، الذين كانوا فيما مضى مرتبطين بهذا الجناح أو ذاك الفريق من أجنحة وفرق الحزب البلشفي [1] . لعلنا لن نفلح قط في احصاء عدد الضحايا بدقة . تقول بعض المصادر انه قد اعتقِل ، في الجيش وحده ، عشرون الف ضابط ، أي ربع مجموع الضباط ، وأُعدم بضعة آلاف منهم . وهكذا تزعزع جهاز الدولة من اساسه .

•

ابان هذا الزلزال المدمر ، اختار ستالين ان يعلن الدستور الجديد في خطاب له امام المؤتمر الثامن للسوفييت ، في تشرين الاول من عام ١٩٣٦ . فأسدل بذلك ستاراً من العبارات الليبرالية والوعود على المقصلة القابعة في المؤخرة . حل الدستورُ الجديد محل القانون الانتخابي الذي كان لينين قد اصدره ، والذي اتسم بالتحيز الصريح للطبقة العاملة الصناعية . أما الدستور الجديد ، فقد منح كل الطبقات حقاً متساوياً في الاقتراع ، بما في ذلك البرجوازية السابقة التي كانت محرومة منه . واستبدلَ الانتخاب غير المباشر بالانتخاب المباشر ، والتصويت العلني بالتصويت السري . وقال ستالين ان الذي سمح بمثل هذه الخطوات المتقدمة هو التغير الذي طرأ على بنية المجتمع . فقد تحققت المرحلة الاولى

---

(١) من بين الشيوعيين المعروفين الذين قضوا في تلك الفترة : بيلاكوف،قائد ثورة المجر عام ١٩١٩ ؛ ريملي ونيومان ، ابرز المتحدثين الشيوعيين في الرايخستاغ الالماني قبل مجيء هتلر الى الحكم ؛ ومعظم اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولوني تقريباً ، والكثيرون غيرهم .

من الشيوعية ، وانتفت صفة البروليتاريا عن الطبقة العاملة ، وأُنجز اندماج الفلاحين في الاقتصاد الاشتراكي ، وانبثقت الانتلجنسيا الجديدة من الطبقات الكادحة . وعارض ما زعم انه تعديل تقدم به احدهم على مسودة الدستور ، وأصر على ان يضمن الدستور حق الجمهوريات التي يتكون منها الاتحاد السوفييتي في الانفصال عنه متى شاءت ذلك . وفي معارضته لتعديل آخر يرمي الى منح سلطات عليا لرئيس الجمهورية بدلاً من منحها لمجلس رئاسة السوفييت الاعلى المتعدد الاعضاء ، حذر ستالين مستمعيه من ان رئيساً واحداً قد يتحول الى دكتاتور – فلا يجوز ، بالتالي ، ان تُترك في الدستور ثغرة يمكن لدكتاتور النفاذ منها . وقد ذهب الى حد الاصرار على العفو عن الحراس البيض والرهبان السابقين. لكن البند الحقيقي في كل هذه الخرافات الديمقراطية هو البند المتعلق بتحريم الدستور لأية معارضة . وهذه هي عبارات ستالين بصدده : « إن حرية العمل لعدة احزاب ... لا يمكن ان تُمنح إلا في مجتمع مكون من عدة طبقات متناحرة ، تكون متعارضة ومتناقضة في مصالحها ... إن الوضع في الاتحاد السوفييتي لا يسمح إلا بوجود حزب واحد فقط »[1] .

وانكب ستالين من ثم على مشروع وضع « مختصر تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي » الذي قيل انه اول أثر دقيق وسليم عقائدياً في هذا المضمار . في هذا الكتاب، أُعيد كتابة كل تاريخ الحزب على ضوء المحاكمات . وأُعلن ان جميع الكتب المدرسية الاخرى ، بما فيها تلك التي وضعها اقرب المقربين الى ستالين من امثال ياروسلافسكي ، مشكوك بصحتها ، فسُحبت من التداول لأنها جميعاً تعالج تاريخ الحزب على نحو لم يعد يتلاءم مع « الاكتشافات » الاخيرة . وقد وضع الكتابَ الجديد امناءُ سر ستالين باشرافه الشخصي ، وعُمِّد الكتاب فور صدوره انجيلاً للحزب . ولم يكتب ستالين نفسه إلا الفصل الفلسفي منه ، وهو تلخيص فظ لنظرية الجدلية الماركسية . وهكذا ، فان

---

(١) ان هذه الحجة متهافتة حتى من وجهة نظر ستالين نفسه . فهو يعتبر ان المحافظين والليبراليين في بريطانيا والجمهوريين والديمقراطيين في امريكا احزاب رأسمالية لا تمثل « مصالح متعارضة ومتناقضة » . وهكذا ، فمن الممكن ان يقوم نظام حزبين على اساس مصلحة طبقة واحدة .

ستالين الذي لعب دور الملقن في المحاكات وظل محجوباً عن أعين الجمهور . ولما اختار الظهور أمامه ، ظهر بدور الفيلسوف والمؤرخ وواضع الدساتير .

* * *

بينما كانت المقصلة تحصد الرؤوس ، بدا للكثيرين انها لن تلبث ان تحصد رأس ستالين ايضاً في نهاية المطاف . كان ستالين يقضي على البلاشفة القدامى ، وما هو إلا واحد منهم . فمن يدعمه بعدما تزول دعامة النظام البلشفي ؟ كتب تروتسكي في ايلول من عام ١٩٣٧ :

« ان ستالين قد شارف نهاية مهمته المأسوية . وبقدر ما يتبدى له انه لم يعد بحاجة الى احد ، بقدر ما تدنو الساعة التي لن يعود فيها أحد بحاجة اليه . إذا نجحت البيروقراطية في تغيير قوانين الملكية لصالحها ، وإذا انبثقت طبقة جديدة من بين صفوفها ، فانها سوف تبحث عن قادة جدد ليس لهم ماضٍ ثوري ويتمتعون ، الى ذلك ، بثقافة أرفع من مستوى ثقافة القادة القدامى . إذ ذاك ، لن يسمع ستالين عبارة امتنان واحدة على العمل الذي قام به . فسوف تصفي الردةُ العلنية المضادة للثورة حساباتها ، والارجح انها سوف تتهمه بالتروتسكية » .

وخرج تروتسكي ، بعد بضعة أشهر من ذلك ، بتكهن آخر :

« إن ستالين يهيىء « حفلة تتويج » له على انقاض الثورة وعلى اشلاء الثوريين. على ان حفلة التتويج البونابرتية التي سيقيمها ستالين لن تكون إلا جنازة تعلن موته سياسياً بالنسبة لحركة الطبقة العاملة » .

لم تتحقق كلا النبوءتين . وأما بالنسبة لحفلة تتويج ستالين ، فقد جرت قبل المحاكات وليس في اعقابها . ان الجانب من التصفيات الذي يدعو فعلاً الى الدهشة ، وذلك نظراً لاتساعها وبشاعتها ، هو ان التصفيات لم تحدث تغييراً يُذكر على سطح روسيا

السوفييتية . ولم تتأثر بنية النظام ، بعد كل هـذا ، إلا بمقدار قليل جداً من الفأس التي انهالت عليها . بدا المجتمع الروسي بعد التصفيات ، كما كان قبلها ، يسعى بدأب وراء اهتماماته الاقتصادية من جهة ، وليغوص ، من جهة أخرى ، في مستنقع من اللامبالاة السياسية والاخلاقية . وظل ستالين ، كما كان من قبل ، يمجَّد بوصفه أب الشعوب والزعيم المحبوب .

(...) ان السبب الاعمق لانتصار ستالين يقع ، كما أسلفنا ، في انه ، خلافاً لروبسبيير ، قدم للامة برنامجاً جديداً وإيجابياً على صعيد التنظيم الاجتماعي . وعلى الرغم من ان هذا البرنامج جر الحرمان والعذاب على عدد كبير من الناس ، إلا انـه فتح ، في المقابل ، فرصاً جديدة أمام العدد الاكبر الذي لم يكن ليحلم بها من قبل . فبات لهؤلاء مصلحة مباشرة في حكمه . وهذا ما يفسر ، في نهاية المطاف ، لماذا لم يجد ستالين نفسه معلقاً في الفراغ بعد المجزرة التي قضى بها على البلاشفة القدامى . طوال سنوات ثلاث تقريباً ، راحت مكنسته الحديدية تكنس بوحشية مكاتب الدولة والحزب الواحد تلو الآخر . فلم يبق عام ١٩٣٨ إلا حفنـة صغيرة من تلك الجمهرة من الاداريين التي كانت موجودة عام ١٩٣٦ [1] . على اثر التصفيات ، شغرت وظائف عديدة في كل فرع من فروع الحياة العامة . ولكن تخرج في المقابل من المدارس العليا ما يربو على نصف مليون اداري وفني وعالم اقتصاد ومشتغل بالمهن الحرة في غضون السنوات الخمس بين ١٩٣٣ و ١٩٣٨ . وهو عدد ضخم بالنسبة لبلد لم تكن الفئة المتعلمة فيه إلا فئة ضئيلة جداً من المجتمع سابقاً . هذه هي الانتلجنسيا الجديدة التي ملأت الوظائف الشاغرة . وكان افرادها ، وقد تشربوا عبادة ستالين منذ طفولتهم ، إما معادين للبلاشفة القدامى وإما غير آبهين بمصيرهم . فتهافتوا على العمل بحماس واندفاع بالغين لم تضعف منهما الاحداث الاخيرة . صحيح ان مؤهلاتهم متواضعة . وتجربتهم العملية شبه معدومة . فكان على الامة ان تدفع ثمناً باهظاً لتدريب موظفيها ، ومدرائها الصناعيين ، وقادتها العسكريين ، وقد استمرت فترة التدريب العملي هذه حتى الحرب العالمية الثانية .

---

(١) تقول « نشرة المعارضة » في عددها رقم ٧٠ ان ما من واحد من امناء سر قيادات الحزب المنطقية عام ١٩٣٦ عاد لمنصبه عام ١٩٣٧ .

انتهت التصفيات في أوائل عام ١٩٣٩ . وهذا ما اعلنه ستالين في آذار من العام نفسه امام مؤتمر الحزب الذي دعي للانعقاد بعد فترة خمس سنوات مشحونة بالاحداث . جرى تعديل نظام الحزب الداخلي على نحو شبه ليبرالي . الغيت التصفيات ، حتى على شكلها المخفف الذي كانت تتخذه ايام لينين . وأعلن ستالين : « مما لا شك فيه اننا لن نلجأ بعد الآن الى اسلوب التصفيات الجماعية » . وسخر من الاجانب الذين اعتقدوا ان محاكمات « الجواسيس والمجرمين والمخربين » قد اضعفت الدولة السوفييتية . لكنه تساءل علناً : «أليس مستغرباً ألا نكون قد اكتشفنا نشاطات القادة البوخارينيين والتروتسكيين التجسسية والتآمرية إلا مؤخراً ، في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، على الرغم من ان الادلة تشير الى ان هؤلاء السادة يخدمون منظمات التجسس الاجنبية ويقومون بالنشاطات التآمرية منذ الايام الاولى لثورة اكتوبر ؟ كيف خفي عنا هذا الامر الخطير ؟ كيف نفسر هذا الخطأ الذي ارتكبناه ؟ » كيف نفسره بالتأكيد ؟ يجيب ستالين : بقلة الحذر ، و « باستصغار » اهمية جهاز الاستخبارات السوفييتي . ان احد الفصول الاخيرة من التصفية هو اعدام ييجوف ، رئيس الشرطة السياسية ، ومنظم كل المحاكمات التي جرت بعد تسريح ياغودا . وقد حل ل. بيريا محل ييجوف . وهو مواطن ستالين وأحد كتاب سيرته ، وكان حتى ذلك الحين رئيساً للشرطة السياسية في جيورجيا .

إن الفصل الأخير من التصفيات لم يجرِ في روسيا ، بل في مكسيكو حيث استقرّ تروتسكي بعد تجوال كثير . وفي عام ١٩٣٦ ، بينما كان تروتسكي في النروج ، ضغط ستالين على الحكومة النروجية ، عبر مبعوثه الدبلوماسي في اوسلو ، لكي تحرم تروتسكي من حق اللجوء السياسي . هدّد النروجيين بالمقاطعة الاقتصادية ، وهذا تهديد من الخطورة بقدر ، إذ ان ازدهار النروج يعتمد على التجارة مع روسيا . فوافق تريغف لاي ، وزير العدل النروجي ، ان يفرض الإقامة الجبرية على تروتسكي ، لكنه رفض طرده من البلد . وبعد ان غادر تروتسكي النروج إلى مكسيكو ، واصل هجماته على سياسات ستالين ، فاضحاً المحاكمات بكثير من الفعالية ، ومحاولاً ، ولكن دون نجاح ، ان يبعث الحياة في اوصال الاممية الرابعة . وتعرّض لمحاولات اغتيال عديدة . مات جميع أبنائه في ظروف غامضة ، الأمر الذي حدا به الى اتهام ستالين بانه قد اغتالهم ثأراً . وأخيراً ، في العشرين من آب ١٩٤٠ ، وبينما تروتسكي منهمك في كتابة سيرة ستالين ، اقدم رجل غامض ، يدعي بانه أحد مريدي تروتسكي ، على تحطيم رأسه بفأس صغيرة . هكذا نُفّذ قرار محكمة

موسكو التي قضت باعدام تروتسكي . وها ان ستالين ، بعد ان اقتلع التروتسكية بلا هوادة من روسيا ، يحرز انتصاره الاخير الفاجع على الشخص نفسه ، على الرجل الذي كان يرمز اسمه ، جنباً الى جنب مع اسم لينين ، الى الآمال العظيمة والاوهام الكبيرة ايضاً التي اطلقتها ثورة اكتوبر . فكأن موت تروتسكي انهى عملية تبديد هذه الآمال والاوهام . وثمة مسحة من الرمزية المأسوية في كون الدم النافر من رأس تروتسكي قد لطخ الصفحات التي كان يدون عليها تقييمه لحياة ستالين السياسية . لكن الفصل الاخير من محاكمات موسكو مر مرور الكرام وسط الزوبعة التي عصفت بالعالم في ذلك العام ، وبالتحديد في صيف ١٩٤٠ .

●

الفصل العاشر

الكومنترن والسياسة الخارجية

الفترة الاولى (١٩٢٣ - ١٩٣٣)

ستالين يفتقر الى عقيدة محددة المعالم في السياسة الخارجية . - حاشية شعرية : قصيدة « السيثيون » لالكسندر بلوك . - القطيعة بين الثورة والاستعمار . - البلاشفة يعارضون صلح فرساي . - معاهدة رابالو بين روسيا والمانيا (١٩٢٢) . - انهيار الحركة الشيوعية الالمانية عام ١٩٢٣ . - دور ستالين في الكومنترن . - الفترة المعتدلة من نشاط الكومنترن(١٩٢٥ - ١٩٢٦). - المنعطف الجذري المتطرف ١٩٢٨ . - آراء ستالين حول الفاشية والنازية . - مؤشر الى السياسة المقبلة : خطبة ستالين السرية حول موقف روسيا من نشوب حرب جديدة (١٩٢٥) . - ستالين يدين الافكار حول تعاون الدول العظمى واقتسام مناطق النفوذ فيما بينها .

ان النزاع الداخلي في الحزب البلشفي ، والخطط الخمسية ، والتصفيات لم تبدُ لغير الروس إلا كأصوات مبهمة خارجية، لا تمت بصلة الى سياق الاحداث الرئيسية على مسرح السياسة العالمية . وبدت قامة ستالين كشبح يتململ في اقصى المؤخرة . فقط عندما داهم الغرب خطر نشوب حرب عالمية ثانية ، ايقن الكثيرون ان الاحداث الخارجية كانت مقدمة لفصل حاسم من فصول المسرحية ، وان الشبح القابع في المؤخرة انما يلعب دوراً رئيسياً فيها . وفي ذلك العام المتوتر ، الذي جاء في اعقاب اتفاقية ميونيخ ، انطرح السؤال التالي بالحاح متزايد : « ماذا ستفعل روسيا ؟ » ، أو على نحو ابسط : « ما هي سياسة ستالين ؟ » .

يمكن استخلاص قسم من الجواب من خطب ستالين ، ومن « الاطروحات» والمقررات حول السياسة الخارجية التي تبناها الحزب . إلا ان هذه البيانات العلنية لا تفي بالغرض كلياً . فأقوال ستالين ، في العادة ، خليط من الصيغ الجامدة المتناقضة ، يجري تلفيقها حسب ضرورات اللحظة الراهنة ومقتضيات السُنّة العقيدية . فيتعذر بالتالي استنباط تتابع منهجي للافكار من هذا الخليط ، مثلما يتعذر استخلاص عقيدة محددة المعالم في السياسة الخارجية . لكن الاكثر غموضاً من اقوال ستالين هو الجو الذي يكتنف اتباعه .

والنفاذ الى هذا الجو ، الى المواقف التلقائية للشعب الروسي ، لا يمكن ان يتم عبر المحاضر الرسمية والاجتماعات الحزبية أو مؤتمرات السوفييت . والاحرى بنا ان ننفذ اليه عبر ابيات الكسندر بلوك ، الشاعر الرمزي الكبير ، صاحب القصيدة الصوفية الثورية الشهيرة « الاثنا عشر » . ففي قصيدة اخرى له بعنوان « السيثيون » ، نُظمت هي ايضاً في أول ايام الثورة وتركت اثراً ملموساً على الانتلجنسيا الروسية ، رؤية استباقية لموقف روسيا السوفييتية من العالم . يكشف الشاعر ، في ومضة من العبقرية الشعرية ، المنابع الباطنية للعاطفة القومية بحدس مباشر يندر وجوده في الصيغ السياسية .

يجول بلوك في الماضي السحيق ، حتى يشارف ما قبل التاريخ ، ليمر بالحـاضر في طريقه الى المستقبل ؛ ويبيّن الاندفاع القديم متشابكاً مع الغرائز الثورية المعاصرة في نسيج تاريخي واحد . ان السيثيين ، الذين استوطنوا السهول الروسية ، حموا الغرب الاغريقي والروماني لمدة طويلة من هجمات الهونيين الشرقيين ؛ لكنهم عاشوا في خوف دائم من هجوم قد يشنه عليهم الغرب الروماني . ولم تسقط الحضارة الرومانية تحت ضربات الهونيين إلا بعد ان أُنهِك السيثيون انهاكاً تاماً في حرب غير متكافئة ضد الغرب والشرق معاً . وتذوب سيثيا القديمة بروسيا المعاصرة ، لتؤلفان ، في رؤية الشاعر ، كلاً متكاملا . فروسيا ، المدركة تمام الادراك لتفوّق الغرب عليها ، لا تزال فخورة برسالتها بوصفها الطرف الحيوي شبه البربري للحضارة الغربية . وهي تواصل الدفاع عن بقاء هذه الحضارة ، على الرغم من ان الغرب لا يجازيها إلا بالعِداء السافر . وما ثورة اكتوبر إلا تتويج لعملية الدفاع هذه . فهل يستجيب الغرب لنداء الثورة أم تراه يقابلها بعدائه التقليدي ؟ على هذا الخيار يتوقف موقف السيثيين الجدد من العالم :

توجد الملايين منكم ؛ ومنا الحشود والحشود والحشود .
فهلموا الى نِزالنا .
نعم ، نحن سيثيون ، نعم ، آسيويون نحن ،
ذوو العيون الشهل الشرهة .
... آهٍ لك ، ايها العالم القديم .

* * *

إن روسيا كأبي الهول . في الحزن والفرح ،
تحدق وتحدق وتحدق بكم —
بحقد وبحب —
والدم الاسود يتدفق منها .

نعم : الحب ، كما دَمُنا وحده قادر على ان يحب ،
منذ زمن بعيد لم يذق احدكم طعم الحب .
لقد نسيتم ان ثمة حباً
يحرق ويدمر .

قفوا الى جانبنا ، من اهوال الحرب
افيئوا الى احضاننا الآمنة ،
وامتشقوا الحسام القديم قبل فوات الاوان .
ايها الرفاق ، لنكن اخوة .

وإلا ، فليس لدينا ما نخسره .
نحن ايضاً نتقن الغدر إذا شئنا ؛
فتلعنكم ابدَ الدهر
الانسانية المريضة في زمن سيأتي .

سوف نفر من امام اوروبا الحسناء
الى احراجنا والغابات ، مشتتين ،
ثم ندير نحوكم
وجهنا الآسيوي البغيض .

* * *

ولن نعود ، بعد ذاك ، درعاً لكم ،
لن نشترك في المعارك ، اياً كانت !
سوف نتفرج باعيننا الضيقة
عندما تدور رحى معارككم الطاحنة

ولن نحرك ساكناً عندما ينهب « الهوني » الهمجي
جيوب القتلى ،
ويحرق المدن ، ويسوق القطعان الى الكنائس .
ويشوي لحم الاخوة البيض .

هذه هي المرة الاخيرة — فتذكَّر جيداً ، ايها العالم القديم ! —
الى مهرجان العمل والسلم الاخوي ،

للمرة الاخيرة ، الى المهرجان الزاهي الاخوي
تدعوك القيثارةُ البربرية الآن .

* * *

« ينبغي ان تبقى القسطنطينية بيد المسلمين » .

« نعلن ان اتفاقية اقتسام ايران (المعقودة بين بريطانيا وروسيا عام ١٩٠٧) قد مزّقت واعتبرت لاغية » .

« نعلن ان اتفاقية اقتسام تركيا (وهي الاتفاقية السرية المعقودة بين بريطانيا وروسيا عام ١٩١٥) قد مزّقت واعتبرت لاغية ، ومعها مشروع احتلال ارمينيا » .

هذه هي اولى البيانات حول السياسة الخارجية السوفييتية ، صدرت حاملة توقيع لينين وستالين . كان البلاشفة قد فتحوا لتوهم ارشيف وزارة الخارجية القيصرية ، وأذاعوا جميع المعاهدات السرية ، وتنازلوا عن جميع ما جنت روسيا منها من مغانم ، وأعلنوا القطيعة الكاملة مع الاستعمار وبدء حقبة جديدة من العلاقات الصريحة الصادقة مع شعوب العالم اجمع . فالثورة لا ترضى إلا بسلم ديمقراطي عادل « بدون تعويض أو ضم » . ويكمن وراء هذا التعبير الفريد من نوعه عن المثالية الثورة املُ البلاشفة بان تحذو الامم الاخرى حذوهم ، فتقيم انظمة اشتراكية في بلادها ، وتعلن تخليها عن السيطرة على الشعوب المستعمَرة . ولا شك في ان البلاشفة اعتقدوا ان تخليهم عن مغانم الامبراطورية القيصرية لن يجر على روسيا خسارة فعلية على المدى البعيد . ذلك ان الفوائد المادية والمعنوية المتأتية من قيام نظام اشتراكي عالمي لا شك انها تفوق الارباح الخادعة التي قد تجنيها امة من الامم عبر استغلالها للامم الاخرى . إلا ان خسارة روسيا على المدى القريب كانت جد ملموسة . لكن البلاشفة كانوا مصممين على ان يكونوا قدوة لاشتراكيي البلدان الاخرى في هذا المضمار . السيثيون يناشدون الغربيين : « امتشقوا الحسام القديم قبل فوات الاوان » .

وعلى الرغم من سنوات الحرب الاهلية الحالكة ، ومن التدخل الاجنبي والمجاعة ، فقد

ظلت اصداء هـــذه الصيحة تتردد في ارجاء اوروبا . فجسَّد الكومنترن ، بادىء بدء ، الامل المعقود على الطبقات العـــاملة في الغرب بان تسلك طريق الاشتراكية من تلقاء نفسها .

إلا ان سرعان ما اضطر القادة السوفييت ، في اجراء دفـــاع عن النفس ، اللجوء الى بعض الاساليب الدبلوماسية التقليدية . فابتكروا عقيدة دبلوماسية ترمي الى اقامة توازن قوى مؤقت في اوروبا يدعم مركزهم تجاه العالم الرأسمالي . إن صلح فرساي قـــد سمح المنتصرين ، ولفرنسا بنوع خاص ، بان يهيمنوا على القارة الاوروبية . وقد عين نظـــام التحالفات الفرنسي دوراً مزدوجاً يتولى تنفيذه كل من بولونيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا: فهي سدود في وجه أي خطر ثوري يأتي من جهة الشرق من جهة ، وفي وجه الضغط الذي قد يتولد عن انبعاث النزعة العسكرية الالمانية من جهة اخرى . إلا ان نظام التحالفات هذا كان موجهاً ، أول الامر ، ضد روسيا أكثر منه ضد المانيا . فسعى الروس الى اقامة تحالف مضاد له . وقد حققت الدبلوماسية السوفييتية ذلك بوقوفها ، جزئياً على الاقل ، مع المهزومين ضد المنتصرين ، مع المانيا ضد الحلفاء وفرنسا منهم خاصة . ومن مفارقات الامر ، ان السياستين البريطانية والسوفييتية سلكتا طريقين متوازيين تقريباً في هـــذا المضمار ، على الرغم مما بينهما من خلافات ايديولوجية . فقد سعت بريطانيا وروسيا ، كلٌ من طرفه من القارة الاوروبية ولأسباب متباينة ، الى الحيلولة دون سيطرة قوة عسكرية واحدة على القـــارة بأسرها . ويمكن استخلاص الموازاة في الطريقين من مواقف الرأي العام في كلا البلدين من صلح فرساي . لقد أدان الرأي العام في كلا البلدين صلح فرساي . وبسط الاقتصاديون السوفييت ، ولكن بلغة ماركسية ، الحجج الرئيسية ذاتها التي بسطها جون ماينارد كينز في مقاله : « النتائج الاقتصادية للسلم » . إلا ان روسيـــا السوفييتية تختلف عن بريطانيا في انها ليست مقيدة بتعهدات تجاه فرنسا ، فكانت بالتالي طليقة اليد في العمل من اجل إحلال توازن قوى . في عام ١٩٢٢ ، وقع تشيشيرين على معاهدة رابالو بين روسيا والمانيا . وكانت روسيا قبلاً قد اصلحت ذات البين مع تركيا ، احد البلدان المهزومة .

اعتبر البلاشفة ، أول الامر ، ان مناوراتهم في الميدان الدبلوماسي لا تعدو كونهـــا مساومات آنية . فهـــم لا زالوا يتوقعون اندلاع الثورة الاجتماعية في الغرب . فكان

الكومنترن هو الاصل في سياستهم الخارجية ، أما الدبلوماسية ففرع ضعيف ليس إلا . وجه المكتب السياسي تعليمات حازمة الى الدبلوماسيين تقضي بان لا يقولوا أو يفعلوا ما من شأنه إحراج الاحزاب الشيوعية في الخارج . وكان يُطلب من السفراء عادةً إهمال اللياقات والتحدث بوصفهم محرضين ثوريين لا غير ؛ أو ان يعمدوا ، في احسن الاحوال، الى عقد اتفاقات تجارية « متحفظة وعملية » مع البلدان الرأسمالية .

ظل هذا الاتجاه غالباً على السياسة الخارجية الى ما قبل بروز ستالين كواحد من الثلاثي الحاكم بفترة قصيرة . لينين يشارك تشيشيرين، مفوض الشؤون الخارجية، بالتعاون مع كامينيف ، تروتسكي ، ومعاوني تشيشيرين كاراخان وليتفينوف . وجميع هؤلاء مهاجرون سابقون على اطلاع وثيق باوضاع البلدان الغربية . لم يكن ستالين مهتماً لمجرى السياسة الخارجية . ويبدو ان المرة الوحيدة التي انشغل فيها بحادث دبلوماسي كانت عندما احتج اللورد كورزون على احد بياناته الموجهة الى المسلمين ، مفسراً اياه كتحريض لشعوب المستعمرات ضد حكومة صاحبة الجلالة . ولم يلعب أي دور يذكر في الكومنترن .

وعندما نشط في هذه الميادين كذلك ، بوصفه واحداً من الثلاثي الحاكم ، لم يبادر ، أول الامر ، الى تغيير الخط الذي تسلكه السياسة الخارجية. كانت روسيا آنذاك تقطف الثمار الاولى لمعاهدة رابالو ، وتوسع الثغرات في « الحزام الواقي » المحيط بها . ففي سنوات ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ و ١٩٢٥ اعادت عدة بلدان علاقاتها الدبلوماسية والتجارية معها . وهللت موسكو لأدنى بادرة تشير الى تخفيف العداء الرأسمالي تجاهها . بدأ السوفييت يتنفسون بعد طول اختناق .

على ان هذه التطورات الايجابية الباعثة على التفاؤل تطلبت توازناً جديداً في العلاقات بين الدبلوماسية السوفييتية والكومنترن . وقد تبين ان ثمة تعارضاً عميقاً بين هدفين : الثورة العالمية من جهة ، واقامة علاقات طبيعية أو حتى علاقات طيبة بين روسيا والبلدان الرأسمالية من جهة أخرى . فلا بد من التضحية بأحد هذين الهدفين في سبيل الآخر ، أو ، على الاقل ، اخضاعه له . فتولد الخيار من الاجوبة التي قدمتها الاحداث على السؤالين التاليين : « ما هو حظ الثورة العالمية في النجاح ؟ » ، « هل ان السلم المستقر بين السوفييت والعالم الرأسمالي امرٌ ممكن ؟ » . لم تبرز المعضلة فجأة . تسربت عبر

تغيرات متوالية طرأت على الوضع الدولي . ولا اتخذ حلُّهـا شكلَ قرار مقصود جرى تبنيه أو إقراره في موعد معين . بل جاء الحل في سلسلة من تحولات خفية حيناً وسافرة احياناً .

بعد مضي اربع سنوات على قيادة لينين وتروتسكي ، لم يكن بمكنة المكتب السياسي ان يعالج توقعات قيام الثورة العالمية بدون تشكك . لكنه تشكك محدود. يحده الاقتناع الماركسي المشترك بين جميع اعضائه بان الاشتراكية ستحل محل الرأسمالية عاجلاً أم آجلاً بالحتمية التي حلت بها الرأسمالية عينها محل الاقطاع . لكن الشطحات التاريخية المديدة لا تفي بغرض ستالين ، إذ انها لا تجيب على اسئلة راهنة ملحة . استغرقت عملية انهيـار الاقطاع الاوروبي قروناً من الزمن . الى متى ستصمد الرأسمالية ؟ كان لينين قد قاس ما تبقى لها من العمر في البلدان الاوروبية الرئيسية بالاسابيع ، أول الامر ، ثم بالاشهر ، وبالسنين . وها ان الحيطة تملي الآن القياس بالعقود . فيبقى مصير السوفييت على كف عفريت طوال هذه الفترة. ولكن، هل يحق للبلاشفة بان يتوقعوا عقوداً من الزمن يسودها الامن والسلام؟ إن النجاحات الاخيرة التي احرزتها الدبلوماسية السوفييتية حدت بستالين الى التفاؤل بهذا الصدد . وهكذا ، فان التشاؤم البالغ حول إمكان الثورة العالمية، والثقة بامكان تحقيق هدنة طويلة بين روسيا والعالم الرأسمالي هما المسلمتان الـتي ارتكزت اليهما نظرية « الأشتراكية في بلد واحد » عنده .

يتحدث تروتسكي عن الإزدراء الذي كان ستالين يستبعد به الحديث عن إمكانات الحركات الشيوعية الاجنبية . ويزعم انه كرر في أكثر من مناسبة ان الكومنترن لن يقوم بأية ثورة طوال عقود من الزمن . ويعزو لومينادزه الى ستالين ، وهو احد معاونيه الاقربين في العشرينات ، هذا القول : « الكومنترن لا يمثل شيئاً . انـه موجود بفضل دعمنا له ليس إلا ». لقد انكر ستالين ادلاءه بمثل هذا الحديث . ولعل لومينادزه يشير الى احاديث غير رسمية في احد اجتماعات المكتب السياسي . إلا ان معظم تصريحات ستالين العلنية في منتصف العشرينات مليئة بالايماءات العامة بالمعنى نفسه ، رغم كونهـا أكثر تحفظاً. ولعل الايماءة الاكثر افادة لنا هنا موجودة في حديثه الى طلاب جامعة سفيردلوف في التاسع من حزيران ١٩٢٥ . يتعرض ستالين ، في حديثه هـذا ، الى الخطط السياسية الداخلية التي ينبغي على روسيا السوفييتية انتهاجها « إذا لم تهب لنجدتها الثورة الاجتماعية

للبروليتاريا الغربية في غضون الخمس عشرة سنة القادمة » . ويفترض ستالين ، في معرض تفصيل هذه الخطط ، عزلة روسيا السلمية طوال عشرين سنة ، أي حتى عـــام ١٩٤٥ . وجدير بالذكر ، ان هذا الافتراض لم يكن واحداً بين افتراضات عديدة اخرى ، بل الافتراض الاساسي الذي بنى عليه سياسته . كان مستمعوه شيوعيين شباب متحمسين ، يعطف العديد منهم على المعارضة اليسارية التي تستهجن مجرد الافتراض بان الثورة العالمية قد تتأخر الى هذا الحد . وكان يبدو ، في المقابل ، ان إمكان سلم طويل الى هذا الحد أمر مستبعد التصديق ايضاً . فاضطر المتحدث الى ان يأخذ جو مستمعيه بعين الاعتبار ،وان يبسط آراءه بحذر . لكن ، ما من شك في انه كان يعتقد ، في قرارة نفسه ، ان عزلة روسيا سوف تطول أكثر من ذلك .

واستلزم موقفه هـــذا تسخير سياسات الكومنترن تدريجياً لمتطلبات الدبلوماسية السوفييتية . كانت الدبلوماسية ايام لينين اشبه ما تكون بفصيلة من الفصائل التـــابعة للكومنترن . فلا بد اذاً من عكس الآية . وهكذا تحولت الاحزاب الشيوعية من« طليعة الثورة العالمية » الى فصيلة من «حرس الحدود» مسالمة الى حد كبير ، تصون حدود روسيا السوفييتية – على حد تعبير تروتسكي . رأى ستالين ان المجازفة **بحقيقة** الاشتراكية في بلد واحد في سبيل **شبح** الثورة في الخارج ، ضرب من الجنون ليس إلا . فواجَه القـــادة البلاشفة المسألة الاساسية التالية : الى أي مدى يمكن القول ان الاشتراكية في بلد واحد حقيقة أكيدة ؟ والى أي مدى يمكن القول ان الشيوعية العالمية مجرد وهم من الاوهـــام ؟ فانقسموا على انفسهم في معرض الاجابة عليها . ظل تروتسكي متمسكـــاً ، حتى آخر ايام حياته ، بالاعتقاد ان الشيوعية العالمية ، على الرغم من كل نقاط ضعفها ، تنطوي على قدر من الحقيقة أكبر بكثير مما تنطوي عليه الاشتراكية في بلد واحد ، على الرغم من انجازاتها كلها . وتردد معظم القادة الآخرين المتأرجحين بين تروتسكي وستـــالين في اتخاذ موقف حاسم من هذه المسألة الخطرة . أما بالنسبة لستالين ، فان المحور المركزي لسياسته لم يتغير طوال الفترة ما بين الحربين .

ويجدر الانتباه هنا الى هذه النقطة المدهشة : إن ستالين لم يجـــد نفسه طليق اليد الى مدى يسمح له بان يعلن صراحة عن هذا المحور المركزي الذي تقوم عليه سياسته . فالقول ان العالم قد دخل حقبة الثورة الاشتراكية هـــو من اسس اللينينية . وبقدر ما احتدم

الخلاف بينه وبين البلاشفة اليساريين – الذين اتهموه بالتخلي عن التراث اللينيني – بقدر ما تعاظمت الحاجة عنده الى التحدث عن قرب اندلاع الثورة ، ولو افظياً على الاقل . فامتنع – بعد الاطوار الاولى من النزاع ، أي في عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ – عن المحاججة العلنية انطلاقاً من الافتراض ان الثورة الاشتراكية في الغرب لن تقوم إلا بعد زهاء عشرين سنة . فقد حدا بـه ضغط خصومه الى اللجوء الى الغموض والالتباس المقصودين ، أو الى المزايدة عليهم في التنبؤ باقتراب الاحداث الثورية . فباتت هذه التنبؤات الجانب الظاهري من سياسته ، وهي الغلاف الذي لا يرضى القسم الاكبر من الحزبيين القبول بآرائه بدونه . أما بالنسبة للجانب الباطني ، فقد احتفظ به لنفسه ، أو راح يناقش به زعماء بطانته . لكنه كان ضامراً في كل اعماله . وهكذا ، فالتناقض بين طرفي سياسته ما لبث ان اضفى على تصرفه مسحة من المواربة والرياء سمحت لنقاده المعادين للبلشفية بان يتهموه بالتخطيط للثورة العالمية ، مثلما سمح لنقاده البلاشفة ، في المقابل ، بان يتهموه بالعمل ضدها .

* * *

ان انهيار الحركة الشيوعية الالمانية عام ١٩٢٣ عامل حاسم عجّل في تبلور تلك المجموعة من الافكار التي تسمى الستالينية . ففي صيف ذلك العام ، جرى نقاش حاد في المكتب السياسي وفي لجنة الكومنترن التنفيذية حول الازمة الالمانية الناجمة عن احتلال الفرنسيين للراينلاند والتدني المتسارع في قيمة العملة الالمانية . فرأى بعض البلاشفة في ذلك اشارة الى اقتراب موعد « الاكتوبر الالماني » . وصل هنريك براندلر ، زعيم الحزب الشيوعي الالماني ، الى موسكو للتداول مع لجنة الكومنترن التنفيذية حول امور الستراتيجية والتكتيك . وفي هذه المناسبة ، ألقى ستالين لأول مرة بثقل نفوذه المتزايد في الكومنترن من اجل البت في موضوع حاسم . كان رأيه بالوضع الالماني ، الذي بسطه في رسالة الى زينوفييف وبوخارين ، يتسم بالشك البالغ في قدرة الحركة الشيوعية الالمانية على الانتصار . فراح يعدد جميع الظروف الاستثنائية التي ساعدت البلاشفة في ثورة ١٩١٧ ، وخلص الى القول :

« ان مثل هذه الظروف ليست متوافرة حالياً بالنسبة للشيوعيين الالمان . صحيح انهم ينعمون بجوار دولة سوفييتية ، وهذا ما كنا نفتقده . ولكن ، ما

عسانا نقدم لهم ؟ ... اذا سقطت الحكومة في المانيا... واستولى الشيوعيون على الحكم ، فانهم سرعان ما يسقطون بدورهم » .

وحذر المكتب السياسي من التشجيع على قيام تظاهرات شيوعية رعناء في المانيا . فقد تستغلها البرجوازية والجناح اليميني من الاشتراكيين الديمقراطيين (« وكل الفرص الى جانبهم ») ،فيحولونها الى معركة شاملة قد تنتهي بافناء الشيوعيين . « أعتقد انه ينبغي لجم الالمان (أي الشيوعيين الالمان) بدلاً من تحريضهم » . فالفارق بين الفرص التي ساعدت البلاشفة عام ١٩١٧ وبين وضع الشيوعيين الالمان عام ١٩٢٣ يكمن، بنظرستالين، في ان البلاشفة كانوا يحظون بتأييد شعب يحن الى السلم ، ودعم فلاحين متعطشين الى الاستيلاء على ممتلكات أسياد الارض . والذي يمكن استنتاجه من محاججته هذه هو ان لا أمل للشيوعيين الالمان بالاستيلاء على السلطة في عام ١٩٢٣ أو حتى في المستقبل القريب ، ذلك انه يتعذر عليهم كسب تأييد الفلاحين بالقدر الذي كسبه البلاشفة عام ١٩١٧ . كما يمكن الاستنتاج انه ينبغي عليهم الانتظار الى ان تُهزَم المانيا في حرب مقبلة . إلا ان ستالين اغفل الظرف الوحيد الذي من شأنه مساعدة الشيوعيين الالمان أكثر من غيره ، ألا وهو الدور الكبير جداً الذي تستطيع الطبقة العاملة الصناعية ان تلعبه في المانيا ، وهو دور أهم بكثير من الدور الذي لعبته نظيرتها في روسيا .

مع تزايد الغليان في المانيا ، في بحر العام،رجحت كفة دعاة العمل الثوري من الروس، فراحوا « يحرضون » الالمان . اذاك سحب ستالين شكوكه وتخوفاته ، ولاذ بالصمت . وأفسح المجال امام تروتسكي وراديك وزينوفييف،وهم مختلفون فيما بينهم ، لكي يتورطوا. فعاد براندلر الى المانيا حاملاً تعليمات غامضة ومتناقضة : فعليه تنظيم الثورة ضد الاشتراكيين الديمقراطيين والاشتراك معهم ، في الوقت ذاته ، في حكومة سكسونيا الاشتراكية الديمقراطية ؛ وعليه ان يُعلن الثورة في مقاطعة سكسوني وليس في العاصمة أو في أي مركز هام آخر ، وما الى هنالك من التعليمات الكفيلة بان تفوّت على أي حزب ثوري ، مهما كان ، اعظم الفرص . فأفضت المحاولة الى سلسلة من التحركات غير المتناسقة. وانتهت بالفشل . وكان لهذا الإخفاق بالغ الاثر على موسكو ، إذ اكمل عزلة الشيوعية الروسية .

لم يُحسَم امر الكومنترن طوال سنوات عديدة . فعلى الرغم من اقتناع ستالين بان

المنظمة تكاد تكون عديمة الفائدة كاداة من ادوات الثورة ، إلا انه لم يجرؤ على اعلان تبرؤ الحزب الحاكم في روسيا منها . فالعلاقات بين البلاشفة والكومنترن اقوى من ان تسمح بذلك . أضف الى ذلك الجدية البالغة التي يحمل بها الكومنترن الرسالة المناطة به .صحيح انه ينطق بلسان اقلية فقط من الطبقات العاملة الاوروبية ؛ لكنها اقلية كبيرة وهامة تشتمل على أكثر العناصر مثالية وحيوية واندفاعاً في البروليتاريا الغربية . ولكن لم يكن بد من ان يؤدي نشاطه الى احراج الدبلوماسية السوفييتية وهذا سبب من الاسباب التي حدت بستالين الى محاولة ترويض المنظمة الجموحة. أما السبب الآخر ، فهو الاثر الذي قد يتركه الكومنترن على النزاعات الداخلية في روسيا . ففي تلك السنوات ، كان القادة الشيوعيون الاوروبيون ، رغم قبولهم بتوجيه الخبراء البلاشفة الناجحين في امور الثورة ، لا زالوا يتحدثون اليهم كأنداد ، معتبرين ان ابداء الرأي في الشؤون الروسية حق طبيعي يتمتعون به . وقد وقف معظمهم اول الامر الى جانب تروتسكي ضد ستالين ، الى جانب البلاشفة ذوي النظرة الاوروبية الى الامور ضد جماعة امناء السر الروس المنكفئين على انفسهم . وهكذا ، فقد اضطر ستالين لأسباب محلية ولأسباب دبلوماسية ايضاً الى ان يعتمد في داخل الكومنترن ــ المعتاد على الحوار في داخله بين مختلف التيارات والتقاليد والآراء ــ الوسائل ذاتها التي اعتمدها لاعادة تنظيم الحزب وصهره في كيان « وحداني » مطاوع .

فعل فعلته من وراء الستار ، وخاصة بالاستعانة بمعاونيه الاعضاء في لجنة الاممية التنفيذية . وخلافاً للينين الذي كان يخطب في كل مؤتمر من مؤتمرات الكومنترن ويتحمل مسئولية علنية عن سياسته ، نجد ان ستالين ، الذي لا يشغل أي منصب حكومي ، لم يخطب في أي من مؤتمراته . فهو يجلس بصمت على المنصة في الاجتماعات الاحتفالية ، بينما وفود المندوبين من مختلف القوميات تصفق له وتحييه . وهو الى ذلك ، يزدري النقاشات الايديولوجية الكبرى التي كان لينين يخوض غمارها بشغف واندفاع ؛ ويعتبر المؤتمرات العادية مضيعة للوقت . خلال السنين الاربع التي كان فيها لينين على رأس الحزب،عُقدت اربع مؤتمرات اممية كاملة . اما خلال السنوات الخمس والعشرين من عهد ستالين فلم يُعقد فيها إلا ثلاثة مؤتمرات : الاول في عام ١٩٢٤ ، وقد صادق على ادانة التروتسكية ؛الثاني في عام ١٩٢٨ ، وقد تم فيه القضاء على نفوذ بوخارين واليمين البلشفي ؛ والثالث في عام ١٩٣٥ ، وهو المؤتمر الذي اعتمد سياسة الجبهات الشعبية . في عهد ستالين ، انتقل مركز

الثقـــل من المنظمة ككل الى لجنتها التنفيذيـــة . وكما في الحزب الروسي ، كذلك في الكومنترن : كانت الغلبة المطلقة للجهاز على المنظمة بأسرها .

وبديهي ان كل العمل الذي قام به ستالين لانشاء هذا الجهاز وتدعيمه جرى في السر . تخلّص من اصحاب التفكير المستقل ، من المتمردين والمنظرين ، والمثقفين الراديكاليين ، ومن قادة الحركة الشيوعية الالمانية ابان فترة الاندفاع الثوري العفوي . كان كل من هؤلاء القادة ضالعاً في انتكاسات اوائل العشرينات فلم يكن ازاحته بالامر العسير . وقد استغل ستالين هذه « الاخطاء » و « الانحرافات » الى اقصى حد بغية التخلص من مرتكبيها . وكان تعلق الشيوعيين الاوروبيين العاطفي بالثورة الروسية ، الثورة الملعونة المهاَجمة من جميع الاطراف ، وثيقاً الى درجة ان سقوط أي قائد شيوعي ، مهما بلغ شأنه ، محتوم إذا عُرِف ان سلطة الحزب الروسي تقف ضده . لكن ستالين لم يستخدم هذه السلطة إلا في الحالات النادرة . فلجنة الكومنترن التنفيذية هي التي تتولى اصدار الاحكام والادانات . واللجنة منتخبة ديمقراطياً من قبل المؤتمرات العالمية للكومنترن . إلا ان الغلبة فيها دائماً للوفد الروسي ، الملزَم بدوره بقرارات المكتب السياسي . وستالين يتحـــكم بالغالبية في هذا المكتب ، فيسيطر بذلك على الاممية باسرها . الاعضاء الروس في اللجنة التنفيذية لا يملكون ، اسمياً ، أي امتيازات على ممثلي الاحزاب الاجنبية . إلا ان سلطتهم المعنوية حاسمة . وعندما لا تكون السلطـــة المعنوية كافية ، يُلجأ الى ضغوط اخرى لسحق المعارضة . كأن يعيَّن القادة الاجانب المتمردون ، بكل إكرام ، للعمل في مقر القيـادة العامة للاممية في موسكو ، حيث يسهل السيطرة عليهم وعزلهـــم عن اتباعهم ، فيؤَلب الرأي العام في الاحزاب الاخرى ضدهم ، ويشجع خصومهم ويرفعون في احزابهم نفسها . وإذا ظل لأحد « المنحرفين » بعض النفوذ في حزبه ، على الرغـم من كل المناورات ضده التي يلعب تشويه السمعة فيها دوراً بارزاً ، يمتنع امناء صندوق الكومنترن عن دفـــع المساعدات المرصودة للحزب المعني بالامر . إلا ان فاعلية هذا الاسلوب في الضغط محدودة وثانوية (*) . فاسطورة الثورة الروسية ، مادتهـــا الراسخة الدائمة بالاضافة الى الاساطير

(*) ان تقديم المساعدات لمختلف فروع الكومنترن كان شبه معدوم اول الامر . كان على كل فرع ان يساهم بحصته الى مالية المنظمة ، ثم يسحب منها حسب حاجاته. وهذا هو الاجراء الذي درجت عليه الاممیتان ←

المرحلية المنسوجة حولها ، هي التي مكنت ستالين من ان يتمتع بهذا القدر من السطوة على عدد واسع من الاحزاب الاجنبية ، هذه الاحزاب التي يغلب فيها بكثير عددُ السعاة المثاليين الى نسق حياة جديدة على عدد الانتهازيين . وحتى هؤلاء الانتهازيون انفسهم ليسوا بالانتهازيين إلا بقدر : فهم على استعداد لخدمة أي سيِّد كان ، ولكن شريطة ان ينطق بلسان السلطة الثورية العليا . وقد تمكن ستالين ، على مر السنين ، من ان يقولب ضيوفه حسب آرائه الخاصة . والسبب الاول في ذلك يعود الى استعداد هؤلاء لخدمة قضية كبرى ، قضية يعتبرون ، عن خطأ أو عن صواب ، ان السوفييت هم تجسيد لها ، قضية هي في نظرهم ابسط وأعظم من كل الخلافات داخل المكتب السياسي الروسي ، من التنقلات داخل الكومنترن ، من مناورات الدبلوماسية الروسية ، لا بل أبسط وأعظم من الظلال القائمة للواقع الروسي البعيد .

هكذا ، فالكومنترن لم يكن يتألق بفعل عكسه لنور الحزب الروسي وحسب ، بل كان يعكس كلاً من التحالفات الداخلية فيه على التوالي . بحيث ان كل من يحاول فهم تاريخ حزب شيوعي ما ضمن نطاق بيئته الاقليمية وحدها ، مصيره الفشل المحتوم . فهذا يحول دون إمكان تفسير التغيرات المتعددة التي تطرأ على الخطة السياسية ، وتفسر اختفاء بعض القادة وبروز غيرهم ، وفهم الاصلاحات في البنية التنظيمية . لذا ، ينبغي البحث عن اصل هذه الامور كلها في القضايا التي استحوذت على اهتمام الامانة العامة الروسية بدلاً من البحث عنها في الصراعات الاجتماعية المحلية . بينما الثلاثي الحاكم يتصدى لتروتسكي ، كان شبح التروتسكية يخيِّم على الكومنترن . وإذا بالقادة الذين أيدوا رئيسهم

← الاوايتان، الثانية والاولى، بدرجات متفاوتة ؛ فحال دون بروز الرشوة والفساد . ولكن بما ان الموارد المالية للحزب الروسي تفوق بكثير موارد الفروع الاخرى ، ما لبث الكومنترن ان اضحى معتمداً عليها الى حد ما . اما الاحزاب الاجنبية الكبيرة ، فظلت قادرة على اكفاء نفسها بنفسها . لكن موسكو اخذت تشجعها على ان تصرف على شؤون التنظيم والدعاية فوق طاقاتها ؛ فما لبثت ان تضخمت اجهزتها الادارية وازدادت حاجتها الى المساعدات . ولأنها اعتادت الحصول على المال بسهولة ، نزعت الى اغفال تحصيل الاموال من اعضائها ، الامر الذي ترك اثراً سيئاً على معنوياتها . وبينما يذهب البعض الى تضخيم الدور الذي لعبه « ذهب موسكو » في تشجيع الشيوعية في الخارج ، فصحيح ، رغم ذلك ، ان المساعدات لعبت دوراً بارزاً في جعل القيادات الشيوعية الاجنبية مطواعة لتوجيهات ستالين .

زينوفييف ، فكرياً وعاطفياً ، يضطرون ، بعد حين ، الى الاختيار بين المساهمة في ادانته وبين الامحاء . طوال فترة تحالفه مع ستالين ، كان بوخارين ابرز شخصية في الاممية . يعلن السياسات الجديدة ويختار الموظفين من بين الشيوعيين الاجانب الموالين لجبهة تحالف الوسط واليمين في الحزب البلشفي . ولكن بعد ان انفرط عقد هـذه الجبهة ، كان على الاممية ان تعاني من الام حملة « بلشفة » جديدة .

* * *

ها هو ستالين إذاً يسعى لاعادة تكييف منظمة موروثة عن الفترة الثورية لتتلاءم مع ما يعتبره فترة ركود في العملية الثورية . فقد ولدت الاممية ، والثورة في اوج مدّها ، من انشقاق الحركة الاشتراكية ؛ وكانت تأمل بالانتصار على الجناح الاصلاحي من الحركة العمالية . ما الذي يتلاءم مع فكرة ستالين الحالية حول استقرار النظام الرأسمالي أكثر من فكرة التقارب بين جناحي هذه الحركة العمالية نفسها : الامميتان الثانية والثالثة ؟ إذا كان تشخيصه للامور صحيحاً ، فلا عمل للاممتين ، في الوقت الحاضر ، غير انتزاع الاصلاحات والتنازلات من الطبقات المالكة بشيء من التصميم . على هذا الاساس يمسي العمل المشترك بينهما أمراً ممكناً ؛ وقد يؤدي تعاونهما الى ردم الهوة الفاصلة بينهما . على هـذا النحو ، جرى تسيير شؤون الكومنترن خلال فترة تحالف ستالين وبوخارين وشراكتهما في الحكم . السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) آخذة بالانتعاش في روسيا. والحزب الحاكم يحضن الزراعة والتجارة الفرديتين ضمن إطار الاقتصاد المشترك . ويبدو ان النزعة « الفابية » في هذا الوقت قد تطلبت انتهاج خط معتدل في الخارج كذلك ، مع ان هذا يتناقض مع طبيعة الكومنترن نفسها .

في أواسط العشرينات ، استحوذت مسألتان على القسط الاوفر من اهتمام ستالين : الثورة الصينية ، وموقف النقابات الروسية من النقابات البريطانية . كانت الثورة الصينية قد انجذبت ، منذ ايامها الاولى ، نحو الثورة الروسية . فقد حث صن يات صن ، مؤسس الكيومنتانغ ، أتباعه على توثيق عرى الصداقة بين الثورتين . وعلى اثر وفاة صن يات صن ، بعث ستالين بالرسالة التالية الى الكيومنتانغ : « إن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي تؤمن بان الكيومنتانغ سيبقي راية صن يات صن خفاقة عالياً في الصراع العظيم

من اجل التحرر من الاستعمار ، وانه سيحمل هذه الراية بشرف الى ان يتم الانتصار الكامل على الامبريالية وعلى عملائها في الصين » . أُرسِل المستشارون الروس لمساعدة الجنرال تشانغ كاي تشيك في عملياته الحربية . وصدرت التعليمات من موسكو الى الشيوعيين الصينيين للانضمام الى الكيومنتانغ ، والى « جبهة الطبقات الاربع » ، بوصفها عنصراً من عناصره . ومُنح الكيومنتانغ مقعداً في لجنة الكومنترن التنفيذية مع كل حقوق العضو المراقب .

هنا برزت المشكلة التالية : ما هي طبيعة الثورة الصينية ؟ ماذا ينبغي ان تكون اهدافها ؟ ما هو الدور الذي ينبغي على الشيوعيين ان يلعبوه فيها ؟ إن اماني الصينيين القومية ، ورغبتهم في التحرر من الوصاية الغربية ومن الانعزالية الاقطاعية المحلية هي الطاقة الدافعة للحركة التي تصرفت أول الامر كقوة موحدة . لكن هذا السطح كان يخفي وراءه الانقسامات الاجتماعية بين الجنرالات والفلاحين والتجار والعمال. وقد اتسعت الانقسامات وازدادت حدة مع الوقت. فباتت الطبقة العاملة أقوى عامل سياسي في المدن الصناعية والتجارية على الساحل الصيني .

هل هي ثورة اكتوبر الصينية ؟ أجاب ستالين وبوخارين بالنفي ، في حين أجاب تروتسكي بالايجاب . إذا لم يكن بد من البحث عن سابقة لأحداث الصين من التاريخ الروسي ، فستالين يؤثر البحث عنها في ثورة ١٩٠٥ عندما كان البلاشفة يقولون ان روسيا ليست ناضجة بعد لقيام نظام اشتراكي ، فلا يمكنها بالتالي ان تطمح لأكثر من ثورة برجوازية . فاستنتج ستالين من ذلك ان كل ما تستطيع الثورة الصينية حالياً هو ثورة برجوازية ليس إلا . فاستعاد بذلك تلك النزعة « البلشفية القديمة » التي ادانها لينين في نيسان ١٩١٧ ، بالرغم من انه لم ينجح كلياً في استئصالها من اذهان بعض اتباعه . وما دامت مهمة الثورة الصينية هي توحيد الصين وتحديثها وإحراز استقلالها الوطني ، لا بناء الاشتراكية فيها ، فلا يجوز للشيوعيين الصينيين ، بنظر ستالين ، ان يسعوا الى اقامة دكتاتورية البروليتاريا . بل ينبغي عليهم العمل بالتعاون مع الطبقات الوسطى والفلاحين والجنرالات الوطنيين التقدميين. فصدرت التعليمات الى الحزب الشيوعي في الصين للانصياع لنظام الكيومنتانغ الصارم ، وهو قد اضحى مجرد جناح من اجنحته . ثم سخّر ستالين كل جهاز الدعاية السوفييتي من أجل ابراز الجنرال تشانغ كاي تشك وبناء عظمته بوصفه

زعيم الانبعاث القومي في الصين بلا منازع . وأضاف ستالين الى تحليله هذا انه ينبغي على الحكومة المنبثقة من الثورة الصينية ان تكون «دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية». وتشير هذه الموضوعة ، التي صاغها لينين عام ١٩٠٥ ، الى وضع خاص يكتسب كل معناه في البلدان « المتخلفة » حيث يناضل الاشتراكيون الماركسيون في صفوف ثورة معادية للاقطــاع وحسب ، ويتقاسمون السلطة مع ممثلي الطبقة الوسطى الثورية والفلاحين الثوريين .

وسرعان ما تجددت الخلافات حول هذه الموضوعة ، الخلافات القديمة المعهودة وشبه السكولاستية . أدان تروتسكي تحالف ستالين مع تشانغ كاي تشك ، وحث الشيوعيين الصينيين الى السعي نحو اقامة دكتاتورية بروليتارية صرفة . أما زينوفييف وكامينيف ، المتشبثان بالتقاليد اللينينية لعام ١٩٠٥ ، فقد أقرا موضوعة « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » ، لكنهما انتقدا سياسة ستالين على اساس انهــا تخضع الحركة الشيوعية الصينية لقيادة الطبقة الوسطى . فأثار الخلاف حمــاساً ومرارة شديدين ، وعجّل من الانشقاق النهائي بين ستالين وتروتسكي .

في تلك الاثناء ، كانت «جبهة الطبقات الاربع» في الصين آخذة بالتفكك هي ايضاً . ان نمو الحركة الشيوعية الصينية ، على اعتدال سياساتها ، ما لبث ان ارعب تشك وزملائه من قادة الطبقات الوسطى . فتخلص هذا برعونة من حلفائه المحرجين : اعاد المستشارين العسكريين الروس الى بلادهم ، وقمــع بوحشية الشيوعيين العاملين تحت إمرته . فإذا بموقف ستالين ومكانته يتزعزعان ، لفترة من الزمان على الاقل ، نتيجة ضلوعه في دعم تشانغ . فحاول انقاذ ما يمكن انقاذه من حطام سياسته الصينية . فطلب من الشيوعيين الصينيين التحالف مع الجناح الليبرالي وشبه اليساري ، من الكيومنتانغ الذي كان قد شكل حكومة مستقلة في هانكاو مناوئة لشانغ كاي تشك . ولكن سرعان ما انهار هذا التحالف بدوره . فالشيوعية — حتى وهي تحاول إنكار اصلها والتكيف مع حلفائها من الطبقة الوسطى، وتتدرب على فنون الاعتدال والمساومة، وتبدّل من رموزها وتعابيرها— لم تنفك تثير الذعر والرعب بين صفوف قادة الطبقات الوسطى وأحزابها . فهي تحمل لعنة (او بركة) اصلها ، ودفعة الثورة . وهي دفعة تثير الرعب او الرجاء . ولكن ما من مواربة تكتيكية تفلح في اخفائها ، كما ان ما من Scouring ، مهما بلغت قوته ، ينجح في محوها .

وانتهت تجربة رئيسية اخرى في الاعتدال الى مثل ما انتهت اليه التجربة الصينية . نعني تجربة المجلس الانكليزي – الروسي للنقابات الذي تأسس في ايار من عام ١٩٢٥ . كان المكتب السياسي يأمل بان تستخدم النقابات البريطانية ما لها من نفوذ من اجل تحسين العلاقات الانكليزية – الروسية المتأزمة . فأرسل ستالين تومسكي ، وهو واحد من اقوى اعضاء المكتب السياسي ، لحضور المؤتمر السنوي لاتحاد النقابات البريطانية في « هل » . وذلك على امل بان يؤدي المزيد من التفاهم مع البريطانيين الى اتفاق اشمل ما بين الاجنحة المتخاصمة في الحركة العمالية العالمية . كانت ثمة منظمة موازية للكومنترن هي البروفنترن (اممية النقابات العمالية الحمراء) تعتبر نفسها بديلاً لما يسمى « اممية امستردام العمالية » التي تنضوي تحت لوائها نقابات الغرب الاصلاحية . إلا ان إخفاق البروفنترن في تحقيق اغراضه كان اعظم من إخفاق الكومنترن . فباتت موسكو على استعداد للاقرار بالهزيمة والسعي نحو نوع من الصلح مع امستردام . فكان المؤمل ان يلعب المجلس الانكليزي – الروسي للنقابات دور الوساطة في ذلك. وراح اليمين البلشفي يمني النفس بان تتوّج مساعي المصالحة بمصالحة الاممتين السياسيتين . إلا ان ستالين ، المعروف بحذره الشديد ، لم يورط نفسه في خطط بعيدة المدى كهذه . لكنه ، مع ذلك، دعم خط بوخارين وتومسكي ودافع عنه ضد النقد القارس الذي وجهه اليه اليسار البلشفي .

إن الصداقة بين قادة النقابات الروس وقادة النقابات البريطانية لم تصمد ازاء التأزم الذي ولّده الاضراب العام سنة ١٩٢٦ . اضطر القادة الروس ، تحت ضغط المعارضة اليسارية ، الى اصدار بعض الانتقادات حول اعتدال زملائهم البريطانيين . وقد اثارت هذه الانتقادات ، على الميوعة ، انزعاجاً في الاوساط العمالية البريطانية . ففي المقابل ، كان قادة النقابات البريطانية ، تحت ضغط عارم من الرأي العام المحافظ ، قد أخذوا يتضايقون من التحالف مع البلاشفة . فرفضوا قبول التبرعات التي جمعتها النقابات الروسية كعربون عن تضامنها مع عمال المناجم البريطانيين المضربين . فأُعلِن ، بعد حين ، حل المجلس الانكليزي – الروسي ، فتلاشى معه الامل المعقود على مصالحة اشمل بين البلشفية من جهة وبين الاصلاحية الاوروبية من جهة اخرى .

هكذا اختبر البلاشفة ميادين المساومة الرئيسية ، فخرجوا بنتائج مخيبة للآمال . ففي أواخر عام ١٩٢٣ ، نبذ العالمُ البلاشفة بوصفهم ثوريين ؛ وها هو ، في أواخر عام

١٩٢٧ ، ينبذهم بوصفهم مساومين . ولم تقتصر محاولات الكومنترن الفاشلة على الصين وبريطانيا، بل شملت كل بلد اوروبي تقريباً[*] . وفي كل مكان ، كانت النتيجة هي هي : لا يلبث حلفاء الشيوعيين ان يهجرونهم ويلاحقونهم . فأثارت السياسات التسووية النفور في اوساط الشيوعيين، ومهدت الطريق امام اتجاه جديد معاكس تماماً للاتجاه القديم. وبلغ النفور حداً دفع بستالين في أواخر عام ١٩٢٧ ، في محاولة لحفظ ماء وجهه ، الى ان يأمر الشيوعيين الصينيين ، وقد اوهنهم القمع والمجازر الوحشية ، الى اعلان انتفاضة كانتون . وكان محكوماً على الانتفاضة بالفشل سلفاً ، وقد أدت فعلاً الى مجزرة جديدة ضد «الحمر». ولما تأكد سوء طالع السياسات المعتدلة ، سعى الكومنترن الى تعديل خطه السياسي ، فغاص لفترة في سياسة « صبيانية يسارية » مغالية . وقد ذهب الحزب الشيوعي الالماني بهذه السياسة اليسارية المغالية الى ابعادها الانتحارية في موقفه من النازية الصاعدة .

ان السبب الآخر للتغير الذي طرأ على خط الكومنترن ، وهو بالتأكيد أكثر فاعلية وأهمية من النفور الذي عم صفوفه ، هو التحالف الجديد الذي قام في الحزب الروسي في عامي ١٩٢٨ و ١٩٢٩ . كان ستالين ، في ذلك الحين ، يقمع اليمين البلشفي . فلم يصمد امام عملية القمع أي مفهوم سياسي أو شعار من المفاهيم أو الشعارات التي صدرت عن بوخارين أو تومسكي أو ريكوف . الخلاف يدور حول قضايا روسية : « النيب » ، التصنيع ، تجميع الزراعة ، وغيرها . إلا ان « الانعطاف الجبار نحو اليسار » في الحزب الروسي ما لبث ان انتقل فوراً الى اوساط الكومنترن حيث كان بوخارين متزعماً . كان بعض الشيوعيين الاجانب يعطفون على موقف بوخارين ، فلم يكن بد من ان ينقل ستالين المعركة ضده الى صميم الاممية . رُسمت سياسات جديدة للاحزاب الاوروبية ، تتلاءم ، ظاهرياً على الاقل ، مع الاتجاه الجديد السائد في روسيا . انتهى التعاون بين الشيوعيين من جهة وبين المزارعين المستقلين والتجار من جهة اخرى . فكانت الحصيلة الرسمية لذلك ان يقلع الشيوعيون الاجانب عن التعاون مع الاحزاب الاخرى، والاشتراكية الديمقراطية منها خاصة .

(*) في بولونيا ، مثلا ، تعاون الشيوعيون والاشتراكيون مع بيلسودسكي لإنجاح انقلابه عام ١٩٢٦ ، وسلكوا الطريق ذاته في رومانيا وبلدان البلقان الاخرى .

ان انتقال ادنى حركة أو ردة فعل من الحزب الروسي الى الاحزاب الاخرى لهـو ابرز وأغرب نشاز في حياة الكومنترن . وهو الشواذ الذي تحول الى قاعدة . لهذا خيّم جو من الاصطناع على العديد من نشاطات الكومنترن . لم يكن « الانعطاف اليساري » عملاً صادقاً وحسب ، بـــل اكتسب صفة الحدث الوطني العام الذي اعاد تركيب البنية الاجتماعية لروسيا الشاسعة من الاساس . فاذا بنا نجد وراء أدنى تغير في خط الحزب كل جبروت هذه الدولة العظيمة يحوّل الكلمات والشعارات الى افعال دائمة . ولكن الى ماذا افضت هذه التغيرات والانعطافات على صعيد الـكومنترن ؟ الى تقليد تافـه ، في احسن الاحوال . فكأننا بروسيا قامة مصارع عملاق يشترك في معركة ملحمية جبارة ، ويلقي حوله الظلال بالعشرات : كلها تقلد المصارعة الحامية الوطيس ، كلها تقلد الحركات العنيفة للجسم الحقيقي ، كلها تدعي زعزعة السماء والارض . والذي يزيد من غرابة هذه الصورة ان الفروع الاجنبية للكومنترن لم تكن مجرد ظلال . كل واحد منها نصفه جسم حقيقي ونصفه الآخر ظـل . فهي ، في جانب من جوانب حياتها ، تغوص في وقائع حياتهـــا القومية ، وتحاول التعبير عن تطلعات طبقاتها العاملة ؛ وهي ، في الجانب الآخر ، تشارك في رقصة الاشباح المحمومة حول الامين العام .

* * *

في كانون الاول من عام ١٩٢٧ ، على اثر طرد تروتسكي وزينوفييف وكامينيف من الحزب ، إذا بستالين يفاجىء المؤتمر الخامس عشر للحزب باعلانه ان فترة « استقرار » الرأسمالية قد انتهت . قال :

« لسنتين خلتا ، كان بوسع المرء ان يتحدث عن فترة من التوازن النسبي بين السوفييت وبين البلدان الرأسمالية ، وعن إمكان « التعايش السلمي » بينهما » .

أما الآن ، لنا كامل الحق في القول ان فترة « التعايش السلمي » قد طواها الماضي ، مخلية المجال امام حقبة من الهجمات الامبريالية والاستعدادات لغزو الاتحاد السوفييتي . لم يجرؤ ستالين على محاولة الملاءمة بين هذا الرأي الجديد وبين تكهنه السابق عن خمسة عشر أو عشرين عاماً من « التعايش السلمي » . إن المؤتمر السادس للكومنترن ، المنعقد في صيف ١٩٢٨ ، تبنى موضوعة ستالين الجديدة كعماد سياسة جديدة ، وهو المؤتمـر الذي

فاجأ ستالين المندوبين الاجانب فيه بخلع بوخارين بعد التهيئة له خلف الكواليس .

تنبأ المؤتمر بدنو ازمة اقتصادية فاجعة في البلدان الرأسمالية . (هـــذا التنبؤ ، الذي أُعلن بموافقة ستالين ، تأكد ، على نحو مذهل ، في العـــام المقبل عندما اصيبت الولايات المتحدة بأزمتها الاقتصادية الكبرى) فصيغت خطط تكتيكية جديدة بناء على هـــذه المسلمات . توقع المؤتمر سلسلة كاملة من الانفجارات الثورية . وأعلن ان الفرصة قد حانت لكي تشن الاحزاب الشيوعية الغربية هجومها الأخير على الرأسمالية . وأُعتبرت الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الاصلاحية ، وقد عمدت باسم جديد : الاحزاب الاشتراكية — الفاشية ، ألد اعداء الشيوعية . كما اعتبرت اجنحتها اليسارية عقبات اكبر في وجه الثورة الاشتراكية من اجنحتها اليمينية . وكل تعاون أو اتصال بين الشيوعيين وبين القـــادة الاشتراكيين الديمقراطيين جالب للعدوى . هكذا ، يكون دور الكومنترن ان يعبىء صفوفه للمعركة الشاملة ، معتمداً على قوته وجاذبيته الخاصتين .

من المشكوك به جداً ، على اقل تقدير ، ان ستالين كان مؤمناً بحتمية انفجار جميـــع البراكين الثورية كما يبشر به دعاته . صحيح ان معرفته ليست واسعة بشؤون البلاد الاجنبية ، إلا انها ليست من الشحة بحيث تجعله يشاطر مؤتمر الكومنترن السادس اوهامه الثورية المغالية . فكأننا به يتجاهل كل ابواق الكومنترن ، عندما زاد في التشديد على ان « الاشتراكية في بلد واحد » هي الهدف الاسمى ، وعندما جعله ملزماً ليس على حزبه وحسب ، بـــل وعلى الكومنترن بأسره ايضاً . وها هو الآن يولي بناء مصنع جديد في روسيا اهتمامـــاً أزود بكثير من الاهتمام الذي يوليه لكل التوقعات العامة حول الثورة في الخارج (*) . كانت دبلوماسيته تتلمس طريقها بحذر يزيد عن ذي قبل ، وتواصل عملها على اساس افتراض عـــزلة روسيا المديدة . ويمكن تبيان تناقض لا ينكر بين اتجاهين من اتجاهات سياسته : الاتجاه الاول يمارسه في روسيا ، أما الثاني فيسيِّر الكومنترن عليه . وليس من العسير ان يفطن المرء ما هو الاتجاه الذي يغلـّبه ستالين على الآخر .

(*) « إن جراراً سوفييتي الصنع يساوي اكثر من عشرة شيوعيين أجـــانب جيدين » . هذا طراز من العبارات تردد كثيراً على ألسنة البلاشفة البارزين ايام الخطة الخمسية الاولى . والعبارة تعكس المغزى العـــام للحديث الحميم حول الكومنترن الدائر في اوساط بطانة ستالين .

الكومنترن يخوض معركة هزلية حقاً . فخطه الراديكالي المتطرف من العبث بحيث يمكن الترجيح ان ستالين لم يوافق عليه إلا لأنه لم يكن يكترث فعلاً لعمل الكومنترن في تلك الفترة . وإذا كان هذا هو اعتقاده ، فما من شك في انه ارتكب خطأ فادحاً ، لأن راديكالية الكومنترن المغالية افضت الى نتائج هامة ، رغم كونها جميعاً سلبية . وهذا هو الحال في المانيا خاصة ، وهي الميدان الرئيسي لاختبار السياسة الجديدة ، حيث يتهدد الحركة العمالية خطر صعود النازية السريع . فالانشقاق بين الاشتراكيين الديمقراطيين الذين فزعوا الى هايدنبرغ ليحميهم من هتلر ورفضوا التعامل مع الشيوعيين من جهة وبين الشيوعيين الذين يرون في الاشتراكيين الديمقراطيين خطراً عليهم أعظم من الخطر النازي من جهة اخرى ، هذا الانشقاق غير العقلاني إطلاقاً ما لبث ان شل الطاقة السياسية للطبقة العاملة في حين كانت هذه القوة الوحيدة القادرة على قطع الطريق على محاولة هتلر الاستيلاء على الحكم . ليس هنا المجال للغوص في تفاصيل قصة انهيار جمهورية فايمار ، وهي القصة التي انتهت باستسلام اقوى المنظمات العمالية في القارة الاوروبية امام ذوي القمصان البُنِّية دون اطلاق رصاصة واحدة ، ودون عمل واحد ينم عن مقاومة فعلية . يكفي التذكير بأن احد الاقوال التي شاعت بين اليساريين الالمان بعد هذه الكارثة هي التالية : « لولا ستالين لما كان هتلر » . ينبغي الاخذ بهذه العبارة مع شيء من التحفظ . فقد نزع معظم قادة اليسار الالماني ، وهم في معمعان الفاجعة التي انتابتهم بعد عام ١٩٣٣ ، الى القاء تبعات اخفاقهم على تأثير ستالين السيء . ومهما يكن من امر ، ينبغي على ستالين ، وهو ملهم سياسة الكومنترن ، ان يتحمل قسطه من المسؤولية على اسهام سياسته هذه ، عن غير قصد ، في انتصار هتلر .

النتيجة الواضحة التي يمكن استخلاصها في جميع وثائق الكومنترن في اوائل الثلاثينات ومن اقوال ستالين نفسه هو انه قد فاته معنى النازية وطاقتها التخريبية . فهتلر ، بنظره ، واحد من العديد من القادة الرجعيين الذين تقذف بهم ارجوحة السياسة الى الاعلى تارة لتنزل بهم طوراً ، ثم تعود فتقذف بهم الى اعلى مجدداً . انه شبيه ببرونينغ أو باپن ، ببولدوين أو هاردنغ . هكذا اغفل ستالين ما يكمن في النازية من تطلعات كلية (توتاليتارية) ، كما اغفل قوتها القادرة على تحويل هذه التطلعات الى افعال . وقد صاغ آراءه حول الفاشية ، في الجوهر ، منذ عام ١٩٢٤ ، إذ قال :

« ليس صحيحاً ان الفاشية هي منظمة مقاتلة تابعة للبرجوازية فقط ... إن

الفاشية هي منظمة مقـــاتلة تابعة للبرجوازية وتحظى بدعـم فعلي من الحركة الاشتراكية الديمقراطية . فالحركة الاشتراكية الديمقراطية ، موضوعيـــاً ، هي الجناح المعتدل من الفاشية . فليس من داعٍ إذاً للافتراض بان المنظمة المقاتلة التابعة للبرجوازية قادرة على احراز انتصارات حاسمة . . . بدون دعم الحركة الاشتراكية الديمقراطية الفعلي لها . كما وان لا اساس من الصحة للظن بان الحركة الاشتراكية الديمقراطية قادرة ، بدورها ، على احراز انتصارات حاسمة ... إذا هي لم تلقَ الدعم الفعلي من المنظمة المقـــاتلة التابعة للبرجوازية . ان هاتين المنظمتـين لا تتناقضان ، بل تكمّل احداهما الاخرى ، ليسا على طرفي نقيض ، بل همـــا توأمان .... ان الفاشية هي الجبهة السياسية الهلامية القائمة على تحالف هاتين المنظمتين الرئيستين ، وهي جبهة تكونت خلال ازمة الامبريالية بعد الحرب ، ابان نضالها ضد الثورة البروليتارية » .

يمكن القول ان هذه العبارات تمثل أكمل مساهمة لستالين في فهم الفاشية أو الاشتراكية الوطنية . وكل ما فعله في السنوات اللاحقة هو انه ردد هذا الرأي مرة أو مرتين، بغموض أكثر ، ولكن دون تعديل يذكر . ولاكَ منظّرو الكومنترن وكتّابه عبارته : « ليسا على طرفي نقيض ، بـــل هما توأمان » طوال سنوات عديدة ، دون ان يقدموا تفسيراً معقولاً واحداً لهذه القوة الجديدة التي راحت تزعزع اركان بنية اوروبا السياسية القديمـة تحت وطأة زحفها . وحتى بعد تسلم هتلر زمام الحكم، ظل الناطقون بلسان ستالين يثرثرون عن « معاهدة » قائمة بين النازيين والاشتراكيين الديمقراطيين ، ويتنبأون بانهيار نظام هتلر المحتوم الذي ستعقبه فترة من الانتصارات الشيوعية . وبعد مضي عـام بأكمله على وجود هتلر في الحكم اذا بستالين ، وقد تنبأ سابقاً ببذرة الحرب الكامنة في صلب النازية فأثبتت الاحداث صحة نبوءته ، يطمئِن المؤتمر السابـع عشر للحزب ، بشيء من الغموض ، بأن « الازمـــة الثورية تنضج وان النازية ليست ببعيدة » . إلا ان الشيء الوحيد الذي لم يتكهن به ، وهو عين ما دأب الناطقون بلسانه على إثبات استحالته ، هو ان هتلر سوف يحطم الحركة الاشتراكية الديمقراطية مثلما حطم الحركة الشيوعية ، وان الفاشية سوف تبعث بـ « توأمها » الى غياهب معسكرات الاعتقال وتحتكر السلطـة بمفردها . ولكن يجدر التنبيه الى ان ستالين لم يكن الوحيد في ارتكاب هـــذا الخطأ . فقادة الحركة الاشتراكية الديمقراطية كانوا يأملون ، من جهتهم ، بان يتوصلوا في نهاية المطاف الى هدنة

مع هتلر ، بينما راح المحافظون الالمان والبريطانيون والفرنسيون، ممن يعطفون على النازية، يمنون النفس بان هتلر سوف يلعب لعبته حسب قواعدهم هم .

ما من دارس لهذه الفترة إلا ويلاحظ الفارق المذهل بين ما افصح عنه ستالين في هذا الامتحان العسير من قـلة فهم وشحة خيال ، وهو الذي يملك تحت تصرفه كل موارد الاستعلام التي تتمتع بها دولة كبرى كروسيا فضلاً عن منظمة دولية واسعة ؛ وبين نفاذ البصيرة وحس المسؤولية اللذين اتسمت بهما ردة فعل تروتسكي حيال الازمة ، وهو قابع وحيداً في منفاه المستوحش بجزيرة برينبيكو . فقد قدم تروتسكي ، في سلسلة من الكتب والمناشير والمقالات ، ما يمكن اعتباره أشمل تفسير سوسيولوجي للنازية حتى الآن . فقد تتبع نمو حركة هتلر خطوة خطوة ، وتنبأ سلفاً بكل مرحلة من مراحلها ، وحاول ، ولكن عبثاً ، ان يقنع اليسار الالماني ، والكومنترن ، والحكومة السوفييتية بفداحة الكارثة المحيقة بهم .

كتب عام ۱۹۳۱ :

« أرى من واجبي ان ادق ناقوس الخطر : ان قيادة الكومنترن تقود البروليتاريا الالمانية نحو كارثة مفجعة ، تتلخص في الاستسلام المذعور امام الفاشية . إن مجيء الاشتراكيين الوطنيين الالمان الى الحكم يعني ، قبل كل شيء ، إفناء صفوة البروليتاريا الالمانية ، وتخريب منظماتها ، وزعزعة ايمانها بنفسها وبمستقبلها لسنوات طويلة . نظراً لأن التناقضات الاجتماعية في المانيا أحدُّ بكثير مما هي عليه في ايطاليا ... فان الاعمال الجهنمية التي تمارسها الفاشية الايطالية قد تبدو كتجربة باهتة ، لا بل انسانية ، بالمقارنة مع الاعمال التي سوف ترتكبها الحركة الوطنية الاشتراكية الالمانية » .

وها هو يدق ناقوس الخطر مجدداً قبل سنتين من مجيء هتلر الى الحكم :

« أيها العمال ، ايها الشيوعيون ... إن الفاشية لن تصل الى الحكم إلا مشياً على جماجمكم وعظامكم كدبابة رهيبة . وما خلاصكم إلا في النضال المرير ضدها . ووحدتكم النضالية مع العمال الاشتراكيين الديمقراطيين هي وحدها الكفيلة باحراز النصر . أسرعوا ، فقريباً يفوت الاوان ! »

في تلك الآونة ، كان ستالين ومعه القـادة السوفييت الآخرون لا زالوا يتحدثون عن « بعبع » الحملة الصليبية المعادية للسوفييت بقيـادة فرنسا ، فتغافلوا عن الصليبي الحقيقي المعادي للسوفييت عندما لاح لهم في الافق . وفي تموز من عام ١٩٣٠ ، كان ستالين لا يزال يعتبر فرنسا « الدولة الاكثر عدوانية وعسكرية بين دول العالم العدوانية والعسكرية » الـتي تتأهب لاعلان الحرب على روسيا . وهذا ، في المقابل ، رأي تروتسكي في الموضوع ذاتـه :

« ما من حكومة من الحكومات البرلمانية البرجوازية «التقليدية» تستطيـع ، حالياً ، المجازفة بشن الحرب على الاتحاد السوفييتي ... ولـكن ، إذا تسلم هتلر الحكم وراح يسحق طليعة العمال الالمان، ويشتـّت البروليتاريا ويحطم معنوياتها... فان الحكومة الفاشية ستكون الحـكومة الوحيدة القـادرة على شن الحرب ضد الاتحاد السوفييتي .... اذا ما انتصر هتلر (في المانيـا) ، يمسي المحارب الاكبر باسم البرجوازية العالمية » .

لم تلـقَ تحذيرات تروتسكي غير الازدراء والتقاعس في موسكو بينما استمر قـــادة الكومنترن يرددون شعارهم الضبابي حول طرفي النقيض والتوأمين .

* * *

واظبت الدبلوماسية السوفييتية على تطبيق سياسة رابالو ، بشكل عـام ، الى حين تسلم هتلر للحكم . أي انها محضت المانيا المهزومة تأييدها المتحفظ ضد المنتصرين . لا شك ان هذا التأييد قد تغير من حيث الشكل ، إلا انه لم يصل الى حد تأييد المشاريـع الالمانية الرامية الى فرض تعديل صلح فرساي عن طريق القوة . وقد جنى السوفييت من الفوائد ما تيسَّر لهم خلال تأييدهم لألمانيا ، خاصـة وان القوى الاخرى تجابهه بمقاطعة متفاوتة الدرجات . فاستيراد السلع الصناعية الالمـانية أسعف روسيا في نهضتها في العشرينات . وقـــد فوّض المكتبُ السياسي كلّاً من تروتسكي وتوخاتشيفسكي بان يستعينوا بالمهارات العسكرية الالمـــانية ، بالضباط والخبراء العاطلين عن العمل ، لتدريب الجيش الاحمر . وفي المقابل ، سمـح الروس للخبراء العسكريين الالمان بان يواصلوا ، على الاراضي

الروسية ، التجارب العسكرية التي حرّم صلح فرساي قيامها في المانيا . ولم يعدل ستالين بشيء من هذه المعاملات ، فاذا بها تستمر ، بفعل قوة الاستمرار ، الى ما بعد تسلم هتلر للحكم ببعض الوقت .

ولكن ، على الرغم من كل ذا ، لم تتخذ العلاقات بين البلدين صفة التحالف . فهدفها ، كما ورد سابقاً ، لا يتعدى التصدي لسيطرة « الانتانت (*) » والحيلولة دون تحالف المانيا مع الغرب ضد روسيا . وعندما كانت القوى الغربية تخفّف من اعباء التعويضات المفروضة على المانيا ، كما في مشروع « داوز » ، أو تحاول التقرب منها حسب مقتضى صلح فرساي ، كما في معاهدة لوكارنو ، إذا بالقادة السوفييت يراقبون هذه التحركات بانزعاج خشية ان تنطوي على تحالف معادٍ لهم ؛ فيلجأون الى تحريض المعارضة داخل المانيا ضد المنتصرين . إلا ان الاوهام لم تساورهم بصدد ثبات النظام المتأتي عن صلح فرساي ، فقد علق ستالين على معاهدة لوكارنو عام ١٩٢٥ بهذه العبارات :

« ان الاعتقاد بان المانيا سوف تتحمل هذا الوضع لشبيه بالاعتقاد بالمعجزات ... إن معاهدة لوكارنو ... قد كرست خسارة المانيا لسايليزيا ، والمر ودانزنغ ، وكما كرست خسارة اوكرانيا لغاليسيا وفولهينيا الغربية ، وخسارة بايلوروسيا لقطاعها الغربي ، وليثوانيا لفيلنو ... وهي سوف تلقى عين المصير الذي لاقته المعاهدة الفرنسية ـ الروسية القديمة ، التي حرمت فرنسا من الالزاس واللورين ... ان معاهدة لوكارنو تحمل في احشائها حرباً اوروبية جديدة » .

هكذا عدّد ستالين في عام ١٩٢٥ ، وبدقة متناهية ، مراكز الاحتكاك التي اندلعت منها الحرب العالمية الثانية .

وتكتسي بعض التوقعات التي اطلقها في أواسط العشرينات أهمية بالغة بالنسبة لنا بوصفها مؤشرات ، مباشرة أو غير مباشرة ، لسياسته المقبلة . السلم مجرد هدنة بين

(*) « الانتانت » ـ التفاهم ـ هو المعسكر المعادي لالمانيا في الحرب الاولى . « المترجم » .

حربين ، كانت تلك بديهية بالنسبة له وهو الذي يؤمن ، مثله مثل سائر البلاشفة ، بان المنافسة الرأسمالية من أجل السيطرة على المواد الأولية والاسواق وتسهيلات الاستثمار المدرّة للارباح سوف تؤدي حتماً الى مواجهة مسلحة . لكن موعد اندلاع الحرب فضلاً عن تكوين كل من المعسكرين المتحاربين ظلا من المجهولات . في أواسط العشرينات ، بالغ تروتسكي في تقدير حدة التناقض الانغلو ــ اميركي ، وتوقع نشوب حرب بين الولايات المتحدة وبين الامبراطورية البريطانية . إلا ان المكتب السياسي تبنى رأيه هذا . وظلّ ستالين يردده حتى عام ١٩٣٠ مدعياً ان التنافس بين القوتين الانغلو سكسونيتين يطغى على التناقضات الاخرى القائمة بين الدول الاوروبية . قال في احدى المناسبات : « إن شمس بريطانيا تميل الى المغيب ، في حين ان شمس أميركا قد بزغت لتوها » . وقد ملأه بزوغ الشمس الاميركية بشتى المخاوف ، فتراءت له الولايات المتحدة وهي تحاول إحياء الرأسمالية الاوروبية المحتضرة عن طريق تقديم القروض لألمانيا بشكل خاص . أضِفْ الى ذلك ان الولايات المتحدة ظلت رافضة الاعتراف بالاتحاد السوفييتي حتى عام ١٩٣٣ .

ماذا يكون موقف روسيا في حال نشوب الحرب بين القوى الرأسمالية الكبرى ، وهي قوى امبريالية تعريفاً ؟ سؤال تعرض له المكتب السياسي غير مرة ، دون ان يتمكن من الوصول الى جواب حاسم بصدده. كان البلاشفة يستنزلون اللعنة على المعسكرين المتحاربين اللاحقين كليهما ، وينظرون الى الحرب العالمية الثانية من خلال منظار الحرب العالمية الاولى ، فيبنون الآمال على ان تثور الطبقات العاملة في البلدان المتحاربة كما فعلت الطبقة العاملة الروسية . وظلوا يعتبرون ان مهمة روسيا بهذا الصدد تكمن في التبشير بالاتجاه الثوري المعادي للنزعات العسكرية في الخارج .

إلا ان ستالين ، منذ ان بدأت نقاشات منتصف العشرينات ، وقف من المستقبل موقفاً مختلفاً وأكثر تعقيداً . لا يزال من المستحيل ان نتبحر في هذه النقاشات التي جرى معظمها تحت ستار من الكتمان . والواقع ان ستالين نشر عام ١٩٤٧ ، لأول مرة ، خطاباً القاه في الاجتماع الموسع للجنة المركزية في كانون الثاني من عام ١٩٢٥. ويلقي هذا الخطاب بعض الضوء على موقفه آنذاك . قال ستالين في معرض بحث مصاريف الدفاع :

« إن الظروف المؤدية للحرب على وشك ان تنضج . ولعل الحرب حتمية الوقوع ، طبعاً ليس غداً أو بعد غد ، بل في غضون بضع سنوات ... ان قوى

الحركة الثورية في الغرب لهي قوى عظيمة حقاً، وهي تنمو ، وسوف تظل تنمو؛ وقد تتوصل الى خلع البرجوازية عن سدة الحكم هنا وهناك . هذا صحيح . ولكن سيصعب عليها الصمود ... ولا بد هنا من ان تبرز مشكلة جيشنا ،مشكلة قوته وتأهبه ، فيما يتعلق بالتطورات التي قد تعاني منها البلدان المجاورة ... ولكن هذا لا يعني اننا ملزمون ، بحكم الواجب ، بأن نتدخل تدخلاً فعلياً ضد أي طرف كان في حال حدوث مثل هذه التطورات ... إن راية السلم لا تزال رايتنا ، تماماً كما في الماضي . ولكننا لن نقف مكتوفي الايدي في حال نشوب الحرب . سنخرج لها ، ولكن ينبغي ان نكون آخر من يخرج . سنخرج لنلقي بكل ثقلنا في المعركة ، وهو ثقل سوف يرجح كفة على اخرى » .

يجب ان نقرأ هذا النص المثير ضمن الإطار الذي ينتظمه . العبارة حول القوى الثورية في الغرب لا تخفي شكوك الخطيب . فرغم « عظمة » هذه القوى و « تناميها » ، إلا انها لن تتمكن من خلع البرجوازية عن سدة الحكم إلا « هنا وهناك » ؛ فضلاً عن انها لن تقوى على « الصمود » . من هنا يبدو ان ما من شك اطلاقاً ، في ذهن ستالين ، حول ايهما العامل الحاسم في الحرب العالمية المقبلة : قوة روسيا المسلحة ، أم القوى الثورية في الخارج. هل سيخرج الجيش الاحمر لمساعدة الثوريين الاجانب على « الصمود » ؟ يتملص ستالين من الاجابة على هذا السؤال ، على انه يصر على ان الجيش الاحمر ليس ملزماً بذلك . فهو يؤثر رؤية البلدان الرأسمالية تتحارب فيما بينها حتى الإنهاك ، مع انه لا يفصح عن ذلك بهذا القدر من الوضوح . إذاك يتدخل الجيش الاحمر لـ « يرجح كفة على الاخرى » ، ربما بالطريقة ذاتها التي تدخلت فيها اميركا في الحرب عام ١٩١٧ ورجحت احدى الكفتين . أما بالنسبة للفترة الراهنة ، فهو يشدد على نقطتين : الاولى : ان مصلحة روسيا هي في البقاء أطول فترة ممكنة مجرد متفرج في المواجهة المقبلة ؛ والثانية ، ان الجيش الاحمر اهم من أية قوة ثورية ، حالية أو ممكنة ، في الغرب. ليس بوسعنا ان نتثبت من مدى وضوح هاتين النقطتين في ذهنه عام ١٩٢٥ . لعله كان يفكر بصوت مرتفع ليس إلا وهو يخاطب اللجنة المركزية ، أو لعله يشير الى الحرب الانغلو – اميركية المرتقبة التي كثر الحديث حولها والتي لا مصلحة لروسيا بأن تورط نفسها فيها . ومهما يكن من امر ، فالشيء الاكيد هو انه تصرف بهدى هاتين النقطتين عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية .

وفي أواخر عام ١٩٢٥ ، تحدث عن السياسة الخارجية مجدداً ، وهو حديث يكتسي

اهمية بالغة عندما ننظر فيه الآن . فقد تطرق امام مستمعيه طلاب جامعة سفيردلوف الى موضوع المعارضة التي يبديها بعض الدبلوماسيين الذين احجم عن ذكر اسمائهم لسياسة الحكومة الخارجية . قال ان هذه المعارضة تدعو الى التقارب بين روسيا وبين دول « الانتانت » السابقة ، والتخلي عن الكومنترن ، واستعادة مناطق النفوذ التي تنازلت روسيا عنها طوعاً في الماضي. يبدو ان الدبلوماسية السوفييتية كانت تعيد النظر باوضاعها، وتتندم على تنازلها عن الامتيازات الامبريالية . لكن إعادة النظر هذه تشكل استباقاً فذاً للوسيلة التي اعتمدها ستالين نفسه في سياسته الخارجية منذ عام ١٩٣٩ فصاعداً ، بالاتفاق مع هتلر اولاً . ثم مع روزفلت وتشرشل ثانياً . الامر الذي يضفي مسحة من السخرية على الادانة العنيفة التي وجهها ستالين لهذه المقترحات :

« ذلك هو الطريق المؤدي ، لا محالة ، الى القومية والتقهقر (بهذه العبارات يتحدث ستالين عن مفاهيم مناطق النفوذ ، وذلك في حزيران ١٩٢٥ ، أي قبل عشرين سنة تماماً من مؤتمر بوستدان) ، الطريق الى التصفية النهائية لسياسة البروليتاريا الاممية . ان الذين اصيبوا بهذا المرض لا ينظرون الى بلدنا كجزء من كل هو الحركة الثورية العالمية ، بل ينظرون اليه على انه بداية هذه الحركة ونهايتها ، ظناً منهم انه ينبغي التضحية بمصالح جميع البلدان في سبيل مصالح بلدنا. لماذا ندعم حركة التحرر في الصين ؟ ألا ينطوي ذلك على شيء من الخطر؟ (هكذا يتساءلون) ألن يورطنا ذلك في خلافات مع بلدان اخرى ؟ أليس من المستحسن ، بالنسبة للجميع ، ان نتعاون مع البلدان « المتقدمة » الاخرى على اقامة « مناطق نفوذ » في الصين ، ونجتزىء بعض اقسامها لمنفعتنا الخاصة ؟ ففي ذلك الامن والمنفعة معاً ... ولماذا ندعم حركة التحرر الالمانية ؟ هل ان ما يمكن ان نجنيه من ذلك يستحق المجازفة فعلاً ؟ أليس مستحسناً ان نتفاهم مع « الانتانت » حول صلح فرساي وان نستخلص بالمساومة بعض المنافع ؟ ... لماذا نحافظ على علاقات ودية مع ايران وتركيا وافغانستان ؟ ... أليس من الافضل ان نعود الى انتهاج سياسة « مناطق النفوذ » هناك بالاتفاق مع احدى الدول الكبرى ؟ ذلك هو الإطار الذهني القومي الجديد الذي يطمح الى القضاء على السياسة الخارجية لثورة اكتوبر » .

ان حنين الدبلوماسية السوفييتية الى مناطق النفوذ منذ ذلك الوقت المبكر يبعث على

الاستغراب اكثر من ادانة ستالين له . ومهما يكن من امر ، فقد كانت مثل هذه الآراء سابقة لأوانهـــا في العشرينات . فطاقة روسيا على المساومة ضعيفة جداً بحيث تعجز عن اقناع بريطانيا أو فرنسا بان تتقاسمان معها مناطق النفوذ . ولعل هذا ما يفسر الحدة التي استبعد بها ستالين هذه الآراء . فلا حـــاجة له ان يلطخ الطهارة الايديولوجية لسياسته الخارجية بلا مقابل . ظلت دبلوماسيته ، لبعض السنوات ، تقتصر على الدفاع عن الوضع القائم الذي يهم روسيا . فهو قد توجه الى المؤتمر السادس عشر للحزب في حزيران ١٩٣٠ بهذه العبارة : « اننا لا نريد موطىء قدم واحد على ارض اجنبية ، لكننا لن نتخلى عن شبر واحد من أرضنا لأحد». تلك كانت خلفية سياسة ستالين الخارجية حتى عام١٩٣٩.

•

الفصل الحادي عشر

الكومنترن والسياسة الخارجية

الفترة الثانية (١٩٣٤ - ١٩٤١)

صممت ستالين الحذر خلال السنة الاولى من حكم هتلر . ـ البحث عن « ضمان جماعي » (١٩٣٤ ـ ١٩٣٨) . ـ ستالين يستقبل ايدن ، لافال ، بينيز (١٩٣٥) . ـ انضمام روسيا الى عصبة الامم ؛ تبني الكومنترن لسياسة الجبهات الشعبية . ـ الثورة العالمية : « سوء تفاهم مأسوي ـ هزلي » . ـ دور ستالين في الحرب الاهلية الاسبانية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٨) . ـ عزلة روسيا قبل اتفاقية ميونيخ وخلالها . ـ انتقام ستالين . ـ خطبته امام المؤتمر الثامن للحزب (آذار ١٩٣٩) . ـ المناورات الدبلوماسية في الاشهر الاخيرة للسلم . ـ الاجراءات التمهيدية الاخيرة لتوقيع المعاهدة الروسية ـ الالمانية . ـ ريبنتروب في الكرملين (٢٣ آب ١٩٣٩) . ـ تقسيم بولونيا . ـ الحرب الروسية ـ الفنلندية الاولى . ـ ستالين يرفض زيارة برلين بدعوة من هتلر (آذار ١٩٤٠) . ـ انهيار فرنسا السريع يفاجىء ستالين . ـ المنافسة الروسية ـ الالمانية في البلقان . ـ مبعوث ياباني في الكرملين . ـ ستالين رئيساً للوزارة (٦ ايار ١٩٤١) يبذل المحاولة الاخيرة لمصالحة هتلر . ـ حساب الخسائر والارباح لدبلوماسية ستالين بين ١٩٣٩ و ١٩٤١ .

عندما قام الانقلاب النازي في المانيا ، لم يخطر ببال ستالين ضرورة مراجعة سياسته الخارجية فوراً راح يراقب مدى قدرة النظام النازي على الصمود ، بانتظار ان يتضح ما إذا كان هتلر ينوي مواصلة سياسة رابالو التي انتهجها أسلافه أو ما إذا كان ينوي العمل بمقتضى الافكار المعروضة في كتابه «كفاحي» فيتخذ موقف العداء السافر من السوفييت. فلازم ستالين جانب الحذر للحيلولة دون استفزاز هتلر بأي شكل من الاشكال . وكان من المتوقع ان يسهم استسلام الحركة الشيوعية الالمانية ، الذي سمح لهتلر بان يسحقها ، في تسهيل استمرار العلاقات الودية بين روسيا والمانيا ؛ فدحض بذلك – على نحو مدهش – الافكار السائده حول تدخل روسيا في شؤون المانيا الداخلية (*) . ظلت اتفاقية رابالو ومعاهدة الحياد والصداقة – الموقعة عام ١٩٢٦ – ساريتي المفعول . وقد جدّدتا عام ١٩٣١ ؛ واجريت بعض التعديلات على هذا التجديد في ايار من عام ١٩٣٣ ، أي قبل بضعة اسابيع من انتخاب هتلر مستشاراً لالمانيا . والواقع ان قمع هتلر الدموي لكل معارضة داخلية والاضطهاد العنصري الذي مارسه لم يؤثرا في المعاملات الدبلوماسية العادية بين موسكو وبرلين أكثر مما أثـّرا عليها بين باريس أو لندن وبرلين . ما من شك في ان ستالين كان يراهن على قوة التقاليد البسماركية في اوساط الدبلوماسيين الالمان، وهي تقاليد تقضي بان يتحاشى الرايخ الالماني الاصطدام بروسيا . وهكذا ، فخلال العام الاول من مستشارية هتلر ، احجم ستالين عن التفوه علناً بكلمة واحدة عن الاحداث الجارية في

(*) يزعم بعض الشيوعيين من خصوم ستالين « فولنبرغ ، كريفتسكي وغيرهما » انه عمل عن قصد على اجبار الشيوعيين الالمان على الاستسلام للنازية بغية انقاذ سياسة رابالو . أرى ، من جهتي ، انه لا توجد قرائن مقنعة تدعم وجهة النظر هذه . ان سياسة ستالين تجاه النازية تسجل عليه قصر نظر وحماقة نادرين ، لكنها لا تسجل عليه خيانة مقصودة .

المانيا ، على الرغم من ان صمته اثار حفيظة انصار الكومنترن المذهولين (*) .

لم يخرج ستالين عن صمته إلا في المؤتمر السابع عشر للحزب المنعقد في كانون الثاني من عام ١٩٣٤ . وحتى في ذلك المؤتمر ، احجم عن استخلاص دروس الاحداث التي استتبعتها نتائج مفجعة بالنسبة لليسار الاوروبي ؛ وراح يغذي ، بطريقة غامضة ، الوهم القائل ان الفاشية — « المعبرة عن ضعف الرأسمالية » — لن تعمر طويلا . غير انه وصف الانقلاب النازي بانه « انتصار لفكرة الثأر في اوروبا » . ولاحظ ان التيار المعادي لروسيا في السياسة الالمانية قد تغلب على التقليد البسماركي القديم . وعلى الرغم من ذلك كله ، بذل جهده لكي يؤكد رغبة روسيا في المحافظة مع الرايخ الثالث على العلاقات ذاتها التي كانت قائمة بينها وبين جمهورية فايمار :

« يزعم بعض السياسيين ان الاتحاد السوفييتي آخذ بالاقتراب من فرنسا وبولونيا ؛ وانه بات من مؤيدي صلح فرساي بعدما كان من معارضيه ، وان تفسير هذا التغير هو قيام النظام الفاشي في المانيا . ان هذه المزاعم لا نصيب لها من الصحة . بالطبع ، نحن ابعد ما يكون عن التحمس للنظام الفاشي في المانيا . لكن الفاشية ليست موضع بحثنا هنا ، خاصة وان وجود نظام فاشي في ايطاليا مثلاً لم يحل دون قيام احسن العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وهذا البلد . وليست المسألة ، الى ذلك ، مسألة تغير مزعوم في موقفنا من صلح فرساي . فليس لنا ، نحن الذين ذقنا مذلة معاهدة بريست — ليتوفسك ، ان نمجّد صلح فرساي . كل ما في الامر اننا نرفض ان يلقى بالعالم في آتون حرب جديدة بسبب هذه المعاهدة » .

(*) ان الخلاف الضامر بين روسيا واليابان هو من الاسباب الرئيسية لهذا الصمت . وقد ادى الى نتيجتين هامتين : اعترفت حكومة الولايات المتحدة بالاتحاد السوفييتي رسمياً في تشرين الثاني ١٩٣٣ ، بمبادرة الرئيس روزفلت ، وذلك بعد ست عشرة سنة من قيام الثورة . وفي الوقت ذاته تقريباً ، تنازلت روسيا لحكومة مانشوكو اليابانية العميلة عن سكة حديد الشرق الصينية . لا شك في ان اقامة علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة قد عزز موقف ستالين ؛ الا انه ظل ، بشكل عام، ينطلق من مواقع ضعيفة في علاقاته باليابان والمانيا . هذا فضلاً عن كون جبهته الداخلية تعاني من آثار حملة التجميع الزراعي .

جاءت الاحداث اللاحقة تضاعف من مخاوفه . فقد وقعت المانيا وبولونيا على معاهدة عــدم اعتداء ، الامر الذي جعله يتساءل ما إذا كان هتلر يغذي مطامع بولونيا القديمة في السيطرة على اوكرانيا ، وهي مطـامع ُعرف المارشال بلسودسكي بانه من أبرز المتحمسين لها . على انه اطمأن بعض الشيء عندما وافقت بولونيـا على تجديد معاهدة عدم الاعتداء بينها وبين روسيـــا . فاقترحت موسكو على برلين - في الوقت ذاته ، توقيع معاهدة روسية - المانية لضمان حدود واستقلال دول البلطيق الصغرى ، إذ ان ثلاثاً من هذه الدول تشكل ممراً عسكرياً لا بد لأية دولة تنوي غزو روسيا من ان تعبره. فرفض هتلر الاقتراح ، لأنه لا يريد التقيد بالتزامات كهذه . منذ ذلك الحين ، اضحى الاهـــتمام بسلامة حدود روسيا هو الشاغل الاول عند ستالين . إذ ان وضعها الراهن لم يكن يبعث على الارتيـاح اطلاقـــاً . فالطريق الى روسيا عبر شمال البلطيق لا تزال مفتوحة ؛ وامكانية استخدام غازٍ ما للطريق الوسطى - عبر بولونيا - معلق على موقف الحكومة البولونية الغامض ؛ وموقف العداء لروسيـــا الذي تقفه عدة دول من دول حوض الدانوب يسهل الهجوم على جنوب روسيـــا . فتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا لم تقم علاقات دبلوماسية مع السوفييت إلا في صيف ١٩٣٤ . وهكذا ، اتضـح لستالين ، ولأول مرة منذ معاهدة رابالو ، الحاجة الى مراجعة سياسته الخارجية مراجعة كاملة .

ان اللعبة الدبلوماسية التي بدأتها روسيا مع خصوم المانيا الغربيين في ذلك الحين وحتى منتصف الثلاثينات لهي اعقد لعبة دبلوماسية في التاريخ الحديث . ويبدو ان الدور الذي لعبه ستالين فيها هو اعقد من دور أي شخص آخر . غير ان تعقيد اللعبة لا يعود الى تنوع الدوافـــع والتحركات عند الاطراف المعنية ، بل يعود - على العكس - الى بساطتها وتشابهها . وحالات الجمود والتأزم التي نجمت عنها اشبه ما تكون بما تصل اليه لعبة ُ الشطرنج بعد سلسلة من النقلات البسيطة والمتشابهة يقدم عليها الطرفان . فكلٌ من اعداء المانيا اللاحقين يتأرجح بين التوهم بانه يمكن تفادي الحرب وبين ادراك حتميتها ولكن على نحو غامض . كلٌ منهم مرعوب من العزلة ، فيقدم على بعض المبادرات سعياً وراء نظـام واقٍ من الاحلاف . كل يأنف الالتزامات العسكرية الواضحة خوفـاً من ان تقرب هذه الالتزامات من موعد اندلاع الحرب ، أو من ان تقرب الحرب نفسها من حدوده . وعند كل عضو من اعضاء « التحالف العظيم » اللاحق بريق أمل بامكان تحويل زخم العسكرية الالمانية المنتعشة بحيث تصب بعيداً عن المساس بمصالحه القومية . كل منهم تصرف ببلادة

ازاء ضعف العسكرية الالمانية ؛ فلما استغل هتلر هذه البلادة لكي يبني آلته الحربية ، إذا بكل منهم في مواقع ضعف تجاهه . كل منهم يبيع المكان لقاء الزمان ويتخلى عن الحلفاء والاصدقاء ، حتى لم يعد هنالك مكان يباع ولا زمان ُيشرى .

· طبعاً ، لم تتمكن الاطراف المعنية بان تتخذ خطوات متوازية في الوقت ذاته . فلا بد من ان يبادر احدهم في كل طور من اطوار اللعبة : لا بد من ان يبادر احدهم الى الخروج من المأزق ، ولا بد ايضاً من ان يبادر آخر بالتضحية بالضمانات . وهكذا ، وعلى الرغم من تشابه التحركات والالاعيب الذكية بين كل الاطراف ، فقد بدا كل منهم على انه أقوم اخلاقاً من الآخرين في فترة من الفترات ، كما بدا مجسداً دور الشرير في فترة اخرى . فرنسا وبريطانيا تتخبطان في محاولة استرضاء العدو ، بينما روسيا ترفع بشجاعة راية الضمان الجماعي . وإذا ببريطانيا – في مناسبة اخرى – تتألق في أكثر سويعات تاريخها امتلاء بالفخر ، بينما روسيا ضالعة في مساومات دنيئة مع المانيا . يلي ذلك تسامح متبادل طوال فترة « التحالف العظيم » ، سرعان ما يعقبه ارتداد الى التراشق بالتهم بعد اعلان وقف اطلاق النار .

* * *

سعى ستالين طوال عام ١٩٣٤ وراء اقامة معاهدات وقائية . وانتقل تدريجياً ، ولكن على نحو ملحوظ ، من معارضة النظام الذي اوجده صلح فرساي الى الدفاع عنه . انضمت روسيا الى عصبة الامم في ايلول من العام ذاته . وكان الكرملين والعصبة يقاطع واحدهما الآخر حتى ذلك الحين . وصف لينين العصبة بانها « مغارة اللصوص » ، أو المنظمة التي تتلخص مهمتها في فرض صلح فرساي ، وتعزيز السيطرة الاستعمارية ، وقمع حركات التحرر في العالم بأسره . وكان ستالين نفسه قد حاجج على النحو التالي : « لكي تنضم دولة ما الى عصبة الامم ، عليها ان تختار بين المطرقة والسندان ، على حد قولة الرفيق ليتفينوف الصحيحة . لكننا لا نريد ان نكون المطرقة المسلطة على الامم الضعيفة ، ولا السندان الذي تنهال عليه ضربات الامم القوية » . لكن ثأر المانيا اسوأ من صلح فرساي . فتحول ليتفينوف ، بسرعة ، الى اشد المتحمسين لفكرة انشاء عصبة امم « قوية » ، قادرة على الحيلولة دون وقوع العدوان ومعاقبة المعتدي . فاكتسى حماس

ستالين الجديد للعصبة مسحة من التوهم السلمي . وينطبق القول ذاته على محاولته انشاء معاهدة شرقية يتعهد بمقتضاها كلٌ من روسيا والمانيا وجميع بلدان اوروبا الشرقية بنجدة واحدهما الآخر فوراً عند تعرضه لعدوان . ولقي مجهود روسيا الرامي الى اقامة « لوكارنو » شرقية كل التأييد من جانب بارثو ، وزير خارجية فرنسا ؛ إلا انه أُجهض بسبب معارضة المانيا وبولونيا .

في بداية عام ١٩٣٥ ، اقلع ستالين عن محاولاته الفاشلة لاقامة نظام دفاع منطقي في اوروبا الشرقية ، وراح يخطط للتحالف مع الغرب . استقبل انطوني ايدن في قصر الكرملين في آذار من العام نفسه . لم يكن وزير الخارجية اللاحق آنذاك أكثر من وزير ثانوي في الحكومة البريطانية ، زار موسكو بعد زيارته لبراغ ووارسو . وفي الوقت ذاته ، كان جون سايمون ، احد الوزراء البريطانيين البارزين ، يزور هتلر في برلين . ومهما يكن من امر ، فقد لقي ايدن استقبالاً حافلاً في الكرملين . فهو اول وزير من وزراء صاحب الجلالة يجيء موسكو الحمراء في زيارة رسمية بعد سنوات من الحزازات والجفاء . فبدا وكأن الجليد آخذ بالذوبان بين البلدين ، فلم يفوّت ستالين فرصة واحدة لتعجيل هذه العملية . فخرج من ظلام مركز امانة سر الحزب ليرأس حفلة الترحيب بالضيف البريطاني . وأمر بعزف النشيد الملكي البريطاني خارقاً بذلك جميع التقاليد البلشفية . غير انه لم يكن من المتوقع ان تفضي الزيارة الى نتائج محددة . وهذا ما جرى فعلاً . وفي ايار ، بعد ان اعاد هتلر فرض التجنيد الاجباري ، وصل الى موسكو زائران مهمان هما لافال وبينيز . فعقدت المعاهدة الروسية – الفرنسية والمعاهدة الروسية – التشيكية . واستقبل ستالين شخصياً كلاً من لافال وبينيز . وعلى الرغم من انه لم يكن عضواً رسمياً في الحكومة السوفييتية ، فاشتراكه في المفاوضات مع السياسيين الاجانب المهمين وفي حفلات الاستقبال اضحى جزءاً من التقاليد الدبلوماسية المألوفة .

خلال زيارة لافال ، وقع حادث ما لبث ان اثار بعض البلبلة . فقد اعلن هذا ، اثر عودته من موسكو ، ان ستالين قد فوضه بان يعلن ، نقلاً عنه ، انه يؤيد جهود فرنسا لتعزيز خطوط دفاعها . حتى ذلك الحين ، كان الحزب الشيوعي الفرنسي ، شأنه شأن جميع فروع الكومنترن الاخرى ، يعارض الدفاع الوطني من حيث المبدأ . وكان نوابه يصوتون ، في جميع المناسبات ، ضد الموازنة العسكرية ؛ ونشر مناضلوه الدعاية الثورية

في صفوف القوات المسلحة . فبدا وكأن تصريح ستـــالين هو تنصل من موقف الحزب الفرنسي ؛ والامر الذي كاد ان يثير فضيحة خطرة هو اختيار ستالين للافــال لكي يعلن ذلك باسمه ، وهو الرجل الذي يعتبره اليسار الفرنسي واحداً من احقر المرتدين ضده . ظل النواب الشيوعيون في مجلس النواب الفرنسي يصوتون ضد النفقات العسكرية لبعض من الوقت . فتقاليد العداء للنزعة العسكرية لا تزال من القوة بحيث لا يمكن اهمالها بهذه البساطة . اضف الى ذلك ان لافال لم يكن ينوي البدء بتنفيذ المعاهدة الموقعة حديثاً ، فأخر موعد عرضهـا على المجلس ليصادق عليها ، ومنع القادة العسكريين الفرنسيين من الشروع بمناقشة خطط الدفـــاع مع زملائهم الروس . لذا ، فلم يكن من سبب يحدو الشيوعيين الى الاقتراع الى جانب موازنات الدفاع التي يتقدم بها لافال . ومهما يكن من امر ، فتصريح ستالين مقدمة لتحول هام سوف يطرأ على الكومنترن .

وقد أُعلن هذا التحول في المؤتمر السابع للاممية الذي عقد في غضون العام نفسه . كل النظريات والوصفات التكتيكية والشعارات المستعملة منذ عام ١٩٢٨ ، والقـائلة بان الفاشية والديمقراطية « توأمان » لا غير ، والـــتي تحرم التعاون مع القادة الاشتراكيين الديمقراطيين – كل هذه دفنت بصمت في مستودعات الكومنترن . وأُعلن ان الدفـاع عن الديمقراطية (وقد نُزع عنها نعت « البرجوازية » بحذر) ضد الفـاشية هو المهمة الاساسية بالنسبة للحركة العمالية . ودُعي الاشتراكيون الديمقراطيون والشيوعيون الى التعاون والى تشكيل « جبهات شعبية » تضم كل احزاب وهيئـات الطبقة الوسطى – الليبرالية الراديكالية منها وحتى المحافظة – شرط ان تفصح هذه عن تأهبها لمقـاومة الفاشية . وليس هذا اخطر انحراف عن الخطط التكتيكية السابقة وحسب ، بل وأيضاً عن النظام الداخلي للكومنترن ، عن « الشروط الواحد والعشرين للعضوية » الشهيرة التي وضعهـــا لينين وزينوفييف والتي تعلن صراحة منع الشيوعيين من التعاون مع الاحزاب البرجوازية . وحُذّر الشيوعيين من « تنفير » ليبراليي الطبقة الوسطى بواسطة المطـالب الجذرية أو الشعارات المعادية للرأسمالية التي تطلق جزافاً . فما ان مضت فترة من الوقت على المؤتمـــر ، حتى اضحى الشيوعيون من اشد الناس حماساً للدفاع الوطني في البلدان « الديمقراطية » . وذهب الكومنترن في تطبيقه لهذا « الخط » الجديد الى حد انـه راح يهاجم جيوب العداء للنزعة العسكرية ودعوات السلم في صفوف اليسار على انها هرطقات خطيرة ؛ بينما أخذ يرحب برجال اليمين التقليدي المعادي للالمان ، من امثال مانديل في

فرنسا وتشرشل في بريطانيا كحلفاء له . واستبدل مانويلسكي ، المتحدث باسم ستالين في الكومنترن الذي برّز في هجومه على الاشتراكيين – الفاشيين ، بجيورجي ديمتروف ، بطل محاكمة لايبزيغ حول حريق الرايخستاغ ،وقد اضحى اسمه رمزاً للنضال ضدالفاشية. واستغل ستالين كل الفرص التي سنحت له ليعلن تضامنه الشخصي مع ديمتروف ، فبات الزعيم البلغاري لا يفارقه في جميع الاحتفالات والاستعراضات .

هل كان ستالين يسعى باخلاص الى التحالف مع ديمقراطيات الغرب البرجوازية ؟ يبدو ان احداث عام ١٩٣٩ تبرر لنا ، الآن ، ان نشك في ذلك . ولكن حتى في عام ١٩٣٦ ، كتب رئيس البعثة العسكرية الفرنسية الى روسيا يقول : « إن روسيا تشعر بهبوب العاصفة عليها من جهة الشرق فتسعى الى تحويرها نحو الغرب ... انها لا تريد التورط في النزاع الاوروبي المقبل حيث تأمل بان تلعب دور الحَكَم بالنسبة لاوروبا بعد ان تكون الحرب الضارية قد انهكتها كلياً ، وهذا هو عين الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في عام ١٩١٨ » . يبدو ان الخطاب الذي القاه ستالين عام ١٩٢٥ ، والذي تحدث فيه عن روسيا كمتفرج في الحرب المقبلة ، يؤكد وجهة النظر هذه ، علماً بان الجنرال الفرنسي لم يتمكن من الاطلاع على نص ذلك الخطاب عندما كتب تقريره . لكن ، على الرغم من هذا كله ، نجد ما يبرر القول ان ستالين كان يسعى فعلاً نحو اقامة حلف معادٍ لهتلر في السنوات بين ١٩٣٥ و ١٩٣٧ وحتى في السنوات اللاحقة . وهذا خط عمل املته عليه الظروف . كان كل شيء يؤكد ان التقاليد البسماركية في الاوساط الدبلوماسية الالمانية قد منيت بهزيمة نكراء . ففي مهرجان نيورنبرغ في ايلول ١٩٣٦ ، تحدث هتلر عن اوكرانيا وسيبيريا بوصفها جزءاً من الوطن الالماني ، وذلك بعبارات عنيفة نارية بحيث بدا وكأنه يستبعد ولو تفاهماً مؤقتاً بينه وبين ستالين . واجتمع زعماء دول « المحور » في اواخر العام لاعلان توقيع معاهدة ضد الكومنترن . طوال تلك الفترة ، كانت الاصطدامات متواصلة على الحدود بين القوات الروسية والقوات الالمانية ، وكان بعضٌ منها من الخطورة بقدر . وهكذا بدا وكأن العاصفة سوف تنقض على روسيا من آسيا ومن اوروبا في آن معاً . فكان لا بد من ان يسعى ستالين نحو انشاء شبكة متينة من التحالفات ، إن لم يكن بسبب عدائه للفاشية ، فبسبب مقتضيات الدفاع عن النفس على اقل تقدير .

صار شاغله الاساسي آنذاك هو ان يقنع القوى الغربية بالقبول بالتزامات محددة ،

حتى ولو اضطر الى اعتماد المناورات سبيلاً لتحقيق ذلك . إلا ان اصيب بالصدمـــة تلو الصدمة في هذا المجال . فالمعاهدة الروسية – الفرنسية ، القاضية بالتعاون المشترك، ظلت حبراً على الورق حتى بعد ان سقطت حكومة لافال وحملت الجبهة الشعبية دالاديه وبلوم الى الحكم . عجزت فرنسا وبريطانيـا عن تحرك ساكن رداً على استفزازات هتلر ، وعلى إعادة تسليح المانيا ودخول جيشها منطقة الراينلاند . وكان ستالين أبعـــد الناس عن الاعتقاد بان الهمود الغربي ناجم عن الضعف أو عن قصر النظر . الضعف ؟ بعـــد مضي سنتان أو ثلاث على اصدار هتلر أمراً باعادة التجنيد الأجباري ، لم يكن بالإمكان اعتبار الجيش الالماني قوةً عسكرية جدّية . كان ستالين ، مثله مثل العديـــد من السياسيين ، لا يزال يتطلع الى الجيش الفرنسي مكللاً بغار أمجاد الحرب العالمية الاولى؛ وسوف يتبيّن لنا فيما بعد انه ظل متمسكاً بهذا الاعتقاد حتى عام ١٩٤٠. وقال مستشاروه العسكريون والدبلوماسيون ، وعن حق ، ان خصوم هتلر يستطيعون إيقاف هتلر عند حـده بمجرد التهديد باتخاذ تدابير عسكرية ضده . قصر نظر ؟ ألم يكن واضحاً ان تحالف البرجوازية الالمانية الكبرى مع العسكريين والنازيين ، لا يهدف الى تصحيـح الاساءات المتولدة عن صلح فرساي وحسب بل وأيضاً ان مطامـع المانيا الامبريالية التوسعية لن تلبث ان تتضاعف بقدر ما تتضاعف قوتها العسكرية ؟ نعلم الآن ان الضعف وقصر النظر لم يكونا غائبين عن مجموعة العوامل العديدة التي تولـّدت عنها النزعة الغربية السلبية إزاء صعود النازية. إلا ان ستالين لم يضع في الحسبان ارتكاب سياسيي الديمقراطيات البرجوازية لمثل هذه الاخطاء .

كان يشتبه بان التواطؤ الفرنسي والبريطاني إزاء انبعاث النزعة العسكرية الالمانيـــة ناجم عن املهم بأن يتمكنوا من تحوير زخمه ضد روسيا ، تمامـاً مثلما كان سيعمل هو على تحوير هذا الزخم ضد الغرب لو سنحت له الفرصة لذلك . وحتى لو انه اعتقد بان الخط الذي تسلكه الدبلوماسيات الغربية ناجم عن علل في الفكر والطبع وليس عن اية خطة للتآمر ضد روسيا ، فلم يكن واثقاً من ذلك . من هنا اضطراره لمواجهـــة اسوأ الاحتمالات . ومما لا شك فيه ان فكرة التحالف مع السوفييت كانت لا تزال تثير حفيظة الاوساط الحاكمة في فرنسا وانكلترا ، على الرغم من ان العداء القديم ضد السوفييت كان قد تلاشى جزئياً ؛ فبعض الزعماء السياسيين الغربيين يتطلعون الى النازية على انهـــا سدّ منيع ضد البلشفية ويأمل بعض من هؤلاء في تحويل هذا السدّ الى قوة ضاربة ؛ واخيراً

حتى في الاوساط التي لا تجد مفراً من التحالف مع روسيا كنتَ تجد من يتساءل ما إذا لم يكن من المستحسن ترك المانيا تصفي حساباتها مع روسيا قبل الاقدام على هذا التحالف .

التضاد العقائدي القديم يلوح وراء كل المناورات الدبلوماسية ، ومحاولات كسب الودّ ، والنفور ، والازدراء . حاول ستالين تبديد شكوك الغرب ومخاوفه وعقده عن طريق الاعتدال والمرونة . وكان شبح الثورة العالمية الجبار هو اول الاشباح التي حاول التخلّص منها . قال لأحد الصحفيين الأجانب عندما جاء هذا على ذكر الثورة العالمية : « لم تكن لدينا مثل هذه الخطط والنوايا قط ... كل ذلك وليد سوء تفاهم ليس إلا » . فقاطعه الصحفي بسؤاله : « سوء تفاهم مأسوي؟ ». فأجاب ستالين : « لا ، بل سوء تفاهم هزلي . أو لعله مأسوي – هزلي في آن معاً » . وتأكيده هذا خليط من الحقيقة والكذب. لم يخطط البلاشفة من اجل تصدير الثورات الجاهزة ، بل كانوا يعتقدون ان كل ثورة سوف تنمو وتنضج على تربتها الوطنية ؛ لكنهم كانوا يطمحون بالاسراع في عمليات الانضاج هذه ... وإذا ببرجوازية الغرب يصعب عليها ان تصدّق ان كل ما في الأمر لا يتعدى كونه سوء تفاهم هزلي ، بل مأسوي – هزلي معاً .

على ان ارتيابهم بصدق نوايا ستالين لم يكن يقوم على الذكريات وحسب . فحتى ذلك الحين ، تعذّر على ستالين الانعتاق من شبح الثورة مثلما يتعذّر على المرء ان يمنع ظلّه من اللحاق به . ومهما بلغت الشعارات التي وضعها للجبهات الشعبية من الاعتدال ومهما احتوت عليه من الديمقراطية « الخالصة » والاتجاه الدستوري والنزعة الوطنية « النقية »، فكل ذلك لم يفلح في القضاء على الطاقات الثورية الكامنة في تلك الجبهات . فكان عليه ان ينمّي هذه الطاقات ، وان يستخدمها لخدمة اغراضه ، شاء ذلك ام ابى . وإذا بالانتصارات الانتخابية التي احرزتها الجبهة الشعبية في كل من فرنسا واسبانيا ترفع فوراً من مستوى عداء الطبقات العاملة للرأسمالية وتعزّز ثقتها بنفسها . فلم يستطع القادة الشيوعيون الفرنسيون والاسبان ان يسيروا ضد هذا الرأي العام الجماهيري . فالاضرابات والاجتماعات الشعبية والتظاهرات التي لم يُعرف لها مثيل من قبل تهزّ فرنسا من اقصاها الى اقصاها . واسبانيا واقعة بين مخالب الحرب الاهلية . واوروبا الغربية بأسرها تعاني من المصاعب والضغوط الاجتماعية الجديدة . وعلى الرغم من ان القادة الشيوعيين غالباً ما بذلوا كل ما في وسعهم من اجل كبح هذه الحركة ، وكل ذلك بضغط من موسكو ، إلا ان الاحداث ما لبثت ان زرعت الخوف في قلوب الطبقات الوسطى ، فزاد ذلك من

عطفها على الفاشية كما ضاعف مخاوفهـــا تجاه روسيا . وهكذا ناقضت الجبهات الشعبية الاهداف التي قامت لتحقيقها ، بعملية ديالكتيكية غريبة . فقد تكوّنت حسب خطة ترمي الى مصالحة الغرب البرجوازي مع روسيا ، وإذا بها تزيد من تباعد الواحـد منهما عن الآخر : وهدفت ، اولاً باول ، إلى الضغط على حكوماتها المتردّدة ودفعها للتحالف مع روسيا ؛ وإذا بها تعمق البون الفاصل بين الحلفاء الممكنين بعدما تعاظمت قوة الضغط التي تملكها . وهكذا ، فالطبقات العليا في فرنسا وانكلترا نظرت الى نداءات ليتفينوف من اجل الضمان الجماعي ودغدغته المصالح الذاتية الفرنسية والبريطانية نظرةً تربط بين هذه وبين الاضرابات، واسبوع العمل من اربعين ساعة، والاجور المرتفعة ، والاصلاحات الاجتماعية الاخرى التي انتزعتها الجبهة الشعبية من اقتصاد فرنسا الراكد .

ان تحقيق الاهـــداف الثورية يقتضي قيام الثورة فعلاً . اما تحقيق نتيجـة سلبية وحسب ، اي اثارة ردة فعل معادية للثورة ، فلا يقتضي من الثورة اكثر من ان تطرح ظلّها . التيار الرجعي يتصاعد متسارعاً في فرنسا عشية معاهدة ميونيخ . الجبهة الشعبية آخذة بالتفكك . والحلف الروسي — الفرنسي لم يكن مستبعد التحقيق اكثر مما كان آنذاك . فقـــد أسرّ ليتفينوف لاحد الدبلوماسيين في آذار ١٩٣٨ : « فرنسا لا تثق بالاتحاد السوفييتي ، والاتحاد السوفييتي لا يثق بفرنسا » .

وإذا بالحرب الاهلية الاسبانية تجابه ستالين بمعضلات مماثلة . فلا ندحة عن ان يرحب في هزيمة فرنكو ، ليس فقط لان هذا ما تستتبعه سياسةُ العداء للفاشية التي ينتهجهـا ، بل وايضاً لان قيام نظام حكم فاشي جنوب جبال البيريني من شأنه ان يزيـــد من تخاذل فرنسا تجاه المانيا . على ان الحرب الاهلية ، في المقابل ، محفوفـة بالتعقيدات الثوريـة . فالطبقات العاملة والمسلحة للدفاع عن الحكومة الجمهورية قد تحاول اقامـــة دكتاتورية بروليتارية شيوعية أو فوضوية -- شيوعية . والفلاحون المحرومون من الارض ، في بلد يشبه نظامـــه الاقطاعي النظام الاقطاعي في روسيا القديمة ، قـــد يسعون إلى الثورة الزراعية . ولكن ، إذا ما حققت اسبانيا نسختها عن ثورة اكتوبر ، فان ذلك لن يلبث ان يعمق الانشقاقـات في اوروبا الغربية ، فتتضاءل فرص الاتفاق بين روسيا والغرب . لذا ، اصدر الكومنترن تعليماته الى اعضائه الاسبان بأن يقتصروا في نضالهم على حمايـــة الحكومـة الجمهورية الشرعية ضد عدوان فرنكو . ومنع الكومنترن رفع شعارات

تشريك الصناعة ومصادرة ممتلكات اسياد الارض . واصدر ستالين امره الى ليتفينوف لكي ينضمّ الى « لجنة عدم التدخل » التي انشئت بمبادرة من ليون بلوم . هكذا تبدّى للعيان ان روسيا لم تتدخل في شؤون اسبانيا الداخلية لفترة من الزمن .

إلا انه لم يقع بوسع ستالين ان يظل محتفظاً بموقفه هذا . فهتلر وموسوليني تدخلا في الحرب الاسبانية ، وهذا العامل بمفرده كفيل بان يجعل من بقائه بمنأى عن التدخل فيها امراً صعباً للغاية ؛ كيف لا ، وهو حامي حمى اليسار . فتدّخل بدوره ، وراح يحثّ فرنسا ، عن طريق الشيوعيين الفرنسيين ، لكي تحذو حذوه . وكان اقل ما يطمح اليه ان يؤدي تدخل فرنسا الى ان يرتعب هتلر وموسوليني ، فيتخليان عن اسبانيا . ولكن في الامر ما هو اخطر من ذلك . فلو ان الديمقراطيات الغربية تدخلت ، لكانت قطعت شوطاً طويلاً في طريق الالتزام بموقف عسكري حازم ضد المانيا . فقد تتحول اسبانيا من ساحة موقعة اوروبية الى ساحة المعركة الاولى للحرب العالمية الثانية . لذا فبسبب خوف الحكومات الغربية من ان تصبح الحرب الاسبانية مقدمة لحرب عالمية ، او بسبب ترددها في دعم الجبهة الشعبية للانتصار على فرنكو — او للسببين معاً — رفضت بعناد ان تتدخل ، على الرغم من ان تخاذلها لم يفد غير هتلر وموسوليني . واخيراً ، اسهم النزاع حول اسبانيا الذي دار في « لجنة عدم التدخل » بقسطه في تردّي العلاقات بين روسيا وبريطانيا وفرنسا .

ان التناقضات التي راح ستالين يتخبط بها ما لبثت ان حدت به الى ان يقود ، من مقرّه في الكرملين ، حرباً اهلية ضمن الحرب الاهلية الاسبانية . اغتاظ الفوضويون والسنديكاليون — الفوضويون الاسبان المتطرفون من سياسات الشيوعيين غير الثورية . وفي كاتالونيا ، حاول الـ P. O. U. M. ، وهو حزب شبه تروتسكي ، ان يدخل المزيد من الراديكالية الاجتماعية الى المعركة . فأخذ ستالين على عاتقه مهمة تصفية هذه العناصر اليسارية العاصية التي رفضت السير حسب سُنّته العقيدية . ففرض على الحكومة ان تطردهم من الادارة كشرط لبيعها الذخيرة . وارسل الى اسبانيا مع خبرائه العسكريين بعملاء شرطته السرية ، وهم الخبراء في الكشف عن الهراطقة وفي عمليات التطهير ، ففرض هؤلاء حكماً ارهابياً خاصاً بهم على الاوساط الجمهورية . ولكي يؤكد ستالين على فظاعة فعلته هذه ، اوكل الى انطونوف — اوفسينكو ، بطل ثورة اكتوبر والتروتسكي السابق ،

مسئوليـــة اجراء التصفيات في كاتالونيا – « معقل » الهراطقة – ثم تولـّى تصفيـــة انطونوف – اوفسينكو نفسه بعد عودته من اسبانيا . وكان الدافع الرئيسي وراء كل هذه الاعمال هو رغبة ستالين في المحافظة على محترميّة الاتجـاه الجمهورية للجبهة الشعبية الاسبانية ، وفي تفادي إثارة عـداء الحكومتين البريطانية والفرنسية . لكنه لم ينقذ محترميّة أحد ، واثار عـداء الجميع . فالرأي العام المحافظ في الغرب ، غـير المكترث للنزاع الداخلي بين اليساريين الاسبان والذى اربكته تعقيدات سياسة ستالين ، اتـّهـم ستالين بانه المحرّض الرئيسي على الثورة .

في محاولة للبحث عن اسباب اخرى لهبوط اسهـم الدبلوماسية الروسية الى المستوى الذي هبطت اليه قبل معاهدة ميونيخ ، لا يمكن اهمال التصفيات في موسكو بوصفها احد هذه الاسباب . في عام ١٩٣٦ ، دُعي بعض الجنرالات البريطانيين والفرنسيين الى مشاهدة مناورات الجيش الاحمر ، وقد تركت تقنية الجيش ومؤهلاته العسكريـة اطيب الأثر في اذهانهم . إلا ان التصفيات ما لبثت ان قضت على هذا الاثر الطيب . فبدت وكأنهـــا شروخ مشؤومة في بنيـــان السوفييت باسره . وسيان اقتنـع السياسيون والعسكريون الغربيون بحجة التهم المنسوبة الى المدعى عليهم أم لا ، فمحتوم على استنتاجاتهم ان تنتقص من قيمة روسيا كحليف ممكن . وكان لسان حال هؤلاء كما يلي: اذا كان هذا العدد الضخم من السياسيين والعسكريين والاداريين الافذاذ قد خدم فعلاً في الطابور الخامس ، فكيف تكون معنويات بلد يمكن لشيء من هذا القبيل ان يحدث فيه ؟ أمـــا اذا كانت التهم ملفقة ، ألا يعني ذلك ان نظام الحكم الذي تسوّل له نفسه مثل هذه التخريفات هو نظام حكم متعفن جملة وتفصيلاً ؟ لقد رأينا ان المسألة لم تكن بهذه البساطة ، ولكنها بدت على هذا النحو بالنسبة للمراقبين من الخارج . ولم يكن هؤلاء مخطئين كلياً . فالتصفيات قـد اذت الجيش الاحمر والادارة السوفييتية برمتها . لـكن هذا الاذى لم يكن من الخطورة بحيث يحول دون شفاء بطيء ومرتفع التكاليف ، لكنه اكيد ؛ علماً بان هذا الشفـــاء اقتضى لتحقيقه الحوافز الخارجية الخـــارقة ، وهي الحوافز التي وفرها هجوم هتلر على الاتحاد السوفييتي .

* * *

إذاً ، كانت روسيا معزولة كلياً تقريباً ، لأسباب عديدة متنوعة ، عندما اكتسى التوسع الالماني طابعه الانفجاري . وإذا بمعاهدة ميونيخ تكرس هذه العزلة بحيث اضحت لا تطاق . اعتصم ستالين بصمت قلِق طوال الازمة ، كعادته في مثل تلك الاوقات. قال بعد بضعة اشهر : « كأني بهم لم يتنازلوا عن المقاطعات التشيكية إلا كمكافأة لألمانيا على تعهدها بشن حرب ضد الاتحاد السوفييتي » . لم يخطر بباله سبب آخر قد يحدو بشمبرلن ودالادييه لأن يساعدا هتلر ، بملء ارادتهما ، على تقسيم تشيكوسلوفاكيا . كل الحديث عن الضمان الجماعي اضحى حديثاً سخيفاً ليس إلا . الجميع يهمل أو يتجاهل عصبة الامم ومجلسها حيث روسيا عضو دائم . بريطانيا تعامل روسيا بازدراء وليس بينهما أية معاهدة رسمية . أما فرنسا ، فقد بدت في اعين العالم كأنها مزقت معاهدة التحالف المعقودة بينها وبين روسيا . كانت التحالفات بين روسيا وفرنسا ، وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا، وروسيا وتشيكوسلوفاكيا احلافاً مترابطة . فقد تعهد كل من فرنسا وروسيا بان يحمل السلاح دفاعاً عن تشيكوسلوفاكيا ؛ لكن روسيا لم تكن ملزمة بدخول الحرب إلا بعد ان تدخلها فرنسا . ولما تجاهلت فرنسا مصالح حليفتها وكرامتها ، وعاملت عدوها المقبل وكأنه حليف وحليفها الفعلي وكأنه عدو ، دفعت بروسيا الى ان ترد لها الكيل كيلين والصاع صاعين . طبعاً ، لم تكن بريطانيا ملزمة بتعهدات لروسيا أو لتشيكوسلوفاكيا ؛ ولكن بما ان تشمبرلن ، وليس دالادييه ، كان صاحب مشروع معاهدة ميونيخ، اضيفت بريطانيا هي كذلك الى قائمة الذين جرحوا روسيا وأهانوها .

خلال الازمة ، امر ستالين ليتفينوف بان يبلغ التشيكيين ان روسيا مستعدة لأن تخوض الحرب دفاعاً عن تشيكوسلوفاكيا شريطة ان يفي الفرنسيون بالتزاماتهم هم ايضاً. وبما ان فرنسا نكثت بالعهد فلم تفِ بالتزامها ، لم تعد روسيا مضطرة لأن تفي بالتزامها ولكن دون ان يُحسب هذا عليها بانه نكث للعهد. ولما اجتاح البولونيون تشيكوسلوفاكيا، ابلغتهم موسكو انها لا تعتبر انهم اقدموا بذلك على عمل عدائي ضد روسيا . مرّة اخرى ، يطرح السؤال التالي : هل كان ستالين مستعداً حقاً لأن يقوم عام ١٩٣٨ بما لم يرد القيام به عام ١٩٣٩؟ هل كان ينوي الوفاء بالعهد الذي قطعه ليتفينوف على نفسه امام التشيكيين في الساعة الحرجة ؟ لنفترض ان الغرب خاض الحرب دفاعاً عن تشيكوسلوفاكيا ، هل كان ستالين انسحب منها أم لا ؟ قد يغوص مؤرخ تلك الفترة في مثل هذه التأملات ؛ لكنه لا يملك أية وسيلة تمكنه من ان يعرف ما الذي كان يدور في

ذهن ستالين في شهر ايلول من عـــام ١٩٣٨ . ولو اننا اردنا محاكمة ستالين على سلوكه آنذاك ، فليس لدينا ما نأخذه عليه . ظل ، حتى اللحظة الاخيرة ، يعرب عن استعداده للقتال ، ولكن على غرار ذلك الجندي الباسل الذي حالت هدنة جاءت في غير أوانهـــا دون إقدامه على عمل عسكري خارق — ولكن مع فـــارق واحد هو ان القتال لم يبدأ أصلاً في الحالة التي نعالجها . ولعل رأي ستالين بعد ميونيخ كان يختلف عن رأيه قبلهـــا . فتقسيم تشيكوسلوفاكيا ادى الى تغيير ميزان القوى في اوروبا الشرقية لغير صالح روسيا إطلاقاً . وإذا بالمجازفة ، بنظر ستالين ، أكبر عـــام ١٩٣٩ مما كانت عليه عام ١٩٣٨ . وكان آنذاك اشد ارتياباً بان الغرب يسعى الى اثارة المانيا ضد روسيا ؛ فاشتدت بالتـــالي رغبته في ان ينتقم من الغرب .

كان الاتفاق غير المكتوب لمعاهدة ميونيخ هو الابقاء على روسيا خارج اوروبا. ليست الدول الغربية الكبرى — أو الدول التي تبدو كبيرة — هي الـــتي رغبت في عزل روسيا وحسب ، بل ان حكومات الامم الصغيرة في اوروبا الشرقية راحت هي ايضاً تصيـــح بالدب الاكبر : « ابقَ حيث انت ، لازِم عرينك » . فقبل توقيـــع معاهدة ميونيخ بفترة من الزمن ، عندمـــا كان الفرنسيون والروس لا يزالون يناقشون امكانات العمل المشترك دفاعاً عن تشيكوسلوفاكيا،رفضت الحكومتان البولونية والرومانية بعناد السماح للقوات الروسية بان تمر الى تشيكوسلوفاكيا . وقـــد حرما الجيش الاحمر من حق المرور ليس بسبب خوفهما من الشيوعية وحسب ، بل وايضاً بسبب عطفهما على هتلر . وهـــذه حادثة نموذجية من عدة حوادث بيَّنت لستالين طريقة تفكير هاتين الحكومتين : قبل توقيـــــع معاهدة ميونيخ بقليل ارسلت ست طـــائرات روسية الى تشيكوسلوفاكيا عبر الاجواء الرومانية ؛ وعلى الرغم من ان الروس التزموا بكل قوانين النقل ، فقد احتج على الحادثة الكولونيل بيك ، وزير الخـــارجية البولوني ، ثم زميله الروماني . وقد توالت العديد من الاهانات والازعاجات المماثلة لفترة طويلة من الزمن .

يبدو ان فكرة التقارب مع المانيا تبلورت في ذهن ستالين بعد معاهده ميونيخ بقليل. كانت الآمال العريضة المعقودة على السلم ، التي اثارها موقعو معاهدة ميونيخ ، قد تلاشت سريعاً . وتبين ، بما لا يسمح الشك ، ان هتلر يحاول ان يتفادى بعثرة قواته ، وانه يسعى الى تجميعها ضد عدو واحد : الغرب أو الشرق . فكانت تلك اللحظة المؤاتية لكي يحاول

ستالين التأثير على القرار الذي سوف يتخذه هتلر . إلا ان المخاطر التي تنطوي عليها مثل هذه البادرات ضخمة ولا شك : فاذا رفضها هتلر ، فسوف يعرض ذلك بمكانة روسيا على رأس التحالف المعادي للفاشية علاوة عن انه لن يكسبها شيئاً البتة ، وسوف تجد الحكومتان الفرنسية والبريطانية في ذلك افضل مبرر لأن تطلقا يد هتلر في ضرب الشرق . المهمة التي سوف يتولاها ستالين تتطلب من المرونة التكتيكية الحد الاقصى . كان عليه ، لفترة من الزمن على الاقل ، ان يلعب على الحبلين دون ان يلاحظ احدٌ ذلك . بمقدوره طبعاً ان يجس نبض هتلر عبر الطرق الدبلوماسية المألوفة ، لكن هذه لم تبدُ لها مأمونة الجانب . السفير الالماني في موسكو — الكونت فون شولنبرغ — هو دبلوماسي من المدرسة البسماركية المؤيدة للتقارب الروسي الالماني ؛ ولكن ذلك بحد ذاته يجعل من آرائه مختلفة عن آراء وزارة الخارجية الالمانية ، وطبعاً مختلفة عن آراء هتلر نفسه . ومن جهة اخرى ، فان ميراكالوف ، السفير الروسي في برلين ، هو دبلوماسي من الدرجة الثالثة ، يكاد يتعذر عليه الوصول الى الشخصيات المهمة في الرايخ الثالث . وبالاضافة الى كل ذلك ، فان تبادل الرسائل سراً قد يؤدي الى تسربات مسيئة . فقرر ستالين ، وبذكاء ، ان افضل حل هو في ان يطرح بادرته علناً على شكل مبطن ولكن سهل الفهم في آن واحد .

وقد وفّر له المؤتمر الثامن عشر للحزب هذه الفرصة . وهو المؤتمر الذي التأم في مطلع شهر آذار ، بعد انقطاع دام اربع سنوات . وكان المقرّر ان يتقدم هو ، بوصفه الامين العام ، بتقرير يستعرض فيه الاحداث المحلية والخارجية طوال السنوات الاربع المنصرمة . فمن المؤكد ان تصغي الدوائر الاجنبية الى هذا الخطاب ، وهو ابرز حدث في المؤتمر ، باهتمام كاف بحيث لا تفوتها أية تلميحات معدة للاستهلاك الخارجي . ومن جهة اخرى ، فان أي بادرات مبطنة يمر عليها الامين العام مرور الكرام في تقريره الروتيني لن تثير من الضجة قدر ما تثيره لو طُرحت في مناسبات اخرى . اخيراً ، عندما القى ستالين خطابه — في العاشر من آذار — كانت المقاطع المخصصة للوضع الدولي آية نادرة في التورية .

قال : « إن حرباً امبريالية جديدة تخاض منذ سنتين على مساحة هائلة ، تمتد من شانغهاي الى جبل طارق ، وتشمل ما يزيد عن ٥٠٠ مليون نسمة » . وتشير عبارة

« الحرب الامبريالية الجديدة » بشيء من الغموض ، الى انه يعتبر المحاربين المقبلين مجرد امبرياليين يجدر بروسيا ان تبقى بمعزل عنهم جميعاً . ثم راح يبيّن العلاقة بين اقتراب الازمة الاقتصادية وبين الحرب . هنا وصف المانيا وايطاليا واليابان ، صراحة ، بانها « بلدان عدوانية » ، وقال انها سوف تسعى الى الهرب من ازمة اقتصادية حادة سوف تعصف باقتصادياتها عن طريق القفز الى حرب عالمية. وفي معرض إبراز الخلفية الاقتصادية للوضع الدبلوماسي ، راح يؤكد تفوّق الولايات المتحدة وبريطانيا اقتصادياً وإمكان تفوّقها عسكرياً . ولا تكمن واقعية ملاحظته في تقويمه الصحيح لمختلف القوى وحسب ، بل وايضاً في افتراضه الضمني بان الولايات المتحدة سوف تدخل الحرب عاجلاً أم آجلاً ، وهو افتراض كان مستبعد التصديق في تلك الآونة . وعقب ذلك هجوم عنيف على التخاذل الغربي : « ان الحرب تخوضها دول معتدية تمسّ مصالح الدول غير المعتدية في كل مناسبة من المناسبات وخاصة انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة ؛ في حين ان هذه الاخيرة ترتدّ وتتراجع وتقدم التنازلات الواحدة بعد الاخرى للمعتدين » . وحلّل دوافع المتخاذل في محاجة محكمة : خوفهم من الثورة ، حيادهم بين المعتدين وبين ضحايا العدوان ، ورغبتهم في ترك روسيا والمانيا يضعف وينهك واحدها الآخر ؛ وبعد ان يكون التعب قد اخذ منها مأخذه ، يتدخل المتخاذلون بقوة موفورة ليفرضوا شروطهم على المتحاربين المنهكين . فذلك رخيص وبالغ السهولة » . الى هنا ، لا تزال خطبته شبيهة بنداءات ليتفينوف الى عقد اتفاقية ضمان جماعي ، على الرغم من مرارة الانتقادات التي تحتوي عليها . فهي توحي بان روسيا ترفض الدخول بمفردها في معركة ضد النازية ، ولكنها مستعدة للانضمام الى تحالف واسع ضدها . ولكن انتقل ستالين فجأة الى القول بانه لا يرى « مبرّرات كافية » لنشوء نزاع بين روسيا والمانيا ، على الرغم من ان الغرب يحرّض روسيا على المانيا . وراح يهزأ ، بتعابير ساخرة فظة ، من اصدقاء النازية من الغربيين الذين يغرون الرايخ الثالث بالهجوم على روسيا ، فيخيّب القادة النازيون آمالهم . واوصى بان القادة النازيين المسؤولين ليسوا من فئة « المعتوهين الالمان » الذين يحلمون باحتلال اوكرانيا ، والذين تملك روسيا لهم ما يكفي من « مستشفيات الامراض العقلية » لالقائهم فيها . وختم مكرراً اهداف سياسته الخارجية ، وهي اهداف تتعارض الواحدة منها مع الاخرى . فهو يريد ان تتعامل روسيا مع جميع البلدان الاخرى ، على

الرغم من انه هو نفسه اراد ان يبرهن أن زمن التعامل العادي قد انقضى ، وان الحرب العالمية مندلعة لا محالة . وهو يريد ان تحسن روسيا علاقاتها بجميع جاراتها ما دامت هذه لا تعمل « بشكل مباشر أو غير مباشر » ضد مصالحها – وهذا مبدأ الانانية المقدسة للدولة الاشتراكية . ووعد ، في الوقت ذاته ، بأن يمحض ضحايا العدوان النازي دعم روسيا الكامل . هكذا القى بكل اسلحته في المعركة . توسّل الى فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة من اجل ان تتخذ موقفاً حازماً ضد المعتدين وارعد وازبد مهاجماً سياسة الاسترضاء ؛ وتوسّل ، من جهة اخرى ، الى المعتدين انفسهم من أجل ان يتركوا روسيا وشأنها ملمّحاً بأنهم لو فعلوا ذلك فانه ، اي ستالين ، سوف يخرج اليهم بنسخته الخاصة عن سياسة الاسترضاء ، نسخته الخاصة عن معاهدة ميونيخ ليست اقل شأناً من معاهدة تشمبرلن . إلا ان الثقل في محاجته كان في التأكيد على العداء للنازية ؛ أما وعده بانتهاج سياسة الاسترضاء خاصة به فقد كان غامضاً جداً . كان لا يزال يأمل بأن يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه للاتفاق مع بريطانيا وفرنسا ؛ اما الباب الآخر – وهو الذي سوف يدخل روبنتروب منه عما قريب – فلم يفتحه إلا جزئياً . وبعد اسبوع من قيامه بعملية جسّ النبض هذه ، امر ستالين ليتفينوف بأن يدين احتلال هتلر لبراغ وان يعلن ان روسيا لن تعترف بالانتداب النازي على تشيكوسلوفاكيا .

لا يسعنا هنا إلا ان نورد الاحداث الاساسية التي جرت خلال الاشهر اللاحقة . في الثامن عشر من آذار ، اي اليوم الذي ادان فيه ليتفينوف احتلال النازيين لبراغ ، سألت وزارة الخارجية البريطانية عما يكونه موقف روسيا لو ان رومانيا تعرّضت للعدوان . فاقترحت موسكو عقد ندوة تضم بريطانيا وفرنسا ورومانيا وبولونيا وتركيا وروسيا ، ولا يمكن ان يكون لهذه الندوة أي معنى غير اقامة حلف معادٍ للنازية تكون روسيا احد قادته الرئيسيين . فرفض تشمبرلن حتى مناقشة الاقتراح . واعلن ، بعد بضعة ايام من ذلك ، توقيع معاهدة التعاون المشترك الانكلو – بولونية ، التي سرعان ما عقبها تقديم الضمانات البريطانية لاستقلال رومانيا واليونان وسلامة اراضيها . وفقط بعد ان تورّطت بريطانيا ، على غير عادتها ، ببعض الالتزامات في اوروبا الشرقية ، راحت دوائرها الدبلوماسية تحاول الاتصال باقوى قوة في ذلك الجزء من العالم . وسئلت روسيا ، في الخامس عشر من نيسان ، ما اذا كانت توافق على ضمان حدود بولونيا ورومانيا . وكان المفروض ان يكون ذلك « ضماناً من جهة واحدة » بمعنى آخر : لا يزال يُطلب من الدبّ

ان يلازم عرينه ، ويُطلب منه ، الى ذلك ، بان يخرج منه ويعود اليه حسب رغبات جيرانه الصغار عندما يكونوا بحاجة الى مساعدته .

* * *

في السابع عشر من نيسان،خطت الدبلوماسية الستالينية خطوتين باتجاهين متعاكسين. فرفض ستالين الاستجابة لطلب انكلترا للالتزام ، من طرف واحد وحسب ، بحماية حدود رومانيا وبولونيا . واقترح في المقابل عقد حلف وتوقيع معاهدة عسكرية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا تتعهد الدول الثلاث بموجبها بحماية كل الدول الواقعة بين البلطيق والبحر الاسود من اي عدوان قد تتعرض له . ومن جهة اخرى، الح ميريكالوف ، السفير الروسي في برلين ، في احدى زياراته الدورية لوزارة الخارجية الالمانية ، الى موضوع التقارب الالماني ــ الروسي ، ولكن بكثير من الاحتراس . ثم اخذ ستالين يترقب ردود الفعل لهاتين الخطوتين . فاذا بردود الفعل الصادرة عن باريس ولندن مخيّبة للآمال . يبدو ان القوى الغربية تنوي استخدام روسيا كحليف في الاحتياط . لكنها مصمّمة على تحاشي عقد حلف رسمي معها . وحتى لو تبيّن ان لا مفرّ من هذا الحلف ، فهي تريد الحيلولة دون تمتع روسيا باي تأثير على مصيره . فهذه الدول تعتبر ان قوة بولونيا العسكرية موازية لقوة روسيا ، إن لم تكن متفوقة عليها . اما بالنسبة للدول الواقعة بين البلطيق والبحر الاسود ، فراحت تصيح مكررة رفضها التحالف مع جارتها الكبرى . فهي تخشى على استقلالها من منح ستالين حرية التحرك عسكرياً على اراضيها . وسرعان ما تبيّن ان تخوّفها في محله ؛ لكن ذلك لا ينفي رسوخ حجّة ستالين : فلا يعقل ان يرضى بالمجازفة باشعال الحرب إذا لم يُسمح له بان يحمي مشارف ليننغراد وموسكو على البلطيق. واعلنت بولونيا استغناءها عن التحالف،لأنه في حال نشوب الحرب،سوف يكون الجيش البولوني منهمكاً كلياً في الدفاع عن ارضه بحيث يتعذّر عليه ان يهب لنجدة الجيش الاحمر . فرفضت الحكوماتُ الغربية المقترحات الروسية بحجّة الاعتراضات التي أثارتها عليها جارات روسيا الصغرى . وهذا ما أعتبره ستالين مجرد تبرير لا غير ؛ وقال انه لو كانت القوى الغربية راغبة فعلاً في التحالف مع روسيا لكانت تجاوزت هذه الاعتراضات او اهملتها . وحتى في ذلك الحين ، لم يتمالك نفسه من الشعور بانه لا يستطيع ان يتوقع من لندن وباريس غير العراقيل والإهانات .

خلال ذلك ، اكل هتلر الطعم . ففي الثامن والعشرين من نيسان . القى هتلر خطاباً طناناً هدد فيه بولونيا بالحرب ؛ لكنه ، على غير عادته ، امتنع عن توجيه اية ملاحظة غير ودية لروسيا . واوقفت صحفُه هجماتها التقليدية ضد البلاشفة. وما ان شارف نيسان على نهايته ، حتى كان صدر ستالين عامراً بالتفاؤل حول إمكانات علاقته بالمانيا ، رغم احجامه عن المجازفة بقطع علاقاته بفرنسا وبريطانيا . وفي الثالث من ايار ، اقال ليتفينوف – اليهودي ذو الميول الاوروبية – من وزارة الخارجية ، واستبدله بمولوتوف وهو بلشفي من صنع محلي ، يسهل عليه التفاوض مع النازيين بسبب انتمائه الى العرق الآري ، فضلاً عن انه كان يثق به اكثر من ثقته بليتفينوف .

في ١٩ ايار من العام نفسه ، وجّه رئيس الوزراء البريطاني ملاحظات قارصة ضد روسيا امام مجلس العموم . وفي العشرين منه ، اتصل مولوتوف بالكونت فون شولنبرغ بتوجيه من ستالين . وكان الالمان قد اعربوا عن رغبتهم في فتح باب المفاوضات التجارية التي كانت قد اخفقت في السابق . فردّ مولوتوف على ذلك بقوله انه ينبغي التوصل الى «اساس سياسي مشترك» تقوم عليه المفاوضات. عبثاً حاول السفير الالماني ان ينتزع من مولوتوف المزيد مما يجول في ذهنه . فكتب فون شولنبرغ الى برلين يقول : « يبدو ان الهرّ مولوتوف مصمّم على الا يضيف كلمة واحدة على ما قاله . وهو رجل معروف بعناده ». بعد ان خطا ستالين الخطوة الاولى ، توقّع من هتلر ان يبادر بالثانية . الا ان الوقت لم يكن قد حان بعد ليورط هتلر نفسه باية التزامات محددة . اذ ذاك اطلق ستالين يد جورج استاخوف ، وهو موظف مغمور يشغل منصب مستشار في السفارة الالمانية ببرلين ، في جسّ نبض وزارة الخارجية الالمانية عن طريق اطلاق بعض العبارات الزاخرة بالمعاني . وكان يسهل على ستالين ان يتنصل بسرعة من المسؤولية عن اعمال استاخوف فيجعل منه كبش المحرقة . وذهب في حذره الى حد ان استدعى ميريكالوف ، سفيره في برلين، وابقاه بعيداً عن مركز عمله طيلة فصلي الربيع والصيف . وكان لغياب السفير المديد وظيفة مزدوجة : فهو يقلل من مسؤولية موسكو عن اتصالات استاخوف من جهة ، ويموّه خطورتها من جهة اخرى .

في اواخر حزيران ، بدا وكأن مناورات ستالين مع برلين ولندن وباريس قد وصلت الى طريق مسدودة . ففي العواصم الثلاث على حد سواء تسود الريبة وتكثر محاولات

كسب الوقت . ولكن يبدو ان هتلر هو اول من تراجع في هـذا اللعب على الاعصاب المتعدد الاطراف . وعلم ستالين ، بطريقة خفيـة عبر شيانو ، ان المانيا اضحت على استعداد لاتخاذ موقف ودي من روسيا . لكنه لم يعلم ان ريبنتروب كان يلح على سفارتـه في موسكو لأن تحمل الروس على الافصاح عن نواياهم. فتجيب السفارة بشيء من الاعتذار انها لم تفلح في جعل مولوتوف وميكويان يفصحان عن نوايا حكومتهما . اخيراً ، وافق الروس على الشروع بالمداولات التجارية مع المانيـا دون الاصرار على ارساء « الاساس السياسي » لها اولاً ؛ وذلـك في ٢٢ تموز ، اي بعد ان اضحت بولونيـا مهددة فعلاً بالعدوان . وبعد ثلاثة ايام من ذلك التاريخ ، وافقت كل من باريس ولندن ، بعد لأي ، على ارسال بعثتها العسكرية الى موسكو . ها هو ستالين يدخل بلعبته المزدوجة طورها الحاسم ، ويعمل المرة تلو الاخرى على تعزيز مواقعه . فهو لا يزال مشرّعاً بابه الامامي للبريطانيين والفرنسيين،مقتصراً في اتصالاته مع الالمان على استعمال الباب الخلفي وحده . فاوكل الى فوروشيلوف ، مفوض الدفاع وابرز القادة العسكريين ، بمهمـة التفاوض مع البعثتين العسكريتين الغربيتين . في حين كان العبء الاكبر من الاتصال بالنازيين لا يزال يقع على عاتق أستاخوف .

على الرغم من ان العديد من الوثائق قد نشر حول احداث تلـك الفترة ، فلا يزال يستحيل علينا حتى الآن ان نعين بثقة الجانب من اللعبة الذي اولاه ستالين القدر الاكبر من اهتمامه : ألى ما يُعرض على المسرح ، ام الى ما يُحاك في عتمـة الكواليس . ولكن المؤكد انه لو تعمَّدت الحكومات الغربية ان تدفع به الى الارتماء بين احضان هتلر ، لما كانت تصرّفت على نحو مختلف عما كانت تتصرفه . فقد اجّلت البعثة العسكريةالفرنسية ـ البريطانية سفرها لمدة ثلاثة عشر يوماً . وتعمدت السفر على متن ابطأ سفينـة موجودة بحيث استغرقت رحلتها خمسة ايام كاملة . كل ذلك ليتبيّن عند وصولها الى موسكو ان صلاحياتهـا جد مبهمة . فكل من فرنسا وانكلترا الذي هرع رئيس وزرائها الى ميونيخ عند بروز اوهى بادرة من طرف هتلر دون ان يجد في ذلك ما ينتقص من قيمته ، رفض ارسال اي موظف برتبـة وزير للتفاوض مع روسيا بشأن التحالف المنوي عقده . فالموظفون الذين ارسلوا للمداولات العسكرية مع روسيا كانوا ادنى رتبة من الذين ارسلوا لنفس الغرض الى بولونيا وتركيا مثلا. وحتى لو ان ستالين كان يرغب فعلاً في عقد تحالف، فالطريقة التي عومل بها كانت كفيلة بان تجعله يتخلى عن مشروعه . ومن جهـة اخرى ،

فلو انه كان ينوي التفاهم مع هتلر وراح يفاوض القوى الغربية لمجرد الحصول على عذر يسمح له بلوم البريطانيين والفرنسيين على اجهاض التحالف العظيم المنتظر ضد النازية، فان البريطانيين والفرنسيين وفروا له هذا العذر مجاناً وباندفاع غريب .

لعل المسألة لم تكن قد حُسمت بعد في ذهنه عند مطلع صيف ١٩٣٩ . والمؤكد ان فكرته السابقة حول ضرورة ابقاء روسيا بعيدة عن الحرب كافضل اجراء ممكن لم تكن قد فقدت شيئاً من جاذبيتها بالنسبة له . فلا شيء يغريه اكثر من ان يكون المشاهد ثم الحكم في النزاع المقبل . ولا شيء يشبع هذا الطموح غير التحالف مع هتلر : فالتحالف مع الغرب يجبر روسيا على القتال منذ اول يوم من الحرب . وهذا ما دفعه الى السعي وراء اتفاق مع عدّوه اللدود . ولكن ، هل ان هتلر ، من جهته ، مستعدّ لعقد مثل هذه الصفقات ؟ لم يكن ستالين قد وجد جواباً على سؤاله هذا قبل شهر واحد من اندلاع الحرب . فلم يتقدم في اواخر تموز ابعد من محاولات رصد غامضة النتائج ، اي انه لم يتجاوز النقطة التي كان قد وصل اليها في اوائل الربيع . فمنذ ذلك الحين ، لم تبذل محاولة محددة واحدة تمهيداً للتقارب الروسي – الالماني . نتيجة لهذا الوضع ، شعر ستالين بانه لن يعجز عن ابقاء روسيا خارج الحرب وحسب ، بل ان روسيا قد تكون الضحية الاولى للعدوان الالماني اذا هي ظلت على انعزالها عن الغرب . صحيح ان بولونيا ، الهدف المباشر لتهديدات هتلر ، لازالت تفصل بين روسيا والمانيا ، وان القوى الغربية قد تعهدت بنجدتها . لكنه افترض – كما قال لتشرشل فيما بعد – ان القوى الغربية قد تتخلى عن بولونيا مثلما تخلت عن تشيكوسلوفاكيا بحيث تتواجه روسيا والمانيا مباشرة. وعلى الرغم من تفضيله عقد صفقة مع هتلر ، لعله كان لا يزال مستعداً ، نظراً لجميع مبهمات الوضع ، ان يصافح اول يدّ تمتد لمصافحة يده : ولعله كان رضي بالانضمام الى التحالف المضاد لهتلر لو ان الشروط التي قدمتها القوى الغربية افسحت المجال امام روسيا بان تلعب فيه الدور الذي يظنها خليقة به. قبل زيارة ريبنتروب لموسكو بثلاثة اسابيع، كتب شولنبرغ الى برلين يقول : « انطباعي العام هو ان الحكومة السوفييتية مصممة حالياً على عقد معاهدة مع انكلترا وفرنسا اذا لبّى هذان البلدان جميع رغبات السوفييت » .

في النصف الاول من شهر آب ، طرأ انعطاف حاسم على سير الاحداث . إذ تبيّن ،

بما لا يفسح مجالاً للشك، ان هتلر يسعى وراء كسب ودّ ستالين . وازداد الحاحاً يوماً بعد يوم . وكان استاخوف ، يكتب التقرير تلو الآخر حول تزايد لهفة وزارة الخارجية الالمانية للتوصل الى تفاهم ودي مع روسيا. وفي الثالث من آب، سلم شولنبرغ الى مولوتوف رسالة من ريبنتروب يكاد يتخلى فيها المعاهدة عن المعادية للكومنترن ، ويعد « باحترام المصالح السوفييتية في بولونيا ودول البلطيق » . وكان ستالين قد استقر على رأي : قرر، رغم كل شيء الا يدخل الحرب . الا انه لم يكن على عجلة من امره في مصافحة يد هتلر الممدودة اليه ... فطأطأ مولوتوف رأسه وابلغ شولنبرغ بوقار انه لم يلحظ تبدلاً يذكر في مشاعر المانيا تجاه روسيا . ورفض اقتراحاً المانياً بادراج مقطع عن الصداقة الروسية — الالمانية في صلب المعاهدة التجارية المنوي توقيعها ؛ وظل يلمح الى شولنبرغ ، ولكن بابهام، الى ان سياسة المانيا تجاه بولونيا تدينها بالعدوان. وعندما بلغ نفاذ صبر ريبنتروب ذروته فراح يتوسل طالباً مقابلة ستالين ، قوبل طلبه بالرفض اول الأمر ؛ ثم اوعز ستالين الى مولوتوف بان يردّد ، ازاء تساؤلات شولنبرغ المتكررة ، اللازمة المعهودة حول ضرورة القيام « باستعدادات طويلة » قبل ان يتمكن مبعوث هتلر من زيارة موسكو . فاذا بالجولة تنتهي وهتلر — الرجل الذي ترتعد اوروبا خوفاً منه — يتودّد الى ستالين ، الرجل الذي نبذته الدبلوماسية الغربية .

* * *

لقد تسنى لنا تعيين اللحظة التي قرر فيها ستالين التفاهم مع هتلر — كان ذلك حوالي الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر التاسع عشر من آب . في الساعات الاولى من بعد ظهر ذلك اليوم، تقدم شولنبرغ مجدداً من مولوتوف بطلب تحديد موعد لزيارة رئيسه لموسكو. فاذا بمولوتوف ، الذي لم يأبه باحتجاجات السفير الالماني ، يكرر قوله انه يستحيل تحديد موعد الزيارة ، ولو على نحو تقريبي ، لان ذلك يتطلب الكثير من الاستعداد . وتذمَّر بقوله ان ريبنتروب ، على كل حال ، لم يعرب عن نواياه بوضوح . ولما انتهى اللقاء في الساعة الثالثة ، سارع مولوتوف الى ابلاغ ستالين بما جرى بينه وبين السفير الالماني . اذاك اوعز اليه ستالين بان يستدعي شولنبرغ فوراً وان يسلمه مسودة معاهدة مشتركة، وان يبلغه انه — اي ستالين — مستعد" لاستقبال ريبنتروب في غضون اسبوع . في الثالثة والنصف كان مولوتوف قد اعاد الاتصال بالسفير الالماني . وفي اليوم التالي ، طلب هتلر شخصياً من ستالين ان يستقبل مبعوثه قبل يومين او ثلاثة من الموعد

المحدد . فالحرب واقعة لا محالة ، والوقت ثمين . فوافق ستالين . وكانت تلك المرة الاولى التي يتبادل الرجلان فيها الرسائل الشخصية . كان اسلوب هتلر طناناً مصطنعاً . تحدث في رسالته بطريقة خطابية عن « السياسة الطويلة المدى » وعن « القرون السالفة » وما شابه . ولم يتمالك نفسه من اطلاق صيحات التهديد ضد بولونيا باسلوب هستيري هائج عندما كان المفروض فيه ان يهمس في اذن ستالين بكثير من الدراية السياسية . واكثر من استعمال صيغة المفرد : « اني اقبل »، « اني ارّحب »، « وزيري »، « هذا يعني بالنسبة لي » . اما جواب ستالين فكان مهذباً مبتسراً ، يكاد يكون بارداً اذا ما قيس بخطورة المناسبة ، وموضوعياً اكثر من اللزوم : « ... ان الحكومة السوفييتية قد كلفتني ان ابلغكم موافقتها على زيارة الهر ّ ريبنتروب الى موسكو في ٢٢ آب » .

تداول الطرفان في القضايا الاساسية المشتركة خلال اجتماعين عقدا في الكرملين ، عشية ٢٢ آب وفي الساعات الاخيرة من ليلة اليوم ذاته ، ووّقعا معاهدة عدم اعتداء و«بروتوكولاً اضافياً سرياً».تعهد كل منهما في المعاهدة بان يلتزم بالحياد بالنسبة للاخر في حال اشتراكه بحرب ما.لم تتضمن الوثيقة تأكيدات بصدد الصداقة بين الطرفين، باستثناء الاشارة الى وجوب تصفية الحكومتين للخلافات التي قد تنشب بينهما « عن طريق تبادل الآراء الودي » . ولم يكن بالامكان ان يخطر ببال ستالين ، ولو للحظة واحدة ، ان المعاهدة قد حرّرت هتلر فوراً من كابوس يقضّ عليه مضجعه هو اضطراره الى خوض الحرب على جبهتين ؛ وانها بهذا المعنى بدأت الحرب العالمية الثانية . على انه لم يعان من وخز ضمير . فالحرب برأيه واقعة لا محالة مهما تكن الاحوال : ولو انه لم يوقع المعاهدة مع هتلر فالحرب سوف تنشب عاجلا أو آجلاً ولكن في ظروف اكثر اضراراً لمصالح بلاده . لم يشعر بانه مشعل حرائق – فهتلر هو الذي يتولى اضرام الحرائق في العالم . اما هو ، اي ستالين ، فانه يبعد اوارها عن روسيا لا اكثر ولا اقل . صحيح انه توّقع ان تصمد بولونيا اكثر مما صمدت فعلاً . لكنه لم يكن يشك بانها سوف تُهزم وان القوى الغربية لن تتمكن من مساعدتها ، او هي لن تحاول مساعدتها أصلاً . فرأى بالتالي ان المانيا تنقل مركز انطلاقها لهجوم محتمل على روسيا مسافة بضع مئات من الاميال شرقاً . فاعتبر ان مهمته تتلخص في التخفيف من الخطر الستراتيجي الذي يخفّ بهذا التغيير ، ولم يكن ذلك ممكناً الا إذا اشتركت روسيا في تقسيم بولونيا.

وهذا ما تناوله « البروتوكول السرّي » . فتخلى ستالين بذلك عن شعـــاره المفضل في السياسة الخارجية : « لا نريد موطىء قدم على أرض أحد » .

هكذا بدأت حقبة التوسّع الاقليمي الروسي . ودافع ستالين الاساسي هنـا السعي وراء الامن ، الامن عينه الذي دفع بالقياصرة الروس في القرن التاسع عشر الى الاشتراك في ثلاث عمليات لاقتسام بولونيا خوفاً من ازدياد القوة العسكرية للدولة البروسية. بمقتضى التقسيم الرابع هذا ، مُنحت روسيا الاراضي الواقعة بين انهر الناريف والفيستولا والسان بحيث اضحت مراكزها الامامية عند ضواحي وارسو ، على الضفة الشرقية من الفيستولا. واعتـــبر البروتوكول السري ان فنلندا واستونيا ولاتفيا تقع ضمن « منطقة النفوذ » الروسية ، وليثوانيا ضمن « منطقة النفوذ » الالمانية . هكذا حصلت روسيـا على حماية للينينغراد ، عاصمتها ، الثانية ، التي كانت في السابق مكشوفة على نحو خطر . واعترف البروتوكول، الى ذلك، بحقها في ضم بيسارابيا؛ واعلنت المانيا انها غير « مهتمة سياسياً» بالبلقان . كانت صياغـــة البروتوكول السرّي غامضة ، والسبب في ذلك – كما فسّره ريبنتروب فيما بعد – ان كلاً من الطرفين كان لا يزال يتوجّس شراً من الآخر ، ويخشى تسرّب الاخبار والابتزاز . وعلى الرغم من عدم ايضاح معنى عبارة « مناطق النفوذ » ، فقد اعتبر بديهياً انها تعني اي شكل من اشكال السيطرة بما فيهـــا الاحتلال. ولم يناقش مصير دول البلقان بكثير من التفصيل . كان بمكنة ستالين آنذاك ان يملي شروطه حول البلقان ايضاً ؛ لأن هتلر ، في شغفه لان يكون طليق اليدين ؛ كان كريماً جداً بالنسبـــة لاراضي الآخرين. الا ان ستالين كان يتصرف بدافـــع اعتبارات الامن المباشرة ، دونما طموح الى التوّسع من اجل التوّسع . ونظراً لأن المانيا لم تكن تنوي دخول البلقـان ، احجم هو عن دخوله . والاستثناء هنا هو بيسارابيا التي يتحدث سكانها اللغة الروسية ، والتي لم تعترف موسكو، في وقت من الاوقات ، بضمّها الى رومانيا .

ما هي اراء ستالين حول الحرب ؟ ما مدى ايمانه بمتانة اتفاقه مع هتلر ؟ لسنا ندري ما اذا كان ، منذ ذلك الوقت المبكر ، وقد تذّكر السابقة التاريخية التي طالما رجع اليها بعد عام ١٩٤١ – نعني التحالف والحرب بين اسكندر الاول ونابليون . لكنه غالباً مـا تصرف وكأن هذه السابقة نصب عينيه .ها هو قد حصل على نسخة من صلح « تلسيت »، علماً بانه ، على عكس سلفه ، لم يضطر الى مقابلة غريمه على عوّامة في عرض النهر . وبعد توقيع معاهدة « تلسيت » ، نَعِم اسكندر الاول بفترة صلح استغرقت اربـع سنوات

كاملة ، ولم يصطدم بنابليون الا بعد سلسلة طويلة من الحروب . ولا شك في ان ستالين كان يأمل بالحصول على صلح يستغرق من الوقت قدر ما استغرقه صلح سلفه ، وهذا ما يثبته كل خطوة خطاها قبل ان يخيّب هتلر اماله في حزيران من عام ١٩٤١ . والمؤكد ايضاً ان ثقته كانت ضعيفة بانتصار هتلر . فتلخّص هدفه بان يكسب الوقت والمزيد من الوقت ليتسنّى له تنفيذ مشاريعه الاقتصادية وتعزيز قوة روسيا ، ليلقي من بعد بثقله في الميزان عندما تكون الدول المتحاربة قد استنفدت قواها .

حتى احاديثه مع ريبنتروب تثبت ان هذه كانت اراؤه آنذاك وليس لدينا عن هذه الاحاديث غير رواية ريبنتروب، وهي ليست كاملة كلياً وقد تكون غير دقيقة حول بعض النقاط ؛ ولكنها ، رغم ذلك ، تعكس الدور الذي لعبه ستالين بصورة مطابقة لشخصيته . ولم تتقدم المصادر الروسية برواية معاكسة ، ومن المؤكد انها كانت سارعت الى تكذيب المغالطات في رواية ريبنتروب لو ان هذه موجودة .

تحادث ستالين ومبعوث هتلر بلهجة خادعة ، هي لهجة عدوّين تصالحا لتوّهما ، يحاول كل منهما اخفاء سجل طويل حافل بالعداء وراء قناع من الود الزائف المجسّم . والواقع ان احدهما قال للاخر : « قل لي ، ما هي اللعبة الدنيئة التي حاولتم لعبها علينا في المناسبة الفلانية : فاسرد عليك، لقاء ذلك ، بعض القصص السرية قد تثير اهتمامك». الخصمان المتصالحان يشربان ويقهقهان وينطلقان ، ولكن كلاهما متحفظ لئلا تفلت منه سهواً معلومات هامة ، او يقدم على خطوة ما قبل ان يحين اوانها . ويعد كل منهما الآخر باسداء خدمات شخصية لامتناهية ، فضلا عن المعاهدة التي كانا على وشك توقيعها ؛ لكن لا هذا ولا ذاك وفى بالوعد .

دار الحديث الودي بين ستالين وريبنتروب على النحو التالي . يقول ريبنتروب ان الانكليز انفقوا خمسة ملايين جنيه لرشوة السياسيين الاتراك . فيجيبه ستالين : آه ، اؤكد لك انهم انفقوا اكثر من ذلك . وينتقل الحديث الى المعاهدة المعادية للكومنترن. فيلاحظ ستالين ، بتبجح ، انها لم تلقَ الحماس الا في اوساط بلدية لندن وبعض التجار البريطانيين الصغار . فيرد ريبنتروب ، وقد شعر بشيء من الالفة : « هل تعلم ؟ يقال عندنا في برلين انك على وشك الانضمام الى المعاهدة المعادية للكومنترن عما قريب » . النكات تتوالى مع الاهانات الصغيرة . ويلمح ستالين ، بين الحين والآخر ، الى انه لا زال

يعتبر ان هتلر هو الذي بادر الى العدوان، وان الشعب الالماني يرغب بالسلم بالرغم من ان هتلر يريد الحرب . ويتهجم ستالين على البعثة العسكرية البريطانية في موسكو ، التي كان قد فاجأها لتوه بمعاهدته مع هتلر ، فاثار النبأ ذهولها وانزل بها الاهانة . لكنه يرفض ان يتفوه امام ريبنتروب بشيء عن فحوى مفاوضاته مع البريطانيين والفرنسيين ، ولا يعطيه اياً من المعلومات العسكرية ، الهام منها والتافه على حد سواء ، التي تبادلتها البعثتان. ويقطع الطريق عليه بقوله أن البعثة العسكرية البريطانية « لم تعرب للحكومة السوفييتية عن نواياها الحقيقية » . ثم يعرض ريبنتروب خدماته وخدمات الفهرر لاجراء تقارب بين اليابان وروسيا ، فيجيبه ستالين بانه ، وهو ابن القفقاس ، ادرى بطبيعة الآسيويين منه . (عما قريب ، سوف يكرر ستالين هذه الملاحظة بقوله : ، انا آسيوي) ويعرض ريبنتروب « خدمة حبيَّة » اخرى : لقد طلب منه هتلر ابلاغ ستالين بان المانيا ليست مهتمة سياسياً بالقسطنطينية والمضايق . ولم يكن الحديث قد شملها على الرغم من انه شمل تركيا . والسبب في ذلك ان الموضوع ، خلافاً لتوقعات هتلر ، لم يكن قد اثار اهتمام ستالين . فاكتفى هذا بأن طأطأ رأسه موافقاً على شكاوى مبعوث هتلر من مراوغة الاتراك .

ويحاول ستالين جرّ ريبنتروب الى فضح مخططات ايطاليا العسكرية ، ولكن دون نجاح يُذكر . فينتقل الحديث الى انكلترا وفرنسا . فيشير ستالين الى ضعف بريطانيا العسكري ، ويعرب عن مشاعره العدائية نحوها : « إذا كانت بريطانيا قد نجحت في السيطرة على العالم ... فمردّ ذلك غباء البلدان الاخرى التي سمحت لنفسها بان تُخدع . فمن العبث مثلاً ان يسيطر بضع مئات من البريطانيين على الهند » ؛ لكنه يستطرد قائلاً : « ان بريطانيا سوف تخوض الحرب بدهاء وعناد على الرغم من ضعفها ، وهذا رأي لم يشاركه اياه وزير الخارجية النازي . كما انه لم يشاطره تقديره الرفيع للجيش الفرنسي . هنا نصل الى المحور الرئيسي لسياسة ستالين ، والى خطئه الرئيسي : لقد توقع ان تصمد فرنسا وانكلترا طويلاً في وجه المانيا . وعلى الرغم من صحة تقديره لضعف بريطانيا عسكرياً ، فقد جسّم من قوة فرنسا ، واستصغر قوة المانيا الضاربة . فكان آخر من تصوّر انه سوف يستقبل الذكرى الثانية لتوقيع معاهدته مع هتلر بصيحة : « الموت للغزاة الالمان » .

ان اول خطأ في الحساب ارتكبه ستالين ، مع انه ليس من افدح اخطائه ، كان قد ظهر في الايام الاولى من شهر ايلول . فقد تفاجأ للسرعة التي انهارت بها المقاومة البولونية المسلحة . وفي الخامس من ايلول ، عندما راح ريبنتروب يضغط على الروس لكي يتقدموا لاحتلال القسم المحدد لهم من بولونيا ، لم يكن ستالين مستعداً لاصدار أوامر التحرك . فقد استسلم للشكوك والتردد . فرفض المساهمة علناً في هزيمة بولونيا ، كما احجم عن التحرك قيد خطوة قبل ان يضحي انهيار بولونيا اكيداً . وكانت مراجعاته لموقفه تتعلق بالحد الفاصل بين البلدين الذي يضم جزءاً من بولونيا الإثنية الى الجانب الروسي . وهذا ما رفض ان يضمه اليه ، لان فيه خرقاً سافراً جداً للمبادىء السياسية البلشفية المعلنة . وآثر نقل الحدود الى الشرق ، من « الفيستولا » الى « الباغ » ، بحيث لا يبقى ضمن الجزء الروسي إلا الاراضي ذات الغالبية السكانية الاوكرانية أو البيلوروسية . فيسهل تبرير ضم هذه الارض الى اوكرانيا وبيلوروسية السوفييتيتين . فيسمح ذلك للجيش الاحمر بأن يجتاز الحدود ليس بوصفه غازياً لبولونيا ، بل بوصفه محرراً للاوكرانيين والبيلوروسيين، « الاخوة في الدم» كما كان يسميهم بعد ان انتقلت اليه عدوى العرقية من شركائه النازيين. وفيما كان ستالين يتردد ، اخذ ريبنتروب يهدده « بفراغ » سياسي قد ينشأ في بولونيا الشرقية ربما ملأته « دول جديدة » . ولن يترأس هذه « الدول الجديدة » إلا قوميون اوكرانيون معادون للسوفييت . واعترض هتلر بدوره على بيان مشترك اقترحه ستالين يقال فيه ان الجيش الاحمر قد عبر الحدود لكي يحمي الاوكرانيين والبيلوروسيين من النازيين . خلال ذلك الوقت ، كان ستالين قد بدأ ينزعج من تحركات الجيش الالماني في بولونيا الشرقية ؛ فطلب من السفير الالماني تطميناً بأنه سوف ينسحب منها . وفكر ، طوال فترة ، بمشروع اقامة دولة بولونية رديفة . لكنه ما لبث ان تخلى عن فكرته هذه واصدر للجيش الاحمر اوامره بالتقدم .

في نهاية شهر ايلول ، وصل ريبنتروب الى الكرملين مجدداً : يحضر الاحتفالات في المساء وينصت الى اراء ستالين الجديدة . فعقدت صفقة جديدة : احتفظت المانيا بكل بولونيا الإثنية ، لقاء ضم ليثوانيا الى المنطقة السوفييتية .

خسر ستالين الكثير من ثقته بنفسه عندما علم بانتصار هتلر الساحق على بولونيا . وكانت الحرب الزائفة التي يخوضها الغرب تملأ نفسه بالمخاوف : أليست بريطانيا وفرنسا محجمتين عن اطلاق النار بغية تشجيع هتلر على الهجوم على روسيا ؟ انه الآن اول من

يبادر الى عرض خدماته على هتلر . اضيف الى معاهدة عدم الاعتداء اتفاقية صداقة اعلنت ان المهمة الروسية – الالمانية المشتركة هي « اعادة السلم والامن » في بولونيا و « تأمين حياة مسالمة للشعوب التي تقطنها بما يتلاءم مع طابعها القومي » . فلا يحق للقوى الغربية ان تضع المكتسبات الالمانية والروسية موضع التساؤل . لقد تخلى ستالين عن تحفظه وبرودته . فقد اعلن على الملأ اشتراكه في مسؤولية أهوال الاحتلال النازي لبولونيا . فلم يبدُ كزميل هتلر وحسب ، بل وشريكه في جرائمه ايضاً . وتعهدت كلا الحكومتين في بروتوكول سري خاص ان تعمل معاً لقمع الدعاية البولونية المطالبة بعودة استقلال بولونيا . وصدر بيان مشترك تتويجاً المحادثات يدعو الى السلم الفوري واعتبر بريطانيا وفرنسا المسئولتين عن استمرار الحرب . في تأييده « للهجوم السلمي » الهتلري ، كان ستالين يتجاوز نفسه من حيث الخبث . فما من احد يتمنى اطالة الحرب قدر ما يتمناه هو . فلو ان القوى الغربية عقدت اتفاقية هدنة مع المانيا وغضت الطرف عن احتلالها لبولونيا ، لكان هتلر هجم على روسيا في صيف عام ١٩٤٠ .

وكان هذا الخداع هو السمة الرئيسية لتصرف ستالين تجاه هتلر حتى حزيران من عام ١٩٤١ . فكلما ازداد شكه في الفوهرر وخاف من عدوانه ، كلما بالغ وتباهى بالاعراب عن وده نحوه ؛ وفي المقابل ، كلما ابتعدت قوات هتلر عن حدود روسيا ، كلما بردت عواطفه وقلت بادراته . تضمنت الصفقة التي عقدها البلدان على تنازلات من الطرفين . فكان من الطبيعي ان يرغب ستالين في اعطاء اقل ما يمكن وفي اخذ اكثر ما يستطيع . ونصت الاتفاقية على ان تمد روسيا المانيا بالحبوب والمواد الاولية ، وان تتلقى منها ، في المقابل ، آلات وادوات آلية المانية . فكانت اول خطوة اقدم عليها ستالين بعد توقيع المعاهدة ان ارسل بعثاته العسكرية الى المانيا . وليس ادل على الجشع الذي تكشفت عنه هذه البعثات عندما حاولت ، بعد اول فورة من فورات الصداقة ، ان تتحرى اوضاع صناعات الحرب الالمانية من الشكاوى عن « فضولهم الزائد » التي صدرت عن غورنغ وكاتيل ورادير في مطلع تشرين الاول . وبعد ذلك بقليل تذمر القادة الاقتصاديون النازيون من ان الروس يطلبون اعداداً ضخمة من الادوات الآلية لانتاج المدافع فضلاً عن كميات كبيرة من العتاد الحربي الآخر .

ما ان انتهت الحملة البولونية ،حتى راح ستالين يرمق بانزعاج الاراضي الواسعة المجردة من السلاح بين روسيا والمانيا . والواقع ان دول البلطيق لم تعد اراض مجردة من السلاح

منذ شهر آب . ففي ايلول وتشرين كانت القوات الروسية قد تمركزت في استونيا ، لاتفيا ، وليثوانيا . احتفظت البلدان الثلاثة بانظمتها وحكوماتها القديمة ؛ وقد تصرّف ستالين و كأنه لا ينوي اكثر من تأمين قواعد استراتيجية مضمونة . واعرب لاول مرة عن قلقه بشأن البلقان المنطقة المجردة من السلاح . في تشرين الاول ، طلب مولوتوف من البلغاريين ان يعقدوا تحالف مع روسيا . وصب اهتمامه على النزاع المحرج مع فنلندا التي رفضت منح روسيا قواعد عسكرية على اراضيها (وهي بحاجة اليها للدفاع عن لينينغراد) ، كما رفضت ان تعتبر نفسها جزءاً من منطقة النفوذ الروسية .

اندلعت الحرب الروسية – الفنلندية في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٩ . من نزوات التاريخ الماكرة ان تدفع الاعتبارات العسكرية بستالين الى خوض هذه الحرب : ذلك ان هو نفسه الذي اعلن استقلال فنلندا في الشهر الاول بعد ثورة اكتوبر . دافع الفنلنديون عن انفسهم بضراوة . واحرزوا انتصارات مرموقة في اول الامر. وكانت هذه نتيجة صدف في الطقس من جهة ، ونتيجة ضعف القيادة الروسية بعد التصفيات الاخيرة . فتزعزعت هيبة روسيا وانخفضت قدرتها على فرض شروطها . وهددت المغامرة باثارة تعقيدات خطيرة . ارتفع العطف على فنلندا في كل من فرنسا وبريطانيا ؛ ووعدت الحكومتان الحليفتان بتقديم المساعدات العسكرية ؛ وجرى تجنيد جيوش من المتطوعين في كلا البلدين ؛ وفي حين ساد هدوء عجيب على خط سيغفريد وخط ماجينو ، اعلنت الحكومة الفرنسية ان جيشاً جراراً بقيادة الجنرال ويغان آخذ في التمركز في الشرق الاول ، في مقابل جبهة روسيا القفقاسية الضعيفة . وطردت روسيا من عصبة الامم في ١٤ كانون الاول ، هذه العصبة نفسها التي كانت متسامحة الى اقصى حد تجاه الرايخ الثالث وايطاليا الفاشية . وهذا ما اضفى بعض الاساس لارتياب ستالين بان القوى الغربية قد « تنقل » الحرب من المانيا الى روسيا . لم تكن المجازفة الفنلندية تستحق ذلك العناء ؛ لكنه كان منغمساً فيها الى درجة لا تمكنه من التملص بسهولة . وقد احتفل بعيد ميلاده الستين ، في كانون الاول من عام ١٩٣٩ ، وسط هذا الجو القلق . واستغل المناسبة لكي يؤكد لهتلر صداقته بطريقة سخيفة وغير مجدية في آن واحد . فابرق اليه رداً على برقية تهنئة : « ان صداقة شعبي المانيا والاتحاد السوفياتي ، المعمدة بالدم ، تملك جميع فرص الدوام والرسوخ » . كم تمنى ستالين فيما بعد لو ان بمكنته ان يمحو هذه العبارة من سجلات التاريخ !

انتهت الحرب الفنلندية في آذار من عام ١٩٤٠ . فاستعاد الجيش الروسي بعضاً من هيبته . وكان هتلر يمهد آنذاك لهجومه على اوروبا الغربية ؛ ولعل الخوف من ان يقدم ستالين على « طعنه من الخلف » لم يكن بعيداً عن فكره . مرة اخرى ، تبادل الرجلان الادوار . ففي ٢٨ آذار ، ابرق ريبنتروب الى سفيره في موسكو بما يلي : « الفوهرر لن يكون سعيداً جداً لاستقبال ستالين في برلين وحسب ، بل انه سيسعى ايضاً الى ان يحظى ستالين الاستقبال الذي يتلاءم مع مكانته واهميته . وسوف يقلده ارفع الاوسمة التي تليق بالمناسبة » . لم يكن ستالين على عجلة من امره في تقبل اوسمة هتلر ، أو أن يقف الى جانبه في استعراض عسكري ، كما فعل الدوتشي. وحتى مولوتوف لم يسارع الى قبول الدعوة . فحاول الكونت فون شولنبرغ تخفيف وطأة الرفض على الفوهرر مفسراً تحفظ ستالين على انه وليد « تخوفه من الظهور في محيط غريب » .

ثم جرت الاحداث التي اسدت الى ستالين صدمة قاسية ـ الا وهي انهيار فرنسا السريع واستسلامها وانسحاب القوات البريطانية من القارة الاوروبية . فانهارت معاً حسابات ستالين الستراتيجية . فاغلق الممر الى روسيا عبر البلطيق فوراً ، خوفاً من مواجهة مباشرة بينه وبين هتلر . ولارتيابه في حكومات دول البلطيق ، التي تتطلع عقائدياً لبرلين اكثر من تطلعها لموسكو ، ارسل جدانوف الى استونيا ، وفيشنسكي الى لاتفيا ، وديكانوزوف الى ليثوانيا وكل منهم يحمل الاوامر للاطاحة بالحكومات المحلية فوراً ، ولانشاء ادارات يسيطر عليها الشيوعيون ، التمهيد لدمج هذه الجمهوريات الثلاث داخل الاتحاد السوفييتي .

هكذا حدث انعطاف جديد وهام في سياسة ستالين الخارجية . كانت الضرورات الستراتيجية المحض قد املت عليه خطوته الاولى في اراضي البلطيق لانشاء القواعد العسكرية عليها . وها ان شعوره بالخطر ، الذي عززه وكثفه انهيار فرنسا ، يدفع به الى اعلان الثورة في البلدان الصغيرة الثلاثة . لاول مرة انحرف ، ولو قليلاً ، عن عقيدته الداعية الى الاشتراكية في بلد واحد ، وهي العقيدة التي عمل ، بلا هوادة، على فرضها على جيل روسي بأكمله . وقد انحرف عنها بالطريقة التجريبية غير المتعمدة التي تبناها فيها أصلاً . لكن فعلته اختلفت كثيراً عن نشر الثورة كما كان يحلم بها البلاشفة القدامى . فقد حمل الثورة الى الخارج على رأس الحراس ، او بالاحرى على جنازير دباباته . لعل الطبقات

العمالية في البلطيق كانت تؤيد المراسيم التي اصدرها لتشريك الصناعـــة ؛ لكن العنصر الحاسم كان قوة روسيا العسكرية وليس المشاعر الشعبية المحلية . كان البلاشفة القدامى ، عادة ، يتصورون الثورة على انها حركة شعبية بالدرجة الاولى، على انها من صنع الطبقات الكادحة التي ينظمها ويقودها حزبها الطليعي . اما الآن ، فقد حل الجيش الاحمر محـــل هذا الحزب . فكانت الانتفاضة نتيجة آلية لستراتيجية الدولة الكبرى .

لم يكن بالإمكان القيام بمثل تلك الانتفاضات في اي بلد كبير او متوسط يعيش مجتمعياً على اساس قواه الذاتية . لكن الجمهوريات الثلاث الصغيرة بانظمتها البوليسيـة الباهظة التكاليف انسحقت بمجرد ان تنحنح جارها الاكبر . كانت قائمة بفضل ضعف روسيا عام ١٩١٨ من جهة ، ونتيجة كرم البلاشفة في اول ايامهم من جهة اخرى . امـــا روسيا الستالينية فلم تكن ضعيفة ولا كريمة ؛ لذا ظهر ستالين على شاطىء البلطيق بوصفه محصل الملكيات الروسية القديمة والمطالب بجزء من الميراث القيصري . وراح يلعب هـذا الدور حيال العالم لأول مرة عام ١٩٤٠ . ففي ايلول الماضي ، كان لا يزال محجماً عن ضم شريحة من بولونيا الاثنية التي كانت ملكاً للقياصرة مكتفياً باراض كانت مطالبة روسيا الإثنية بها شرعية قدر ما كانت المطالبة البولونية . وها هو الآن يضم دول البلطيق للتي لم يكن لروسيا أي مطالبة إثنية حولها ، ولا ادعت ذلك . على انـــه لم يجرؤ على بعث المطالب القيصرية – فالسنّـة البلشفية لا زالت تحول بينه وبين هذا العمل . ولا كانت هذه السنّة لتسمح له بأن يعترف بأنه يعاند ارادة جيرانه الضعفاء الصغار لأسباب استراتيجية . فمثل هـذا الاعتراف ينضح بالاستعمار ، اذا ما طبقنا عليه المقاييس اللينينية . لذا ، وسعياً منه الى المحافظة على المظاهر ، زوّر الارادة الشعبية عن طريق استفتاءات مزيفة تضرع بموجبها الاستونيون واللاتفيون والليثوانيون الى الاتحاد السيوفياتي كي يضمهم اليه . ولم يكن سلوكه اكثر استحقاقاً للشجب من سلوك اي قائد آخر لدولة كبرى يقدم على الاستيلاء على قواعد استراتيجية أو يصر على التمسك بها . لكنه بدا أقبح منه لانه يتنافر كلياً مع المبادىء التي يدعو اليها ، ولأنه لجأ الى حيل فظة لتغطية هذا التنافر .

طوال الصيف ، اخـذ ستالين يراقب ردة فعـــل هتلر للسيطرة السوفييتية على دول البلطيق . لكن هتلر التزم ، على العموم، بما تفرضه عليه الصفقة المشتركة ، فـلم يتدخل. ولا وضع العراقيل في طريق ستالين عندما اقتطع هذا بيسارابيا وبوكوفينا الشماليـة من رومانيا . وكانت هذه آخر الاعمال التي سارت على ما يرام في شراكتهما .

في اواخر صيف ١٩٤٠ ، خلال « معركــة بريطانيا » ، اضحت تكتيكات ستالين اكثر التواء من ذي قبل . كان لا يزال متشككــاً بصدد انتصارات هتلر على الرغم من سرعتها واكتساحها ؛ ولكن يبدو ان إمكان استسلام بريطانيا قــد خطر بباله . ومهما يكن من امر ، فقد بذل ما بوسعه من جهود ليوحي الى هتلر انه ، أي ستالين ، مقتنــع بان انتصار هتلر نهائي تقريباً وان روسيا مستعدة لان تتكيف مــع « النظام النازي الجديد » وتستقر فيه . بعــد الاستسلام الفرنسي مباشرة اسرّ مولوتوف الى السفير الايطالي ، وهو يعلم ان كلماته سوف تنقل الى هتلر ، بان حكومته تعتقــد ان الحرب اوشكت على الانتهاء وان اهتمام روسيا الاول منصب على البلقان ، حيث تريد ان تمدّ نفوذها الى بلغاريا وان تحرم تركيا من الانفراد بالسيطرة على المضايق. فبدا وكأن ستالين يطالب بحصته من غنيمة الانتصار « الاخير » الذي احرزه هتلر . والواقع ان ما امــلى عليه هذا القول هو خوفه من ان تطوّقه المانيا من جهة الجنوب . الا ان هــذه الاقوال بدت بالنسبة لهتلر على انها محاولات روسية لتطويق المانيا . فاذا بالمزاحمــة على كسب المواقع في البلقان تستغرق العام الثاني من صداقتهم المزعومة .

بينما كان ستالين يعرب لهتلر عن ثقته بوضع حد للحرب باسرع وقت ممكن ، كان عملاؤه ودبلوماسيوه في الخارج يشجعون ادنى بادرة مقاومة ضد « النظام الجديد » واذا بصمت موسكو ، التي لم تكن تحتفظ للغرب إلا بتعليقات لاذعة ، تتابع باهتمام وتأييــد انباء « معركة بريطانيا » وتدعو الوطنيين الفرنسيين الى مقاومة احتلال بلادهم . وحتى قبل ذلك الحين ، اضطرت وزارة الخارجية الالمانية الى الاحتجاج على حملة الدعايــة المعادية للنازيين التي تشنها مدام كولونتاي ، الوزيرة السوفييتية المفوضة في السويد .

غير ان مثل هذه البادرات جاءت خفية او قام به اناس يسهل على ستالين التنصــل منهم . وظلت اللهجة السائدة هي لهجة الصداقة نحو المانيــا . وكان هم ستالين الاكبر الا يترك عند هتلر انطباعاً بانه يسعى الى الاتصال ببريطانيــا ، عدوة هتلر الوحيدة التي لا تزال منتصبة على قدميها ، تقاوم . لكنه ، من جهة ، كان يمكن كل المبررات للابقاء على اتصال مع البريطانيين . فاستقبل شخصياً ، في اوائل تمــوز ١٩٤٠ ، السير ستافورد كريبس ، السفير البريطاني الجديد ، وهذا شرف لم يغدق به على اي سفير اجنبي منــذ زيارة ريبنتروب الاخيرة. وكان السفير الجديد معروفــاً بحماسه للصداقة الانكليزية —

الروسية ؛ فعكس تعيينه عن الأهمية التي يعلقها ونستن تشرشل لاقامة علاقات ودية مع روسيا . هل يرد ستالين بالمثل ، ام يتجاهـل البادرة ؟ خياران كل منهما محرج . اصغى الى السفير البريطاني يحدثه عن الخطر الذي يتهدد روسيا من طرف الاستعمار الالماني (وهو خطر لا شك بانه مدركه تمام الادراك) ، وعن حق روسيا بان تحافظ على الوضع القائم في البلقان والدفاع عن مصالحها في المضائق والبحر الاسود — وهذا جديــد في مواقف الدبلوماسية البريطانية . لكنه رفض الافضاء بمـا يجول بخاطره . انكر وجود أي خطر الماني يتهدد روسيا ورفض الاقتراح حول حقوق روسيا وحدها في البلقـان ، على انه اعرب عن رغبته بايجاد تسوية جديدة في المضائق . وخشية منـه من ان تفلت منه كلمة واحدة قد تفسّر على انها تعبير عن ودّ ، راح يتحدث باسلوب مراوغ لكنه ليس عدائياً . قال انه من الطبيعي ان يرغب البريطانيــون في تأليب روسيا على المانيا وان أية كلمة قليلة الحذر تبدر منه قد تسرع في نشوب النزاع الروسي — الالماني ، خاصة اذا ما نشرت في الصحف البريطانية . وذهب بحذره الى حد انه اوعز الى مولوتوف بان ينقل الى الكونت شولنبرغ رواية ملائمة عن حديثه مع السفير البريطاني . وورد في روايـة مولوتوف ان ستالين تحدث بقسوة اشدّ بكثير من القسوة التي تحـدث بهـا فعلاً ، وقد اضاف مولوتوف الى الرواية ان ستالين اشاد « بالزعماء السياسيين الالمان » .

حتى قبل ان تنتهي « معركة بريطانيا » ، كان التنافس بين روسيا والمانيا للسيطرة على المناطق البلقانية المجردة من السلاح قد اضحى علنيا. رسم هتلر حدوداً جديدة لرومانيا وفنلندا، دون ان يستشير الكرملين. وعندما احتج مولوتوف على هذا الخرق للاتفاقات السابقة، قيل له ان الجيش الالماني قد دخل هذين البلدين للتصدي لل« خطر الانكليزي ». وتكاثرت نقاط الاحتكاك على طول المنطقة المجردة من السلاح . لم تعد اوروبا الشرقيـة والجنوبية الشرقية تتسع لكل من هتلر وستالين ؛ وكان هتلر هو الذي يقـول لخصمه : تنحّ لكي استقر في مكانك .

لما وصل هتلر الى طريق مسدودة في حربه مع انكلترا ، لم يعد بمكنته الاستهانــة بقوة الجيش الاحمر . لم يعد بوسعه مسالمــة روسيا إلا اذا رضي ستالين بالانضمام الى معسكره ويدور في فلكه . فقام بمحاولة لاجبار ستالين على لعب هذا الدور ، باذلاً جهده لتجميله قدر المستطاع . كتب ريبنتروب الى « عزيزي الهر ستالين » في ١٣ تشرين الاول

عام ١٩٤٠ : « يرى الفوهرر ... ان الرسالة التاريخية ... للاتحاد السوفييتي وايطاليا واليابان والمانيا هي في تبني سياسة بعيدة المدى » ، والقيام « بتحديد مصالحها على النطاق العالمي » . لم يكرر هتلر دعوته ستالين لزيارة برلين ، بعد ان رفضت في المرة الاولى . وبدلاً من ذلك ، دعا مولوتوف الى زيارة برلين واوعز الى ريبنتروب بان يحدد موعداً لمحادثة ستالين في الكرملين . افترض ريبنتروب ان اقتراحه بعقد معاهدة بين القوى قد قبل ، فابلغ ستالين انه على استعداد للمجيء الى موسكو للاحتفال بالحدث السعيد مصطحباً معه المبعوثين الياباني والايطالي .

على رسالة ريبنتروب المستفيضة الطنانة ، أجاب ستالين باتسار ، وجفاف ، وبعد مضي اسبوع كامل . لم يكن « يعارض مبدئياً » اقتراحات ريبنتروب ، لكنه ليس على عجلة من أمره . وأعرب عن استعداده لارسال مولوتوف الى برلين واستقبال ريبنتروب في موسكو لكنه ردد عذره المفضل بتأجيل « المداولات المشتركة مع اليابانيين والايطاليين » الى ما بعد اجراء « الدراسات اللازمة » لذلك . يسهل استخلاص ما اوعز ستالين الى مولوتوف بالنسبة لزيارته لبرلين من الروايات عن سلوك مولوتوف نفسه : طلب ستالين من مندوبه ان يصغي بانتباه ، وعلى نحو حيي ، لكل الاقتراحات دون ان يتعهد بأية التزامات جديدة ، وان يساوم بعناد حول البلقان .

عاد مولوتوف من برلين وروى انطباعاته على النحو التالي : لقد كرر هتلر شخصياً اقتراحه بشأن عقد المعاهدة بين القوى الاربع املاً منه بان يؤدي انضمام روسيا اليها الى استسلام بريطانيا . ثم يعوّض على روسيا بمنحها جزءاً من الامبراطورية البريطانية ، تلك « الشركة العالمية التي تغطي ٤٠٠ كيلومتراً مربعاً والموشكة على الافلاس » . لذا يتعيّن على القوى الاربع الموشكة على اقتسام تركة هذه «الشركة المفلسة » ان تضع حداً للنزاع فيما بينها . فعند الفوهرر ان مصالح روسيا والمانيا وايطاليا واليابان تتطلب منها ، على المدى البعيد ، التوسع باتجاه واحد فقط : جنوباً . فتبني كل من المانيا وايطاليا امبراطورية استعمارية لها في افريقيا ؛ واليابان في جنوب آسيا ؛ فيتعيَّن على روسيا إذاك التوسع باتجاه الهند . حاول مولوتوف العودة بالحديث عن هذه الشطحات الخيالية التي ينساق اليها هتلر الى قضايا اقرب منالاً . فعنده ان عصفوراً بلقانياً واحداً في اليد افضل من جميع العصافير الشرقية على اشجار الامبراطورية البريطانية . فحاول ان يدفع

هتلر الى رسم الحدود الفاصلة بين منطقة النفوذ الالمانية ومنطقة النفوذ الروسية في جنوب شرقي اوروبا . لكن محاولته باءت بالفشل .

كان للخطوة التي اقدم عليها ستالين نتائج خطيرة . كان موقفه بمثابة رفض لاقتراحات هتلر . لقد وافق ، شكلياً ، على الانضمام الى معاهدة القوى الاربع ، لكنه اشترط لذلك ان يسحب هتلر قواته من فنلندا ، وان يعترف بان بلغاريا تقع ضمن منطقة النفوذ الروسية ، وان يساعد روسيا على الحصول على اتفاقات طويلة المدى لاقامة قواعد عسكرية لها في المضائق ، وما الى ذلك . ولو ان هتلر تخلى نهائياً عن فكرة الهجوم على روسيا ، ولو انه لم يكن يخشى هجوماً روسياً عليه لكان وافق على شروط ستالين . لكن الأمر لم يكن كذلك . فتلاشت فكرة المعاهدة الرباعية ، ولم يرد اي طرف على ذكرها بعد ذاك . وبعد انقضاء ثلاثة اسابيع على تسلمه جواب ستالين ، اصدر هتلر الى قيادة الاركان الالمانية اول تعليمات عن الحملة ضد روسيا ، وهي التعليمات المعروفة باسم خطة « بربا روسا » .

خلال الاشهر الاولى من عام ١٩٤١ ، أُخرجت روسيا كلياً من البلقان ، واعرب الكرملين عن انزعاجه من ذلك . وفي كانون الثاني من العام ذاته ، اعلنت موسكو فجأة ان احداً لم يستشرها حول دخول القوات الالمانية الى بلغاريا، وانها تعارض هذه الخطوة، وقد كررت هذا الاحتجاج في شهر آذار ، ولكن بعبارات اقصى من العبارات السابقة . ثم راحت تشجع ادنى بادرة مقاومة لهتلر . واستقبلت موسكو السفير اليوغوسلافي غافر يلوفيتش « بوصفه أخاً » وهناك اجرى مداولات ، وتآمر ، ووقع على اتفاقات بكل ثقة . واخذت له صورة الى جانب ستالين الذي تداول معه في امور تهم الصداقة بين البلدين طوال الليل . وقد سأله السفير اليوغوسلافي : « ولكن ماذا إذا انزعج الالمان من ذلك وارتدوا عليكم ؟ » ... « ليأتوا ... » ، اجابه الدكتاتور باسماً » . وفي الرابع من نيسان ١٩٤١ ، وقعت روسيا على معاهدة صداقة مع يوغوسلافيا . وابلغ مولوتوف السفير الالماني انه يرجو ان يحافظ المانيا على السلام بين السلافيين الجنوبيين . لكن السفير ابلغه،بعد يومين فقط من ذلك ، انالجيش الالماني على اهبة الاستعداد للهجوم على كل من اليونان ويوغوسلافيا .

تمكن ستالين من ان يكسب جولة اخيرة ضد هتلر قبل ان يتواجها كعدوّين

صريحَين . ففي ١٣ نيسان ١٩٤١ ،استقبل ماتسووكا ، وزير الخارجية الياباني، وتداول معه بصدد توقيع معاهدة عدم اعتداء بين البلدين . وهذه هي المعاهدة التي ابعدت عن روسيا شبح الحرب على جبهتين ، ولكنها اطلقت يد اليابان في حربها في المحيط الهادىء . كان ماتسووكا قد عاد لتوّه من برلين حيث الح له كل من هتلر وريبنتروب عن الهجوم الالماني المقبل على روسيا ، وحثّاه على الاحجام عن التوقيع على اية معاهدة في موسكو . لكن اليابان ، شأنها شأن روسيا ، تخشى الاضطرار الى خوض الحرب على جبهتين ؛ وكانت هذه الخشية اقوى من الصداقات او الخلافات العقائدية .

خلال الزيارتين اللتين قام بهما ماتسووكا الى موسكو (في آذار ثم في نيسان من عام ١٩٤١) ، كان ستالين ، عن غير عادة ، حيوياً وكثير الكلام . « كلانا آسيوي » ، قال لضيفه . وقد ردّد هذه اللازمة في اكثر من مناسبة . فهذا جزء من اللغة الدبلوماسية من جهة ؛ وهو يعبّر ، من جهة اخرى ، عن افتخار ستالين باصله . منذ ان ارتقى سدّة الحكم والدعاية الرسمية تمجّد العنصر الآسيوي في روسيا، فاذا به الآن يدفع هذا التمجيد الى ذروته . فكأنه يريد تذكير العالم باسره بان روسيا مدينة اليه بحالة السلام التي تنعم بها ، هو الذي نشأ على الحدود بين آسيا واوروبا . وقد راق له ان يعرض رؤياه الآسيوية على مسمع من المبعوث الالماني . وكان لكل من الرجلين طريقته الخاصة في المراوغة . عرّف ماتسووكا عن نفسه بانه « شيوعي اخلاقي » وهو سليل اسرة اقطاعية كبيرة . واصغى ستالين الى قصص عن بطولات اجداد ماتسووكا ، والى تأكيده بان اليابان لا يحارب الصينيين في الصين وانما الليبرالية الانغلو – سكسونية الرامية الى الاطاحة « بالشيوعية الاخلاقية اليابانية » .. (*) وانتقل الرجلان من ميدان الفلسفة السياسية الى ميدان المساومة حول شاخالين الشمالية . وقد ساوما بعناد على الطريقة الشرقية ؛ وأومأ ستالين بحركة من يديه بان ماتسووكا – هذا الرجل الذي لا يرحم – يحاول خنقه .

(*) كان ذلك خلال زيارة ماتسووكا الاولى لموسكو،في آذار ١٩٤١. وبعد بضعة ايام من ذلك ابلغ ماتسووكا البابا بان دولته لا تحارب الصينيين بل البلشفية التي يدعمها الانغلو ـ سكسون في آسيا . وقبل ايام معدودة من زيارته الثانية لستالين ، اقترح ماتسووكا على هتلر احياء معاهدة مكافحة الكومنترن (العلاقات النازية ـ السوفييتية ، ص ٢٩٧ و٣١٣) .

وكان لتنكر ستالين في زي « آسيوي » سبب خفي . كان قد خلص لتوه الى ان المانيا اضحت سيدة البلقان دون منازع ، وبالرغم من مقاومته ، وانها لم تترك شبراً واحداً من الأرض يمكن ان يمتد اليه النفوذ الروسي . فصار لزاماً عليه ان يقبل بما حل به . قبل ستة اشهر من ذلك ، بعث بمولوتوف الى برلين للتفاوض مع هتلر حول المصالح الروسية في اوروبا . وها هو الآن يحاول ، بطريقته الملتوية ، ان يبلغ هتلر انه ، اي ستالين ، قد انسحب من المباراة ، وانه يكتفي بما قد يغنمه في آسيا — تماماً كما نصحه هتلر عن طريق مولوتوف . وعندما حان موعد مغادرة ماتسووكا لموسكو ، في ١٨ نيسان ، قام بحركة كان الغرض منها لفت انتباه هتلر الى موقفه الجديد . فخرج من عزلته فجأة ليودع الوزير الياباني في المحطة . فعانق « مواطنه الآسيوي » على مرأى من جمع كبير من المراسلين والاجانب والدبلوماسيين المذهولين . ويروي شولنبرغ تتمة ما حدث : « سأل عني ، ولما وجدني تقدم مني وعانقني : (يجب ان نظل اصدقاء ، وعليك الآن بذل ما بوسعك لهذا الغرض ! ثم التفت نحو ... الملحق العسكري الالماني ، الكولونيل كريبس ، وقال له بعد أن تأكد من انه الماني : (سنظل اصدقاء معك مهما كانت الاحوال) » . لم يكن بالامكان ان يفوت هتلر أو ريبنتروب معنى كل ذلك . فبدا لهم ان ستالين يوافق على المقترحات التي تقدما بها في تشرين الثاني ، وانه يؤكد على رغبته في التفاوض .

ولكن ، فات الآوان ! فخلال الاسابيع القادمة ، تبادلت موسكو وبرلين الاحتجاجات على خرق الحدود . الطائرات الالمانية تحلق فوق الاراضي الروسية ، والطائرات الروسية تستطلع المواقع الالمانية . تحشدت على الحدود حوالي ١٥٠ فرقة المانية . يواجهها عدد يفوقها بقليل من الفرق الروسية . في ذلك الحين — اواخر نيسان — تسلم ستالين الرسالة البريطانية الشهيرة التي يرد ذكرها في خطاب تشرشل في ٢٢ حزيران والتي يبلغه فيها أن الهجوم الالماني على روسيا واقع لا محالة . وتقول بعض الروايات ان التحذير البريطاني كان دقيقاً الى درجة انه حدد يوم ٢٢ حزيران ، ذكرى هجوم نابليون على روسيا ، موعداً مرجحاً للهجوم .

كان يوجد في موسكو رجلان على الاقل لم يأخذا التحذير على محمل الجد : ستالين وفون شولنبرغ . اما خطأ السفير الالماني فله ما يبرره . فهذا مخلص للتقاليد البسماركية ،

ويأمل بان لا يصل الاحتكاك بين المانيا وروسيا الى حد نشوب الحرب بينهما . فذهب ، في اواخر نيسان ، يتضرّع الى هتلر ألا يعلن الحرب ، تماماً كما ذهب سفير آخر ، غولينكور ، الى نابليون يرجوه ألا يهجم على روسيا قبل ذلك التاريخ بمئة وثلاثين سنة . وحمل شولنبرغ معه عرضاً روسياً بتقديم خمسة ملايين طن من الحبوب الى المانيا خلال العام القادم ؛ وحاول تفسير تحشدات القوات الروسية بانه ناجم عن « حرص روسيا المشهور على ان تطمئن ٣٠٠ ٪ على امنها . فاذا نحن ارسلنا فرقة المانية واحدة لسبب أو لآخر ، فسوف يرسلون عشر فرق للتأكد من انهم على جانب الامان كلياً . لستُ أظن ان روسيا سوف تهاجم المانيا » . لكن هتلر لم يتزحزح عن موقفه قيد شعرة .

اما ان يعتقد ستالين بأن الحيلولة دون نشوب حرب بين المانيا وروسيا ، فذلك امر قد يبدو مستبعد التصديق . لكن ذلك ما يتبدى من سلوكه طوال تلك الأسابيع الحرجة . اذاك ارتكب واحداً من الاخطاء التي يتعرض لها بالغو الحذاقة باستمرار . إستبعد كل ما ينذر بالشؤم . وكان على ثقة بانه قادر بمفرده على انقاذ الوضع بمجرد الركون الى مهارته التكتيكية وحدسه للانعطافات السياسية الحاسمة .

في السادس من ايار ، فوجئت موسكو بنبأ تعيين ستالين رئيساً للوزراء . ما الذي حدا به الى الخروج من كواليس الامانة العامة ، لأول مرة منذ عام ١٩٢٣ ، ليتحمل المسئولية المباشرة عن الحكومة ؟ ثمة قرارات مصيرية تنتظر ان يبتّ بها . فماذا ستكون هذه القرارات ؟ تضمن الاحتفال الاخير بذكرى اول ايار عرضاً ضخماً لقوة روسيا العسكرية ، وحضر ستالين ، عشية تعيينه ، المناورات العسكرية في « الكلية الحربية » والقى خطاباً سرياً طويلاً امام الضباط المتخرجين ، اشاد فيه ببسالة الجيش الاحمر . أهي الحرب اذاً ؟ حبس خصوم هتلر انفاسهم بانتظار الخطوات الاولى التي سيقدم عليها ستالين بوصفه رئيساً للوزراء ، لكن مجريات الامور سرعان ما اذهلتهم . فقد انكر ستالين الشائعات عن وجود تحشدات عسكرية قوية على الحدود ؛ واعاد العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة العراقية المؤيدة للالمان ، وكان قد رفض الاعتراف بها قبلاً ؛ والادعى الى الدهشة انه طلب من المبعوثين الدبلوماسيين لدول بلجيكا والنروج ويوغوسلافيا ان يغلقوا سفاراتهم في موسكو لان حكوماتهم لم تعد موجودة . وكان بديهياً ان هذه الخطوة الاخيرة ، وخاصة الادعاء الذي لجأ اليه لتبريرها ، هادفة الى استرضاء هتلر . ولكن

يصعب القول ما هو الادعى الى الدهشة فيها : صلافة ستالين أو قصر نظره . لكنه ، في محاولته استعادة ثقة هتلر ، خشي ايضاً ان يؤدي ذلك الى بث روح التخاذل والانهزامية في اوساط شعبه . فأخفى عن الشعب الروسي وعن الجيش الاحمر قراره باغلاق السفارات الثلاث . ثم انتظر طوال شهر بأكمله ان يبدر من هتلر ما يشير الى تقديره لهذا الموقف . لكن هتلر اعتصم بالصمت .

ثم بذل مسعى اخيراً يائساً ومأسوياً ، هزلياً في آن واحد . ففي ١٤ حزيران ، اي قبل اسبوع واحد من تاريخ الهجوم الالماني ، سمح ستالين لوكالة الأنباء الرسمية بان تنشر بياناً يضرب بكل الاعراف الدبلوماسية عرض الحائط ويهاجم السفير البريطاني بعنف على بثه الشائعات حول « الحرب الروسية – الالمانيـــة الوشيكة الاندلاع » . وانكر البيان ، الذي يسهل تبيان اسلوب ستالين فيه ، ان تكون المانيا قد تقدمت من روسيا بمطالب اقتصادية او اقليمية ، وان البلدين يستكملان استعدادهما للحرب لان روسيا رفضت القبول بهذه المطالب . وخلافاً للمذكرات السرية العديدة التي بعث بها مولوتوف الى ريبنتروب ، راح ستالين يمتدح المانيا لأنها نفذت كل ما اتفقت عليه مع روسيـــا « حرفياً » . وعلى الرغم من انه لم يعد ينكر ان الجيشين الجرارين محتشدان على طرفي الحدود، فقد وصف كل الاشارات الى ان القوات الروسية او الالمانية محتشدة لشن الحرب بانها اشارات « كاذبة ، سخيفة ، واستفزازية » .

يصعب ان نجد حتى في الوثائق الدبلوماسية خلال الحرب العالمية الثانية حدثاً مثيراً للشفقة قدر هذا الحدث . لكن هذا البيان الغريب – الذي يمتدح ستالين فيه امام العالم أجمع اولئك الذين سيكشفون عن انفسهم ، خلال اسبوع ، على انهم الد اعداء روسيـــا ويهاجم الذين سيصبحون خلال اسبـــوع حلفاءها الوحيدين – هذا البيان لم يكن خاطئاً كلياً . ان قول ستالين بان المانيا لم تتطلب من روسيا شيئاً قول صحيح . والواضح انه كان يتوقع من هتلر ان يثير المطالب التي يمكن المساومة حولها . فالهجوم الالماني على النمسا، وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا جرى بعد مطالبات علنية وتهديدات شديدة اللهجة . ويبدو ان ستالين كان يتوقع من هتلر ان يتصرف كالسابق . ولانه لم يرَ اشارات الخطر المعهودة ، رفض الاعتراف بوجود خطر مداهم . فاذا به يدعو هتلر في بيانه هـــذا ، بذلك الاسلوب الملتوي الذي فهمه هتلر خير فهم في اذار ١٩٣٩ ، ان يتقدم بمطالبه وان

يفتح باب المفاوضات . لكن هتلر لم يلبِّ النداء .

ولكن ، لماذا لم يستثن ستالين البريطانيين من تهجماته حتى في ذلك الحين ؟ الواقع انه كان يعتقد، وعن حق، ان البريطانيين يحاولون افشال خططه لاجراء مصالحة في اللحظة الاخيرة مع هتلر. ان ما اعتقده حماقة بدرت من السفير البريطاني اثارت سخطه. ولكن حتى لو ان البريطانيين تصرّفوا بغيرية متناهية لربما كانوا أثاروا غضبه على كل حـال : فبدا له ان مجرد التنبؤ بالعاصفة يجعلها وشيكة الهبوب . ومهما يكن من امر ، فهـو يستطيع ان يسمح لنفسه بان يؤذي حساسية البريطانيين . كان يعلم ان بعـد اضطرار بريطانيا الى مواجهة المانيا بمفردها خلال عام باكمله،لم يعد هو بحاجة الى ان يلتمس صداقة بريطانيا التماساً . ذلك انه ما ان تبدأ الحرب بين روسيا والمانيـا ، حتى ينعقد التحالف بين روسيا وبريطانيا على نحو شبه اوتوماتيكي . ويكون ما مضى قد مضى .

* * *

إن تصرفات ستالين تجاه هتلر خلال الفترة بين ١٩٣٩ و١٩٤١ قـد اثارت من الخلافات الحادة ما لم يثره إلا القليل من افعال ستالين. يقول نقاده انه مهما يكن مستوى اخلاقيته السياسية السابق ، فقد انحدر الى اسفل دركات الخيانة خلال تلك الفترة . فيردّ المدافعون عنه بقولهم انه على الرغم من ان طريقه كانت مليئة بالتعرجات والمنعطفات ، فقد تصرّف بدافع من مصالح مشروعة دون ان تغيب عن باله ، ولو للحظة واحـدة ، الاهداف البعيدة المدى ، ودون ان يتخلى عن مبادئه .

دافع ستالين عن نفسه بعد فترة قصيرة من اندلاع الحرب . فقال في الثالث من تموز ١٩٤١ : « قد يسأل سائل كيف امكن الحكومة السوفييتية ان توافق على عقد معاهـدة عدم اعتداء مع غدارين واوغاد من امثال هتلر وريبنتروب؟ألم يكن ذلك خطأ ارتكبته الحكومة السوفييتية ؟ » . وانكر ستالين ان ثمة « خطأ » مـا في الامر ، وأشار الى فوائد السياسة التي انتهجها : « لقد ضمنا لبلدنا السلم لمدة سنة ونصف السنة توافرت لنا خلالها فرصة تهيئة قوانا » . وكانت روسيا قد ربحت من حيث المساحة بقدر ما كسبته

من حيث الوقت ، نعني سيطرتها على المواقع التي تسمح بالدفاع عن مشارف موسكو ولينينغراد . اما المكسب المعنوي فهو ادراك شعوب روسيا التام ان المانيا هي الطرف المعتدي ، وان الحكومة الروسية قد سعت فعلاً الى المحافظة على السلم حتى النهاية .

من بين هذه المكاسب الثلاثة المزعومة – الزمنية منها والاقليمية والمعنوية – نجد ان المكسب المعنوي هو المكسب الحقيقي فعلاً. فمن السمات المميزة لتاريخ روسيا العسكري ان الجندي الروسي ، على نقيض الجندي الالماني ، يخوض افضل معاركه على ارض وطنه ؛ وبفضل الاعتقاد الراسخ بان النضال من أجل بقاء الوطن قد فرض فرضاً على روسيا ، تجلت ابرز مزايا الجندي الروسي خلال السنوات اللاحقة . إلا أن القيمة الستراتيجية للمواقع الروسية المتقدمة لا تبدو كمكاسب فعلية . فقد خسرت روسيا ، بعد مضي بضعة ايام على نشوب الحرب ، كل المواقع العسكرية الامامية في دول البلطيق وفي ما كان يسمّى بولونيا الشرقية . غير ان بناء هذه المواقع الامامية كان عملاً شاقاً بشعاً أثار الكثير من التذمر في اوساط معظم القوميات الصغرى ، خاصةً بعد عمليات الترحيل الجماعية للعناصر « غير المرغوب فيها ».. من بولونيا ودول البلطيق الى داخل روسيا . باختصار ، يسعنا القول ان الفوائد الستراتيجية لهذه المواقع الامامية كانت تافهة (أو انها سقطت على كل حال) وان المساوىء السياسية والمعنوية المتأتية من السيطرة عليها كانت بالغة الضخامة بحيث تضحي العملية ، في التحليل الاخير ، عملية فاشلة وباهظة الاكلاف .

ولا كانت المكاسب الزمنية اكثر ايجابية من المكاسب الاقليمية . صحيح ان ستالين استغل هدنة الاثنين والعشرين شهراً لتنمية الصناعات الحربية الروسية بوتيرة سريعة ولاعادة تدريب قواته وفقاً لآخر الخبرات العسكرية . لكن هتلر نفسه استغل هذه الشهور الاثنين والعشرين أيضاً . وبعد ان تحرر من كابوس الحرب على جبهتين، راح يخضع معظم دول اوروبا ويسخّر اليد العاملة والموارد الاقتصادية لما يزيد عن عشرة بلدان لخدمة آلة الحرب الالمانية . ومهما يكن حجم واهمية التراكم الجديد للمعدات الحربية ، ومهما يكن توسّع المصانع العسكرية الذي حققته روسيا بين ١٩٣٩ و ١٩٤١ ، فانه لا يجاري

القوة الاضافية التي راكمها هتلر خلال الفترة ذاتها . خلال الثلاث سنين المقبلة ، سيضطر الجيش الاحمر الى ان يواجه قوات هتلر البرية ، بمفرده تقريباً ، وان يتنازل عن مساحات متزايدة باستمرار من الاراضي الثمينة ، وان يبذل من التضحيات كما لم يبذل اي جيش آخر ، وان ينتظر بقلق وترقب مكبوت انفتاح الجبهة الثانية جهة الغرب . لكن هذه الجبهة كانت موجودة عام ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، وكان من الممكن ان تظل موجودة بعد ذلك التاريخ لو ان ستالين القى بثقل روسيا في المعركة خلال واحد من اطوارها الاولى .

ولا يصح القول ان ستالين استغل فترة الهدنة على احسن وجه . فلأنه كان يأمل بتفادي الحرب حتى اللحظة الاخيرة ، ولأنه تغافل عن كل ما يشير الى انها حتمية ووشيكة النشوب فقد احجم عن تعبئة ما يكفي من القوى لمنع الجيش الالماني من احراز الانتصارات الكبيرة التي احرزها في الاطوار الاولى من الحرب . والواقع انه تصدى للهجوم الهتلري قبل ان يستكمل استعداداته . ففي حزيران من عام ١٩٤١ ، كان عدد الفرق الالمانية والروسية المستعدة للقتال يكاد يكون متساوياً ، علماً بان قسماً من الفرق الروسية فقط كان مؤهلاً لان يواجه الخصم المجرّب الحسن التجهيز الذي منحته سلسلة طويلة من الانتصارات الرائعة ثقة كبيرة بنفسه . ولكن يجوز ان الجيش الاحمر كان اقوى عددياً من خصمه . ان لعبة ستالين السياسية بالغة التعقيد ادت به الى موقع ضعف من الناحية العسكرية . كان يشعر بالانزعاج لاضطراره الى تعبئة ١٧٠ فرقة وارسالها الى الجبهة ؛ وكان ، الى ذلك ، بالغ الكياسة او ربما شديد الإحتراس من ان « يستفز » هتلر بحيث عجز عن تعبئة قواته بالقدر المطلوب . وهذا ما يعترف به شخصياً ، إذ يقول في خطاب بتاريخ ٣ تموز ١٩٤١ : « واقع الامر هو كالآتي : كانت القوات الالمانية معبأة كلياً لان المانيا تعتبر نفسها اصلاً في حالة حرب ، ... وكانت على اهبة الاستعداد الكامل، تنتظر الاشارة اللازمة للتحرك ، اما القوات الروسية فكانت بحاجة الى تعبئة والى التحرك نحو الحدود » . ان الذي يعترف به ستالين فعلاً هو انه هدر الكثير من الوقت الثمين خلال الاسابيع الاخيرة قبل الهجوم الهتلري ، غير انه لا زال يبرّر السياسة التي انتهجها باعتبارها سياسة كسب الوقت الثمين . فاستطرد قائلاً : « ان خرق المانيا الفاشستية لمعاهدة عدم الاعتداء فجأة وبنذالة ، ليس بالحدث الذي يجوز التقليل من

اهميته » . فكأنه يقول للعالم ان « الضلال المبين والخيانة السافلة » قد غرّرتا بـ « سذاجته البريئة » .

عندما ننتهي من القيام بجردة لهذه الاشهر الاثنين والعشرين الغريبة ، لا يسعنا ان نتغافل عن الخدمات المجانية التي قدمها الكومنترن لهتلر ، عن غير قصد منه . فما ان وقّع مولوتوف وريبنتروب على معاهدة آب ١٩٣٩ ، حتى الغى الكومنترن الحملة الصليبية المعادية لهتلر التي طالما أهاب دعاتُه بالشعوب والحكومات الى خوضها . وأمحت كل استراتيجية وتكتيكات الحملة المعادية للفاشية ، وكل حججها المنمّقة والشعارات . فتبنى الاتباع الاوروبيون للامين العام الروسي موقفاً حيادياً غامضاً . فقيل آنذاك ان كلا المعسكرين المتحاربَين يسعى الى اهداف استعمارية ، وان لا مجال للاختيار بينهما . ودعيت الطبقات العاملة الى مقاومة الحرب والى النضال من اجل السلام . سطحياً ، كانت هذه النداءات شبيهة بسياسة الانهزامية الثورية التي انتهجها لينين خلال الحرب العالمية الاولى . إلا ان الشبه مخيب للآمال . فان مقاومة لينين للحرب تقوم على الامانة الثورية والاستمرارية ، اما سياسة الكومنترن فانها مفصلة لخدمة الاغراض الآنية للدبلوماسية الستالينية ، فكانت متذبذبة مثل هذه الدبلوماسية . احياناً ، كانت معارضة الحرب تشتمل على انحياز واضح للالمان ، كما في تشرين الاول من عام ١٩٣٩ مثلاً ، عندما ردد الكومنترن نداء مولوتوف وريبنتروب لاجراء صلح على اساس التفاوض ، وحملا فرنسا وبريطانيا مسؤولية الحرب . فكان اثر هذه السياسة ، في فرنسا خاصة ، اثراً انهزامياً لا غير ، لا يمت بصلة الى الثورية . وكان من شأنها ان طعّمت الانهزامية التي تنخر الطبقات العليا من المجتمع الفرنسي بنوع « شعبي » من الانهزامية متأتية من تحت . وفقط بعدما وقع الضرر تبني الحزب الشيوعي الفرنسي سياسة جديدة ، ولكن فقط بعد ان اثارت انتصارات هتلر الرعب في اوساط موسكو فراحت تشجّع مقاومة الاحتلال النازي . ان تأثير معاهدة ريبنتروب — مولوتوف قد تركت اثراً اقل وضوحاً ، لكنه ليس باي حال من الاحوال اقل اهمية ، على العناصر المعادية للنازية في المانيا نفسها . فضاعفت من ارتباكهم ، وعمّقت شعورهم بالهزيمة ودفعتهم الى الاستسلام للحرب التي يشنها هتلر .

من السذاجة بمكان أن نفترض جهل ستالين لهذه النتائج المتأتية من « صداقته » لهتلر. ولكنه بالتأكيد اعتقد انها قليلة الأهمية بالمقارنة مع الفوائد الملموسة التي حصل عليها. فذهنه التجريبي يتمسك بالمفاهيم الستراتيجية المحددة ، بالقواعد العسكرية ، والانهر ، والخطوط الدفاعية ، والحدود ، وجميع العناصر الدفاعية وقد قللت التقنية العسكرية الحديثة من قيمة هذه الاشياء جميعها . وقد أغفل قضايا يصعب قياسها بدقة كمزاج الطبقات العاملة الفرنسية والالمانية أو المظالم القومية التي يعاني منها البولونيون والفنلنديون وغيرهم من قوميات البلطيق الاخرى . غير أن هذه القضايا سرعان ما أخذت بثأرها من روسيا ولا زالت حتى الآن . هنا ، في اغفاله للعوامل غير المادية التي تفعل في العمليات السياسية الكبرى ، تكمن نقطة الضعف الاساسية في واقعيته القوية والمحدودة في آن معاً .

بعد أن يقال كل ما هو ضروري حول اخطاء ستالين في حساباته السياسية وأحكامه المغلوطة ، يظل من الخطأ القول أن هذه تعود فقط الى نواقص شخصية عنده . فوراء سياسته تيار قوي من المشاعر الشعبية تمكن الكسندر بلوك من حدسه عند قال :

ولن نعود ، بعد ذاك ، درعاً لكم ،

لن نشترك في المعارك أياً كانت !

فهذه الكلمات المأخوذة من قصيدة « السيثيون » الموجهة للغرب تلخص التوتر العاطفي في المجتمع الروسي عام ١٩٣٩ . أن غالبية الشعب الروسي التي انهكتها سنوات من البناء الاقتصادي المرهف ، والمتعلقة باخلاص شديد إلى ثمار عملها، المكتئبة من عداء العالم الخارجي لها أو فتور علاقته بها ، الشاعرة بالعزلة ، المتحسّسة لكون الكثيرين قد تخلوا عنها في مساعيها المثالية — كان هذا الشعب يمحض ستالين تأييده الكامل عندما رفض أن « يحرك ساكناً عندما الهونتي الشرس ينهب جيوب القتلى » ، وعندما تمسّك بالسلم حتى في الوقت الذي كان النازيون قد باشروا في بناء غرف الموت في آوشفيتز ومايدانيك لكي « يشوون لحم الاخوة البيض » .

ولكن لم يكن ذلك التيار الوحيد في الرأي العام الروسي. كان ثمة تياراً باطنياً من القلق والتخوف. الحزب مصاب بعقدة ذنب. والجيش يعاني بشعور غامض بانه قد أُهين. ولعل التيار الاقوى بين هذه التيارات هو شغف الشباب بأن يهرب من الحرب، هـــذا القدر الذي لا يرحم.

●

الفصل الثاني عشر

ستالين في الحرب العالمية الثانية

سلوك ستالين بعد هجوم هتلر على روسيا . ـ خطابه في ٣ تموز ١٩٤١ . ـ قيادته للحرب. ـ ستالين ينقذ موسكو ويدعو الى اول هجوم روسي مضـــاد (كانون الاول ١٩٤١). ـ « سنحقق النصر عام ١٩٤٢ » . ـ المخاوف والشكوك المتبادلة بين الحلفاء . ـ « ليست هــذه الحرب حرباً طبقية » . ـ الجبهة الثانية . ـ اجتماع تشرشل وستالين في آب ١٩٤٢ . ـ معركة ستالنغراد . ـ بروز التقليدية والقومية في روسيا . ـ محاولة ستالين الملاءمة بين اللينينية والتقليدية الروسية . ـ ستالين يحل الكومنترن ويعيد الاعتبـــار للكنيسة الارثوذكسية . ـ المكتب السياسي والقيادة العامـــة للجيش . ـ مقارنة بين ستالين وهتلر كقائدين عسكريين . ـ ستالين والضباط الكبار .

في ٢٢ حزيران من عام ١٩٤١ ، اذاع مولوتوف على الشعب الروسي النبأ المفجع عن الهجوم الالماني . بعد ذلـك ، راح ستالين يتحاشى الظهور علناً ، فكأنه محرج من جراء الانهيار المروع لآماله . لم يدل بأي تصريح علني خلال ما يقارب الاسبوعين . ويبدو انه كان ينتظر نتائج المعارك الاولى واعلان بريطانيـــا والولايات المتحدة عن موقفهما وتبلور الشعور العام السائد في البلد . فاعتكف مع قادتـــه العسكريين يناقش اجراءات التعبئة والخطط الستراتيجية . قسّم الجبهة الروسية المترامية الاطراف الى ثلاثـــة قطاعات . فسلـّم فوروشيلوف قيـــادة القطاع الشمالي ، وتيموشنكو القطاع الاوسط ، وبوديني القطاع الجنوبي . وتولى هو نفسه القيادة العامـــة للقوات المسلحة . كان الجنرال شابوشينكوف رئيساً للاركان ، وهو ضابط محترف خدم في الاركان العامة منذ ما قبل الثورة ، والمعروف عنه انه قائد عسكري ذو نزعـــة مدرسية وانه مجتهد ودؤوب على الرغم من انه ليس لامعاً.تولت « لجنة الدولة لشؤون الدفاع » الاشراف العام على الحرب، وكانت تضم خمسة اعضاء : ستالين ومولوتوف وفوروشيلوف وبيريا ومالنكوف . وقد تولى مولوتوف الشؤون الدبلوماسية، وبيريا الشؤون الداخلية في حين تكفـّل فوروشيلوف بلعب دور ضابط الاتصال بين القوات المسلحة والسلطات المدنية . وكان مالنكوف يمثل الحزب ، وهو احد مساعدي ستالين في الامانة العامة . أما رئاسة اللجنـــة فكانت لستالين .

على الرغم من كثرة الاخطاء التي ارتكبها ستالين في حساباته السياسية والعسكرية ، لا يسعنا القول انه لم يكن مستعداً لمواجهة هذه الحالة الطارئـــة . كان قد سلـّح البلد تسليحاً جيداً ، وأعـــاد تنظيم قواته المسلحة . ولم يكن ذهنه العملي متمسكاً بمبدأ استراتيجي وحيد الاتجاه . فلم يعلـّل الجيش الاحمر بشعور زائف من الطمأنينة وراء اية نسخة روسية عن خط « ماجينو » الفرنسي -- ذلك النظام الدفاعي الجامد الذي ادى الى هزيمة الجيش الفرنسي عام ١٩٤٠ . وكان بمقدوره الركون الى مساحات روسيـــا

المترامية الاطراف وعلى مناخها الحاد . وبما انه لم يكن ثمة مجموعة من الرجال تنافسه على القيادة ، تمكن من تحقيق وحدة القيادة المطلقة — حلم القائد العسكري المعاصر .

لكن هذه الايجابيات لا تلبث ان تصطدم بسلبيات خطرة تبطل مفعولها . فالجيش الاحمر لم يمرّ بـ « عمادة النار » بعد ، فلا مجال اذن لوضع معنوياته على المحكّ . هــذا بالاضافة الى انه لم يكن قد مضى اكــثر من عشر سنوات على تمرد الفلاحين ضد تجميع الزراعــة وذكريات التصفيات الكبرى لا تزال ماثلة في الاذهان . كانت التقارير الاولى الواردة من الجبهة تعطي صورة مشوّشة ومتناقضة عن الوضع . وهنا وحدات بأكملها تنهار وتباد عن بكرة أبيها وتشير ضخامــة عدد الاسرى الذين وقعوا بيد العدو الى الانعدام المروع في الروح القتالية . وهناك وحدات مطوقة ومعزولة تدافع عن نفسها ببسالة وعناد مؤخرة تقدم العدو . وهناك قوات تنسحب بانتظام على الرغم من الضغوط الهائلة التي تتعرض لها موفـرّة قواها لمعارك لاحقة . لكن جيوش هتلر تتقدم باّطراد على جميع الجبهات . وهــذا ما أدى الى انتشار الشائعات والبلبــلة والذعر وراء خطوط النار .

في الثالث من تموز ١٩٤١ ، قرّر ستالين اخيراً الخروج عن صمته وتقديم الإرشادات لامته المصدومة . فتحدث في خطاب نقلته محطات الاذاعة عن « الخطر العظيم » . كان صوته بطيئاً متهدجاً ورتيباً . أما خطابه ، فكان كعادته عويصاً وجافاً يفتقد الى تلك العبارات المثيرة التي تلهب مخيّلة الناس كوعد تشرشل مثلاً ببذل « الدم والكد والدموع والعرق » . ولم يكن أسلوبه متنافراً كل التنافر مع خطورة اللحظة وحسب ، بل وايضاً مع مضمون الخطاب نفسه نظراً لمـا يحتويه من نداءات وإرشادات تنم عن ارادة لا تلين حتى يتحقق لها النصر .

افتتح خطابه بالقول ان « العدو ما زال يتقدم على الرغم من ان افضل وحداته البرية وأسرابه الجوية قد ابيدت خلال القتال » . لم يكن بمقدوره ان يذيع الحقيقة المرة على الشعب إلا بعد التمهيد لها بمقدمة متفائلة الى حد غير معقول وكاذبة . ثم انتقل الى تبرير معاهدته مع هتلر — وقد تعرضنا لها سابقاً — مستطرداً بالقول ان هتلر قد ضمن لنفسه أفضلية المباغتة ، لكن ذلك لن يجديه نفعاً على المدى الطويل . شرح اهداف العــدو

بتبسيط فلاحي مقصود : « هذا العدو قاسٍ لا يرحم . انه يريد الاستيلاء على الاراضي التي سقينا بعرق الجبين ، واغتصاب حبوبنا ونفطنا – نتاج كدح ايدينا . انه يرمي الى اعادة سلطة ملاك الارض والقياصرة ... والى فرض العِرق الالماني (على شعوب الاتحاد السوفييتي) وتحويلهم الى عبيد عند الامراء والبارونات الالمان » . المسألة « مسألة حياة او موت » ؛ « لذا ينبغي على الشعب السوفييتي ... ان يطرح جانباً كل تخاذل وانهزامية ... لا رحمة للعدو ... ولا مكان في صفوفنا للمترددين والجبناء والمذعورين والهروبيين ... » . ثم دعا الى اعتماد القسوة والمزيد من القسوة والقسوة دائماً في التعامل مع الغزاة وفي التغلب على الفوضى والذعر وراء خط النار . وأهاب بالشعب ، بعبارات تبعث على الرهبة ، ان « يحرق الارض » التي يضطر الى التخلي عنها للعدو :

« في حال الانسحاب الاضطراري ... ينبغي إجلاء كل المعدات الدارجة ، لا يجوز ان تقع في يد العدو آلة واحدة او عربة قطار او رطل من الحبوب او ليتر من المحروقات. على اعضاء التعاونيات الزراعية ان يسلموا مواشيهم للسلطات لكي تضعها في امكنة امينة او تنقلها إلى المؤخرة . لا يجوز التلكؤ في تخريب كل الاعتدة الثمينة التي يتعذَّر نقلها بما في ذلك المعادن والحبوب والمحروقات ... في المناطق التي يحتلها العدو ، يجب تكوين العصابات المسلحة من المشاة والخيّالة وتنظيم وحدات التخريب لمحاربة العدو : اعلنوا حرب العصابات في كل مكان ، إنسفوا الجسور وخرّبوا الطرقات، عطلوا خطوط الهاتف والبرق، احرقوا الغابات والمستودعات ووسائط النقل . حولوا حياة العدو وعملائه الى جحيم في المناطق المحتلة . تعقبوا العدو وابيدوا قواته عند كل خطوة ، خرّبوا كل مشاريعه » .

كأن روسيا عام ١٨١٢ قد بعثت حية وراحت تتكلم بلسان ستالين. كان من الطبيعي أن يستعيد ستالين في خطابه انتصار روسيا على نابليون قائلاً ان هتلر ليس اكثر مناعة من نابليون . واعرب عن « امتنانه » للحديث « التاريخي الذي ادلى به رئيس الوزارة البريطانية ، السيد تشرشل ، بصدد مساعدة الاتحاد السوفييتي وكذلك تصريح حكومة الولايات المتحدة الاميركية ... » ثم اردف قائلاً ان روسيا الآن ، شأنها شأن روسيا عام ١٨١٢ ، تخوض « حرباً وطنية وقومية »هي ايضاً حرب من أجل حرية جميع الشعوب. وختم خطابه داعياً الشعب الى « الالتفاف حول حزب لينين وستالين » . ان هذه

الاشارة غير المتوقعة لنفسه بصيغة الغائب اضفت بعضاً من التناقض على خطابه — ذلك الخطاب العظيم والباهت ، العنيد وعديم الخيال في آن معاً .

* * *

إضطرت روسيا الى التضحية بالمكان من أجل كسب الوقت ، لكنها صممت على أن تجعل المساحات التي تتخلى عنها للعدو غير صالحة للاستعمال بحيث يدفع ثمناً باهظاً لقاء احتلاله لها . فكانت تلك الطريقة الوحيدة التي تسمح لستالين بالتصدي لغزاة اوروبا ، بعد كل ما ارتكبه من زلات واخطاء في الحساب . واجههم ستالين بقوة ارادة متفوقة . ولكن ، أصحيح ما يقال انه لم يفقد ثقته بنفسه ولو للحظة ؟ ان المرء ليشكّ بالامر على ضوء ما هو متوافر من ملاحظات عابرة اطلقها ستالين في تلك الاشهر الحرجة . فهو لم يتحدث عن هزيمة نابليون وحدها في خطاب الثالث من تموز ، وانما استعاد كذلك مصير القيصر الالماني وليام الذي انتصرت عليه اخيراً « القوات الانكليزية — الفرنسية » . على الرغم من أن جماهير غفيرة كانت تعتقد بانه لا يقهر . ولكن لم يرد ستالين على ذكر الهزيمة التي منيت بها روسيا على يد جيوش ذلك القيصر قبل ان تهزمها الجيوش الغربية . غير ان الذي لا شك فيه هو ان فكره كان ينتقل من وليام الى نابليون ومن نابليون الى وليام . ولم يكن بدّ من أن يسائل نفسة ما إذا كان هتلر سيحقق ما حققه سلفه القيصر . ولعل فكرة من هذا النوع كانت تجول في خاطره وهو يتحدث في ٣٠ تموز الى هاري هوبكنز ، مبعوث الرئيس الاميركي روزفلت . فقد اعترف له بانه لم يكن يتوقع أن يشن هتلر هجومه على روسيا . وأردف قائلاً ان « الحرب ستكون قاسية وربما طويلة الامد » ، وان ٧٥٪ من الصناعات الحربية تقع في ضواحي موسكو ولينينغراد وخاركوف ، وهي مناطق سوف يتهددها العدو بالاحتلال عما قريب ؛ كذلك قال انه يريد من الرئيس الاميركي أن يعلم ان ستالين « يرحب بالقوات الاميركية على أي جزء من الجبهة الروسية وتحت الاشراف الكامل للقيادة العسكرية الاميركية » . وهذا قول من اكثر الاقوال اظهاراً لمكامن نفس ستالين بين الاقوال التي نسبها اليه كتّاب المذكرات عن الحرب العالمية الثانية . طوال فترة الحرب ، كان ستالين يصر على إدخال أية قوات اجنبية الى الجبهة الروسية إذا هي لم توضع تحت إمرته . وقد منع المراقبين الاجانب من الاقتراب من خطوط القتال . ولم يكن في العادة يسمح للطيارين الحلفاء بان يحلقوا في الاجواء الروسية ؛ علماً

بأنه كان لهذه القاعدة بعض الاستثناءات . من الذي جعله شغوفاً بان « يرحب بالقوات الاميركية على أي جزء من اجزاء الجبهة الروسية وتحت الاشراف الكامل للقيادة العسكرية الاميركية » في شهر تموز من عام ١٩٤١ بالذات ، أي في وقت لم تكن الولايات المتحدة قد دخلت فيه الحرب مما يجعل من اقتراحه اقتراحاً غير معقول ؟ النتيجة الوحيدة التي يمكننا استخدامها من ذلك هي انه تلفظ بتلك الكلمات وهو في حالة من تراخي ثقته بنفسه ، إن لم نقل في حالة يأس . وذلك أمر طبيعي جداً ، لانه في الوقت الذي تحدث فيه ستالين الى هوبكنز ، كانت قوات هتلر قد قطعت مسافة ٤٥٠ ميلاً داخل الاراضي الروسية في أقل من شهر واحد ، وكانت معركة سمولنسك مستعرة الاوار في الشمال وجيش بوديني آخذاً بالتراجع في الجنوب . وفي شهر ايلول من العام نفسه ، وبعد الهزيمة النكراء التي مني بها جيش بوديني على نهر الدنايبر ، لاحظ زائران آخران — هما هاريمان وبيفر بروك — إمارات الاكتئاب بادية على وجه ستالين وهو يطالبهما بان ترسل بريطانيا بعضاً من قواتها الى الجبهة الاوكرانية . وفي خريف العام نفسه ، والقوات الالمانية آخذة بالاقتراب من موسكو ، افصح ستالين عن مخاوفه امام السير ستافورد كريبس . قال للسفير البريطاني انه سوف يدافع عن موسكو حتى آخر رجل ، لكنه لا يستبعد سقوطها بيد الالمان . واستطرد قائلاً انه في حال سقوط موسكو ، سوف يضطر الجيش الاحمر الى الانسحاب من كل الاراضي الواقعة الى الغرب من نهر الفولغا . وانه اذا كان يعتقد ان الروس سوف يظلون قادرين على الاستمرار بالحرب على الرغم من ذلك كله ، فهو يرى انهم لن يتمكنوا من شن الهجمات عبر الفولغا إلا بعد انقضاء عدة سنوات .

بعد مضي فترة من الزمن على انتهاء الحرب ، ادلى ستالين باعتراف غامض . خلال الاحتفال بالنصر في الكرملين ، يوم الرابع والعشرين من ايار ١٩٤٥ ، شرب « نخب الشعب الروسي » قائلاً : « ان حكومتنا قد ارتكبت عدداً لا يستهان به من الاخطاء ، وقد عانينا خلال بعض الفترات من عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ من ظروف تبعث على اليأس عندما كان جيشنا ينسحب لأن ليس له مخرج آخر. ولو كان شعبنا غير ما هو عليه ، لقال للحكومة : (لقد فشلت في أن تكوني على مستوى توقعاتنا. إذهبي . سوف نعين حكومة اخرى مكانك تعقد الصلح مع المانيا ...) . لكن الشعب الروسي لم يسلك ذلك الطريق ... شكراً له . شكراً للشعب الروسي على ثقته » . المؤكد اذن ان الشك كان

يساور فكر ستالين خلال الاشهر الأولى من الحرب، لكنه لم يظهر للعالم الا قناعاً حديدياً لا يلين .

ارتدى ستالين ذلك القناع الحديدي بصبر وسيطرة على النفس يبعثان على الاعجاب . ولعل ذلك القناع كان امضى سلاح بحوزته . كانت روسيا مليئة بنقاط الضعف . ومن هنا ، فان اية بادرة تخاذل تبدر عن الرجــل الذي وضعت روسيا مصيرها بين يديه — طوعاً واضطراراً في آن معاً — من شأنه ان يضاعف نقاط الضعف هذه وما يستتبعه ذلك من عواقب وخيمة . وكان ستالين يعلم بالطبع ان التردد والضعف سوف يؤديان بالنسبة له ، اكثر مما يؤدياه بالنسبة الى سواه من ضحايا هتلر او اعدائه ، الى نهاية مخزية . لذا ، فان غريزة البقاء اضطرته الى الاقدام على ما اقدم عليه . فاذا بمصلحته الشخصية تندمج مجدداً بمصلحة الامة كلها . وتلك هي نقطة الضعف والقوة في آن معــاً في أي نظام توتاليتاري : يبدو احياناً وكأن مصير أمة جبارة بأسرها بات مرهوناً بمصير الدكتاتور الذي يحكمها ، فاذا ما انهار ام اطيح به تولّد فراغ يتعذر سدّه .

لاحظ العديد من زوار الكرملين خلال الحرب ، وقد اعترتهم الدهشة ، كثرة القضايا التي يعود لستالين اتخاذ القرار الأخير بشأنها ، وسيّان أكانت هذه القضايا تافهة أم هامة، عسكرية أم سياسية أو دبلوماسية . فقد كان في الواقع القائد الأعلى للجيش ووزير الدفاع والتموين والخارجية وحتى رئيس التشريفات في الكرملين . القيادة العامة للجيش الاحمر — « الستافكا » — مقرّها الكرملين، وهو يراقب سير المعارك من على مكتبه هناك حيث يتصل مباشرة وباستمرار بقيادات الجبهات المختلفة . وقد حقق ، من وراء مكتبه ايضاً، عملية مذهلة أخرى هي عملية إجلاء ١٣٦٠ مصنع من روسيا الغربية واوكرانيا ونقلهــا الى الاورال وسيبيريا . ولم تشتمل تلك العملية على الآلات والتجهيزات وحدهــا ، بل شملت كذلك ملايين العمال مع أسرهم . وكان يستقبل ، بين عملية وأخرى ، اناساً من أمثال بيفربروك وهاريمان ويتفاوض معهم بشأن كميــة الالمنيوم أو عيار البندقيات أو المدافع المضادة للطائرات التي يتعين على الحلفاء الغربيين ارسالها الى روسيا ؛ او يستقبل قادة المقاومة الشعبية الوافدين من المناطق الواقعة تحت الاحتلال الالماني فيناقش معهم الغارات الواجب شنها على بعد مئات الاميال وراء خطوط العدو . في كانون الاول من عام ١٩٤١ ، ومعركة موسكو على أشدها ودويّ مدافع هتلر فوق شوارع موسكو ،

وجد ستالين متسعاً من الوقت للمباشرة بلعبة دبلوماسية حاذقـــة مع الجنرال البولوني سيكورسكي الذي زار موسكو لعقد معاهدة روسية – بولونية مشتركة . في ايام الحرب الأخيرة ، تضخّم عـــدد الزوار الأجانب والسفراء والمبعوثين الخاصين . فكان ستالين يستقبلهم ليلاً او في سويعات النهار الاولى . وبعد نهـــار مشحون بالتقارير العسكرية والقرارات بشأن العمليات والارشادات الاقتصادية والمناورات الدبلوماسية ، كان ستالين ينكبّ – عند الفجر – لدراسة آخر التقارير الواردة من الجبهـــة أو المتعلقة بمعنويات السكان المدنيين التي تمده بها مفوضية الشؤون الداخلية . وقد يتضمن أحدهـــا رواية مفصلة عما قاله ، في اليوم السابق ، العقيد المسؤول عن البعثة العسكرية البريطانية في موسكو عن روسيا وحلفائها وخططها وعن ستالين نفسه ضمن جدران مكتبه ؛ ذلك ان مكتب العقيد البريطاني كان « مليئاً بأجهزة التقاط جرى اخفاؤها بطريقة محكمـــة » تسجل كل كلمة يتفوه بها . هكذا كانت حياتـــه اليومية خلال سني الحرب الاربع : اعجوبة من الصبر والصمود واليقظة . فكأنه موجود في كل مكان ، عالم بكل شيء .

* * *

في شهر تشرين الاول ، أعلن هتلر رسمياً معركة موسكو « أعظم هجوم عرفـــه التاريخ » . حوصرت لينينغراد وعُزلت . وكان الجيش الالماني قد احتل كل اوكرانيـــا تقريباً وساحل بحر آزوف. جيوش بوديني تتقهقر وقد أسَر الالمان حوالي نصف مليون جندي على نهر الدنايبر . أقال ستالين كلاً من فوروشيلوف وبوديني من القيادة العامة – ذلك ان فريق تساريتسين أو « ضباط الصف » ، كما كان تروتسكي يلقبهم ، لم يكونوا على مستوى هذه الحرب المكننة . وسرعان ما حل محلهم قادة جدد من امثال جوكوف وفاسيليفسكي وروكوسوفسكي .

في شهر تشرين الثاني ، شن الالمان هجوماً شاملاً في محاولة لتطويق موسكو . وصلت طلائع قواتهم الى مسافة لا تزيد عن عشرين أو ثلاثين كيلومتراً عن العاصمة – وكانوا في احدى النقاط على بعد خمسة كيلومترات فقط . فاجليت كل المفوضيات ودوائر الدولة الى كيوبيتشيف على نهر الفولغا . وفي موسكو ، أخذ الموظفون يحرقون الوثائق التي تعذر

نقلها . وفي السادس من تشرين الثاني ، ذكرى قيام الثورة ، عقد سوفييت موسكو كعادته اجتماعه الاحتفالي . لكن الاجتماع انعقد هذه المرة تحت الارض ، في محطة مایاكوفسكي للـ « ميترو » . خطب ستالين في الجمع بعبارات هادئة ، غير انه أدلى باعتراف مقلق قال فيه ان الالمان « يملكون من الدبابات اضعاف ما يملكه الروس » .
وفي اليوم التالي ، وقف على منصّة ضريح لينين مستعرضاً قوات الجنود النظاميين ووحدات المتطوعين من الحرس الشعبي السائرة رأساً من الساحة الحمراء الى ضواحي المدينة . ناشد الجنود ان يستلهموا ذكريات الحرب الاهلية عندما كانت « ثلاثة أرباع البلد بيد المتدخلين الاجانب » والجمهورية السوفييتية الفتية لا تملك جيشاً ولا حلفاء : « ليس العدو بالجبروت الذي يصوّره فيه بعض المثقفين الصغار المذعورين . ليس الشيطان رهيباً بقدر ما يتخيل للبعض ... ليس بوسع المانيا أن تتحمل هذا العبء لمدة طويلة. فبعد بضعة أشهر أو نصف سنة أو ربما بعد سنة كاملة ، سوف تنهار المانيا الهتلرية تحت وطأة جرائمها » ، ثم انهى خطابه باستحضار غريب ومفاجىء لقديسي روسيا القيصرية ومحاربيها : « فلتلهمكم في هذه الحرب صور الرجولة التي كان يتحلى بها اسلافنا العظماء : الكسندر نيفسكي ، ديمتري دونسكوي ، كوزما مينين ، ديمتري بوجارسكي ، الكسندر سوفوروف وميخائيل كوتوزوف » . وكانت تلك هي المرة الاولى التي بعث فيها اشباح الماضي التي بدا وكأن الثورة غمرتها بسخطها وقضت عليها الى الابد . لكنه استطرد قائلاً : « لتقودكم الراية المظفرة ، راية لينين العظيم » .

كان لا بدّ للاخبار عن إجلاء الحكومة من ان تصدم سكان موسكو . فقد بدت تلك اللحظات ، على الصعيد النفساني ، على انها لحظات خطر عظيم . فان قراراً تتخذه حكومة ما بان تغادر العاصمة في عز الحرب لا بدّ له من أن يضعف من القوة المعنوية للامة المحاربة وان يقوّي شتى النزعات الانفصالية . كذلك حصل في فرنسا عام ١٩٤٠ عندما طردت الحكومة من مقرّها التقليدي ، فاضحت بضعف حلزونة خسرت قوقعتها. فبقدر ما تكون الحكومة مركزية بقدر ما تكون راسخة وبقدر ما تكون سلطتها راسية على معالم الحكم المألوفة وجميعها تقريباً كائن في العاصمة . رافقت عملية اجلاء الحكومة عن موسكو موجة من الاضطرابات . شعر السكان ان الحكومة قد تخلت عن مدينتهم . فاجتاحت الجموع مستودعات الغذاء . ومزق اعضاء الحزب بطاقات العضوية والشارات.

واستعد المعادون للشيوعية لتصفية حساباتهم مع الشيوعيين ولكسب رضى الغزاة . وسرعان ما بدرت بوادر الفوضى في عدة اماكن ما بين جبهات القتال ونهر الفولغا .

ولقد تحدث الذين لازموا موسكو خلال تلك الايام العصيبـــة عن الاثر الايجابي على معنويات المسكوبيين الذي تركه الخبر عن رفض ستالين مغادرة العاصمة مع سائر اعضاء حكومته فكأنهم اكتشفوا ان ارادة النصر ، التي يجسدها ستالين ، صامـــدة لا تلين . والواقع ان بقاءه في الكرملين في تلك الآونة المتأخرة كان تحدياً للقدر . فكأن مصائر العالم باسره تتأرجح على أبراج ذلك الحصن العتيق . كان الكرملين بالنسبة لستالين وهتلر معاً رمزاً لطموحهما . وبينما كان ستالين يصر على عدم مغادرته ، اصدر هتلر أمراً لقواته « بضرورة نسف الكرملين كعلامة على سقوط البلشفية » . بلغ ستالين المكانة التي بلغها ضمن إطار الكرملين . فإذا به مندمج بهذا الإطار وبما يرتبط به من ذكريات تاريخيـــة ، فكأننا به يخاف الانفلات منه . والواقـع ان قسماً من جبروته ، على الاقل ، يكمن في بُعده عن شعبه . فلو انه غادر المكان ، لكان انفك سحر هذا البعد ، فيبـــدو في اعين شعبه دكتاتوراً هارباً ليس إلا . هذا لا يعني انه قد استحال عليه قيـــادة الحرب من موقع آخر في الريف . لكن مغادرته لموسكو بدت في نظره كخطوة حمقـاء ومذّلة الى درجة انه احجم عنها حتى النهاية .

وهكذا فقد حبس نفسه طوعاً داخل جدران الكرملين طوال الحرب . ولم يحاول مرة واحدة اقامة اتصال شخصي مع قوات في ساحة القتال ، على ما يبدو. خلال الحرب الاهلية كان تروتسكي يتنقل من جبهة الى جبهة على متن قطاره الاسطوري ويتعرض لنيران العدو أحياناً وهو يفتش المواقع المتقدمة ويتفحص الترتيبات التكتيكية. كذلك اختلط تشرشل مع جنوده في الصحراء الافريقية وعلى شواطىء نورماندي مفرجـاً عن همومهم بتصرفاته الغريبة وعباراته الصارمة وقبعاته المضحكة وسيجاره الشهير واشارات النصر التي يرسمها باصبعيه المنفرجين . أما هتلر ، فكان يقضي الكثير من وقتـــه في مقرات القيادة العسكرية المتقدمة. ان واقع الحرب المباشر لم يكن ليغري ستالين . ولا هو راهن على الاثر الذي سوف تتركه إتصالاته الشخصية المباشرة بجنوده . وعلى الرغم من ذلك، فلم يكن من شك في انه هو قائدهم الاعلى الفعلي . إذ لم تكن قيادتـــه تقتصر على اتخاذ القرارات الستراتيجية المجردة — وهذه مهمة يبرع فيها السياسيون المدنيـــون. لكن

الاهتمام البالغ الذي انكبّ فيه على دراسة النواحي التقنية من الحرب الحديثة ، حتى ادّق تفاصيلها ، يؤكد انه بعيد كل البعد عن أن يكون هاوياً في هذا المجال . فقد نظر الى الحرب من منظار السّوقيات Logistics ، اذا جاز لنا استعمال هذه العبارة الحديثة : العمل على تأمين احتياطي من القوى البشرية وامدادات من الاسلحة بالكميات والنسب الملائمة ، توزيع هذه القوى والامدادات ونقلها الى النقاط المناسبة في الوقت المناسب ، وتجميع احتياطي استراتيجي حاسم وإعداده للتدخل في المعركة في اللحظات الحاسمة — تلك كانت العمليات التي استغرقت تسعة أعشار وقته .

وفي اواخر عام ١٩٤١ ، بدا الوضع يائساً من هذا المنظار بالذات هكذا يصف ن . فوزنيسنسكي الوضع ، وهو مدير « لجنة الدولة للتخطيط » :

« كان ٤٠٪ من مجموع سكان الاتحاد السوفييتي يعيشون في الاراضي التي احتلها الالمان في تشرين الثاني ١٩٤١ . وكانت هذه المنطقة قبل الحرب تنتج ٦٥٪ من مجموع انتاج الفحم ، و٦٨٪ من مجموع انتاج الحديد الخام و٥٨٪ من الصلب ، و٦٠٪ من الالمنيوم... ، كما كانت تشمل ٤١٪ من مجموع خطوط سكة الحديد في الاتحاد السوفييتي » .

بين حزيران وتشرين الثاني ، انخفض المنتوج الصناعي بنسبة تزيد عن نصف ما كان عليه سابقاً ، ومنتوج الصلب بنسبة تزيد عن الثلثين . أما منتوج محامل الكريات ، الذي لا غنى للالات الحديثة عنها ، فكان أقل من ٥٪ من حجمه السابق . تلك اللحظة ، اضحت الأمثولة الشهيرة عن « موارد روسيا التي لا تنفذ » مجرد اسطورة من الاساطير . كانت مواردها المادية أقل بكثير من موارد المانيا . وحتى طاقتها البشرية لم تكن تفوق طاقة المانيا بكثير ، والمؤكد انها كانت أقل بكثير من الطاقات البشرية المتوافرة لالمانيا والدول الدائرة في فلكها . لذا ، فان صمود روسيا في السنة الاولى من الحرب بشكل خاص ، هو انتصار لتصميمها الراسخ وروحها المعنوية العالية ، هذه الروح التي كانت تدفع بالشيوعيين الشباب الى الموت في ضواحي موسكو وهم يهتفون : موسكو وراءنا — لا مجال للتراجع » !

في الثامن من كانون الاول ، اعلن هتلر انه علق كل العمليات العسكرية بسبب حلول الشتاء . كانت قواته قد حاولت اجتياح موسكو في مناسبتين ، لكنها صدت في كلتيهما، وها ان صدفة من صدف الطقس تشل هذه القوات . فقد حل شتاء قارس قبل اسبوعين من الموعد المعتاد . ولم يكن هتلر ليعلم انه قبل يومين من اعلانه وقف حملة عام ١٩٤١ ، كان ستالين قد اصدر اوامره للجيش الروسي بشن الهجوم المعاكس .

في سنوات ما بعد الحرب ، اخذ الروس يفكرون في الظروف التي اضطرتهم الى الانسحاب خلال عامي ١٩٤١ – ١٩٤٢. وكما مرّ علينا ، فسّر ستالين الهزائم الروسية الاولى ، في حديث له عقب اندلاع الحرب مباشرة ، بانها عائدة الى افضلية المباغتة التي ضمنها هتلر لنفسه . لكنه اعاد تركيب الاحداث على نحو مغاير عام ١٩٤٦ إذ اوحى بانه استدرج الالمان ، عمداً ، الى داخل روسيا بغية سحقهم هنالك . وأشار ، في رسالة بعث بها الى المؤرخ العسكري الكولونيل ا.رازين، الى السابقتين التاريخيتين اللتين اعتمد عليهما :

« كان البارثيون القدامى يعرفون هذا النوع من الهجوم المعاكس فقد استدرجوا القائد الروماني كراسوس مع قواته الى داخل البلد، وهناك شنوا عليه هجوماً معاكساً وحطموه . وهذا ما كان يعرفه ايضاً قائدنا العبقري ، كوتوزوف ، عندما حطم جيش نابليون بواسطة هجوم معاكس محكم الإعداد » .

أما الغرض من هذا التفسير الجديد فهو وضع حد لعمليات التنقيب عن اسباب هزائم عامي ١٩٤١ – ١٩٤٢ التي قد تؤدي إلى المساس بعظمة ستالين . المؤكد ان الروس اضطروا للانسحاب تحت وطأة ضغط الماني متفوق ولا يعقل ان تشتمل خطتهم الستراتيجية على بنود تقضي بانسحابهم من اغنى مناطق بلدهم . لم يحذُ ستالين حذو كوتوزوف ، فلم يحاول نصب فخ لايقاع العدو في موسكو – وهي العاصمة الآن في حين كانت سان بطرسبرغ هي العاصمة ايام كوتوزوف عام ١٨١٢ . وفي عام ١٨١٢ ، لم تحدّ خسارة الاراضي الواسعة من قدرة روسيا على خوض الحرب ، هذا في حين اقتصر تقدم نابليون على الطرقات المؤدية لموسكو . أما القيام بمثل هذا الانسحاب، في حرب حديثة،

وعلى هذا النطاق الواسع وبما يتضمنه من خسائر كالتي تكبدتهـــا روسيا خلال عامي ١٩٤١ – ١٩٤٢ فمسّ من الجنون ليس إلا ، هذا اذا لم نقل اكثر .

غير ان التفسيرين اللذين اعطاهما ستالين لستراتيجيته ليسا متعارضين كل التعارض كما قد يبدو للوهلة الاولى . فما ان اضطر الى التخلي عن اراض شاسعة ، حتى قرّر أن يجعل من الضعف قوة ؛ فراح يعبّىء القوى الجديدة ويتحاشى المعارك الحاسمة محرراً جنـوده من عمليات التطويق المتتابعة منتظراً لحظة انهاك جيوش هتلر لنفسها لكي ينقض بهجومـه المعاكس ضد جوانبها المكشوفة وخطوط تموينها . وراهن ستالين ، بدهائـــه الفطري الشرقي الذي لا يخطىء ، على عجرفة هتلر . والواقـــع ان سلسلة طويلة وفريدة من الانتصارات جعلت هتلر معتداً بنفسه الى درجـــة انه حين قرّر وقف الهجمات على موسكو ، اغفل اتخاذ الاجراءات الوقائية الـتي لا تخفى على جنرال عادي . فبدلاً من أن يسحب قواته نحو مواقع دفاعية ، أمرها بان تعسكر للشتـاء على مشارف موسكو ؛ ولم يمدّها بملابس شتوية ولا هو ادرك ان وحل روسياوجليدها سوف يشلان آلته الحربية وان الشتاء هو الفصل الذي يتفـوّق فيه الجندي الروسي على أي خصم . وإذا بستالين ، الذي تعود الاخطاء التي أرتكبها حتى الآن الى المبالغة في الحيطة والحـــذر ، يكتشف بسرعة زلـّة الفوهرر هذه ويبني عليها خطة عمله . فلم ينقذ موسكو وحسب ، بل اجبر الالمان أيضاً على تراجـــع طويل وباهظ التكاليف هو أول تراجـــع اضطروا اليه خلال الحرب .

بعد هذا الانتصار الأول للاسلحة الروسية ، ساد البلد جو من الثقة بالنفس . وفجأة ادركت الجيوش في ساحة القتال انها حققت مـــا عجزت عن تحقيقه سائر الجيوش . فطوال بضعة أسابيـع ،بدت الجيوش الهتلرية وكأنها سوف تتشتت وسط الأصقاع الجليدية المترامية الاطراف شأنها شأن الجيش النابليوني الكبير تحت ضربات القوات النظاميـــة وفرق الانصار . وعلى الرغم من أن ذلك لم يحدث ، فقـد شعر الجندي الروسي بانه إذا كان قد هزم العدو مرّة فانه قادر على اسداء الهزيمة له كل مرّة .

وقد غذّى ستالين هذا الشعور الجديد فدعا الى « إحراز النصر عام ١٩٤٢ » كان قد أعرب لهاري هوبكنز في بداية الحرب عن اعتقاده بان الحرب ستكون طويلة وباهظة

التكاليف وقد تستمر طوال ثلاث سنوات او اربع . من الذي حدا به الى طرح هذا الشعار الجديد ؟ كانت فرص النصر قد تحسنت ليس فقط بسبب الانتصارات الروسية الاخيرة وانما أيضاً بسبب دخول الولايات المتحدة الحرب . إزاء هذه الظروف الجديدة ، كان عليه أن يؤكد ان نجاح الهجوم الذي شنه انطلاقاً من موسكو يعود الفضل فيه بالدرجة الاولى الى الشتاء ، وانه على الولايات المتحدة ان تحوّل طاقتها الجبارة من حيّز الإمكان الى حيز الفعل ، وان الجيوش البريطانية لم تشفَ بعد من صدمة الهزيمة التي منيت بها على القارة الاوروبية . كان لا بدّ من « معجزة » لتنهي الحرب عام ١٩٤٢ . ولكن ، ألم يكن الدفاع عن موسكو « معجزة » بحد ذاته ؟ ربما كان ستالين يرجو باخلاص أن يوضع حدّ للحرب بسرعة . أو ربما كان يدرك استحالة توّقع النصر عام ١٩٤٢ ، لكنه لا يقوى على مجابهة الشعب الروسي بالقول ان تلك الحرب المدّمرة سوف تستمر طوال عدة سنوات . فالمأساة اقسى من أن تسمح بمثل هذه الصراحة .

* * *

بالطبع ، كانت المدة التي ستستغرقها الحرب متوقفة على المواقف التي يتخذها الحلفاء الغربيون . وكانت روسيا وقّعت جملة اتفاقات مع كل من بريطانيا والولايات المتحدة واستحصلت على قرض اميركي بقيمة مليار دولار وعلى وعد بان يرسل الغرب الاعتدة الحربية اليها بانتظام . لكن ستالين إحتاط ، رغم ذلك ، للمفاجآت التي قد تأتي بها الحرب . فالواقع ان التحالف الذي قام به هؤلاء الحلفاء جاء ضد رغبة كل منهم ، وكانت العلاقات بين اطرافه لا تزال متوترة . من هنا كان معرّضاً للانفراط تحت وطأة الانتكاسات والخصومات والاتهامات المتبادلة . واذا بالسطح الهادىء يخفي التناقضات والاضطرابات الكامنة في القعر . فلم يكن بدّ من أن يتساءل ستالين : ترى ، هل يعقد الغرب صلحاً منفصلاً مع المانيا تاركاً روسيا في ورطتها وحيدة ؟ كيف لا ، وهو يرى ان التناقض بين الرأسمالية النازية في المانيا والرأسمالية الليبرالية في بريطانيا والولايات المتحدة اضعف بكثير من التناقض بينهما وبين روسيا البلشفية . وتجلت له كل سخرية التاريخ في اضطرار المحافظين البريطانيين ، خلال صراعهم من أجل البقاء ، الى شن حرب ضد هتلر زعيم كل القوى المناهضة للشيوعية والقائد الفعلي للردة الاوروبية المضادةللثورة.

ولعله تساءل بينه وبين نفسه ما إذا كانت هذه المفارقة مجرد خدعة من الخدع . و كلنا يعلم ان فكرة صلح منفرد قد تعقده روسيا مع المانيا كانت ترزح كالطود على ذهن روزفلت وتشرشل ، في الطرف الآخر ، خشية منهما أن تؤدي الخسائر التي منيت بها روسيا وصلات القربى بين النظامين التوتاليتاريين الى ان يتصالح ستالين مع هتلر كما سبق وحدث في عام ١٩٣٩ . اذن كانت المخاوف متبادلة وقد لونت المسيرة السياسية للحرب باسرها .

احجم ستالين عن خوض الحرب تحت راية الثورة البروليتارية خشية أن يؤدي ذلك الى انفراط التحالف القائم . فضرب عرض الحائط بالتعليمات و « الوصفات » الصادرة عن مؤتمرات الكومنترن والرامية الى توجيه سلوك الاحزاب الشيوعية خلال الحرب. وتقول هذه التعليمات بانه يترتب على الشيوعيين المناداة باسقاط النظام الرأسمالي ، كما تهيب بهم أن يتحيّنوا كل الفرص التي تسمح بها الحرب لتحقيق ذلك . وبدلاً من أن يتم ذلك ، رضخوا لقيادة حكومات « الحلفاء » وأيدوا المجهود الحربي سعياً منهم وراء مساندة روسيا.وفي معظم الاقطار الواقعة تحت الاحتلال النازي، اعترفوا بالقيادات البرجوازية للمقاومة : ديغول في فرنسا ، بينيش في تشيكوسلوفاكيا ، الملكة فيلهلمينا في هولندا وما شابه. وحتى دعايتهم الموجهة نحو المانيا وايطاليا ودول البلقان لم تكن تناديباسقاط الرأسمالية . بل اهابت بشعوب تلك الاقطار مقاومة حكامهم باسم الديمقراطية ، لا باسم دكتاتورية البروليتاريا . (لم تتحول عبارة « ديمقراطية » الى مجال للتفسيرات « الشرقية » و« الغربية » المتباينة إلا في اواخر الحرب) . وإذا بموسكو تتحدث الى كل امة بلغة المصلحة القومية والشعور القومي أو حتى الحساسية القومية ، لا بلغة الأممية الماركسية . « ليست هذه الحرب حرباً طبقية » — هذا ما اعلنه تشرشل يوم هجوم هتلر على روسيا . فبدا و كأن ستالين يردد صدى عبارة تشرشل . فراح يعمل بدأب على المحافظة على مظهر لمصلحة واحدة مضادة للنازية وعلى ايديولوجيا ديمقراطية تشكل القاسم المشترك بين اطراف التحالف . ومن أجل هذا المظهر ضحى بالكومنترن ، فقرّر حلّه في ايار من عام ١٩٤٣ . وكانت تلك مساهمته السياسية في تدعيم « التحالف العظيم » .

لم تكن فكرة الصلح المنفرد هي الفكرة الوحيدة التي أقضّت مضجع ستالين . كانت ثمة فكرة أقل منها خطورة ، ولكنها حقيقية أكثر منها، هي تخوفه من أن يحجم الحلفاء

الغربيون عن اتخاذ أية خطوات عملية بانتظار ان تنهك روسيا والمانيا الواحدة منهما الاخرى . وقد ترسخ هذا التخوف في ذهنه حين ادلى اللورد برابازون اوف تارا ، أحد أعضاء الحكومة البريطانية ، بتصريح علني في الايام الاولى من الحرب الروسية — الالمانية ، حث فيه الحلفاء الى اتخاذ مثل هذا الموقف . وقد اضطر هذا اللورد الى الاستقالة من الحكومة البريطانية ، وتحدث كل من تشرشل وروزفلت بحرارة عن نضال روسيا وعن حليفهم ستالين . لكن عبارات الوزير الصريح ظلت تطنّ في آذان قادة الكرملين . وما من شك في أن ستالين كان يرى انه قد جرى التخلص من الوزير لأنه كان من الحماقة بحيث افشى بما كان يختمر في اذهان زملائه . وبدا له و كأن كل شيء يرتد للثأر منه : التناقضات الطبقية وهي بالكاد مكبوتة ؛ الخصومة الروسية — البريطانية الطويلة العهد التي كانت بريطانيا تبرز دائماً للروس فيها على انها « الشيطان الرجيم » الذي يريد أن يحشو مدافعه باجساد الفلاحين الروس ؛ وأخيراً ليس آخراً إذا بمنطق موقف ستالين نفسه خلال الفترة بين ١٩٣٩ و١٩٤١ يرتدّ هو أيضاً ضده . فراح يحث الحلفاء الغربيين على اعلان الحرب ضد المانيا على القارة الاوروبية ، وحاول اجبارهم على تقديم تعهد رسمي بتنفيذ ذلك .

لكنه راح في الوقت ذاته يتابع لعبة دبلوماسية بالغة التعقيد . كان قد وسع حدود الاتحاد السوفييتي بالتعاون مع هتلر . فغيّر البنية الاجتماعية والتركيب السياسي للاراضي الملحقة مكرساً التحاقها بالاتحاد السوفييتي عبر نصوص ملائمة في الدستور السوفييتي . وإذا به الآن يرمي بكل ثقله من أجل انقاذ هذه المغانم من دمار شراكته مع هتلر ، فراح يضغط على الحلفاء الغربيين للاعتراف بشرعية هذه المغانم التي حصل عليها في صفقة يعتبرها هؤلاء غير شرعية. فلم تسارع بريطانيا ولا الولايات المتحدة الاعتراف علناً بدول البلقان التي ضمها اليه . لكن تلك لم تكن مشكلة ضخمة . أما أضخم مشكلة واجهها فكانت المشكلة البولونية . كانت بولونيا اقدم عضو في التحالف المناهض لالمانيا . وإذا بها تخسر مناطقها الشرقية الى روسيا خلال العملية ذاتها التي مهدت لاخضاعها للسيطرة الالمانية . الا ان الحفاظ على مظاهر « التحالف العظيم » ، إذا نحن استثنينا الاعتبارات الاخرى ، كان يتطلب اشباع رغبات بولونيا ليس لأن حقوقها في اوكرانيا وبيلو روسيا حقوق لا جدال حولها وانما لأنها قد حرمت من تلك الاراضي بطريقة بشعة وشرسة . ولكن ، لم يكن بمقدور ستالين ان يعيد هذه الاراضي

إلى بولونيا بدون أن يثير موجة تذمر في أوساط الاوكرانيين وهو بحاجة ماسة الى تغذية مقاومتهم للاحتلال الالماني ، وبدون فضح مهزلة الاستفتاءات التي أمر باجرائها في بولونيا عام ١٩٣٩ والتي استخدمها كحجج لاستيلائه على تلك الاراضي ، وبدون كشف البنود التي ادخلها الى الدستور السوفييتي على انها مجرد شكليات فارغة ، وأخيراً بدون أن يخسر ماء وجهه خلال العملية .

لذا بدرت منه بادرة تجاه البولونيين اوحى فيها انه أشبع رغباتهم دون أن يكون قد اشبعها فعلاً . فخلال الايام الاولى من الحرب ، اعلنت حكومته بعبارات عامة انها تعتبر معاهدة ريبنتروب – مولوتوف حول بولونيا معاهدة لاغية . فإذا بالجنرال سيكورسكي ، رئيس الحكومة البولونية في المنفى ، يفسر هذا التصريح بأنه اعلان عن موافقة روسيا على اعادة المناطق الشرقية الى بولونيا . لكن ستالين لم يكن يعني ذلك . وفي اوج معركة موسكو ، توجه بطلب الى انطوني ايدن ، وكان آنذاك في العاصمة السوفييتية ، بان تعترف بريطانيا بالحدود الروسية كما كانت عليه عند الهجوم الهتلري . لكن وزير الخارجية البريطاني آثر تعليق الموضوع . فاقترح ستالين البدء بمداولات مع سيكورسكي مباشرة . فاجاب رئيس الوزراء البولوني بان الدستور البولوني لا يخوله الحق بالمفاوضة حول حدود بلده . ومنذ ذلك الحين ، راح ستالين يتحجج بأن دستور بلاده هو ايضاً لا يجيز له التخلي عن أي قسم من الحدود السوفييتية . بهذا بدأت حقبة جديدة من النزاع الروسي – البولوني الطويل ، يضاعف عذاب الجموع الواسعة من اللاجئين البولونيين في روسيا .

* * *

في ايار من عام ١٩٤٢ ، اوفد ستالين مولوتوف مندوباً عنه الى لندن وواشنطن ، وذلك لتحقيق ثلاثة اهداف : أخذ ضمانات وتعهدات ضد عقد صلح منفرد ؛ الإسراع بفتح الجبهة الثانية ؛ اعتراف « الحلفاء » بحدود روسيا كما كانت عليه عام ١٩٤١ . والمؤكد أن رحلة مولوتوف كانت ناجحة . فقد وقع على معاهدة تحالف بريطانية – سوفييتية لعشرين سنة – وكان ستالين قد عرض فكرة هذه المعاهدة على اللورد بيفربروك في ايلول من عام ١٩٤١ . وبالاضافة الى ذلك ، فقد اعلن البريطانيون انهم يوافقون

الروس « على الضرورة الملحة لفتح جبهة ثانية في اوروبا عام ١٩٤٢ » . وبالرغم من تردد تشرشل ، فقد اضطر الى تطمين ستالين ، في رسالة وقعهـا هو وروزفلت ، بان قوات البلدين سوف تجتـاح فرنسا عبر القناة في شهر ايلول . إلا ان موسكو اخفقت في جلب بريطانيا أو اميركا على الاعتراف بحدود روسيا كما كانت عام ١٩٤١ . ظاهرياً ، كان لستالين كل الحق في أن يـكون راضياً . فقد اعرب جميع اطراف التحالف عن تصميمهم العنيد على الانتصار على المانيـا فتعززت بذلك مكانة روسيا . خلال الاشهر الاولى من الحرب كان الغرب ينظر باستصغار الى طاقات روسيا على المقاومة . إلا ان تقدير البريطانيين والاميركيين لقدرتها العسكرية ما لبث ان ارتفع بعد معركة موسـكو ، فقفزت روسيا الى احتلال مكانهـا القيادي داخل التحالف . وإذا بشعور العداء للسوفييت المستحكم بالغرب يتلاشى ليحل محله سريعاً اعجاب شعبي ساذج لكنه صادق بكل مـا يصدر عن روسيا وبستالين شخصياً . ولم يبخل روزفلت ولا تشرشل على ستالين بعبارات الثنـاء والمديح . فكأن بهالة من العطف الشعبي تبدأ بالاحاطة بصورته — هذه الصورة التي كانت حتى ذلك الحين تبدو قصية ومبهمة وحتى كريهة في نظر الغرب .

إلا ان هذا الانعطاف في الرأي العـام لم يكن وحيد الجانب . ففي روسيا ايضاً ، اضطر الناس الى تناسي الاحقاد والشكوك القديمة . فلم يعد المشرفون على اجهزة الدعاية يقسمون العـالم الى رأسماليين وبروليتاريين ، أو الى استعماريين وضحاياهم من سكان المستعمرات ؛ بل راحوا يقسمونهم الى فاشستيين وديمقراطيين . ولم تقتصر حملة الثناء على روزفلت ، زعيم « العهد الجديد » وداعية العلاقات الودية بين روسيا وأميركا ، وانمـا شملت تشرشل ايضاً ، فاذا بهذا الزعيم السابق للحملة الصليبية المناهضة للشيوعية يتحول الى رمز للبشرية التقدمية والى حليف وصديق . وقد بلغ هذا الشعور ذروته عند اعلان فتح الجبهة الثانية عـام ١٩٤٢ . وكان هذا الشعور نفسه لا يزال سائداً في تموز ١٩٤٢ عندما دعـا ستالين تشرشل لزيارة موسكو والتباحث في تنسيق العمل العسكري بين البلدين .

وصل تشرشل الى موسكو في آب من العام نفسه ، لكن زيارته كانت مخيبة للآمال . فقد جـاء ليبلغ ستالين ان القيادة المشتركة للاركان في بريطانيا والولايات المتحدة قد قررت الغاء الحملة ضد فرنسا والاستعاضة عنها بهجوم على شمال افريقيا . كان اللقـاء بين

ستالين وتشرشل قاسياً وعاصفاً . وفيما يلي مقطع من الحوار الذي دار بينهما كما اورده مصدر روسي شبه رسمي :

تشرشل : ... لقد وصلنا الى نتيجة ...
يصعب علي التحدث في هذا الموضوع ، ولكن ...

ستالين : تحدث يا دولة الرئيس ، ليس بيننا من لا يستطيع السيطرة على اعصابه .

تشرشل : الهجوم على اوروبا يستحيل تحقيقه خلال هذه السنة ...

ستالين : افهم من ذلك ان القادة الانكليز والاميركيين قد نكثوا بالوعد الحازم الذي قطعوه لنا في الربيع الماضي ...

تشرشل : نقترح شن هجوم على صقلية .

ستالين : صقلية جبهة سياسية وليست جبهة عسكرية ...

تشرشل : (نؤكد بان الهجوم على اوروبا الغربية سوف يشن خلال عام ١٩٤٣) .

ستالين : ما الضمانة بانكم لن تنكثوا بهذا العهد ايضاً ؟

مولوتوف : اذاك يحاول رئيس الوزراء البريطاني ان يثبت لنا مرة اخرى بان بلده ليس في وضع يسمح له بالتضحية بالرجال .

قد يساورنا شك حول ما إذا كانت لهجة ستالين بالفظاظة الظاهرة في هذا الحوار . ولكن المصادر البريطانية والاميركية نفسها تؤكد ان ذلك ، بشكل عام ، كان فحوى الحديث . وفي احدى المذكرات التي بعث بها ستالين الى تشرشل ، ذكر ان تأجيل فتح الجبهة الثانية هو « اهانة معنوية للرأي العام السوفييتي » وانه « يخرّب خطط القيادة العسكرية السوفييتية المعدة لعمليات الصيف والشتاء » .

للمرة الثانية ، بات الوضع خطراً للغاية على الجبهة الروسية . كان الالمان قد توغلوا في منطقة القفقاس حتى كادوا يبلغون نهر الفولغا. وكانت معركة ستالنغراد قد بدأت لتوها. والقوات المسلحة مهددة بان تخسر احتياطي النفط القفقاسي . وعلى الرغم من انه كان قد اضحى من المستحيل الانتصار على روسيا عن طريق ضربة صاعقة ، إلا انه كان لستالين ما يبرر خوفه من حرب استنزاف تجمّد دباباته وطائراته ونقلياته . فأولى معركة

ستالنغراد عناية خاصة. ستالنغراد، «مدينة ستالين» وتساريتسين سابقاً التي قد يؤدي سقوطها الى اسداء ضربة قاصمة لمعنويات شعبه. فلا عجب اذن ان تكون ردة فعله للاخبار التي حملها تشرشل لوماً غاضباً على الحلفاء لأنهم خذلوا روسيا. فاذا به، وقد ردد أكثر من مرة انه «لن يقوم بواجبات الآخرين نيابة عنهم» يجد نفسه ضحية مناورة تضطره الى القيام بهذه المهمة المقيتة. تروي المصادر الرسمية ان ستالين قال بعد سفر تشرشل: «كل شيء واضح. يريدون شن حملة على افريقيا وايطاليا. وكل ما يطمحون من وراء ذلك هو بلوغ البلقان قبل غيرهم. وليس مبتغاهم إلا استنزاف قوانا حتى يتمكنوا من ان يملوا علينا شروطهم فيما بعد... لكنهم لن ينالوا مأربهم! فالسلافيون سوف يقفون الى جانبنا.. فكل ما يريدوه هو ان نخسر ستالنغراد فنفقد معها مركز الانطلاق لشن هجوم معاكس...».

يبدو ان بعض التعديل قد طرأ على هذا النص بناء على افكار لاحقة. فلا يعقل ان يعزو ستالين الى تشرشل، في آب من عام ١٩٤٢، فكرة اجتياح البلقان وهي فكرة لم تكن قد اختمرت في ذهنه آنذاك. لكن المؤكد ان الاسباب الموجبة لتأجيل فتح الجبهة الثانية التي عرضها تشرشل، وعلى رأسها افتقار الحلفاء الى البرمائيات اللازمة لعملية الإنزال، لم تكن لتقنع ستالين باي حال من الاحوال. فهو يرى ان هتلر قد قذف بأعداد كبيرة من الجنود الالمان الى الجبهة الروسية بحيث لم يعد بوسعه تجييش عدد كاف من الرجال لحماية ساحل المحيط الاطلسي.

اعترف تشرشل فيما بعد بان التقلب في تصرفات ستالين قد أذهله. فقد ابدى له وداً مفاجئاً بعد الملاسنة بينهما بصدد الجبهة الثانية. وراح ينصت بلطف واهتمام الى تشرشل وهو يعرض حيثيات الهجوم على افريقيا، معبراً عن سرور عظيم للخطط البريطانية الرامية الى شن غارات جوية مكثفة على المدن الالمانية. ان اكتشاف سر تقلبات ستالين هذه ليس بالامر العسير. فهي تعكس التناقض الكامن في موقفه ذاته: فهو لا يستطيع إلا ان ينفس عن غضبه حول تأجيل فتح الجبهة الثانية. هذا من جهة، أما من جهة ثانية فهو حريص جداً على المحافظة على تحالف روسيا مع الغرب يقض مضجعه الخوف من صلح منفرد بحيث لم يجد بداً من ممازحة تشرشل بعد انتهاء الملاسنة الاولى. طبعاً، لم يطلع الرأي العام العالمي على شيء من هذا الخلاف الخطير. فقد اعلن عليه ان المحادثات بين

الرئيسين « جرت في جو من الود والصدق التام » . غير ان الجندي الروسي ما لبث ان احس بان ثمة خلل مـــا ، فعيل صبره من الحلفاء الغربيين وتفاقمت خيبة امله . وكانت فكرة تأجيل هجوم الحلفاء على اوروبا الغربية لمدة سنتين ترزح بكل ثقلها على الرأي العام الشعبي ، ومهما عظـّمنا من ذلك فلا نخالنا مبالغين . والواقع ان الجيش الاحمر خـــاض معركة ستالنغراد تحت وطأة هذا الشعور المكرب بالعزلة .

* * *

عندما بدأت المعركة فعلاً ، رافقها هبوط سريع في معنويات الجنود والمدنيين على حد سواء . ويقول رئيس البعثة العسكرية البريطانية في موسـكو : « يبدو ان معنويات الروس قد انهارت في الجنوب على مقربة من روستو ، فكادوا ان يتخلوا عن القتال . ويقال ان ستالين نفسه قام بزيارة لذلك الجزء من الجبهة . ومهما يكن من امر ، فالمؤكد انه اجرى حركة تصفيات وتنقلات سريعة وواسعة النطاق ... وقد نجحت هذه الحركة في رفع المعنويات الروسية في الجنوب » . وقـــد اشيع ان ستالين ترأس محكمة عسكرية تولت معاقبة عدد من الضباط المتهمين بالتخلي عن واجباتهم . وتولى ياروسلافسكي، رئيس قسم الدعاية في الحزب ، اتهـــام السلطات المدنية في القفقاس بالفشل الكامل في الإعداد للدفـــاع عن مدنهم . والواقع ان محاولات الالمان تأليب الاقليات القومية والقبـــائل القفقاسية ضد بعضها البعض والسعي لتجنيد المتعاونين معها من صفوفهـــا قد لاقت بعض النجاح — وهذا امر اعترف به الاتحاد السوفييتي رسمياً بعد الحرب عندمـــا عاقب عدة مئات من ابناء الاقليات التشيشينية والانفوشية والتترية بنفيهم الى سيبيريا بتهمة التعاون مع العـــدو . لذا ، فان معركة ستالنغراد لم تكن ، في مطلعها ، تبشر بالخير . لكنها معركـة لم يكن بمقدور ستالين ان يخسرها لأسباب شخصيـة ولأسباب عسكرية صرفة ولعلها الاهم . فقادها طوال ستة اشهر كاملة ، وتتبع تطوراتها وتطورات الهجوم المعاكس الناجم عنها .

منذ بدايتها ، كانت الحملة على ستالنغراد حملة استثنائية حقاً . فالالمان لم يعتبروها ، أول الامر ، نقطة عسكرية بالغة الاهمية . ولم يبدأ الروس بارسال القوات للدفاع عنهـا إلا في أواسط تموز . والواقـــع انه لم يكن ثمة من سبب عسكري يوجب ان تتحول

ستالنغراد الى ساحة لأكبر معركة عرفتها الحرب العالمية الثانية . وربما كان من الاسهل على الالمان ان يقطعوا خطوط تموين جبهة الفولغا عند أية نقطة الى الجنوب من ستالنغراد، أي بينها وبين بحر قزوين . فالدافع الذي حدا بهتلر الى الهجوم عليها دافع نفساني بالدرجة الاولى . وتقول رواية الجنرالات الالمان : « عندما تقرر الهجوم على ستالنغراد ، في المنتصف الثاني من شهر آب ، كان الروس قد جمعوا فيها اعداداً اضافية من قوات الاحتياط ... فقد وجدوا سهولة اكبر في حماية ستالنغراد بدلاً من القفقاس لأنها اقرب الى جبهتهم الرئيسية . وقد ضاق صدر ستالين من هذه الضوابط المتتالية . فان اسم المدينة نفسها — « مدينة ستالين » — كان تحدياً بحد ذاته . فسحب قواته من خط القتال الرئيسي ومن الخطوط الاخرى في محاولة لاجتياحها فأنهك جيشه خلال المحاولة » . خلال العام المنصرم ، كان الكرملين محط طموح ستالين وهتلر معاً ، فتركز اهتمامها الآن في ستالنغراد ايضاً .

في النصف الاخير من شهر آب ، كان الروس قد انسحبوا الى منتصف دائرة الدفاع عن ستالنغراد . فأرسل ستالين الى نقطة الخطر كلاً من جوكوف ، افضل قادته العسكريين، وفاسيليفسكي الذي حل محل شابوشنيكوف في رئاسة الاركان، ومالنكوف. وأطلق شعاره الشهير الى رجال حامية ستالنغراد : « لا تتراجعوا خطوة واحدة » . ولم يكن هذا الشعار قطعة من اللفظية العسكرية التي يلجأ اليها في العادة قادة الجيوش المنسحبة . ولا كان ستالين متشبثاً بفكرة الدفاع الجامد التي اعتمدها هتلر نفسه بعد ان انقلب عليه مد الحرب . فالعكس هو الصحيح ، لأن الانسحابات الحذقة وتحاشي الاشتباك كانت ، حتى ذلك الحين ، من العناصر الرئيسية لخطة ستالين القائمة على « الدفاع المعمّق » . غير ان صد التقدم الالماني نحو المدينة التي تحمل اسمه امر بالغ الاهمية . فاسطورته كلها على المحك هناك .

واصل الالمان تقدمهم . لكنه كان تقدماً بطيئاً جداً وباهظ الاكلاف . في النصف الاول من ايلول ، انتقل خط القتال الى مشارف المدينة ؛ ثم الى ضواحيها ومركزها في النصف الثاني منه . فالتحق عمال مصانع ستالنغراد بالجيش ٦٢ بقيادة شويكوف ، وكان بينهم محاربون قدامى حاربوا تحت امرة ستالين وفوروشيلوف لاثنتين وعشرين سنة خلت . تراجع المدافعون حتى حوصروا بين العدو ونهر الفولغا وانقطعت كل خطوط الانسحاب .

ولم تكن الامدادات والمؤن تصلهم إلا عبر النهر ، تحت قصف الماني مكثف . وسرعان ما تجمّد النهر ، فعرقل عملية التموين ذاتها . في الخامس من تشرين الاول ، توجه ستالين بنداء جديد الى الحامية المحاصرة :

« اناشدكم اتخاذ كل الاجراءات اللازمة للدفاع عن ستالنغراد . لا يجوز ان نتخلى عن ستالنغراد للعدو ، بل ينبغي تحرير ذلك الجزء منها الذي احتله العدو » .

بين ٢٧ ايلول و ١٣ تشرين الاول ، كانت المعركة تدور داخل مصانع ثلاثة :«مصنع ستالنغراد للجرارات » ، مصنع « اكتوبر الاحمر » ، ومصنع « المتراس » . أما بين ١٤ تشرين الاول و ١٩ تشرين الثاني ، فقد انتقل القتال الى الشوارع والمنازل —وإذا باحتلال الالمان لشارع واحد من شوارع المدينة يكلفهم من الوقت والضحايا ما كلفهم غزو الاقطار الاوروبية بأسرها . وما ان انتصف شهر تشرين الثاني ، حتى كان المدافعون يسيطرون على بعض المواقع المبعثرة قرب ضفة النهر . في ذلك الحين ارتأى ستالين ان يرفع من معنوياتهم ، فوعدهم في اوامره اليومية : « لن تزول البهجة من شوارعنا » . وفي ١٩ تشرين الثاني ، عندما بدا وكأن الالمان يبذلون آخر مجهود للسيطرة على المدينة سيطرة تامة ، اصدر امراً بشن الهجوم المضاد .

كان قد بدأ التخطيط لهجومه في ايلول ، وسط فوضى عظيمة . وقد لخّص الوضع لفاسيلييفسكي على النحو التالي : « اننا نقاتل بمعزل عن اية مساعدة . هجماتنا المضادة لا تؤدي النتائج المرجوة . العدو يبيد وحدات بأسرها . الجنرالات مختلفون فيما بينهم حول الخطة الواجب اتباعها . فالبعض يلح على ان يقتصر عملنا على طرد الالمان من ستالنغراد . والبعض الآخر يحاول اقناعنا بانتظار وصول مساعدة من الحلفاء . والجميع يلح في طلب قوات احتياط » . أما ستالين نفسه ، فكان يرى ان الوسيلة الوحيدة لتخطي الازمة هي في شن هجوم مضاد على نطاق واسع ، مؤكداً ان الوقت مناسب لذلك . فطلب من فاسيلييفسكي (أم تراه طلب من جوكوف ؟) وضع خطة عملية لهذا الغرض .

كانت فكرة الهجوم المعاكس عند ستالين تقوم على معطيات نفسانية وعلى فهم عميق لعقلية هتلر هي نفسها التي ارتكزت اليها خطة معركة موسكو، على الرغم من ان الجانب التنفيذي من الحملة الراهنة كانت اكثر تعقيداً ونضجاً وفاعلية. راهن ستالين للمرة الثانية على تعجرف هتلر الاعمى. وسلـّم بان هتلر يظن ان القوات الروسية في الجنوب ستكون، خلال الصيف، في حالة من الاضطراب والتشتت بحيث يتعذر عليها الاستعداد لشن هجوم معاكس. كما افترض بان الالمان سوف يرتكبون الخطأ ذاته الذي ارتكبوه ابان حصار موسكو: الاحجام عن اعادة تنظيم قواتهم على اساس دفاعي. وبالفعل، فقد طمأن هتلر قواته، في احد اوامره الصادرة اليها يوم ١٤ تشرين الاول، بان الهجوم الروسي المعاكس مستبعد كلياً. كلـّف ستالين القوات المدافعة عن ستالنغراد بالتصدي لنخبة القوات الالمانية الجنوبية ومشاغلتها باستمرار الى حين انهاكها وذلك ضمن الحزام المحيط بستالنغراد. وراح اثناء ذلك يعبىء احتياطاً استراتيجياً غير آبه على الاطلاق بصراخ قادة الوحدات على الجبهة المطالبين بالامدادات والتعزيزات. فأصدر الى رئيس الاركان الامر التالي: «مهما صيّحوا أو تذمروا، فلا تعدونهم بارسال قوات احتياطية. لا ترسلوا ولو فرقة واحدة من فرق جبهة موسكو». لم ترتكب غلطة تشتيت قواه، وهي التي اوردت هتلر موارد الهلاك. وكان هذا الاخير خلال تلك الاثناء، ينقـّل قوات الاحتياط، بلا مبرر، بين ستالنغراد والقفقاس. وضع ستالين كل قوات الاحتياط المتوافرة تحت امرة جوكوف الذي وزعها، بسرية تامة، على الجيوش الثلاثة المعسكرة الى الشمال والشمال الغربي والجنوب من ستالنغراد. وكانت هذه الجيوش بقيادة كل من فاتوتين، روكوسوفسكي ويريمنكو. أما المدفعية الروسية الجبارة، السلاح الحاسم في تلك المعركة، فكانت تحت امرة فورونوف. وكان على آمري القطاعات الثلاثة ان يسددوا ضربات متلاحقة ومكثفة على مؤخرة القوات الالمانية التي تحاصر ستالنغراد بغية عزلها عن القوات الالمانية الاخرى في الغرب. وتقرر ان تسدد الضربات الاولى ضد نقاط الضعف في الجبهة الالمانية، أي المواقع التي تحتلها القوات الرومانية والمجرية والايطالية المتذبذبة في حماسها للحرب – وهذا مثال آخر على مبلغ النفاذ السياسي والنفساني الذي ارتكزت اليه الخطة. في التاسع عشر من تشرين الثاني هجم فاتوتين في الشمال. عقبه روكوسوفسكي في اليوم التالي، ويريمنكو في اليوم الثالث موجهاً ضربته من الجنوب.

وفي اليوم الرابع كانت القوات الالمانية التي تحاصر ستالنغراد محاصَرة بدورها .

ثم أمر ستالين عقداءه بعدم الاكتراث للقوات المحاصَرة بقيادة فون بولوس، والتصدي للقوات الالمانية المعسكرة خارج نطاق الحصار بغية اجبارها على التراجع الى ما وراء نهر الفولغا ثم نهر الدون . هرعت وحدات المانية من الجنوب بقيادة مانستاين في محاولة لفك الحصار المفروض على فون بولوس ، وأصدر هتلر الى طيرانه أمراً باقامة جسر جوي مع ستالنغراد لتزويد الوحدات المحاصَرة فيها بالغذاء والذخيرة . فرمى ستالين احتياطيه من الطائرات الى المعركة وتمكن من اغلاق هذا الجسر الجوي . ولما تعذر على عقدائه الاتفاق فيما بينهم على من يجب ان يُضرب اولاً فون بولوس أم مانستاين ، قرر تسديد الضربة الاولى ضد هذا الاخير . تكلل الهجوم بالنجاح ، وما ان شارف شهر كانون الاول على نهايته ، حتى كانت القوات الالمانية قد تراجعت مسافة ١٢٠ ميلاً تقريباً عن ستالنغراد . وفي فاتح شباط ، استسلم فون بولوس مع ثلاثة وعشرين من عقدائه وكل القوات التابعة له . وتلا ذلك طرد الالمان عن منطقة القفقاس بأسرها . هكذا انتهت المعركة التي ابيدت خلالها زهرة الجيش الالماني وقد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً باسم ستالين من كل النواحي . وفي المكان ذاته الذي خطا فيه ستالين اولى خطواته كقائد عسكري منذ ربع قرن ، نراه يخوض الآن المعركة التي رفعته الى ارقى مستويات السموّ في نظر العالم اجمع .

* * *

ما لبثت احداث عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ ان ادخلت تعديلات ملموسة على ملامح المجتمع الروسي . وغالباً ما كان ستالين يشير الى ان الحرب وضعت السوفييت امام امتحان عسير ووفرت الحجة الدامغة التي تؤكد صحة الافكار والمبادىء التي يستلهمونها. صحيح ان النظام السوفييتي صمد امام هذا الامتحان بصلابة لم يتوقعها خصومه ولا حتى البعض من مؤيديه . فكانت الازمة مجالاً لتأكيد تماسكه البالغ . ولكن يصح القول كذلك ان الحرب ما لبثت ان احدثت انقلاباً في العوائد الذهنية التي اعتمد عليها النظام منذ ان ارسيت قواعده نهائياً في الثلاثينات ؛ وانها اضطرت ستالين بالتالي الى اجراء بعض التعديلات والاصلاحات السياسية ، الصريحة منها والخفية ، بغية تجاوز

الانقسامات التي حدثت داخل الامة ومن اجل تحقيق وحدة الهدف – الشرط الجوهري لاحراز النصر .

كانت معنويات الامة قد تدنت الى حد الانهيار الكامل في مناسبتين : عشية معركة موسكو وعشية معركة ستالنغراد . بديهي ان بعض العوارض الخطرة – مثل اعمال الذعر والفرار من الجيش – ملازمة لأي وضع ولا بد لها من ان تظهر في أي ظرف مشابه. أما العوارض الاخرى – كالتعاون على نطاق واسع مع العدو وخاصة في اوكرانيا والقفقاس – فكانت ناجمة عن احقاد وتذمرات ضامرة منذ الثلاثينات . فأدرك ستالين ان البلد بحاجة الى نوع من الهدنة الداخلية . والامر الذي سهّل عليه تحقيق مثل هذه الهدنة هو انه لم يكن يتضمن تنازلاً من جانبه لأي خصم سياسي قوي ، فقد تمكن من تحطيم كل خصومه السياسيين المهمين . فكان كل ما عليه القيام به يتلخص في تبديد حالة استياء مديدة وتذمر ضامر لدى بعض قطاعات الشعب . يتعذر علينا في الوقت الحاضر تحديد حجم هذه القطاعات . ولا يجوز ان نتصور ان غالبية الامة كانت معادية للحكومة . فلو كان الامر كذلك ، فما من نداءات وطنية وما من ضغط أو اكراه كان بامكانه ان يحول دون انهيار روسيا سياسياً ، هذا الانهيار الذي كان هتلر يراهن عليه بثقة اكيدة . فالتغيّر الجذري الذي عرفته البلاد قبل الحرب قد زاد من تماسك الامة ، بالرغم من كل جوانبه المظلمة . فاذا بغالبية الشعب مدركة بوضوح لما احرزته من تقدم اقتصادي واجتماعي وعازمة على الدفاع عنه ضد الخطر الخارجي . من المؤكد انه كان ثمة اقلية مستاءة معارضة . ويجوز لنا القول انها كانت اقلية كبيرة نسبياً نظراً لاتساع رقعة انتفاضات ما قبل الحرب ولتنوع وكثرة المصالح المصابة . بين العناصر الراضية والعناصر المتذمرة كان يوجد المتشككون والمتذبذبون . ولو ان البلد شهد هزائم منكرة ، لكان الرأي العام الشعبي تذبذب صعوداً أو هبوطاً ، أو انحاز يساراً أو يميناً بفجائية وسرعة قد يؤديان الى الاخلال في التوازن السياسي. فكان على الحكومة ان تبذل قصارى جهدها لتثبيت مزاج الامة . فبدون ذلك لا امل لها بان يلبي الشعب طلباتها المضنية . وبدون ذلك لما استطاعت ان تبث في البلد جواً من الحماس ادى الى الانتصارات العظيمة التي شهدتها السنوات اللاحقة .

قبل الحرب ، كان الجهاز الدعائي يركز باستمرار على قصة النزاع داخل الحزب . فلم

يترك للامة لحظة استراحة واحدة تتناسى فيها شرور التروتسكية والبوخارينية وغيرها من الانحرافات ، كما لم يفسح لها مجالاً لأن تتراخى في « يقظتها » تجاه « اعداء الشعب » . أمـــا خلال الحرب ، فقد تخلت الاجهزة الدعائية عن كل ذلك . فازاء مؤامرة هتـلر الحقيقية ، بدا وكأن النسيان طوى كل المؤامرات الوهمية التي رزحت على البلد طوال السنوات الماضية . وإذا ببقايا المعارضة ، ممن قد يخدم المجهود الحربي ، يطلق سراحه من معسكرات الاعتقـــال ويعكف بمسئوليات هامة على الصعيد الوطني . أُرجع انصار توخاتشيفسكي الى القيادات العسكرية بعد سجن ونفي طويلين . وتقول احدى الروايات ان روكوسوفسكي ، بطل ستالنغراد والشيوعي البولوني السابق ، كان واحداً منهم يلعب دور ضابط الاتصال بين قيـــادة توخاتشيفسكي والكومنترن . كذلك اطلـــق سراح البروفسور رازين وكوفىء على خدماته وجرى تقليده ارفع الاوسمة والجوائز ، وهو زعيم « الحزب الصناعي » الذي اتهم في اوائل الثلاثينات بالتآمر والاتصال بدولة اجنبية . أما البروفسور اوستريالوف ، الذي كان يدعو الى تحويل السوفييت الى جمهورية برجوازيـــة وطنية ، فقد ظهر كمساهم في صحف موسكو الرئيسية . وما هذه إلا ابرز مظاهر الهدنة الداخلية غير محددة المعالم . نعتبرها غير محددة المعالم لأنهـــا لم ترتكز الى أي قرار رسمي أو مصالحة أو عفو عام ، وانما ارتكزت الى بادرات ستالين النزقة . وبالرغم من ان معناها لم يكن خافيـاً عن الذين شملتهم ، إلا انها لم تلزمه بشيء ولم تتحول الى ضرب من « النقد الذاتي » على اخطائه الماضية .

* * *

غير ان اهم تطور شهدته تلك الفترة هو انبعاث النزعة القومية الـتي كانت معتبرة ، لمدة وجيزة خلت ، نزعة معادية للبلشفية . انبعثت القومية عفوياً الى حدٍ ما . فالانباء الواردة من المناطق التي يحتلها الالمان عن المعاملة الوحشية الـتي يعامل بها النازيون السكان والدعاية الهتلرية عن الدونية العرقية للشعوب السلافية والروسية منها بخاصة كانت تقابَل في اوساط جماهير الشعب بمزيج من الغضب المتفجِّر والعزة القومية . وقد زاد منهما شعور الامة بعزلتها وخـــاصة مع تأخر غزو الحلفاء لاوروبا الغربية . وقد عبّر الشعراء والكتّاب والصحفيون عن هذا الشعور . فاذا بروسيا ترى نفسها شبيهة « بالإله اطلس ،

تحمل بمفردها كل عبء العالم » — على حد تعبير الكساي تولستوي . غير ان ستالين اراد استغلال هذه النزعة سياسياً ، فراح يسعّر الشعور القومي على نحو مصطنع الى حدٍ ما . سمعناه منذ قليل يستحضر ارواح كوتوزوف وسوفوروف ومينين وبوجارسكي في الاشهر الاولى من الحرب . فحذا حذوه آلاف الدعاة الذين راحوا يؤلهون ماضي روسيا الامبراطوري بفظاظة لا تحدّ . ثم اغرق ستالين البلد بسلسلة طويلة من المراسيم والاصلاحات المعاكسة ، وكلها ترمي الى تسعير هذا الشعور الجديد .

كانت الامة بحاجة الى شيء ما ، شعاراً كان أم فكرة ، تلهب بها مخيلتها وتحافظ بها على بسالتها . خلال الحرب الاهلية ، كانت افكار الاممية الاشتراكية والثورة العالمية تحرك الجيش الاحمر . وبعد ذلك ، ظلت غالبية البلاشفة تعتقد انه اذا ما هوجمت روسيا ، فانها سوف تحول الحرب الى معركة لا تقوم بين الامم ، وانما بين الطبقات داخل كل امة . إلا ان هذا الايمان بالاممية الثورية ما لبث ان تلاشى فلم يبقى منه الشيء الكثير بعد الدعاية المطولة عن الانكفاء على النفس وبناء الاشتراكية في بلد واحد وبعد اضطهاد دعاة الاممية خلال التصفيات الكبرى . وإذا بسعي ستالين الحالي الى تمتين التحالف بين روسيا والقوى الاوروبية يشكل الرادع الحاسم ضد أي انبعاث للاممية الثورية القديمة . كان تسعير الشعور القومي ارتداداً على الاممية الثورية ، فمن البديهي ان يبلغ ذروته في اوساط القوات المسلحة .

والواقع ان ابرز التغيرات الناجمة عن هذه النظرة الجديدة جرت في القوات المسلحة . فقد الغيت جميع الاعراف والتقاليد والمؤسسات المتبقية داخل الجيش كجزء من ميراث الثورة والحرب الاهلية . ففي شهر تشرين الاول ١٩٤٢ ، أي في اوج معركة ستالنغراد ، صدر مرسوم خاص يلغي صلاحيات المفوضين السياسيين وهم الذين كانوا يراقبون الضباط باسم الحزب . وإذا كان منصب المفوض السياسي نفسه لم يلغَ ، فقد اخضع المفوضين السياسيين للقادة السياسيين . ثمة ما يبرر هذا الاجراء عسكرياً ، فهو يؤدي الى وحدة القيادة ويعزز الانضباط . لكن دلالاته السياسية ليست اقل اهمية من دلالاته العسكرية . فقد كان ايذاناً بالعودة السريعة الى التقاليد العسكرية العائدة الى فترة ما قبل الثورة . في تشرين الثاني ١٩٤٢ ، وفي تعليق لها على مرسوم يقضي بالغاء « التنافس الاشتراكي » في الجيش ، قالت « البرافدا » صراحة ان الجنود ليسوا ملزمين بواجبات اشتراكية على

الاطلاق ، وانما تتلخص مهمتهم في الدفاع عن الوطن كما فعل اسلافهم من قبل . وأعيدت الى الاذهان الانظمة العسكرية التي وضعها بطرس الاكبر كنموذج يقتدى به . وأُعيد تكوين فرق ووحدات الحرس ، وكل ما فيها يذكّر بأيام القياصرة . كذلك اعيد الاعتبار للاوسمة التي تحمل اسم سوفوروف وكوتوزوف . كذلك بُعثت فرق القوزاق ، بكل ابهتها السابقة ، وهي الرموز الكريهة للاضطهاد القيصري . وأخيراً ، وبمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين للثورة ، تقرر اعادة الشارات المقصبة كجزء من بزة الضابط ، هذه الشارات ذاتها التي الغيت بموجب أول المراسيم البلشفية إذ اعتبرت من مخلفات نظام فئوي رجعي في الجيش . وبالاضافة الى ذلك كله ، جُعلت التحية العسكرية إلزامية ، وفرضت رقابة صارمة على تنفيذها . وفتحت نواد خاصة بالضباط ، ومطاعم متمايزة للضباط الكبار والصغار . وكأننا بستالين ، عندما منح نفسه رتبة مشير في ختام معركة ستالنغراد في آذار ١٩٤٣ (وهي اول رتبة عسكرية ينالها وهو في الرابعة والستين من عمره) ، يريد ان يكرّس هذه النزعة التي ضاعفت امتيازات الضباط ورفعت من مقامهم مؤكداً ارتباطه الوثيق بها . وكان ستالين قد غمر ضباطه بالاوسمة وأكاليل الغار . فخلال شهر كانون الاول وحده ، جرى ترفيع ٣٦٠ ضابط الى رتبة عقيد ؛ وفي الاسابيع اللاحقة امتلأت اعمدة الصحف بلوائح طويلة عن الترقيات . وكان قد سلّم عصا الماريشالية الى ألمع القوّاد العسكريين ، فاذا به يريد أن يؤكد الآن انه متضامن كلياً مع ضباطه .

لم تقف النزعة التقليدية القومية عند حدود الجيش ، بل تعدته لتسود الجو السياسي للبلد بأسره . وقد حرص ستالين على دعم توريط نفسه شخصياً بطريقة مباشرة في هذا الخط الجديد ، إذ يبدو ان « الرواسب » البلشفية كانت لا تزال فعالة فكرياً بالنسبة له حتى يقدم على مثل هذه الخطوة . لكنه أيد الخط الجديد باسلوبه المميز الغريب القائم على التلميح لا التصريح . خلال معركة موسكو ابدى الملاحظة التالية بصدد الاشتراكية الوطنية : « هل يمكننا اعتبار الهتلرية نزعة **قومية** ؟ كلا ، لا يسعنا ذلك . فالواقع ان الهتلريين ليسوا قوميين بل هم **استعماريون** » . ثم اردف قائلاً انه بمقدار ما يعمل هتلر على استعادة الاراضي الالمانية فانه يستحق لقب الزعيم القومي . لكنه ما ان بدأ يضم الاقطار غير الالمانية حتى انتفت هذه الصفة عنه . انه لمن المستغرب حقاً ان يتفوه ستالين بمثل هذه الحجة . فالواقع ان البلاشفة ، بمن فيهم ستالين ، ما كانوا يترددوا في اطلاق لقب

« القوميين » على خصومهم وأعدائهم ، هـذا اللقب الذي يكتسي عند اتباع لينين معنى تجريحيـاً . فاذا بستالين ، وهو ينكر على هتلر هذه الصفة ، ينزع عن اللقب دلالتـه التجريحية ، فكأننـا به يقول : « نحن هم القوميون الحقيقيون وليس اعداءنا » . تشبث دعاته بالتلميح وراحوا يعملون بمقتضاه . أما ستالين نفسه ، فكان يتذبذب اطراداً بين « رواسبه » الاممية وبين الميل الى تسعير الشعور القومي . لذا قال في احدى المناسبات : « ... إذا كان الالمان يريدونها حرب إبادة ، فليكن . لقد اضحت مهمتنا من الآن فصاعداً ابادة كل المـاني تسوّل له نفسه ان يضع قدمه الغازية على ارض الوطن الام » . وقد استغلت اجهزة الدعاية الهتلرية هذا التصريـح ايما استغلال ، فراحت تؤكد للجنود الالمان ان الجيش الاحمر لن يعفي عن حياة أي اسير ، فحثتهم بالتالي الى القتـال بيأس متوحش . إلا ان ستالين ما لبث ان صحح نفسه ناعتاً التفسير الذي اعطي لكلماته على انه « كذبة حقيرة وتحقير سخيف ضد الجيش الاحمر » . ثم اردف قائلاً : « انه لمن السخف بمكان ان نعتبر ان زمرة هتلر هي الشعب الالماني او الدولة الالمانية . ان تجربـة التاريخ لتؤكد بان امثال هتلر يأتون ويروحون ، لكن الشعب الالماني والدولة الالمانية باقيان الى الابد » . غير ان اجهزته الدعائية ، على وجه العموم ، عجزت عن تحديد هذا التمايز ، ولم تلجأ اليه إلا في أواخر الحرب. فقد عمدت،مثلها مثل مثيلاتها في الدول الحليفة الاخرى، على تحريض الشعب ضد الامـة الالمانية ككل ، وليس ضد النازيين وحدهم . وكما هو معروف ، فان الاوامر اليومية التي يصدرها ستالين للجيش الاحمر تنتهي دومـاً بالعبارة التالية : « الموت للغزاة الالمان ! » . وكانت هذه اللازمة المروعة ، التي تتردد يومـاً بعد يوم والتي دخلت بشكل أو بآخر قصائد الشعراء ومقالات الصحفيين ، تعبّر عن غضب الامة المقاتلة تسعّره عليه في آن معاً؛ فكأننا بها تلخص كل مسألة الحرب المعقدةوالمتعددة الجوانب ولا تبقي منها إلا على عنصر أولي واحد : عنصر الابادة الجسدية .

ان بربرية هتلر العرقية من جهة، والطابـع القومي الحاد لدعاية ستالين من جهة اخرى، لم يتركا أي مجال لدعاية روسية فعلية تتوجه الى قواعد الجيش الالماني ، أو لمحـاولة دق اسفين عقائدي بين النازيين من جهة وبين الشعب الالماني من جهة اخرى، أو لخوض معركة سياسية فعلية قد تؤدي الى تقليص حجم تلك المجزرة الرهيبة . ان نقطة القوة في الدعوة القومية تكمن في انها حالت دون ان يتذبذب الجندي الروسي أو تخور عزيمتـه ، لكن نقطة الضعف فيها هي انها ، بسبب كونها دعوة قومية بالذات ، لم تمكّـن روسيا من النصر

إلا بعد ان دفعت لقاءه افدح الاثمان وأبهظ الاكلاف . ويصعب علينا بالفعل ان نحدد ايهما الاعظم : سوء حظ روسيا في انها تملك قيادة لا تستطيع الانتصار في الحرب بنسبة أقل من الدمار وإراقة الدماء ، أم حسن حظها في انها تملك قيادة ، ما ان فرضت عليها مسيرة التاريخ الاختيار بين الحرب من جهة وبين الاستسلام والخنوع من جهة اخرى ، حتى اختارت المخرج الوحيد ودفعت افدح ثمن دفعته أية امة اطلاقاً من اجل إحراز النصر .

في الرابع من ايلول عام ١٩٤٣ ، أذهل ستالين العالم إذ أقدم الى اعادة الاعتبار للكنيسة الارثوذكسية التي كانت شبه ممنوعة منذ قيام الثورة بسبب صلتها الوثيقة بالعهد المباد . وقد استقبل المتروبوليت سيرجيوس ، رئيس الكنيسة الفعلي ، وبعد مقابلة طويلة وديــة أصدر قراراً باعادة فتح المجمع الكنسي الارثوذكسي . وكان مبرره في ذلك ان الكنيسة تساهم في المجهود الحربي فأثبتت بالتــالي اخلاصها للوطن الام . لا شك في صحة ذلك . ولكن ، لا شك ايضاً في ان العديد من المطارنة والكهنة تعاونوا مع الالمــان في المناطق المحتلة . كان بديهيــاً ان يؤدي الحماس الجديد لبعث التقاليد الروسية الى اعادة الاعتبار للكنيسة وهي التي تحتل من هذه التقاليد مركز المحور . وبما ان الدين لم يفقد سطوته اطلاقاً على الفلاح الروسي ، وبما ان روسيا شهدت انبعاثــاً للشعور الديني وسط المحن والاضطرابات التي سبقت الحرب وعاصرتها،فقد كان الغرض من هذا الاجراء الجديد ازالة الحواجز القائمة بين الحكومة والمتدينين . وهذا مما يدعم الهدنة السياسية الداخلية .

بالاضافة الى ذلك ، كان ستالين يفكر باعتبارات اخرى . كان الجيش الاحمر قــد استعاد القسم الاكبر من اوكرانيا خلال الصيف ، فراح ستالين يتطلع الى اليوم الذي يعبر به جيشه الحدود الى دول البلقان حيث الديانة الشرقية هي الديانة السائدة . ولعله قــال لنفسه ان بسط النفوذ الروسي على البلقان ليساوي قداس ارثوذكسي . كان القياصرة قد استخدموا الكنيسة كأداة طيعــة لتنفيذ اغراضهم السياسية ؛ وها ان ستالين يسير في ركابهم انطلاقاً من حسابات انتهازية مدروسة . أنْ يقرر ستالين ، وهو الطالب السابق في الكلية الكهنوتية ، هذه العودة شبه المزورة وشبه الصادقة للكنيسة الارثوذكسية لهو من صدف التاريخ الصغيرة التي يروق للمؤرخين الرومنطيقيين ان يروا فيها معنىً خاصــاً . ولكن ، أن يعيد الاعتبار للكنيسة ولما مضى زمن طويل على اعلانه حل الكومنترن لهو صدفة ذات دلالة سياسية أهم من الاولى . فالإجراءان متناغمان، وقد أراد ستالين التشديد

على تناغمها ، فقرر الغاء نشيد الاممية ، نشيد الحركة العمالية العالمية الذي ألـّفـه احد شعراء عامية باريس ، كنشيد وطـني للاتحاد السوفييتي ، واستبدله بنشيد آخر ينطوي على قدر أكبر من الإجلال الوطني .

وكان ستالين منسجماً كل الانسجام مع هذا الخط الجديد عندما تبنى حركة احياء للتراث السلافي . كانت نزعة احياء التراث السلافي ، بما تضمنته من نزعة قومية سلافية كتتويج لها ، تشكل جزءاً عضوياً من روسيا قبل الثورة . ومن منوعاتها اداة من ادوات الدبلوماسية القيصرية تستخدمها في حربها ضد الامبراطوريتين العثمانية والهابسبرغية ، مشددة على الوحدة العرقية السلافية التي تشد اتباع هاتين الامبراطوريتين من بلغاريين وسربيين وسلوفينيين وتشيكيين الى روسيا . وكان لأحد المنوعات الاخرى من نزعة احياء التراث السلافي صفة ثورية « شعبية » — إذ كانت تدعو الى تضامن الامم الفلاحية السلافية في وجه الاوتقراطية الاقطاعية والرأسمالية الغربية معاً . رفضت الدعوة الماركسية ، بما فيها جناحها البلشفي ، نزعة احياء التراث السلافي بكل منوعاته بسبب ادانة الماركسيين لأية دعوة للتضامن العرقي . أما نزعة احياء التراث السلافي ، بصيغتها الراهنة ، فكانت تنطوي على خصائص المنوعين القديمين : فهي اداة بيد الدبلوماسية لكنها تلمح ، في الوقت ذاته ، الى وجود مصلحة ثورية متمايزة ومشتركة بين جميع السلافيين .

وعلى الرغم من ان ستالين تبنى الدعوة التقليدية الجديدة ، فلم يكن بوسعه تجاهل التناقض الاساسي القائم بين الدعوتين : واحدة تحنّ الى روسيا القيصرية والاخرى تستلهم لينين. من هنا عجزه عن ان يربط نفسه نهائياً بواحدة منهما. كان قد غادر شواطىء روسيا اللينينية منذ زمن بعيد ، لكنه لا يستطيع ان يرسي على شواطىء « روسيا الام » — فراح يجول بين هذه وتلك . طبعاً ، لم تطرح مسألة قيام نزاع علني بين الدعوة ، ذلك انه يترتب على نظام الحكم ان يظل « وحدانياً » وما يسري عليه يسري على الايديولوجية التي يتبنى . كذلك ليس بمقدورنا تبيان أي من أعضاء المكتب السياسي كان أكثر تمسكاً بهذا المبدأ أو ذاك ، أو ما إذا كان ثمة من خلافات بينهم اصلاً ، لأننا لا نكاد نعرف شيئاً عن الحياة الداخلية في المكتب السياسي طوال تلك السنوات . ومهما يكن من أمر ، فقد تعايش حزبان في افكار الشعب ومشاعره وفي فكر ستالين نفسه : حزب الثورة وحزب

التقاليد ، وكل منها شبه واع لوجوده . وإن القارىء المتفحص لخطابات ستالين خلال الحرب قادر على ان يتبين ، عبر انعطافاته المتتالية وتغير نقاط التركيز عنده ، الاحيان التي كان هذا الحزب يتغلب على ذاك ، والاحيان التي كانا يتعادلان فيها . ان الثنائية في نظرة ستالين لتنعكس بوضوح كامل في تصرفه خلال الاحتفال بذكرى الثورة عام ١٩٤٣ . عشية الاحتفال ، تقلد ستالين وسام سوفوروف . ثم ظهر امام سوفييت موسكو لالقاء خطابه الاحتفالي التقليدي . لكنه ظهر لأول مرة مرتدياً بزة المشير ، يزدان كتفاه بشارات مطرزة بالذهب وبنجوم تتلألأ بالماس والاحجار الكريمة . وفيما كانت طلقات المدفعية والالعاب النارية في الخارج تستقبل اخبار تحرير كييف ، وقف أمام السوفييت كأنه تجسيد لروسيا القديمة : روسيا سوفوروف و كوتوزوف . لكنه احجم ، في خطابه ، عن تمجيد مشاهير روسيا الامبراطورية ، بل استرجاع ، بدلاً من ذلك ، « وصايا لينين » وتحدث مطولاً عن انجازات الثورة في حقل بناء الاشتراكية . و كأنه أراد الحد من تأليه الجيش ، ونزعة التأليه هذه متصاعدة منذ اشهر ، فأعلن : « ان حزب لينين ، في سنوات البناء السلمي كما في سنوات الحرب ، كان ولا يزال القوة التي تقود الشعب السوفييتي وتنير له الدرب » .

* * *

يشير تصرفه ، كما يشير الوضع بجمله ، الى انه يحاول تخفيف حدة التوتر الضامر بين الحزب والجيش . وثمة ما يكفي من الاسباب لقيام مثل هذا التوتر . فالعطف القومي منصب على الجيش . فاذا به يكاد يحتكر الامجاد ويتفوق على الحزب . لم يكن الجهازان بالضرورة طرفين في مؤامرة تحاك في الخفاء ، أو متنافسين على السلطة . فالعلائق بينهما أمتن من ان تسمح بذلك ، فالعديد من الضباط ينتمون الى الحزب وقد اسهم الخطر الخارجي في تعزيز الوحدة القائمة بينهما . غير انه لم يكن ثمة مفرٌ من قدر ، ولو بسيط ، من المنافسة بينهما . في ايام السلم ، كان الحزب يتشبث بتفوقه على سائر المنظمات . إلا ان الحرب قلصت هذا التفوق ، ورفعت من شأن الجيش ، وشاءت الظروف ان يضحي العقداء نداً للمكتب السياسي ، ومنحت فئة الضباط سلطة أقوى من التي يتمتع بها الجهاز المدني من امناء السر الحزبيين ، ناهيك بما عرفوه من تألق . اضطر الحزب الى تحمل كل ذلك ، لكنه لم يستطع التحرر مما انتابه من قلق .

في وقت ضاق هتلر فيه ذرعاً من خلافاته مع عقدائه ، أسرّ لأحد اصدقائه بانه يحسد ستالين لأنه قادر على معاملة من يعصاه من العقداء بصرامة أكبر مما يستطيع هو . الواقع ان حدس « النقيب البوهيمي » بصدد هـذا الموضوع ، مثله مثل حدسه بالنسبة لسائر المواضيع الروسية ، سطحي وخاطىء . ربما كان يفكر بحادثة تصفية توخاتشيفسكي وجماعته التي جرت ، بالمناسبة ، بعد ثلاث سنوات من الخلاف الشهير بين هتلر والجنرال شلايخر . الحقيقة ان فئـة الضباط في الجيش الاحمر هي المؤسسة الوحيدة من مؤسسات الدولة السوفييتية التي اعفاها ستالين من كثير من ضغوطه التوتاليتارية . هذا لا يعني انـه لم يمارس سيطرة كاملة على الجيش . لكنه كان حريصاً ، مع ذلك ، على عدم زجّه ، عن قرب ، بالنزاعات والمؤامرات التي عصفت بالحزب والدولة . فكان يشجع الضابط الذي لا يحمل افكاراً سياسية محددة ، المخلص لعمله والباذل جهده للاتيان بعمل مجدٍ ، شرط ان يعرب هذا الضابط عن تأييده اللفظي للحزب بين الحين والآخر . أمـا الضابط الذي كان يؤيد في الماضي هذا التيار المعارض أو ذاك لـكنه احجم عن خوض العمل السياسي المباشر ، فلم يكن يطلب منه الادلاء بـ « افعال الندامة » المشينة التي لم يكن ليفلت منها أي مدني توجد مثـل هذه اللطخة السوداء على سجله السياسي . وكان الفن العسكري واحد من المجالات القليلة ذات الاهميـة السياسية التي شجع ستالين فيها الذهن المبتكر والمجرّب ، فلم يفرض عليه فروض شرعته الديالكتيكية المزيفة . فحتى عام ١٩٣٧ كان قد اطلق يد توخاتشيفسكي في شؤون المفاهيم الستراتيجية والتكتيكية وفي كل ما يتعلق بامر تحديث القوات المسلحة . بهـذا افلتت فئة الضباط ، الى حد كبير ، من ذلك الجو الفكري الخانق الذي سجن المدنيين وسحق طباعهم . صحيح ان تصفيات عام ١٩٣٧ اساءت كثيراً الى وضع هذه الفئة . ولكن مما يجدر الانتباه اليه انه لم يفرض على أي من القـادة العسكريين المدانين ان يتلو الاعترافات وأفعال الندامة المألوفة . كلهم واجهوا قضاتهم وجلاديهم كالرجال . وهـذه الحادثة كافية للتدليل على ان فئة الضباط اكتسبت ذهنية خاصة بهـا فباتت تتمتع باستقلال فكري وصلابة معنوية كلهـا نادرة في جو الاستبداد الطاغي .

في المرحـلة الاولى من الحرب تكبد الجيش خسائر فادحة لأسباب عدة اهمها انعدام الثقة بالنفس في اوساطه القيادية وهذا نتيجة مباشرة لما عانته خلال حملات التصفية . إلا ان ستالين عرف كيف يتعلم من هذا الدرس . فأطلق يد عقدائه ، وحثهم على التعبير عن

آرائهم ، وشحذ عزيمتهم بحيث باتوا يحلون مشاكلهم بانفسهم عبر التجربة والخطأ وأزاح عن كاهلهم الخوف من غضب رئيسهم ، ذلك الخوف الرازح كالكابوس على عقداء هتلر . كان يعاقب ضباطه بصرامة نادرة المثيل إذا ما جبنوا أو تخاذلوا ، ويقيلهم إذا نمّوا عن عدم جدارة في الاضطلاع بمهامهم ، حتى لو كان هؤلاء اناساً من امثال فوروشيلوف وبوديبني . لكنه ، من جهة اخرى ، يرفّع كل صاحب مبادرة وفاعلية . فاذا بعقداء هتلر يلاحظون جدوى الاسلوب الذي يعتمده ستالين أكثر مما لاحظه هتلر نفسه ، وهذا ما يفسر قولهم ان المراتب العليا من القيادة العسكرية الروسية « مليئة برجال أثبتوا جدارتهم ، فسُمح لهم بان يحكّموا عقلهم وبان يصروا على تصريف الامور حسب وجهة نظرهم دونما خوف من أي عقاب » .

•

ومهما يكن من امر ، فلا يجوز ان ننسى ان ستالين ، مثله مثل هتلر، كان يتخذ القرار الاخير بالنسبة لكل القضايا العسكرية الاساسية وحتى بالنسبة للعديد من القضايا الثانوية ايضاً . وقد يسأل سائل : كيف التوفيق اذن بين تدخل ستالين المستمر في مسيرة الحرب وبين إطلاق حرية التصرف لمرؤوسيه ؟ الواقع انه كان يتخذ قراراته بطريقة مميزة لا تكبل عقدائه بل تحثهم على اتخاذ قراراتهم بانفسهم . كان هتلر ينطلق من فكرة مسبقة تجول في خاطره — وسيان أكانت فكرة لامعة أم نزوة من النزوات — محاولاً فرضها على قادة من امثال براوخيتش أو هالدر أو روندستدت . وعلى الرغم من كونه هاوياً مبتدئاً في أكثر من مجال ، فقد كان بالغ التزمّت في الامور الستراتيجية يضيق صدره سريعاً بالذين لا يشاطرونه الرأي في خطة معينة أو مبدأ من المبادىء . أما ستالين ، فهو يختلف عنه في ذلك كل الاختلاف . لم تكن لديه افكار أو مبادىء استراتيجية يريد فرضها على الآخرين . فلم يكن يتقدم بالتالي من عقدائه بمسودات خطط عسكرية تفتق عنها ذهنه . كان يكتفي بطرح بعض الافكار العامة المعتمدة على معرفته العميقة بكافة جوانب الوضع الاقتصادي منها والسياسي والعسكري. ثم يترك لعقدائه امر بلورة آرائهم ورسم خططهم التي يعتمد عليها لاتخاذ قراراته . ويبدو انه، في علاقته بعقدائه، كان يلعب دور الحَكَم المتزن الموضوعي والمجرب . فاذا ما نشب خلاف فيما بينهم ، يعمد الى جمع الآراء من جميع الذين تكتسب آراؤهم اهمية ما،فيزن ما لها وما عليها ، ويربط الآراء الجزئية بالاعتبارات العامة قبل ان يدلي برأيه الشخصي . لذا لم تكن قراراته تفاجىء العقداء،فغالباً ماتكون

تكريساً لرأي سائد في اوساطهم . والواقع ان هذا الاسلوب في القيادة ليس جديداً على ستالين . فقد تمكن من الوصول الى قمة المكتب السياسي في اوائل العشرينات بانتهاجه سياسة مماثلة تقوم على استمزاج رأي الاغلبية ثم يبني هذا الرأي على انه رأيه الشخصي . فلا عجب اذن ان يخلص عقداؤه له وان يقبلوا بقراراته لأنه هو نفسه حساس لأفكارهم متجاوب مع مقترحاتهم . وستالين هنا على طرفي نقيض مع هتلر ، فذهنه لا يتفتق عن ابتكارات استراتيجية متألقة ، لكن اسلوبه في العمل يفسح المجال واسعاً امام القادة العسكريين لأن يبتكروا جماعياً وهذا مما يشجع على قيام صلات بين القائد الأعلى للقوات المسلحة وبين عقدائه هي امتن بكثير من الصلات القائمة داخل قيادة الجيش الالماني .

هذا لا يعني ان ستالين كان يحذو حذو غالبية القادة العسكريين . فهذه الغالبية بحد ذاتها من صنعه الى حد ما . ففي عز هزيمة الجيش الروسي ، قلب ستالين القيادات العسكرية رأساً على عقب ومدها بدم جديد . فضرب عرض الحائط بكل اعتبارات الاقدمية ولم يأبه إلا بما يبدر عن القادة العسكريين في ساحة القتال وحدها . لذا نجد ان معظم الضباط البارزين من رتبة مشير أو عقيد كانوا ذوي رتب دنيا عندما اندلعت الحرب . وقد اصطفى نخبته العسكرية الجديدة ابان معركة موسكو عندما احتل جوكوف وفاسلييفسكي وروكوسوفسكي وفورونوف مركز الصدارة. وقد استمرت عملية الاصطفاء هذه خلال معركة ستالنغراد حيث تجلت جدارة فاتوتين ويبريمنكو ومالينوفسكي وشوييكوف وروتمستروف ورودميستييف وغيرهم من اصحاب الاسماء اللامعة . وكان معظم هؤلاء بين العقد الثالث والعقد الرابع من العمر انعتقوا من ثقل الروتين مما سمح لهم بان يتلقنوا دروسهم العسكرية بشغف في مدرسة الحرب القاسية حتى باتوا انداداً لضباط العدو ثم تفوقوا عليهم .

ان انبعاث الجيش واستعادته لمعنوياته العالية ولجهازه القيادي من ابرز ما حققته روسيا ، ويعود الفضل في ذلك الى ستالين . لكن النتائج السياسية الناجمة عن ذلك لم تكن لتروق لستالين . لمع نجم المشيرون والعقداء حتى باتوا ينافسون ستالين نفسه . وقد كان في السابق متفوقاً بكثير على شركائه في المكتب السياسي بحيث لم يكن الرأي العام يعتقد ان ثمة بينهم من يمكن اعتباره ساعد ستالين الايمن . ولم يكن أي منهم ليستحوذ على مخيلة الشعب أو شعوره . كان ستالين يتربع وحيداً على هرم السلطة ، أما القادة

الآخرون من امثـــال مولوتوف وكاغانوفتش وميكويان وجدانوف واندراييف ، فكانوا ادنى منه بكثير . كان جو من السرية القاتمة يكتنف حياة البلد السياسية . إلا ان هـذا الجو اخذ يتبدد بسرعة . فبرزت اسماء جديدة وراحت الألسن تتناقلها مع مـــا ارتبط باصحابها من انتصارات مجيدة . فشكّل هؤلاء قوة كامنة إذا لم تـكن معارضة لستالين باي حال من الاحوال ، فانها لا تتلاءم مع اسلوبه بالحكم . لقد تبين لنـــا ، في الفصول السابقة ، الى أي مـدى كانت فكرة التشويه البونابارتي للثورة ترزح كالكابوس على ذهن البلاشفة منذ اول ايام الثورة . وعلى الرغم من ان ستالين قد اتهـــم بعد ذلك بانه طموح لأن يكون بوناباراتاً جديداً ، كان لا بد له من ان ينظر بشيء من القلـــق الى الاسطورة العسكرية التي تحاك حول عقدائه .

●

الفصل الثالث عشر

طهران - يالطا - بوتسدام

دبلوماسية ستالين عام ١٩٤٣ : - مقدمات مؤتمر طهران . - ستالين ، تشرشل وروزفلت : مقارنة بين شخصياتهم . - الخلاف حول « الجبهة الثانية » . - « اصدقاء في العمل والروح والهدف » . - الضربات العشر عام ١٩٤٤ . - ستالين يرفض الوساطة الغربية بين روسيا وبولونيا . - تحديد مناطق النفوذ (حزيران-تشرين الاول ١٩٤٤) . - سياسات ستالين في اوروبا الغربية واوروبا الشرقية . - موقفه من انتفاضة وارسو في آب ١٩٤٤ .- ستالين في مؤتمر يالطا (شباط ١٩٤٥) . - اهتمامه بالحرب في المحيط الهادىء . - نزعتان في سياسته . - ١٨١٥ و ١٩٤٥ : نقاط الالتقاء والاختلاف بين اسكندر الاول وستالين . - قصة « الديمقراطيات الشعبية » . - رأي ستالين بالحركة الشيوعية في المانيا . - خيبة امله في اقتسام الدول الكبرى للعالم كمناطق نفوذ . - ستالين في بوتسدام (تموز ١٩٤٥) .

بعد الهجوم الذي شنه الجيش الاحمر في صيف ١٩٤٥ واسترجع خلاله ثلثي الاراضي السوفييتية المحتلة ، زال كل اثر للشك في ذهن ستالين حول مصير الحرب . ولأول مرة ، لم يساهم فصل الشتاء مساهمة فعـــالة في الانتصارات العسكرية الروسية . لم تكن القوات الروسية قد بلغت درجة التفوق العددي على الالمان الذي سمح لها فيما بعد بان تسدي لهـم الضربة القاضية . وكما قال ستالين لروزفلت وتشرشل في اجتماع طهران ، فقد كان يملك ستين فرقة أزود من الالمان ينقـّلها بسرعة بين مختلف اقسام الجبهة لـكي يحقق التفوق في القوة الضاربة في مواقع محددة وفي اللحظات الحاسمة . ولا كانت قواته تملك اسلحة أفضل أو أكثر عدداً من اسلحة العدو . ففي عام ١٩٤٢ كانت الصناعة الروسية تستعيد انفاسها ببطء فلا تنتج إلا القليل . ولم تبدأ بانتاج كميات كبيرة من الدبابات والطائرات والمدافـع إلا في عام ١٩٤٣ بعدما انجز بناء المصانـع الجديدة ونقلت مصانـع اخرى من الغرب الى منطقة الاورال أو ما وراءها . ولكن ، كان ينبغي نقل ذلك العتـاد الحربي الى خطوط القتال عبر مسافة تتراوح بـين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ ميل على طرقات وعرة وخطوط سكة الحديد شبه معدومة . فلم تؤثر تلك الاسلحة على مجرى المعارك قبل عام ١٩٤٤ . وقـد شهد العام ذاته زيادة ملموسة في الامدادات العسكرية الـتي ارسلتها القوى الغربية . لذا ادرك ستالين انه قد احرز اعظم انتصاراته مستخدماً جزءاً من القوة الضاربة الـتي بات متمتعاً بها . فتزايدت نبرة الثقة بالنفس في تصريحاته على الرغم من انه ظل يحذر شعبه من التخاذل والكسل . صار بمقدوره ان يعلن : « ان الجيش الاحمر قد اضحى اقوى الجيوش الحديثة وأكثرها صلابة » .

وبالرغم من ان خوفه من صلح منفرد بين المانيا والقوى الغربية لم يكن قـد تبدّد نهائياً ، فقد تضاءل ، اقلا ، الى حد كبير بسبب الاتفاقات والمعاهدات التي عقدها مع تلك القوى . وكان هتلر قد قذف بـ ٨٠ أو حتى ٩٠ ٪ من قواته البرية في الحرب ضد روسيا ، فلم يعد بمقدوره زيادة قوته الضاربة في الشرق الى درجة الانتصار على روسيا . ولعله خطر

ببال ستالين ان جملة من الاحداث المؤاتية ، يأتي من ضمنها ولا شك الاخطاء الستراتيجية التي قد يرتكبها هتلر نفسه ، قد تمكن روسيا من احراز النصر قبل ان تشن بريطانيا وأميركا هجومهما على القارة الاوروبية . لم يغامر بهذا الاتجاه ، لكنه ادرك ان موقفه تجاه حلفائه قد تعزز الى حد كبير : فقد جاء دورهم لكي يتخوفوا من صلح منفرد ، فباتوا أكثر حرصاً منه على الاحتفاظ بالتحالف القائم . كذلك ادرك ان الغربيين مهتمون باشراك روسيا في الحرب ضد اليابان – تلك الحرب المجهولة المصير . نادراً ما تمتع سياسي في العالم بمثل ذلك الوضع المنيع .

ولكن على الرغم من ذلك كله، اخفق ستالين عن تحقيق الاهداف التي اخطتها لنفسه عام ١٩٤١ . فالانكليز والاميركيون لم يعترفوا بعد بضم اراضي البلطيق وبولونيا الشرقية الى الاتحاد السوفييتي . حثه كل من تشرشل وروزفلت على تأجيل البت بأمر بولونيا الى ما بعد الحرب . لكنه كان مصمماً على انهاء الموضوع فوراً . وبما ان الحكومة البولونية في المنفى ، ومقرها لندن ، تطالب بكل شبر من بولونيا كما كانت عليه عام ١٩٣٩ فقد تحتم عليه ان يحول دون انتقال هذه الحكومة الى بولونيا . وقد اسعفه في ذلك حدث غامض وقع في ربيع عام ١٩٤٣ . اعلن الالمان انهم اكتشفوا مقبرة جماعية للضباط البولونيين من سجناء الحرب في كاتين قرب سمولنسك . وزعموا ان الروس هم الذين أعدموهم . فطالبت الحكومة البولونية في المنفى بتكليف لجنة محايدة التحقيق في الأمر ، موحية بذلك انها تصدق الرواية الالمانية . والواقع ان الحكومة كانت تتحرى منذ فترة عن مصير اولئك الضباط ، ولم يحظَ سيكورسكي بجواب مقنع عندما سأل ستالين عنهم خلال زيارته لموسكو عام ١٩٤١ . ومهما يكن من أمر ، فالهفوة التي ارتكبها البولونيون هي انهم أيدوا الاتهامات الالمانية على نحو غير مباشر ، خاصة وان ثمة ما يبرر الاعتقاد بان الالمان، الذين قضوا على ملايين البشر ، قد لا يتوانوا عن اعدام نفر من الضباط . هكذا وجد ستالين المبرر اللازم لكي يسحب اعترافه بالحكومة البولونية . لم يدافع أي من الحلفاء عن موقف البولونيين . أعلنت موسكو قطع علاقاتها الدبلوماسية بالحكومة البولونية في لندن وراحت تمهد لاقامة ادارة بولونية مؤدية لها . كان الحلفاء آنذاك مختلفين فيما بينهم ليس على حدود بولونيا وحسب وانما على حكومتها ايضاً ؛ لكن ستالين كان مقتنعاً ولا شك بانهم لن يعارضوا الخطوات التي سيتخذها . فهو واثق من ان الروس ، وليس الاميركيين أو البريطانيين ، هم الذين سيطردون الالمان من بولونيا ، وانه هو بالتالي – أي ستالين –

سيقرر مصير الاراضي الواقعة حول الفيستولا ، لا تشرشل أو روزفلت .

ازداد طموح ستالين مع اقتناعه بحتمية النصر . فلم يكن ليكتفي بالمحافظة على المكاسب التي غنمها خلال شراكته مع هتلر ، بل راح يسعى وراء مكاسب جديدة حرم منها بسبب معارضة هتلر . كان قد اعلن عام ١٩٤٠ حرصه على اعطاء الاولوية للمصالح الروسية في رومانيا وبلغاريا ، وها هو الآن يكرر هذا المطلب . تبلورت فكرته عن السلم ، فاذا بها تلتقي مع مفاهيم مناطق النفوذ التي أغوت بعض الدبلوماسيين السوفييت في العشرينات فأدانها هو ذاته آنذاك . ما زال مستحيلاً علينا ان نتتبع مختلف مراحل هذا التطور بشيء من الدقة . تعرضت ندوة وزراء خارجية الدول الحليفة المنعقدة في موسكو في تشرين الاول ١٩٤٣ الى موضوع تقسيم اوروبا الى مناطق نفوذ . لكن النقاش ظل على مستوى من العمومية بحيث انه لم يسفر عن شيء . ويمكننا الافتراض ان ستالين جس نبض الحلفاء عن طريق مولوتوف ، لكنه كان قد عقد العزم على المضي بهذا المشروع وأعلم حاشيته بذلك .

وفي تلك الفترة أيضاً — النصف الثاني من عام ١٩٤٣ — تعاظم اهتمام ستالين بمعاهدة السلم التي ستفرض على المانيا عاجلاً أم آجلا . وكان الرئيس روزفلت قد ارسى القاعدة الاساسية لهذه السياسة إذ أعلن في الدار البيضاء في كانون الثاني ١٩٤٣ انه لن يسمح لالمانيا بان تدخل في مفاوضات السلام ، بل ينبغي عليها « الاستسلام دون قيد أو شرط » . اعتمد روزفلت هذه الصيغة تحت تأثير ذكريات الحرب الاهلية الاميركية عندما رفضت الولايات الشمالية الدخول في محادثات مع الولايات الجنوبية حول شروط الاستسلام . وقد اعلن روزفلت مبدأه السياسي المحفوف بالمخاطر دون استشارة ستالين أو تشرشل. وافق ستالين على الصيغة بشيء من الارتباك . فقد رأى فيها ضمانة اضافية بان القوى الغربية لن تعقد صلحاً منفرداً مع المانيا على حساب روسيا — والواقع ان ميزان القوى العسكرية لم يكن قد رجح كفة روسيا نهائياً عندما اعلن روزفلت سياسة الاستسلام غير المشروط ، فلم تكن مثل هذه الضمانة الاضافية قد فقدت معناها في نظره . فتكلم هو ايضاً عن الاستسلام غير المشروط في الاوامر اليومية التي اصدرها الى الجيش والامة يوم فاتح أيار ١٩٤٣ ، معلناً بذلك تبنيه لصيغة روزفلت . لكنه ادرك ، من جهة اخرى ، ان سياسة روزفلت من شأنها ان تؤدي الى إطالة المقاومة الالمانية واستماتتها بحيث يلقى بكل ثقل

السلام على عاتق الحلفاء وحدهم . فحاول اقناع الرئيس الاميركي بان يعدل سياسته أو بان يدخل عليها بنوداً تنص على شروط السلام التي يقبلها الحلفاء . وقد قـام البريطانيون باتصالات للغرض نفسه . لكن روزفلت تمسك بوجهة نظره .

اثار شعار الاستسلام غير المشروط المشاعر القومية في كل من البلدان الحليفة . وتزايد التأييد للفكرة القائلة بفرض سلم تأديبي « من الطراز القرطاجي » على المانيـا . وحتى في ايلول ١٩٤٤ كان كل من روزفلت وتشرشل لا زال يؤيد المشاريع الرامية الى « اعـادة المانيا الى طور الرعي والقنص » عن طريق حرمانها من صناعتها الثقيلة . ولم يكن موقف ستالين ليختلف كثيراً عن موقفهما . ففي ايـلول من عام ١٩٤٣ ادلى مستشاره الصحفي البروفسور فارغا، المعروف بنقده القاسي للبنود الاقتصادية لمعاهدة فرساي في العشرينات، ادلى بتصريح يدعو صراحة الى اجبار المانيا على دفع تعويضات باهظة للحلفاء . وقـد اتسعت موجـة التأييد لهذا المطلب مع تقدم الجيوش الروسية المطرد مكتشفة ان الالمان اعتمدوا سياسة الارض المحروقة محولين الاراضي الـتي احتلوها الى صحارى . في ذلك الوقت تقريباً ، اعرب ستالين عن عزمه على اعادة النظر بالحدود الالمـانية . وفي تموز من عام ١٩٤٣ ، سمح لمايسكي ، وقد كان في زيارة خاصة في لندن ، بان يعلن تأييد روسيا لدمج بروسيا الشرقية ودانزغ الى بولونيا — وهو مشروع كان الرئيس روزفلت قد أعلن موافقته عليه . لكن ستالين لم يكن قد اقترح بعد توسيع حدود بولونيا نحـو الغرب لتشمل الاودير والنيّاس . وكان الحاق المقاطعات الالمانية ببولونيا تعويضاً للبولونيين على خسارتهم مقاطعاتهم الشرقية لروسيـا ، لكنه يؤدي في الوقت ذاته الى تعريضهم لخطر الثأر الالماني في المستقبل مما يجعلهم متكلين كلياً على روسيا لحمايتهم . هكذا كانت افكار ستالين حـول السلم ومطامحه في كانون الاول ١٩٤٣ عندما التقى تشرشل وروزفلت في طهران .

* * *

كانت المداولات التمهيدية لاجتماع طهران غريبـة حقاً . تحاشى ستالين الالتقـاء بشريكيه قدر المستطاع . فقد رفض سابقاً حضور اجتماعها في القـاهرة على اساس ان

تشانغ كاي تشك سيحضره وان روسيا حريصة على عدم استعداء اليابان دون مبرر ، كذلك رفض عقد اجتماع ثنائي بينه وبين روزفلت . في تشرين الاول ١٩٤٣ ألح عليه كرديل هـــال بان يوافق على عقد اجتماع لرؤساء الدول الحليفة . كان ذلك خلال مؤتمر وزراء الخارجية في موسكو ، فوافـق ستالين لكنه اصر على ان يعقد الاجتماع في طهران التي كانت تحتلها آنذاك قوات روسية – بريطانية مشتركة . رفض ستالين السفر الى ابعد من طهران ، وأجاب على مقترحات روزفلت بهـذا الصدد بالدعوة الى تأجيل الاجتماع الى ربيع عـام ١٩٤٤ معرباً عن استعداده للالتقـــاء بشريكيه في قاعدة « فيربانكس » العسكرية الروسية في ألسكا . واعتذر قائلاً ان مجرى العمليات العسكرية يستوجب عليه ملازمـــة موسكو وعدم السفر الى حيث يتعذر عليه الاتصال المباشر بقيادة الاركان الروسية . ولعل تردده في مغادرة الكرملين حيث يحيط به امناء سره وحراسه الموثوقون عائد الى شعوره بالاطمئنان والقوة هناك ، أو الى امله بان يجبر شريكيه على الاجتماع به في موسكو فيضيف الى مكانته المنيعة اصلاً مزيداً من القوة والأبهة . ولغموض موقفه دوافع السياسية ايضاً.فهو يريد الاعراب عن استيائه من تلكؤ الحلفاء في شن هجومهم على اوروبا الغربية . وراح يستنح كل فرصة لكي يؤكد لهم انه يعتبر عملياتهم العسكرية في جنوب ايطاليا عديمة الشأن إذا ما قورنت بحملاته العسكرية الجبارة في روسيا . ولعله كان حريصاً ألا يكشف لحلفـائه خططه العسكرية والسياسية . ومهما يكن من امر ، وافق تشرشل وروزفلت اخيراً على الاجتماع به في طهران .

نادراً ما قيّض لقـــادة متباينين جد التباين من حيث الطبع والبيئة والمصالح مثل تشرشل وروزفلت وستالين ان يلتقوا كحلفـاء أو شركاء للبت في امور عظيمة الخطورة والاهمية.فيا لتفاوت وجهات النظر والتطلعات المتجسدة في هؤلاء القادة الثلاثة المتواجهين على طاولة المفاوضات ! وكان تشرشل وستالين يشكلان بالطبـع طرفي النقيض : سليل دوق مالبورا وسليل الاقنان ؛ واحدهما مولود في قصر بلنهايم والآخر في منزل وضيع من غرفة واحدة . الاول لا يزال يتنشق المناخ الروحي لانكلترا في عصر فكتوريا وادوارد ويسعى للحفاظ على مكاسبها الامبريالية بكل ما في طبعه من نزوع رومنطيقي . بينما يحمل الثاني كل قساوة روسيا القيصرية والبلشفية في آن معاً وهو الذي سيطر على مقدراتها بكل ما يتمتع به من برود وتماسك وسيطرة على النفس . واحد يحمل وراءه اربعة عقود من الجدل البرلماني ، والثـــاني فترة مماثلة من النشاط السري واجتماعات المكاتب السياسية

المغلقة . تشرشل الغريب الاطوار ، المولع بالكلمات والالوان ؛ وستالين الباهت الشخصية الذي لا يثق بالكلام . وأخيراً ، تشرشل المهددة امبراطوريته بالزوال ؛ وستالين الساعي لكسب امبراطورية بأكملها .

وقف روزفلت بين الرجلين ، لكنه كان اقرب الى تشرشل منه الى ستالين . فالبيئة التي حضنت نشأته مختلفة كل الاختلاف عن بيئة ستالين : اسرة من ملاك الاراضي والصناعيين الكبار ؛ التأثيرات التي فعلت فيه ؛ التقاليد السياسية لاسرة روزفلت ؛ مكتب المحاماة في نيويورك ؛ وزارة البحرية... لكن التقاليد التي يحملها روزفلت كانت فتية وتحظى بشعبية أوسع من تقاليد تشرشل ، تماماً مثلما كانت الطبقة الوسطى الاميركية افتى من الارستقراطية البريطانية . ولعل في ذلك ما قرّب بين روزفلت وستالين . فهو تارة يشاطر ستالين نفاذ صبره من ألاعيب تشرشل اللفظية ، وطوراً يطرب لها بينما ستالين ، الذي يتابع حديث تشرشل بواسطة المترجم ، يرسم على شفتيه ابتسامة باردة ساخرة . يمثّل كل من ستالين وتشرشل نمطين متعارضين من الوعي الطبقي . وما من شك في ان روزفلت ، نبيّ التقدم البرجوازي ذو النزعة اليسارية ، قد بدا لهما في أكثر من مناسبة على انه صاحب موقف وسطي غير متناسق . فستالين ، بالرغم من كل التطورات التي مر بها ، لا يزال يعبّر عن عقيدته بالاستشهاد بعبارة « البيان الشيوعي » القائلة : « ان تاريخ المجتمعات جميعاً حتى الآن هو تاريخ الصراع الطبقي » . هذا في حين يلخص تشرشل نظرته للعالم بصيغة من عندياته تكاد تكون معدة اصلاً كرد على الصيغة الماركسية : « ان قصة الجنس البشري هي قصة الحرب » . وبديهي ان يرفض روزفلت كلا الصيغتين ، وهو الانسان الحنبلي المتديّن وقائد امة كانت قد أُعفيت ، حتى ذلك الحين ، من اسوأ مشاهد العنف التي يحملها الصراع الطبقي ومن اهوال الحرب في آن معاً .

كان ستالين ينظر الى حليفيه كممثلَين للطبقة الرأسمالية . لذا ، لم يُعرِ احاديثهما عن الديمقراطية كبير اهتمام ، بالرغم من انه لا يشك باخلاصهما . فديمقراطيتهما ، برأيه ، مجرد واجهة تضليلية . وما نفع واجهة « حكم الشعب » التي يتشدقان بها ما دامت تخفي اجهزة الاستغلال الجبارة التي تحول المصانع الى مجرد ادوات لانتاج فضل القيمة ؟ فراح يراقب زميليه بفضول بارد كأنه عالم طبيعي يراقب كائنات مختبرية ، مقتنعاً بانه يدرك حيثيات تكوينها ويستطيع ان يتنبأ بردود فعلها في ظروف معينة . امامه ، اذن ، نموذجان

حيّان لمجتمع غريب ، زعيمان كبيران « للعالم الآخر » . لكن سخرية التاريخ ارادت لهذا « العالم الآخر » ان ينقسم على بعض بشكل غريب : قسم منه يخوض حرباً بلا هوادة ضد السوفييت ، بينما الآخر متحالف معهم . الهوة بين الحلفاء قابلة لأن تُردَم ، لا بل ينبغي ردمها ، لكنها لا تزال قائمة بالرغم من عهود الصداقة والوحدة المقطوعة لشعوب العالم . ما من شك بان افكاراً من هذا القبيل خطرت ببال ستالين تكراراً .

أما الافكار التي كانت تجول في خاطر تشرشل فلم تكن ذات طبيعة مختلفة جداً ، على الرغم من انها تنطلق من منطلقات معاكسة . في ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، صرح تشرشل : « ما من احد ناصب الشيوعية عداءً مطرداً مثلما ناصبتها اياه طوال ربع القرن الماضي . لن أتراجع عن كلمة واحدة تفوهتُ بها عن هذه العقيدة ، لكن كل ذلك آخذ بالتلاشي الآن ازاء المشهد الجديد الذي يتراءى لنا » . يكفي ان نستعيد بعض النعوت التي وصم بها تشرشل الثورة البلشفية والتي يعلن الآن انه لن يتراجع عنها — وهي نعوت تنم عن الخوف والحقد والازدراء — لندرك ان « كل ذلك » لم يتلاشَ فعلاً من ذهنه. ولكن يحق للمراقب ان يخمِّن ان موقف تشرشل من ستالين كان في بعض الاحيان أكثر تعقيداً من موقف ستالين منه . ويكفينا برهاناً على ذلك ان تشرشل كان ينظر الى شريكه ليس نظرة المؤرخ والفنان وحسب ، وانما نظرة السياسي المجرِّب ايضاً . كان تشرشل ، كسياسي ، منشغل بالخطط التكتيكية الواجب اتباعها مع رجل يعتبره حليفاً خطراً . أما تشرشل المؤرخ ، فقد اهتزت مخيلته للتغييرات الغريبة التي كان خليفة « الرافض الاكبر » — الاسم الذي اطلقه تشرشل نفسه على لينين — يجريها في روسيا . فلم يتمالك نفسه من الشعور بان الانتعاش الاخير للنزعة التقليدية الروسية يعني ان ستالين آخذ باعتناق العقيدة التشرشلية وانه يسعى لحقن المجتمع الثوري بالروح المحافظة . لذا ، يجب ان نعزو بوارق الود التي بدرت في بعض احاديث تشرشل عن ستالين الى هذا العامل الاخير تخالطه المصلحة العسكرية المشتركة الجامعة بينهما . اما تشرشل الفنان ، فقد أُخذ بالعنصر الدرامي القاتم الذي يخيِّم على حياة ستالين ، مع العلم ان تجاوزات الرجل كانت تملأ نفسه بالاشمئزاز الذي لم يقوَ على كبته في بعض المناسبات .

موقف ستالين من الزعيمين الغربيين ثابت وعقلاني ، والود الذي يبديه تشرشل لـ « حصان الحرب » الروسي مشوب بقدر لا بأس به من الجفاء ؛ ولكن يبدو ان

روزفلت قد صعق كلياً للظاهرة الغريبة التي واجهها بشخص ستالين. فروسيا ارض مجهولة بالنسبة له ، وبخاصة روسيا البلشفية الستالينية . وهذا ما اعترف به بتواضع لمساعديه إذ قال : « لستُ استطيع التمييز بين روسي خيِّر وروسي شرير . استطيع التمييز بين فرنسي خيِّر وفرنسي شرير ، كذلك بالنسبة للايطاليين . كما اني قادر على اكتشاف الاخيار بين اليونانيين . لكنني عاجز عن فهم الروس » . وكان بديهياً ان شخصية ستالين تتخطى مدارك روزفلت عن « الخير » و « الشر » .

ما ان التقى القادة الثلاثة لأول مرة، حتى دعا ستالين روزفلت الى السكن في السفارة الروسية ، زاعماً ان ثمة مؤامرة لاغتيال الزعماء الثلاثة يجري اعدادها في طهران . وانتقل ستالين بدوره الى منزل صغير داخل الاراضي التي تملكها السفارة ، مخلياً المكان لضيفه . يروي روزفلت ان ستالين ، بالرغم من بادرة الود هذه ، ظل « متحفظاً ، جامداً ، قاتماً لا يبتسم، كأنه لا يتمتع بصفة انسانية واحدة » . وقد بذل الرئيس الاميركي جهوداً يائسة « للنفاذ الى ما وراء هذه السحنة الباردة كالثلج » ، وظن ان محاولاته قد تكللت بالنجاح عندما تمكن من تسلية ستالين ببعض الغمز من قناة تشرشل . والحقيقة ان اية بادرة خلاف ، مهما تكن تافهة ، بين تشرشل وروزفلت من شأنها ان تفرح ستالين . وأغلب الظن انه ما استضاف الرئيس الاميركي إلا لمنعه من اقامة صلات وثيقة وحميمة مع تشرشل، وذلك تنفيذاً لمستلزمات خططه التكتيكية .

لا شك بان ستالين دُهش فعلاً عندما تبين له عبث مناوراته الصغيرة هذه ، فتشرشل وروزفلت غير متفقين على موضوع النقاش الرئيسي : مستقبل العمليات العسكرية . والحقيقة ان الموضوع يتعدى النطاق العسكري البحت ، لأن مصير اوروبا السياسي بعد الحرب كان مرهوناً ، الى حد ما ، بهذه العمليات العسكرية . عرض تشرشل على زميليه مشروعه القاضي بشن هجوم انكلو – اميركي على البلقان مما يعني حكماً تأجيل الهجوم على فرنسا . وللفور انفجر العداء بين تشرشل وستالين بحدة متجددة–هذا العداء الضامر منذ لقائهما السابق في آب ١٩٤٢ . في ذلك العام ، كان ستالين يشك بان هدف الحلفاء من تأجيل فتح الجبهة الثانية هو دفع روسيا والمانيا الى ان تنهك الواحدة منهما الاخرى . لكن حرب الانهاك ما عادت تثير مخاوفه الآن – في اواخر عام ١٩٤٣ . لذا قدَّر ان خطة تشرشل ترمي الى الحد من تنامي قوة روسيا، بدلاً من استغلال ضعفها؛وان الهدف

من الهجوم العسكري المقترح هو الحيلولة دون تفرّد روسيا باحتلال البلقان . وبالتأكيد ، فقد ربط تشرشل مشروع الهجوم عبر البحر الابيض المتوسط بمشروع آخر يقضي باحتلال قوات اميركية – روسية – بريطانية مشتركة للبلقان .

ابدى ستالين معارضة عنيفة للمشروع وطالب بإنزال عسكري في فرنسا . لم يتطرق أي من الزعماء الثلاثة للقضايا السياسية التي يثيرها هذا الاقتراح ، بالرغم من انها كانت تجول بخاطرهم جميعاً . فاقتصر الحديث على تقييم النواحي العسكرية الايجابية والسلبية من المشروع . وكان ستالين في وضع متفوق لأن ميزان الحجج العسكرية يرّجح كفته . اقترح تشرشل إنزال قوات حليفة في نقاط محددة على المتوسط : في شمال ايطاليا حيث تعمد على تحرير القوات الحليفة المحاصَرة في جنوب ايطاليا ؛ على شاطىء الادرياتيك ، حيث ينضم اليها انصار تيتو للقيام بعملية اختراق لوادي نهر الدانوب ؛ وفي البحر الإيجي حيث تنضم الى قوات الحلفاء قوات تركية لشن هجوم باتجاه الشمال . اشار ستالين الى ان هذه العمليات لن تكون حاسمة ، وان مؤداها بالتالي تفتيت قوات الحلفاء . أما الهجوم عبر القنال البريطاني ، في المقابل ، فهو يمنح الحلفاء خط تموين قصير ومنيع ؛ فيوحدون قواهم لممارسة ضغط مكثف على العدو ؛ ويسددون ضربة قاصمة لألمانيا بتحريرهم فرنسا ؛ ثم تنكشف لهم ، اخيراً ، اقصر طريق الى منطقة الرور – معقل الصناعة الالمانية . قدّم ستالين حججه بصراحة وبنبرة عنيفة تخللتها ملاحظات سليطة اثارت تذمر تشرشل وحنقه . إستمر النقاش طوال ثلاثة اجتماعات موسعة واجتماعين خاصين اقتصرا على الزعماء الثلاثة . كان ستالين المتحدث الوحيد باسم الوفد الروسي الذي كان مقتصراً عليه وعلى مولوتوف وفوروشيلوف وأحد المترجمين .

أخيراً ، انتصرت حجج ستالين . اعلن قادة الاركان الاميركيون موافقتهم له . وحتى بعض الجنرالات البريطانيين كان معارضاً لتشرشل. ووافق روزفلت على وجهة نظر ستالين بعد تردد . فشاغله الاساسي هو احراز النصر بأسرع وقت ممكن وبتكبيد القوات المهاجمة اقل قدر ممكن من الخسائر . من هذا المنظار ، بدت خطة الهجوم عبر القنال افضل بكثير من الحملات العسكرية في المتوسط . والواقع ان ذهن روزفلت الذرائعي ، العديم الحاسية الطبقية ، كان يغلب اهمية الهدف المباشر على الوضع بعد انتهاء الحرب بكل ما تتضمنه هذه الفترة من تناقضات واضطرابات ممكنة كانت تقضّ مضجع صديقه البريطاني . ومن

العوامل الاضافية التي اثرت على قراره التصريح الذي ادلى به ستالين في بداية الاجتماع بان روسيا لن تنضم الى الحرب ضد اليابان إلا بعد ان تُعتق من الحرب في اوروبا . مهما يكن من امر العوامل التي دفعت روزفلت الى اتخاذ قراره هذا ، فما ان أعلنه حتى حسم الامر . وتقرَّر الشروع بتنفيذ « عملية السيِّد الاكبر » (Operation Overlord) — وهو الاسم السري الذي اعطي للهجوم على فرنسا – في شهر أيار القادم .

كانت تلك لحظة من لحظات انتصار ستالين العظيمة . ولعله هو وتشرشل كانا الوحيدين اللذين ادركا عواقب هذا الانتصار . كانت اوروبا مقسومة عسكرياً الى معسكرين إثنين ويتراءى وراء الانقسام العسكري انقسام آخر ذو طبيعة اجتماعية وسياسية . وإذا بالحلم القديم للدبلوماسية الروسية — حلم بسط النفوذ الروسي على البلقان — يضحي على اهبة ان يتحقق في ظروف مختلفة .

بعد ان احرز ستالين انتصاره هذا ، انفرجت اساريره وامتلأت نفسه بالحبور . وساهم بحيوية في النقاش حول شكليات الهجوم عبر القنال متخذاً موقف الاستعلاء الابوي ، موقف المحارب القديم صاحب الانتصارات العديدة نحو حلفاء على اهبة الاقدام على اول مغامرة عسكرية كبيرة . فعرض عليهم نصائحه وغَرَف بسخاء من جعبة تجاربه وخبراته . فأصر على ضرورة توحيد القيادة العسكرية البريطانية — الاميركية ، وحث شريكيه على تعيين القائد العام فوراً . ويروي الجنرال دين ان مداخلات ستالين في هذا الصدد «عجّلت ، ولا شك ، في اختيار الجنرال ايزنهاور » . كذلك حذرهم تكراراً من مغبة التخاذل والتلكؤ؛ وعندما شدد تشرشل على ضرورة التكتم والتمويه والمناورات التضليلية — بوصفها « كتيبة حرس من الاكاذيب لحماية الحقيقة » — فضح ستالين بعض الحيل العسكرية التي يلجأ اليها ، فأعلن ان روسيا تملك ٥٠٠٠ دمية — دبابة و ٢٠٠٠ دمية — طائرة تستخدمها لتضليل العدو . والاهم من ذلك كله انه وعد بشن هجمات عنيفة لدعم القوات الغربية خلال الإنزال على القارة الاوروبية .

ان رفض خطة تشرشل العسكرية لم يكن الانتصار الوحيد الذي احرزه ستالين. فالانتصار الآخر يتعلق بالاتفاق السري الذي عقد بين « الثلاثة الكبار » حول الحدود الروسية — البولونية . كان اجتماع وزراء الخارجية قد ارفض في موسكو مؤخراً دون

التوصل الى نتيجة حاسمة بهـذا الصدد . لكن تشرشل وروزفلت ادركا عبث محاولاتهما السابقة الرامية الى اقناع روسيا بتأجيل البت بالنزاع الروسي – البولوني الى مؤتمر السلم. فالجيش الاحمر في طريقه الى المناطق الشرقية من بولونيا سابقاً ، ومن المؤكد انه سيعاد ضمها الى الاتحاد السوفييتي . ويبدو ان تشرشل ، العاجز عن الحيلولة دون هذه الخطوة ، آثر اعلان موافقته عليها . فتقدم باقتراح يعترف « الثلاثة الكبار » بموجبه بما يسمى « خط كورزون » على انه الحدود الجديدة بين روسيا وبولونيا . فوافق ستالين فوراً . ينسب هذا الخط الى وزير الخارجية البريطاني الذي اقترحه عام ١٩٢٠ ، والقبول به كحد فاصل بين روسيا وبولونيا يعني الاعتراف بضم المناطق موضوع النزاع الى الاتحاد السوفييتي ،خلا بعض التعديلات الطفيفة. وافق روزفلت على الاقتراح مع مواصلة مساعيه لتأمين السيادة البولونية على مدينة لفوف .

طغت على ستالين موجة من الارتياح الساخر بعد المكانة المتفوقة التي احرزها خلال الاجتماعات . ولعله دقّق بشيء من الفضول في الدوافع الكامنة وراء تصرفات تشرشل . صحيح انه واجه تشرشل بقضية يصعب دحضها : ففي عام ١٩٤١، رحبت القوى الغربية بالاتحاد السوفييتي كحليف لها ، بالحدود التي كانت له آنذاك ؛ فلا يعقل اذن ان تتوقع من ستالين ان يوافق على تقليص مساحة البلد الذي يحكمها بعد احرازه انتصاراً بذل من اجله اعظم التضحيات . ولكن الذي ينطبق على روسيا ينطبق بحذافيره على بولونيا ايضاً . يقول البولونيون ان بولونيا التي وقعت معاهدة الصداقة مع بريطانيا كانت تملك المقاطعات الشرقية داخل حدودها ، لذا يحق لهم مطالبة البريطانيين الاحجام عن المساهمة باي مشروع من شأنه حرمانهم منها ؛ أضف الى ذلك كله ان بولونيا متحالفة مع بريطانيا قبل تحالف روسيا معها بزمن طويل . إلا ان المزاعم البولونية لم تلق الاهتمام الكافي بسبب رجحان كفة السوفييت على الجبهة الشرقية . وتشرشل ، على كل حال ، لا يرضخ للقوة . انه يرمي الى وقف انتشار الشيوعية عند « خط كورزون » ، ويريد تحويل هذا الخط الى الحدود الجديدة الفاصلة بين النظامين المتعارضين سياسياً واجتماعياً . وإذا كان قد تراجع أمام ستالين ، فمن اجل ان يُحكم قبضته عليه ليس إلا وراء خط دفاعي بدا في ذلك الحين على انه بالغ المناعة . وكان يأمل بأن تستقر الحكومة البولونية في المنفى الى الغرب من « خط كورزون » وهو الواثق من انها ستكون معادية للشيوعية ؛ وحث ستالين على اعادة العلاقات مع هذه الحكومة ، التي تتخذ من لندن مركزاً مؤقتاً لها ، ما دامت

القوى الغربية قد كرست المغانم الروسية . وكان تشرشل يأمل ، من جهة اخرى، باقناع بولونيّي لندن على الاعتراف بالحدود الجديدة بالوعد أو الوعيد ، وإلا يرفض ستالين التفاوض معهم . لكن ستالين كان واثقاً من ان محاولات تشرشل ستفشل ، مما يطلق يده - أي ستالين - في رعاية حكومة بولونية اخرى، فتضطر القوى الغربية التي الزمت نفسها بخط كورزون على الاعتراف بالحكومة البولونية التي تؤيد هذا الخط . فألمح للشيوعيين البولونيين في موسكو ، بعد فترة وجيزة من مؤتمر طهران ، بانه يرُحب بأية هيئة سياسية بولونية لا تطرح نفسها كبديل لحكومة لندن وانما تدحض ادعاء المهاجرين البولونيين في لندن بانهم يتحدثون باسم بولونيا بأسرها . وقد تكونت هذه الهيئة بالفعل في المناطق التي يحتلها الالمان من بولونيا بعد شهر واحد من مؤتمر طهران ، واتخذت اسم « المجلس الوطني البولوني » . هكذا فاللعبة المعقدة حول مصير بولونيا لم تنته بعد مع انها استغرقت وقتاً طويلا .

بعد الاتفاق على الجبهة الثانية وعلى خط كورزون ، دخل « الثلاثة الكبار » في مداولات غير رسمية حول مستقبل المانيا . كان النقاش غامضاً الى درجة ان أياً منهم لم يكن مدركاً لعظمة النزاع الذي سيواجهه في المستقبل . بدا وكأنهم اتفقوا على فرض سلم « من الطراز القرطاجي » على المانيا ، مع العلم بان ستالين كان أكثر حزماً في الدعوة لاعتماد هذا الحل من شريكيه الآخرين .

في نهاية المؤتمر ، بدا وكأن العداوات والاضطرابات التي تحكمت ببدايته قد تلاشت . خلال الاحتفال بعيد تشرشل التاسع والستين ، شرب ستالين نخب « صديقه العظيم » . وتسلم ، في احتفال آخر ، سيف الشرف الذي أهداه الملك البريطاني لمدينة ستالنغراد . ويروي روزفلت انه لمح الدموع تتلألأ في عيني ستالين عندما انحنى ، بحركة فروسية - رومنطيقية ، وقبّل السيف . ليس البكاء من عادات ستالين . ولكن مما لا شك فيه انه تأثر كثيراً لتلك اللحظة الغريبة من لحظات حياته . فمن كان ليتوقع ان يوماً سيأتي يكرّم فيه صاحب الجلالة البريطانية مدينة تحمل إسم سليل الاقنان الجيورجيين ، السجين السابق في معتقل باكو ، وتلميذ لينين الذي خبر معسكرات النفي السيبيرية ؟ ومن كان ليتوقع ان تلميذ « الرافض الاكبر » لن يرفض مثل هذا الشرف ؟

غادر الرؤساء الثلاثة طهران في فاتح كانون الاول بعد ان صدر بلاغ مشترك يعلن

اتفـــاقهم التام حول كل الامور المتداولة . لم يعلن على العالم نبأ النزاع الحاد الذي سبق الاتفاق — إذ لا يعقل الافشاء بمثل هذه الاسرار خلال الحرب . هكذا اعلن « الثلاثـــة الكبار » : « جئنـــا الى هذا المكان وقلوبنا طافحة بالعزم والامل . وغادرناه اصدقاء في الفعل والروح والهدف » .

* * *

حمل عام ١٩٤٤ الى ستالين الانتصار العسكري تلو الآخر . ففي مطلعه ، كان الروس لا يزالوا يحاولون فك ذلك الحصار الالماني عن لينينغراد ، وإذا بهم في اواخره يحاصرون حامية بودابست الالمانية .

في بحر العـــام ، قام الجيش الاحمر بسلسلة متصلة من العمليات الهجومية — « الضربات العشر » كما اسماهـــا ستالين فيما بعد — تمكن الحلفاء الغربيون خلالها من إنزال قواتهم الى فرنسا . كانت حشود هائلة من الجنود مشتبكة في قتال ضار في اوروبا من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ؛ وكانت الجبهة تنتقل نحو الغرب بانتظام . وبوسعنا تكوين صورة عن المعارك بمجرد تعداد بسيط للهجمات الرئيسيـــة : في كانون الثاني فك الحصار عن لينينغراد وتقـــدم الروس نحو البلطيق عن طريق نوفغورود . في شباط وآذار كانوا قد احتلوا كييف ، فواصلوا التقدم من « الدنايبر » الى « الباغ » و « الدنياستر ». في أوائل الربيع، انتقل مسرح العمليات الى الجنوب — فطرد الالمان من القرم واوديسا . خـــلال هجوم الحلفاء على فرنسا في حزيران ، انتقل مسرح العمليات من الطرف الجنوبي للجبهة الى طرفها الشمالي ، وتم احتلال فنلندا . في حزيران وتموز ، تمكن الجيش الاحمر من تحرير فيتيبسك ومينسك وتقدم باتجاه نهر « نيامين » و « الفيستولا » . في تموز وآب واصل الجيش الاحمر تقدمه في جنوب بولونيا بمحاذاة جبال « الكارباث » . في آب ، احتل رومانيا ، ثم تقدم لاحتلال بلغاريا والمجر مدعوماً بانتفاضات داخلية فيهما . في ايلول وتشرين الاول ، انتقل مسرح العمليـــات مرة اخرى للشمال ، الى فنلندا واستونيا ولاتفيا . ثم انتقل مجدداً الى الجنوب ، الى الكارباث وما ورائها : المجر وسلوفاكيا .

في مطلع العـــام ، كان الجيش الاحمر قد أمّن لنفسه تفوقاً واضحاً على العدو في العدد

والعتاد ، وأخذ هذا التفوق يتضاعف إطراداً . ومن مميزات شخصية ستالين انه حتى إبان تمتعه بهذا التفوق الحاسم رفض الاستسلام لأوهام شن هجوم صاعق (blitzkrieg) التي استسلم لها هتلر من قبل. فأحجم عن شن هجمات صاعقة رائعة تزرع الفوضى والاضطراب في صفوف العدو وتفقده توازنه ؛ لكنها ، من جهة اخرى ، تطيل خطوط المهاجم نفسه وتعرض جوانبه لخطر الهجمات . التزم ستالين بحذره التقليدي الآن ايضاً ، وهو على قاب قوسين من احراز النصر النهائي . وراح طوال ذلك العام ينقل مسرح العمليات من الشمال الى الجنوب ، ومن الوراء الى الامام ، بانتظام وقوة وثبات تبعث على الدهشة فعلاً ،فكأنه ملاكم يسدد سلسلة محكمة من اللكمات لخصمه مع اقتناعه بان ما من واحدة منها ستكون الضربة القاضية . فأجبر هتلر بذلك على ان يلجأ للتكهن والتخمين باستمرار وعلى إرسال قوات الاحتياط المتبقية لديه لسد هذه الثغرة أو تلك ، محاولاً باستمرار التصدي للاخطار الجديدة ومنهكاً نفسه باطراد خلال ذلك . كانت « الضربات العشر » متناغمة ومؤقتة بدقة متناهية مما يثبت مبلغ المقدرة التنظيمية والعمل المنتظم الذي تقوم به قيادة الاركان الراهنة ، المختلفة كل الاختلاف عن سابقتها الفوضوية والخرقاء عام ١٩٤١ .

كان كل انتصار هام يحمل في طيّاته قضايا سياسية جديدة . فقرر ستالين تكريس جل وقته لحلها تاركاً مسؤولية الإشراف على مجرى العمليات العسكرية الى المارشالات والجنرالات السوفييت وقد تضاعفت ثقته بهم عن السابق . في الايام الاولى لكانون الثاني عبر الجيش الاحمر الحدود الروسية ـ البولونية القديمة ؛ فقفزت الازمة البولونية الى مسرح الاحداث من جديد . أعلنت الحكومة البولونية في لندن ان الحق في الإشراف على الاراضي التي استعاد الاتحاد السوفييتي نفوذه عليها يعود اليها دون غيرها . فردت موسكو على هذه المزاعم بحدة لا تقل عن حدة الاعلان البولوني . في محاولة من الاميركيين لوضع حد للنزاع العلني بين الحكومتين الحليفتين ، عرضت الحكومة الاميركية وساطتها بينهما عبر ناظر خارجيتها ، كورديل هال . يبدو أن الاقتراح اغضب ستالين الذي بات يعتبر ، بعد مؤتمر طهران ، انه لا يحق للقوى الغربية التساؤل حول حقه في السيطرة على مقاطعات بولونيا الشرقية مثلما لا يحق لها السماح للبولونيين بالتساؤل حول ذلك . لذا ، رفض الوساطة .

اعرب ستالين عن استيائه من الغرب بطريقة غريبة وماكرة . ظهر في موسكو فجأة

تقرير عجيب يتهم الانكليز بالدخول في مفاوضات سلم مع المانيا من وراء ظهر روسيا . تضمنت التهمة طبعاً اهانة بالغة للانكليز أولاً لأنها جاءت بعد فترة وجيزة من انعقاد مؤتمر طهران ؛ وثانياً لأن الانكليز انفسهم كانوا قد رفضوا ، لبعض اسابيع خلت، بادرة المانية بصدد السلم المنفرد حملها اليهم هيملر رئيس الشرطة الهتلرية — وتلك حادثة لا يعقل ان يكون ستالين جاهلاً بها . والارجح ان ستالين كان يرمي من وراء هذه الاهانة الى حث الانكليز والاميركيين على الاعتقاد بان روسيا تفتش عن عذر ما يبرر عقدها لصلح منفرد مع المانيا . هكذا رد ستالين على حلفائه بتهديد مبطن. وبالرغم من ميوعة التهديد نفسه ، لا يسعنا القول بثقة ان فكرة عقد سلم منفرد مع المانيا لم تخطر ببال ستالين على الاطلاق وبغض النظر عن الظروف . كانت قواته تقترب من حدود عام ١٩٤١ ، فمن الطبيعي إذن ان يرد الى ذهنه ، أو الى ذهن واحد من مساعديه ، السؤال التالي : ترى ، ألم يحن الوقت لوضع حد للحرب ومجازرها الرهيبة والتمهيد لإحلال السلام ؟ ألم يحث كوتوزوف الاسكندر الاول على الاقلاع عن مطاردة جيش نابليون على حدود روسيا لصالح تلك « الجزيرة البريطانية اللعينة » التي كان كوتوزوف يودّ لو ان المحيط يثور ويبتلعها ؟ لكن طموح ستالين ، مثله في ذلك مثل الاسكندر الاول ، ان يرى قواته تحتفل بالنصر في عاصمة العدو ؛ لذا فهو يأبى افساح المجال للعدو لكي يستعيد أنفاسه . لسنا ندري ما إذا كان احد افراد بطانته — في قيادة الاركان أو المكتب السياسي — قد تجرأ على ان يهمس بأذنه نصيحة كوتوزوف . ولكن يحق لنا الاعتقاد بان تصميمه على تدمير « الرايخ الثالث » لا بد وان يتلاشى إذا ما هو اعتقد انه سيربح من الصلح المنفرد مع المانيا أكثر مما يربحه من احراز نصر عسكري عليها بالتعاون مع القوى الغربية . هكذا وضع ستالين القوى الغربية في وضع الباحث باستمرار عن حجج مقنعة بانه لن يقدم على صلح منفرد .

وقد رفض ستالين الوساطة الغربية بين روسيا وبولونيا ليس فقط لأنه يرى ان مؤتمر طهران بتّ نهائياً بأمر الحدود البولونية ، وانما ايضاً بسبب إصراره على انه لا يحق للحلفاء التدخل في شؤون لا تخصّ ، برأيه ، إلا روسيا وجيرانها . فاوروبا الشرقية يجب ان تكون منطقة نفوذ لروسيا .

في تلك الآونة من مرحلة ما بعد مؤتمر طهران ، بدأت مشاريع تقسيم اوروبا الى

منـــاطق نفوذ تتضح أكثر فأكثر . كان الموضوع قيد التداول قبل طهران حيث ناقش الصحفيون والساسة في الدول الحليفة مشروع سيادة مشتركة على اوروبا تمارسهـا القوى المتحالفة الثلاث بينما تحتكر كلٌ منها النفوذ على جيرانها ، والسبب في ذلك انـ الدول الكبرى الثلاث هي وحدها التي تملك من القوة ما يسمح لها بالانتصار في الحرب وبالمحافظة على السلم . والواقع ان روزفلت عرض على ستالين خلال مؤتمر طهران مشروعاً لا يختلف كثيراً عن المشروع الحالي هو مشروع « الشرطيين الاربعة » — الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفييتي ، بريطانيا والصين — المسؤولين عن حفظ الامن في العالم. تذكـّر الدبلوماسيون في الدول الحليفة « الحلف المقدس » الذي كان يحكم اوروبا بعد الحروب النابوليونية كما تذكروا تجربة صلح فرساي المعاصرة ، ذلك ان تحالف الدول العظمى سيطر على مؤتمـر الصلح الاخير بالرغم من كل مظاهره الديمقراطية . راجـــع دبلوماسيو ستالين المعاهدات السرية التي وقعتها روسيا قبل الثورة والتي نشرها وأدانها لينين حالما تسلم البلاشفة الحكم، فوجدوا المعاهدة الروسية — البريطانية لعـــام ١٩٠٧ التي تقضي بتقسيم ايران ، كذلك وجدوا معاهدة لندن لعام ١٩١٥ حيث توافق بريطانيا على ان تضم روسيا القسطنطينية والمضائق التركية وثراسيا ، وان تمارس السيطرة الفعلية على البلقان . فكان لسان حـال الدبلوماسيين الروس : إذا كان البريطانيون مستعدين لمنح روسيا القيصرية مثل هـــذه الغنيمة الضخمة ، فلماذا يغمطون الآن حق روسيا الستالينية في نيل هذه الغنيمة أو القسم الاكبر منها على الاقل ؟

ان التماسك النسبي للاحلاف السابقة التي عقدتها الدول المنتصرة يجب ان يعزى الى ان حـكام تلك الدول كانوا ينتمون الى طبقة اجتماعية واحـــدة أو يمثلون مصالح اجتماعية متجانسة كما انهم يتكلمون لغة مشتركة ؛ فـكان طبيعياً ان تتوثق أواصر التضامن فـــيما بينهم . أما العنصر المذهل والجديد في التجربة الراهنة فهو انها تخاض من قبل قادة يمثلون مصالح متضاربة ومبادىء متناقضة . ومن مفارقات الامر ان رئيس الوزراء البريطاني ، ألدّ أعداء الشيوعية ، كان صاحب مشروع السيادة المشتركة .

يبدو ان اول مشروع شبه رسمي حول مناطق النفوذ صدر عن الحكومة البريطانية في حزيران ١٩٤٤ . اقترح البريطانيون اعتبار رومانيـــا وبلغاريا ضمن منطقــة النفوذ الروسية ، في مقابل الاعتراف بأولوية النفوذ البريطاني على اليونان . فوافق ستالين فوراً.

كما في عام ١٩٣٩ كذلك الآن ، القى ستالين على كاهل شريكه البريطاني مهمة تحديد مناطق النفوذ . لكنه اراد التأكد من أمر واحد : هل يتصرف تشرشل بمبادرته الخاصة وهل يتحمل مسؤولية اعماله بمفرده ؟ فسأله عما إذا كان روزفلت مستعداً لدعم الاتفاق . لكن روزفلت يرفض الالتزام باي تعهد جديد . فهو يرفض تحمل مسؤولية النتائج الناجمة عن الموقف الذي اتخذه في طهران والذي شجّع الجيش الروسي على احتكار السيطرة على البلقان — هذا في حين كان تشرشل يستخلص العبر من هزيمته في طهران ويبذل قصارى جهده لمنع الروس من الوصول الى اليونان . لكن روزفلت لم يثر اعتراضاً محدداً على المشروع ، فاعتبر ستالين ان اتفاق حزيران ١٩٤٤ الذي تعترف فيه الولايات المتحدة وبريطانيا في بسط نفوذها على القسم الاكبر من البلقان لا يزال ساري المفعول . في تشرين الاول من عام ١٩٤٤ ، وصل تشرشل وإيدن في زيارة رسمية لموسكو ، فجدّد الاتفاق وأضيفت اليه بعض البنود . ولقد طغى جو من العبث عندما راح رئيسا الوزارة البريطاني والسوفييتي يحددان ، بمساعدة الوزراء من كل طرف ، النسب المئوية لحصة كل من البلدين في البلقان . كتب السفير الاميركي في موسكو يقول انهم اتفقوا على ان تكون نسبة الاولوية الروسية في بلغاريا ورومانيا والمجر ٧٥ — ٨٠ ٪ أما الحصة البريطانية فتكون ٢٠ — ٢٥ ٪ . أما في يوغسلافيا ، فقد اتفق الطرفان على ممارسة نفوذهما عن طريق المناصفة .

في حزيران من عام ١٩٤٤ ، كانت الاطراف المعنية بالامر لا زالت تؤكد ان تقسيم اوروبا الى مناطق نفوذ لا يحمل أية دلالات سياسية وانه اجراء عسكري بحت . لكنهم أقلعوا عن محاولة اخفاء الطابع السياسي لاتفاقاتهم في تشرين الاول من العام نفسه ، فعقدوا معاهدة سرية تنص على ما يلي : « اذا اضطر البريطانيون الى اتخاذ اجراءات عسكرية للقضاء على الاضطرابات الداخلية في اليونان ، لا يحق للسوفييت التدخل . وبالمقابل ، يعترف البريطانيون بحق السوفييت في ان يكونوا المسؤولين الرئيسيين عن حفظ الامن في رومانيا » . كان ستالين يعرف تمام المعرفة ما هي «الاضطرابات الداخلية» التي يتوقع تشرشل حدوثها في اليونان. كان البريطانيون قد دخلوا اليونان لتوهم، فوجدوا قوات E.L.A.S. الشيوعية تسيطر على البلد بأسره. فتوقع تشرشل اندلاع حرب اهلية ، وراح يستعد لها . فأعلن ستالين ، بموقفه الآنف الذكر، عدم اهتمامه بمصير اليسار اليوناني.

أما الوعد البريطاني بعدم التدخل في رومانيا ، فهو بمثابة اعلان عدم اهتمام تشرشل بمصير اليمين الروماني .

إذا كان ثمة من صفقات مثالية فهذه احداها (قد يعتبرها البعض مثالية في حقارتها) ؛ وقد شملت طبعاً عدة اقطار اخرى . وما ان وقّع كل من تشرشل وستالين عليها ، حتى ادهشا العالم بالحماس الذي راح كل منهما يدافع به عن اعمال الآخر وبالاعجاب الشديد الذي راح يبديه واحدهما للآخر . قال ستالين بعد فترة وجيزة من زيارة تشرشل لموسكو : « أن تنشب خلافات (بين الحلفاء) أمر لا يدعو الى الاستغراب . المدهش فعلاً هو ان تكون هذه الخلافات قليلة وان نتمكن دائماً من تسويتها بروح من الوحدة والتعاون » . واستطرد قائلاً : «ومن الامثلة الصارخة على ذلك المحادثات الاخيرة مع السيد تشرشل... والسيد ايدن في موسكو ، التي جرت في جو من الصداقة وبروح من الإجماع الكامل » . فرد تشرشل المجاملة باحسن منها إذ أعلن امام مجلس العموم البريطاني : « ان المارشال ستالين وسائر الزعماء السوفييت يريدون العيش مع الديمقراطيات الغربية في جو من الصداقة الكريمة والمساواة ... واني لأعتبر ان وعدهم هذا دين عليهم . لستُ اعلم بوجود حكومة تفي بالتزاماتها ، حتى ولو لم تكن دوماً لصالحها ، مثل الحكومة الروسية السوفييتية . لذا ، أُحجم كلياً عن الخوض في نقاش حول صدق نوايا الروس » . كان تشرشل يملك سبباً جيداً يحدو به الى الادلاء بتصريح كهذا . ذلك انه لما اندلعت الحرب الاهلية اليونانية في كانون الاول ١٩٤٤ ، احجمت اجهزة الاعلام السوفييتية عن ذكر كلمة واحدة تتضمن معاني التأييد أو التشجيع للثوار اليساريين في اليونان . فكان هذا الصمت المتواصل والباعث على الحيرة شهادة على ان ستالين نفض يديه من قضية اليونان . شهدت تلك الفترة ذروة الصداقة بينه وبين تشرشل . « الصفقة الجيدة تولّد اصدقاء حميمين وتوقعات عديدة ؛ والصفقة الرائعة تولد اصدقاء حميمين جداً » .

لا يجوز ان يتولد لدينا الانطباع بان شروط الاتفاق كانت محددة بوضوح أو ان ستالين اعرب صراحة عن موافقته على قمع الحركة الشيوعية خارج « منطقة النفوذ الروسية أو عن عزمه لبناء الشيوعية في داخلها . الواقع ان المسألة لم تكن قد بلغت تلك الدرجة من الوضوح في ذهنه أو في ذهن تشرشل . وبالرغم من كل شيء ، استمرت بينهما حالة من الشك المتبادل حالت دون ان يعرب أي منهما عن نواياه بوضوح . ويبدو ان عبارة

« مناطق نفوذ » لم ترد إطلاقاً في الوثائق الرسمية . إذ كانت لغتها لغة ايحاء وايماء ومداورة . وكان كل بيان سياسي تقريباً يحتوي على العبارة المقدسة عن « عدم التدخل في الشؤون الداخلية » للاقطار الاخرى . علماً بان جميع الدول الكبرى تدخلت ، خلال الحرب ، بالشؤون الداخلية لجميع الاقطار التي اكتسبت اهمية عسكرية ما . تدخل البريطانيون والروس على نحو مشترك في ايران ونجحوا في إسقاط حكومتها الموالية للالمان . كذلك تدخل الانكليز في مصر والعراق ، والروس في بولونيا وفي جميع البلدان الاخرى التي كانوا قد تعهدوا علناً بعدم التدخل في شؤونها . وتدخل الاميركيون في الخلافات التي نشبت في فرنسا بين دارلان وجيرو وديغول ؛ وفي النزاعات بين فكتور عمانوئيل وبادوغليو والمعارضة بايطاليا وبعدد كبير آخر من البلدان . كتب كورديل هال : « اني آمل التوصل الى اقناع روسيا باعتماد سياسة التعاون وعدم التدخل » . ولهذا السبب بالذات ، اعلن معارضته معاهدة « شابولتيبيك » الصادر في آذار ١٩٤٥ « حيث يعلن الجمهوريات الاميركية اتفاقها على التدخل عسكرياً باي عدد ترتأيه في ظروف معينة. ما ان نوافق على هذا الموقف من مسألة التدخل ،حتى تزداد الحجج والمبررات التي يستخدمها الاتحاد السوفييتي للتدخل في الدول المجاورة وتتقلص بالمقابل الحجج والمبررات التي تستطيع تقديمها لدعم معارضتنا هذا التدخل » . لكن معاهدة شابولتيبيك ظلت جزءاً عضوياً من السياسة الاميركية رغم معارضة كورديل هال . اعتبر ستالين – « الرجل المتحرّر من الاوهام » – ان تدخل كل من « الثلاثة الكبار » في الشؤون الداخلية لمنطقة نفوذه امراً حتمياً – هذا التدخل الذي كانت تفرضه ، جزئياً ، ضرورات عسكرية والذي كان يستغل الضرورات العسكرية ، جزئياً ايضاً ، تبريراً له .

حرص ستالين على ان يثبت للبريطانيين والاميركيين احجامه عن اية بادرة تدخل في شؤون مناطق النفوذ التابعة لهم . كانت الاحزاب الشيوعية في اوروبا ، وفي فرنسا وايطاليا خاصة ، قد اكتسبت عطفاً ونفوذاً بالغين خلال الحرب بسبب الدور المشرِّف الذي لعبته في مقاومة الالمان . وبالرغم من ان الكومنترن قد حلّ رسمياً ، الا ان موسكو ظلت محط انظار هذه الاحزاب . هكذا ، ظل ستالين متمتعاً بسلطة قوية ومتنامية داخل مناطق نفوذ القوى الغربية . فاستغل هذا النفوذ ، بعد تحرير فرنسا بفترة وجيزة ، بطريقة يراد منها التودد للرأي العام المحافظ وازالة اية مخاوف او شكوك في ذهن تشرشل وروزفلت . وما من شك في انه هو ملهم سياسة الاعتدال

العجيبة التي انتهجها الحزبان الشيوعيان في فرنسا وايطاليا اللذان قبلا بالاشتراك في حكومات قائمة على اساس الائتلاف الوطني الواسع لاول مرة في تاريخهما ، متجاهلين بذلك برامجهما التي تحرم على الشيوعيين الاشتراك في الادارات البرجوازية . وعلى الرغم من ان كلا منهما كان اقوى حزب سياسي في بلده ، فقد ارتضى بمقاعد ثانوية الاهمية في تلك الحكومات لا تساعد في شيء على الاستيلاء على السلطة في المستقبل القريب او البعيد ، وعندما قررت الاحزاب الاخرى اقصاءهما عن تلك المقاعد ، تحقق لها ذلك بسهولة متناهية . ظلت قوات الجيش والشرطة بيد الفئات المحافظة او المعادية للشيوعية . فقد تقرّر ان تبقى اوروبا الغربية مرتعاً للرأسمالية الليبرالية .

في بعض الاحيان ، كان ستالين يعبر عن موقفه هذا دونما اي اهتمام بالحفاظ على المظاهر والشكليات المعهودة بحيث بات يصدم أكلح الاشتراكيين وأكثر الليبراليين اعتدالاً . ومن الامثلة على ذلك اعتراف بالحكومة الايطالية برئاسة المارشال بادوغليو ، في آذار ١٩٤٤ ، قبل ان يتم الاتفاق مع القوى الغربية حول اقتسام مناطق النفوذ . كانت الاحزاب الايطالية اليسارية والوسطية لا تزال تطالب باقصاء بادوغليو ، قائد حملة احتلال الحبشة الذي لا يأتمر الا بامر الملك فكتور عمانوئيل . فعزز ستالين بموقفه مكانة بادوغليو ضد خصومه . كان اليسار الايطالي يضغط على الملك الذي فقد ثقة الشعب لكي يعلن تنحيه عن العرش ، فاهابت به صحيفة « الازفستيا » تأجيل نزاعه مع الملك الى موعد لاحق . وحتى في فترة لاحقة ، صوّت النواب الشيوعيون في المجلس التأسيسي الايطالي مع تجديد « معاهدات لاتيران » التي عقدها موسوليني مع الفاتيكان ؛ فشقوا بذلك صف المعارضة الاشتراكية والليبرالية وساهموا في منح الاكليروس الكاثوليكي مركز الغلبة في حياة البلد الروحية . اما في فرنسا ، فبعد تذمر بسيط ، سار الحزب الشيوعي في ركاب الجنرال ديغول المعروف بطموحه الدكتاتوري وموقفه المعادي للماركسية وارتباطاته بالاوساط الاكليركية .

لم يبدر عن ستالين حتى الآن ما يشير الى انه ينوي اجراء تحويلات ثورية في الاقطار الواقعة ضمن منطقة النفوذ الروسية . فالدعاة الشيوعيون هناك يتحدثون لغة قومية ، لا بل كنسية . سمح لملك رومانيا – ميخائيل – بان يحتفظ بعرشه ثم منح اعلى الاوسمة العسكرية الروسية للدور الذي لعبه في الانقلاب الذي ادى الى تحرير رومانيا من التبعية

لالمانيا . في اقطار البلقان كانت مواقف الجنرالات السوفييت والقادة الشيوعيين المحليين كلها ثناء على الاكليروس الارثوذكس . كذلك راحوا يتوددون للاكليروس الكاثوليكي في بولونيا . لا حديث حتى الآن عن تطبيق الاشتراكية في الصناعة . إقتصرت الاجراءات على الاصلاحات الزراعية التي تحتاجها تلك الاقطار منذ زمن بعيد .

استطاع ستالين انتزاع موافقة حلفائه على مبدئين غامضين تسيّر بموجبهما الحياة السياسية في المنطقة الروسية . المبدأ الاول يتعلق بحق ستالين في ان يتدخل ضد الاحزاب او المجموعات المؤدية للنازية او الفاشستية والعمل لاقامة نظام حكم ديمقراطي في الاقطار المجاورة لروسيا . اما المبدأ الثاني فيعلن ان حكومات تلك الاقطار يجب ان تكون « صديقة لروسيا » . طبّق ستالين كلا المبدئين لاول مرة خلال معالجته المسألة البولونية التي كانت محور النشاط الدبلوماسي للدول الحليفة طوال آخر عام من اعوام الحرب . وكان يرمي من وراء ذلك الى دفع حلفائه الغربيين الى التخلي عن الحكومة البولونية في لندن على اعتبار انها ليست ديمقراطية ولا هي صديقة لروسيا . لا شك في ان طريقة ستالين — ذلك النموذج الحي للدكتاتورية — في توزيع براءات حسن سلوك ديمقراطي على الآخرين او حرمانهم منها بطريقة بالغة الصفاقة لا تجاريها الا الادوار التي راح حلفاؤه يلعبونها في تلك المسرحية الغريبة في محاولة منهم للحفاظ على مصالح الديمقراطية المشتركة للتحالف الاكبر . ولكن ، لا يجوز اعتبار فعلة ستالين هذا كمجرد خدعة من الخدع مع العلم بانها انطوت على نسبة كبيرة من الخديعة . فما من شك في انه يعتقد بانه يخدم هدفاً ذا طبيعة ديمقراطية عميقة الجذور . وبالاضافة الى ذلك ، فان قوة الحجة التي قدمها ضد الحكومة البولونية في لندن تكمن في ان تلك الحكومة كانت بالفعل تحالفاً انتهازياً يضم الفلاحين شبه الرجعيين والاشتراكيين المعتدلين وسياسيين لا يمكن اعتبارهم ديمقراطيين باي شكل من الاشكال ، وسيان اذا نحن اعتمدنا لذلك المقياس « الغربي » او المقياس « الشرقي » . فقد كان معظم اعضاء جهازها الاداري من اتباع الدكتاتوريين اللذين تعاقبا على حكم بولونيا : بيلسودسكي وريدز — سميغلي . والاهم من ذلك كله ان اعضاء الحكومة الديمقراطيين منهم او اعداء الديمقراطية ، مصابون جميعاً تقريباً بنزعة العداء لروسيا — وهي سمة مميزة من سمات السياسة البولونية ازكاها العذاب الذي لاقاه البولونيون على ايدي الروس منذ عام ١٩٣٩ . والحقيقة ان الشيوعيين كانوا الوحيدين بين الاحزاب البولونية الذين يمكن اعتبارهم « اصدقاء لروسيا » وكان بديهياً ان يستغل ستالين نزعة العداء

لروسيا كمبرر للخطوة التي اقدم عليها حالما دخل الجيش الاحمر حدود بولونيا إذ اعلن دعمه لـ « لجنة التحرر الوطني البولونية » التي يسيطر عليها الشيوعيون والاشتراكيون اليساريون . حتى في ذلك الحين ، ظلت علاقات ستالين بالبولونيين مليئة بالاحداث الشاذة كما يظهر من الحادثة التالية : كان يوجد بين السياسيين البولونيين الذين يرعاهم ستالين من لم يطلق سراحه من السجون ومعسكرات الاعتقال الروسية الا عام ١٩٤١ . في احدى الحفلات التي اقامها على شرف « لجنة التحرر » ، التفت ستالين الى احد قادتها وهو اشتراكي يساري قديم عانى شتى ضروب العذاب في بولونيا قبل الحرب ، وسأله : « ما هو عدد السنوات التي قضيتها في السجون ، يا رفيق ؟ » — وهـذا سؤال تقليدي يطرحه سجين سياسي سابق على آخر . فاجابه البولوني : « اي السجون تعني :السجون البولونية ام الروسية ؟ » فاجابه ستالين للفور : « بقدر ما تسرعون في نسيان السجون الروسية ، بقدر ما يكون ذلك افضل لنا ولكم » .

بدعمه للجنة البولونية ، وضع ستالين كلاً من تشرشل وروزفلت امام اختيار عسير . فإما الاعتراف باللجنة ، اذا كانا ينويان الاسترشاد بالمبدأ القائل انه لا يجوز القبول في بولونيا الا بحكومات صديقة لروسيا ؛ وإما تجاهل هذا المبدأ والاستمرار في دعم الفئات البولونية التي كانت بريطانيا والولايات المتحدة تدعمها من قبل . حاول الرجلان التهرب من المقصلة بالضغط على ستالين لكي يجري مفاوضات مع ستانسلاف ميكولايكزيك ، الفلاح المحافظ الذي ترأس الحكومة البولونية في لندن بعد وفاة سيكورسكي . وكان ميكولايكزيك من السياسيين البولونيين القلائل الذين يميلون الى المساومة حول خط كورزون ، إن لم نقل القبول به نهائياً . وبالفعل ، سافر ميكولايكزيك الى موسكو في تموز ١٩٤٤ ليكتشف ان الحكومة الروسية قد اعترفت رسمياً بلجنة لوبلين . بعد ان تدخل ستالين بشكل سافر في شؤون بولونيا ففرض عليها حكومة اختار اعضاءها بنفسه ، راح يحذر من أي تدخل في شؤونها الداخلية ، ونصح ميكولايكزيك بان يتصالح مع افراد لجنة لوبلين .

في تلك الاثناء ، وقعت حادثة مأسوية يبدو دور ستالين فيها غامضاً جداً . في فاتح آب ١٩٤٤ اندلعت انتفاضة مسلحة في وارسو ضد الالمان . وكان الثوار بقيادة ضباط يتلقون تعليماتهم من الحكومة البولونية بلندن . كان الجيش الاحمر على مشارف وارسو ،

وأخطأ قادة الانتفاضة إذ ظنوا ان الحـامية الالمانية سوف تجلى عن مدينتهم بسرعة . طبيعي ان يكون الدافع الذي يحرك معظم الثوار هو عزمهم على تحرير عاصمتهم بجهودهم الذاتية . إلا ان قائدهم ارتكب غلطة سياسية ضخمة إذ اصدر اوامر البدء بالعمل المسلح دون ان ينسّق الانتفاضة مع قيادة الجيش الروسي المتقدم نحو المدينة (بالمناسبة كان قائد الجيش الروسي من اصل بولوني ، وهو المارشال روكوسوفسكي) . هذه الغلطة ناجمة عن الوضع السياسي نفسه. فقادة الانتفاضة كانوا يأملون إما السيطرة على العاصمة البولونية قبل وصول الروس ، وإما ان يمارسوا ضغطاً معنوياً على الاقل ، في حال اخفاق المشروع الاول ، من شأنه اجبار الروس على الاخذ بعين الاعتبار المطالب السياسية للذين ساعدوهم على طرد الالمان .

سرعان ما تبين ان توقيت الانتفاضة سيأتي بكارثة مهولة . فقد تمكن الالمان من تجميد جيش روكوسوفسكي على نهر الفيستولا ثم ردّه على اعقابه . وبدلاً من ان تغادر الحـامية الالمانية العاصمة ، صبت كل قوتهـا وحقدها على الثوار . فنجم عن ذلك معركة رهيبة ويائسة قاتل البولونيون فيها ببطولة رومنطيقية نادرة ، فثأر الالمان منهم باحراق وتدمير المدينة شارعاً شارعاً وبيتاً بعد بيت. فطلب البولونيون النجدة. واتصل ميكو لايكزيك بستالين . أقل ما يقال ان تصرف ستـالين كان غريباً جداً . في البدء ، رفض تصديق التقارير الواردة حول الانتفاضة واعتبرها مجرد خدعة حربية يقوم بها العدو . ثم وعد بان يساعد لكنه لم يفعـل . الى هذا الحد ، ما زلنـا نستطيع ان نكون كرماء في تفسير تصرفه . من المرجح ان يـكون قد تعذر فعلاً على روكوسوفسكي ان يأتي لنجدة وارسو بعد ان رده الالمان على اعقابه ؛ كما انه من المرجـح ان يكون قد تعذر على ستالين ، الذي شن لتوه هجمات رئيسية في منطقـة الكارباث وفي رومانيا ، ان يعدّل من معطيـاته الستراتيجية بحيث يهب الى نجدة هذه الانتفاضة الفجائية. لكنه اقدم بعد ذلك على خطوة زرعت الرعب في اوساط الحلفاء . فرفض السماح للطائرات البريطانية ، المنطلقـة من قواعدها لترمي بالاسلحة والمؤن للثوار ، من ان تهبط على المطارات الروسية وراء خطوط النـار . فقلص بخطوته هذه المساعدة البريطانية للثوار الى حدها الادنى . ثم ظهرت الطائرات الروسية فوق المدينة المحترقة حاملات المؤن والمساعدات ، ولـكن بعد فوات الاوان . يصعب التكهن بصدد الهدف الذي كان ستالين يرمي اليه من بادرته القاسية هذه ، ذلك ان مأساة وارسو زادت في تسعير الشعور المعادي للروس في بولونيا وصدمت

حتى المعجبين بستالين في الغرب. كذلك يصعب علينا ان ندرك ماهية الحسابات السياسية، أياً ما كانت درجة استهتارها، التي تفسّر الموقف الذي وقفه. يبدو ان الدافع الرئيسي الذي كان يحركه هو الضغينة اللامتناهية والحقد الذي لا يشبع اللذين تكشف عنهما خلال التصفيات الكبرى.

* * *

عندما اجتمع ستالين وتشرشل وروزفلت في يالطا، في شباط ١٩٤٥، كانوا على قاب قوسين من النصر. وقد ادركوا ان الذي سيحرمهم منه هو عجزهم عن التفاهم فيما بينهم. وهذا ما كان يراهن عليه هتلر بالفعل وهو قابع في مكتبه يعيد قراءة قصة فريدريك الكبير الذي نجا من الهزيمة في « حرب السنوات السبع » لأن اعداءه اختلفوا فيما بينهم. كان قادة الحلفاء الثلاثة مهتمون بالدرجة الاولى بتسديد آخر ضرباتهم ضد العدو، فآثروا تأجيل البت بكل القضايا التي قد يختلفون حولها.

لم يعد ستالين المنتصر الاوحد في الحرب كما كان في اجتماع طهران. فالبريطانيون والاميركيون يقفون على نهر الراين. لكن التفوق العسكري الروسي كان لا يزال واضحاً. فعلى ضفاف نهر الاودر، يتأهب الجيش الاحمر للهجوم على برلين. وقبل حوالي الاسبوعين من اجتماع يالطا، وقعت حادثة دلت بمزيد من الوضوح على الغلبة العسكرية الروسية. شن الالمان هجومهم المضاد الاخير في منطقة « آردين »، وبدا للوهلة الاولى انهم قد يتمكنوا من شق الجبهة البريطانية – الاميركية. في ١٤ كانون الثاني، سافر مارشال الجو تدير، نائب الجنرال ايزنهاور، الى موسكو ليطلب من ستالين شن سلسلة من الهجمات الروسية لتخفيف الضغط الالماني عن الجبهة الغربية. وافق ستالين على الطلب. وبعد ثلاثة ايام من ذلك التاريخ، دخل الجيش الاحمر وارسو، وواصل تقدمه عبر الفيستولا الى نهر الاودر. لذا، عندما التقى ستالين ضيوفه في ليفاديا، قصر القياصرة الصيفي الواقع قرب يالطا، وسط الخراب الذي خلفته المعارك الاخيرة، كان يحس احساساً عميقاً بالمساهمة التي قدمتها روسيا باتجاه احراز النصر؛ وقد اضطر ضيوفه الى الاعتراف له بهذا الجميل.

كان « الثلاثة الكبار » لا زلوا ينزعون الى عكس وحدتهم الراهنة على حالة السلم

اللاحقة ، فراحوا يتصورون المستقبل على اساس مبــادىء السيادة المشتركة ومناطق النفوذ . ولكن ، ما ان شارفت الحرب على نهايتها ، حتى تزايدت تحفظاتهم وشكوكهم ومخاوفهم . ومع ان كل طرف كان على استعداد للتنازل عن بعض المكاسب للآخر ، فقد كان يسعى في الوقت ذاته الى كسب الضمانات لنفسه . لذا كان كل منهم شغوفاً بان يضيف الى كل معاهدة اتفاق بنداً يسمح له بالتهرب من تنفيذها . وباتت الاعتبارات العسكرية متشابكة أو متعارضة مع المصالح الاجتماعية والمبادىء العقيدية . فكأنما قدرّ ما يحدو بـ « الثلاثة الكبار » الى تبني مواقف عسكرية تلو الاخرى علماً بان كلاً من هذه المواقف كان يحمل في طياته بذور نزاع ومنافسة لاحقين .

ويمكن تكوين صورة واضحة عن الجو الغريب الذي كان سائداً بينهم بمعالجة النقاش الذي دار بصدد النظام الداخلي لمنظمة الأمم المتحدة . انصبّ النقاش على البنود المتعلقة بحق الفيتو الذي آثرت الدول الكبرى احتكاره لنفسها في مجلس الأمن التابع للمنظمة المذكورة . كان ستالين أكثر تحمساً لهذا المشروع من شريكيه ، فأراد جعل الفيتو بالغ الصرامة بحيث يتعذر على أي كان نقضه أو تمييعه. وكان تشرشل قد اورد جملة في حديثه تتعلق بضرورة السماح للأمم المتحدة بان تتخذ الخطوات اللازمة ضد دولة كبرى قد تطمح إلى السيطرة على العالم . فقال ستالين : « بودي ان اسأل السيد تشرشل ان يسمّي تلك الدولة الكبرى التي قد تطمح للسيطرة على العالم . انني واثق من ان بريطانيــا العظمى ليست تطمح للسيطرة على العالم . هذه دولة كبرى واحــدة قد اضحت بمنأى عن اي شك . وانني لواثق أيضاً من ان الولايات المتحدة لا تطمح الى مثل هذه السيطرة — وهذه دولة اخرى تحذف من عــداد الدول الطامحة للسيطرة على العالم . » — قاطعه تشرشل قائلاً : « هل لي ان اجيبك على سؤالك ؟ ». كان ستالين لا يطيق صبراً على انهاء محاجته : « لحظةً واحدة من فضلك ! الخطر المحدّق بالمستقبل هو خطر نزاع ينشب فيما بيننا » . بهذه العبارة فضح كل المضمرات الكامنة في حديث تشرشل — يبدو ان هذا الاخير كان يشك في روسيا ، فاراد ان تكون الانظمة الداخلية للأمم المتحدة مزعجة بالنسبة لهـا قدر الإمكان . إرتبك تشرشل بعد ان عمد ستالين الى وضع النقاط على الحروف فأجاب قائلاً انه ما دام الثلاثة الكبار الذي اشتركوا في قيادة الحرب على قيد الحياة ، فلا خطر من نشوب نزاع فيما بينهم ؛ ولكن هل من المؤكد ان خلفاؤهم سيظلون متحـدين ؟ لم يكن ذلك كافيــاً لاقناع ستالين . فذكّر ضيوفـه بحقد روسي دفين : خــلال الحرب

الفنلندية – الروسية عام ١٩٣٩ ، ادانت عصبة الأمم روسيا واتخذت قراراً بطردها من عضويتها – هذه العصبة نفسها التي لم تحرّك ساكناً ضد هتلر ولا ضد اي عدوان آخر... لا ، ان روسيا لن تسمح بان تعامل على هذا النحو في المستقبل .

الطريف حقاً في الامر ان ستالين ظل طوال تلك الفترة من الحرب ينادي بكل ما اوتي من قوة بالسيادة المشتركة لـ «لثلاثة الكبار» على العالم رافضاً اي اقتراح من شأنه اضعافها من جهة ؛ بينما راح من جهة اخرى يعبّر عن شكوك ومخاوف روسيا من شريكتيها في مشروع السيادة المشتركة . فعندما اقترح كل من تشرشل وروزفلت ان تمنح فرنسا حصة في الرقابة على المانيا ، اعترض على اساس ان « فرنسا فتحت ابوابها للعدو » . وكانت حجته الرئيسية تتلخص بالقول ان مكانة اية امة من الامم ، ايام السلم يجب ان تحدد على اساس نسبة القوة التي ابدتها خلال الحرب ومبلغ التضحيات التي تكبدتها فيها . بديهي ان المبدأ يعطي الاولوية لروسيا دون ادنى شك ، فما من امة تحملت من التضحيات مثلما تحملت هي . وعندما لاحظ تشرشل بسخرية ان « الثلاثة الكبار » يشكلون « نادياً خاصاً ، لا يدخله إلا من يملك خمسة ملايين جندي او ما يعادلهم» ، لا بد وان يكون ستالين قد قال لنفسه ان روسيا دفعت رسم اشتراكها في هذا النادي مبلغاً قدره خمسة ملايين جندي **قتيل** ! ورفض بعناد اي اقتراح يخول الدول الصغرى حق الوقوف بوجه الدول الكبرى في الامم المتحدة المنوي انشاؤها . فقد كان يخشى ان تحرض بريطانيا واميركا الدول الصغرى ضد روسيا . واصر في احدى المناسبات على ضرورة تكوين قوات مسلحة تابعة للامم المتحدة ، وبخاصة سلاحاً جوياً دولياً تكون له القواعد في مختلف الدول الصغرى . وعلى الرغم من ان الولايات المتحدة رفضت الاقتراح ، فهو يشهد على ثقته في اواصر التضامن الكامنة بين « الثلاثة الكبار » . ثم دفعه خوفه من ان تكون روسيا في الاقلية بالامم المتحدة الى المطالبة بالاعتراف بكل من اوكرانيا وبايلوروسيا كعضوين في الامم المتحدة تتمتع كل منها بصوتها الخاص . وسعيا منه لارساء هذه المطالبة على قاعدة راسخة ، اجرى التعديل الدستوري لشباط ١٩٤٤ الذي الغى فيه ، شكلاً على الاقل ، المبدأ الاساسي لدستور عام ١٩٢٤ مستبدلاً **اتحاد** الجمهوريات السوفييتية بنوع من العلاقة الفيدرالية يكون لكل جمهورية من جمهورياتها جيشها ووزارة خارجيتها الخاصين .

لا يسع المرء إلا ان يتأمل الفارق الشاسع بين خطورة القضايا المطروحة والتناقضات الناشبة من جهة ، وبين عبث وتفاهة المساومة الجارية عليها من جهة اخرى . كان رؤساء الحكومات والوزراء والسفراء يناقشون طوال اشهر حول صوتَي اوكرانيا وروسيا البيضاء وكأن مستقبل السلم رهن بهما . حصل ستالين على مبتغاه في يالطا . ولكنه لم يحقق كبير نجاح ، حتى من وجهة نظره نفسها ، اللهم إلا اشباع طموح من طموحاته . فقد اضطر ، في المقابل ، الى الموافقة على منح الولايات المتحدة ثلاثة اصوات في الامم المتحدة ، وهذا حق تمسكت به اميركا بعناد . وأخيراً ، اعلن « الثلاثة الكبار » ، في بيان يعوزه حسّ الفكاهة ، انه يتوجب على جميع الدول الحيادية في العالم ان تعلن الحرب على المانيا قبل فاتح آذار ١٩٤٥ ، أي بعد ان يكون الحلفاء قد انتصروا فعلاً ، وذلك كشرط لقبولهم كأعضاء في المؤتمر التأسيسي للامم المتحدة المنوي عقده في سان فرانسيسكو . على ان يغلق باب الانتساب بعد ذلك التاريخ .

يتعذر علينا ان نسرد ، أو حتى ان نلخص ، القصة المعقدة والممتعة لمختلف الصفقات والمساومات وشتى الخلافات والنزاعات التي عرفها مؤتمرا يالطا وبوتسدام . كانت طبيعة التضامن بين « الثلاثة الكبار » تسمح لهم باتخاذ قرارات اساسية والإشراف على تنفيذها بيسر نسبي طالما ان الامر يتعلق بمصلحة عسكرية رئيسية ومباشرة ؛ ولكن سرعان ما كانت الارض المشتركة بينهم تتزعزع حالما يبتعدون عن هذه المصلحة العسكرية . في يالطا ، وضعوا الخطط لاستمرار تقدم الجيوش الحليفة وحددوا المناطق التي ستحتلها كلٌّ منها ، لكنهم تجاهلوا العواقب الناجمة عن تقسيم المانيا الى اربعة قطاعات ، وبالكاد عالجوا جوانبها الدستورية والاقتصادية . وبالاضافة الى ذلك فالضرورة التي تستوجب تضامنهم ما عادت ناجمة عن مصلحتهم العسكرية المشتركة في اوروبا وانما باتت وليدة ضرورة جديدة : الشراكة الجديدة التي يتطلبها شن حرب ضد اليابان . كان ستالين قد وعد بالاشتراك في تلك الحرب منذ عام ١٩٤٣ . وتعهد في اجتماع يالطا ان يباشر بذلك بعد ثلاثة اشهر من توقف العمليات العسكرية في اوروبا . لم يكن روزفلت أو تشرشل واثقاً من نتائج التجارب التي تجرى على السلاح الذرّي — هذه التجارب التي اخفوها حتى عن حليفهم الروسي . لذا ، لم يكونا على ثقة من ان بلديهما قادران على الانتصار على اليابان بدون مساعدة روسيا؛ الامر الذي اضطرهم الى التنازل لستالين عن امور ما كانا ليتنازلان عنها في ظروف اخرى .

ما هي مصلحة ستالين في الاشتراك بحرب المحيط الهادي ؟ ان تحالف روسيا مع بريطانيا والولايات المتحدة لا يجبرها على ان تتحالف معهما في آسيا . ولا كانت الحرب ضد اليابان تحظى بتأييد الشعب الروسي الذي يرى ان اليابان عدوة حليفهم لكنها ليست العدو ذاته ، فضلاً عن كونهم قد ملوا الحرب فما كانوا مستعدين لتحمل حرب جديدة . وإذا كان ستالين قد وافق على خوض غمار تلك المغامرة الجديدة فلأنه كان واثقاً من ان المجازفة التي تنطوي عليها قليلة جداً . وبينما كان روزفلت وتشرشل يعتقدان بان حرب الشرق الاقصى ستكون طويلة وباهظة الأكلاف ، كان ستالين يرى ان جيوشه سوف تقاتل خلال مدة اقصاها ثلاثة أشهر . كان يراهن على قضايا محددة . فهدفه يتلخص باستعادة كل الاراضي التي خسرتها روسيا لصالح اليابان منذ معاهدة بورتسموث التي عقدت بعد الحرب الروسية – اليابانية ، ١٩٠٤ – ١٩٠٥ . فعقد في يالطا اتفاقاً بالغ السرية مع روزفلت يقضي بان تستعيد روسيا « سكة حديد الشرق الصيني » ، التي تنازلت عنها لليابان لعشر سنوات خلت ، بالاضافة الى المنطقة الجنوبية في جزيرة ساخالين ، وجزر كوريل وبورت آرثر . فراح يصور الحرب لشعبه وللعالم على انها ثأر لروسيا عن هزيمة ١٩٠٤ – ١٩٠٥ ، قال في بيانه عن استسلام اليابان : « ... ان هزيمة القوات الروسية عام ١٩٠٤ قد خلفت ذكريات مريرة في اذهان الشعب . انها لطخة سوداء على جبين وطننا . وكان شعبنا يؤمن ويأمل بان يوماً سيأتي تسحق فيه اليابان وتمحى هذه اللطخة السوداء . أما نحن ، ابناء الجيل القديم ، فاننا ننتظر مجيء ذلك الموعد منذ حوالي الاربعين عاماً » . كانت كلمات ستالين تناقض الوقائع التاريخية بشكل فاضح . ذلك ان ابناء الجيل القديم ، من بلاشفة ومناشفة وحتى ليبراليين ، هللوا لهزيمة النظام القيصري عام ١٩٠٤ . وقد علق لينين بالعبارات التالية على الهزيمة الروسية في بورت آرثر :

« البرجوازية الاوروبية خائفة ، ولها في ذلك اسبابها الخاصة . أما البروليتاريا ، فلها اسبابها الخاصة لكي تهلل لهذا الحدث . ان الكارثة التي حلت بأبغض اعدائنا ليست تعني ان حرية روسيا باتت اقرب منالاً وحسب ، وانما هي ايضاً مقدمة الانتفاضة الثورية الجديدة للبروليتاريا الاوروبية » .

في تلك الآونة كان ستالين نفسه قد تحدث الى عمال تيفليس بالمعنى ذاته ، ولو بوضوح اقل من وضوح لينين ، في بيانه : « يا عمال القفقاس ، لقد دقت ساعة الثأر » . غير ان

نظرته الجديدة الى التاريخ وتفجّعه المستجد على الاهانات السابقة التي منيت بها روسيا ينسجمان كل الانسجام مع الروح المحافظة التي تسيّر سياسته . فظهر على شاطىء المحيط الهادىء ، مثلما فعل من قبل على شاطىء البلطيق ، ليجمع الممتلكات الروسية القديمة ويلعب دور وريث القياصرة . وقد عرض مطامحه لروزفلت وتشرشل على هذا الاساس ، متنصلاً من أي طموح ثوري في آسيا . ولم يوافق على احتكار الولايات المتحدة للسيطرة على اليابان وحسب ، وانما ذهب في بوتسدام الى حد ادانة الشيوعيين الصينيين المناوئين لتشانغ كاي تشك معتبراً ان الكيومنتانغ هو القوة السياسية الوحيدة القادرة على حكم الصين .

ان نظرة الى سياسة ستالين ، الآسيوية منها والاوروبية ، ترينا ذلك التداخل الغريب بين نزعتين — النزعة التقليدية المحافظة والنزعة الثورية — الذي حيَّر حلفاءه وأعداءه على حد سواء . ما هو ستالين ، في نهاية المطاف ؟ تراه يعمل لاعادة الامبراطورية القيصرية ، فيستغل احياناً الاعذار الثورية لخدمة هذا الهدف ؟ أم تراه يعمل من اجل انتشار الثورة الشيوعية مغلفاً هدفه وراء براقع التقاليد الروسية الامبراطورية ؟ هذا هو السؤال الذي طرحه الساسة البريطانيون والامير كيون في محاولتهم النفاذ الى الدوافع الحقيقية التي تحرك ستالين . غير ان السؤال يقوم على الافتراض ان واحدة من السمات هي السمة الحقيقية لشخصية ستالين ، أما الاخرى فمجرد ادعاء وخداع . والواقع ان كلتيهما حقيقي الى درجة انه يسعنا القول انه لو حرم ستالين من احداهما لتعذر عليه ان يكتشف هويته الحقيقية . فتلك الازدواجية شاملة ، ذلك ان **التقليد والثورة** يعيشان جنباً الى جنب بصمت في افكار الشعب الروسي ومشاعره؛ كما انهما يبرزان بانتظام في كل مجال من مجالات نشاط ستالين ، الخارجية منها والداخلية ، بحيث لا يسعنا القول ان الامر مجرد عملية تمويه حاذقة أو موقف اصطناعي لا غير — علماً بانه ما من شك في ان ستالين كان يعمد احياناً الى تمويه خطواته بقصد تضليل اعدائه أو حتى اصدقائه .

عندما شارفت الحرب على نهايتها بات من المستحيل على المرء ان يميز بين هاتين النزعتين اللتين تطبعان سياساته . فالنزعة التقليدية احتلت المقدمة في سلوك ستالين وتطلعاته وأساليب عمله وحركاته ونزواته بحيث باتت شبيهة الى حد كبير بسلوك وتطلعات وحركات الاسكندر الاول إبان المرحلة الاخيرة من الحروب النابليونية . الشبه اصيل في معظمه ،

ولكن ما من شك في انه كان ينطوي على تقليد مقصود ايضاً — وهذا جلي في ان ستالين اطلق على الحرب رسمياً اسم « حرب الوطن » ، وهو الاسم الذي يعرف به التاريخُ الروسي ملحمةَ عام ١٨١٢ . بعد هزيمة الجيش النابليوني ، سعى القيصر اسكندر الاول الى توسيع امبراطوريته على حساب بروسيّا والنمسا ، حليفتا روسيا وبريطانيا ، فأراد ضم الاراضي البولونية العائدة لهاتين الدولتين الى « مملكة بولونيا » التابعة له . وقرر « التعويض » عن بروسيا بمنحها منطقة ساكسونيا . يكفي ان نضع اسم بولونيا محل اسم بروسيا في هذه الرواية لنجد انفسنا امام وصف لسياسة ستالين .

كان الاسكندر مهتماً بالنفوذ الروسي في البلقان ، مثله في ذلك مثل ستالين ؛ وقد سعى كلاهما لبسط نفوذهما على المضائق التركية . وكان التوتر بين روسيا وحلفائها الغربيين عام ١٩٤٥ قد بلغ نفس المستوى من المدة التي بلغها عام ١٨١٥ . أما التكتم الذي طبع سياسة كلا الحاكمين والتكتيك القائم على اخذ حلفائهما على حين غرة ومراوحة سياستيهما بين المواقف التسووية والمواقف الحازمة فكانت كلها تؤدي الى نفس الفوضى والاضطراب في صفوف حلفائهما . وإذا بوزير خارجية هذا وذاك خائفاً باستمرار من الانفراد باتخاذ القرارات ، فينتظر اشارة من سيده للاقدام على أية خطوة أو بادرة مستنفذاً صبر حلفائه ببطء معاملاته وغرابتها .

والطريف في الامر ان المقارنة بينهما تنتقل من القضايا الرئيسية الى التفاصيل . كان اسكندر الاول شغوفاً بالمحافظة على مكانة روسيا وسمعتها ، فسعى لأن يحتفل بانتصاره في باريس نفسها . وكانت دوافع مماثلة قد حدت بستالين ان يأمر المارشال جوكوف باقامة احتفال خاص يُعلن فيه رسمياً استسلام المانيا في القطاع الروسي من برلين بعد ان كان المندوبون الالمان قد وقّعوا وثيقة الاستسلام في مقر القيادة البريطانية—الاميركية في مدينة ريمس . وها ان حدثاً غريباً يقع في مؤتمر بوتسدام يذكر بحادث مماثل وقع في الماضي . عند وصوله الى بوتسدام ، اعرب ستالين عن اعتقاده بان هتلر لا يزال على قيد الحياة وانه مختبىء في مكان ما خارج المانيا . وأثار استغراب البريطانيين والاميركيين عندما كرر ذلك القول باقتناع واضح بعد ذلك بعدة ايام . فكأن بفكرة عودة نابليون من « إلبا » والايام المائة التي عقبت ذلك قد خطرت ببال ستالين — ترى ألن يحاول هتلر نفسه عودة كهذه ؟ وبما ان عودة نابليون أدت الى تلاحم القوى المنتصرة في مؤتمر فيينا ، يبدو ان

ستالين استخدم شبح هتلر العائد في بوتسدام ليستعيد وحدة الحلفاء التي فرضها هتلر عندما كان على قيد الحياة .

ولكن لا يعقل ان يكون ستالين مجرد اسكندر آخر ، رغم أوجه الشبه بينهما . فالوضع الدولي لا يسمح له بذلك . فجيش اسكندر الاول ، بالرغم من انه كان أقوى جيش على القارة الاوروبية ، المتقدم عبر اوروبا ما كان ليلقاها مضطربة ومنحلة الى حد الاندثار مثلما ألفتها جيوش ستالين . وفي مؤتمر فيينا ، لم يضطر القيصر الى مواجهة بريطانيا وحسب ، وانما الامبراطورية النمساوية وبروسيا والسلطنة العثمانية ايضاً — وكلها تملك وجوداً فعلياً في اوروبا الوسطى والشرقية والجنوبية . حتى صوت الامم المهزومة ، كفرنسا مثلاً ، اكتسبت اللقاءات بين الامم أهمية أكبر مما كان لها من قبل . في عام ١٩٤٥ كانت الامة المهزومة المانيا معدومة الاهمية السياسية ؛ أما سائر قوى القارة الاوروبية ، المهزومة منها أو المنتصرة ، فقد استنفذت كل قواها . وبسبب التباين بين ذلك الفراغ الضخم من جهة وبين جبروت روسيا المستجد ، برزت شخصية ستالين ، في الافق الاوروبي ، بحجم أكبر بكثير من شخصية الاسكندر الاول من قبله . وكان خطره اعظم على البعض والآمال المعلقة عليه أكبر ايضاً عند البعض الآخر .

ولم يعد المجال السياسي مقتصراً على اوروبا وحدها . فقد شهد العالم أجمع توزع القوى المذهل ما بين الولايات المتحدة وروسيا . إن نظرة الى الاعتبارات الاحصائية المجردة ترينا ان روسيا اضعف اقتصادياً من الولايات المتحدة . لكن الذي يعوّض عن ذلك هو قرب روسيا من الساحة الاوروبية ، مما يضفي فاعلية خاصة على الضغط الذي باستطاعتها ممارسته . وعندما شارفت الحرب على الانتهاء ، لا بد وان يكون ستالين قد توقع بان ينحسر النفوذ الاميركي بسرعة عن القارة الاوروبية مخلياً المجال أمام تنامي النفوذ الروسي . لكن قولنا هذا لا يبلغ حد اليقين . كذلك ينبغي علينا ان نلاحظ ، في مقابل تنامي قوة روسيا ، عامل الضعف الناجم عن الخسائر الجمة والمآسي العديدة التي خلفتها الحرب وقد ساعد هذا العامل على الحد من انتشار النفوذ الروسي .

لقد حان الوقت لكي نضيف الى نقاط الاختلاف بين الاوضاع عام ١٩٤٥ وعام ١٨١٥ عنصراً جديداً هو العنصر الثوري في دبلوماسية ستالين . لم تنتصر الشخصية البلشفية في

ستالين على الشخصية الشبيهة بالاسكندر الاول إلا في نهاية الحرب ؛ لكنها كانت قد برزت في فترة سابقة خلال اجتماعي يالطا وبوتسدام . وقد ارسيت خلال الاشهر الاخيرة من الحرب قواعد الثورة التي شملت فيما بعد معظم الاقطار الواقعة ضمن منطقة النفوذ الروسية .

أُنشئت في جميع تلك الاقطار حكومات يفترض فيها ، اسمياً على الاقل ، ان تكون حكومات ائتلافية تضم عدة اطراف : الشيوعيون ، الاشتراكيون ، الفلاحون ، والاكليركيون وحتى اشباه الفاشستيين . لكن الشيوعيين كانوا يسيطرون في كل منها على وزارتين حاسمتين على الاقل : الشرطة والجيش . وقد استخدموا هاتين القوتين للسيطرة على البلد ككل ثم على شركائهم في الحكم الى ان تمكنوا من اقصاء هؤلاء الشركاء نهائياً أو اجبارهم على التعاون مع الثورة . ومن العوامل التي اسعفت الشيوعيين على تنفيذ مخططهم هذا ان تلك الحكومات كانت ملزَمة ، بمقتضى اتفاقيات الهدنة أو بيانات خاصة ، بان تطهّر جهازها الاداري ومؤسساتها السياسية من الذين عملوا ضد روسيا ، ومن النازيين والفاشستيين وأصحاب النزعات العسكرية وما شابه . كما كانت ملزمة بان تؤمن سلامة خطوط المواصلات التي يستخدمها الجيش الروسي في تلك الاقطار . كانت هذه البنود ، التي وافق عليها الحلفاء ، كافية لتمكين ستالين من ان يطلق ويشرف على عملية انتهت بزرع حالة من الضياع الكامل في اوساط الطبقات الحاكمة القديمة في اوروبا الشرقية ، وبحرمانها من إمكانية التنظيم وتحويلها الى فئة مسلوبة من أية قوة سياسية — كل ذلك دون ان يضطر الى خرق المعاهدات المعقودة بين الحلفاء على نحو سافر . والواقع ان معظم تلك الطبقات كان يتكون من عناصر معادية للديمقراطية تورّطت باتخاذ مواقف مؤيدة للالمان ، أو على الاقل معادية للروس ، خلال الحرب . وإذا بعملية اقصاء الطبقات الحاكمة القديمة يمهد الطريق لارتقاء الاحزاب الشيوعية الى سدة الحكم . أما العناصر الوسطية ، التي قد تدافع عن مؤسسات وحكومات برلمانية ، فقد كانت تفتقد الى أي نوع من التقليد تركن اليها فضلاً عن كونها ضعيفة وعديمة الفاعلية . ولما تضخمت تلك العناصر ، من جراء انضمام افراد المجموعات والاحزاب الحاكمة القديمة الى صفوفها ، جاء دورها لكي تتعرض للتصفية . يصعب علينا متى كان ستالين ، أو الشيوعيون المحليون ، يتصرف بمقتضى البنود التي يدعمها الحلفاء ومتى كان يستخدم تلك البنود كمبررات تسمح له بتصفية الحسابات مع الاحزاب والكتل التي ينوي قمعها . الواقع ان خطواته مزيج من الاثنين .

عبر هـــذه السلسلة المتصلة الحلقات من التصفيات التي استغرقت كل فترة الاربعينات تمكنت الاحزاب الشيوعية من التفرد بالسلطة دونما تدخل روسي سافر . ولم يكن ستالين يسمح بتدخل روسي مباشر وحاسم إلا عندما تصطدم هـذه العملية بعقبات حقيقية — وهذا ما حدث في اطوارها الاولى . وهكذا ، عندما رفض ملك رومانيا — ميخائيل — في ربيع عام ١٩٤٥ تنحية احد اتبـاعه الجنرال راديسكو عن منصب رئاسة الوزراء ، سافر فيشنسكي ، وقد اصبح وزير الخارجية الروسية ، الى البـلاط الروماني وأمر الملك بان يغير الوزراء في غضون ساعتين لا أكثر مهدداً بان رفضه الانصياع للامر سوف يعتبر خرقاً لاتفاقية الهدنة . فحل غروزيا ، وهو سياسي مؤيد للشيوعيين ، محل راديسكو ؛ وسعى ستالين الى تعزيز مكانة رئيس الوزراء الجديد فأعلن عزمه عن اعادة ترانسيلفانيا ، التي منحها هتلر للمجر ، الى رومانيا . بعد هـــذا التدخل الروسي ، بات بمقدور الحزب الشيوعي المحلي ان يتولى تنفيذ سائر التعديلات الوزارية المطلوبة اعتماداً على قواه الخاصة .

راح العالم يشهد في اوروبا الشرقية انتفاضات ثورية لا مثيل لهـا في تاريخ الثورات : « في بدء الثورة الروسية كانت الكلمة ». فالثورة هناك انطلقت من حركة شعبية جبارة. ثم انشأت جهاز شرطة خاص بها ومنحته سلطات واسعة النطاق سعياً منه للدفـــاع عن النفس . ثم صارت الدولة الجديدة ضحية صنيعتهـــا ، فتحولت الى دولة بوليسية . أما بالنسبة للثورات التي اشرف ستالين عليها في ستة اقطار ، فقد جرت العملية على نحـو معكوس. فكانت الشرطة أول مكاسب الثورة ، وقاعدة انطلاقها الاولى. فبعد ان سيطر الحزب الشيوعي على جهازها، ظهر هذا الجهاز نفسه **كواسطة** التحول الاجتماعي اللاحق. بالتأكيد ظهرت جماهير الشعب على المسرح ولعبت دورها . ولكن كان يصعب تحديد نوعيـــة افكارهم ومشاعرهم : تراهم كانوا يتصرفون مخيّرين أم ان الذي ينظمهم ويدفع بهم نحـــو العمل هو تلك « الواسطة » التي آثرت البقاء وراء الكواليس .

ترددت الثورة في اعلان المبادىء التي تقوم عليها وفي تحديد الاهداف التي تسعى اليها. فلم يكن تاريخها غير تاريخ من المناورات والمخططات والحيل السخيفة والوضيعة بحد ذاتها بالرغم من انها انتظمت اخيراً ضمن اطار ثوري . ومن احقر تلك الحيل تزوير الانتخابات: فقد صار لزاماً على الناخبين ان يصوّتوا مع القوة الحاكمة بنسبة ٩٩ ٪ . في روسيا، وصف البلاشفة حكمهم على انه دكتاتورية البروليتاريا . فحرموا افراد الطبقات الحاكمة والمالكة

السابقة من حق الانتخاب ، ووضعوا قانون انتخاب يضمن الغلبة للعمال الصناعيين على الغالبية السكانية الفلاحية – لكنهم احترموا حق الاقتراع ضمن تلك الحدود . كانت مواقف اعداء الثورة البلشفية واضحة محددة كمواقف اصدقائها ؛ وقد اضطر اعداؤها الى احترام الصراحة التي عبّرت بها عن مبادئها الطبقية . غير ان الوليد الاوروبي الشرقي للثورة الروسية كان يطمح الى مستوى أعلى من المكانة الديمقراطية . فأنكر الحكام بشدة ان يمت حكمهم بصلة ما الى الانظمة الدكتاتورية ؛ وراحوا يعرضون على الناس ، بكثير من الاستعلاء ، الغالبية الساحقة من الاصوات التي زعموا انهم حازوا عليها في انتخابات تقوم على الاقتراع الشامل والسري – فنفروا حتى الاصدقاء من فظاظة الخبث الكامن في مزاعمهم .

غير ان ستالين ، بمبادرته بهذه الثورات ، اسدى لشعوب اوروبا الشرقية « خدمات يصعب المبالغة في تقدير مضارها أو منافعها » ... في الفترة ما بين الحربين كانت معظم شعوب تلك المنطقة قد بلغت طريقاً مسدوداً ؛ فحياتها فقر مدقع وظلام اسود ؛ يتحكم بامورها السياسية زمر عفى عنها الزمن لا تأبه للتأخر الثقافي والمادي لمواطنيها ما دامت مصالحها بأمان. وقد خرج ذلك القسم من اوروبا من الحرب العالمية الثانية ومن «مدرسة» النازية المقيتة في حالة من الادقاع والوحشية واليأس المضاعفة . وربما كان الانقلاب الذي حتّمهم ستالين عليه هو المخرج الوحيد من الطريق المسدودة التي يراوحون فيها . ففي بولونيا والمجر مثلاً ، كان الاصلاح الزراعي الذي اصدره الشيوعيون ، بالرغم من نواقصه، تحقيقاً لحلم راود عدة اجيال من الفلاحين والمثقفين . وبعد ان أمّم الشيوعيون الصناعات الرئيسية في اوروبا الشرقية بأسرها ، اعتمدوا سياسة التصنيع المتسارع والقضاء على البطالة وهذه سياسة تتخطى مدارك « القطاع الخاص » وامكاناته المادية ، وهو المعروف بافتقاره الى رأس المال والمهارة والحيوية . كذلك اضطلعوا ، بحماس وطموح متجددين ، بمهام التعليم محاولين ردم الهوات السحيقة الناجمة عن تقصير الحكام السابقين في ذلك المجال . وبذلوا قصارى جهدهم للقضاء على المشاحنات الاقليمية والعمل على تنمية روح التعاون بين شعوبهم . باختصار ، فتحوا أمام اوروبا الشرقية آفاقاً عريضة للاصلاح والتقدم المشتركين . فكأن روسيا قد نقلت الى جاراتها عزمها على اختبار الاساليب الجديدة في مضمار العمل الجماعي والتنظيم الاجتماعي . والجدير بالذكر هنا انه إذا اخذنا شمول الانتفاضات وطابعها الجذري ، نجد ان ستالين حققها باللجوء الى الارهاب والى

سلسلة من الانقلابات ؛ لـكن المدهش انه تمكن من الحيلولة دون اندلاع حرب اهلية — كالتي شهدها اليونان مثلاً — في أي من الاقطار الواقعة داخل منطقة النفوذ الروسية .

قد يسأل سائل : عندما كان ستالين يساوم على منطقة النفوذ الروسية ، هل كانت خطة إخضاع هذه المنطقة للسيطرة الشيوعية قد اتضحت في ذهنه؟هل كانت خطة الثورة واضحة في ذهنه ايام اجتماعات يالطا وطهران ؟ هل كانت قد تبلورت نهائياً ايام اجتماعات بوتسدام ؟ يلتقي اعداؤه واصدقاؤه جميعاً عند هذه النقطة ، فجميعهم يريد تأكيد وجود خطة ذكية وبعيدة المدى تسيّر اعماله . غير ان اعمال ستالين تفضح عـــدة تناقضات غريبة وسافرة توحي بانعدام مثل هذه الخطة . وفيما يلي بعض من هذه التناقضات : اذا كان ستالين يخطط لاقامة حكومة شيوعية في وارسو ، لما رفض بعناد تقديم اي تنازلات للبولونيين حول الحدود الشرقية ؟ فما الفرق بالنسبة له اذا ما وضعت لفوف مثلاً — المدينة البولونية الاوكرانية — تحت حكم كييف الشيوعية او تحت حكم وارسو الشيوعية ؟ علماً بان مثل هذه التنازلات كانت ستؤدي حتماً الى تدعيم موقف اليسار البولوني . واذا كان قد خطط سلفاً لإشعال الثورة في المانيا الشرقية ، لماذا اقتطع من المانيـــا كل المقاطعات الواقعة الى الشرق من نهري النياسي والاودر والحقها ببولونيا — هـذه المقاطعات التي لم يكن يحلم البولونيون انفسهم بضمها الى بلدهم ؟ ولمـــاذا اصرّ على طرد جميـع السكان الالمان من هذه المقاطعات علماً بانها خطوة لن تؤدي الا الى زيادة استياء الشعب الالمـاني ليس ضد البولونيين وحسب وانما ضد روسيا والشيوعية ايضاً ؟ ان مطالبته بإلزام المانيا والنمسا والمجر ورومانيا وبلغاريا وفنلندا على دفع التعويضات مطالبة مفهومـــة نظراً للكوارث التي منيت بها اوكرانيا وسائر الاراضي السوفييتية من جراء الحرب ، ولكنها خلفت عواقب وخيمة بالنسبة للقضية الشيوعية في تلك البلدان . كذلك ينطبق هـــذا القول على مطالبة ستالين بتصفية القسط الاوفر من الصناعة الالمانية . كان قـــد اشار في اجتماع طهران ، وربما قبله ، بانه سوف يرفع هذا الشعار ؛ وقد اقترح في يالطا تفكيك ٨٠ ٪ من الصناعة الالمانية في فترة لا تتعدى السنتين من موعد اعلان الهدنة ؛ ويبدو انه لم يتخل عن موقفه في اجتماع بوتسدام . ولا يعقل ان يكون ستالين قد اغفل الحقيقـــة التالية : ان خطته هذه ، الشرسة والخرافية في آن معاً ، لن تؤدي الا الى تشتيت الطبقة العاملة الالمانية وهي القوة الاجتماعية الاساسية ، إن لم نقل الوحيدة ، التي يمكن للحركة الشيوعية التوجه اليها وكسب تأييدها . مهما شطح بنا الخيال ،يبقى متعذراً علينا وصف

اي من هذه السياسات كخطوات تمهيدية نحو الثورة . بل بالعكس تماماً ، فمع كل واحدة منها كان ستالين يقيم الحواجز المنيعة في وجه الثورة . وهذا يكفي بحد ذاته لأن نخلص الى القول ان نواياه ، عند انتهاء الحرب ، كانت متضاربة ومتناقضة الى حد كبير — وهذا اقل ما يقال عنها .

يروي ميكولايكزيك عن حديث غريب جرى بينه وبين ستالين في آب من عام ١٩٤٤ . تسلح السياسي البولوني بكل ما يملكه من مكر فلاحي ليجس نبض ستالين حول المانيا ، وابلغه ان الاسرى الالمان في المعسكرات البولونية يعربون عن املهم بان تعتنق المانيا الشيوعية بعد الحرب وان تحكم العالم بوصفها اول دولة شيوعية . ويروي ميكولايكزيك نفسه ان ستالين اجابه بحدة قائلاً ان « الشيوعية تلائم المانيا بقدر ما البردعة تلائم البقرة » . ما من شك في ان هذه الملاحظة الساخرة تعبّر خير تعبير عن المناخ الذهني الذي كان يعيش فيه خلال تلك الايام . وهي تنسجم كلياً مع الاتجاه العام لسياسته إزاء المانيا من حيث انها تعبير عفوي وعضوي معاً عن اقتناعه القديم بندرة الامكانات المتوافرة امام الحركة الشيوعية في اوروبا الغربية ، وتندرج ضمن اقواله واعماله خلال تلك الفترة مما يخولنا الاعتقاد بانها ليست مجرد خدعة تكتيكية .

الواقع ان النزاع بين القومية والثورية عند ستالين بلغ اعلى مستوياته في موقفه من المانيا ، الى درجة تخولنا القول بان العنصر القومي ، او المضاد للثورة ، تصدّر هذا الموقف لمدة اطول . قال ستالين بعد فترة وجيزة من اجتماع يالطا :

> « من السذاجة بمكان ان يعتقد المرء ان المانيا لن تحاول استعادة قوتها السابقة والتمهيد لعدوان جديد .... يؤكد التاريخ ان المانيا تحتاج الى فترة وجيزة — ما بين عشرين وثلاثين سنة — لكي تتمكن من ازالة آثار الهزيمة واستعادة جبروتها السابق » .

وقد كرر القول ذاته لجميع الذين زاروه في الكرملين . فبدا وكأن فكرة الثأر الالماني اللاحق تسيطر سيطرة كاملة على ذهنه . وكان يشير الى هذا الخطر بالذات كلما اراد التحدث عن الحاجة الى توحيد الدول الحليفة الكبرى ايام السلم . هذه هي الفكرة التي كانت تراوده ايضاً عندما اقترح شل الصناعة الالمانية ، وتعديل حدود المانيا واقتطاع

النمسا منها ، واقامة حكومة موالية للروس في بولونيا - « ذلك الممر الذي يستخدمه الالمان للعبور الى روسيا » . خلال انشغاله بحماية امن روسيا من الخطر الالماني ، تكلم باللغة ذاتها التي تكلم بها فوش وكليمنصو وبوانكاريه بعد الحرب العالمية الاولى - وهي لغة محافظة تعكس الماضي على المستقبل ، وتنظر الى هذا المستقبل من منظار المنافسة والصراع والحروب بين الامم . وتحذيره من الثأر الالماني « بعد عشرين او ثلاثين سنة » لم يكن يختلف بنظره عن القول ان المانيا ستبقى طوال هذه الفترة امة رأسمالية استعمارية - وهذا بديهي ما دامت « الشيوعية تلائم المانيا بقدر ما تلائم البردعة البقرة » . ولو انه كان يراهن على قيام ثورة شيوعية في المانيا لما اضطر الى المناداة بالسلم الاقتصاصي .

لكنه تحدث بتلك اللغة بالذات ، لانه يتحدث باسم روسيا . لسنا نبالغ إن قلنا ان روسيا باسرها كانت تتوقع ان يكون يوم النصر هو يوم محاكمة المانيا على يد ضحاياها . اما الافكار الامية ومشاعر التضامن مع الطبقات العاملة الاجنبية ، بالقدر الذي ابقت فيه الموجة القومية على مثل هذه الافكار والمشاعر ، فلا معنى لها ازاء الامة العدوة ، لان الطبقات العاملة الالمانية لم تحرك ساكناً لمنع العدوان الهتلري او عرقلته او الثورة عليه . صحيح ان اجهزة الاعلام وشعار ستالين الصارم « الموت للغزاة الالمان » الذي كان يردده كل يوم ساهمت في تسعير الشعور القومي في روسيا . ولولا هذه المحاولات لما بلغ الشعور العام ذلك المستوى من الغضب الذي بلغه في نهاية الحرب . ولكن التمييز بين العلة والنتيجة ليس بالامر اليسير . فحتى لو ان الدعاية القومية كانت معدومة فعلا ، فالمجازر الالمانية والاغتيالات الجماعية المنظمة ضد النساء والاطفال والعمل بالسخرة والاعتماد الواعي لسياسة الارض المحروقة في المدن والارياف على حد سواء - كل هذه تتحدث لغة افصح وابلغ من لغة الدعاية . تلك هي المناظر التي شاهدها الجنود المتقدمون من ستالنغراد الى برلين ، إذ كانوا يتقدمون وسط اراض حولها الالمان الى صحارى قاحلة . فكان لا بد للروس المنتصرين من ان يصبوا جام غضبهم على المهزومين ، فتوقعوا من حكومتهم ان تعيد بناء روسيا بمساعدة الصناعة واليد العاملة الالمانيتين وان تقضي على كل إمكانية تملكها المانيا لاعادة شن الحرب . وعندما تمكنوا اخيراً من رفع العلم الاحمر على الرايخستاغ وقد اضحى خراباً ، كان ذلك رمزاً لانتصار روسيا الثورية على المانيا ، لا لانتصار الثورة في المانيا .

الا ان هذا الحقد الروسي المكرب ضد المانيا اخذ بالتحول الى طاقة سياسية جبارة مع انتهاء الحرب . فولـّد موجة من الذعر الهستيري في المانيا أطالت من مقاومتها . فقد ظلت قوات هتلر على الجبهة الشرقية تقاتل حتى النهاية بعزم اشد من القوات المرابطة على الجبهة الغربية . وقـــد اتضح ذلك لستالين في آذار ١٩٤٥ ، عندما قدّم مشير الركن كيسلرينغ ، القـــائد العام للقوات الالمانية في ايطاليا ، اول اقتراح له للبريطانيين والاميركيين بان يستسلم لهم مع جيشه . غضب ستالين اعظم الغضب عندما بلغه نبأ مفاوضات البريطانيين والاميركيين مع كيسلرينغ ، وما ردة الفعل هذه إلا صدى لخوفه القديم من صلح منفرد بين الحلفاء الغربيين والالمان . وبعد ذلك بقليل ، في نيسان من العام نفسه ، اعلن وقف الحملة الدعائية القومية وأمر اجهزة الدعاية التابعة له بالعودة الى نشر عبارته الشهيرة : « ان امثال هتلر يظهرون ويختفون؛ لكن الامة الالمانية والدولة الالمانية باقيتين الى الابد » . لكن هذه المحاولة الرامية الى ازالة المخاوف الالمانية جاءت بعد فوات الاوان ، فلم تحقق الغرض المنشود . ففي الايام الاخيرة من الحرب ، كانت مجموعات كاملة من الجنود الالمـــان ، المذعورين والشاعرين بالذنب في آن معاً ، تفلت من الاسر الروسي وتستسلم للسلطات البريطانية والاميركية . في نفس الوقت ، كان مندوبون عن الحكومة الالمانية يحاولون توقيع اتفاقية هدنة مع الحلفاء الغربيين ، باستثناء روسيا . راقب ستالين تلك المناورات والشك يعصر قلبه . وعندما تمكن اخيراً من اعلان استسلام المانيـــا ، لم يتمالك عن التعبير عن دهشته لقبول المانيا ان تستسلم لروسيا ايضاً . ان الاحداث الـــتي شهدتها الاسابيع الاخيرة من الحرب كشفت الهوة السحيقة التي تفصل بين المانيا وروسيا والتي حفرها هتلر وستالين ، كل باسلوبه الخاص وبدرجة متفاوتة عن الآخر — تلك هوة لم تفلح الدبلوماسية التقليدية ولا السياسة الثورية في ردمها طوال سنوات عديدة من فترة ما بعد الحرب .

هكذا يتضح لنا ان سياسة ستالين الخارجية لم تكن وليدة خطة معدة سلفاً بقدر ما كانت حصيلة ضغوط داخلية وخارجية متناقضة . وإذا به الآن ، كما كان في السابق في أكثر من مناسبة ، مسخراً للاحداث التي تتحكم به أكثر مما هو قادر على السيطرة عليهـا والتحكم بها . سبق ان تعرضنا لبعض من الضغوط الداخلية . أما الضغوط الخارجية ، فقد تجلت في سلسلة طويلة من النزاعات والمشاحنات بين الدول الحليفـة غطت الاشهر الممتدة بين يالطا وبوتسدام ، وفي الخلافات الحادة التي نشبت في بوتسدام نفسها . فبالرغم من ان

الاتفاق على اقتسام مناطق النفوذ ومن سكوت ستالين حول الحرب الاهلية في اليونان ، احتجت القوى الغربية على التدخل الروسي في رومانيا وعلى التطورات الجارية في بولونيا ويوغسلافيا . وإذا بالخلاف حول دور الامم المتحدة ، الذي تمكنوا من ترقيعه في يالطا ، يظهر مجدداً الآن . وقد اعرب ستالين عن استيـــائه برفض اقتراح روزفلت بان يحضر مولوتوف المؤتمر التأسيسي للامم المتحدة في سان فرانسيسكو . ولم يسمح ستالين لمولوتوف بان يشرّف مؤتمر سان فرانسيسكو بحضوره وابهته إلا بعد وفاة روزفلت، في ١٢ نيسان ١٩٤٥ ، كبادرة ود من طرفه نحو الرئيس الاميركي الجديد . لا بد وان يكون ستالين قد احس في تلك الآونة ان حلفاءه يناورون لحرمانه من مواقع وافقوا في السابق على منحه اياها . وقد اعرب عن استيائه الصادق عندما قال لهاري ل. هوبكنز ، في آخر مقابلة له معه : « بالرغم من ان الروس شعب طيّب ، فقد اخطـأ الغرب أكثر من مرة إذ اعتبرهم مجرد شعب احمق » .

اخذ تحالف « الثلاثة الكبار » بالانحلال حتى قبل ان يتسنى له ان يتبلور اصلاً . ومن السخف بمكان ان نحاول تحديد مسؤولية طرف من الاطراف في خرقه . إذ يتعذر علينـا اكتشاف اول « ناكث للعهد » وسط متاهة من الروايات والاتهامات المتناقضة . والواقع ان التزامات الحلفـاء غامضة ومليئة بالثغرات بحيث يستطيع أي منهم تبرير سلوكـه بالاعتماد على النصوص الحرفية للمعاهدات . الجوهري في الامر ان التناقض الاساسي بين الحلفــاء أدى حتماً بهذا الطرف أو ذاك ، أو بـكليهما معاً ، الى التخلي عن التعهدات والالتزامات المتبادلة . ففي « زواج المتعة » هذا كان فكرة الطلاق المحتوم تجـول بخـاطر كل طرف منذ البداية ؛ فراح كل منهما يزن المنافع والمضار المترتبة على هذا الطلاق .

كان الاتفـاق على اقتسام مناطق النفوذ مصطنعاً الى درجة تولـّد عنه الندم والتعديل في موقف ، بالرغـم من ان بعض بنوده بدت للوهلة الاولى جذابة جداً للموقعين عليه . فمن غـير المعقول ان يوافق زعماء الرأسمالية الليبرالية على التنازل عن تلك المساحات الشاسعة من الاراضي لصالح السوفييت . وحتى لو افترضنا ان تشرشل وروزفلت تمكنا من التغلب على حساسية كل منهما حول هذا الموضوع ، فلم يكن بمكنتهما تجاهل قطاعـات واسعة من الرأي العام في بريطانيا وأميركا تعترض بعنف على عقد الصفقات مع ستالين ،

إما بسبب عدائها الرجعي للثورة الاجتماعية في اوروبا الشرقية ، وإمـا بسبب شعور ديمقراطي بالنفور من الدولة البوليسية معتبرة اياها الوليد الشرعي لهذه الثورة . والارجح ان قطاعات واسعة من الرأي العام السوفييتي اعتبرت هذه الصفقات شاذة بعض الشيء ؛ وقد تمكنت من ممارسة الضغط اللازم بأساليب ملتوية وغير مباشرة بالرغم من الصعوبات التي تمنعها من التعبير عن نفسها . والواقع ان صمت صحافة موسكو ازاء الحرب الاهلية في اليونان والاعتدال الغريب في مواقف الشيوعيين الفرنسيين والايطاليين قـد حيّر عدداً كبيراً من البلاشفة — لكن تلك القضايا كانت بعيدة نسبياً عن اهتماماتهم المباشرة . فالاهم هو ما يجري في الاقطـار التي تحتلها روسيا . ولقد ساد جيوش الاحتلال السوفييتية ، وبخاصة الضباط والجنود ذوي الالتزام السياسي ، والاعضاء العاملين في الحزب ومنظمات الشبـاب (الكومسومول) شعور بالاستياء والمرارة بسبب السماح باستمرار النظـام الرأسمالي في الاراضي التي تفرّد الجيش الاحمر باحتلالها — وبأي ثمن ! — من النير النازي. هل يعقل ان يتحولوا — وهم الذين ترعرعوا في ظل الاشتراكية ومن اجلها ، رغم انتعاش النزعة التقليدية الاخير — الى مجرد حرّاس للرأسمالية في تلك المناطق ؟ — هذا هـو السؤال الذي طرحوه على انفسهم . علماً بان الرأسمالية هي التي مهدت الطريق للنازية في اوروبا ، وبانه لو سُمح لهـا بان تستعيد انفاسها فهي لن تقود اوروبا في طريق افضل لأن النازية — الفاشية ليست صدفة شاذة من صدف التاريخ الاوروبي وانمـا تعبير عن جوهر المجتمع الرأسمالي . ولعل اسوأ انتكاسة في «حربهم التحررية العظيمة» يكمن في اضطرارهم ، هم المنتصرون في هذه الحرب ، الى المحافظة على نظام لم يختبروا منه في السابق ولايستطيعون ان يتوقعوا منه الآن غير العداء السافر .

لم يكن بمقدور ستالين ان يتجاهل مثل هذه الآراء السائدة. ويبدو انه أراد المساومة معها بادىء بدء . فأطلق صيغة « الديمقراطيات الشعبية » . على هذا الاساس تقرر ان النظام الذي سيشاد في الاقطار المجاورة لروسيا لن يكون رأسمالياً ولا اشتراكياً وانمـا بين بين . يفترض البعض ، اعتماداً على التطورات اللاحقة ، ان الغرض من الشعار لم يكن سوى ذرّ الرماد في اعين البرجوازية ، وان هدف ستالين الاصلي هو اقامة نظام سوفييتي في تلك الاقطار . غير ان قادة الاحزاب الشيوعية حملت شعـار الديمقراطية الشعبية ، تميزاً له عن النظام السوفييتي ودكتاتورية البروليتاريا ، على محمـل الجد ؛ مناقشة ابرز المفكرين السياسيين الروس بجدية واهتمام . يجدر بنا ان نتذكر بهـذا الصدد ان ستالين

نفسه قد ربي على فكرة تدعو الى نظام لن يكون رأسمالياً ولا اشتراكياً ؛ فتلك هي الفكرة الكامنة وراء صيغة الدكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين التي التزم بها عام ١٩١٧ والتي عاد الى طرحها مجدداً خلال النقاش حول الثورة الصينية ، ١٩٢٥–١٩٢٧ . ويبدو ان الفكرة ذاتها راودت فكره مجدداً في نهاية الحرب .

كان يرى ان التبرير الرئيسي لهذا النظام الوسطي ، الذي راح يختبره الآن ، هو انه يسمح له بالمحافظة على السيادة المشتركة التي يمارسها « الثلاثة الكبار » على العالم . سرعان ما خاب امله . فالديمقراطية الشعبية تنطوي على قدر كاف من الثورية وعلى بصمة مطلقها الواضحة بحيث لم تحظَ بموافقة القوى الغربية . فتولد عنها كل التوتر والاحتكاك الذي اراد ستالين ان يتحاشاه . وهذا ما اوحى له بان القوى الغربية تعمل على حشد الاحزاب والمجموعات القديمة المعادية لروسيا على حدود هذه الاخيرة في محاولة لطرد النظام السوفييتي من اوروبا . فشاركه في هذا الرأي اصحاب النزعة التقليدية والبلاشفة على حد سواء . صمم ستالين على الحيلولة دون ذلك . في الماضي ، كان انتشار النفوذ الروسي مؤقتاً الى حد كبير ، وتعرض هذا النفوذ في البلقان لمد وجزر يتبعان الحالة السياسية لأنه لم يكن بمقدور روسيا القيصرية ان تجد لنفوذها جذوراً في البنية الاجتماعية للاقطار حيث تريد تغليب مصالحها . فلا النزعة السلافية ولا الديانة الارثوذكسية كافية لخلق اواصر متينة ودائمة . أما الآن ، فان تصاعد النفوذ الروسي قابل لأن يكتسب طابعاً دائماً شريطة ان يعتمد على الثورة وعلى تحويل البنية الاجتماعية لأقطار اوروبا الشرقية بحيث يتعذر على الضغط أو المناورة الدبلوماسيين زحزحتها . ومع احتدام الخلافات بين روسيا وحلفائها ، ازداد اقتناع ستالين بضرورة الاقلاع عن اختباراته في مجال الانظمة الوسيطة وتحويل « الديمقراطية الشعبية » الى مجرد واجهة يتستّر وراءها تفرُّد الشيوعيين بالحكم . فكان طبيعياً ان تؤدي كل خطوة خطاها في هذا المجال الى زيادة التوتر بين روسيا وحلفائها الغربيين .

في يالطا ، حثّ ستالين تشرشل على الافصاح عن هوية الدولة التي قد تطمح للسيطرة على العالم ، فرد تشرشل بالحديث عن النزاع الذي قد ينشب بين خلفاء القادة الكبار الذين اشرفوا على الحرب . اما في بوتسدام ، فقد تحدث القادة بقدر اكبر من الوضوح

والصراحة . هناك احتج تشرشل على المعاملة التي يلقاها الدبلوماسيون الانكليز في بوخارست فقذف بالعبارة التالية في وجه ستالين : « انهم مطوقون بسياج حديدي ! » . ثم تحول السياج الحديدي الى « الستار الحديدي » ، ليصبح موضوع خلاف اعظم . فاجاب ستالين للفور : « كلها خرافات ؟ » . وعندما تعرض للهجوم حول سياساته في رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا رد بهجوم مماثل على السياسة الموالية للنظام الملكي التي ينتهجها الانكليز في اليونان وهذا موضوع التزم الصمت المطبق حوله حتى ذلك الوقت . لكنه تراجع عن اتهاماته حالما اقلع الانكليز عن كيل الاتهامات للسياسة الروسية . غير ان شقة الخلاف ظلت تتسع باطراد . بعد فترة وجيزة من اجتماع بوتسدام ، طالب ستالين بمنحه قاعدة روسية على المضائق التركية – حلم القياصرة الذي لم يتحقق . وكان قد لاحظ في بوتسدام ان حلفاءه سيعملون على إفشال محاولاته هو ايضاً ، وبخاصة الطرف البريطاني الذي عمل في السابق على إفشال المشاريع القيصرية . بعد ذلك خلال النقاش حول وصاية الحلفاء على امبراطورية موسوليني في ايطاليا ، فاجأ ستالين شريكيه إذ طالب بان توضع احدى المستعمرات الايطالية تحت وصاية روسيا . صعق تشرشل للمطلب الجديد فاعلن انه لم يخطر بباله من قبل ان روسيا ترغب في « السيطرة على قسم من الساحل الافريقي » . فقد بدت هذه البادرة كتهديد للسيطرة البريطانية على البحر الابيض المتوسط . ولكن يبدو ان ستالين لم يكن يتوقع نيل موافقة الحلفاء على هذا المطلب بالذات ، ذلك ان الزمن الذي كانت له فيه اليد الطولى في فرض التسويات قد ولى الى غير رجعة . غير ان مطالبه كمجموع تنطوي على بذور الازمة حول « المسألة الشرقية » التي اساءت للعلاقات بين روسيا وبريطانيا طوال القرن التاسع عشر .

ومهما يكن من امر ، لم ينشب الخلاف بين الحلفاء على نسخة جديدة عن « المسألة الشرقية » . فمعظم خلافاتهم الحادة حول المانيا ، إن لم نقل كلها ، نشب من نقطة كانوا متفقين عليها : تصميمهم المشترك على المحافظة على الاحتلال العسكري لذلك البلد طوال سنوات عديدة . لم يجرؤ احدهم على تحديد مدة الاحتلال وموعد الانسحاب ، وبين الارقام المتداولة عشر ، عشرين ، ثلاثين وحتى اربعين سنة . وكان ذلك كفيلاً بحد ذاته ان يدفع بسياسة الحلفاء في اتجاهين متعاكسين كلياً . فبقدر ما تطول فترة الاحتلال التي ستضطرهم الى لعب دور الحكومة الالمانية ، في غياب حكومة المانية حقيقية ، بقدر ما سوف ينزع كل من القوى المحتلة الى قولبة الحياة الاقتصادية والسياسية للقطاع الذي تسيطر عليه من المانيا على

شاكلتها . فبديهي انه لا يعقل ان يرضى ضباط الادارة العسكرية السوفييتية بالاشراف على اقتصاد رأسمالي في المانيا الشرقية ، مثلما لا يعقل لزملائهم في الادارة العسكرية الاميركية ان يعيد تنظيم اقتصاد المانيا الغربية على اسس اشتراكية . وهكذا ، فان استمرار وجود القوات الحليفة في المانيا نزع الى شق البلد اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً .

غير ان المنتصرين كانوا قد تعهدوا بالمحافظة على وحدة المانيا وبممارسة وصايتهم المشتركة عليها لتحقيق هذا الهدف بالذات . وقد شددوا على ذلك في بوتسدام وانشأوا بالفعل « مجلس الوصاية التابع للحلفاء » الذي منح حق ممارسة السيادة الرسمية على كل اجزاء المانيا . ولكن الاطراف المعنية كانت قد ادركت في بوتسدام ان وصايتها المشتركة على المانيا لعبة « شد حبال » ليس الا . فلا الشرق ولا الغرب يريد السماح للطرف الآخر بان يملك الحق في التدخل بشؤون القطاع الذي يسيطر عليه . والواقع ان ستالين وضع شريكيه امام الامر الواقع عندما ضم المنطقة الواقعة الى الشرق من نهري الاودير والنياسي الى بولونيا . وقد عهد الى البولونيين ، شكلاً ، بمسؤولية الاشراف على تلك المقاطعات فقط . ولما عرض ستالين الموضوع على الحلفاء الغربيين وافقوا عليه ، ضمناً على الاقل ، بموافقتهم على طرد السكان الالمان من تلك المناطق . صحيح ان القوى الغربية وافقت على الامر الواقع شريطة عقد مؤتمر صلح يتولى رسم الحدود النهائية بين المانيا وبولونيا ؛ ولكن تحول هذا الشرط الى مجرد حبر على ورق عندما وافقوا سلفاً على طرد كل السكان الالمان القاطنين الى الشرق من نهري الاودير والنياسي . فاستخلص ستالين من تصرف الحلفاء انهم وافقوا على وضع لا يحق لهم فيه البت بالامور المتعلقة بالمانيا الشرقية . واتضح انه لا يحق لروسيا في المقابل التدخل في شؤون المانيا الغربية عندما رفضت القوى الغربية اقتراحات ترددت على لسان ستالين ومولوتوف في اكثر من مناسبة تدعو الى إشراك روسيا في الاشراف على اقتصاد منطقة « الرور » .

ومن العوامل التي عمقت انقسام المانيا المساومة الغامضة حول التعويضات . حاول ستالين في اجتماع يالطا نيل موافقة بريطانيا والولايات المتحدة على مطلب يقضي بان تدفع المانيا عشرة مليارات دولار كتعويضات لروسيا . فما حصل الا على وعد غامض من الرئيس روزفلت باعتماد هذا الرقم اساساً لنقاش لاحق . الا ان الدولتين الغربيتين رفضتا العودة لمناقشة الامر في اجتماع بوتسدام . ويعود ذلك جزئياً الى ان الروس كانوا

قد باشروا بتفكيك المنشآت الصناعية في المانيا الشرقية ونقلها الى روسيا ، هذا في حين لم يكن للبريطانيين او الاميركيين اية وسيلة لمراقبة هذه العملية . غير ان للخلاف الجديد سبباً اعمق . كان ستالين لا يزال يصر على خططه القاضية بفرض « سلم على الخط القرطاجي » ، بينما كان البريطانيون ، والاميركيون ايضاً ولكن الى حد اقل ، قد بدأوا ينفرون من فكرة تدمير قوة المانيا الصناعية . تمكنت الاطراف المعنية من ترقيع هذا الخلاف بعقد اتفاق في بوتسدام يجيز لكل من القوى المحتلة نقل المنشآت الصناعية واشباع حاجتها شرط ان يتم ذلك في القطاع الالماني الذي تسيطر عليه . والواقع ان هذا الاتفاق القى على كاهل كل من القوى الثلاث مسؤولية تدبير الشؤون الاقتصادية والاجتماعية في قطاعها . فجعل ذلك من المانيا الشرقية حقلاً لثورة ستالين « الفوقية » . وقد بدأت هذه الثورة بالفعل بعد فترة وجيزة من انتهاء اجتماع بوتسدام . وكانت خطوتها الاولى تتلخص في مصادرة اليانكرز البروسيين ، ملاك الارض الذين يشكلون العمود الفقري للادارة الالمانية وركيزة نزعاتها العسكرية . وهكذا قضى ستالين بشطحة قلم ، او ربما بغمزة واحدة ، على قوة اجتماعية رجعية جبارة تعذر على اليسار ازاحتها عن مقادير الحكم طوال ما يزيد عن القرن من الزمن . اما الخطوة الثانية فكانت تأميم بعض الصناعات في المانيا الشرقية . بينما قضت الثالثة بمنع الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وقد جرت عملية القمع هذه وراء ستار دمج المنظمتين الشيوعية والاشتراكية في حزب واحد هو حزب الوحدة الاشتراكية .

هكذا اتسعت رقعة الثورة الاجتماعية من نهر الاودير الى نهر الإلب . لم تكن تلك المرة الوحيدة في التاريخ الالماني التي شكل خلالها نهر الإلب الحدود الفاصلة بين نظامين متعارضين سياسياً واجتماعياً . ولكن ركائز الرجعية الالمانية في السابق كانت الى الشرق من الإلب ، بينما كانت رياح الاصلاح والثورة تهب عليها من الغرب بشكل خاص . والواقع ان النفوذ الاجتماعي للثورة الفرنسية ولاصلاحات نابليون لم ينتشر عبر النهر . كتعويض عن ذلك ، اندلعت الآن ثورة من الشرق واجتاحت البلد الى الإلب . لكن النهر لم يكن يفصل بين دولتين المانيتين . فقد بات الحد الفاصل بين « عالمين إثنين » . وبقدر ما كان ممثلو هذين العالمين يعربان عن استعدادهما لمواجهة بعضهما البعض عسكرياً على اي من ضفافه ، بقدر ما ازدادت امكانية تحول هذا الحد الفاصل الى جبهة قتال جديدة .

وقع في اجتماع بوتسدام حدث هام تضمن بذور اضطرابات وخلافات جديدة بين

معسكري التحالف المنتصر . على اثر جلسة خاصة حضرها « الثلاثة الكبار » وحدهم يوم الرابع والعشرين من تموز ، قال الرئيس ترومان لستالين ، بنبرة تكاد ان تكون جد عادية ، ان اميركا اكتشفت السلاح الذري . ويروي جايمس ف. بيرنز ان جواب ستالين الوحيد كان الاعراب عن سروره للسماع عن القنبلة وعن امله بان يشاهدها . لم يبدِ أي اهتمام زائد ولم يطلب اطلاعه على معلومات اضافية مما حدا بناظر الخارجية الاميركي الى الاستنتاج انه لم يدرك اهميـــة الاكتشاف أو انه ظن ان طرح المزيد من الاسئلة حـول موضوع محاط بستار كثيف من التكتم لن يكون لائقاً. ربما كانت الاستخبارات الروسية قد حصلت من المعلومات عن القنبلة أكثر مما افترض ترومان أو بيرنز ؛ وان تظاهر ستالين بعدم الاهتمام ناجم عن كونه لم يندهش كثيراً للخبر . من غير المعقول ان تفوته أهميـــة الاكتشاف ، نظراً لاهتمامه المنتظم والتفصيلي بالاسلحة التقنية ، ولاهتمام العلماء السوفييت ، شأنهم في ذلك شأن زملائهم في سائر الاقطار ، بموضوع فلق الذرة . وحتى لو انه لم يدرك مقدار اهمية الحدث فوراً ، فلا شك في انه ادرك في نهاية المؤتمر مقدرة السلاح الجديد ، الذي رجّح ميزان القوى العسكري فجأة لصالح الولايات المتحدة على تأزيم النزاع بين الحلفاء .

في يالطا ، لاحظ تشرشل انه اذا كان العداء لن ينشب بين الثلاثة الكبـــار الذين اشرفوا على الحرب ، فان ذلك قد يحصل في ظل خلفائهم. بدأت نبوءة تشرشل تتحقق ، ولو جزئياً ، في بوتسدام . فلم يحضر النصف الاول من الجلسات إلا اثنان من الثلاثـــة الكبار . أما في النصف الثـاني فقد حلَّ اتلي وبيفن محل تشرشل وايدن بسبب انتصار حزب العمال البريطاني في الانتخابات العامة . هذا لا يعني ان المجرى اللاحق لهذه المواجهة كان ليختلف كثيراً لو ان الشخصيات المشتركة بهـا لم تتبدّل . فتشرشل نفسه هو الذي قاد جوقة العداء السافر لستالين ؛ ولو ان روزفلت بقي على قيد الحياة لكان بدّل صورة نصير الصداقة الروسية ــ الاميركية المنطبعة في اذهان البعض . ومهما يـكن من امر ، فان تغيّر القادة ترك اثراً سلبياً مباشراً على مؤتمر بوتسدام ... « التحالف العظيم » آخذ بالانفراط .

●

الفصل الرابع عشر

جدلية الانتصار

عظمة الانتصار الروسي وبؤسه . ـ القومية والثورة في سياسة ستالين . ـ من « الاشتراكية في بلد واحد » الى « الاشتراكية في منطقة واحدة » . ـ ستالين مفجر الثورات الفوقية . ـ « الستار الحديدي » ، قصته ودلالته. ـ تأثير الغرب على روسيا . ـ ستالين وجوكوف. ـ نزعة احياء اللينينية . ـ معضلة العصر الذري : « عالم واحد ام عالمان ؟ » . ـ تقويم عام لحياة ستالين السياسية.

في الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٤٥ ، وقف ستالين على منصة ضريح لينين ليرى الاستعراض العسكري الكبير الذي نظمه الجيش الاحمر احتفالاً بالنصر في الذكرى الرابعة لهجوم هتلر . ووقف الى جانبه الماريشال جوكوف ، صانع النصر في موسكو وستالنغراد وبرلين . القوات التي تمر من امامه بقيادة الماريشال روكوسوفسكي . كان النهار ممطراً وأفواج المشاة والخيالة والمدرعات تلطخ ارصفة الساحة الحمراء بالوحل ، وهي ترفع عدداً لا حصر له من الرايات والاعلام المسلوبة من جيش هتلر ، ترمي بها عند اقدام ستالين عندما تصل الى محاذاة الضريح . وفي اليوم التالي ، اقامت موسكو حفلة تكريم لستالين لدفاعه عنها عام ١٩٤١ . وبعد يوم من ذلك ، مُنح ستالين لقب « بطل الاتحاد السوفييتي » ورتبة القائد الاعلى للقوات المسلحة .

كانت تلك ايام انتصار ومجد لا مثيل لها . ولكن نادراً ما تجاور الانتصار والخيبة بقدر ما تجاورا فيه في روسيا عام ١٩٤٥ ؛ ولعل التاريخ لم يعرف انتصاراً تعاقبت عليه العظمة والبؤس مثل هذا الانتصار .

الشعب يرعى ستالين بالتقدير والامتنان . وهذه مشاعر عفوية ، اصلية ، ليست موجهة من قبل اجهزة الدعاية الرسمية . واكتسبت الشعارات المنمقّة عن « منجزات العهد الستاليني » معنىً جديداً ليس في نظر الشباب وحسب ، بل وعند المتشككين والمتذمرين من ابناء الجيل القديم ايضاً . كانت الامة مستعدة لأن تغفر له حق مظالمه ، وان لا تستبقي في ذاكرتها غير مجهوداته الايجابية . وبما انه ليس انجح من النجاح ، فقد بدت اخطاؤه وأحكامه المغلوطة (بما في ذلك ما حصل بين ١٩٣٩ و ١٩٤١) وكأنها اجراءات سياسي حكيم . حتى اعماله الوحشية عام ١٩٣٦ بدت من منظار جديد على انها عمليات محمودة تدين شعوب الاتحاد السوفييتي لها ببقائها .

ان هذا التقويم الجديد لدور ستالين لم يتولد فقط من مراجعات انبثقت مع سكرة

النصر، فالواقع ان النصر ما كان ليتحقق لولا تصنيع روسيا الكثيف، وبخاصة مقاطعاتها الشرقية، ولولا قيام عدد كبير من المزارع المجمّعة . فلا فائدة كبيرة ترجى في الحرب الحديثة من فلاح الثلاثينات الذي لم يكن قد استعمل جراراً أو أية آلة زراعية اخرى في حياته . فكانت الزراعة المجمعة، بما تضمنته من انشاء محطات جرارات وآلات في جميع انحاء البلد، المدرسة الابتدائية التي تلقن الفلاح فيها دروس الحرب الممكننة . وبفضل الارتفاع السريع لمستوى التعليم، تمكن الجيش الاحمر من تجنيد احتياطي ضخم من الضباط والجنود الاكفاء . « اننا متخلفون عن البلدان المتقدمة بمقدار خمسين أو مئة سنة . وينبغي علينا اللحاق بها في غضون عشر سنوات لا أكثر . فإما ان ننجح في ذلك، وإما ان تسحقنا الدول المتقدمة » — هكذا تحدث ستالين قبل عشر سنوات بالتحديد من موعد هجوم هتلر على روسيا . وعندما استعاد عباراته الآن، فليس بوسع المرء إلا ان يدهش لهذه النبوءة التي تحققت على نحو مذهل، لهذه الدعوة للعمل التي جاءت في اوانها . ذلك ان تأخر روسيا في عملية تحديث اقتصادها لبضع سنوات كان كفيلاً بان يحوّل النصر الى هزيمة .

ولكن ينبغي ان نواجه كل ذلك بالثمن الفادح الذي دفعته روسيا لكي تحرز الانتصار: السبعة ملايين قتيل حسب الاحصاءات الرسمية، وقد يكون الرقم الحقيقي أكبر بكثير؛ ملايين العجّز والكسيحين؛ دمار معظم المدن والبلدات وقسم كبير من قرى روسيا الآسيوية؛ خراب الصناعة، يضاعف منه اغراق مناجم الفحم بالماء في حوض الدونيتز؛ تشرّد خمسة وعشرين مليون نسمة يعيشون في الكهوف والخنادق وأكواخ الطين ناهيك بالملايين الاضافية من الذين أُجلوا فيما بعد عن الاورال وما وراءه . وأخيراً ليس آخراً، تضمن ثمن النصر الانهاك الكامل لشعب حُرِم لعدة سنوات من مستلزمات الحياة الاساسية لصالح التصنيع والتسلح .

الامة كسيحة وجائعة . ولعلها تتوقع من النصر ومن حكومتها ان يجترحا لها المعجزات . انها تريد تعمير مدنها، واستعادة صناعاتها وزراعتها الى سابق نشاطها باسرع وقت ممكن . وتطالب بالحاح بالمزيد من الغذاء والكساء، والمزيد من المدارس، والمزيد من الرفاه . وهذا ما يتعذر بلوغه بسرعة نظراً لكون موارد روسيا مستنزفة ومبعثرة . البؤس الذي استجلبه النصر نافذ الصبر على نحو مضاعف، وليس بمكنة ستالين ان يخيب

الآمال ، فاضطر الى الاعتماد على الموارد الاقتصادية لأمم اخرى لكي يسرع في تعمير بلده ورفع مستوى معيشته .

نظرياً ، كان بوسعه تحقيق ذلك بطرق ثلاث، يستطيع ان يطلب المساعدة من حلفائه الغربيين ، ومن الولايات المتحدة بخاصة . وقد كثر الحديث عن المساعدات الاميركية لروسيا وعن التجارة الروسية - الاميركية عندما كان التحالف بين البلدين في اوجه . ولكن آمال التعاون الاقتصادي سرعان ما تبددت في غمرة التوتر والنزاعات التي سادت فترة ما بعد الحرب . ومهما يكن من امر ، ربما كان ستالين متردداً في جرّ بلده الى وضع من التبعية النسبية لا بد لأي مدين ان يجد نفسه فيه حيال دائنه . لذا ، فقد اقتصر اختياره على واحد من احتمالين : اولهما قومي في جوهره ، والثاني ثوري . ويتلخص الخط القومي في فرض الجزية على الامم المهزومة ، ونقل مصانعها الى روسيا ، واقتطاع اموال التعويضات من انتاجها الجاري ، والاستخدام المباشر لقوة عملها . أما الخط الثوري ، الذي لا يثمر إلا ببطء ولكن بثقة ،فيتلخص في توسيع قاعدة الاقتصاد المبرمج عبر اقامة ترابط اقتصادي بين روسيا وبين البلدان الدائرة في فلكها . فإلالحاق التدريجي لعدة بلدان صغيرة أو متوسطة بدائرة نظام الاقتصاد المبرمج كفيل بان يسرع في وتيرة التنمية في روسيا وفي هذه البلدان نفسها على حد سواء ، علماً بانها كانت ، صناعياً ، اكثر تقدماً من روسيا في الثلاثينات . لكن الشرط الاول لعملية الالحاق هذه هو تسلم الحركة الشيوعية للحكم في تلك البلدان . وعندما سلك ستالين هذا الخط ، كان يعترف ، ضمنياً ، بان قوى الانتاج في الاتحاد السوفييتي قد تمرّدت على حدوده القومية - على حد تعبير تروتسكي المفضل . فالنظام الاقتصادي الروسي في وضع يرجع من استعادته لوضعه السابق ومن تطوره اللاحق أمرين لا يمكن تحقيقهما بالاعتماد على طاقات البلد وحدها ، وإلا تكون هذه العملية بطيئة ومؤلمة ، ويرافقها مقدار من البؤس لا يقوى البلد المنتصر على تحمله .

هكذا نرى ان الخطين - القومي والثوري - يصطدمان حول عدة نقاط حرجة . لكن ستالين لم يعتمد واحدهما دون الآخر على نحو حاسم ، بل اعتمدهما كليهما . وإذا كان الخط القومي قد طغى خلال الحرب ، فالخط الثوري هو الذي طغى بعدها .

ولعل هذا التطور ابرز مفارقة في حياة ستالين السياسية المليئة بالمفارقات . فقد بشّر

طوال عقدين من الزمن بانجيل الاشتراكية في بلد واحد ، مؤكداً بالحاح على مقدرة الاشتراكية الروسية على الاكتفاء الذاتي . ووجه انظار روسيا بعيداً عن الثورة العالمية عملياً إن لم نقل نظرياً (أم تراها روسيا نفسها هي التي وجهت انظاره بعيداً عنها ؟) . وإذا به ، في غمرة الانتصار ، يرتد عما كان يبشر به ، عملياً وليس نظرياً ، فيهمل الدعوة القائلة باكتفاء روسيا الذاتي ويعيد لها اهتمامها بالثورة العالمية . فبدا وكأن البلشفية التي دارت دورة كاملة لتعود الى نقطة الانطلاق . تلك هي الجدلية العجيبة التي انطوى عليها انتصارُ ستالين ، والتي بدت وكأنها تحول هذا الانتصار الى انتصار لتروتسكي بعد موته . وبدا وكأن ستالين يتوّج كل جهوده وأتعابه وكل النزاعات التي خاضها والتصفيات بتبرئة خصمه الميت .

لكن هذه الاقوال ليست إلا بعض الحقيقة . لا شك في ان ستالين خلال عامي ١٩٤٥ - ١٩٤٦ لم يعد نفسه ستالين الذي عرفناه عام ١٩٢٥ أو عام ١٩٣٥ . فقد جرفه تيار الاحداث بعيداً جداً عن موقع كان يزعم عن حق انه موقعه . غير ان هذا التيار لم يعد به الى نقطة الانطلاق ، الى مفهوم الثورة العالمية الذي كان يشارك لينين وتروتسكي الايمان به ذات يوم. فقد استبدل نظرية الاشتراكية في بلد واحد بما قد يسمى «الاشتراكية في منطقة واحدة » . كانت الثورة الاشتراكية ، في نظر لينين وتروتسكي ، عملية مستمرة وشاملة في الجوهر لا ترتضي بهدنة طويلة الامد بين قوى الرأسمالية وقوى الاشتراكية المتناحرتين . ولم يكن هذا المفهوم يسمح بتقسيم مقصود لمناطق النفوذ بين النظامين المتصارعين . وفكرة السيادة المشتركة التي تمارسها الدول الكبرى على اساس هذا التقسيم بمثابة رفض لأي مبدأ اشتراكي ، من منظار النظرية البلشفية الاصلية . أما المفهوم الستاليني ، حسبما نستطيع استخلاصه من سياسات ستالين ، فهو لا يزال يعتبر ان الثورة العالمية عملية شاملة ، نظراً لأن التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية ملازم للحضارة الحديثة بأسرها ، تماماً مثلما كان التناقض بين الرأسمالية والاقطاع سابقاً. غير ان الصراع بين النظامين عملية مستمرة بالمعنى الفلسفي والتاريخي العام للكلمة ليس إلا. وقد يستغرق اجيالاً بأكملها . أما فيما يتعلق بواقع السياسة العملية ، فان تقطع العملية الثورية على نفس مستوى من الاهمية كاستمراريتها ، لا بل قد يكون أهم منها . والنزاع المسلح بين النظامين المتناحرين قد يفضي الى هدنة طويلة الامد ربما استغرقت بضع عقود من الزمن ، يكتسي التناقض بين النظامين خلالها طابع التنافس السلمي . فطبيعة العملية نفسها لا تفسح المجال

امام الاتفاقات والمبادلات بين الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية وحسب ، بل تحتّم وجودها ايضاً . لا بل هي تسمح بأكثر من ذلك . انها تسمح للدولة الاشتراكية بان تعقد الاتفاقات العملية كاقتسام مناطق النفوذ مثلاً ، تدعم الدولة الاشتراكية بمقتضاها مواقع الرأسمالية في جزء من العالم ، مقابل السماح لها بان تدعم هي مواقعها وان تنشر نفوذهافي جزء آخر .

ويرتبط بذلك تباين آخر في طريقة النظر الى الامور اظهرته احداث الاربعينات بحدّة . تعتبر النظرة البلشفية القديمة ان «الغرب المتقدم صناعياً» هو الارض الصلدة لبناء الاشتراكية . ان روسيا قد **بدأت** الثورة ، لكن واجب الغرب ان **يكملها** ، ان ينضجها وان **يبثّ** بالتالي بالروح الاشتراكية في اوصال «روسيا المتأخرة» . واذا بالستالينية تعتبر أن هذه النظرة الى الأمور قد أضحت بالية الى حدّ السخف ، من جهة لأن الغرب لا يزال عاجزاً عن القيام بثورته ، ومن جهة اخرى لأن أهمية الغرب بالنسبة للاشتراكية قد تضاءلت نتيجة تقدم روسيا الى درجة تبرر التخلي باطمئنان عن اوروبا الغربية للمعسكر الرأسمالي يحكمهافي ظل عملية اقتسام النفوذ الكبيرة الجارية. كانت أنظار لينين وتروتسكي شاخصة بالطبقات العاملة الالمانية والفرنسية والبريطانية بوصفها أداة الثورة في القرن العشرين ، اما أنظار ستالين فشاخصة أساساً بالثورات في وارسو وبوخارست وبلغراد وبراغ . فغدت الاشتراكية في منطقة واحدة – في المنطقة الروسية – الهدف الأعلى للستراتيجية السياسية الروسية طوال حقبة تاريخية كاملة .

إلا أن الفارق الكبير هنا يكمن في الأسلوب المتبع لتحقيق الثورة . كان البلاشفة القدامى يعلقون اماهم ، بشكل عام على الاندفاع الثوري عند الحركة العمالية العالمية . وقد اعتقدوا ان النظام الاشتراكي سوف يتولد عن التجربة الخاصة بكلٍ من الطبقات العاملة في الخارج وعن نضالها ؛ وأنه سيكون العمل الأكثر تعبيراً عن تقريرهم لمصيرهم الاجتماعي والسياسي . أي انهم ، بعبارة أخرى ، كانوا يؤمنون **بالثورة من تحت** – كما كانت انتفاضة عام ١٩١٧ . أما الثورة التي نقلها ستالين الى اوروبا الشرقية والوسطى فهي **ثورة من فوق** اساساً ، أمرت بها وألهمتها وسيّرتها الدولة الكبرى المهيمنة على تلك المنطقة . وعلى الرغم من أن الأحزاب الشيوعية المحلية كانت أداة تنفيذ الثورة ، إلا أن حزب الثورة العظيم – الذي يحركها من وراء الستار – كان الجيش الأحمر . هذا لا يعني

أن الطبقات العاملة المحلية لم تسهم في الانتفاضة . فلولا مساهمتها لانقلبت المحاولة الى مغامرة فاشلة. إذ يتعذر القيام بالثورة،أي ثورة، من فوق فقط، دون التعاون الاختياري لعناصر هامة من الأمة المعنية بالأمر . من هنا ، فان ما جرى داخل الفلك الروسي كان نصفه احتلال ونصفه الآخر ثورة. وهذا ما يجعل من تقويم هذه الظاهرة أمراً بالغ الصعوبة. فلو انها لم تكن أكثر من مجرد احتلال ، لكان من اليسير ادانتها على انها تسلط استعماري روسي . ولو انها كانت ثورة خالصة ، لما تورع عن الاعتراف بها جميع الذين يقرون بحق الأمم في القيام بثوراتها ، وهو حق لجأت اليه سائر الأمم . «الا أن الاشتراكية في منطقة واحدة» هي بالتحديد ذلك الخليط من الثورة والاحتلال .

ولم يكن اقدام ستالين على إشعال الثورات من فوق بحالة فريدة من نوعها في التاريخ الاوروبي الحديث فهو يحتل مكانه الى جانب نابليون وبسمارك ، رغم اختلافه عنهما في جوانب عديدة ، وما دوره هذا إلا حصيلة التلازم الخاص بين الثورة البرجوازية والثورة الاشتراكية في اوروبا ، وهو تلازم لم يظهر الا بعد الحرب العالمية الثانية . شهدت اوروبا خلال القرن التاسع عشر، انهيار النظام الاقطاعي خارج فرنسا وحلول النظام البرجوازي محله . لكن النظام الاقطاعي الى الشرق من نهر الراين لم يقوّض بسلسلة من الانتفاضات على غرار الثورة الفرنسية ، أو بقومات تعبّر عن غضبة الشعب ونفاذ صبره أو بثورات «من تحت» كالتي علق اليعاقبة الأمل على انتشارها عام ١٧٩٤ . بدلاً من ذلك ، جرت عملية تخريب الاقطاع الاوروبي ونسفه من الأساس بسلسلة من الثورات الفوقية . فنابليون، قاهر اليعاقبة في فرنسا، هو الذي نقل الثورة الى أراضٍ اجنبية ، الى ايطاليا والراينيلاند وبولونيا ، حيث الغى القنانة، كلياً او جزئياً ، ووضع شرعته الشهيرة التي الغيت بمقتضاها عدة امتيازات اقطاعية . فاذا به ينفذ بعض بنود وصية اليعاقبة السياسية رغماً عنه . ولعل الأدعى الى الدهشة هو أن بسمارك ، اليونكر(*) المحافظ ، قام بعمل مماثل عندما حرّر المانيا من بقايا الاقطاع التي تعيق نمو البرجوازية . لكن الجيل الثاني بعد الثورة الفرنسية شهد من الاحداث ما هو اكثر غرابة ، عنينا إقدام القيصر الروسي على الغاء القنانة في روسيا وبولونيا ، وهو اجراء لم يكن ليحلم به من قبل الا «اليعاقبة» . كان

(*) اليونكر هو النبيل الالماني مالك الأرض (المترجم) .

النظام الاقطاعي يحتضر ، وبعثه ضرب من المحال . غير ان القوى الشعبية التي تصدت له خارج فرنسا كانت ضعيفة الى درجة أنه تعذر عليها تقويضه « من تحت » ، فقضي عليه «من فوق» . والواقع ان الأثر الذي خلفه نابليون في البلاد المتاخمة لفرنسا لهو شديد الشبه بالأثر الذي خلـّفته الستالينية في بلدان اوروبا الشرقية والوسطى . فالعناصر الرئيسية للوضعين التاريخيين متشابهة : النظام الاجتماعي السائد في اوروبا الشرقية ، مثله مثل النظام الاقطاعي في الراينلاند ايام نابليون ، غير قادر على الاستمرار ؛ والقوى الثورية التي تصدت لهذا الترسب التاريخي ضعيفة بحيث تعذر عليها الاطاحة به . فاندمج الاحتلال والثورة بحركة واحدة ، تقدمية ورجعية في آن معاً ، تمكنت اخيراً من تغيير بنية المجتمع.

* * *

أما « التناقض الجدلي » الآخر الذي انطوت عليه الستالينية المنتصرة فهو يتعلق بـ « الستار الحديدي » ، أي بالعزلة الصارمة جداً عن العالم الخارجي التي فرضها ستالين على جيل سوفييتي بأكمله . والواقع ان هذه العزلة كانت ذات اهمية بالغة بالنسبة للمناخ السياسي والثقافي في روسيا السوفييتية . ويمكن اعتبار ستالين المهندس الرئيسي لـ «ستار الحديدي » . غير ان اسباب هذه العزلة والعناصر المكونة لها متنوعة ومختلفة ، ادى تفاعلها الى قيام « ستار حديدي » صلب جداً ، وقوي جداً ، ومنيع جداً .

ومن هذه العناصر موقف الدفاع عن النفس الذي اتخذته البلشفية بعد ان خابت آمالها بالثورة العالمية . فعزلت روسيا البلشفية نفسها عن العالم المعادي . ولم تختلف بذلك عن انكلترا ايام كرومويل أو عن فرنسا اليعقوبية . فقد عاشت انكلترا الكرومويلية تحت وطأة القلق والخوف من « التآمر الفرنسي » و « الذهب الفرنسي » اللذين يعملان ضدها . هذا في حين كان شبح « التآمر الانكليزي » و « الذهب الانكليزي » هو اللذي اقضّ مضجع فرنسا اليعقوبية . وفي كلا المناسبتين ، كان للامة الثورية ما يبرر مخاوفها ، فالتآمر والذهب الاجنبيين لم يكونا قط من نسج خيالها . وعلى الرغم من ذلك ، ففي كلا المناسبتين تضخم الحذر من العالم الخارجي وردة الفعل العدائية تجاهه . وتلك سمة مميزة لمشاعر الجماهير في أية حقبة من الحقبات الثورية .

وجاءت التقاليد الروسية المحلية تعطي هذا الاطار الذهني كل ابعاده . وقد فرضت التقاليد والعادات القومية نفسها بسهولة وفاعلية في هذه القضية ، كما في القضايا الأخرى ، وذلك لانها تلاءمت مع متطلبات الثورة آنذاك ، الحقيقي منها والوهمي . ان الاعتبارات العسكرية قد فرضت على روسيا عزلة طويلة عن الغرب « فالسهل الروسي لا يشتمل على حواجز طبيعية قادرة على صدّ الهجمات الخارجية » ، وقد اسهم في تدعيم هذه العزلة العداء المستحكم بين المذهب الارثوذكسي والمذهب الكاثوليكي وسعي الاستبداد القيصري الى الدفاع عن نفسة ضد تأثير الافكار الليبرالية والاشتراكية المتسربة اليه من جهة الغرب . صحيح ان الانتلجنسيا الروسية قد تمكنت من فتح ثغرات في جدار العزلة خلال القرن التاسع عشر ، لكن هذا النجاح بالذات ، الذي لم يتحقق الا بعد نضال مرير ، ما هو الا تأكيد لوجود العزلة أصلاً ، وظل الجدار قائماً رغم كل الثغرات المفتوحة فيه . واذا كان حكام روسيا البلاشفة قد حاولوا هدمه اول الامر ، فانهم ما لبثوا ان اكتشفوا الفائدة التي سوف يجنونها ليس من الاحتفاظ به وحسب ؛ وانما من سد ثغراته ايضاً .

اذا تطلعنا الى « الستار الحديدي » من منظار آخر ، تبدى لنا على انه منوّع من منوعات الحماية الاقتصادية . فما من امة حديثة كبرى ، باستثناء بريطانيا وهذا امر غريب حقاً – تمكنت من تطوير صناعتها دون ان تسور نفسها بحواجز جمركية مرتفعة وبسلسلة من اجراءات المنع الاخرى التي تمنع الدول الصناعية الاقدم منها من مزاحمتها . فوراء درع الحماية ، نمت الولايات المتحدة والمانيا حتى بلغتا طور النضج الصناعي . ولم يكن بدّ للاشتراكية في بلد واحد من ان تلجأ الى الوسيلة ذاتها . واذا كان رأس المال الاجنبي قد ساعد على تصنيع بعض الامم ، واذا كانت « الحماية » الجغرافية قد اسعفتها (كما بالنسبة للولايات المتحدة المترامية بين محيطين) . فان روسيا البلشفية لم تنعم بمثل هذه الامتيازات . فرأس المال لم يساعدها على تنمية ثرواتها . وما كادت تباشر حملة التصنيع جدياً حتى جوبهت بخطر نشوب حرب كونية جديدة ، فاضطرت الى تحويل القسط الاوفر من ثروتها لاغراض التسلح . وهذا عامل جعل من ثورتها الصناعية اعسر بكثير مما لو كانت الامور تسير على نحو مختلف ، ووسم حمايتها بسمة القساوة والشراسة الشديدتين .

وكان الكادح العادي اول من شعر بوطأة هذه القساوة وتلك الشراسة . لقد تولت

الحكومة وسلطات التخطيط التابعة لها مهمة توزيع موارد البلد على التنمية الصناعية والنقل ومكننة الزراعة والتسلح والاستهلاك الفردي . وبقدر ما تزداد المبالغ المرصودة للصناعة والتسلح ، بقدر ما يتقلص الحجم النسبي او حق المطلق للمبالغ المتبقية للاستهلاك الفردي . ذلك هو المنطق الاقتصادي للوضع بأبسط اشكاله . وهو منطق اضطرت الامم المتحاربة الى السير وفق احكامه المرة تلو الاخرى وعلى مختلف الاصعدة خلال سني الحرب العالمية الثانية ، علماً بان روسيا كانت قد اعتادت على تبعاته المرهقة قبل ذلك بسنوات . وضحت بمستوى معيشة غالبية الشعب ، وهو مستوى منخفض اصلاً ، خدمة لاغراض السياسة الوطنية العليا. لكن ما لبث ان تصاعد مؤقتاً في اواخر الثلاثينات بالرغم من ذلك . ثم نشبت الحرب فعانى من انتكاسة مروعة .

كانت غالبية الشعب الروسي تلاحظ التزايد المتسارع للثروة الوطنية ، وتتلفت حولها فتجد ان الغالبية الساحقة من المواطنين لا يزالون فقراء على الصعيد الفردي ، لا بل يتفاقم بؤسهم عاماً بعد عام . صحيح ان علماء الاقتصاد يعرفون ان هذا هو بشكل عام حال كل امة تقريباً خلال اضطلاعها بثورتها الصناعية . فجوهر سياسة الحماية ، كما طبقت في القرن التاسع عشر ، هو الحيلولة دون وصول السلع الاجنبية الرخيصة الى جمهور المستهلكين . وذلك بهدف صون طاقة الامة الصناعية وحفز تطورها . ولكن ، ما من امة عرفت تناقضاً فاضحاً بين تراكم الثروة الوطنية وتفاقم البؤس الفردي كما عرفته روسيا في عهد ستالين . والاهم من ذلك ان ما من امة اعتبرت مثل هذا التناقض جزءاً من سياسة اشتراكية ترمي الى الوصول الى مجتمع لا طبقي . لم يطلب ستالين من الطبقات الكادحة ان تثابر على الجهد الذي تبذله وان تتحمل التضحيات التي كانت تسخى بها وحسب ، بل راح يطالبها ايضاً بان تؤمن بانها تعيش حياة ايسر وافضل من حياة شعوب البلدان الرأسمالية . ولم يكن ذلك صحيحاً ، ولا كان بالامكان ان يكونه ، ولا يقع اللوم في ذلك على الاشتراكية ، على كل حال . فالخطأ يقع على ستالين ، إذا جاز التعبير ، لانه اصرّ على ان يصور للشعب الروسي ان مستوى معيشته البائس هو ذروة الإنجاز الاشتراكي .

وكان هذا التفسير المغلوط مصدراً لشبكة مذهلة من الخداع والرياء من نتائجها الاولى انها حرّمت على الجماهير الشعبية ان تقارن فعلاً بين مستوى المعيشة في روسيا ومستويات المعيشة في البلدان الاجنبية . وثانيها ان اجهزة الدعاية الروسية عملت طوال سنوات عديدة ليس على تجميل الظروف المعيشية في الداخل وحسب ، بل اصرت ايضاً على رسم

صورة مجسمة الى حد السخف عن بؤس الطبقة العاملة في الخارج . وثالثها ان المواطنين الروس منعوا ، قدر الامكان ، من دراسة الحياة الاجتماعية في البلاد الاجنبية سواء عن عن طريق التحري الشخصي او عن طريق مطالعة الصحف والكتب الاجنبية . فاضحى شاغل ستالين الاول ، على الصعيدين السياسي والاقتصادي ، المحافظـــة على « الستار الحديدي » .

بهذه الطريقة احكم عزل روسيا عن العالم ، وتحولت هـــذه العزلة الى كابوس رهيب خلال فترة التصفيات . وقد اسهمت شتى العوامل في اشاعة رعب قاتل من كل مـــا هو اجنبي : الصورة القاتمة التي رسمها المدعي العام – فيشنسكي – عن مؤامرة اجنبية شديدة الاحكام ، اضافت اعترافات المتهمين في القاء المزيد من الظلال السوداء عليهـــا ؛ انتماء المتهمين المزعومين الى كل خلية من خلايا جسم روسيا السياسي ؛ والعقوبات القاسية التي صدرت بحق « المتآمرين » فاعتقد الناس ان اي اتصال بالاجانب او بالشؤون الخارجية مهما يكن تافهاً ، هو اتصال مجلب للعدوى لا محالة . وظن الشيوخ ان كل ما في الامر لا يعدو كونه فخاً نصب للايقاع بهم ، فارتضوا العزلة بسبب الخوف. اما الشباب ،فاخذوا بالامور على سطحيتها ، فـكان رعبهم من الإثم الخارجي ، حليف الهرطقة الداخليـــة ، رعباً صادقاً . فهو جزء من حالتهم الذهنية الطبيعية ، جزء من شخصيتهم . فقد تعهدتهم الدولة الوحدانية منذ نعومة اظافرهم ، فلم تلقنهم الماركسية بشمولها ، بـــل بثت فيهم صيغة بيزنطية فظة عنها . فلم يسمح لهم بان يكتسبوا تقاليد وضع الحقائق السائدة موضع تساؤل ، ولا معاناة سجالات فعلية بين الاراء والمباديء المتضاربة ، ولا تجربـــة بلورة الاراء المستقلة . فاذا بالتصفيات ، اخيراً ، تكلس اذهان الجيل الجديد ، فتحول دون ان تتسلل اليه اي من التأثيرات الخارجية المزعجة .

والواقع ان « الستار الحديدي » ، المكون من هذه العناصر العديدة المتنوعة ، راح يلعب دوراً مزدوجاً : شطره الاول « تقدمي » ، وشطره الآخر « رجعي » . نعمت الثورة وراءه بشيء من الاستقرار ، فصار بمقدور الحكومة ان تنفذ مشاريـــع التصنيـــع والتحديث الموعودة . (اما بالنسبة للقيمة العسكرية لـ « ستار الحديدي » ، فقد تجلت الى حد ما خلال الحرب ، عندما اكتشف الجنرالات الهتلريون ، وهم على اهبة الهجوم على روسيا ، ان معلوماتهم عن عدوهم تــكاد تكون معدومة) . وفي الوقت ذاته ، كان

« الستار الحديدي » يحمي حكم ستالين الفردي واستبداده السافر وترهاته واضاليله . فبات بدوره المزدوج هذا شرطاً لا غنى عنه لبقاء الستالينية ذاتها .

وهذا ما اخذ الانتصار يهدد بنسفه . إذ وجدت روسيا نفسها منهمكة ، بالف شكل وشكل ، في حياة العالم الخارجي وشؤونه — فملايين الجنود الروس يعسكرون في عشرات البلدان الاجنبية ... وملايين الاسرى يعودون من المانيا بعد غياب طويل . والعديد من الضباط الروس يحتلون المقاعد على طاولات اللجان المشتركة التي شكلها الحلفاء ، فيتصلون يومياً بذلك العالم الخارجي الغريب . واذا بالـ « ستار الحديدي » مثقوب مصدوع ، يكاد يتناثر .

غير ان الاثر الذي تركه الغرب الرأسمالي على الروس لم يكن، باي حال من الاحوال اثراً ايجابياً على الدوام ، كما يميل بعض الغربيين الى الاعتقاد متسلحين شتى ضروب المديح الذاتي . تطلع الروس الى اوروبا ، فألفوها خراباً. ملايين النساء والرجال يعيشون، طوال سنوات ، وراء الاسلاك الشائكة في معسكرات الاعتقال ، او على مقربة من غرف الابادة بالغاز . فرأوا من الحضارة الاوروبية وجهها الكالح المريض ؛ لا وجهها النبيل الذي كان لها في السابق . فبدت صورة العالم الخارجية للعديد منهم على نحو ابشع من الصورة التي ترسمها اجهزة الإعلام في الداخل. وحتى الذين لم يعانوا من مثل هذه التجارب المريرة ، لم يقتنعوا بتفوق نسق الحياة الرأسمالي . فهم يعتقدون بأن مجتمعاً لا يسيطر على وسائل الانتاج هو مجتمع يرزح تحت وطأة الظلم الاجتماعي لا محالة ، هو تركة من تركات الماضي التي لا تثير الا الهزء والازدراء . ومهما يكن من امر ، فان الاتصال بالعالم الخارجي ادى الى تفكك العادات الفكرية التي تكونت خلال سنوات العزلة ، بل قضى عليها . فقد لاحظ الروس ان الاجانب ، حتى وسط اهوال الحرب ، ينعمون بمستوى معيشة ارفع من مستواهم(*) . اذهلتهم الرفاهية النسبية التي كانت الشعوب المهزومة

(*) خلال العشرينات ، اعتبر تروتسكي ان « ضغط السلع الرخيصة » التي تنتجها الدول الرأسمالية سوف يقضي على تجربة بناء الاشتراكية في بلد واحد . غير ان سياسة الحماية الاقتصادية التي اعتمدها ستالين ابعدت هذا الاحتمال عن روسيا ، واقامت سداً في وجه « فيضان السلع الاجنبية الحديثة » . ولكن ، عندما اتصلت روسيا باوروبا ، راحت تتحسس الضغط المعنوي الناتج عن هذه « السلع الرخيصة » ـ اذا جاز التعبير ـ عنينا مستوى المعيشة المرتفع الذي انتجته الرأسمالية . راجع : تروتسكي ، واقع الحال في روسيا ، ص ٨٣ .

لا تزال تنعم بها . ولاحظوا ، ليس بدون حسد ، ان البولونيين والمجريين والتشيكيين واليوغسلافيين ليسوا مقيدين قدر ما هم مقيدون، يواجهون عدداً اقل من الحواجز التي تحول بينهم وبين التعبير عن ارائهم . انهم باختصار ، يتمتعون بشيء من الحرية .

فتولد عن هـــذا الاحتكاك بالبلدان الاجنبية فوران فكري يمكن قياس اتساعه إذا علمنا انه مسّ ملايين الناس اصلاً ، فلم يتورع هؤلاء ، بعد عودتهم الى بلادهم ، عن رواية ما عانوه من تجارب الى الاهل والاصدقاء . ولكن لم يكن بالامكان ان ينجم عن ذلك تطورات سياسية فورية واضحة المعالم . ولا كان بامكان هذا الفوران ان يتبلور في افكار سياسية محددة ، فالمجموعات المستقلة أو المنظمات القادرة على بلورة مثل هـــذه الافكار كانت معدومة . فتعذر على الأمة ان تستعيد بسرعة عادات تكوين الآراء المستقلة الـــتي اضطرت الى التخلي عنها تحت اشد الضغوط . يبدو ان التطورات في افكار الامة كانت شبيهة بعملية خفية من عمليات « اعادة تقييم القيم » . ليس بمقدور احد ان يتنبأ بمداها أو نتائجها . وإذا بالتجربة الاخيرة تزيد في الحاح حاجة الامة الى تحسين اوضاعها المادية ، ولعلها حاجة لم تسدّها حكومة ستالين الا على نحو جزئي عن طريق جباية التعويضات من الامم المهزومة وإحياء الاقتصاد الوطني . والى جانب هذا التيار المتشبّث بالمصالح المادية ، برز تيار آخر من الحنين الى الحرية ينظر بفضول الى العالم الخارجي . ولكن ، لم تكن الحكومة في وضع يمكّنها من سد حاجاته . فلم يكن بد من ان يضفي الانتصار على الامة ، أو على الاقل على عناصرها الذكيـــة المتطلعة الى الامام — شعوراً بانها صمدت امـــام الامتحان الكبير ، وانها بلغت مرحلة النضج ، وتجاوزت طور الوصاية التي عانت منهـا الامرّين . وإذا كان يصح القول ان الامة ، في غمرة انتصارها ، باتت على استعداد لأن تغفر لستالين مظـالمه السابقة ، فانها لم تكن على استعداد قط لأن تسمح باعادة ارتكاب هذه المظالم بحقها مجدداً .

تحدثنا عن انعدام المجموعات والمنظمات القادرة على ترجمة الفوران الجديد الى افـكار سياسية . وهذا قول بحاجة الى تحديد . عند انتهاء الحرب ، كان سلك الضباط يمثل نواة تنظيم كهذا . وقد حللنا في فصل سابق الظروف التي حررتهم نسبياً من الضغط والتسلط ، سامحة لهم بان يكتسبوا هوية خاصة بهم . ولما وضعت الحرب اوزارها ، كان الضبـــاط قيادة الامة معنوياً ، يتطلعون الى قائدهم المارشال جوكوف، حامي موسكو وفاتح برلين

الذي لا يفوقه شعبية إلا ستالين نفسه . ولعل شعبية جوكوف أكثر اصالة عن شعبية ستالين لأنها تدين بشيء الى الدعاية الرسمية . وليس يعني ذلك ان جوكوف بات يهدّد مركز ستالين أو ينافسه عليه . ولعل بروز معارضة سياسية قد يستغرق ردحاً طويلاً من الزمن ، وثمة شك ، على كل حال ، في امكان بروزها وستالين بعد على قيد الحياة . ولكن على الرغم من عدم بروز خطر يتهدد مركز ستالين فعلاً ، فقد كان هذا شديد الاهتمام بان يقضي في المهد ، ولو على نحو اقل ضراوة من السابق ، على امكان تبلور حكومة بديلة لحكومته ، أو بروز خليفة لم يتولّى هو تعيينه . وهو في ذلك مثله في الثلاثينات .

لذا ، بات شاغله الشاغل اعادة الحزب الى المركز الذي كان يحتله سابقاً ، لا تنازعه عليه هيئة اخرى . وهكذا انخسف نجم الجنرالات والمارشالات المعروفين . وبعد مضي بضع اشهر على وقف اطلاق النار ، لم تكن اجهزة الاعلام الرسمية ترد على ذكر اسمائهم أو اعمالهم إلا نادراً . ولعل قائلاً يقول ان هذا امر طبيعي وخطوة حكيمة تتخذ في امة ليست خاضعة لحكم دكتاتوري عسكري . لكن في الامر اكثر من ذلك . ذلك ان لانطفاء نجم الضباط معنى سياسي . وهو خطوة مدبرة متصلة الحلقات . وقد اتضح ذلك عندما توارى المارشال جوكوف عن الانظار عام ١٩٤٦ . ومنذ ذلك العام ، راح الصمت يطبق تدريجياً على الدور الذي لعبه في الدفاع عن ستالنغراد أو موسكو في الروايات الرسمية عن الحرب ، الى درجة ان « البرافدا » احتفلت بالذكرى الثالثة لمعركة برلين دون ان ترد على ذكره ولو مرة واحدة (*) . هكذا اسقط اسمه من سجلات الحرب، مثلما اسقطت اسماء عديدة من سجلات الثورة .

تزامن الجهد الذي بذله ستالين لكي يعيد للحزب تفوقه المعنوي مع محاولة التصدي للجو القومي الذي ساد البلاد خلال السنوات المنصرمة والاستعاضة عنه بالنظرة الحزبية للامور . وراحت **النزعة الثورية** تسترجع المواقع التي كانت قد تخلت عنها ابان المعركة ضد **النزعة المحافظة** على الرغم من انها لم تتمكن من قمعها أو القضاء عليها نهائياً . فالسلم ،

(*) زعمت « البرافدا » في عددها الصادر في ٦-٥-١٩٤٨ ان ستالين هو واضع خطة احتلال برلين . وقد مر كتاب المقالات احتفالاً بالذكرى على اسماء عدة جنرالات اشتركوا في المعركة ، لكنهم اغفلوا ذكر جوكوف .

مثله مثل الحرب التي سبقته، يستتبع عدة تعديلات عقائدية في شتى ميادين الحياة العامة، السياسية منها والاقتصادية، في التأليف الفلسفي كما في التأريخ، في الادب كما في الفنون. فشنت حملة صامتة نقلت بموجبها كل مقدسات « روسيا الوطن الأم » الى الصفوف الخلفية قبل ان يمضي زمن طويل على توليها الصدارة بابهة لم يعرف لها مثيل، ثم ازيلت معالمها كلياً. فلم يعد ذكر اسمـاء كوتوزوف أو سوفوروف أو مينين أو بوجارسكي جزءاً من السلوك الوطني القويم. وأبطلت عادة تمجيد القياصرة العظام، من امثـال ايفان الرهيب وبطرس الاكبر، وقد كان المؤرخون والكتاب يمرّون على ذكرهم باجلال، ودونما حرج، معتبرين اياهم من اسلاف ستالين الروحيين. حتى الدعـاية المؤيدة للمدنية السلافية أخذت تتقلص. وبات الاعتقاد السائد انه لا يجوز لفت انظار الشعب الى الماضي الى هذه الدرجة. وبات احياء « الوعي البلشفي » المهمة الجديدة الـتي يطرحها الحكم على الجماهير. فصار لزاماً على النشء ان يقدر قيمة ما يميّز روسيا الحديثة عن روسيا القديمة. بدلاً من ان يحلّ ما هو مشترك بينهما، وان يدرك ما يدينه الاتحاد السوفييتي للاشتراكية وللصراع الطبقي والماركسية – اللينينية كما يفسرها ستالين. فاذا بحملة منظمة تشن تحت اسم حملة إحيـاء اللينينية.

ربما كان هذا الانعطاف، بوجه من وجوهه، ردة فعل اصلية ضد الافراط في الدعوة القومية ايام الحرب. وقد يكون ايضاً، بوجهه الآخر، تلبيـة لاعتبارات شخصية عند ستالين. ففي الفترة الممتدة بين ١٩٤١ و ١٩٤٣، كان ستالين لا يزال يطرب للمقارنة بينه وبين بطرس الاكبر، وللتشبيه بين حرب ١٨١٢ الوطنية وحرب ١٩٤١. فاذا به يتسلق مناكب الاجداد ليبلغ المركز الذي بلغه. لكنه بات بغنى عن ذلك كله بعد انتصاره في الحرب. فقد اضحى بطرس و كوتوزوف والكسندر اشبه بالاقزام إذا ما قورنوا بـه. أما ان يعرّف عن نفسه على انه خليفة لينين، فشيء آخر. ذلك ان لينين لم يفقد شيئـاً من مكانته في قلوب الناس. وبالاضافة الى هذه الاعتبارات، التي لا يسعنا إلا القـاء التكهنات بصددها، كان ثمة عامل آخر يدفع ستالين الى احياء اللينينية. إذ كان يأمل بان يتصدى بها للتأثيرات الجديدة التي تسللت الى روسيـا من الغرب الرأسمالي. فالدعاية القومية كافية لحث الشعب على القتال من اجل بقائه. لكنها ليست بكافية إطلاقاً لـكي تكسب الشعب مناعة ضد تأثيرات العالم الخارجي « الضارة » وبث الامل في أوساطه. فعلى ضوء العقيدة البلشفية وحدها، الـتي تبشر بحتمية اضمحلال الرأسمالية وانتصار

الاشتراكية ، يتسنى للحكم ان يبين لشعبه ان ما يجذبهم في الغرب ليس إلا اغلفة براقة تستر مرضاً خبيثاً لا دواء له . وحاول ستالين ان يبعث الاندفاع والعزم العقائديين اللذين اتسمت بهما الحركة الشيوعية في سنواتها الاولى وقد باتت على شفا الاضمحلال . وكان يرمي من وراء ذلك الى المحافظة على مواقعه ضد الغرب ليس خارج روسيا وحسب ، بل وفي داخلها ايضاً . وكان يأمل ، في استنهاضه لهذا الاندفاع وذاك العزم ، بان يرفع من معنويات الانتلجنسيا وان يحملها تتكيف مع اوضاع حكمه القاسية . وتقضي سخرية التاريخ بان يستنجد ستالين باللينينية لكي يسد الثغرات في « ستاره الحديدي » .

واتسمت هذه الجهود بسمة عبثية ، هي حصيلة التناقض الناضج بين سياسة ستالين الخارجية وسياسته الداخلية . فقد كانت السياسة الخارجية تقوم على الاحتفاظ بالوجود الروسي في اوروبا . هذا ، في حين تقوم سياسته الداخلية على صرف انظارها عن اوروبا. وهو يهدف الى ان يعيد عزل روسيا ليس عن ذلك الجزء من القارة الاوروبية الواقع تحت النفوذ الاميركي والبريطاني وحسب ، بل وايضاً عن الجزء الواقع تحت النفوذ الروسي . ذلك ان نسق الحياة في « الديمقراطيات الشعبية » وجوها الفكري يختلفان كثيراً عنهما في روسيا . ويعود ذلك جزئياً الى التباين في التقاليد القوميــة بين الروس والبولونيين والتشيكيين والمجريين واهــالي الصرب . حتى في روسيا نفسها ، استغرقت الاطوار التكوينية الاولى من الستالينية سنوات طويلة ، واستلزمت عدة انقــلابات عسكرية ورجات سياسية وتغيرات تدريجية بطيئة . فلم يكن بالامكان تصدير ما آلت اليه تلك التحولات المؤلمة على شكل انموذج جاهز تطبقه الدول الدائرة في الفلك الروسي . خلال ذلك الوقت ، ستظل الانظمة الاقتصادية لهذه البلدان — حيث تغلب الملكية الفردية في الزراعة وتعتمد في الصناعة وسائل متنوعة تفضي الى درجات متفاوتة من الفاعليــة — مختلفة عما هي عليه في روسيا. فلا يمكن تخفيض مستويات معيشة التشيكيين او البولونيين، وهي تقليدياً اعلى من مستوى معيشة الروس ، في سبيل التصنيع ، كما حدث سابقــاً في روسيا . وكل ذلك يهدد بتوليد « الانحرافات » عن السنّة القويمة . فالاتصال الفعلي بـين روسيا و « الديمقراطيات الشعبية » — اي حرية التنقل وتبادل الاراء — قــد يتحول بسهولة الى مصدر جديد من مصادر الغليان داخل روسيا نفسها . لذا ، اضطر ستالين الى اقامة « ستارين حديديين » ، واحدهما يهدف لعزل روسيا عن منطقة نفوذها ، والآخر لعزل منطقة النفوذ هذه عن الغرب . واذا كان « الستار الحديدي » الثاني هو الذي حظي

بالقدر الاكبر من الاهتمام لدى الرأي العام الغربي ، فلا يجوز ان ينسينا ذلك ان « الستار الحديدي » الاول كان اشدهما مناعة . ولكن يشك في ان هذا الجذر المزدوج قادر على ان يخدم ، بفاعلية ، سياسة تطمح الى ابقاء روسيا داخل اوروبا وخارجها في آن معاً .

* * *

غير ان المأزق الرئيسي الذي وقعت فيه الستالينية الظافرة يكمن في معضلة اشمل واخطر . فقد راهن ستالين بكل ما يملك على تثوير كل منطقة النفوذ الروسية . ويبدو انه كان يعتقد ان نجاحه في هذا الحقل سوف يمكنه من تأمين الهدنة العظيمة ، « التعايش السلمي » (على حد تعبيره) بين الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي . ولكن سرعان ما تبين ان هذين الهدفين – الثورة داخل منطقة النفوذ الروسية والتعايش السلمي بين النظامين – هما هدفان متضاربان ، يلغي واحدهما الآخر . فالهدنة بين الرأسمالية والشيوعية ، طوال فترة العشرينات والثلاثينات ، كانت تقوم على توازن قوى دقيق يكاد يستحيل استرجاعه . ومن عناصره الاساسية ضعف روسيا وانعزال اميركا . وكلاهما ينتمي الى الماضي . واي توازن قوى جديد يقتضي قبول الولايات المتحدة بتزايد نفوذ روسيا في الشرق ، وقبول روسيا بتزايد نفوذ اميركا في الغرب . وهو يتطلب كذلك قبول الطرفين بتكريس قسمة العالم الى مناطق نفوذ . وحتى لو انهما تمكنا من تحقيق ذلك ، يظل التوازن الجديد معرضاً للاختلال بسبب استقطاب القوة البالغ في العالم ووجود مناطق احتكاك على الحدود الفاصلة بين النظامين . والاهم من ذلك ان ما آلت اليه الحرب العالمية الثانية كان لا بد من ان يثير السؤال الثاني : الا يضيق العالم ، الواقف عند عتبة العصر الذري ، بوجود نظامين متناقضين ؟ ولم يكن هذا السؤال جديداً كل الجدة . فالتقدم في التقنية الصناعية ينزع منذ زمن طويل الى جعل الدول – الامم وحتى الامبراطوريات آيلة الى زوال . لكن التوسع المفاجىء لكل من النفوذ الاميركي والنظام السوفييتي ، الذي تزامن مع قيام ثورة جديدة في عالم التقنية الصناعية ، ما لبث ان اعاد طرح السؤال بالحاح شديد وبحدة لا تطاق . وبدا وكأن الستالينية المنتصرة ، مثلها مثل سائر الانظمة في العالم ، تقف مكتوفة الايدي ازاءه .

* * *

هنا نعلق سرد سيرة ستالين واعماله . لسنا واهمين حول مقدرتنا على ان نستجر منها خلاصات نهائية ، او على ان نبني على اساسها احكاماًقاطعة حول الرجل ، حول منجزاته واخفقاته . ويبدو ان حياته اخذت لتوها بالارتقاء نحو الذورة ، بعد كثير من الصعود والهبوط ؛ ولسنا ندري اي ضوء جديد قد يلقيه هـذا الفصل الاخير على الفصول السابقة .

من المؤكد ان ستالين ينتمي الى تلك الطائفة من المستبدين الثوريين التي تضم كرومويل ونابليون وبسمارك . ولكن يجدر بنا تحديد هذا القول بقدر ما يمكن من الدقة . ستالين رجل عظيم اذا ما قورنت منزلته بمدى طموحه وضخامة اعماله واتساع النطاق الذي يسيطر عليه . وهو ثوري كذلك ، ليس بمعنى انه ظل وفياً لكل الافكار الثورية الاصلية ، وانما لانه طبق مبدأ جديداً كل الجدة من مبادىء التنظيم الاجتماعي ، وبنى نظاماً لا شك في انه سيعمر ، ويغني التجربة البشرية ويفتح افاقاً جديدة امامها – بغض النظر عما قد يؤول اليه مصير ستالين نفسه او حتى مصير نظامه . ومن الانتصارات الاكيدة التي احرزها ستالين اضطرار عدد كبير من الحكومات الى الاقتداء به ، زاعمة انها هي ايضاً قد تبنت اساليب الاقتصاد المبرمج . واخيراً ، فان استبداده اللانساني لم يسىء الى منجزاته وحسب ، وانما قد يثير ردة فعل عنيفة ايضاً ضد هذه المنجزات نفسها ، وقد يلتبس عند اصحاب هذه الردة ، مؤقتاً على الاقل ، ما الذي يثورون عليه ، اهو استبداد الستالينية ام منجزاتها الاجتماعية التقدمية .

ويشتد بروز تعقيد شخصية ستالين ودوره عندما نحاول المقارنة بينه وبين هتلر . ان اوجه الشبه بين الرجلين عديدة ومذهلة . فكل منهما قمع المعارضة المحلية ضده دونما شفقة او وخز ضمير . وكلاهما اقام دولة توتاليتارية ، واخضع شعبه لتسلطه الدائم . كلاهما حاول ان يسجن فكر امته داخل قالب واحد ، بعد ان طهره من كل نزوة او تأثير « مشبوه » . وكل منهما ، اخيراً ، نصب نفسه سيداً على بلده لا ينازعه عليها منازع حسب مبدأ قيادي صارم (*) .

(*) لكن ثمة فارقاً بين النسخة النازية والنسخة الستالينية لمبدأ القيادة. كان اتباع هتلر يعبدونه بوصفه←

هنا تنتهي اوجه الشبه لتبرز اوجه الاختلاف . لم يتمكن هتلر من ان يدفع الامة الالمانية، في اي ميدان من الميادين، خطوة واحدة الى الامام بالمقارنة مع ما كانت عليه قبل تسلمه الحكم . وانما هو قد جرها ، في بعض الميادين، الى الوراء، بعيداً الى الوراء. بالرغم من الازمة الاقتصادية والارهاق والاضطراب الاجتماعيين ، كانت المانيا، عشية سيطرته عليها عام ١٩٣٣ ، بلداً غنياً مزدهراً . صناعته اكثر فاعلية من اية صناعة اخرى في اوروبا . وخدماته الاجتماعية احدث منها في اية امة اوروبية اخرى . وجامعاتها مراكز إشعاع علمي ، تفاخر بانها قد خرجت اشهر رجالات العلم . والقسم الاكبر من النشء الالماني جاد، يقظ ، ومتطلع الى امام . المسرح الالماني موضع اعجاب وتقليد من قبل العالم باسره . وكبريات الصحف الالمانية المع صحف اوروبا واكثر اطلاعا .

اما المانيا بعد هتلر ، فباتت بائسة ومتقهقرة الى عهد همجي . ولسنا هنا نتحدث عن هزيمة المانيا وانما عن وضعها ذاته بغض النظر عن هذه الهزيمة ، فقاعدة الانتاج المادي التي كانت الامة تتمتع بها في ظل الحكم الهتلري لم تكن متفوقة بكثير عما كانت عليه من قبل ، باستثناء الصناعة الحربية طبعا . خدماتها الاجتماعية شبه معدومة . جامعاتها مراكز تدريب جيل من الوحوش البغيضة . وابرز رجالات العلم فيها مضطرون للهجرة او الى الرضوخ لتسلط اجهزة المخابرات والتصفيق للهستيريا العنصرية . اطباؤها يتحولون الى اختصاصين في النقاوة العنصرية للدم البشري والى سفاحين يقتلون اصحاب الدماء الملوثة . اما في محراب الفلسفة الوطنية ، فقد تربع الفرد روزنبرغ على الكرسي التي كان يحتلها عمانوئيل كانط . بعد اثنتي عشرة سنة من « ثقافة » توزعها اجهزة الصحافة والراديو والسينما والمسرح النازية ، بات فكر المانيا الجماعي سخيفاً مدمراً . ولم يكن ليعوض على كل هذه الخسائر مكسب ايجابي واحد او فكرة جديدة ، اللهمّ الا اذا اعتبرنا الفكرة القائلة بتفوق امة او عرق ما على الامم والاعراق الاخرى وبحقها في افنائها ، فكرة جديدة . ولم تحدث الاشتراكية الوطنية تغيراً اساسياً في بنية الامة

← نصف اله، دونما تردد، ذلك ان عبادة البطل تتناسب كلياً مع النزعة العرقية الصوفية. إما عبادة ستالين، فقد استحال تكييفها مع واقعية العقيدة الماركسية ، اللينينية . فلم يؤله ستالين بوصفه بطلا اسطورياً وانما بوصفه حارس العقيدة ، وحامي حمى الثورة ، ورمز السلطة . وقد فرضت عليه الماركسية ان يستر سلطته الشخصية وراء براقع السلطة الجماعية للمكتب السياسي او اللجنة المركزية .

الاجتماعية . فما ان انهارت الواجهة النازية ، حتى تراءى لانظار العالم ان البنية القائمة وراء هذه الواجهة لا تكاد تختلف على بنية المانيا الاجتماعية قبل هتلر : صناعيوها الكبار (كرّوب وثيسنس) ، والنيكرز ، والطبقات الوسطى ، والعمال الزراعيون والعمال الصناعيون . من منظار سوسيولوجي ، لا سياسي ، لم تكن المانيا في عام ١٩٤٥ بمختلفة عنها ايام حكم سلالة الهوهنزولرن وقد رمى بها بلبال مأسوي عابث في خضم الفوضى والاضطراب .

اما في روسيا الستالينية ، فاننا نلقى وضعاً مختلفاً كل الاختلاف . يمكن القول بثقة ان الامة التي تسلم ستالين زمام الحكم فيها كانت امة همجية ، باستثناء قلة من المثقفين والعمال المتقدمين . لا ينطوي القول حكم على الشخصية القومية الروسية ، فواقع روسيا « الآسيوي المتخلف » هو مأساتها ، ولكن ليس يقع الخطأ من وجوده عليها . وقد اضطلع ستالين بمهمة القضاء على البربرية في روسيا بوسائل هي نفسها بربرية — على حد قول العبارة الشهيرة . وبسبب طبيعة الاساليب التي اعتمدها لتحقيق هذا الغرض ، فان العديد من القيم البربرية التي قذف بها خارج حدود روسيا ، ما لبثت ان تسللت مجدداً الى صلب الحياة الروسية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد احرزت الامة تقدماً هائلاً في معظم ميادين حياتها . فقاعدة الانتاج المادي ، وقد كانت عام ١٩٣٠ متخلفة عن مثيلتها في أية امة اوروبية متوسطة الحجم ، اتسعت بسرعة بحيث باتت روسيا اول قوة صناعية في اوروبا ، والثانية في العالم . وفي غضون فترة لا تتجاوز العقد من الزمن ، تضاعف عدد مدنها وبلداتها ، وارتفع عدد سكان المدن بنسبة ٣٠ مليون نسمة . وتضاعف عدد المدارس لمختلف مراحلها على نحو مذهل . الامة بأسرها تتلقى العلم . وقد تفتح ذهنها بحيث يكاد يستحيل اعادته الى واقعه الراكد السابق . وقد شحذت حكومة ستالين تمطش الاهالي المعرفة ، في حقلي العلوم والآداب ، الى درجة انهم باتوا لا يشبعون ، لا بل اضحوا محرجين في تطلبهم . وتجدر الملاحظة هنا انه بالرغم من العزلة التي فرضها ستالين على روسيا ضد تأثيرات الغرب المعاصرة ، فقد رعى وشجع ادنى بادرة اهتمام بما يسمى « التراث الثقافي » الغربي . ولعل ما من بلد في العالم شجع نشأه على احترام الادب والفنون الكلاسيكية للامم الاخرى والشغف بها بقدر ما فعلته روسيا . وهذا يشكل فارقاً اساسياً بين الاساليب التعليمية النازية والاساليب التعليمية الستالينية . والفارق الآخر هو ان ستالين لم يحرّم على الجيل الجديد ان يقرأ ويدرس الآثار الادبية الكلاسيكية التي لا تتفق مع وجهة نظره العقائدية ، كما فعل هتلر في المانيا . وفي حين كان ستالين يضطهد

الاحياء من الشعراء والروائيين والمؤرخين والرسامين وحتى المؤلفين الموسيقيين ، كان يعرب إجمالاً عن اعجاب يبلغ حد التقديس بالموتى منهم . فوضع بين ايدي الشباب ، بل فرض عليهم فرضاً ، ملايين النسخ من اعمال بوشكين وغوغول وتولستوي وتشيكوف وبيلنسكي وغيرهم ممن تحمل سخريتهم من الانظمة الاستبدادية السابقة ونقدهم لها الكثير من الدلالات التي لا تزال تنطبق على الحاضر . لم تُحرق كتب ليسينغ اوهاين في روسيا ، بل حرقت في المانيا . وليس بمقدورنا ان ننسى ان المثال الذي دافعت عنه الستالينية ، وهو مثال عبّر عنه ستالين بشكل مشوّه جداً ، لم يكن مثالاً يدعو الى سيطرة الانسان على الانسان او أمة على اخرى أو عرق على عرق آخر ، بل كان المساواة الاساسية بين البشر .. وحتى دكتاتورية البروليتاريا ليست أكثر من مرحلة انتقال الى مجتمع تزول فيه الطبقات ، فالهدف اذن ليس التسلط والدكتاتورية ، بل هو بناء مجتمع من الافراد الاحرار المتساوين . لهذا السبب ، فان الميراث الثقافي الستاليني ينطوي على عناصر ايجابية ثمينة ومتعددة ، وهي عناصر قابلة ، على المدى الطويل ، لأن تتغلب على ما فيه من سلبيات .

وأخيراً ، فان بنية المجتمع الروسي بأسره قد عانت من عملية تغيير عميقة ومتعددة الجوانب بحيث يتعذر العودة الى الوضع السابق . قد نتخيل ردة فعل عنيفة تتولد عند الشعب الروسي ضد حالة الحصار التي فرضت عليه منذ امد طويل . وقد نتخيل ايضاً عملية شبيهة بعملية تجديد سياسي . لكن المؤكد ان عملية التجديد هذه لن تمس من المجتمع الروسي إلا سطحه ، وانها ستقف عاجزة حيال منجزات الثورة . فالواقع ان القول بان « عشرين سنة من النضال قد حققت من المنجزات ما لم يحققه عشرون جيلاً » — هذا القول ينطبق على روسيا الستالينية أكثر مما ينطبق على اية امة ثورية اخرى .

لكل هذه الاسباب ، لا يجوز تصنيف ستالين الى جانب هتلر في قائمة الطغاة الذين لم يخلفوا إلا الدمار والعبث . كان هتلر زعيم ردة عقيمة ضد الثورة ، في حين ان ستالين هو الرجل الذي قاد واستغل ثورة خلاقة مأساوية ومتناقضة في آن معاً . وقد بدأ ، مثله مثل كرومويل ونابليون وروبسبيير ، كخادم من خدام الشعب الثائر ، ثم ما لبث ان نصّب نفسه سيداً عليه . ومثل كرومويل ، جسّد ستالين استمرارية الثورة خلال كل اطوارها وتحولاتها بالرغم من انه كان مغموراً بعض الشيء أول الامر . ومثل روبسبيير استنزف ستالين كل طاقات حزبه . ومثل نابليون ، بنى امبراطورية نصف محافظة

ونصف ثورية ، ونقل الثورة الى ما وراء حدود بلاده . ومن المؤكد ان الجوانب الايجابية مما انجزه ستالين ستبقى بعد فنائه ، كما كان الحال بالنسبة لكرومويل ونابليون . ولكن ، لكي يتسنى للتاريخ ان يحتفظ بمنجزات ستالين للاجيال القادمة مستخرجاً منها كل ما تحتويه من قيمة ، فلا بد له من ان يغربلها ويعيد تصنيفها بنفس الحزم الذي مارسه بالنسبة للثورة الانكليزية بعد كرومويل وللثورة الفرنسية بعد نابليون .

●

الفصل الخامس عشر

سنوات ستالين الاخيرة

(*) أضيف هذا الفصل الى الطبعة الجديدة الصادرة عن دار Penguin عام ١٩٦٦ .

حملت سنوات ستالين الاخيرة تتويج اعمال الرجل وانهيارها في آن معـــاً . الفصول السابقة من دراما حياته السياسية تتكرر في الخاتمة . والمسرح الشاسع اصلاً حيث يمثل دوره يتسع أكثر فأكثر بحيث يبدو ازاءه من هُم اعظم من ستالين كمجرد اقزام . النزاع بين الاتحاد السوفييتي وحلفائه السابقين يشمل نصف الكرة الارضية . وها ان الثورة الصينية تبلغ نهايتها المظفرة فتقضي على عزلة الاتحاد السوفييتي وعلى « الاشتراكية في بلد واحد » وتطغى على كل الثورات الهشّة التي مهّد لها ستالين في اوروبا الشرقية . غيّرت الثورة الصينية بضربة واحدة ميزان القوى في العالم ؛ وحوّلت الستالينية – بما تنطوي عليه من نزعة اكتفاء ذاتي قومي ومن انانية مقدسة – الى مجرد ترسّب مؤذٍ من ترسبات الماضي .

في الوقت ذاته كانت التغيرات التي شهدها الاتحاد السوفييتي تنخر اسس الستالينية من الداخـــل ، ببطء ولكن باطراد . الامة تختبر من جديد بعض التجارب التي عرفتها في الثلاثينات ، فالحرب قد قذفت بها اشواطاً الى الوراء وأعاقت نموّهـــا . عمد ستالين الى اطلاق عمليات « التراكم الاولي الاشتراكي » للمرة الثانية . فلم يترك للشعب برهة واحدة يستريح فيها من عناء الحرب وويلاتها . اضطر الى تعبئتهم من جديد والى استخلاص كل ذرة نشاط عندهم من اجل احياء الصناعة المخرّبة أو العاملة فوق طاقتها ومن اجل تعمير عشرات المدن والبلدات المدمرة . فجابه انهاك الشعب الكامل بصرامة لا تلين . فجندهم وضبطهم من جديد فارضاً عليهم اقسى التشريعات الاستثنائية وقوانين العمل ، مخضعاً اياهم لرقابة بوليسية شاملة ، باذلاً كل ما في وسعه للقضاء على اية بادرة معارضة أو هرطقة .

غير ان التاريـخ لم يكن يعيد نفسه وحسب . لم تتراجع الامة الى حقبة سالفة من حقبات تاريخها . وإذا كانت قد خسرت الكثير خلال مجازر الحرب وما رافقها من عمليات

اجتياح واسعة النطاق ، فقد غنمت الكثير ايضاً وراحت تخطو خطوات واسعة وسريعة على طريق استعادة حيويتها ونشاطها السابقين . تصنيع الجمهوريات والمقاطعات الشرقية يسير بوتيرة متسارعة . الاراضي الواقعة وراء الاورال والفولغا، حيث كانت مستودعات الجيش الاحمر منذ الغزو الالماني ، تتحول الى قاعدة الانطلاق لاعادة بناء الاقتصاد الوطني تعضدها في ذلك التعويضات التي تجبى من المانيا والدول المهزومة الاخرى . ولعل الاهم من ذلك كله ان وجه الامة الثقافي والسياسي تغير كلياً . اشرنا سابقاً الى الاثر الايجابي الذي تركته تجارب الاعوام ١٩٤١ – ١٩٤٥ على معنوياتها ، والى الفوران الذي احدثته في حياتها الفكرية . فاذا باستمرار تحديث المجتمع وتعميم التعليم يعززان هذه الاتجاهات بالرغم مما تعرض له الرأي العام الشعبي من عمليات قمع محزنة خلال السنوات المؤلمة الاولى التي اعقبت نهاية الحرب .

كعادته ، سعى ستالين الى قطع الطريق على ارهاصات هذا الوعي الاجتماعي الجديد في محاولة منه للقضاء عليه نهائياً. وقد دفعه قلقه الشخصي وحرصه على الاحتفاظ بالقالب « الوحداني » الذي قسر حياة الامة فيه ، الى محاولة استحضار اشباح التصفيات الدموية الكبرى . فلم يدرك انه بتشجيعه لعمليات تحديث المجتمع وبتعميمه التعليم انما يساهم هو نفسه في « تسميم » الرأي العام الشعبي وفي تمهيد السبيل لانعتاق روسيا من الستالينية . وبسبب عجزه عن ادراك مدى تعارض اساليب حكمه ومبادئه المحنطة مع واقع الحال الراهن ، وبسبب احاطته لنفسه بغيوم متكاثفة ومعمية من بخور التبجيل ، قضى اعوامه الاخيرة في غربة قاتلة ليس فقط عن عصره وانما عن نظام حكمه ايضاً .

* * *

ان الذين توارثوا الحكم بعد ستالين ، وقد كانوا خدّامه الطيّعين مدى حياته ، شاؤوا بعد مماته ان يصوروا آخر سني حياة الرجل بألوان قاتمة مشددين على استهتاره بآلام الشعب وعجزه عن تفهم الامور وعدم جدارته في تصريفها . تنطوي هذه الشهادات على بعض الحقيقة ولا شك . لكنها تنطوي كذلك على مفارقة ساخرة يراد منها تضخيم فضائل الخلفاء عن طريق تضخيم مساوىء السلف . في فترة ما بعد الحرب ، كان ستالين لا يزال يتصرف بمزيج من البسالة والجبن ، والجدارة السياسية والطيش ، وبُعد النظر

وقصره – تلك الصفات التي طبعت شخصيته طوال حياته السياسية . ومما لا شك فيه ان اعماله كانت مدعاة للاعجاب في اكثر من جانب .

في التاسع من شباط عام ١٩٤٦ ، اعلن ستالين في احدى خطبه « الانتخابية » مباشرة العمل باول خطة خمسية بعد الحرب ، وحدد الاهداف العامة للخطط الخمسية المقبلة التي قد يصل عددها الى ثلاث أو يزيد . وأشار الى ان شعوب الاتحاد السوفييتي لن تبلغ الامن والطمأنينة والرفاه إلا بعد تحقيق اهداف هذه الخطط . وشدد على ضرورة المواظبة على بناء القوة الاقتصادية السوفييتية بحيث تتمكن خلال خمس عشرة سنة من انتاج ٦٠مليون طن من الفولاذ و ٥٠٠ مليون طن من الفحم و٦٠ مليون طن من النفط سنوياً . وأردف قائلاً : « اذ ذاك فقط نضحى بمأمن من أية مفاجأة قد نتعرض لها » . وفي حديث آخر له بعد بضعة اشهر من تفجير اول قنبلة ذرية على هيروشيما وناغازاكي ، ألمح الى الخطر الجديد الذي بات يتهدد روسيا من جراء احتكار الولايات المتحدة للسلاح النووي ،وأهاب بالشعب ان يرد على التحدي الاميركي .

ظن الكثير من الناس ان هذا البرنامج الطموح بعيد عن الواقع . فالعمال الذين يتوجه اليهم ستالين جياع ، ذلك ان الاستهلاك في المدن تقلص بنسبة ٤٠ ٪ عما كان عليه في عام ١٩٤٠ ، وهو عام من الحرمان الشديد على كل حال . عمال المناجم في منطقة حوض الدونتز ما زالوا ينضحون المياه التي تغمر مناجمهم ، ويستقبلون كل طن يستخرجونه استقبالهم لكنز نادر . مصانع الفولاذ ، التي تستخدم النفايات المعدنية كمواد اولية ، تنتج حوالي ١٢ مليون طن من المعدن غير الصافي ، وهي نسبة ضئيلة جداً اذا ما قورنت بالانتاج الاميركي . اليد العاملة المراهقة شبه الماهرة تسيّر الصناعات الهندسية . الشعب يرتدي الاسمال والعديد من افراده حفاة . فبدت الدعوة الى اللحاق بالولايات المتحدة اشبه بالمزحة . ولكن الاتحاد السوفييتي تمكن ، رغم ذلك كله ، من بلوغ الاهداف الصناعية التي عيّنها له ستالين قبل الوقت المحدد . فقد انتجت مناجم الفحم ٥٠٠ مليون طن بعد اثنتي عشرة سنة فقط . وبلغ منتوج النفط ٦٠ مليون طن بعد ست سنوات ، كذلك بلغت صناعة الفولاذ الستين مليون طن المحددة لها قبل نهاية الخمسينات من هذا القرن . وخلال الفترة ذاتها ، ارتفع منتوج الاسمنت والانشاء الصناعي بنسبة تزيد عن اربعة اضعاف ، وتضاعفت نسبة استخدام الكهرباء للعامل الواحد ثلاث مرات ؛ كما ازداد

منتوج الآلات والمعدات الآلية بنسبة سبعة أو ثمانية اضعاف . والجدير بالذكر ان الشوط الاطول والاصعب من هذا التقدم قد ُقطع في السنوات الاخيرة من الحقبة الستالينية .

وقد رافق ذلك عملية ارساء اسس الصناعة النووية الروسية التي استهلكت قسطاً هائلاً من موارد روسيا الشحيحة اصلا . والواقع ان رأس المال الموظف في جميع فروع الصناعة بين ١٩٤٦ و ١٩٥٠ يوازي مجموع التوظيفات خلال السنوات الثلاث عشرة من فترة ما قبل الحرب (أي بين عام ١٩٢٨ وموعد الغزو النازي) . وكعادته ، تمكن ستالين من تنمية الصناعتين الثقيلة والحربية ، مجدداً اهدافاً جد متواضعة للصناعات الاستهلاكية وهي اهداف لم يتمكن الاقتصاد السوفييتي من بلوغها على كل حال . وكما في السابق ، كان كل هذا البنيان الجبّار يرتكز الى قاعدة زراعية ولا اهزل . فخلال الحرب ، وبعد ان سيطر العدو على اغنى مناطق انتاج الحبوب في روسيا ، انخفض انتاج المزارع في سائر انحاء البلاد بنسبة تزيد عن نصف الحجم العادي . وإذا بأول محصول زراعي بعد الحرب لا يدر ، في البلاد بأسرها ، أكثر من ٦٠ ./٠ مما كان عليه قبل الحرب . احتياطي الحبوب نافذ . وقد ذبح الاهالي قسطاً وافراً من الماشية . أما بالنسبة للآلات والجرارات ، فهي في حالة مزرية على قلتها . وحتى احتياطي البذر تالف أو مستهلك بأكمله . ولا كان ثمة ما يكفي من الايدي العاملة لفلاحة الحقول التي بارت بعد سنوات من الاهمال .

هكذا كان الوضع في البلد عندما عصفت به موجة جفاف رهيبة عام ١٩٤٦ . ورد في بيان رسمي انها اسوأ نكبة تحل بالزراعة الروسية منذ نصف قرن (أي منذ عام ١٨٩١). وكانت اوسع بكثير من سابقتها عام ١٩٢١ التي اتلفت محاصيل منطقة الفولغا بأسرها ودفعت بـ ٣٦ الف فلاح الى شفير المجاعة فبرزت ظاهرة أكل لحوم البشر في اوساطهم. ارتعد الناس عند سماعهم هذا البيان . فكارثة عام ١٨٩١ التي عجلت في انهيار النظام القيصري لا تزال كابوساً يرزح على ذاكرة الشعب . وكشفت ازمة عام ١٩٤٦ هشاشة البنية الزراعية الروسية باسرها وزادت اوضاعها سوءاً . المزارع الجماعية في حالة شبه انحلال. والفلاحون يهتمون بقطع الارض الصغيرة التي لا تزال بحوزتهم أكثر من اهتمامهم بالحقول الشاسعة المملوكة جماعياً . فراحوا يبيعون منتوج تلك القطع باثمان باهظة للتعويض عن شحة الموارد المتأتية من الزراعة الكولخوزية . خلال فترة الحرب ، كدح الفلاحون كالعبيد للبقاء على قيد الحياة ولتموين القوات المسلحة والمساهمة في القروض الحربية ولارسال رزم

الغذاء لآبائهم واخوتهم وأزواجهم الرابضين على خطوط النار . ولكن قليلين هم الرجال الذين عادوا الى قراهم بعد الحرب . فخسر الفلاحون بذلك اصلب عناصرهم وأكثرها انتاجية . وراح الكسيحون والعجائز والنساء والاطفال يحرثون الارض خلال العقد الاول من فترة ما بعد الحرب .

ذلك هو ابشع وجه من اوجه الانتصار العسكري الروسي وأشده مأسوية : خسرت روسيا ٢٠ مليون من سكانها خلال الحرب . وقد حرص ستالين كل الحرص على اخفاء فداحة الخسارة ، فاذا بالتعداد الرسمي للقتلى لا يذكر إلا سبعة ملايين . طبعاً ، كانت كل اسرة تعرف عدد ضحاياها وضحايا جيرانها ممن قضى في المجزرة . وكانت كل قرية تعرف عدد القتلى من ابنائها . لكن ستالين حرَّم على الامة ان تجمع لوائح الضحايا المبعثرة . كان يخاف من الاثر الذي قد يتركه ذلك على معنوياتها ، واشتمّ منه خطراً يتهدده شخصياً : فلو انه سمح للشعب ان يعرف مدى ضخامة الدم المراق ، لكان هذا الشعب اصر ، بعناد أكبر مما يصر الآن،على معرفة كل ملابسات الموضوع بما فيها اخطاء ستالين نفسه وحساباته المغلوطة . ولا كان يريد لحلفاء الامس وأعداء الغد ان يكتشفوا مبلغ الوهن والانهاك اللذين اصابا روسيا من جراء الكارثة . حتى خلفاؤه ماطلوا طوال عقد ونصف العقد من الزمن قبل ان يسمحوا باجراء اول تعداد للسكان لفترة بعد الحرب في عام ١٩٥٩ . فتبين منه انه قد تبقى من الذين لم تكن اعمارهم تتجاوز الثامنة عشر عند انتهاء الحرب ٣١ مليون رجل في مقابل ٥٢ مليون امرأة . وجدير بالذكر ان بين الذين ظلوا على قيد الحياة ملايين من الكسيحين والمعاقين ناهيك بالعجائز . لقد أُبيد جيل بأكمله ، وباتت ذكراه تقضّ مضجع روسيا باسرها .

كان لا بد لأية سياسة ترمي الى الحيلولة دون ان تستسلم الامة للتباكي على جراحها من ان تستخرج من اليد العاملة المتقلصة الحد الاقصى الممكن من الطاقة الانتاجية . وكان خطر مثل هذا الانكباب حقيقياً وراهناً . فاحتفظت حكومة ستالين بملايين النساء والاطفال الذين جندوا خلال الحرب للعمل في الصناعة ، وأضافت اليهم ملايين جديدة . يروي الزوّار الاجانب الذين زاروا المدن الروسية والاوكرانية التي كانت ساحات القتال منذ زمن ليس ببعيد انهم كانوا يشاهدون النسوة العجائز تلتقط النفايات من على الطرق والساحات العامة بأيديهن العارية . احياناً كان استنكار هؤلاء الزوار في غير محله ومهما

يكن من امر ، فالمؤكد ان النساء شكـّلن حوالي ١/٣ اليد العاملة الموظفة في قطاع البناء. أما في تلك الفروع من الاقتصاد الاكثر ملاءمة لهن،فكانت نسبتهن تبلغ ثلثي اليد العاملة أو حتى اربع اخماسها . أما معدل نسبة العاملات في الاقتصاد المديني فبلـــغ ٥١ بالمئة ، ويرتفع هذا المعدل الى ٥٧ بالمئة بالنسبة للعمل الزراعي . ضربت الحكومة عرض الحائط بكل التشريعات المتعلقة باستخدام الصبيـــة والاطفال . كذلك احتفظت بساعات العمل الاسبوعية الطويلة كما فُرضت عشية الحرب ، بحد ادنى يبلـــغ ٤٨ ساعة في الاسبوع ، بالاضافة الى الانضباط الصناعي الرهيب الذي ينفى بمقتضاه العمال الى معسكرات الاعتقال لدى ارتكابهم اتفه الاخطاء. وكانت تلك الوسيلة الوحيدة التي سمحت بزيادة عدد الايدي العاملة في المدن بحوالي ١٢ مليون عـــاملة وعامل من خلال سنوات السلم الخمس الاولى ، بحيث بات عدد العمال والمستخدمين عام ١٩٥٠ يزيد بثمانية ملايين عن عددهم عام ١٩٤٠ . الجميع محروم من حرية اختيار مهنته أو تغييرهـــا . فالدولة هي السيد المطلق فيما يختص بتوجيه العمل . وحتى آخر ايام حياة ستالين ظل يشن الحملات الواسعة ضد «نزعة المساواة البرجوازية الصغيرة الزائفـــة » ، مشجعاً المنافسة الستاخانوفية ، مطبقاً انظمة معدلات الاجور المتمايزة والعمل بالقطعة في محاولة للاحتفاظ بالتفاوت بين الاجور ، لا بل لزيادته .

يصعب علينا قياس نوعية ردود الفعل الجماهيرية لطلبات ستالين القسرية . إذ يـكاد يستحيل التمييز بين ما كان منها تلبية لضرورات قومية وبين ما كان مجرد اجراء تعسفي كيفي . لكن المذهل في طبع الشعب هو تعايش الشجاعة البطولية والخنوع الاستسلامي جنباً الى جنب فيه. ان الذين ظلوا على قيد الحياة بعد معركة موسكو وحصار لينينغراد، مثلهم مثل ابطال ستالنغراد وبرلين ، عادوا الى مدنهم وقراهم واثقين من قدرتهم عـــلى التصدي لأية مهمة أو صعوبة . وقـــد دفعت الويلات الاخيرة بالعديد منهم الى التفكير ببؤس وجودهم القومي وبالفقر والاضطهاد اللذين تعرضوا لهما خـلال فترة السلم ؛ فصمموا على عدم الاستسلام لهذه النوائب بل بذل المزيد من الجهود لتحويل روسيا الى بلد يتمتـع بأوفر قسط من السعادة والحريـــة . لكن العمل بمقتضى هذا التصميم لم يكن يسيراً ولا حتى ممكناً . فنظرة منهم الى خراب مدنهم والى اراضي قراهم المحروقة كشفت لهم انهـم مضطرون الى القبول بفقر أدقع من الذي اعتادوه وان العمل المضني الشاق هو وحـــده شرط اعـــادة بناء اسس وجودهم الوطني . وغالباً ما تعذّر عليهم التمييز بين اجراءات ستالين الرامية الى خدمة المصلحة العـامة وبين تلك التي لا تخدم إلا نظامه الاستبدادي .

وهكذا كانت انبل الدوافع وأكثرها عقلانية تحدو احياناً برجال بواسل الى التحوّل مرة اخرى الى خدّام ستالين المطيعين . لا شك في ان غرائز الطاعة وتقاليدها المتوارثة لعبت دوراً هاماً في ذلك ، فذكريات حملات الارهاب خلال الثلاثينات كانت لا تزال ترزح على فكر الجميع ، باستثناء اليافعين. وقد بذل ستالين قصارى جهده لاحياء هذه الذكريات. فكان يعاقب حالما يلوح لعينه المتشككة اليقظة ادنى بادرة ترمي الى تحدي سلطته . فامتلأت معسكرات الاعتقال في سيبيريا واقصى الشمال بالوافدين الجدد . وكان هؤلاء من الضباط والجنود الذين قضوا سنوات مروعة كأسرى حرب في معسكرات الاعتقال الالمانية . فما ان يجتازوا حدود بلادهم ، حتى يبدأ التحقيق معهم ، ثم يرسلوا الى السجن أو المنفى قبل ان يتسنى لهم رؤية أُسرهم . أما المدنيون الذين جندهم العدو من المناطق للعمل بالسخرة في المانيا ، فقد تعرّضوا للعقاب ذاته إذ اتهموا جميعاً بالخيانة : الجنود لأنهم عصوا أوامر ستالين القاضية بعدم السماح للعدو ان يأسرهم احياء ، والمدنيون لأنهم تعاونوا مع العدو . أما ان تكون اوامره مستحيلة التنفيذ مما اضطر ملايين الجنود الى اغفالها ، وان يكون هؤلاء قد عوقبوا على « خرق الانضباط » هذا بالعذاب الذي قاسوا منه الامرّين خلال الأسر فهذه امور لم يكترث لها ستالين . وحتى لو اننا نظرنا الى الامر من وجهة نظر نفعية وحسب ، لتبدىّ لنا العقاب الذي انزله ستالين بهؤلاء الناس عقاباً لا معنى له البتة لأنه زاد من شحّة اليد العاملة في البلد . والواقع انه أمر بنفي اقليات قومية بأسرها متهمة بالخيانة قبل انتهاء القتال . فاضطرت الاقلية التترية في منطقة القرم وقبائل إنغوش ـ شيشين ، مثلها مثل الاقلية الالمانية في حوض الفولغا ، الى مغادرة مساكنها والاستيطان في الصحارى السيبيرية. وقد قال خروتشيف في احدى المناسبات: « ان الاوكرانيين لم يواجهوا مثل هذا المصير بسبب كثرة عددهم ليس إلا ... » . ولكن يجدر ان نتذكر هنا ان عقوبات سجن قاسية قد انزلت بحق من تعاون منهم مع العدو أو من اشتبه بتعاونه معه .

صبّ ستالين جام غضبه على رأس الشعب ليس لمعاقبته على اخطائه وتجاوزاته السابقة وحسب ، بل وأيضاً لخنق أية بادرة عصيان جديدة . فالغرض من أحكام السجن القاسية ومن عمليات النفي والترحيل الجماعية هو ردع الذين عادوا من الحرب يحملون افكاراً تتعلق بضرورة التغيير والاصلاح داخل روسيا . وقد تصرف ستالين مرة اخرى على أساس « ان القضاء على خصومه الحقيقيين ليس كافياً بحد ذاته ، بل ينبغي ان يرافقه

نسف كل البيئة التي انبثت هؤلاء الخصوم » . لكن شرطته السرية ، على الرغم من شراستها وفاعليتها ، عجزت في بعض الاحيان عن السيطرة على حالة التغير والفوضى السائدة وان تتغلغل وسط تلك الجموع البشرية المتدفقة كالسيل المتمثلة بملايين اللاجئين أو المسرحين من الجندية العائدين الى منازلهم القديمة أو الباحثين عن منازل جديدة . ولا كان بوسعهم ان يسيطروا على الذين يحوّلون اليأس الى شجاعة فيقومون باعمال عنف فجائية . وعلى الرغم من ان الالمان استثاروا حقد سكان المناطق المحتلة ، إلا ان الدعاية النازية ما لبثت ان تركت اثراً فعالاً في اوساطهم . في اوكرانيا الغربية ، التي اعيد سلخها عن بولونيا وضمها الى روسيا ، زمر مسلحة من القوميين الاوكرانيين تجوب جبال الكارباثيين وغاباتهم عاملةً على الحيلولة دون عودة السلطة السوفييتية زراعة الرعب والارهاب على نطاق واسع. الاضطرابات تسود اوكرانيا الشرقية ايضاً حيث الزمر المكونة من المتعاونين سابقاً مع العدو ومن قطاع الطرق تجوب الهضاب وحيث السكان المستقرون المسالمون يعربون عن مشاعر العداء ضد الروس واليهود معاً . الواقع ان دعاية موسكو المصبوغة بنزعة شوفينية روسية واضحة ما لبثت ان استثارت النزعات الشوفينية المحلية الضامرة في جمهوريات الاطراف . وكان ستالين يخفف احياناً من غلواء هذه الدعاية في محاولة للقضاء على الشوفينيات المحلية ، لكن ذلك لم يدم طويلا . فموقفه المتناقض مجرد انعكاس للانقسامات الموجودة في اوساط جهازه البيروقراطي وأوساط شعبه عامةً — وهي انقسامات بذل جهده لمنعها من ان تتبلور ساعياً الى محوها قدر المستطاع . استمر النزاع بين التقليد والثورة خلال فترة ما بعد الحرب وازداد حدة وضراوة . ففي داخل القالب الوحداني الستاليني لا زال يتعايش « حزبان » : حزب يعطف على التقاليد اللينينية وما تنطوي عليه من اممية بروليتارية ، وحزب آخر يحمل العزة القومية الروسية بكل ما تنطوي عليه من عُقَد وحساسيات تصل الى حد اعتناق تقاليد زمر « المئات السوداء » ومجازرها .

بلغ الاضطراب العقائدي أعلى مستوياته في اوساط الانتلجنسيا . ذلك ان غرائز الابداع عند الكتّاب والفنانين والفلاسفة والمؤرخين لا بد لها من ان تعبّر عن نفسها حتى في ظل نظام استبدادي وحداني، فلا تلبث ان تصطدم بالنزعة المحافظة الرسمية لاضطرارها الى التعبير ، ولو على نحو مخفف ، عما ينطوي عليه تفكير البلد وشعوره من تنوّع فعلي . من هنا التجاذب المأسوي والمأسوي — الهزلي بين ستالين من جهة وبين الانتلجنسيا من جهة

اخرى الذي دام طوال سنوات حكمه . فمهما تحاول هـذه الانتلجنسيا ان تلتزم بالخط العقائدي الرسمي ، فانهـا لا تلبث ان تفرق في خضم النزاع الدائر بين العناصر المتناقضة التي تتكون منها الستالينية عاجزة عن ان توفق بينها حسب « وصفات » المعـلّم الغامضة والمتذبذبة . وهكذا كنت ترى ان شاعراً او كرانياً شهيراً يتحول بين ليلة وضحاها الى رجل متهم بنشر « الافكار الشوفينية المحلية » ؛ ويُدان مؤرخون ثقاة لأنهم يستصغرون الطابع التقدمي للغزو القيصري للقفقاس وآسيا الوسطى ؛ أو يتهم فلاسفة بانهم يبالغون في تمجيد انحدار الماركسية من الفلسفة الهيغليـة الالمانية ؛ أو تشن حملات عنيفة ضد موسيقيين عظام لأنهم يتعالون عن الموسيقى الفولكلورية أو يصرفون النظر عنهـا — هذه الموسيقى العزيزة جداً على قلب ستالين ؛ أو يلام النقاد والادبيين لأنهـم اساءوا الى قانون الواقعية الاشتراكية الاقدس وما الى ذلك . فاضطرت الانتلجنسيا الى ان تشق طريقهـا بصعوبة بالغة بين منزلقات « النزعة القومية » من جهة ومهاوي « النزعة الكوزموبوليتية المقلوعة الجذور » من جهة ثانية . عيّن ستالين اندراي جدانوف ، عضو المكتب السياسي وحاكم لينينغراد ، مسئولاً عن حفظ الامن في اوساط المثقفين وعن معـاقبة المنحرفين منهم . لم تطل فترة رقابة جدانوف على الآداب والفنون ، فقد توّفي عـام ١٩٤٨ . إلا ان الانتلجنسيا الروسية سوف تتذكر هـذه الفترة الوجيزة على انها اسوأ النكبات الـتي حلت بها .

يجدر التذكير بان وصايا جدانوف لم تمس مباشرة إلا الفئـات العليا من المجتمع . أما بالنسبة للفئات الدنيا ، فكان الهمود يسود اوساط العمال والفلاحين . تُرى ، هل كان الامر غير ما هو عليه الآن لو ان الحرب لم تفتح تلك الهوة السحيقة في اوساطهم ؟ خلال ثلاثين سنة خسر الشعب السوفييتي ، في غمرة الحروب والاقتتال الاهـلي والتصفيات والمجاعات ، انشط عناصره وأكثرها ذكاءً وتفانياً في خدمته. ولو ان هذه العناصر بقيت على قيد الحيـاة ، لكانت سعت الى حماية ميراث الثورة من هجمات الحكم الاستبدادي الفردي . يتكون نصف الطبقة العاملة الآن من الذين جاوزوا منتصف العمر ومن الكهول والعجائز ممن اختبر الكثير وعانى الكثير بحيث انطفأت جذوة النضال في نفسه ؛ أمـا النصف الآخر فيتكون من مراهقين لم يختبروا ولم يفهموا ما فيه الكفاية للسماح لهم بان يكون لهم موقف سياسي مستقل . ان صمت جيل قضى خلال الحرب يرزح كالطود على ذاكرة طبقة باسرها . أما الفلاحون ، فانهم أكثر انسحاقاً واستكانة من العمال . هكذا

نجد غالبية الشعب تتخلى عن كل تطلع سياسي وتتقوقع في حياتها الفردية الخاصة ، مكبوتة ومنهمكة في مخاض طويل لاعادة توليد الظروف المادية الاولية التي تضمن لها الوجود . وقد أدى فقدان فئات الاعمار الشابة والناضجة والمخصبة الى نتائج اضافية لا يكاد احد يمر على ذكرها — فكيف للمرء ان يصف الاثر الذي تركه الاختلال الذي طرأ على التوازن السكاني نتيجة غياب ٢١ مليون رجل على العلاقات العائلية وعلى الحياة الجنسية لقطاع واسع من المجتمع ؟ فكان لا بد لهذا الاختلال الوحشي في التركيب البيولوجي للامة من ان يكون مصدراً اضافياً من مصادر اضطرابها النفساني وشللها الاجتماعي السياسي .

* * *

هكذا كان الوضع في الاتحاد السوفييتي خلال المراحل الاولى من الحرب الباردة . في آذار من عام ١٩٤٦ ، دقّ وينستون تشرشل ناقوس الخطر ، في خطبته الشهيرة في « فولتون » ، محذراً من « التحدي المتنامي والخطر الذي يتهدد الحضارة » المتأتي من « الطوابير الخامسة الشيوعية » ، منبهاً من مغبة « التقهقر الى العصور المظلمة ، الى العصر الحجري » . وقال : « لسنا ندري ما الذي يخبّئه لنا في المستقبل الاتحاد السوفييتي ومنظماته الشيوعية الدولية ، ولا ما هي حدود نزعاته التوسعية العدوانية ، إذا كان لهذه النزعات من حدود » . وعندما اهاب تشرشل بالولايات المتحدة ان تحافظ على تفوقها في مجال الاسلحة النووية وان تساعد شعوب اوروبا الشرقية في مقاومتها للشيوعية ، اجتاحت العالم بأسره موجات من الخشية والذعر . راحت اجهزة الدعاية الاوروبية والاميركية تغذي مخيلة مواطنيها بصور الجحافل الحمراء المتأهبة للانقضاض على شعوب الغرب الحرة . وإذا بالمواطن العادي في روسيا يشعر كأن « القنابل الذرية سوف تبدأ بالانهمار عليه قبل انتصاف الليل » .

كان ستالين في موقف ضعيف جداً ، إلا انه اختار ان يخدع العدو بمظاهر الهدوء والثقة بالنفس والقوة . كان قد انسحب ، نتيجة الضغط البريطاني — الاميركي المشترك ، من شمال ايران الذي احتلته قواته بمقتضى اتفاقية عقدت خلال الحرب بين الاتحاد السوفييتي وبريطانيا . كما اخفق في الحصول على قاعدة بحرية في المضائق التركية ، وهذه

نجد غالبية الشعب تتخلى عن كل تطلع سياسي وتتقوقع في حياتها الفردية الخاصة ، مكبوتة ومنهمكة في مخاض طويل لاعادة توليد الظروف المادية الاولية التي تضمن لها الوجود . وقد أدى فقدان فئات الاعمار الشابة والناضجة والمخصبة الى نتائج اضافية لا يكاد احد يمر على ذكرها — فكيف للمرء ان يصف الاثر الذي تركه الاختلال الذي طرأ على التوازن السكاني نتيجة غياب ٢١ مليون رجل على العلاقات العائلية وعلى الحياة الجنسية لقطاع واسع من المجتمع ؟ فكان لا بد لهذا الاختلال الوحشي في التركيب البيولوجي للامة من ان يكون مصدراً اضافياً من مصادر اضطرابها النفساني وشللها الاجتماعي السياسي .

* * *

هكذا كان الوضع في الاتحاد السوفييتي خلال المراحل الاولى من الحرب الباردة . في آذار من عام ١٩٤٦ ، دقّ وينستون تشرشل ناقوس الخطر ، في خطبته الشهيرة في « فولتون » ، محذراً من « التحدي المتنامي والخطر الذي يتهدد الحضارة » المتأتي من « الطوابير الخامسة الشيوعية » ، منبهاً من مغبة « التقهقر الى العصور المظلمة ، الى العصر الحجري » . وقال : « لسنا ندري ما الذي يخبّئه لنا في المستقبل الاتحاد السوفييتي ومنظماته الشيوعية الدولية ، ولا ما هي حدود نزعاته التوسعية العدوانية ، إذا كان لهذه النزعات من حدود » . وعندما اهاب تشرشل بالولايات المتحدة ان تحافظ على تفوقها في مجال الاسلحة النووية وان تساعد شعوب اوروبا الشرقية في مقاومتها للشيوعية ، اجتاحت العالم بأسره موجات من الخشية والذعر . راحت اجهزة الدعاية الاوروبية والاميركية تغذي مخيلة مواطنيها بصور الجحافل الحمراء المتأهبة للانقضاض على شعوب الغرب الحرة . وإذا بالمواطن العادي في روسيا يشعر كأن « القنابل الذرية سوف تبدأ بالانهمار عليه قبل انتصاف الليل » .

كان ستالين في موقف ضعيف جداً ، إلا انه اختار ان يخدع العدو بمظاهر الهدوء والثقة بالنفس والقوة . كان قد انسحب ، نتيجة الضغط البريطاني — الاميركي المشترك ، من شمال ايران الذي احتلته قواته بمقتضى اتفاقية عقدت خلال الحرب بين الاتحاد السوفييتي وبريطانيا . كما اخفق في الحصول على قاعدة بحرية في المضائق التركية ، وهذه

اخرى الذي دام طوال سنوات حكمه . فمهما تحاول هـــذه الانتلجنسيا ان تلتزم بالخط العقائدي الرسمي ، فانهـا لا تلبث ان تفرق في خضم النزاع الدائر بين العناصر المتناقضة التي تتكون منها الستالينية عاجزة عن ان توفق بينها حسب « وصفات » المعـلّم الغامضة والمتذبذبة . وهكذا كنت ترى ان شاعراً او كرانياً شهيراً يتحول بين ليلة وضحاها الى رجل متهم بنشر « الافكار الشوفينية المحلية » ؛ ويُدان مؤرخون ثقاة لأنهم يستصغرون الطابع التقدمي للغزو القيصري للقفقاس وآسيا الوسطى ؛ أو يتهم فلاسفة بانهم يبالغون في تمجيد انحدار الماركسية من الفلسفة الهيغليـــة الالمانية ؛ أو تشن حملات عنيفـة ضد موسيقيين عظام لأنهم يتعالون عن الموسيقى الفولكلورية أو يصرفون النظر عنهـا — هذه الموسيقى العزيزة جداً على قلب ستالين ؛ أو يلام النقاد والادبيين لأنهـم اساءوا الى قانون الواقعية الاشتراكية الاقدس وما الى ذلك . فاضطرت الانتلجنسيا الى ان تشق طريقهـا بصعوبة بالغة بين منزلقات « النزعة القومية » من جهة ومهاوي « النزعة الكوزموبوليتية المقلوعة الجذور » من جهة ثانية . عيّن ستالين اندراي جدانوف ، عضو المكتب السياسي وحاكم لينينغراد ، مسئولاً عن حفظ الامن في اوساط المثقفين وعن معـــاقبة المنحرفين منهم . لم تطل فترة رقابة جدانوف على الآداب والفنون ، فقد توّفي عـام ١٩٤٨ . إلا ان الانتلجنسيا الروسية سوف تتذكر هـذه الفترة الوجيزة على انها اسوأ النكبات الـــتي حلت بها .

يجدر التذكير بان وصايا جدانوف لم تمس مباشرة إلا الفئـــات العليا من المجتمع . أما بالنسبة للفئات الدنيا ، فكان الهمود يسود اوساط العمال والفلاحين . تُرى ، هل كان الامر غير ما هو عليه الآن لو ان الحرب لم تفتح تلك الهوة السحيقة في اوساطهم ؟ خلال ثلاثين سنة خسر الشعب السوفييتي ، في غمرة الحروب والاقتتال الاهـــلي والتصفيات والمجاعات ، انشط عناصره وأكثرها ذكاءً وتفانياً في خدمته. ولو ان هذه العناصر بقيت على قيد الحيـــاة ، لكانت سعت الى حماية ميراث الثورة من هجمات الحكم الاستبدادي الفردي . يتكون نصف الطبقة العاملة الآن من الذين جاوزوا منتصف العمر ومن الكهول والعجائز ممن اختبر الكثير وعانى الكثير بحيث انطفأت جذوة النضال في نفسه ؛ أمـا النصف الآخر فيتكون من مراهقين لم يختبروا ولم يفهموا ما فيه الكفاية للسماح لهم بان يكون لهم موقف سياسي مستقل . ان صمت جيل قضى خلال الحرب يرزح كالطود على ذاكرة طبقة باسرها . أما الفلاحون ، فانهم أكثر انسحاقاً واستكانة من العمال . هكذا

هي الغنيمة التي لا ينفك حلفاء روسيا يعدونها بها ايام الحرب ثم يتراجعون عنها ايام السلم. كذلك بدا وكأن الحلفاء يبذلون قصارى جهودهم لتقليص النفوذ الروسي في منطقةالبلقان واوروبا الشرقية أو حتى ازالته نهائياً . وفي صيف عام ١٩٤٦ ، تحـــوّل « مؤتمر باريس للسلام » الى معركة سياسية للسيطرة على حوض الدانوب . ناضلت الدبلوماسية الستالينية بعناد وانتصرت في هذه المعركة ، لأن الجيوش الروسية كانت لا تزال تحتل تلك المنطقة ولأن الدبلوماسية الغربية لم تكن مستعدة الاستعداد الكافي للاستجابة لصيحة الحرب التي اطلقها تشرشل . وعندما دعا هذا الاخير صراحة الى انهـــاء التحالفات السابقة فناشد « الأعراق الجرمانية » ان تكف عن « تمزيق بعضها البعض » ، وأهاب بفرنسا والمانيـا ان تقيما « شراكة » بينهما ما دامتا « تعيشان عيشة غريبة وخطرة تحت المظلة الذريـة (الاميركية) الواقية » — حتى عندمـا قال تشرشل ذلك ، اجاب ستالين ان « امكانات التعـايش السلمي » بين روسيا وحلفائها السابقين « قابلة لأن تتزايد بدلاً ان تتناقص » . ولكي يدحض حديث تشرشل عن « النزعة التوسعية الشيوعية » ، طمأن الغرب الى انه ، أي ستـالين ، يؤمن بامكان بناء الشيوعية ، وليس مجرد الاشتراكية ، في بلد واحد . في مطلع عام ١٩٤٧ ، كان ستالين لا يزال متردداً فيما إذا يجب انجاز « الثورة الفوقية » التي ابدأهـــا في اوروبا الشرقية حيث كان لا يزال يرضى باشتراك احزاب غير شيوعية في الحكومات مطلقاً بعض الحرية للمصالح الرأسمالية . وبسبب توّصله الى اتفاق مع القوى الغربية حول معاهدات الصلح مع ايطاليا ودول البلقان ، ظن انه بمقدوره التوصل معهم لى تسوية المسألة الالمانية ايضاً.وكان هذا الموضوع مدرجاً على جدول اعمال مؤتمر وزراء الخارجية المنعقد في موسكو في العاشر من آذار عام ١٩٤٧ .

ما ان انقضى يومان على انعقاد المؤتمر حتى تبددت آمال التسوية بضربـة واحدة . ففي ١٢ آذار ، تلا رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، امام اجتماع مشترك للكونغرس الاميركي ، بياناً سمّي فـيما بعد بمبدأ ترومان . وكان هذا البيان الاعلان الاميركي الرسمي بنشوب الحرب الباردة ، التي كانت تخاض حتى ذلك الحين على نحو متقطع وغير رسمي . كانت المناسبة التي دعت الى تلاوة البيان الازمة اليونانية حيث اخفقت الحكومة الملكية في القضاء على حرب العصابات التي يخوضها الشيوعيون ، على الرغم من انقضاء عـــامين ونصف على بدء الاقتتال الاهلي ومن الاسلحة والمساعدات البريطانية . كانت بريطانيا على اهبة الانسحاب من المعركة ووضع حد لتدخلها بسبب الازمة الاقتصادية الحادة التي ألمت

بها ؛ فأعلن الرئيس ترومان ان الولايات المتحدة سوف تحل محـل بريطانيا للحيلولة دون خضوع اليونان للنير الشيوعي . ولو اقتصر الامر على ذلك ، لمـا كان القرار الاميركي اغضب ستالين كثيراً وهو الذي نفض يديـــه من اليونان في اجتماع يالطا ؛ فاحجم عن مساعدة الثوار اليونان وتشجيعهم ، لا بـل أنبّ الشيوعيين اليوغسلاف على اصرارهم على الاستمرار في مد يد العون لهم . إلا ان الرئيس ترومـان هاجم محاولات روسيا الحصول على قاعدة بحريـة في المضائق التركية ، وتعهد بان يساعد تركيا عسكرياً وماليـــاً . وبالاضافة الى ذلك كله ، اعلن ان حكومته مستعدة ، من الآن فصاعداً ، لأن تساعد أية أمة تعمل على مقاومة الشيوعية ، معتبراً ان هذه المقاومة واجب يقع على عاتق « جميـع أمم العالم تقريباً » . هكذا التزمت حكومة الولايات المتحدة بان تتدخـل ضد أية ثورة شيوعية تنشب في أي بلد من بلدان العالم ، وأدانت الاتحاد السوفييتي سلفاً بوصفه المسؤول المباشر عن قيام مثل هذه الثورات .

فعل بيان ترومان فعله فوراً . تفرّق مؤتمر وزراء الخارجية وسط صخب الاحتجاج والاتهامات المتبادلة . وفي غضون اسابيع قليلـــة ، طُرد الحزبان الشيوعيان الفرنسي والايطالي من الحكومتين الائتلافيتين في بلديهما بعد ان ارتضيا ، رضوخاً لتعليمات ستالين نفسه ، ان يلعبا فيهما دور الشريك الاصغر وان يميّعان الجو الثوري الذي سـاد اوساط الطبقة العاملة . ومن الاسرار التي لم تعد خافية على احد ان الولايات المتحدة لعبت دوراً حاسماً في طرد الشيوعيين . وها ان الجنرال مارشال ، وزير الخارجية الاميركية ، يطلق مشروعه ، واعداً بتقديم المساعدة الاقتصادية الاميركيـة لجميع الحكومات التي تكافح ضد البؤس والدمار المتأتيين من الحرب . لاقى مشروع مارشال تجاوباً سريعاً في اوروبا ، وحتى في اوساط شيوعيي اوروبا الشرقية . تردد ستالين في رفضه . وفي اواخر حزيران بعث بعدد كبير من الخبراء السوفييت الى باريس ، يترأسهم مولوتوف ، للتأكد مما إذا كان المشروع يحمل منفعة ما لروسيا . فتبيّن انه يترتب على الاتحـاد السوفييتي ، للاستفادة من المشروع ، ان يقدم جردة بموارده الاقتصادية . ولاحظ الخبراء السوفييت ان الشروط الاميركية التي يتضمنها سوف تعرقل التخطيط الاقتصادي في الاتحاد السوفييتي ، وتحول بين حكومات اوروبا الشرقية وبين تأميم صناعاتها . وبالاضافة الى ذلك كله ، كان الاميركيون قد عقدوا العزم على احياء اقتصاد المانيا الغربية واهمال مطالبة روسيا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا في الحصول على تعويضات من المانيا .

لم يكن امام ستالين غير احتمال واحد : رفض هذه الشروط . فلم يكن بوسعه الموافقة على تسليم الغرب جردة بالموارد الاقتصادية الروسية يضطره الى ان يكشف إنهاك روسيا المروع والهوة السحيقة في طاقاتها البشرية — وهذه حقائق يسعى جاهداً لأن يخفيها عن الشعب الروسي نفسه . ولم يكن حريصاً على اخفاء ضعف روسيا وحسب ، بل كان خائفاً ايضاً من التغلغل الاقتصادي الاميركي في اوروبا الغربية وحتى في روسيا نفسها الذي من شأنه ان يعيد الحياة لجميع القوى المناهضة للشيوعية وان ينمي الردات المضادة للثورة. فقرر اغلاق منافذ اوروبا الغربية امام التغلغل الغربي . وعلى الرغم من الانسجام الذي طبع الدوافع الكامنة وراء ذلك ، فقد كانت الخطوات التي اتخذها فظة وخرقاء في آن معاً . فقد رفض العرض الاميركي جملةً وتفصيلا عاجزاً عن ان يبين ان الشروط التي يتضمنها تمنع أية حكومة مناهضة للرأسمالية من ان تقبلها . وبسبب حرصه على اخفاء الضعف الكامن في موقفه ، تصرف على نحو عدواني ووحشي بحيث ظهر في اعين معظم الغربيين ليس انه المسؤول عن رفض المساعدة الاميركية وحسب بل وأيضاً عن جرّ عالم انهكته الحروب الى شفير حرب جديدة .

ألقى التباين بين ثروة اميركا الجبارة وبين بؤس روسيا المدقع ظلاله السوداء على تلك السنوات ، وبات يتحكم بسياسة ستالين . لم تكن نية التدخل العسكري بقدر اهمية تصميم الولايات المتحدة على الالقاء بكل قوتها الاقتصادية لدعم حملتها المناهضة للشيوعية . ومهما يكن من امر ، فقد ترتبت على مبدأ ترومان نتائج عسكرية مباشرة . ولم يكن بالامكان قياس خطر الحرب الذي تضمنه هذا المبدأ بسبب احتكار الولايات المتحدة للسلاح النووي. والسبب في تلاشي خطر الحرب يعود جزئياً الى صعوبة استعداء شعوب الغرب ضد روسيا التي لا تزال تتذكر عبارات الثناء التي تغدّق بها سياسيوها على الحليف الروسي ، وتتطلع بعين الاعجاب الى المدافعين عن موسكو وستالنغراد ولينينغراد ، ممتنة لهم على ما قاموا به لتجميد القوات الهتلرية على الجبهة الشرقية مما أدى الى انفراج الغرب . لذلك ، فان تحويل الرأي العام في الغرب وتأليبه ضد روسيا كان لا بد له من فترة مديدة تخللتها الازمات والانذارات والمخاوف صوّرت الشيوعية خلالها على انها العدو الشرير الذي يهدد السلام في العالم . في تلك الاثناء كانت الولايات المتحدة قد بدأت تسرّح جيشها ؛ فقد كان الشعب الاميركي ينادي باعادة القوات المسلحة من اوروبا ، بينما اطمأن القادة العسكريون والدبلوماسيون على حيازة الولايات المتحدة للسلاح النووي كضمان لتفوّقها

الدائم على روسيا . والواقع ان الافتراض الذي قام عليه مبدأ ترومان هو ان روسيا لن تلبث ان ترضخ للضغط الاميركي بعد ما تعجز عن كسر هذا الاحتكار في المستقبل القريب . فتصدى ستالين لهذا التحدي بتصميمه على كسر الاحتكار الاميركي باي ثمن وباقرب وقت ممكن . ولكن كان لا بد له من وقف عملية تسريح الجيش الروسي قبل ان يبلغ ذلك الهدف . عندما اعلن مبدأ ترومان ، كان ستالين قد خفض قواته من ١١ ١/٢ مليون جندي الى ما يقل عن الثلاثة ملايين . فعمد في مطلع عام ١٩٤٨ الى زيادة حجم مؤسسته العسكرية حتى ارتفع عدد افرادها الى ٥ ١/٢ مليون جندي تحت السلاح في مطلع الخمسينات . بديهي ان تستنزف هذه التعبئة الاقتصاد السوفييتي والطاقات البشرية للشعب الروسي . غير ان التفوق السوفييتي في الاسلحة التقليدية كان الجواب الوحيد الذي يستطيع ستالين تقديمه لتحدي الاحتكار الاميركي للسلاح النووي . فقضى على خطر هجوم نووي محتمل على روسيا بالتهديد الضمني بهجوم سوفييتي على اوروبا الغربية تعجز قوات حلف شمال الاطلسي عن مقاومته . بهذا نجد ان الشبح الذي ابتكره الغرب لتبرير مبدأ ترومان — أي الجحافل الحمراء التي تتهدد اوروبا — اكتسب شيئاً من الحقيقة ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا كنتيجة لاعلان مبدأ ترومان . لم يكن ستالين ينوي تحريك قواته الى ما وراء الخطوط الفاصلة المتفق عليها مع الغرب . لكن تمكن ، رغم كل شيء ، من اقامة توازن قوى نسبي ، أو بالاحرى « توازن قوى رادعة » — إذا شئنا الاصطلاح الذي درج استعماله فيما بعد. وقد تم بلوغ ذلك التوازن في تلك الفترة المبكرة من الحرب الباردة عبر نوعين مختلفين من القوة العسكرية : الاسلحة النووية في جهة ، والاسلحة التقليدية في جهة اخرى .

تحصّن ستالين خلف درعه العسكري الواقي وراح يسرع في انجاز الثورة في اوروبا الشرقية . وفي حين تمكنت واشنطن من ممارسة سيطرة سياسية لبقة وغير مباشرة على حلفاء في اوروبا الغربية بسبب جبروت الولايات المتحدة الاقتصادي ، لم يكن بمكنة روسيا بسط نفوذها في اوروبا الشرقية إلا عبر الرقابة السياسية المباشرة والقوة المجردة . ويبيّن الانطباع الجيد الذي تركه « مشروع مارشال » على اوروبا الشرقية مدى استعداد تلك المنطقة لاستقبال التغلغل الاميركي. كانت بقايا البرجوازية البولونية والمجرية والالمانية الشرقية فضلاً عن قطاعات واسعة من الملاك الصغار الصغار تتضرع الى الله لكي يستمطر على روسيا والنظام الشيوعي دمار الاسلحة النووية . الطبقات العاملة جائعة ومتذمرة .

والردة المضادة للثورة لا تزال تحظى بقوة لا بأس بها . صحيح ان الشيوعية كانت لا تزال تتمتع بشعبية واسعة النطاق في يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ؛ لكنها كانت ضعيفة في سائر انحاء اوروبا الشرقية ، أو على الاقل عاجزة عن الصمود بالاعتماد على قواتها الذاتية . فقرر ستالين ترسيخ النظام الشيوعي ؛ وهكذا راح يطرد العناصر المعادية للشيوعية من حكومات اوروبا الشرقية ويعمل على قمع نشاطها في الوقت ذاته الذي كان الشيوعيون يطردون من حكومتي ايطاليا وفرنسا . وأقام اخيراً نظام الحكم الواحد في كل انحاء المنطقة الواقعة تحت النفوذ السوفييتي . وأرسل مبعوثيه وخبراءه الاداريين والعسكريين وعملائه السريين لاصدار التعليمات للحكومات والاحزاب الشيوعية ومراقبتها ، بحيث فرض عليها سياسة واحدة وانضباطاً واحدا .

وبينما هو منهمك في اعادة التنظيم السياسية هذه ، قرر جمع شتات الاممية الشيوعية القديمة التي كان قد اعلن حلها في عام ١٩٤٣ . فانشأ « الكومنفورم » في ايلول من عام ١٩٤٧ ، في محاولة لتوحيد النشاط الشيوعي في اوروبا الشرقية وفرض خط سياسي جديد على سياسات الاحزاب الشيوعية في اوروبا الغربية . لعب ستالين دوره من وراء الكواليس كعادته ايام الكومنترن . وأوفد جدانوف ومالنكوف لرعاية مؤتمر الكومنفورم التأسيسي الذي حضرته الاحزاب السوفييتية والاوروبية الشرقية والفرنسية والايطالية فقط . ومما يؤكد عدم اكتراث ستالين بامر تحويل الكومنفورم الى اداة فعلية للثورة العالمية انه لم يدعُ الحزب الصيني أو أياً من الاحزاب الآسيوية الاخرى الى الانضمام للمنظمة الجديدة . فقد كان شاغله الاساسي ، خارج اطار « منطقة النفوذ » السوفييتية ، هو تكييف سياسات الشيوعيين الفرنسيين والايطاليين لحاجات دبلوماسيته الجديدة . وفي المؤتمر التأسيسي نفسه ، أنّب جدانوف الحزبين الايطالي والفرنسي على القبول بان تملي قوة الاستمرار وحدها الطريق الذي سلكاه ، وعلى التعاون مع البرجوازية في بلديهما وعلى التخاذل ازاء مواقف سياسات الكاثوليك والاشتراكيين الديمقراطيين — هذا في حين كانت هاتان القوتان رائعتين بنظر موسكو خلال فترة « التحالف العظيم » ، لكنهما تحولتا الى انصار الشيطان الرجيم ما ان بدأت الحرب الباردة .

ومن سخريات القدر ان يكون كاردل ودجيلاس اليوغسلافيان هما اللذان عرضا خط ستالين وجدانوف الجديد . هاجم كاردل الفرنسيين والايطاليين قائلاً : « ان الاحزاب

العمالية تحفر قبرها بيدها عندما ترتضي اللعبة البرلمانية ... تشهد الحركة العمالية العالمية الآن اتجاهاً نحو تحريفية جديدة وانحرافاً جديداً عن الماركسية – اللينينية » . واعتبر ان هذه التحريفية الجديدة كامنة في الامل الذي يلفته كل من تولياتي وتوريز على انبثاق عهد جديد من النشاط البرلماني وفي خضوعهما للفاتيكان والحركة الديغولية . واستطرد قائلاً :

« ان الحزب الشيوعي الايطالي قد تباطأ كثيراً في ادراك معنى السياسة الاميركية . من هنا شعاره : « لا واشنطن ولا موسكو » . والواضح ان لا حرية ولا استقلال وطني دون موسكو » .

أما دجيلاس ، فقد كان أكثر حزماً من زميله :

« النقطة الجوهرية ... هي مطامع اميركا للسيطرة على العالم . وفي ذلك خطر ... أكبر من خطر الفاشية .... ان الحزب الفرنسي قد تقهقر خطوة خطوة امام القوى الرجعية وسمح ايضاً بحل حركة المقاومة وتجريدها من السلاح » .

غير ان الكومنفورم لم يقدم الى الاعضاء الاوروبيين الغربيين أية خطة عمل ثورية ، علماً بان أي عمل ثوري سيأتي متأخراً الآن بعد ان فوّت على نفسه الفرصة الذهبية التي سنحت بين الاعوام ١٩٤٤ – ١٩٤٦ . فكان جل ما طُلب من الحزبين الايطالي والفرنسي القيام به هو عرقلة تنفيذ مبدأ ترومان ومشروع مارشال . ولم ينفذا هذا الامر ، على كل حال ، الا بتخاذل واضطراب .

خلال تلك الاثناء ، كان ستالين يضرب حصاراً حول بلدان اوروبا الشرقية . تمكن من السيطرة على اقتصادياتها عن طريق شركات مساهمة مختلطة ، سوفييتية – رومانية ، وسوفييتية – مجرية ، وسوفييتية – بلغارية . هذا في حين راحت المانيا الشرقية والمجر وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا تصدر الفحم والآلات والبوكسيت والنفط والقمح الى روسيا إما كتسديد لتعويضات الحرب وإما لقاء اسعار بخسة بينما كانت شعوبها تعاني الفقر والحرمان . كذلك حرم الشعب من التعبير عن تذمّره بعدما قمعت احزاب المعارضة

الواحد بعد الآخر . فساد جو من الارهاب لجم كل معارضة أو احتجاج ، صيحة كانت أم همسة . وراح الاداريون والمهندسون السوفييت يشرفون على صناعات اوروبا الشرقية بينما الجنرالات السوفييت يقودون جيوشها والشرطيون السوفييت يديرون قوى الامن فيها .

في مطلع عام ١٩٤٨ ، كانت تشيكوسلوفاكيا البلد الوحيد الذي شذّ عن هذه القاعدة . منذ عام ١٩٤٥ وموسكو تصر على الشيوعيين التشيكيين ان لا يقدموا على أي عمل ثوري . إلا ان تشيكوسلوفاكيا خرجت من الحرب يسودها ظرف ثوري فعلي ، فطبقتها العاملة مسلحة تنادي بالاشتراكية ، وحزبها الشيوعي يحصل في الانتخابات الحرة على ٤٠ ٪ من مجموع الاصوات . أما الشعور المؤيد للروس في تشيكوسلوفاكيا فهو شعور صادق يمد جذوره في اعماق تقاليدها الوطنية يعززّه نفور من الغرب اخذ يتنامى منذ ازمة ميونيخ . ولكن ظلت تشيكوسلوفاكيا طوال ثلاث سنوات تحت نظام ديمقراطي برجوازي بالرغم من انهـا تملك حكومة يرأسها غوتوالد الشيوعي . كان ادوار بينيز لا يزال رئيس الجمهورية ، و يان مازاريك وزير الخارجية ؛ وكانت الحكومة تعتمد في البرلمان على اصوات الشيوعيين والليبراليين والاشتراكيين الديمقراطيين. غير ان هذا النظام لم يكن قادراً على تحمل مخاطر الحرب البـاردة . سعى كل من بينيز ومازاريك جاهدين للمحافظة على الحياد ، لكنهما كانا اساساً من « انصار الغرب » أبديا استعدادهما ، جنباً الى جنب مع غوتوالد ، لقبول مشروع مارشال الاميركي .

من هنــا كانت تشيكوسلوفاكيا ثغرة في نظام ستالين الدفاعي ، فكان لا بد للشيوعيين التشيكيين من العمل لسدها . فأعلنوا ثورتهـم التي طال انتظارها في الاسبوع الاخير من شهر شباط ١٩٤٨ واستولوا على السلطة . كانت ثورة « من تحت » على عكس مثيلاتها في اوروبا الشرقية ، وبالرغم من انه جرى توقيتها متلائماً مع مشيئة ستالين . قام الشيوعيون بالثورة اعتماداً على قواهم الذاتية تساندهم الغالبية الساحقة من الطبقة العاملة ؛ وما كان عليهم إلا ان ينزلوا الميليشيا المسلحة التابعة لهم الى الشارع لردع أية ردة مضادة للثورة . كانت قوات الاحتلال السوفييتية قد غادرت البلد منذ فـترة ليست بالقصيرة ، وكان مجرد الخوف من عودتها كافياً لشل الاحزاب البرجوازية . وهـذا ما سمح لغوتوالد بان يلتزم حتى بأصول اللعبة البرلمانية . تسرع الوزراء البرجوازيون فوراً في محاولةلافشال

الثورة أو الحيلولة دونها تاركين الجهاز الاداري بيد الشيوعيين، فما كان من غوتوالد ورفاقه ان راح يضغط على الاشتراكيين الديمقراطيين المترددين والمنقسمين على بعضهم البعض فنجحوا اخيراً في استمالتهم واعادة تكوين أكثرية برلمانية جديدة. فانصاع بينيز ومازاريك لمشيئة المنتصرين بعدما صعقهم التأييد الشعبي العارم الذي حظيت به الثورة إذ كانت شوارع براغ تغص بالعمال المسلحين الزاحفين لاحتلال مراكز السلطة. وبعد بضعة ايام من ذلك، وجد مازاريك ميتاً على الرصيف تحت شباك مفتوح من شبابيك وزارته؛ ولم يتمكن التحقيق من ان يثبت ما إذا كان قد انتحر أو ان احداً دفع به خارجاً.

ما ان انتصرت الانتفاضة حتى اضطر ستالين الى معالجة ثغرة اخرى اشد خطورة ظهرت في نظامه الدفاعي. لم يكن النزاع بين الدول الكبرى في أي مكان من العالم بالحدة التي كان فيها في المانيا، ولم يكن مكثفاً ومركزاً بقدر ما كان في برلين. هناك كان التناقض بين الرفاه الاميركي والادقاع الروسي معروضاً امام الجميع بأشرس اشكاله وأكثرها وحشية. وفي حين كانت الولايات المتحدة وبريطانيا قد شرعتا بضخ المساعدات الاقتصادية في المانيا الغربية، كانت روسيا لا تزال تستنزف موارد المانيا الشرقية مستخدمة اياها لاعادة بناء نظامها الاقتصادي. فما كان على الدعاة المناهضين للشيوعيين إلا ان يشيروا الى هذا الوضع الناجم عن الحرب، وعن تطورات تاريخية سابقة معقدة وطويلة الامد، كمحكّ للنظامين الاجتماعيين ـ السياسيَين المتعارضين؛ فيخلصون الى الزعم القائل ان الرأسمالية الغربية تحمل في طياتها الحرية والازدهار بينما لا تقوى الشيوعية الروسية على العيش والاستمرار إلا بواسطة العبودية والنهب. لم تلق هذه الدعايات الفظة تجاوباً لدى أي شعب من شعوب العالم مثلما لاقته عند الالمان وهم النافرون من التعويضات التي اضطروا الى دفعها ومن الاهانات التي تعرضوا لها على يد الروس فاذا بهم على استعداد تام للتهرب من عواقب الهزيمة بالانضمام الى المعسكر الغربي. كان ستالين متسرعاً في وضع حد لهذه المواجهة الدائمة بين ضعف روسيا الاقتصادي وتلاشي شعبيتها بين الرأي العام من جهة وبين ثروة اميركا والاغراءات التي تقدمها من جهة اخرى؛ فأسدل «الستار الحديدي» عبر المانيا. لكن المواجهة ظلت مستمرة في عاصمة الرايخ الالماني السابقة، على مسافة ١٢٥ ميلا وراء هذا الستار، متصاعدة يوماً بعد يوم ومتخذة اشكالاً أكثر فأكثر عنفاً وتفجراً. فكأنه لا يكفي ستالين، والشعب الروسي من ورائه، الاهانة التي تعرض لها وهو يرى قوته تتلاشى وسمعته تتحول الى موضوع استهزاء في المدينة

نفسها التي احتلتها قواته دون مساعدة من احد ، والتي ادخل اليها حلفاءه الغربيين في تلك الايام الماضية عندما كان الجميع يفكّر بفرض سيادة مشتركة للدول الحليفة على المانيا .

وها ان هذه الفكرة تتلاشى كلياً : رفض ستالين السماح للقوى الغربية بالتدخل في ادارة شؤون المانيا الشرقية . مثلما رفض هؤلاء السماح بان تكون له حصة ما في ادارة المانيا الغربية . وكان الاميركيون والبريطانيون والفرنسيون قد شرعوا بتكوين « جمهورية المانيا الاتحادية » واضعين على رأسها حكومة أديناور المحافظة والمعادية جهاراً للروس . انذاك لم يبق من مبرر لبقاء المستشارين الغربيين والحاميات الغربية في برلين ؛ فصار المبرر الجديد لوجود قوات غربية في برلين هو كونها نقطة مطوقة بمناطق يحتلها العدو . فكان طبيعياً ان يسعى الروس لازالة هذه النقطة – تلك مسألة شغلت خلفاء ستالين بعد عقد من الزمن . كان الشغل الشاغل للقوى الغربية هو الاسراع باعادة بناء اقتصاد المناطق الالمانية الواقعة تحت نفوذها ، فاقترحت مشروع إصلاح مالي يقضي باستبدال « المارك » الذي تعرض للتخفيض ، بعملة جديدة . فاذا بهذا المشروع يكرّس تقسيم المانيا ويطرح فوراً مشكلة العملة التي ستعتمدها برلين . رفضت روسيا السماح بدمج المدينة اقتصادياً بألمانيا الغربية ؛ كما رفضت القوى الغربية ، من جهتها ، السماح بان تلحق المدينة اقتصادياً بالمانيا الشرقية . ولو قيض لبرلين ان يكون لها عملتان لنتج عن ذلك نزاع دائم ، وفي حين يستطيع تنامي حجم السلع في الغرب ان يؤمن ثبات المارك الجديد فان المارك الصادر عن المانيا الشرقية سيكون معرضاً للنسف بسبب ندرة السلع الدائمة فيها . للحيلولة دون قيام هذا الوضع قام ستالين بمغامرة يائسة . فاصدر امراً بفرض الحصار على القطاعات الاميركية والبريطانية والفرنسية من برلين . فتوقفت للفور حركة المواصلات ، الى برلين الغربية ، البرية منها والبحرية .

كان يأمل ستالين ان يؤدي الحصار الذي فرضه الى اجبار القوى الغربية على الجلاء عن برلين او على الاقل على الاقلاع عن خطتها الرامية الى تحويل جمهورية المانيا الاتحادية الى حليف لها ضد روسيا . الا ان الحصار اخفق في تحقيق الهدف الاول ؛ وبدلاً من ان يحقق هدفه الثاني ، ادى بالقوى الغربية الى فرط حلفها السابق وقيام حلف جديد ونهائي . كعادته ، كان يراهن ستالين في مغامرته هذه على عنصر الخدعة وهو سيد هذه

اللعبة الآن مثلما كان في الماضي . لكنه خسر هذه المرة بسبب خطأ في الحساب يعكس تفكيره العاجز عن اللحاق بالتطورات الراهنة . هدد ستالين بشل صناعات برلين وتجويع حامياتها العسكرية وسكانها الى ان يستسلموا لمشيئته . ولم تردعه الشائعات السارية عن قطارات اميركية سوف تشق طريقها ، بواسطة السلاح ، من المانيا الغربية الى برلين ؛ كذلك اهمل التهديدات التي اطلقها العسكريون الاميركيون بقصف موسكو بالقنابل الذرية . ضغط على سكان برلين فوعدهم بان يمدهم بالغذاء ان هم رضخوا لمشيئته ، وتحدى بريطانيا واميركا ان تعلنا رفضهما لهذا العرض . وصمم على مواصلة الحصار الى حين تحقيق اغراضه والقضاء على كل مقاومة . كان واثقاً من ان الزمن يجري لصالحه ، وانه يستحيل فك الحصار مثلما يستحيل على خصومه فتح ثغرة فيه لانه يسيطر على كل الممرات المؤدية الى المدينة . لكنه اغفل نقطة واحدة : تمنح الاتفاقات المعقودة بين الحلفاء الحق للقوى الغربية باستخدام « ممر جوي » ضيق يصل بين المناطق التي تسيطر عليها هذه القوى ومدينة برلين . والواقع أن القوى الغربية ، إن هي استخدمت هذا الممر ، تستطيع تموين الحاميات والسكان وحتى الصناعات في المدينة المحاصرة . لم يدخل ستالين بحسابه قوة الغرب الجوية وقدرات بريطانيا واميركا في هذا المجال ، علماً بان الغرب خاض معظم معارك الحرب الماضية في الجو (على عكس روسيا) .

في ٢٨ حزيران من عام ١٩٤٨ ، افتتحت بريطانيا واميركا « الجسر الجوي » الى برلين . فوجىء ستالين بالبادرة ، لكنه كان عاجزاً عن حرمان خصومه الحق في استخدام الممر الجوي ، فدخل في مفاوضات مع السفراء الغربيين في موسكو . لكنه ما لبث ان قطعها ، ظناً منه ان حلول فصل الشتاء سوف يضع برلين مرة اخرى تحت رحمته . الا ان الجسر الجوي اتسع باطراد مموناً برلين بالغذاء والمحروقات والمواد الاولية طوال تلك الاشهر الحرجة . هكذا اخفق الحصار عن تحقيق اهدافه . فاعلن ستالين فكه ، بعد حوالي عام على الشروع به ، بمقتضى اتفاقية عقدت تحت ستار من السرية في الامم المتحدة . وعادت برلين الى وضعها السابق .

لكن الحصار ادى الى نتائج لم يعد بالامكان التراجع عنها . فتعذر اعادة الوضع الدولي الى ما كان عليه في السابق . فخلال الحصار ، ولدت « جمهورية المانيا الاتحادية » واعلن عن تكوين حلف شمال الاطلسي . نقل الحصار ، الماء الى طواحين الدعاية المضادة

للسوفييت ، فاثار حفيظة الشعبين البريطاني والاميركي اللذين راحا يضغطان على حكومتيهما لقلب التحالفات السابقة – وهذه فكرة كانت تثير استهجانهما منذ امد ليس بالبعيد . وهكذا ، في حين اراد مبدأ ترومان تجسيد الاخطار والتهديدات التي ادعى انه جاء للتصدي لها ، جاء الحصار الذي اعلنه ستالين يبرر مبدأ ترومان بعد إعلانه ، فازدادت حدة الحرب الباردة .

* * *

بينما كانت الرأسمالية الغربية تستمد القوة والثقة بالنفس من الانتكاسات التي منيت بها سياسة ستالين ، حققت الشيوعية انتصاراً جباراً في الشرق . في ٢٢ كانون الثاني من عام ١٩٤٩ ، دخلت جيوش ماوتسي تونغ بيكين . بالكاد لاحظ الاوروبيون والاميركيون هذا الحدث ، فقد كانت انظارهم شاخصة تحدق بالجسر الجوي الى برلين . منذ عقود من الزمن ، كان انصار ماو ، رغم كل المصاعب والانتكاسات ، يقاتلون قوات تشيانغ كاي تشيك التي تمدها الولايات المتحدة بالسلاح وتساندها احياناً بفرق « المارينز » . في بعض المناسبات ، بدا وكأن الانصار قد يهزمون . لكنهم تغلبوا على المصاعب وواصلوا القتال . ولكن قليلين هم المراقبون الاجانب الذين توقعوا لهم انتصاراً نهائياً سريعاً . فحتى عام ١٩٤٨ ، كان ستالين لا يزال ينصح ماوتسي تونغ ، تماماً مثلما نصح تشين توهسوي قبله بعشرين سنة ، بان يعقد الصلح مع تشاينغ كاي تشيك . وعندما بلغه ان ماو يرسم الخطط لشن الهجوم الاخير ، اعتبر الخطوة مغامرة عديمة الواقعية . كان القائد العام لاكبر جيش نظامي في العالم يستخف بحرب العصابات ، ويشك في امكانات انتصار الشيوعية في الصين ، ويتوجس شرا من ثورة تفرض نفسها بمعزل عن وصايته وبمنأى عن سطوته العسكرية . كذلك خشي ان تستثير مغامرة ماو تدخلاً عسكرياً واسع النطاق يجلب القوات الاميركية الى حدود روسيا في الشرق الاقصى . ومهما يكن من امر ، فقد واصل الشيوعيون الصينيون هجماتهم الى ان إنهار الكيو منتانغ تحت وطأة ، التناقضات التي تخترمه . وفي شهر نيسان ، كانت قوات ماو تقيم استعراضات النصر في نانكينغ وشانغهاي ، فيما كانت الدول الغربية تعلن عن ولادة حلف شمال الاطلسي . وما ان انتهى فصل الصيف ، حتى كان البر الصيني برمته تحت سيطرتها . فاعلن ماو قيام « جمهورية الصين الشعبية » في الرابع والعشرين من

شهر ايلول . فافتتح بذلك حقبة جديدة في تاريخ الشيوعية والعالم عامة . اخيرا انتهت عزلة روسيا التي طالت اكثر مما كان متوقعاً لها . واذا بثورة اكتوبر تجد تكملتها المنتظرة ليس في اوروبا ، كما توقع الكثيرون ، وانما في آسيا .

سوف نتعرض فيما بعد للآثار التي تركها انتصار الثورة الصينية على مجرى النظام التساليني . غير ان الاثر المباشر كان تعزيز موقف ستالين ازاء القوى الغربية التي وجدت نفسها فجأة عرضة لهجمات توجه اليها من الشرق حيث تتفجر ثورة الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة . واذا بستالين المهزوم في الغرب ، ينطلق من مواقع قوة في الشرق . ومن الصدف الطريفة ان الاسبوع الذي شهد اعلان جمهورية الصين الشعبية هو نفسه الاسبوع الذي ترامى فيه دوّي اول قنبلة ذرية روسية .

قضى انتشارُ الثورة على بعض الظروف التي ولـّدت الستالينية بوصفها نتاج عزلة الحركة البلشفية وتكريساً لهذه العزلة في آن معاً . وكان لا بد لقيام دول ثورية جديدة من ان ينسف الاسس التي يقوم عليها تفـرّد ستالين – وموسكو – في السلطة على الحركة الشيوعية في العالم اجمع . وتقوم هذه السلطة ، كما اسلفنا ، على اساس مزدوج من الالتزام العقائدي والقوة : على استعداد شيوعيي العالم ان ينظروا الى الاتحاد السوفييتي على انه دولتهم و « اول دولة عمالية » فيسـّخرون بالتالي تطلعاتهم لمصالح ستالين الدبلوماسية ؛ كما ارتكزت هذه السلطة ، من جهة ثانية ، على الضغط او القسر اللذين استخدمها ستالين لتصفية نقـّاده وخصومه . واذا بهذا الاساس المزدوج الذي تقوم عليه الوحدانية الستالينية قد بدأ يتزعزع . فالشيوعيون الاجانب الذين تحولوا من مناضلين مضطهدين الى حكام بلادهم ما عادوا مستعدين لان يتقبلوا تعليمات موسكو والعمل بمقتضاها كما كانوا من قبل . ولا عادوا يشعرون بنفس الواجب الاخلاقي الذي كان يحدو بهم الى التضحية بتطلعاتهم وطموحهم في سبيل مصالح الاتحاد السوفييتي ، الحقيقي منها والمزعوم . فهم الآن مضطرون لان يعبـّروا عن تطلعاتهم وان يمثلوا مصالح وحاجات الدول الثورية التي يحكمون . بذلك بدأ عهد « الحركة الشيوعية المتعددة المراكز » ، ولو على نحو خفي ، قبل سنوات عديدة من استخدام بالميروتولياتي لهذا الاصطلاح .

ما ان اسس ستالين « الكومنفورم » في محاولة منه لاعادة فرض الانضباط والمركزية

على الاحزاب الشيوعية ، حتى واجـــه تحدياً لسلطته متمثلاً بالاعضاء اليوغسلافيين في التنظيم الجديد . لقد اسلفنا حول الحماس الذي ابداه هؤلاء خـــلال جلسة الكومنفورم الافتتاحية مؤيدين آخر انعطاف في سياسة ستالين وجدانوف . فلا عجب ان يُعتبر تيتو ورفاقه ، حتى عام ١٩٤٨ ، اشد الستالينيين الاوروبيين اندفاعاً وتزمتاً . فهذه السمعة ، بمعنى ما ، سبب من الاسباب التي ادّت الى تسنّمهم المناصب القيادية . وليس من قبيـل الصدفة ان يكون تيتو قد رقّي الى مصاف زعيم حزبه خلال اقامته في موسكو إبان التصفيات الكبرى . كان زعماء الحزب السابقون قد قضوا خلال هذه التصفيات ؛ ولـكي يحظى اي زعيم شيوعي بثقة موسكو ، في تلك الآونة بالذات ، كان لا بدّ له من ان يتمتع بقدر وافٍ من الالتزام بالخط الرسمي والتعصبّ . كان موقفه من الحرب الاهلية الاسبانية ، حيث تولت اجهزة .G. P. U الروسية تصفية العديد من الشيوعيين والمناهضين للفاشية ، مماثلاً لموقف اي من الدمى الستالينية . الا ان سنوات الكفاح الثوري المسلح في يوغسلافيا ما لبثت ان حولت هذه الدمية الى رجل والى قائد . احسّ ستالين بالتغيّر الذي طرأ ، فتـوجس شراً . كان يريد من اليوغسلافيين ان يخوضوا حرباً وطنية مناهضة للفاشية » ، لا ان يقوموا بثورة اجتماعية ، فعصوا اوامره . فاتهمهم بالعمل لزعزعة تحالف روسيا مع الولايات المتحدة وبريطانيا و بـ « طعن الاتحاد السوفييتي في الخلف . اتسعت شقة الخلاف بعد نهاية الحرب . فاندفع اليوغسلافيون وراء شعورهم القومي المتأجج ونزعتهم الجذرية المتطرفة ساعين الى ضمّ « ترييستي » الى يوغسلافيـــا ضد مشيئة الانكلو - سكسون وايطاليا . فردعهم ستالين وقد ضاق ذرعـــاً من تأزم النزاع بينه وبين القوى الغربية . فاستنكروا « نزعته الانتهازيـة واستهتاره » . والحوا الى الاستعلاء الذي يعاملهم بـــه مبعوثوه والقـــادة العسكريون الروس ؛ واحتجوا على سوء سلوك القوات السوفييتية في يوغسلافيا ؛ وتفجروا غيظاً عندما اكتشفوا ان شرطة ستالين السرية تجنّد العملاء لها في اوساط الجيش والشرطة في يوغسلافيا . أثارت هـــذه المقاومة الشاذة حفيظة ستالين ، فصمّم على تأديب الشيوعيين اليوغسلافيين مثلما ادّب جميع خصومـــه من الشيوعيين ، فاتهمهم بالبوخارينية والتروتسكية والخيانة والعمالة للاستعمار ؛ وأدان التيتوية كهرطقة في الحركة الشيوعية العالمية . وراح يفاخر قائلاً : « يكفي اشارة من خنصري لكي يزول تيتو». كان اليوغسلافيون ما يزالون يدينون بالولاء لستالين ويرفعون صوره في الاجتماعات والتظاهرات ؛ لكنهم احتجوا على اتهاماته ودافعوا عن انفسهم بضراوة . فردّ ستالين

باعلان حصار اقتصادي وعسكري على يوغسلافيا كان بقساوة حصاره لبرلين دون ان يكون اكثر منه فاعلية .

لاول مرة في حياته ، وجد ستالين نفسه عاجزاً حيال خصم شيوعي . فقد نجح تيتو حيث اخفق هراطقة اهم منه بكثير كتروتسكي وبوخارين. فدولته ، بما تتضمن من شرطة وجيش ، تحميه من ضربات ستالين ؛ والحماس الوطني والاخلاص لشخصه اللذان اثارهما بتحدّيه لموسكو يشكلان درعاً إضافياً له . لقد اسدى تيتو ضربة قاسية ، لا علاج لها ، لسلطة ستالين ومكانتـه . فوجد العديد من الشيوعيين الاوروبيين الشرقيين في سلوكه مثالاً يقتدى به . كانت مآخذهم على ستالين اكثر من مآخذ تيتو ، وهم مثله يطمحون الى تأكيد كرامتهم القومية وبالتالي اعادة الاعتبار لانفسهم في اعين شعوبهم باستبعاد تهمة العمالة لروسيا – فلم يكن مستغرباً ان يلقى التحدي اليوغسلافي صدى مشجعاً حتى في اوساط حاشية ستالين .

منعاً لانتشار العـدوى التيتوية ، كان ردّ ستالين متصفاً بذلك المكر البارد الذي طبع تصفياته السابقة . خوّن الشيوعيين الذين يعطفون على التيتوية او يتصلون ببلغراد. وبما ان موسكو بدأت تسحب مستشاريها ومبعوثيها من يوغسلافيا ، اضطرت حكومات اوروبا الشرقية الى الاقتداء بها . وقد اجبر ستالين هذه الحكومات على فرض عقوبات اقتصادية على يوغسلافيا وحتى القيام بمناورات عسكرية عدائية على حدودها . لكن القضاء على كل تعاطف مع التيتوية لم يكن بالامر اليسير ، فالذي تمثله التيتوية ليس عقيدة جديدة او برنامجاً جديداً ، وانما غريزة اولية تحدو بالشجعان والمناضلين الى تأكيد احترام النفس القومي منه والشيوعي ، في وجه دولة كبرى استغل حاكمها اخلاصهم لها على نحوٍ بشع ، واهانهم باستمرار . وكانت هـذه الغريزة موجودة عند الحزبيين المتمسكين بالتطلعات الاممية مثلما هي موجودة عند « الشيوعيين القوميين » . فراحت شرطة ستالين السرية تراقبهم جميعاً متحيّنة الفرصة لاقتناص اية بادرة « تيتوية » تبدو عن اي منهم .

كانت القاعـدة التي انطلقت منها كل القابليات التيتوية هي اعتراف الشيوعيين بمشروعية « تعدّد الطرق الوطنية نحو الاشتراكية » . وقد شدّد ستالين نفسه على هـذا

الموضوع في السنوات الاولى من فترة ما بعد الحرب ، عندما كان يعمل على شل مختلف الحركات القومية المعارضة للسيطرة الروسية في اوروبا الشرقية . وها ان اليوغسلافيين يستخدمون هذا الشعار ضده ؛ فبرز في كل عاصمة من عواصم اوروبا الشرقية زعماء ستالينيون كبار ، من امثال غومولكا و كليمانتس ورايك و كوستوف وغيرهم ، اخذوا هذا الشعار على محمل الجد . لم يلائمهم الخط الجديد الذي تبناه الكومنفورم . فهم يصرّون على انتهاج السياسة « اليمينية » « المعتدلة » والقومية التي انتهجوها خلال السنوات السابقة بتشجيع من ستالين نفسه ، فتمسكوا بها بعدما تخلى ستالين عنها . فكان في ذلك هلاكهم . فاتهموا بالتواطؤ مع التيتوية ، واعتبروا مخربين وجواسيس ، فاعتقلوا وتعرضوا للابتزاز والتعذيب واجبروا على الاعتراف بخطاياهم مثلما اعترف بها المتهمون خلال محاكمات موسكو الكبرى . فاعيد تمثيل المشاهد المروعة للاعدام ١٩٣٦ — ١٩٣٨ في كل عاصمة من عواصم اوروبا الشرقية تقريباً بعد مضي اكثر من عقد من الزمن عليها. ففي ايلول من عام ١٩٤٩ ، حوكم رايك وغيره من القادة الهنغاريين ونفّذ بهم حكم الاعدام؛ وفي كانون الاول من العام نفسه لاقى كوستوف وعدد من الشيوعيين البلغاريين البارزين المصير ذاته . فسادت اوروبا الشرقية خلال السنوات الثلاث التالية موجة من المحاكمات الصورية والإرهاب الجماعي . وكان غومولكا حالة شاذة بين هؤلاء الهراطقة لانه تمكن من الانتصار بعد موت ستالين . وانعكست حملات التصفية على الاتحاد السوفييتي نفسه إذ قضى خلالها ن. س. فوزنيسنيسكي، عضو المكتب السياسي والمسؤول الاول فيه عن قضايا التخطيط ، و م. روديونوف ، رئيس وزراء جمهورية روسيا الاتحادية ؛ و كوزنيتزوف وبوبكوف ، المسؤولان عن تنظيم الدفاع عن لينينغراد خلال الحصار الرهيب في اعوام ١٩٤١ — ١٩٤٣ وغيرهم من اعضاء « كتلة لينينغراد » . بعد انقضاء حوالي ربع القرن على هذا الحدث ، لا زلنا نجهل الأسباب التي حدت بستالين الى الشك بهم بالذات مثلما نجهل التهمة الفعلية التي وجهت اليهم. هل عارضوا احدى سياسات ستالين ؟ أم تراهم كانوا طرفاً في التنازع الشرس على السلطة الذي كان دائراً ، داخل حاشية ستالين ، بين جماعة جدانوف وجماعة مالنكوف ؟ هذه المرة ، احاط ستار كثيف من الكتمان بالمحاكمات والتصفيات . فلم يجرؤ ستالين على ان ينقل الى موسكو ولينينغراد صيغة المحاكمات العلنية المتبعة في صوفيا وبودابست بما تتضمنه من اعترافات علنية .

بينما ستالين يضرب بعنف ضد التيتوية ، لاحت في افق الحركة الشيوعية العالمية نزعة

هراطقـــة اقوى واخطر متمركزة في بيكين . كان الشيوعيون الصينيون يفاخرون باستيلائهم على السلطة بالرغم من العراقيل التي وضعها ستالين في دربهم ؛ وهم يعون تمـــام الوعي دورهم التاريخي كبناة استقلال الصين وكقادة ثورة شملت نسبة كبيرة من سكان العالم يقدّر لها ان تترك اثرها على العقود والقرون المقبلة من تاريخ البشرية . وكانوا يتطلعون الى ماوتسي تونغ كمجدّد لامع في امور الستراتيجية الثورية وكقائد ومنظرّ عبقري . وبالرغم من انهم بالغوا في إبراز مساهمات ماو في ميدان النظرية ، فما من شك انه كان اعظم من مارس الثورة منذ لينين واكثرهم حيوية وابتكاراً . وكان ماو بالتأكيد صاحب شخصية اغنى بكثير من شخصية ستالين يتمتع بشجاعة واندفاع لا يتمتع بهما هذا الأخير . غير ان ستالين عامله باستهتار ، ولم يثن ولو مرة واحدة على اعماله فضلاً عن انـه كان يتوجس شراً من سلوكه الشاذ عـن « الصراط المستقيم » . ففي فترة ١٩٢٧ — ١٩٢٨ ، عندما نقل ماو نشاطه من المدينة الى الريف ، تبرأ منه الكومنترن الستاليني وأيّد اقصاءه عن اللجنة المركزية للحزب الصيني . وحتى بعدمـا اعيد الإعتبار لماو ، وبعد ان نجح في تثبيت دعائم الجيش الأحمر وحكومة بينان ، ظلت موسكو تعامله بتحفظ وارتباك . فهو يرى ان الثورة الصينية ، على عكس مثيلتها الروسية ، ينبغي ان تعتمد اولاً باول على الفلاحين ، وان تخاض من الريف الى المدينة بدلاً من العكس . وهذه هي الهرطقة عينها . غير ان ماو صبغ اراءه بالصباغ الستاليني استبعاداً لاي خلاف علني مع موسكو . كان ستالين يدرك مبلغ المكر الذي تنطوي عليه لعبة ماو ؛ وما كان ليتحملها على الاطـلاق لو انها حدثت في داخل حزب شيوعي يعمل في منطقة يعتبرها ستالين ذات اهمية حيويـة بالنسبة له . لكن الصين ظلت تحتل مركزاً ثانوياً في نطاق اهتمامات ستالين حتى عـــام ١٩٤٩ ؛ فضلاً عن ان سلوك ماو كان يبدو عبثياً من حيث جدواه ، ووديعـــاً من حيث مظهره ، بحيث انه لم يجد داعياً لإستصدار تحريم بحقـّه .

ومهما يكن من امر ، فالانصار الصينيون لم يتلقوا اية مساعدة من الاتحـــاد السوفييتي طوال نضالهم الشاق الطويل . لذا كانوا يشعرون بضغينة عميقة ازاءه ، فيخفون خيبة املهم وراء ستار من الابتسامات . في بداية الحرب ، استثارت تصرّفات ستالين المزيـد من التذمر . فالجيوش السوفييتية التي احتلت مانشوريا بعد استسلام اليابان اعتبرتها جزءاً من ارض العـــدو المحتلة ، لا جزءاً من الصين . ويُذكر هنا ان اليابانيـين اقتطعوا تلك المقاطعة الضخمة عن الصين ووضعوها تحت حكم سلالة مانشورية تدين لهـم بالولاء التام .

في عام ١٩٣٥ ، باع ستالين « سكة حديد مانشوريا » – التي يملك الاتحـــاد السوفييتي امتيازها – من هذا الحكم العميل بالذات في محاولة منه لاسترضاء اليابان . ثم استعادهـــا لروسيا عام ١٩٤٥ بدلاً من ان يتركها للصين . وبالاضافة الى ذلك ، أحـــكم السوفييت سيطرتهم على بورت آرثر ودايرين ، اكبر مرفأين في مانشوريا . تألم الصينيون لكل هذه الاجراءات . لكنهم صعقوا عندما شاهدوا الروس يتصرّفون بصناعات مانشوريا و كأنها مغانم حرب إذ فككوا عدداً من المصانع والمنشآت ونقلوها الى الاتحاد السوفييتي . تعمد اليابانيون حرمان الصين من صناعاتها وراحوا يطوّرون الصناعة الثقيلة في مانشوريا تلبية لحاجاتهم ، فكان لا بدّ للصينيين من ان يعتبروا مانشوريا قاعدة الانطلاق للاضطلاع بمهام التنمية الاقتصادية في الصين بأسرها . فما كان من حكومة ماو إلا ان نقلت إلى موسكو اصداء الاســـتياء العميق الذي اثارته الاجراءات الروســـية مطالبةً باسترداد المنشآت والآليات التي استولى عليها الروس .

انطوت تلك الخطوة على بذور خلاف عميق وعلى مقدمات النزاع الذي شغل خلفاء ستالين بعد عقد من الزمن . وادرك ستالين ان اية بادرة تصلـّب او اية عبارة غير موزونة قد تؤدي الى انفجار لا تحمد عقباه . لذا تصرّف بحذر شديد وسيطرة على النفس . فمـا ان اعلنت « جمهورية الصين الشعبية » حتى دعا ماو لزيارة موسكو .

في كانون الاول ١٩٤٩ ، استقبل ضيفه في الكرملين بكل حفاوة وودّ وإجـلال . كانت تلك ايام الحملة الكبيرة ضد التيتويين وضد « كتلة لينينغراد » . فقـــد قضي على فوزنيسنسكي لبضعة اشهر خلت ، اما محاكمة كوستوف فهي لا تزال جارية في صوفيا . لكن ستالين تصرّف ، وسط حمأة الاضطهاد هـــذه ، تصرّف صاحب الدار المضياف والرفيق الاكبر المستعد لبذل ما بوسعه لمساعدة الرجل الذي تحوّل فيما بعـــد الى اخطر واعظم الهراطقة الذين عرفهم العالم الشيوعي . فقـــد استخلص العبر من الاخطاء التي ارتكبها في معاملته لتيتو . وادرك انه لا يستطيع ان « يرفع اصبعه الصغيرة » على ماو ، ولا حتى ان يهزّ قبعته بوجهه . فاتسم سلوكه بالرقة والودّ .

لكن الوضع حرج ، فاضطر الى استكشاف مكامن الخطورة فيه خاصة وانه مترددّ في التخلي عن غنمه في مانشوريا . فجرَّ ماو الى تفسيرات مستفيضة ومساومـات بطيئة تخلـّلتها المآدب الرسمية والاحاديث الخاصة يتبادل خلالهـا الزعيمان الثوريان الاحاديث

الحميمة . الا ان الاحتكاك الشخصي بين الرجلين كشف لكل منهما مدى تعارض طبعه ومواقفه عن طبع الآخر ومواقفه . فقد تحوّل ستالين نهائياً الى « سياسي عالمي » والى قائد عسكري عظيم ومتعجرف ورئيس مؤسسة بيروقراطية جبارة – وهو في ذلك كله بعيد عن شعبه بقدر ما كانه اي حاكم قيصري . اما ماو ، فهو لا يزال يحمل كثيراً من جوّ العشرين سنة التي قضاها في الجبال والكهوف حيث قاد اطول حرب اهلية في التاريخ المعاصر ؛ وقد عاش طوال تلك الفترة وسط افقر الفلاحين وقاتل ومشى جنباً الى جنب مع انصاره رافضاً نيل اي امتياز عنهم بالنسبة للطعام او الكساء ، عاملاً على الحيلولة دون تولّد تباين اجتماعي بين الضباط والأنفار . واذا كان الكثير من خصائص القيصرية والديانة الارثوذكسية قد فرضت نفسها على العقيدة الماركسية في شخصية ستالين ، فان العقيدة اللينينية عند ماو ، في المقابل ، تعبِّر عن نفسها عن طريق تقاليد الانتفاضات الفلاحية الشرقية والإرث الثقافي الذي يحمله المثقفون الكونفوشيون . كلاهما يملك قدراً لا متناهياً من المكر ، ولكن يعدّل منه عند ماو طبع انساني وذهن مثقف اكثر مما عند ستالين الثورة الصينية بالنسبة لماو هي رسالته وحياته كلها . اما بالنسبة لستالين فهي ثمرة سقطت بين يديه صدفةً لكنها تنطوي على قدر كبير من الخطورة . فجأة كسب ستالين حليفاً جديداً وهو في اوج الحرب الباردة . فمن الآن وصاعداً سوف تحمي الصين حدود روسيا الآسيوية الشاسعة ممّا يسمح لها بان تحصر قدرتها العسكرية في اوروبا . وبالرغم من ان يوماً سيأتي يتحدى فيه قادة الصين الجدد موسكو ، فانهم في الوقت الحاضر بأمسّ الحاجة الى ستالين لا يسعون بشغف الى استعادة الصناعات المانشورية وحسب وانما ايضاً الى الحصول على المساعدة العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية السوفيتيية بالاضافة الى الحماية .

بعد حوالي ثلاثة اشهر ، توصل ستالين وماو الى عقد الصفقة ووقعا على معاهدة تحالف رسمية في ١٤ شباط ١٩٥٠ . تعهد ستالين باعادة « غنيمة الحرب » وبالتخلي عن سكة حديد مانشوريا « قبل نهاية عام ١٩٥٢ » . كذلك تخلى عن بورت آرثر ، المرفأ الذي حصل عليه بمقتضى اتفاق سري مع روزفلت محتفلاً بالحدث على انه ثأر لروسيا عن هزيمتها على يد اليابان عام ١٩٠٤ وتنفيذ لحكم العدالة التاريخية . لكنه احتفظ بحق الإشراف على مرفأ دايرين ذي الاهمية الستراتيجية البالغة وعلى خطوط المواصلات المانشورية . والتزم بان يساعد الصين بسخاء في جهودها الرامية الى التنمية الاقتصادية .

وبهذه الطريقة حال دون اندلاع المناقشة بينه وبين ماو ودون نشوب نزاع بين حزبيهما وحكومتيهما .

* * *

اندلعت الحرب الكورية بعد اربعة اشهر من ذلك التاريخ ؛ فافترض العديد من المراقبين ان ماو وستالين خططا لها في موسكو . طوال فترة من الزمن كانت المناوشات والاصطدامات تتوالى بين القوات الشيوعية الشمالية والقوات الجنوبية المعادية للشيوعية على طول خط العرض ٣٨ الذي يشطر البلد الى نصفين منذ استسلام اليابان . في حزيران ١٩٥٠ وجّه كيم إيل سونغ ، رئيس الادارة الشيوعية ، الى حكومة سينغمان راي الجنوبية تهمة الاعتداء على حدوده ، واصدر امراً بشن هجوم شامل عبر خط العرض ٣٨ . وتشير الانتصارات السريعة الاولى التي احرزتها القوات الشمالية الى ان الضربة محكمة التخطيط بحيث لا يُستبعد ان يكون ستالين وماو قد علما به سلفاً او حتى قد اصدرا اوامر الهجوم نفسها . ليس في تأييد ماو لهذه المغامرة ما يدعو الى الاستغراب . فان محاولة الشيوعيين السيطرة على كوريا باسرها تبدو بالنسبة له كتكملة طبيعية للثورة الصينية ؛ يحول نجاحها دون السماح لاية دولة معادية باستخدام كوريا كقاعدة للهجوم على الصين كما حصل مراراً في الماضي . اما دوافع ستالين فهي اقلّ وضوحاً . كان يحاول في تلك الفترة تحاشي الاصطدام المسلّح مع الغرب ؛ ولم يكن له اهتمام استراتيجي كبير في كوريا . فحدودها مع الاتحاد السوفييتي لا تتجاوز الاميال العشرة ، في حين ان حدودها مع مانشوريا يزيد طولها عن ٥٠٠ ميل . لكن ستالين كان يتضرّف على هدى المناقشة الضامرة بينه وبين ماو . فبعد ان اساء تقدير الفرص المفتوحة امام الثورة الصينية منذ فترة ليست بالبعيدة وبشكل مخجل فعلاً ، اراد العمل على استبعاد اي انطباع عالق بالاذهان حول خَفَره السياسي ، ساعياً لان يثبت انه في مضمار الستراتيجية الثورية لا يقلّ شجاعة عن ماو .

للوهلة الاولى، بدت المخاطر قليلة جداً. لقد انقضت سنتان على جلاء جيوش الاحتلال السوفييتية عن كوريا الشمالية ؛ وما ان شارف عام ١٩٤٨ على نهايته حتى كانت القوات الاميركية قد انسحبت بدورها عن الجنوب . وبالاضافة الى ذلك ، اعلن الاميركيون بانه ليس لهم مصلحة حيوية يدافعون عنها في كوريا والمحوا الى ان البلد « يمكن الاستغناء

عنه » . لذا كان لستالين ما يبرّر الاعتقاد بان كيم إيل سونغ مقدم على حرب محلية لن تتحول الى نزاع عالمي كبير . واكتشف خطأه عندما قررت الولايات المتحدة التدخل في كوريا داعيةً الامم المتحدة الى الاقتداء بها . وقد ارتكب خطأ ثانياً عندما عرض الاميركيون الموضوع على مجلس الأمن . هناك ، كان باستطاعة المندوب السوفييتي تجميد المشروع الاميركي باستخدام حق الفيتو الذي كان يلجأ اليه باستمرار حتى بالنسبة لأتفه المواضيع . لكنه آثر بدلاً من ذلك الانسحاب من المجلس خلال الجلسة الحرجة تنفيذاً لتعليمات موسكو. فاستغلت الولايات المتحدة وحلفاؤها غياب المندوب الروسي لاستصدار قرار يجبر الدول الاعضاء في الامم المتحدة على ارسال قوات مسلحة الى كوريا للقتال ضد الشيوعيين . هكذا تحولت الحرب المحلية المحدودة الى نزاع دولي ظل يهدّد طوال سنوات ثلاث باندلاع حرب نظامية بين الصين والولايات المتحدة أو حتى باندلاع حرب عالمية جديدة . بعد ان تورّط ستالين في هذا الوضع ، قرر التزام جانب الحذر . فمنع القوات الروسية من الاشتراك في القتال بالرغم من انه ارسل السلاح الى الكوريين الشماليين والى « المتطوعين » الصينيين الذين تصدوا للقوات الاميركية عند خط العرض ٣٨ . ثم ابقى على باب المفاوضات مفتوحاً الى حين تسنح الفرصة المناسبة .

* * *

طغت الحرب الكورية ، بما تضمنته من مجازفات وأخطار ، على السنوات الثلاث الاخيرة من حكم ستالين . كان لا يزال ينطلق من موقع ضعف شديد . صحيح ان الاتحاد السوفييتي فجّر قنبلته الذرية الاولى قبل سنة من اندلاع الحرب الكورية ، لكن الولايات المتحدة تراكم الاسلحة الذرية منذ ما يزيد عن خمس سنوات . كان القائد الاعلى لقواتها في الشرق الاقصى ، الجنرال ماك آرثر ، يطالب بقصف مانشوريا ، الامر الذي يضطر الاتحاد السوفييتي الى نجدة الصين بمقتضى المعاهدة المعقودة بين البلدين مؤخراً . ما عاد باستطاعة ستالين ان يعتمد ، كما فعل في السابق ، على النزعة السلمية الشعبية في اميركا وعلى العطف على روسيا لتفادي اتساع الحرب ؛ ذلك ان الرأي العام الشعبي في الولايات المتحدة بات شديد العداء لروسيا . وبالرغم من ان التدخل العسكري الاميركي في كوريا قيّد حرية تحرك قواتها في اوروبا ، فقد كان ستالين مضطراً ، على كل حال ، للمحافظة على التعبئة العامة لقواته النظامية ، ولاجبار الصناعة النووية على بذل مجهودات ضخمة ،

والابقاء على الاقتصاد السوفييتي في حالة من التأهب شبه العسكري وتضييق حالة الحصار على الاتحاد السوفييتي واوروبا الشرقية . نجح في تحقيق بعض اهدافه الرئيسية . وقاوم الضغوط الغربية بقدر من الحزم كان كافياً لردع الاميركيين عن تصعيد الحرب أو توسيعها؛ كذلك حققت الصناعة النووية السوفييتية انتصارات سريعة فانتجت أول قنبلة هيدروجينية عام ١٩٥٣ أي بعد فترة وجيزة من انتاج الاميركيين لقنبلتهم . وبعد ان بلغت الفروع الاساسية من الاقتصاد السوفييتي عام ١٩٤٨ - ٤٩ المستوى الذي كانت عليه قبل الحرب ، تمكنت من مضاعفة انتاجها بنسبة ٥٠ ٪ في سنوات ستالين الاخيرة . تسارعت عملية تحديث وتمدين الاتحاد السوفييتي . ففي اوائل الخمسينات ازداد سكان المدن بنسبة ٢٥ مليون نسمة . وبلغ عدد الطلاب في المدارس الثانوية والجامعات ضعفي ما كان عليه عام ١٩٤٠ . هكذا انتشل ستالين روسيا من دمار الحرب العالمية وأرسى القواعد الجديدة لتقدمها الصناعي والعسكري الذي ما لبث ان ادهش العالم .

إلا ان بؤس الحياة الروسية ظل بشعاً بقدر ما كان في فترة التراكم الاولي في الثلاثينات وربما كان الشعب اقل احتمالاً له مما كان في السابق . فمعظم السكان يعيش على وجبات طعام مكونة من البطاطا والملفوف ؛ ويرتدي الأسمال ؛ ويسكن الاكواخ . وفي حين كانت المصانع الممكننة الحديثة في الاتحاد السوفييتي تضاهي مثيلاتها في الولايات المتحدة من حيث الجودة والفاعلية ، كان المستهلك الروسي متخلفاً بنصف قرن على الاقل عن المستهلك الاميركي . فالمواطن السوفييتي يستهلك اقل من ثلث السلع التي يستهلكها المواطن الاميركي ، أو ربما اقل من الربع . تأزمت حالة السكن الى درجة لا تطاق مع التضخم المطرد في حجم سكان المدن . ولم يكن غريباً البتة ان تجد في المدن الكبيرة عدة أُسر تتقاسم غرفة واحدة ومطبخاً واحداً . لم تبذل الحكومة جهداً كافياً لحل مشكلة هؤلاء ، فالمدن المدمرة يعاد بناؤها ببطء . وقد أمر ستالين بان تشاد ، وسط صحارى الدمار والاكواخ البائسة ، بنايات وساحات عامة ضخمة لا تضاهى من حيث انعدام الاناقة فيها ، فباتت نماذج خالدة للابهة البيروقراطية وبشاعة الذوق .

إلا ان اسوأ النكسات اصابت القطاع الزراعي . ففي السنوات الاربع الاخيرة من حكم ستالين ، بلغ معدل منتوج الحبوب ٨٠ مليون طن ، وقد كان يبلغ ٩٥ مليون عام ١٩٤٠ و ٨٦ مليون عام ١٩١٣ . كذلك كانت الثروة الحيوانية اقل منها عام ١٩١٣ .

لذا تعرضت مؤونة سكان المدن لأخطـــار عظيمة بالرغم من ان الحكومة صادرت أو اشترت بثمن رمزي حوالي نصف منتوج الحبوب . كان ساكن المدينـة يستهلك اقل من نصف رطل من اللحم وربع رطل من الدهن في الاسبوع . المزارع بحاجة الى اليد العاملة والجرارات والآلات ووسائط النقل والاسمدة . أمـا الكولخوز فقد ظل كائناً اقتصادياً مخضرماً ، نصفه جماعي ونصفه الآخر فردي ، فالى جانب الحقل المملوك جماعياً،استمرت بقايا قطع الارض الصغيرة المملوكة فرديـاً التي تعلق بها الفلاحون بشدة مركزين جهودهم عليها ومهملين الحقول المملوكة جماعياً . سعت الحكومة لتأمين مؤن الغذاء عن طريق الادارة البيروقراطية : فحددت للفـلاح نوع الحبوب الذي يتوجب عليه زرعه ، وحجم المحصول الذي يجب ان تنتجه كل قطعة ارض . وتشكلت جحافل من المفتشين سرعان ما حولت ابسط عملية زراعية روتينية ، من ذرّ أو فلاحة أو حصاد ، الى « معركة ضارية على جبهة المؤونة الغذائية » .

وأخيراً وجدت روسيا نفسها عام ١٩٥٠ في غمرة انتفاضة جديدة يمكن تسميتهـا : حملة التجميع الزراعي الثانية . فتم دمج ٢٤٠ الف مزرعة جماعية ، تشمل الواحدة منها ألوف الفدادين ، في ١٢٠ الف وحدة كبيرة ، ثم في ٩٣ الف وحدة أكـبر . كانت ردة فعل الفلاحين لعملية الدمج هذه اقرب الى اللامبالاة الاستسلامية منها الى المقاومةالضارية اليائسة الـــتي ابدوها ضد حملة التجميع الاولى . لكن الحالة الزراعية ظلت مضطربة ، وسرعان ما انقسمت الفئة الحاكمة على بعضها حول الخطوات التالية الواجب اتخـاذها . اقترح ن. س. خروتشيف اعادة تنظيم المزارع بتحويلها الى مصانع حبوب ، وإسكان المزارعين في « مدن زراعية » (Agrotowns) . رفض ستالين الفكرة ، فقد خاف ،في غمرة وضع دولي متأزم ، من تعريض البلد لمثل هذا التغيير الجذري .

تضافرت عوامل الضعف والاضطراب الداخلية والعداء الخارجي على دفـــع ستالين باتجاه إحكام عزلة روسيا عن العالم بطريقة لم تُعرف من قبل . فأصدر قوانين تعتبرالزواج من الاجانب جرماً يعاقب عليه قانونيـــاً ، وتعتبر كل موظف يفشي بمعلومات ادارية ، بغض النظر عن قيمتها وعن الحيز من الحياة الروسية الذي تتعلق به ، خائناً ؛ كما تعتبر كل اجنبي يبدي اهتماماً بمثل هذه المعلومات جاسوساً . مُنـــع جنود قوات الاحتـلال العائدون من المانيا والنمسا وغيرهما من التحدث عن تجاربهم . وراحت الصحف تصور

الاوضاع الاجتماعية في الغرب ، بما فيه الولايات المتحدة ، بألوان قاتمة الى درجة تستوجب على المواطن الروسي ان يرى ظروف حياته البائسة مشرقة وردية . سُدّت جميع المنافذ التي تصل روسيا بالعالم ، وراح القابعون وراءها يمارسون طقوس النرجسية القومية . نُفخت عظمة روسيا القيصرية الى احجام لم تعرف حتى خلال الحرب . ومجّد المؤرخون كل بادرة من بوادر الاحتلال والغزو الامبرياليين ؛ وعرضوا كل عنف مارسته روسيا على الامم الخاضعة لها على انه فعل إنعتاق وتقدم ينبغي على الامم المضطهَدة ان تشكرها عليه . تحول نقولا الاول وكاترين العظيمة الى محسنَين وحاميَين لشعوب القفقاس وآسيا الوسطى كما تحول قادة هذه الشعوب • ممن قاوم الغزو القيصري وحمل لواء الاستقلال، الى مجرد قادة رجعيين وعملاء لتركيا أو الانكليز . وعُرض التاريخ على تلامذة المدارس على انه سلسلة متصلة من المؤامرات الاجنبية الشريرة قضي عليها بفضل حيطة اجدادهم وبسالتهم . حُرِّم على أي مواطن الشك في ان روسيا ، وروسيا وحدها ، هي ملح الارض ومهد الحضارة والبوتقة التي ينصهر فيها كل ما هو عظيم ونبيل في النفس البشرية. وانتشرت فكرة غريبة تقول ان الروس كانوا روّاد التكنولوجيا الحديثة وأصحاب الاكتشافات والاختراعات العظيمة فيها ؛ وان العالم لم يعزُ هذه الاعمال الخارقة للانكليز والالمان والفرنسيين والاميركيين إلا بسبب جهله . فامتلأت اعمدة الصحف يوماً بعد يوم بروايات عن انباء أُسر بوبوف وايفانوف الخارقين الذين كانوا أول من صمم المطبعة ، وآلة البخار ، والطائرة ، والمذياع . وما كان ينقص حملة إطراء الذات هذه إلا ان تعلن صحيفة « البرافدا » ان الانسان البدائي الذي كان اول من بنى الدولاب كان يسكن على ضفاف نهر « موسكفا » ، أو ان بروميثيوس من اصل روسي . فمن غير الروس قادر على مثل هذه الاعمال البطولية الخارقة ؟

وكما سبق لي القول عام ١٩٥٠ :

« انهم يعلِّمون روسيا ان تحذر من العالم الخارجي وتحتقره ، ألا تمجّد إلا عبقريتها الذاتية ، وألا تكترث إلا لعظمتها ، وان تكتل على انانيتها وحدها ، وان تتطلع الى الانتصارات التي حققتها اعتماداً على قواها الذاتية. تحاول الستالينية ان تنسب لروسيا كل عبقريات الامم الاخرى . وتعلن ان الروسي يرتكب جرماً عندما يفكر بعظمة امة اخرى ، ماضياً أو حاضراً - وهذا ما يسمى « التبعية

للمدنية الغربية » – مثلما يرتكب الاوكراني والجيورجي والاوزبكي جرماً مماثلاً عندما يرفض التبعية للمدنية الروسية » .

هكذا بات تمجيد الذات واحتقار الغير علاجاً للشعب من عقدة النقص الذي تعتوره؛ ووقايةً له من انحرافات الثقافة الغربية التي انبهر بهـا جيل بعد جيل من الانتلجنسيا ، ومن الاثر المحبط للعزائم الذي تتركه الثروة الاميركية في اوساطهم ؛ فتشتد عزيمته ويصلب عوده لمواجهة مشاق الحرب الباردة أو حتى النزاع المسلح عند الضرورة . والواقـع ان حرارة الدعاية الشوفينية ما هو إلا مقياس لحمأة الحرب التي يعيش البـلد في ظلها .

* * *

لا عجب ان تعود عُقد العداء للسامية الى الظهور بعد ان كانت شبه ضامرة وسط هذا الجو من الاستعلاء القومي الفظ . والواقع ان العداء لليهود لم يتقلص بنسبة ملحوظة رغم كل الجهود الـتي بذلتها الحكومات البلشفية ، في عهدها الذهبي ، لازالة تلك العقد والحساسيات . فالعـداء للسامية يتغذى من موارد عديدة : من الديانة الارثوذكسية وتقاليد المجازر المحلية ضد اليهود ؛ من الاحتكاك بين السكان والنازيين خلال الحرب ؛من وضع اليهود الاقتصادي ذي الطابع الحرفي والتجاري الغالب الذي يفسر صعوبة تكييفهم مع الاقتصاد المؤمم فبرزوا في الاوساط التجارية الشرعية أو غير الشرعية المستفيدة من ندرة السلع بعد الحرب ؛ من كثرة عدد اليهود في اوساط القادة البلاشفة الاوائـل ؛ من مكانتهم المرموقة نسبياً ، حتى بعد القضاء على هؤلاء القـادة ، في القطاعات الوسيطة من البيروقراطية الستالينية . غالباً ما ينظر الشيوعي الساذج الى اليهود على انهـم آخر بقايا اقتصاد المدن الرأسمالي ؛ بينما ينظر عدو الشيوعية اليهم على انهم اعضاء نافذين في اوساط الفئة الحاكمة .

كان موقف ستالين غامضاً بهذا الصدد . فهو متحرر شخصياً من النزعـة العنصرية يرفض خرق العُرف الحزبي القديم المناهض للاسامية . وفي بطانته عـددٌ لا بأس به من اليهود ، علماً بانهم كانوا أكثر عـدداً ايام لينين . ترأس ليتفينوف الجهاز الدبلوماسي السوفييتي طوال عقـد من الزمن ، ميكليس هو المرشد السياسي الاكبر في الجيش ؛

زافلافسكي وأهرنبورغ هما من اشهر مدّاحي ستالين . لكنه لم يتوان قط عن اللعب على مشاعر العداء لليهود عندما كان ذلك يخدم مصالحه . فخلال الحملة ضد المعارضة داخل الحزب ، استغل جماعته الاصل اليهودي لتروتسكي وزينوفييف وكامينيف وراديك الى ابعد حد . وكان فيشنسكي يشير اليهم باستمرار خلال محاكمات ١٩٣٦ — ١٩٣٩ على انهم « اناس بلا وطن » ومخلوقات تفتقر الى اي حسّ قومي روسي . وعندما راحت الدعاية الهتلرية خلال الحرب تتهجم على « الحرب اليهودية » وعلى المرشدين السياسيين اليهود المشرفين عليها داعية الروس والاوكرانيين الى الانتفاض ضدهم ، لم يرد دعاة ستالين على هذه الاتهامات الا بالصمت المحرج . فقد منعهم ستالين نفسه من شن هجوم مضاد يفضح امام جماهير الشعبية النزعة الهمجية المقيتة التي ينطوي عليها العداء للسامية عند هتلر . كان يخشى ان تستخلص هذه الجماهير من الهجوم المضاد ان في ادعاءات النازيين شيئاً من الصحة بحيث يبدو هو في دور المدافع عن اليهود ، وهذا دور يرفض ان يلعبه باي حال من الاحوال. وكان يخاف ايضاً من العطف الذي تتمتع به نزعة العداء للسامية — واذا بالحماس الذي اعربت عنه العناصر الاوكرانية والروسية المناوئة لليهود ، في المناطق المحتلة ، إذ هبت لتلبية نداء النازيين ، يثبت له صحة هذا الخوف .

ولكن بينما كانت الجيوش الهتلرية تتقدم ، بذلت السلطات السوفييتية كل ما بوسعها لاجلاء اليهود عن المناطق المهددة بالاحتلال ؛ علماً بان اليهود انفسهم لم يصدقوا في بعض الاحيان — كما في ثاغانروغ مثلاً — العواقب الوخيمة التي تنتظرهم تحت الاحتلال النازي فرفضوا النزوح . كذلك سمح ستالين بتشكيل « اللجنة اليهودية ضد النازية » التي ضمت شخصيات مرموقة ؛ فاهابت بيهود الغرب ان يؤيدوا الاتحاد السوفييتي . غير ان « اللجنة » باشرت اعمالها في ظروف مأسوية ، ففي عام ١٩٤٢ لجأ اثنان من اعضائها الى روسيا وهما هنريك اهرليش وفكتور اكثر من قادة منظمة « البوند » اليهودية — البولونية واعضاء اللجنة التنفيذية للاممية الاشتراكية ، غير ان السلطات السوفييتية القت القبض عليهما وأعدما بتهمة « العمالة للنازيين » . قاتل اليهود المنضمون الى القوات المسلحة ببسالة ونالوا الاوسمة والترقيات الى ارفع المراتب العسكرية . ولكن لم يعترف بفضلهم **كيهود** . فقد كانوا شبه مندثرين كقومية . التزمت الاجهزة الدعائية بالصمت المطبق بصدد ابادة يهود اوروبا وراء خطوط العدو . وبالكاد كانت تذكر معسكرات الموت في آوشفيتز او مايدنيك ، او كانت ترد على ذكرها بطريقة لا تسمح بالاستنتاج ان معظم الذين قضوا

فيها هم من اليهود . بعد الحرب ، عوقب المواطنون السوفييت الذين تعاونوا مع النازيين او شاركوا في اضطهاد اليهود بتهمة الخيانة العظمى . لكن الحقيقة حول شهادة اليهود ظلت مطموسة حتى في ذلك الحين ، ولعل ابرز رمز لعملية الطمس هذه مدينة « بايي يار » في كييف حيث قضى الالمان على خمسين او ستين الف يهودي خلال احتلالهم لها ، فلم يسمح بتشييد اي نصب او ضريح تخليداً لذكراهم .

الا ان الدور الذي يصعب تفسيره والذي تحكمت به عوامل الاستعجال والاعتباطية اكثر من اي شيء آخر هو الدور الذي لعبه ستالين كعراب (*) لدولة إسرائيل الوليدة . فقد طالب مندوبه في الامم المتحدة بالاعتراف بهـــذه الدولة في وقت كانت حكومات عديدة تتساءل حول شرعية وجودها . ويجدر بنا ان نتذكر بهذا الصدد ان الشيوعيين واليسار باسره في روسيا واوروبا الشرقية ، بما في ذلك معظم الاشتراكيين اليهود ، كانوا تقليدياً مناهضين للصهيونية . شجع ستالين بعض حكومات اوروبا الشرقية على السماح لليهود في دولهم بالهجرة الى فلسطين ، كما حثهم على مد الصهاينة بالسلاح الذي خاضوا به حربهم الاستقلالية . ان الدوافع الكامنة وراء سياسته هذه ليست بعيدة المنال : كانت الانتفاضة الصهيونية في فلسطين مرحلة من مراحـــل تفكك الامبراطورية البريطانية اذ عجلت في انسحاب الانكليز من الشرق الاوسط . وبمـــا ان الولايات المتحدة كانت تدعم إسرائيل ، فقد تصور ستالين ان خطوته من شأنها اعادة العـــلاقات الروسية-الاميركية الى مجراها الطبيعي . ولكن سرعان ما خاب ظنه ، إذ تبين له ان اسرائيل مركز امامي للغرب في الشرق الاوسط ، فراح يلقي اللوم على زعمائها لنكرانهم الجميل . في تلك الاثناء ، اثر انبعاث الدولة اليهودية على اولئك اليهود الروس المتمسكين باهداب التقاليد الثوراتية الذين تألموا لمأساة شعبهم ولشتى ضروب التمييز والاضطهاد التي تعرضوا لها . فلما وصلت غولدا ماير الى موسكو بوصفها اول مبعوث دبلوماسي اسرائيلي ، لاقت حفاوة منقطعة النظير من قبل اليهود الروس . وقد حدث ذلك في وقت كان ستالين يسعى فيه لاستثارة العواطف النرجسية القومية والحقد على الاجانب بغيـــة عزل شعبه عن كل

---

* العراب في الديانة المسيحية صديق او قريب لأسرة الطفل يشرف على عمادته ويتعهد برعايته في حال وفاة والديه الاصليين . (المترجم) .

نفوذ او تأثيرات اجنبية . فاحسّ بالخطر المحدق لما تبدى له على نحو مفاجىء عمق المشاعر التي يكنها اليهود السوفييتيون لإسرائيل . العفوية التي عبروا بها عن هذه المشاعر تحدٍ عنيف للانضباط الآلي الذي فرضه على المجتمع باسره . وهذا امر لا يسعه احتماله باي حال من الاحوال . فكل صدع يصيب البنيان الوحداني الذي اشاده يهدد بتدمير البنيان باسره . فاذا كان سيسمح لليهود بان يعربوا عن مشاعرهم غير المشروعة في تظاهرات غير مرخص بها رسمياً ، كيف يحق له إذن ان يمنع الروس او الاوكرانيين من القيام باعمال مشابهة ؟ لذا ، منع التظاهرات واصدر امراً باعتقال بعض اليهود وإبعادهم. وبدأت اجهزة الدعاية الحزبية تدين دولة إسرائيل كاداة في يد الاستعمار الغربي ، كما ادانوا اولئك اليهود السوفييتيين الذين يعطفون عليها لانهم بذلك ما عادوا يمحضون الوطن السوفييتي ولاءهم الكامل .

ولم يكن ذلك كل ما في الأمر . فقد حرم اليهود من الحقوق القومية التي كانوا يتمتعون بها حتى ذلك الحين : اي حقوق تنمية وعيهم اليهودي الخاص ضمن حدود معينة ، وإرسال اطفالهم الى المدارس الرسمية حيث يتلقون تعليمهم باللغة « اليديش » ، وإصدار مجلاتهم وصحفهم ، وتنمية ادبهم ومسرحهم . بذلك نقض ستالين سياسة كان هو نفسه قد بادر بها عندما كان مفوضاً للقوميات في حكومة لينين . اما المبرر الذي استخدمه فهو ان اليهود السوفييت يتمتعون بالمساواة التامة مع سائر المواطنين ، لذا فقد « اندمجوا » نهائياً مع الروس فلا حاجة إذن الى التمسك باهداب نزعة انفصالية زالت مبرراتها التاريخية . في ذلك القول بعض الحقيقة ولا شك . ولكن ردة فعل اليهود لقيام دولة اسرائيل قد اثبت ان هذا « الاندماج » لم يكن شاملاً او كاملاً . ففي اوساط اليهود الاكثر اندماجاً في المجتمع الروسي ، تولد شعور جديد بالانتماء اليهودي بعد المأساة الاخيرة التي مني بها شعبهم . والواقع ان اجراءات الاندماج القسري التي لجأ اليها ستالين الآن سوف تزيد من حدة ومرارة هذا الشعور . وراحت الاجهزة الرسمية تتذرع بمبدأ رفض التمييز العنصري لتبرر اعمال تمييز يزيد من وحشيتها انها جاءت بعد فترة وجيزة جداً من ابادة النازيين لملايين اليهود .

ورافقت عملية اغلاق المسارح والمجلات ودور النشر اليهودية تصفية للعاملين فيها . كذلك تعرض للاضطهاد مناضلون بارزون في « اللجنة اليهودية ضد النازية » . ومنهم

لوزوفسكي ، الرئيس الأسبق « للاتحاد الدولي للنقابات الحمراء » ونائب وزير سابق في في وزارة الخارجية ، ودافيد برغلسوف واسحق بغيفير وبـــيرتز ماركيش وهم كتاب وشعراء شعبيون باليديش – وقد اعتقلوا جميعاً ثم نفذت بهم احكام الاعدام . كانت حملة الارهاب هذه محاطة بستار كثيف من الكتمان ، وسرعان ما شملت الكتاب الروس ذوي الاصل اليهودي . ولم يشعر العالم بها الا من خـــلال لمحات في الصحف التي راحت تدين بانتظام « النزعة الكوزموبوليتية المقلوعة الجذور » والذين « يشك في ولائهم » ، وتنشر باستمرار الاسماء اليهودية الحقيقية لكتاب كان الجمهور يعرفهم من خلال اسمائهم الروسية المستعارة . وقد قيل فيما بعد ان ستالين كان ينوي ترحيـــل جميـع اليهود الى « بيروبدجيان » ، « المقاطعة اليهودية ذات الاستقلال الذاتي » التي تأسست في العشرينات من القرن الحالي ، تماماً مثلما عمل على ترحيل السكان الالمان من الفولغا ، والتتار من القرم والإنغوش – شاشان . كانت الفكرة صعبة التنفيذ ، حتى اذا افترضنا جدلاً انها خطرت بباله . فالذي حمى اليهود الى حد ما المكانة البارزة التي يحتلونها في القطاعات الحيوية من حياة الامة ، في ادارة الصناعة ، والابحاث النووية ، والجهاز الحزبي ، والعالم الاكاديمي والقوات المسلحة (وكان عدد الاساتذة اليهود في الجامعات عشرين الفاً تقريباً) . ولكن بالرغم من انه يتعذر على الدولة الاستغناء عن خدماتهم ، فقد وجدوا انفسهم محاطـــين بالريبة باستمرار ، يشك بهم رؤساؤهم ويغار منهم مرؤوسيهم . فاذا بالغموض يكتنف مصيرهم . وبالرغم من انهم كانوا يعتبرون اجانب ،فقد حرموا من الحماية التي يتمتع الاجانب بها في البلدان المتمدنة . شعروا بانهم ضحية مؤامرة غامضة وفاجعة . واذا بغمامة الشك فوق رؤوسهم تزداد اسوداداً وخطراً في الايام الاخيرة من حكم ستالين .

* * *

طوال سنوات عديدة ، عجزت مظاهر « القيادة الجماعية » عن الحد من تفرد ستالين بالسلطة ، واتخذت « عبادة الفرد » احجاماً عبثية مستبعدة التصديق . اغدقت عليـه القاب من نوع : « اب الشعوب » ، « اعظم عباقرة التاريـــخ » ، « صديق الشغيلة ومعلمهم » ، « شمس الانسانية الساطعة » ، « مانح الحياة للاشتراكية » . ولم يخل مقال صحفي او قصيدة ، او خطاب وقرار حزبي او نقد ادبي او حتى دراسة علمية من هــــذه الالقاب . وفي تسلسل رواد الماركسية الذي يضعه جنباً الى جنب مع ماركس – انغلز

ـ لينين ، بات ستالين مارداً جباراً حيال اقزام . وإذا كان الملوك الاستبداديون يحكمون بـ « نعمة الله » ، فهو يحكم بـ « نعمة التاريخ » ، فجرى تأليهه على انــه صانع التاريخ . وإذا بالامة الروسية النبيلة التي يفترض انها متفوقة على سائر الامــم ، تجثو راكعة عند قدميه . ومع كل انبلاجة فجر ، راحت البرافدا تنشر على صفحاتها الاولى « رسائل الى ستالين » كلها إجلال ومديح ؛ وسرعان ما حذت حذوها سائر الصحف . وبمناسبة عيد ميلاده السبعين ، في كانون الاول ١٩٤٩ ، تدفق على البرافدا سيل من رسائل التهنئة بحيث ظلت تنشرهــا في كل عدد تقريباً طوال سنوات ، وكنت تجد على صفحاتها تهاني القراء لستالين السبعيني حتى بعد وفــاته . كذلك جرى تحويل « متحف الثورة » الشهير في موسكو الى معرض للهدايا التي انهالت عليه من كل مصنع ومنجم وكولخوز ونقابة وخلية حزبية ومدرسة في طول البلد وعرضه . فكأن الثورة الصينية والصراعات العنيفة مــع الغرب والمنجزات الجبارة في ميدان التصنيع مجرد نوافل إذا ما قورنت بـ « عيد الميلاد التاريخي » ؛ وكأن الهدف الوحيد الذي يسعى اليه ٢٠٠ مليون من المواطنين السوفييت في حياتهم الفانية هذه هو عبادته وإغداق الهدايا عليه . ولكي لا تقضي هذه العبادة الجماعية على نفسها بنفسها عــبر التكرار الممل ، اضطر المشرفون على هذه الطقوس الى استنباط مدائح متجددة باستمرار من مخيلاتهم الجرداء ، فاستثاروا اعجاب الجمهور بألقاب جديدة وبالغة الغرابة .

يقول خروتشيف : « استخدم ستالــين كل الوسائل المتوافرة لاستجلاب التمجيد لشخصه ». اشرف بنفسه على اصدار سيرة رسمية لحياته ، ولما وجد ان « المدائح المستبعدة التصديق » التي احتوتها غير كافية لارضاء غروره ، اضاف اليها بنفسه عبارات من نوع : « ان ستالين هو الخلف الصالح المكمّل لمنجزات لينين ... انه لينين اليوم الحــاضر » ؟ « ان العلم الحربي العسكري المتقدم في الاتحاد السوفييتي قد لاقى مزيداً من التطور على يد الرفيق ستالين ... في مراحل الحرب المختلفة ، تفتقت عبقرية الرفيق ستالين عن الحلول الصحيحة ... » ؟ « تجلت موهبة ستالين العسكرية في الدفاع والهجوم على حد سواء . ان عبقرية الرفيق ستالين قد مكنته من ان يتكهن خطط العدو ويهزمها » . ثم هــذه اللمسة الاخيرة المنقطعة النظير : « ان الرفيق لا يسمح اطلاقاً لأدنى بادرة عجرفة أو غرور أو اعتداد بالنفس من ان تسيء الى عمله » . فكأننا هنا امام مدمن على المخدرات ، يتحرق شوقــاً للبخور الذي يحرق من اجله ، فيحقن نفسه بكميات متزايدة باستمرار من

هـــذا المخدر . ويبدو انه لا يزال يحاول الانفلات من الشعور بالنقص الذي ينهشه ، من التردد الذاتي ، والعزلة التي يشعر بها وهو في سؤدد القوة ، وأخيراً من الخوف الذي يعتريه كلما راح يحدق بالهوة السحيقة التي تفصل بينه وبين شعبه . وكان اثر هذا التملق والاطراء على الاذهان التي تعرضت لهما باستمرار الاعتقاد بانه قوة تكاد ان تكون خارقة لا تحول ولا تزول – قوة من العبث مقاومتها حتى في افكار المرء ومشاعره الذاتية .

ترك لنا خروتشيف وصفاً حياً لبطانة ستالين في تلك السنوات . والواقع ان ما من قيصر روماني منحط أو أمير من امراء اسرة « بورجيا» عامل افراد حاشيته باحتقـــار ومزاجية مثلمـــا كان ستالين يعامل ابرز شخصيات الدولة السوفييتية وأعضاء المكتب السياسي :

« كان يتصرف بالنيـــابة عنهم ... دون ان يسألهم رأيهـــم في مواضيع اختصاصهم ... ؛ وغالباً ما كان يخفي عنهم القرارات التي يتخذها بصدد شؤون هامة في الدولة أو الحزب ... طوال سنوات الحرب جميعها لم يعقد اجتماع موسع واحد للجنة المركزية ... صحيح انه قد جرت محاولة لعقد اجتماع للجنة المركزية في تشرين الاول ١٩٤١ . ودعي الاعضاء من مختلف المنـــاطق للمجيء الى موسكو . عبثاً انتظروا طوال يومين . فلم يتنازل ستالين للالتقاء بهم أو التحدث اليهم » .

ويشير خروتشيف ان تسلط ستـــالين واستبداده تضاعفا على اثر التصفيات ضد التروتسكيين والبوخاريين (التي ساهم بها خروتشيف وأمثاله بكل حيوية ونشاط) :

« عقد ستالين العزم بعد ذلك على التفرد باتخـــاذ جميع القرارات ؛ وما كان يحتاج إلا الى مجرد زوائد . وكان يعاملنا جميعاً على هذا الاساس ، فما كان علينا إلا ان ننصت الى حديثه ونكيل له الإطراء والمديح » .

والواقع انه ما ان انتهى من تحطيم مختلف القوى المعارضة له،إرتدّ ضد كتلته – ضد الستالينيين انفسهم . وتتعلق المعلومات الـــتي كشفها خروتشيف بهذه المرحلة الاخيرة بالذات من التصفيات الكبرى عندما راح ستالين يشك بان انصاره انفسهم مـــا هم إلا تروتسكيون أو بوخارينيون متخفون . فأمر بالتـــالي بسجن وإعدام الغالبية العظمى

(١١٠٨ من اصل ١٩٦٦) من مندوبي المؤتمر السابع للحزب المنعقد عام ١٩٣٤؛ و ٧٠٪ (٩٨ من اصل ١٣٩) من اعضاء اللجنة المركزية التي انتخبها هذا المؤتمر . وهؤلاء جميعاً من الستالينيين الأقحاح—فالكتب الرسمية تشير الى المؤتمر السابع باسم «مؤتمر المنتصرين» لأن الستالينيين احتفلوا خلاله بانتصارهم النهائي على كل الفئات المعارضة داخل الحزب . بعد ابادة ما يزيد عن ثلثي الكوادر الستالينية ، كان طبيعياً ان يخاف الاحياء على مصيرهم . ويروي خروتشيف :

« خلال تلك الفترة ، كنت أتحادث باستمرار مع نيقولاي الكسندووفيتش بولغانين . قال لي ذات مرة بينما كنا مسافرين في السيارة : « يصدف احياناً ان يزور المرء منزل ستالين مدعواً اليه كصديق ؛ ولكنه إذ يجلس اليه يستحيل عليه التكهن بما اذا كانت الخطوة التالية ستؤدي به الى منزله أو الى السجن » . كان ستالين لا يثق بأحد ، تسيطر عليه الريبة كمرض .... فقد يحدّق بك قائلاً : « لماذا عيناك زائغتان اليوم ؟ » أو « لماذا تتحاشى النظر اليّ مباشرة اليوم ؟ » كان يشاكس المرء باستمرار فيصدمه معنوياً وجسدياً على حد سواء » .

وفي فترة ما بعد الحرب ، « تضاعفت مزاجيته ونزقه وشراسته ...وبلغت عقدة الاضطهاد عنده حجماً مستبعد التصديق » .

منذ ان ادلى خروتشيف بهذه التصريحات شاعت الاشارات الى مركب الاضطهاد الذي يعاني منه ستالين . ولكن ذلك لا يدفعنا ، بالضرورة ، الى الاستنتاج بانه قد جن بالمعنى الحرفي للكلمة . ذلك ان شبه — مركب الاضطهاد هذا ما هو الا تعبير عن الوضع الذي يعيشه واستمرار منطقي للتصفيات الكبرى بكل ما ادت اليه من نتائج . ولم يكن ارتيابه بسلوك انصاره عديم الاساس كلياً . فقد كان هؤلاء الى جانبه وساعدوه ابان اضطهاد التروتسكيين والزينوفيفيين والبوخارينيين ؛ ولكن عندما تحولت حملة الاضطهاد الى المجازر التي شهدتها اعوام ١٩٣٦ — ١٩٣٨ ، صعق العديد من الستالينيين المخلصين واصيبوا بنوبات تأنيب الضمير . فقد وافقوا على منطلقات الاجراءات التي اعتمدها ستالين ، لا على نتائجها . وايدوا قمع شتى كتل المعارضة ، لكنهم لم يؤيدوا التصفية الجسدية . وقد تجاسر بوستيشيف ورودزوتاك و كوسيور وغيرهم على التعبير عن ندمهم او

شكوكهم متسائلين حول صوابية الاجراءات التي يعتمدهـــا فيشينسكي . فاستثاروا بذلك شك ستالين بانهم غير مخلصين له ؛ والواقع انهم مـــا عادوا « مخلصين » له فعلاً . فبتساؤلهم حول ضرورة ابادة التروتسكيين والبوخارينيين ، لم يكونوا يشككون في صواب واحد من قرارات ستالين السياسية العادية ، بل كانوا يطرحون الشكوك حول اخلاقيته موحين بذلك انه ارتكب جريمة لا تغتفر . ولو قيض لهم ان يكونوا منسجمين مع اقتناعهم هذا ، لتوجب عليهم العمل لإسقاطه من الآن فصاعدا . فيهددونه إذاك بخطرا فظع من خطر التروتسكيين او البوخارينيين ما داموا قادرين على ان يستخدموا ضده النفوذ والقوة المستمدين من كونهم وجوهاً بارزة في بطانته نفسها . هكـذا اضطر ستالين الى الافتراض بان اعمالهم ستكون منسجمة مع اقوالهم. اذ ليس بمقدوره الانتظار ريثما يتضح له انهم يستخدمون نفوذهم للاطاحة به . لذا ، فهو مضطر الى ردعهم للدفاع عن نفسه . وهو لا يستطيـع ردعهم الا بتدميرهم .

ها هو ستالين يدور في حلقة زعبه المفزعة . ولا بد لذهنه من ان يصاب بمركب الاضطهاد حتى لو كان معافى كلياً في الاصل . وبقدر ما كانت نظرته الى المحيطين بـــه نظرة واقعية ومتعقلة وصحيحة ، بقدر ما ازداد ارتيابه بهم وخوفه منهم . وبقـدر ما راح ينعتق من خداع النفس ، بقدر ما تزايدت فظاعة الكوابيس التي تراءت له . ولكنه لا يستطيـع الاستمرار في الحكم اذا ما دمّر كل بطانته؛ فلا بد من الاحتفاظ بقسم منها على قيد الحياة لكي يستخدمها كاداة لحكمه . ولكن في أي جو نفسي عاش خدامه الذين سمح لهم بالبقاء على قيد الحياة؟ ترى ألم يمانع اناس من امثال مولوتوف وخروتشيف ومالنكوف وكاغانوفتش وبيريا وميكويان في اعدام رودزوتاك وكوسيور وبوستيشيف وآيخـــي وغيرهم من رفاقهم الستالينيين القدماء ؟ وإذا كانوا لم يمانعوا فعلاً فهم اوغاد بلا ضمير — فكيف يمكن لستالين إذاك الركون الى ولائهم له ؟ أما إذا كانوا قد مانعوا في اعــدام رفاقهم ، فمهما جهدوا لاخفاء مشاعرهم، لا بد لهم من ان يكنوا شعوراً عميقاً من الاستياء والحقد ضد سيدهم القاسي القلب . وفي كلا الحالين، لم يكن بمقدور ستالين الركون لولائهم أو طاعتهم له حسبما تظهر . فهو مضطر الى الشك بهم ومراقبتهم وأخذ حذره منهم. لذا، عندما كان يطرح عليهم اسئلة من نوع : « ما بالك زائغ العينين اليوم ؟ »، كان يحـــاول النفاذ الى اعمق اعماق افكارهم ومشاعرهم . لكنها افكار ومشاعر يستحيل النفاذ اليها ، وذلك بسببه. فبعد ان اجبر مساعديه وأنصاره على التظاهر بالاعجاب والولاء اللامتناهيين

وعلى التنكر وارتداء الاقنعة ، تعذّر عليه الآن اجبارهم على تمزيق الاقنعة والظهور على حقيقتهم . لذا عجز عن اكتشاف الافكار الشريرة الواردة على بالهم والمؤامرات التي تحاك في الخفاء من وراء هذه الاقنعة . بديهي انهم يعدّون المؤامرات ضده . فما من احد ينزع الى جعل الحاكم الفرد مصدراً لكل شر بقدر ما ينزع اليه افراد حاشيته الذين اختبروا بطشه وجبروته عن كثب ،وهم افضل العارفين بمدى اعتماد مصيرهم الذاتي ومجرى الاحداث العامة على مزاجيته أو خبثه . هكذا تأتي فكرة المؤامرة اليهم على نحو جد طبيعي ؛ ويضحي « انقلاب البلاط » الاسلوب المميز لعملهم .

ترى ، ألم تقم محاولات لاحداث « انقلاب بلاط» في الكرملين طوال تلك السنوات، عندما كان الكرملين المركز الوحيد للنشاط السياسي في البلد ؟ ان جميع القصص الداخلية التي رواها خلفاء ستالين لا توفر جواباً على هذا السؤال . لكن الذي تكشفه هو ان سنوات ستالين الاخيرة قد انطوت على عناصر مؤامرة دائمة في بطانته . كان إقرب مساعديه يعيشون في حالة ذعر دائم منه ، يتأرجحون باستمرار بين السلطة والتصفية ، بين الحياة والموت . ولا بد من ان تكون غريزة الدفاع عن النفس ، على الاقل ، قد حدت بهم الى عمل ما . وإذا كان خروتشيف وغيره من القادة الحزبيين قد تفجروا حقداً وغيظاً على ستالين عام ١٩٥٦ ، فما من شك بانهم كانوا يكنون له مثل هذه المشاعر وهو بعد على قيد الحياة ، وهذا ما حدا بهم الى محاولة الانعتاق من تسلطه . ومن الطبيعي ان يكون ستالين قد ادرك كل ذلك أو حدَسه على الاقل .

لماذا ، اذن ، لم تصل اية مؤامرة ضده الى حيز التنفيذ ؟ من الواضح ان مواقع قوية حالت بين المرشحين لتزعم الانقلاب وبين تنفيذه . فعوائدهم الذهنية الماركسية ، رغم شحتها وانحرافها ، تجعلهم ينفرون من « الارهاب الفردي » . ولعل الوازع الاقوى هو ذلك الذي يقوم على شعور جماعي بالذنب والمسؤولية . ذلك ان مالنكوف وخروتشيف وبيريا ومولوتوف وبولغانين واصدقاءهم قد ساهموا في فظائع ستالين وهم مرتبطون به بأواصر عديدة بحيث تضحي محاولة فك هذه الاواصر بواسطة العنف عملية انتحارية لا أكثر . وحتى عندما حاولوا فك هذه الاواصر بعد موته عن غير طريق العنف ، وجدوا انفسهم ينجرفون الى مواقع الخزي والعار . وجدير بالذكر ان موجة الارهاب اصابت افراد حاشية ستالين قبل الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة عندما كان خطر قيام

« انقلاب بـــلاط » يهدد بنسف معنويات البلد وخطوطه الدفاعية . واندلعت الحرب ، فأجلت الصراع في قمة السلطة . وإذا بانتصار ستالين بعد الحرب يقيه من خطر الانقلاب – فمن يجرؤ على التحرك ضد الزعيم العسكري الكبير وهو في اوج مجده ؟ وانقضت فـترة طويـــلة من الزمن قبل ان يتلطخ النصر ببؤس جديد وارهاب جديد وخيبة امل جديدة تدفع بالبشر مجدداً الى اليأس . لذا ، لم تنفجر الازمة في قمة الحكم إلا في السنوات الاخيرة من حـــكم ستالين . وكانت مظاهرها الاولى الاطاحة بفوزنيسنسكي وقضيـــة « كتلة لينينغراد » . وعلى عكس ما حدث لتصفيات انصار تروتسكي وبوخـــارين ، لم تسبق التصفيات الجديدة نزاعات طويلة وشبه علنية حول قضايا عقيدية وسياسية . لذا يتعذر علينا تحديد المواقف التي دافع عنها اناس مثل فوزنيسنسكي أو كوزنتزوف أو تعيين سبب حلول غضبة ستالين عليهم . والارجح ان موضوع النزاع لم يتناول قضايا سياسية اساسية . فقد بات كافياً الآن لعضو في المكتب السياسي أو لسكرتير في اللجنة المركزية ان يزعج ستالين عن غير قصد ، أو ان يكتشف دوره في احدى المناورات الخفية في البلاط ليصدر حكم مبرم بحقه ، ويضحي مصيره عظة للآخرين .

يروي خروتشيف انـــه بعد فترة وجيزة من اختفاء فوزنيسنسكي ، ذهب بمعيـة مالنكوف وعضو آخر في المكتب السياسي الى ستالين للتدخل لصالح زميلهم . فأجابهم ستـالين بضغب : « تبيَّن ان فوزنيسنسكي من اعداء الشعب ؛ وقد نفذ به حكم الاعدام رمياً بالرصاص هذا الصباح بالذات . هل تريدونني ان اعتقد انكم اعضاء من اعـــداء الشعب ؟ » . بعد هـــذه الحادثة ، ووجهوا بواحد من احتمالين : إما الاستسلام وتناسي الامر وإما الدعوة لعقد اجتماع عاجل للمكتب السياسي (أو اللجنة المركزية) وهـــذا يعني اعلان العصيان . اختاروا الاستسلام. فهم يعلمون جيداً ان ستالين قادر على تصفيتهم جميعاً قبل ان يتسنى لهم عقد اجتماع المكتب السياسي . وسيأتي من يبلغه بنواياهم قبل ان يتمكنوا من الاتصال بالاعضاء الآخرين ؛ فجواسيسه يراقبونهم واحداً واحداً حتى وهم في غرفهم الخاصة أو بيوت الخلاء . ومهما يكن من امر ، فالمكتب السياسي ، ناهيك باللجنة المركزية ، جهاز مشلول . فستالين يحرض اعضاءه على بعضهم البعض ، مبقياً بذلك على

حالة من الانشقاق الدائم في صفوفه . فاذا به يتآمر باستمرار على افراد بطانته لأنه يخاف من ان يتآمروا هم عليه .

* * *

كانت صحة ستالين السبعيني آخذة بالتقهقر وقواه تتلاشى بسرعة . ويروي اهرنبرغ ان ملامحه لم تعد تشبه بشيء صوره الرسمية المنتشرة في كل مكان ، بل تشبه ملامح «عجوز قصير القامة حفرت السنوات اخاديدها على وجهه » . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يجرؤ احد على التفكير أو على البوح بكلمة واحدة حول ما الذي سيحدث بعد موته. ويستطرد اهرنبرغ قائلاً : « كنا قد نسينا منذ فترة طويلة ان ستالين كائن فان . فقد تحوّل في اذهاننا الى إله جبّار غامض » . يقول يافتوشنكو ، شاعر الجيل الجديد : « لم يكن بوسعي ان أتخيله ميتاً ، فهو جزء مني لذا تعذر عليّ ان اتصور انه قد ينفصل واحدنا عن الآخر » .

لكن مشيئته حاضرة في كل مكان بينما هو نفسه خفيّ . نادراً ما كان اهالي موسكو يلمحونه ، خلا بمناسبة العيد الوطني عندما يقف على منصة ضريح لينين ويأخذ التحية ؛ أو في مأتم احد الاوجه الحكومية أو الحزبية البارزة عندما يمشي خلال لحظات وراء النعش الى المدفن في جدار قصر الكرملين . لم يدلِ بأي تصريح علني طوال سنوات خمس (خلا بعض المقابلات الجافة مع الصحفيين الاجانب ؛ ولكن نادراً ما كان هؤلاء يحظون بلقائه ، وانما يتسلمون ردوده على اسئلتهم خطياً) . وعندما قرر الخروج من صمته لأول مرة خلال أيام الحرب الكورية الحرجة ، إختار علم اللغة موضوعاً له . فعقد سلسلة من الرسائل ، ملأت عدة صفحات من نسخة موسعة من البرافدا، هاجم فيها مدرسة ن.ي. مار الاكاديمية التي كانت صاحبة التفسير الماركسي الرسمي للغة طوال ما يقارب العقود الثلاثة من الزمن . لم يأبه ستالين لشحّة معلوماته في هذا الحقل ، وهو بالكاد يعرف لغة اجنبية واحدة ، فراح يدبّج الآراء حول فلسفة اللغة ، والعلاقة بين اللغة من جهة وبين العامية واللكنات من جهة اخرى ، وحول العمليات الذهنية للصم والبكم ، واللغة العالمية الواحدة التي ستعمّ كرتنا الارضية في المستقبل البعيد بعد ان يتحد في ظل الشيوعية . وأراد تنقيط انجيله ببعض اللفتات الليبرالية ، فأدان الاحتكار الذي تمارسه مدرسة مار

على علم اللغة السوفييتي معلناً احتجاجه على محاولاتها كبت آراء خصومها . وقال ان مثل هذه الاعمال جديرة بعصر أراكشيف ، رئيس الشرطة ايام اسكندر الاول . فبدا وكأنه بمنأى عن الموجة التقليدية التي تعم الصحف ، وعن هجمات ليسنكو ضد علماء البيولوجيا المنحرفين عن الصراط المستقيم ، والانتقادات اللاذعة التي يتعرض بها الجدانوفيون « للتجديديين المنحطين » في الفنون . وإذا به ، وهو مبدع كل هذا التزمت والقيود ، يقدم نفسه للجمهور على انه الحَكَم الفكري للامة ، لا بل حامي حمى الحرية الاكاديمية . غير انه ختم مقاله بالرد على الذين يقولون انه بما ان الاتحاد السوفييتي لم يعد يعيش وسط الطوق الرأسمالي المعادي ، بل هو محاط بالامم الاشتراكية الصديقة ، فقد آن الاوان للدولة ان « تتلاشى » ، أي ان يزول القمع السياسي . فأجاب قائلاً : لا ، لا يمكن للدولة ان تبدأ بالتلاشي قبل ان تنتصر الاشتراكية في معظم اقطار العالم ، وليس في قلة منها . ذلك هو شعار « كفاكم توهماً » الذي اطلقه في وجه المثقفين مغلفاً بغلاف التزمت المذهبي .

استقبلت آراؤه حول علم اللغة كحدث تاريخي . وانقضّ عليها الدعاة الحزبيون ، وقد حرموا طويلاً من نصوص جديدة ، ليستشهدوا المرة تلو الاخرى بما قاله عن العمليات الذهنية عند الصم والبكم (في مقالات معدة اصلاً لاطلاع الشعب على القضايا السياسية الراهنة) . ولم يأتِ بنص جديد إلا في تشرين الاول ١٩٥٢ عند نشر مقالة هامة حول « القضايا الاقتصادية لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي » وسلسلة من الرسائل موجهة الى عدة أكاديميين حول مناقشة الكتب المعتمدة رسمياً حول الاقتصاد . وسط التأملات الجارية بصدد « الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية » المفترض ان يتم في الاتحاد السوفييتي ، ارتأى ستالين ان يناقش الانفصام في الاقتصاد السوفييتي بين الصناعة ذات الطابع الاشتراكي من جهة ، وبين الزراعة ذات الطابع المختلط : فردية ومجمّعة في آن معاً . فأشار الى ان تجارة الفلاحين ومصالحهم الخاصة تعرقل تقدم الامة ، ودق ناقوس الخطر بقوله : « من التعامي الذي لا يغتفر ان يتجاهل المرء ... ان هذه الظواهر قد بدأت تلعب دور الكابح ... الذي يعيق تخطيط الدولة في سعيه لأن يشمل الاقتصاد الوطني بأسره ... وبقدر ما نتقدم ، بقدر ما سوف تفعل هذه الظواهر فعلها ككابح في وجه النمو المطرد لقوى الانتاج في بلدنا » . بذلك كشف أمام الامة بعضاً من عناصر النزاع الناشب في اوساط الفئة الحاكمة حول السياسة الزراعية — وكانت اشارته السابقة

اليه عندما ادينت فكرة خروتشيف حول « المدن الزراعية » بشكل رسمي . وها هو ستالين يرفض اقتراحاً ورد من بعض علماء الاقتصاد بان تبيع الدولة « محطات الآلات والجرارات » التابعة لها الى المزارع الجماعية - وهذا اقتراح تبناه خروتشيف بعد خمس سنوات . وقد عارض الاقتراح على اساس انه لا يمكن الركون على المزارعين لتجديد الآلات الزراعية وتحديثها مثلما يمكن الاعتماد على الدولة لذلك ؛ كما ان بيع محطات الآلات والجرارات » اليهم سوف يعزز الاتجاهات غير الاشتراكية في الاقتصاد الريفي التي تعرقل التخطيط الوطني. فاقترح تقليص التجارة الريفية تدريجياً واعتماد مبدأ التبادل المباشر للسلع الصناعية والزراعية بين الحكومة والمزارع الجماعية . لكنه اصر على ان ذلك حل بعيد المدى ؛ فلم يقدم للحزب اية ارشادات محددة لمعالجة ركود الزراعة بسرعة . فقد آثر ترك هذه المصيبة ، الناتجة عن عملية التجميع القسرية التي قام بها ، لخلفائه .

في الرابع من تشرين الاول ١٩٥٢ ، اي بعد يوم واحد من نشر ملاحظاته ، افتتح المؤتمر التاسع عشر للحزب ؛ ولاول مرة منذ عام ١٩٢٣ ، لم يخاطب ستالين المندوبين بوصفه المقرر الاول . وهذا دور اضطلع به مالنكوف ، تماماً مثلما فعل ستالين نفسه في السنة الاخيرة من حياة لينين ؛ وتولى خروتشيف تقديم الاقتراحات حول التعديلات في نظام الحزب الداخلي . كان الحزب قد بدأ يدرك ان خلافة ستالين موضوعة على جدول الاعمال. جلس ستالين على المنصة ،قصياً ومنكفئاً على نفسه ، تنهال عليه المدائح وعواصف التصفيق اللامتناهية . استشهد الخطيب تلو الآخر بمقالته عن « القضايا الاقتصادية » ، ولكن ذلك لم يثر نقاشاً فعلياً . اقترع المندوبون « باجماع الاصوات البالغ مئة بالمئة » على خطة خمسية جديدة وعلى تعديلات النظام الداخلي للحزب . في الجلسة الختامية ، تقدم ستالين ليتمتم بعض الكلمات حول مكانة الاتحاد السوفييتي في العالم . قال ان الزمان الذي كان فيه الاتحاد السوفييتي قلعة الاشتراكية معزولة قد انقضى الى غير رجعة . فهو الآن محاط بـ « فرق صدام » صديقة هي البلدان الاشتراكية الجديدة ؛ وان التضامن والتعاون معها من شأنه تيسير تنفيذ الاتحاد السوفييتي للمهام المترتبة عليه . كذلك اهاب بالاحزاب الشيوعية في العالم الرأسمالي بان « ترفع عالياً راية الحرية البرجوازية - الديمقراطية » وبان تناضل من اجل استقلال جميع الامم . كان يتكلم بتفاؤل واكاد اقول بحرارة . لكن خطابه كان مرثية لنظريته عن « الاشتراكية في بلد واحد » . تلك هي آخر رسالة

وجهها الى الحزب والامة اللذين حكمهما طوال ثلاثة عقود من الزمن .

بالرغم من عبارات ستالين المهدئة ، احسّ المؤتمرون بان احداثاً غامضة مشؤومة سوف تقع قريباً . تحدث مالنكوف وغيره من الخطباء عن الاخطار المحدقة ، وعن احتدام النزاعات الاجتماعية والصراعات الطبقية وعن الحاجة الى اكبر قدر ممكن من الحيطة والحذر . وتصاعدت الدعوات الى الحذر من كل حدب وصوب ، تماماً مثلما حصل عشية التصفيات الكبرى قبل الحرب . وكأنما المؤتمر كان يستبق قطيعته مع الماضي عندما قرر إسقاط كلمة « بلشفي » من تسمية الحزب . اما اللجنة المركزية الجديدة ، التي تضم ٢٤٠ عضواً ، فقد كانت اكبر بضعفين من اللجنة السابقة . الغي المكتب السياسي وانتخبت اللجنة المركزية مجلساً للرئاسة يبلغ ضعفي سلفه . كان واضحاً ان اللجنة المركزية ومجلس الرئاسة من الضخامة بحيث يتعذر عليهما الاضطلاع بمهام قيادة الحزب . لماذا قرر ستالين تشكيلهما على هذا النحو ؟ زعم خروتشيف لاحقاً ان ستالين حث المؤتمر على انتخاب لجنة مركزية كبيرة الى هذا الحد لانه كان ينوي تقليص عددها بواسطة تصفية دموية — كما عين ردفاء للاشخاص الذين ينوي تصفيتهم . ويستطرد خروتشيف قائلاً انه ما ان عقدت الجلسة الاولى للجنة الجديدة حتى انقض ستالين بهجوم كاسح ضد مولوتوف وميكويان دون ان يوجه لهما تهماً محددة ؛ وكان قد اعرب عن شكه بان يكون فورشيلوف « عميلاً بريطانياً » . ويعتقد خروتشيف ان ستالين كان ينوي « إبادة » الاعضاء القدامى في المكتب السياسي ليزيل بذلك جميع الشهود الذين قد يفضحوا امر جرائمه امام العالم والتاريخ . ومهما يكن من امر ، فقد تراكمت على البلد غيوم الارهاب الداكنة بعد المؤتمر مباشرة . ففي شهر تشرين الثاني ، شهدت براغ المحاكمة الكبيرة ضد سلانسكي وكليمانس وغيرهما من القادة الشيوعيين التشيكيين المتهمين بالتروتسكية والتيتوية وبالتجسس لصالح الصهيونية والاميركيين . وكانت تلك خاتمة سلسلة من المحاكمات في اوروبا الشرقية وفاتحة تصفيات جديدة في موسكو . وبالكاد مر يوم واحد دون هجمات عنيفة ، مجهولة المصدر ، ضد حزبيين ومهنيين مرموقين ؛ دون اشارات خفية الى تسلل « اعداء الشعب » والجواسيس ؛ ودون الصيحات العالية ضد « الكوزموبوليتيين المقلوعي الجذور » ذوي الأصل اليهودي . وراحت البرافدا تذكر قراءها بجزم ان كل مواطن سوفييتي مسؤول عن الجرائم التي يرتكبها اقرباؤه — وهذا تحذير يذكر بايام ياغودا وياجوف . قليلون هم الذين عرفوا مغزى هذا التحذير . ولكن ،

جرى اعتقال اثنين من ابناء ميكويان في تلك الاثناء ؛ كما ابعدت زوجـــة مولوتوف عن موسكو ، وهي حزبية قديمة وشخصية سياسية مرموقة . ومع نهاية السنة حلت اللعنة على فيدوسييف ، رئيس تحرير صحيفة « بولشيفيك » ، لان سوزلوف ، احد امناء سر اللجنة المركزية ، اتهمه بالتواطؤ مع فوزنيسنسكي .

واخيراً ، اعلن رسمياً في الثالث من كانون الثـــاني ١٩٥٣ ، ان تسعة اساتذة طب يعملون في الكرملين كاطباء لافراد الفئة الحاكمة ، قد اعتقلوا بتهمة العمالة للاستخبارات البريطانية والاميركية ، وانهم اغتالوا بامر منها زعيمين حزبيين هما جدانوف وشرباكوف ، كما حاولوا اغتيال المارشالات فاسيليافسكي وغوفوروف وكونييف وشتيمنكو وغيرهم وذلك بغية إضعاف روح الصمود في البلد . كان معظم « المجرمين ذوي القمصان البيض » من اصل يهودي ، وقد اتهموا بالعمل تحت اوامر « Joint » ، وهي منظمة يهودية دولية مقرها الولايات المتحدة . واشيع في البلد ان للمؤامرة خيوط عديدة لم توضع اليد عليها بعد ؛ وارتفعت صيحة الحذر بكل ما تتضمنه من معان معادية لليهود ، الخفي منهـــا والسافر .

لم يكن تجريم اطباء الكرملين الا بداية القصة . فليسوا يتمتعون باية اهمية سياسية بحد ذاتهم ، اذ يتعذر تقديمهم للشعب على انهم كانوا يخططون للاستيلاء على الحـكم . وفي حال تقديمهم للمحاكمة ، سوف يضطر الادعاء الى اعتبارهم « مخلب قط » بيد رجـــال يملكون طموحاً سياسياً واضحاً ، وشركاء لمتآمرين آخرين لهم مصلحة فعلية في الاستيلاء على الحكم . ولن يوجد هؤلاء المتآمرون الا في قيـــادة الجهاز الحزبي ؛ لذا كان مقرراً ان يكون كشف المركز القيادي « الحقيقي للمؤامرة ذروة محاكمة الاطباء . لم ترد اية اشارة الى المتهمين الرئيسيين . فقد كان « مخرجو » المحاكمة منهمكين باجبار الاطباء على الادلاء « باعترافات » وبتدريبهم على لعب الادوار الموكلة اليهم . جوبه المتهمون بشاهد زور هو الدكتور تيماشوك الذي شهد ضدهم في رسالة بعث بها الى ستالين (ونال من اجلها « جائزة لينين » في الذكرى السنوية لموت الزعيم البلشفي) . ويروي خروتشيف ان ستالين اشرف بنفسه على الاستنطاق واصدر امراً بان يكبل المتهمون بالسلاسل وان يعذبوا . وقـــال لإغناتييف ، وزير امن الدولة : « اذا تعذر عليكم انتزاع الاعترافات منهم ، سوف اقطع رأس احدكم » . ثم وزع نسخاً عن اعترافات الاطباء الى اعضاء مجلس الرئاسة لكنـــه

منعهم في الوقت ذاتــه من دراسة القضية والتثبت من صحة التهم . واحسّ باضطرابهم ونكرانهم للجميل ، فانبهم بقوله : « انتم عميان كالكتاكيت الصغيرة . ماذا سيحل بكم بدوني ؟ سوف يخرب البلد – فانتم لا تعرفون كيف يكشف الاعداء . »

كان لاعضاء مجلس الرئاسة ما يكفي لتبرير قلقهم وذعرهم . وبالرغم من ان القضية الحالية تذكر ، في اكثر من **وجه**، بمحاكمات التصفية السابقة ، الا انهــا اتسمت بسمة جديدة كل الجدة . فخلال المحاكمات السابقة ، كانت توجه الى المتهمين ، فيما يوجه من تهم ، تهمة محاولة اغتيال فوروشيلوف وكاغانوفتش ومولوتوف وغيرهم من القادة الحزبيين . وكانت لهذه التهمة اهمية بالغة بالنسبة للقــادة المذكورين فجدول الضحايا المفترضين لـ « متآمرين » اشبه ما تكون بـ « لائحة الشرف » الخاصة بستالين . فخلال المحاكمات يتولى الادعاء والقضاة والصحافة ابلاغ الامة : « هؤلاء هم قادتنا الذين لا يمكن الاستغناء عن خدماتهم . وهذا ما يعرفه العدو ، لذا يسعى الى القضاء عليهم » . اما عضو المكتب السياسي الذي يسقط اسمه من « لائحة الشرف » العجيبة هذه ، فهو انسان حلت عليــه اللعنة . فاذا لم يكن « اعداء الشعب » يسعون للقضاء عليه ، فاما لانه ليس جــديراً بالمنصب الرفيـع الذي يحتل وإما لانه متواطئ معهم .

العنصر الجديد الباعث على العجب في قضية الاطباء هو **ان** المتهمين لم يواجهوا بتهمة محاولة اغتيال اي من قادة الحزب **الاحياء** ؛ فلم يرد في عــداد ضحاياهم الاجدانوف وشيرباكوف وكلاهما متوفى منذ فترة بعيدة . كذلك شدد نص الاتهام ، بمــا لا يسمح الشك ، على ان الاطباء كانوا يسعون لاغتيال قادة القوات المسلحة فقط . كان لا بــد لهذا الحدث الغريب من ان يقض مضاجع القادة الحزبيين ، كيف لا والعدو المزعوم قــد اختار المارشالات والجنرالات وحدهم هدفاً لاغتيالاته . فاضطروا الى التفكـير حول مغزى هذه الرواية . وبالرغم من ان التهمة نفسها ملفقة ، فالغرض من ورائها اعــلاء شأن العسكريين والحط من شأن القادة المدنيين . من لفق هــذه التهمة ؟ يحمل نص الاتهام بصمات الاستخبارات العسكرية بدلاً من وزارة امن الدولة ، وكانت المنــافسة بين جهــازي الاستخبارات ذائعة الصيت ؛ وبديهي ان إغناتييف ، وزير امن الدولة ، ينفذ الاوامر ببطء وهذا ما حدا بستالين الى تهديده بانه سيقطع رأسه . ولم يكن بيريا ، وزير الداخلية ، بين ملفقي القصة .فعندما عمد خلفاء ستالين الى « تصفيته » بوصفــه خائناً والروح الشريرة وراء ستالين ، لم يوجهوا اليه تهمة التواطؤ في تلفيق قضية الاطباء.

اذا كانت المبادرة قد صدرت عن العسكريين ، لماذا ايّدهم ستالين ؟ تراه كان يشجع الجنرالات على الاستيلاء على الحكم ، وقد بدأ يفكر جدياً بأمر خلافته ؟ وما معنى هجوم ستالين على مولوتوف وميكويان وفوروشيلوف واندرابيف ؟ هل كان ذلك مقدمة لآخر تصفية تكرّس انفصاله النهائي عن الحزب الذي أذلّه وأطاح بخيرة مناضليه ؟ هل كان ستالين ، وهو على حافة قبره ، يمهّد الطريق ، أو يساعد العسكريين على تمهيد الطريق ، لانقلاب بونابارتي — هذا الخطر الذي يتهدد البلاشفة منذ زمن طويل ؟ حمل ستالين سرّه معه الى القبر ؛ وقد تعذر على القادة الحزبيين آنذاك تعيين طبيعة دوافعه مثلما يتعذر علينا الآن — يبدو انه بلغ مرحلة فقدت فيها دوافعه وأعماله كل تناسق .

الحقيقة ان النزاع لم يقتصر على محاولة الانفراد بالسلطة ، بل شمل قضايا سياسية اساسية ايضاً . فالخلافات التي نشبت بين خلفاء ستالين بعد عام ١٩٥٣ تعود الى فترة سابقة . فقد كانوا منقسمين الى كتلتين : كتلة مولوتوف — كاغانوفتش من جهة وكتلة مالنكوف — بيريا من جهة اخرى ، بينما خروتشيف يقف على الحياد والعسكريون لا يتدخلون . ولكن وجود ستالين حال دون أي تبادل حر للاراء ، فتعذر على الكتلتين تحديد وبلورة نقاط الخلاف بينهما . كان معظم افراد حاشية ستالين يدركون ان درجة حرارة جهاز الدولة بلغت نقطة الخطر ، وانه لا بد من فتح صمّامات الامان . فاذا بستالين يستجمع ما تبقى له من قوة للحيلولة دون ذلك. وإذا بالاعمال التحضيرية لتكرار تجربة التصفيات الدموية للاعوام ١٩٣٦ — ٣٨ ترفع درجة الضغط الداخلي وتزيد من حدة التوتر بين روسيا والغرب . لا شك بان التحريات المحمومة عن جواسيس اميركيين تحت كل سرير في الكرملين ، وفي كل مكتب ومؤسسة ابحاث ، ومنزل يهودي ونادٍ للمثقفين ضرب من الجنون ليس إلا ؛ لكنها كانت واسطة لتهيئة البلد لحرب جديدة مفترضة . من هذا المنظار ، يبدو القرار الذي اتخذه ستالين بتمجيد القادة العسكريين وتسليط الاضواء عليهم قراراً معقولاً ذا معنى ما . وتنطبق هذه الملاحظة ايضاً على حرصه على الكتمان وقد بلغ درجة مجسمة حتى بالنسبة لستالين نفسه ، وإصراره على زيادات كبيرة في النفقات العسكرية واجراءاته الاخرى — وكلها ترمي الى تحويل البلد الى ثكنة مسلحة ؛ ووضعه في حالة من التأهب تسمح له بان يصدّ عدواناً جديداً في أية لحظة .

وهذا ما يفسر ايضاً جمود دبلوماسية ستالين وفظاظتها . الاشتباكات المسلحة ما

زالت قائمة في كوريا وستالين ينسف مفاوضات الهدنة لأوهى الاسباب كالخلاف مثلاً بين الطرفين المتحاربين حول معاملة أسرى الحرب . ويبدو انه كان متردداً في السماح للولايات المتحدة بان تسحب قواتها من كوريا فتكسب بذلك حرية التصرف والحركة السريعة في ساحة أخرى من ساحات الحرب الباردة . ويعود الجمود الذي سيطر على دبلوماسيته الى كونهـا بلغت طريقاً مسدودة بين خطين سياسيين متعاكسين . فكان الكرملين مسرح لنزاع عنيف بين « حزب الحرب » و « حزب السلام » دون ان يتمكن أي منهما من الانتصار على الآخر. هذا لا يعني ان بعض العناصر النافذة في الحكومة كانت تؤيد الحرب فعلاً وتحظى بدعم ستالين . ففي امة خرجت لتوّها من ابشع مجازر الحرب، لم يجرؤ أكثر السياسيين وقاحة وابتعاداً عن الواقع على رسم الخطط للقيام باعمال عسكرية عدوانية . فالخلاف الدائر يتعلق بتقدير نوايا العدو ، أي يكمن في نوع الاجوبة المعطاة للسؤال التالي: هل يعقل ان تهجـم القوى الغربية على روسيا أو اوروبا الشرقية في المستقبل القريب ؟ ذلك هو السؤال الرئيسي الذي تمحورت عليه الخلافات الحزبية في سنوات العشرين ،وهو نفسه الذي عاد الى البروز مع النزاع السوفييتي — الصيني . وكان ستالين قد اعترف باهميته في مقالته عن « القضايا الأقتصادية » ، مؤيداً الرأي القائل بان الحروب لم تعد « حتمية » بين القوى الاستعمارية والمعسكر الاشتراكي .

وبالرغم من هـذا القول المتفائل ظل ستالين متذبذباً حائراً بالنسبة لهذا الموضوع الخطير . وفيما هو يعترف بتضاؤل خطر الهجوم الاميركي ، راح يسلك خطوات سياسيـة تقوم على افتراض وجود هـذا الخطر . ذلك ان الافتراض بان واشنطن تعد العدة لشن الحرب هو وحده الذي يبرر ، من وجهة النظر الستالينية ، الهجوم الدائـم والعنيف على تجار الحرب الاميركيين ؛ وابراز اطباء الكرملين بدور المجرمين العاملين في خدمة منظمة اميركية — يهودية ؛ وتعبئة الامة واستثارة موجة هستيرية في اوساطها؛ والسعي لتجميد القوات الاميركية في كوريا ولابقاء الاتحاد السوفييتي والدول الدائرة في فلكه في حالة من التأهب الدائمة والتعبئة العسكرية المتواصلة .

وكان من الطبيعي ان تؤثر معضلات السياسة الخارجية على الشؤون الداخلية . فالذين ينادون بضرورة تعبئة الامة ، مادياً ومعنوياً ، لصد هجـوم مرتقب لم يكن بوسعهم ان يؤيدوا أي اصلاح داخلي من شأنه تقليص المكتب السياسي أو استخدام موارد البـلد

الاقتصادية لسد حاجات السكان المدنيين . أما دعاة الاصلاح الداخلي ، في المقابل ، فقد دفع بهم منطق دعوتهم ذاتها الى الرهان على إمكان التعايش السلمي مع قوى حلف الاطلسي وعلى قيام « حالة انفراج دولية » تسمح لهم باعادة الامور الى مجراها الآمن والطبيعي في داخل البلد . لم يخطر ببال هؤلاء أي اصلاح من شأنه منح الامة حقوقها المدنية وتمهيد الطريق نحو قيام حكومة تمثيلية تنقذ الميراث الثوري للاتحاد السوفييتي . كانوا يرمون الى اهداف اقل طموحاً لكنها هامة على كل حال : تحرير الامة من جنون الارهاب الستاليني وعقلنة اساليب الحكم . كذلك كانت اهدافهم الخارجية محدودة ، لأنهم كانوا يعلمون تمام العلم ان الحرب الباردة ، على عكس أي نزاع مسلح ، لا يمكن ان يوضع حد لها بخروج بعض الوسطاء يلوّحون بالعلم الابيض ويسعون لتحقيق وقف اطلاق النار . ولكن ، حتى في هذه الحرب الباردة ، يتسع المجال لمزيد من المداولات والمفاوضات الفعلية بين روسيا والغرب يحصل فيها كل طرف على تنازلات ثمينة من الطرف الآخر . (والواقع ان البعض حمل خططاً اشمل وأكثر طموحاً ، فقد دعا بيريا مثلاً الى الانسحاب من برلين والمانيا الشرقية — وهي الفكرة التي كلفته حياته) .

مهما يكن من امر ، كانت ابواب الاصلاح كلها موحدة ما دام ستالين متربعاً على قمة السلطة . ومع انقضاء كل اسبوع كان الوضع يضحي أكثر تفجراً وتتضاءل إمكانات حساب محتملاته . كان يروق له ان يفاخر بمهارته التكتيكية وواقعيته ، فقال لأنطوني ايدن في احدى المناسبات :

« اعرف ما الذي يجول بخاطرك . انك تتساءل ما اذا كنتُ اعرف متى أقف على حدّي . لست هتلر — واني لاعرف متى ابلغ حديّ » .

ولم يكن هذا الادعاء عديم الاساس . فقد كان ستالين يتوقف باستمرار عند شفير النزاع المسلح مع حلفائه السابقين . هكذا فعل بالنسبة للمضائق التركية ؛ وفي ايران ؛ توقف قبل شن هجوم مسلح على تيتو ؛ وقبل تحويل النمسا الى احدى الدول الواقعة تحت منطقة نفوذه ؛ وتوقف اخيراً قبل ان يتحول حصار برلين الى مأساة مروعة . ولم يكن واضحاً الحد الذي يريد ستالين بلوغه في النزاع الناجم عن الحرب الكورية . وإذا بافراد حاشيته قد بدأوا يتساءلون : « ترى ، هل ما زال يعرف التوقف عند حدّه ؟ » .

* * *

الاكيد في الامر ان ستالين ما عاد يعرف أين يقف عند حده في تحقير امته واثارة غضبها . كان متعامياً كلياً عن الازمة الخلفية التي رماها بها . ولم يدرك انه يستحيل عليه ، وعلى أي انسان آخر ، الاستمرار بأساليب حكمه ، وان افكاره وتبجحاته قد دخلت في تناقض حاد مع حاجات البلد وواقع العصر . فقد تخطت الامة حاجتها الى وصايته ، وما عاد بامكانها ان تحتملها . فكأن بذهنه قد تجمد في فترة العشرينات والثلاثينات . وصورته عن شعبه صورة مجتمع لم يبلغ المرحلة الصناعية تسوده الامية — أي المجتمع نفسه الذي أقام نظام حكمه فيه اصلا . فتعذر عليه ان يتكيف مع احوال روسيا في منتصف القرن — روسيا التي تمكنت ، بالرغم منه وبمبادرته في آن معاً ، من ان تصنّع نفسها ، وتحدّث بنيتها الاجتماعية وتثقف جماهيرها . وكان التحول لا يزال جارياً ؛ والامة بحاجة الى قطع اشواط عديدة قبل ان يتسنى لها جني ثمار هذا التقدم . ولكن ، حقيقة الامر ان « ستالين تسلّم روسيا وهي لا زالت تستخدم المحراث الخشبي ، وتركها مجهزة بالمحطات الذرية »(*) ، بالرغم من ان المحراث الخشبي كان لا يزال يطبع عدة مجالات من حياتها القومية . هذا التقويم لحكم ستالين هو بالطبع ثناء على المنجزات التي حققها . ولكن الستالينية كيان تعايش فيه المحراث الخشبي مع المحطة الذرية كما تعايشت الماركسية مع الهمجية . وفيما الامة تتقدم ، راحت العوامل الرجعية الكامنة في نظام حكم ستالين تعرقل هذا التقدم وتهدد بالقضاء عليه نهائياً .

استمدّ حكم ستالين الاستبدادي النزق قوته من حالة السبات التي تطبع حياة الفلاحين وقد تحول عدد كبير منهم الى عمال ؛ لكنه تناقض كلياً مع المجتمع الصناعي المديني الضخم الناجم عن التصنيع . وقد يكون للرقابة المركزية المشددة التي مارسها وأعوانه على الاقتصاد باسره ما يبررها في المراحل الاولى من حقبة « التراكم الاولي » عندما كان ينبغي تعبئة موارد البلد الشحيحة والاشراف على ايصال كل طن من الفولاذ او الفحم او الاسمنت الى المكان المقرر له واستخدامه بالطريقة الموصوفة . ولكن استخدام هذا الاسلوب في نظام صناعي معقد وواسع ومتقدم تقنياً لم يستجلب غير الضرر . كذلك ، فان الضغط الذي مارسته حكومة ستالين لاجبار ملايين الفلاحين على الانتقال الى

(*) الاستشهاد من رثائي لستالين المنشور في المانشستر غارديان في ٦ آذار ١٩٥٣ .

المصانع والتدرب على الاعمال الماهرة والتقيد بوظائف محددة قد يكون له ما يبرره جزئياً نظراً لندرة اليد العاملة والمهارات الفنية . وقد يذهب المرء الى حد تفهم الحماس التي راح ستالين يبديه في تشجيعه اللامساواة الاجتماعية عن طريق معدلات الاجور المتفاوتة والحركة الستاخانوفية (وإن كان يصعب العطف على الشراسة التي ابداها خلال ذلك) . ولكن مع توافر المهارات الصناعية ، تحول القسر واللامساواة الاقتصادية المجسمه الى عقبة في وجه النمو الاقتصادي إذ فرضا على الغالبية العظمى من الطبقة العاملة حالة من اللامبالاة والضمور . ويمكننا القول ، بشكل عام ، ان الارهاب – الذي كانت تبرره في الاصل ضرورة حماية « منجزات اوكتوبر » من الردة المضادة للثورة راح يتسع ويزداد شراسة مع اقتراب البنية الاجتماعية الجديدة من مرحلة الثبات والرسوخ ومع تضاؤل إمكانية عودة الرأسمالية . فاذا بحملات الاعتقالات والتصفية المتتالية تشل كل مبادرة اجتماعية او شعور بالمسؤولية في أوساط البرقراطية والجماهير على حد سواء . واذا بعبادة الفرد التي احلت الزعيم في مخيلة الفلاح كـ « شخصية ابوية » محل الله والقيصر ، تشكل اهانة لذكاء امة دأبت على تحديث نفسها واستوعبت بشراهة ونهم العلم الحديث ، فباتت على اهبة بلوغ مرحلة النضج الثقافي .

قلنا سابقاً ان الستالينية طردت الهمجية باساليب هي نفسها همجية . ينبغي ان نضيف الآن انه تعذر عليها الاستمرار على هذا المنوال لفترة طويلة . ففي السنوات الاخيرة من حكم ستالين ، راحت الاساليب التي يستخدمها تقضي على ملامح التقدمية في نظام حكمه . فكان على روسيا ان تتخلص من الستالينية إن هي ترغب في مواصلة تمدنها وتقدمها . والذي زاد في الحاح هذه المهمة محاولات فرض الصيغ والقوالب الستالينية الجامدة على البيولوجيا والكيمياء والفيزياء وعلم اللغة والفلسفة والاقتصاد والادب والفنون –وهو تدخل سافر يذكر بالزمن الذي كانت محاكم التفتيش تقرر فيه للعالم المسيحي باسره الافكار الصائبة والخاطئة حول الله والكون والانسان . حرمت نظريات آينشتاين من الجامعات السوفيتية حتى عام ١٩٥٣ – ١٩٥٤ – اما افكار فرويد ، فلا تزال محرمة حتى الآن . والواقع ان تدخل القوالب والقوانين الفقهية او البرقراطية في تطور الفكر العلمي امر يعود الى المرحلة قبل الصناعية . فكان مؤداه ، في روسيا اواسط القرن ، تخريب العلوم والتكنولوجيا والدفاع الوطني . حتى اضيق المصالح القطاعية لم تفد من هذا التخريب ؛ فسادت اوساط المثقفين والمتعلمين رغبة جامحة بوضع حد له .

وكانت الخطوة الاولى تتطلب منهم تبديد غيـــوم الشوفينية الروسية التي كانت تعزل بلدهم ، في عصر الثورة التكنولوجية الجبارة ، عن صراع الافكار على الصعيد العالمي ؛ ولا تمده الا بالمنجزات الخارقـــة للعباقرة ذوي الاصل الروسي . واذابسياسة الانعزال الستالينية التي اعتبرها الكثيرون سياسة معقولة وواقعيـة في العشرينات والثلاثينات من القرن تبدو الآن سخيفة الى حد العبث : فقد تحولت من « الاشتراكية في بـلد واحد » الى (العلم في بلد واحد » . ومما لا شك فيه ان هذا الانغـــلاق القومي ترسب مؤذ من ترسبات الماضي لا يمكن لروسيا ان تتحمله وقد ارتبط مصيرها نهائياً بمصير سائر أجزاء العالم . وحتى لو نظرنا الى الامر من المنظار الستاليني، لوجدنا ان التمجيد المجسم لـ «روسيا الام » متعارض كل التعارض مع انتشار الثورة خلال السنوات الاخيرة . فما ان ثلث سكان الكرة الارضية يعيش في ظل حكومات شيوعية ، فيما تتصرف الستالينية وكأن نطاق سلطتها لا يتعدى « غوبيرينا » القديمة او مقاطعة « تولا » . لقد انعدم كل شعور بالزمن في الكرملين .

وجاءت فضيحة « مؤامرة الاطباء » لتفقأ دملة خلقية طال تقيحها . لم تكن تلك حادثة بين الحوادث الكثيرة التي عامل فيها ستالين اليهود بطريقة متناقضـة وغامضة . ذلك ان الرواية القائلة بوجود مؤامرة يهودية عالمية ضد السوفييت يشتم منها رائحـــة « بروتوكولات حكماء صهيون » ، وتتردد فيها اصداء جعجعات وزارة الإعلام النازية ايام غوبلز . فلو قيض للحبكة ان تنفرج — ولو قدم الاطباء للمحاكمة — لـكانت النتيجة الحتمية مجزرة ضد اليهود تشمل البلد باسره . غير ان الحكومة التي ابتكرت هذه الرواية لا تزال تدين بالولاء للماركسية — اللينينية ، وتأمر باصدار مؤلفات مؤسسي الاممـيـة البروليتارية في ملايين النسخ ، وتفرض على تلامذتها وطلابها دراسة هذه المؤلفات . وها ان ستالين يريدان يجتث جذور الفكرة التي يعيش عليها الحزب والثورة والدولة ؛ فيمحو بذلك شهادة ولادة نظامه ومبرر وجوده الايديولوجي . بذلك كانت الستالينية تنتحر حتى قبل وفاة مؤسسها . ولم يكن بمقدور الحزب ان يتبع ستالين في طريقه الانتحاريـة هذه ، بالرغم من كل ما يعتريه من تقهقر وجمود ؛ ولا كان بمقدور عدة عناصر متقدمة من الانتلجنسيا والطبقة العـــاملة . فكانت نتيجة الفضيحة انها عجلت في انحلال الستالينية وفي التمهيد للارتداد عليها . فأسدل ستار كثيف على القضية بعد شهر واحد من وفـــاة

ستالين ؛ وكانت حملة اعادة الاعتبار للاطباء المتهمين اول بادرة تدل على رفض البلد سلوك الطريق الستالينية .

* * *

في معرض تقويم حكم ستالين عام ١٩٤٨ (*) ، قلتُ : « لا يجوز تصنيف ستالين مع هتلر ، ولا مع أي من الزعماء الاستبداديين ذوي السجل الحافل بالتفاهة والسخف ليس إلا . كان هتلر قائداً لردة عقيمة مضادة للثورة ، بينما كان ستالين زعيم ثورة مأسوية ومتناقضة وخلاقة ومستغلها في آن معاً » . يبقى هذا القول صائباً إذا ما نظرنا الى حكم ستالين بشموله . واستطردت قائلاً آنذاك : « من المؤكد ان الوجه الايجابي من منجزات ستالين سوف يستمر بعد موت ستالين تماماً مثلما حصل لكرومويل ونابليون » . هذا القول ايضاً صائب . ولكن ، لا بد من ان نضيف ان السمات السلبية من حكم ستالين تضاعفت وتجسمت خلال سنوات حياته الاخيرة . ولكن ذلك من شأنه التأكيد على اهمية الخلاصة التي توصلنا اليها : « من اجل انقاذ الجوانب الايجابية من اعمال ستالين في المستقبل ومن اجل اعطائها القيمة التي تستحق ، لا بد للتاريخ من ان ينظف ويقولب اعمال الرجل بالحزم ذاته الذي نظف وقولب فيه منجزات الثورة الانكليزية بعد كرومويل والثورة الفرنسية بعد نابليون » . اننا نعلم الآن ان التاريخ باشر عملية التنظيف والقولبة هذه يوم أسلم ستالين الروح — و « التاريخ » هنا لا يعبر عن ارادة « ارادة سامية » أو « قانون مطلق » ، وانما يعبر عن اعمال البشر الفعلية التي تحركها حاجاتهم وأفكارهم . ان حاجات المجتمع السوفييتي في ختام تلك الحقبة العظيمة والقاتمة معاً ، والافكار التي ورثها هذا المجتمع من ثورة اكتوبر هي التي دفعت العناصر المتقدمة الى تصفية الستالينية . كان القول بان « العناصر الايجابية الثمينة العديدة التي خلفتها الستالينية سوف تتغلب ، في المدى البعيد ، على العناصر السلبية » ، يبدو ضرباً من التفاؤل الاخرق في اواخر الاربعينات . لكن هذا التكهن تحقق هو ايضاً ، بالرغم من ان النزاع بين العناصر المتناقضة في الميراث الستاليني لم ينتهِ بعد . فالسمة الرئيسية للمجتمع السوفييتي خلال العقد الاول بعد ستالين

(*) انظر الفصل الرابع عشر .

هي ذلك التناقض بين اندفـاعه الاجتماعي والاقتصادي – الذي ايقظته الثورة وشحذه الانتصار في الحرب العالمية الثانية – وبين ركوده السياسي والخلقي الناجم عن سنوات من الحكم الاستبدادي التي اطاحت بكل المراكز المستغلة للتفكير والممارسة السياسيّين . وفيما كانت المصلحة القومية تقضي بتغيير الحكومة ونمط الحياة في الاتحاد السوفييتي على نحو جذري ، لم تخرج من صفوف الشعب قوى سياسية منظمة قادرة على إحداث هـذا التغيير أو على ممارسة الضغط الفعال من اجل إحداثه . فلم تتوافر بالتـالي إمكانية فعلية لقيام ثورة تقضي على الاستبداد البيروقراطي . كذلك لم يتمخض المجتمع عن حركـة منظمة تدعو الى الاصلاحات التدريجية . فاذا بالامكانية الوحيدة المتبقية هي ان يأتي الاصلاح **من فوق** ، من الفئة الحاكمة نفسها ، أي من اعوان ستالين وأفراد بطانته. وهذا هو الظرف الذي طبـع « حملة تصفية الستالينية » سلفاً بالتردد والتناقض والانتهازية .

وبالمناسبة ، لم تكن تلك المرة الاولى التي تواجه فيه الحـاجة الى تغيير عميق في نمط الحياة الروسية بأساليب بيروقراطية فوقية بحتة . لمئـة سنة خلت ، وبعد وفاة القيصر نيقولا الاول ، اصدر ابنه اسكندر الثاني قانون الغاء القنانة ، وهو اعظم إصلاح في تاريخ روسيا ما قبل ثورة اكتوبر . وعندما جاء وفد من الاقطاعيين اصحاب الاقنان يحتجون الى القيصر ظناً منهم انه قد تخلى عنهم ، أجابهم : « من الافضل ان نلغي القنانة من فوق بدلاً من الانتظار حتى تلغى من تحت » . كذلك قرر شركاء ستالين وخلفاؤه انـه من الافضل الغاء السمات السلبية البشعة للستالينية من فوق بدلاً من الانتظـار حتى تلغى من تحت . ولكن ، مثلما عجز إصلاح القيصر الوسطي القاضي بتحرير الفلاحين عن حـل مشكلة الارض في روسيا ، كذلك فان حملة مالنكوف وخروتشيف لتصفية الستالينية لم تشبـع حاجات الاتحاد السوفييتي الى الاشتراكية ولا هي حققت تطلعه الى الحرية . فما زال التاريخ بحاجة الى « تنظيف وقولبة » ميراث ستالين .

* * *

اعلنت وفاة ستالين صباح السادس من آذار ١٩٥٣ . وأعلن بيان طبي رسمي انـه اصيب ، قبل ذلك بستة ايام ، بنزيف في الدماغ وبشلل افقده النطق والوعي . وفي ليلة الرابـع من آذار ، اصيب بنوبة ثانية أثرت في قلبه وجهازه التنفسي ، ففارق الحياة في الساعة التاسعة والنصف من مساء اليوم التالي وهو في الثالثة والسبعين من العمر .

أتاحت فترة مرضه القصيرة ما يكفي من الوقت لكي يقرر خلفاؤه كيف يواجهون البلد ويتفقوا على توزيع مؤقت للمناصب العليا في الحزب والدولة. وتجمع الروايات على ان الامة تصرفت ازاء الحدث على نحو متناقض ـ هذا التناقض الناجم عن تعقيد شخصية ستالين نفسه وازدواجيتها: بكى البعض بمرارة، وتنهد البعض الآخر بارتياح؛ لكن الغالبية اصيبت بذهول وراحت تخشى التفكير بالمستقبل. تقدم خلفاؤه بخطى ثقيلة. فقد كانوا مجرد ظلال له في حياته، فبات متعذراً عليهم الآن ان يحكموا البلد على هذا النحو. كذلك لم يكونوا على استعداد لأن يغدقوا على الميت عبارات المديح والثناء التي اغدقوها عليه وهو بعد على قيد الحياة؛ لكنهم يخشون عواقب ذلك في آن معاً. وحتى الراغبين منهم بالانعتاق من طقوس عبادته ـ وقد كانوا رؤساء الكهنة في هذه العبادة ـ راحوا يرتعدون من مجرد التفكير بحالة الفوضى والاضطراب التي قد تنجم عن أية بادرة قد توحي بادانة ستالين. لذا، عندما القى مالنكوف ومولوتوف وبيريا خطبهم خلال المأتم، تحدثوا عن مآثر الرجل بصوت خافت وبتحفظ غريب. خلال المأتم، تحركت جموع غفيرة من المواطنين، من تلقاء نفسها، نحو الساحة الحمراء. وبما ان السلطات لم تكن تتوقع هذا الحشد الضخم، تعذر على رجال الميليشيا ضبطه. جفل الجمع، ومات العديد من النساء والاطفال سحقاً تحت الاقدام. وكانت مثل هذه الكوارث تحدث في الماضي، خلال مآتم القياصرة أو الاحتفالات بتتويجهم.

أُنزل نعش ستالين الى الضريح في الساحة الحمراء وأودع الى جانب نعش لينين. وفي الليل، نقش اسمه الى جانب اسم لينين على جدار الضريح. أما الآن، فقد نقل النعش من الضريح وازيل الاسم من على الجدار. ان شبح ستالين لا زال يقض مضاجع ذريته، ولا يزال ميراث نظام حكمه يربكها فيتعذر عليها السيطرة عليه أو تجاوزه. لذا، قررت في الوقت الحاضر ان تمحيه من ذاكرتها.

فهرست

الفصل الاول	: الطفولة والشباب	٧
الفصل الثاني	: « العالم السفلي » الاشتراكي	٣٣
الفصل الثالث	: سنة ١٩٠٥	٥٩
الفصل الرابع	: كوبا يتحول الى ستالين	١٠١
الفصل الخامس	: سنة ١٩١٧	١٣٩
الفصل السادس	: ستالين في الحرب الاهلية	١٨٧
الفصل السابع	: الامين العام	٢٤١
الفصل الثامن	: التحول العظيم	٣١١
الفصل التاسع	: الآلهة العطشى	٣٦١
الفصل العاشر	: الكومنترن والسياسة الخارجية الفترة الأولى (١٩٢٣ – ٩٣٣)	٤٠١
الفصل الحادي عشر	: الكومنترن والسياسة الخارجية الفترة الثانية (١٩٣٤ – ٩٤١)	٤٣٣
الفصل الثاني عشر	: ستالين في الحروب العالمية الثانية	٤٨١
الفصل الثالث عشر	: طهران – يالطا – بوتسدام	٥١٩
الفصل الرابع عشر	: جدلية الانتصار	٥٦٧
الفصل الخامس عشر	: سنوات ستالين الاخيرة	٥٩١